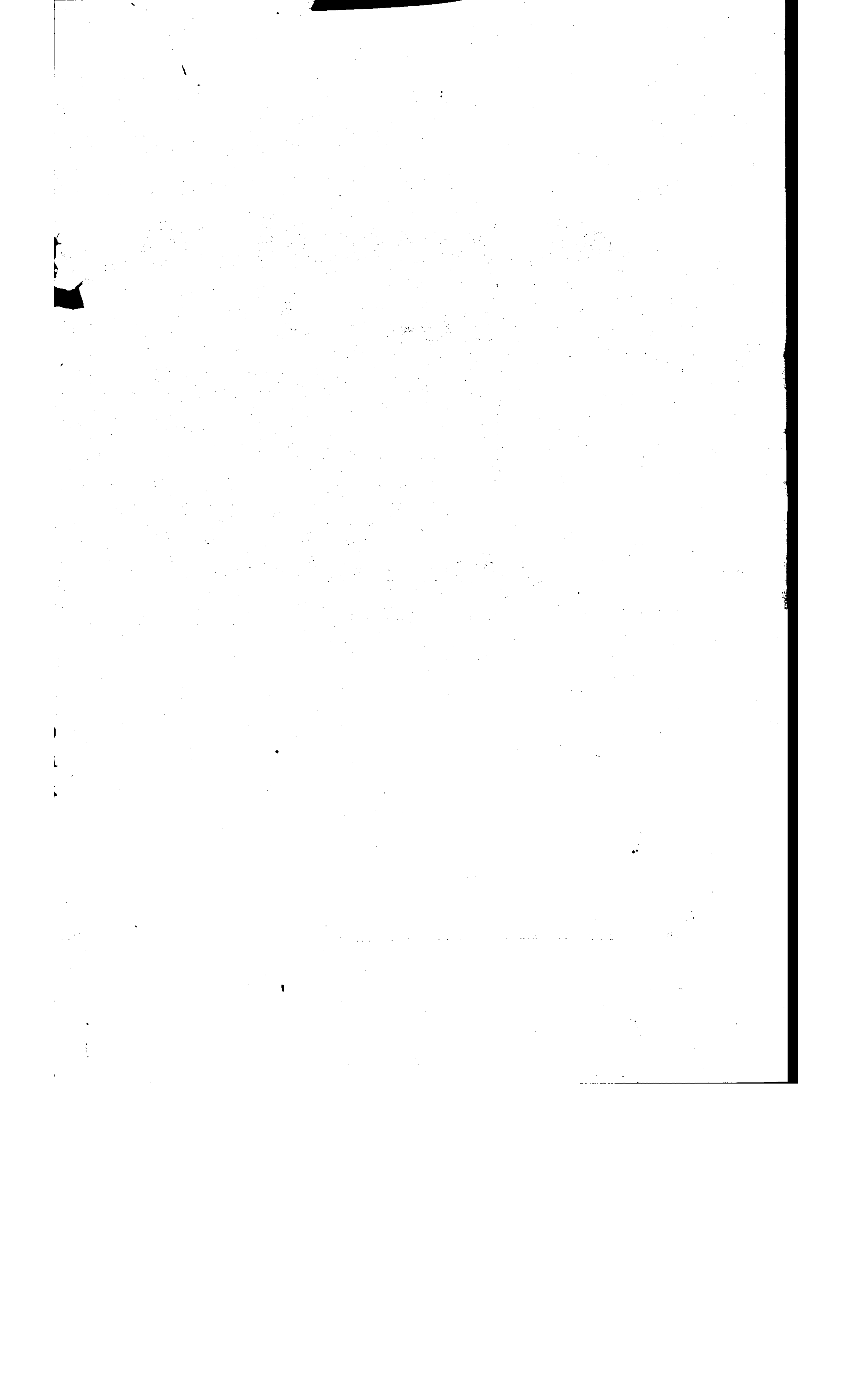
التطور الاقتصادى والاجتماعى
فى الســودان
١٨٤١ - ١٨٨١

دكتور حمدنا الله مصطفى حسن
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة عين شمس

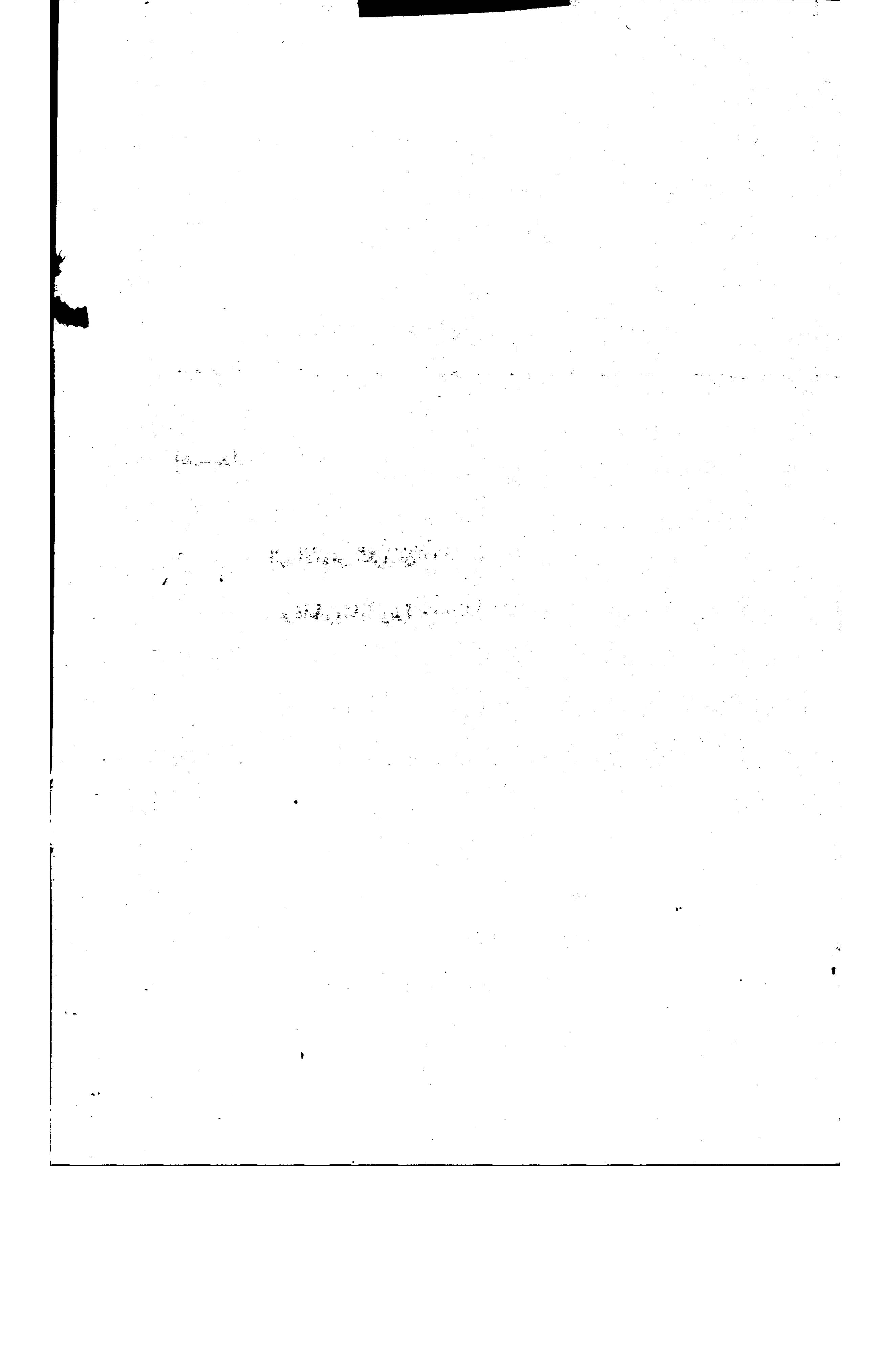
الطبعة الثانية



إهــــداء

إلى الأبوين الكريمين ...

عرفانا ووفاءً وبراً ...



المحتـــويات

[illegible]

المقـدمة

فى السنوات الأخيرة بدأ سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحـديث بكلية الآداب جامعة عين شمس ينهج نهجـا جديدا فى دراسـة التاريخ الحديث والمعاصر من خلال قيام أبنائه ، وبتوجيه من رواده ، الى إعطاء مزيد من الاهتمـام للتاريخ الاقتصادى والاجتماعى وغيره من جوانب التاريخ الأخرى والمتنوعة دونما الإغراق فى التاريخ السياسى الذى ظل لسنوات طويلة خلت صاحب القدح المعلى •

لذلك فقد آثرت ، جريا على هذا المنوال ، أن تـكون دراستى عن التطور الاقتصادى والاجتماعى للسـودان بين عامى ١٨٤١ ، ١٨٨١ • ولقد شكل العامان ــ اللذان بدأت بهما الدراسـة واختتمتها ــ أحداثا اقتصادية واجتماعية هامة وان بدت ــ للمولعين بالتاريخ السياسى ــ غير ذلك • فقد شهد العـام الأول بداية سـيل منهمر من التجار والمغامرين الأجانب نحو السودان ، مستظلين بمعاهدة لندن عام ١٨٤١ التى كانت تنص على تنفيذ معاهدة بلطة ليمان عام ١٨٣٨ المبرمة بين الدولة العثمانية وانجلترا ، وكانت المعاهدة الأخيرة تحوى بندا هاما ، وبالتحـديد البنـد الثانى الذى ينص على ضرورة السماح للدول الأجنبية بالإتجار فى أملاك الدولة العثمانية ومنها مصر والسودان أيضا ، ذلك لأن السودان أصبح بمقتضى فرمانى ٢٣ مايو وأول يونيـة عـام ١٨٤١ يحـكم بواسـطة محمد على • وهذا يعنى سريان المعاهدات التى أبرمتها الدول مع الدولة العثمانية • كـذلك فإن عـام ١٨٤١ كان ذا مغزى إقتصـادى فى مصر والسودان ، فمصر كانت خارجة لتوها من أحـداث الشام وما أعقبها من تدهور مالى للبـلاد ، لذلك فلا عجب أن نشهد وثائق القلعة ــ بالذات ــ فى هذا العـام تفيض بالمراسلات بين محمـد على والقائمين على شئون السودان فى كيفية زيادة موارد البلاد • بالاضافة إلى ما شهده السودان

فى هذا العـــام من استمرار حمـــلات سليم قبطان فى النيل الأبيض لفتح آفاق جديدة للتجارة السودانية • أما عام ١٨٨١ الذى شهد بداية الثورة المهدية فى السودان ، فقد كان نتيجة طبيعية ومنطقية لأحداث اقتصادية واجتماعية فى البلاد وأعنى بها تجارة الرقيق ذات الأبعاد الإقتصـــادية والاجتماعية ، كما شهد هذا العام أيضا تدهورا خطيرا لمالية الســودان كانت مواكبة ، الى حد بعيد ، لتلك التى جرت فى مصر • ولعل تقـــرير رءوف باشا ــ حكمدار السودان ــ الذى قدمه فى ٢٨ مايو ١٨٨٠ ثم ميزانية السودان عام ١٨٨١ يؤيدا تماما ما ذهبنا إليـــه ويقيما البرهان ســـاطعا •

وينبغى أن أشـــير الى أننى حاولت ــ قدر المستطاع ــ أن أتوخى المنهج العلمى مقرونا بأمانته فى عرض هذه الدراســـة ، طارحا الأهـــواء الشخصية التى لا تتفق والبحث العلمى •• كان سبيلى فى هذا المنهـــاج أن أترك الوثائق لتروى الوقائع • ولذلك فقد حفلت الدراســـة بكثير من نصوصها الأصلية • ليس معنى ذلك أننى وقفت منهـــا موقف المتفـــرج بل تدخلت بالتعليق عليها حينا ثم بالتحليل حينا آخر فى محـــاولة للخروج بنتائج جـــديدة •

وقد حوت هذه الدراسة تمهيدا وثمانية فصول • تناولت فى التمهيد أوضاع السودان الاقتصادية والاجتماعية بين عامى ١٨٢١ ، ١٨٤١ مركزا على مســـألتى الأرض ونشأة المـــدن وما صحبهما من تطور اقتصـــادى واجتماعى •

وفى الفصل الأول عرضت للتطورات الزراعية التى مر بهـــا السودان من حيث الأرض ووسائل الإنتاج الزراعى • وفى الفصل الثانى ناقشـــت موضوع الثروة المعدنية والصناعة من خلال البحث عن المعادن ، والحديث عن أهم الصناعات والحرف التى كانت منتشرة ثم البحث عن العوامل التى أدت الى تأخر قيام صناعة سودانية • أما الفصـــل الثالث فقد تنـــاول

التجارة والمواصلات • وأمام الصلة العضوية والمنهجية بين موضوعاته عمدت الى تقسيمه إلى ثلاثة أقسام : الأول وتتناول التجارة الداخلية فى أقاليم السودان المختلفة من جنوبه الى وسطه وشماله ومن شرقه الى غربه ، عارضا لأهم مراكز السودان التجارية وما كان يتميز به كل واحد منها ، كذلك فقد عرضت للتجارة الأجنبية فى السودان مبينا مراميها القريبة والبعيدة وما انتهت اليه •

وقد اقتضت الدراسة أن أعرض لموضوع التجارة مع مصر ضمن التجارة الداخلية ، اذ لم يكن المسئولون حينذاك يفرقون بينهما ، فقد كانتا تسيران وفقا لأوامر ولوائح متشابهة •

والقسم الثانى خصص للتجارة الخارجية مع الحبشة وبلاد شبه الجزيرة العربية وما جاورها ومع شمال وغرب أفريقيا ، أما القسم الثالث فكان خاصا بالمواصلات على اختلاف أنواعها من برية ونيلية وبحرية • وفى الفصل الرابع عرضت للتطور الضرائبى والمالى فى السودان والى أى مدى كان هذا التطور مسئولا عما حدث عام ١٨٨١ وما قبله • وفى الفصلين الخامس والسادس درست المجتمع السودانى من حيث تركيبه السكانى والقبلى وعاداته وتقاليده ، مبينا التنوع الشديد بين سكانه من خلال الأصول العرقية ، الأمر الذى أفرز عادات وتقاليد متباينة أيضا • ولم أستطع أن أغض الطرف عن دراسة بناء القبيلة السودانى والذى كان سمة أساسية لهذا المجتمع • وفى الفصلين الأخيرين ــ السابع والثامن ــ عرضت للطرق الصوفية ثم التعليم والثقافة حيث انتشرت الطرق فى طول البلاد وعرضها ومارست دورها الدينى والاجتماعى ، تاركة آثارا جلية على ثقافة المواطن السودانى وحياته الاجتماعية ، كما بينت فى الدراسة الى أى مدى كانت هذه الطرق مركزا تجمع حوله السودانيون من كل عرق ، بحيث يمكن القول دون تردد إنها قد لعبت دورا أقرب ما يكون الى الدور الذى تلعبه الأحزاب فى أوربا •

أما الجانب التعليمى فقد غلب عليه الطـابع الدينى حيث انتشرت الخلاوى فى أرجاء البلاد تؤدى دورها من خلال عمليات الدعم ســواء أكان نقودا أو أراض أو حتى فى صــورة حبوب •

وقد بنيت أسس هــذه الدراســة على ركام ضخم من الوثائق ضمته خــزائن دار الوثائق والمحفوظات ، وتنــوع بتنوع دواوين الحـكومة ومصالحها فى القــرن التاســع عشر ، بالاضــافة الى وثائق الخارجية البريطــانية والخارجية الأمريكية والخارجية الفرنســية أو ما يعــرف بالأرشيف الأوربى بدار الوثائق القومية بالقلعة • كمــا اعتمدت هــذه الدراسة على كثير من الوثائق المنشــورة وكتابات الرحــالة ، والدوريات المعاصرة للأحــداث والدراسات العربية والأجنبية مما هو مسجل بثبت المصــادر •

وفى الختام أجد من الأمانة العلمية أن أقدم الشكر خالصا والثنــاء عاطرا الى كل الهيئات العلمية التى وفرت لهذه الدراســة ولصاحبها كل سبل الرعاية ، وعلى رأســها دار الوثائق القوميــة بالقلعة — من خلال القائمين عليها — فقد عشت بينهم سنوات طويلة لم يبخلوا فيها بشىء ، وكــذلك مكتبات دار الـكتب المصرية والجامعــات المصرية ، والجمعية الجغرافية والجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، وجميع مراكز البحوث التى أعانتنى على إخراج هذا العمــل • كما لا يفوتنى أن أشيد بالمنــاخ العلمى الرفيع الذى أحاطنى به سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب جامعة عين شمس • ومن واجب العرفان أن أشكر أخى الدكتور أحمد زكريا ، على تشجيعه وعونه لى • كمــا اننى أخص بالثناء استاذى العزيز الدكتور عبد الخالق لاشين الذى غمرنى بفيض من علمه الغزير ، الأمر الذى يجعل قلمى عاجزا عن صياغة ما يكنه قلبى له ، فقد استمعت إليه كثيرا كما كتب إلى وهو فى الخــارج أكثر ، موجها ومرشــدا وناصحا •

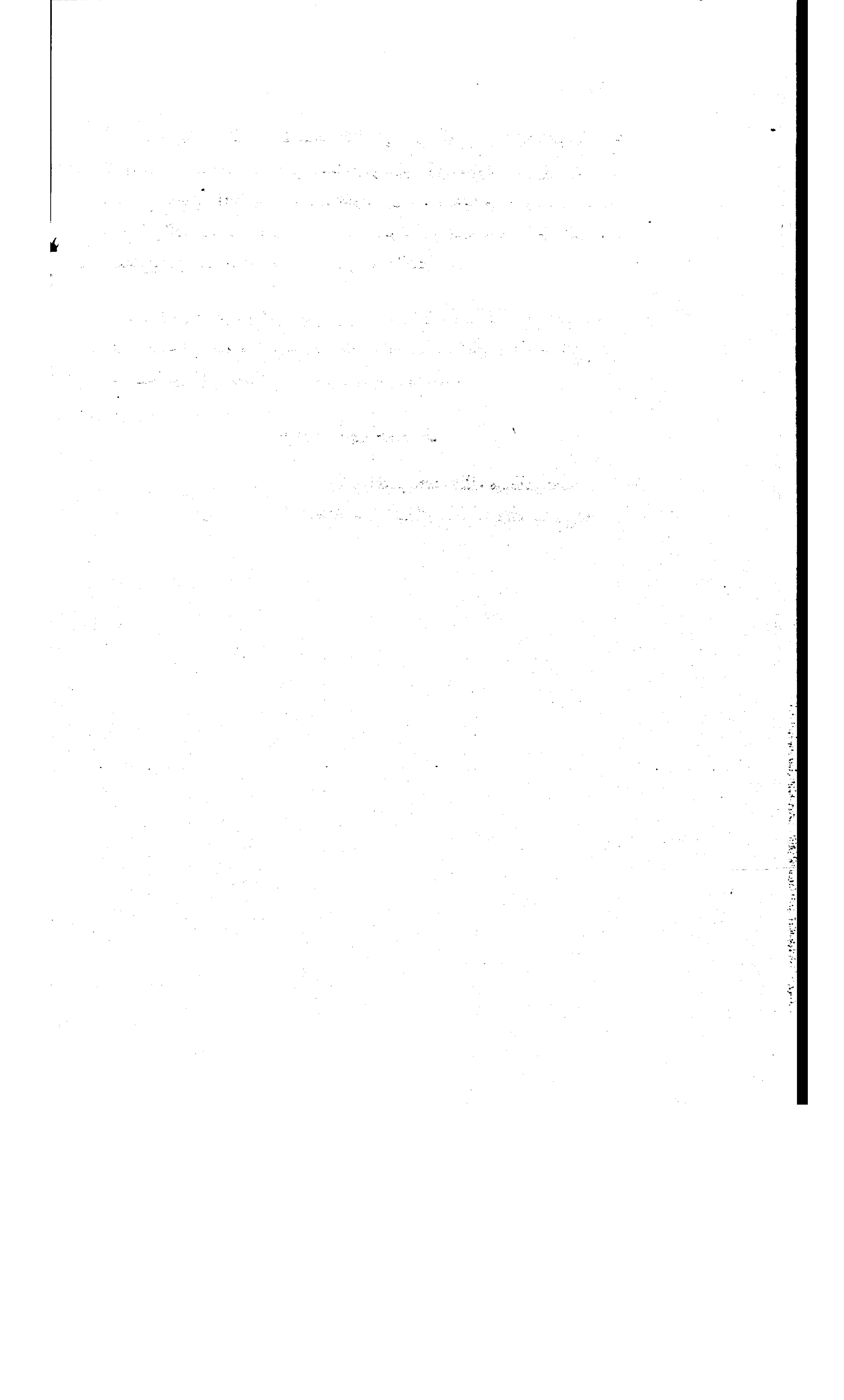
أما استاذى الكريم الاستاذ الدكتور عبد العزيز نوار استاذ التاريخ الحديث بكليتنا والمشرف على السمنار ومدير مركز بحوث الشرق الأوسط ، فقد أسبغ على هذه الدراسة وصاحبها كل رعايته وعلمه وكرمه .. فقد فتح لى كل الأبواب وذلل كثيرا من عثرات البحث فأضاء لى الطريق باستاذيته وريادته ، فجزاه الله عنى خير الجزاء .

وأخيرا فإننى أرجو أن أكون قد وفقت فى الإجابة على بعض التساؤلات – التى تطرحها مثل هذه الدراسة – من خلال النتائج التى توصلت اليها أو القضايا التى طرحت من خلالها .

والله ولى التوفيق

دكتور حمدنا الله مصطفى حسن

القاهرة ، حدائق القبة . فى أغسطس ١٩٨٤



تمهيـــــد

تطور السودان الاقتصادى والاجتماعى

١٨٢١ — ١٨٤١

- الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية قبيل عام ١٨٢١

(أ) الملكية الزراعيـــة .

(ب) النشـــاط التجـــارى .

(جـ) نظام البداوة وآثاره الاجتماعية .

(د) دخـــول الطرق الصوفية .

- التطورات الاقتصادية والاجتماعية بين عامى ١٨٢١ ، ١٨٤١

(أ) السياسة الاقتصـــادية .

(ب) الأوضاع الزراعية والتجارية والصناعية وتطورها .

(جـ) إنشاء المـــدن :

١ — مدينة دنقله الأوردى (دنقلة الجديدة) .

٢ — مدينة الخرطـــوم .

٣ — مدينة محمـــد على .

٤ — مدينة كســـلا .

الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية قبيل عام ١٨٢١ :

قد يكون من المفيد بداية أن نشير ، بشـــكل مركز ودون الولوج فى تفصيلات ، الى بعض القضايا المتعلقة بالنشاط الاقتصادى فى تلك المرحلة حتى يمكننا ادراك مدى التغيير الذى طرأ على هذا النشاط فى « المرحلة المصرية » التى بدأت بعام ١٨٢١ . ومن بين تلك القضـــايا التى تطرح نفسها وتنتظر الاجابة قضية الأرض أو نظام ملكية الأرض زمن السلطنة السنارية . ففى النوبة السفلى حيث كانت السيادة للكشاف الأتراك ، باستثناء دنقله ، خضعت الأرض لنظـــام الدولة العثمانية الاقتصـــادى الذى ينص ، بين ما ينص ، على أن الأرض ملك للســـلطان وليس للفلاح سوى حق الإنتفاع بالأرض التى يعمل بها لقاء ضريبة معينة للكاشف الذى تقع هذه الأرض ضمن دائرة نفوذه (١) . وأما دنقله فقد كانت خاضعة للسيادة السنارية ولنظامها الاقتصـــادى الذى تقوم فيـــه ملكية الأرض على النظام القبلى الذ كان سائدا فىالنوبة العليا . وفحوى هذا النظام — الذى نشـــأ وســـط تلك الممالك والمشيخات الصـــغيرة مثل الشـــايقية ، والمناصير ، والرباطاب ، والميرفاب والجعليين — أنـــه كان قائمـــا على انقاض الممالك والدويلات المسيحية أو الوثنية التى كان نظام ملكية الأرض فيها يستند أساسا على النظام الإقطاعى المطلق ، حيث كان رئيس الدولة أو المملكة هـــو المالك لجميع الأراضى فيمـــا عدا الأراضى الموقوفة على المعابد ، والأهالى فى عداد العبيد يعملون فيهـــا لمصلحة الحاكم أو رئيس المعبد أو من ينوب عنهما (٢) .

وما أن أتت الهجرات العربية الى السودان وحدث شىء من التطور فى حيـــاة المجتمع أصبحت الأرض توزع على الجمـــاعة ويقـــوم أفرادها

(١) بوركهارت : رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان : ترجمـــة فؤاد اندراوس . ص ٨ .

(٢) الشـاطر بصيلى عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادى النيـــل من القرن العاشر الى القرن التاسع عشر . ص ٥١ .

باستغلالها ودفع « الجعل » المعين لشيخ القبيلة أو زعيم الدار ، ويعتبر ذلك تطورا من النظام الإقطاعى المطلق إلى نظام يعطى الفـرد نصيبا من جهده فى الأرض بعد أن يتناول الزعيم أو الشيخ الاتاوة المقررة (١) • وقد ظل هذا النظـام سـائدا بين تلك المشيخات والممالك العربية عقب إنضوائها تحت الزعامة السنارية ، حيث كان الزعيم القبلى أو الشـيخ المحلى يقوم بتوزيع الأرض على أفراد رعيته كل حسب امكاناته وقدراته على العمل الزراعى ، فى مقابل ضريبة عينية شملت الرقيق بالاضـافة الى الخدمة البيتية • وكان الزعيم القبلى يبعث من جانبه جـزءاً من هـذه الضريبة الى زعيم الدار الذى يقوم بدوره بارسـال جزء منها الى سلطان سـنار (٢) •

وفى حوض النيل الأزرق وأرض الجزيرة كان يسود نظام الاقطاع • ويمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من هذه الاقطاعات فى الأراضى التى خضعت خضوعا مباشرا للفونج ، الأول ويسمى بالإقطاع العسكرى الذى خصص لقادة الجيش ليكون معاشه ومعاش جنوده منها ، فلم تكن لهم مرتبـات ثابتـة (٣) • وكان هؤلاء القـادة العسكريون زمن السلطنة السـنارية يقطنون مقاطعة « بروم » حيث خصصت لهم بعض الاقطـاعات يعيشـون عليها ، بالاضـافة الى جزء من غنائم الغارات التى كانوا يشنوها ضد الزنوج (٤) • والنـوع الثانى من الاقطاعات يمكن تسميته بالإقطـاعات الدينية ، فقد حرص ملوك الفونج على تدعيم ملكهم دينيا وثقافيا فأظهروا احترامهم لعلماء المسـلمين ، وهيأوا للمتصوفة مناخا طيبا فى البـلاد

---

(١) الشاطر بصيلى : نفس المرجع • ص ٥١ ، انظر ايضا : نسيم مقار : أحوال السودان الاقتصادية قبيل الفتح المصرى الأول • ص ٥٦ ، ٧٨ •

(٢) نفس المرجع السابق • ص ٦٤ ، ص ٦٦ •

(٣) نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، الجـزء الثالث • ص ٨ •

(٤) Cailliaud; Voyage a Méroé, au Fleuve Blanc, au dela de Fazogl dans Le midi du Royaume de Sennar, à Syouah et dans cinq autres Oasis, 1819-22. Tome II, pp. 291-292.

فجاؤا إلى سنار ــ ومنح هؤلاء العلماء إقطاعات ، ولم تكن السلطنة السنارية ــ فى اعتقادنا ــ تستن سنة جديدة فى هذا المجال تجاه العلماء ، فقد كان رجال الدين دائما فى كل العصور يلاقون هذه الرعاية ، فهم دائما حلقة الوصل بين الرعية والحكام ولسوف نشهد شيئا قريبا من ذلك فى خلال الادارة المصرية عندما راحت تمنح القائمين على التعليم الدينى أراض معفاة من الضرائب حتى يمكنهم القيام بالرسالة التعليمية على خير وجه • وقد أعفى سلاطين سنار الإقطاعات الممنوحة لرجال الدين من الضرائب أو أية التزامات أخرى (١) •

أما النوع الثالث من هذه الإقطاعات فكان خاصا بالأفراد العاديين ، وقام فيه مشايخ القرى بتوزيع الأراضى على المزارعين لقاء ضريبة تحدد حسب المحصول ، وكان هناك مندوبون من طرف السلطان مكلفين بتسوية الحساب مع المشايخ وتسلم مستحقات الملك (٢) •

ولقد كان من حق صاحب الاقطاع تأجير الأرض وتوريثها من بعده لذريته من الذكور والاناث طبقا للشريعة الاسلامية (٣) • ولكن انتقال الإقطاع من شخص إلى آخر كان لابد أن يتم بموافقة السلطة الذى هو المالك الأصلى للأرض وإصدار توثيق بذلك يحمل خاتمه حتى ولو كان صاحب الاقطاع من رجال الدين الذين منحت لهم الأرض هبة دون إلتزامات • ذلك ما ورد فى وثيقتين ترجعان إلى أوائل القرن الثامن عشر ، الأولى تمثل عقد للشيخ رحمه بن الشيخ يونس أمين السلطان تقر بتنازله عن قطعة أرض للشيخ يعقوب هبة لوجهالله ، والثانية بتصديق من جانب

---

(1) Arkell : Fung Origins, S.N.R. Vol. XV, 1932, p. 250.

(2) Cailliauld : Op. Cit. pp. 290-91.

(3) Reid : Some notes on the tribes of the White Nile province. S.N.R. Vol. XIII, p. 158.

السلطان على هذا العقد (١) .

وتتمة للفائدة فى موضوع الأرض قبل عام ١٨٢١ نشير الى سياسة سلاطين دارفور تجاهها . فقد وضع السلطان موسى بن السلطان سليمان سولونج أول سلطان من سلاطين الفور سياسة شاملة ازاء الأرض حيث اعتبر كل أراضى السلطنة ملكا خاصا له ، ثم مضى من جاء بعده من السلاطين على هذه السياسة ، يتصرفون فى الأرض كيفما شاءوا بالأخذ والعطاء (٢) .

ويذكر نعوم شقير أن السلطان موسى قد قام ــ وفقا لهذه السياسة ــ بتقسيم بلاد الحضر الى « حواكير » أو اقطاعات وزعها على أهله وأخصائه وكبار قومه بحجج مختومة بخاتمه فعاشوا بريعها ومزارعوها ، كما قام بتقسيم قبائل البادية فخص كل قبيلة بأمير من أبناء السلاطين أو بعين من الأعيان تجبى له زكاتها ، وكان المقاديم يجمعون الزكاة من البادية وملوك الجباه يجمعون « الفطرة والعشور » من الحضر ، وربما كان السلطان يتنازل عن نصيبه فى « الحاكورة » فيعطى صاحبها « حجة بالجاه » فلا يقربه أحد من الجباه أو المقاديم . وقد سار على هذا النظام جميع سلاطين دارفور الذين أتوا بعد السلطان موسى حتى انتهاء السلطنة (٣) . ويعلق الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم على ذلك قائلا : صحيح أن هذه السياسة التى وضعها السلطان موسى قد جعلت التصرف فى كل أراضى السلطنة بيد السلطان ، ولكن ينبغى الا نبالغ فى الأمر بحيث يأخذنا التعميم بعيدا عن الوضع . فقد كانت

---

(١) Arkell : Op. cit. pp. 248-250.
انظر ايضا نسيم مقار : المرجع السابق . ص ٣٠١ . وحول هذا الموضوع انظر الدراسة التى أعدها الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم تحت عنوان الفونج والأرض عام ١٩٦٧ .

(٢) محمد ابراهيم أبو سليم : الفور والأرض . ص ٥٦ .

(٣) تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته . الجزء الثانى ص ١٣٦ .

بعض البلاد بعيدة عن قبضة السلطان المباشرة بحكم المسافات أو الأوضاع المحلية أو أن بعضها كان عديم الفائدة بحيث لا تجعله يقوم بمباشرة سلطته فى التصرف (١) .

لقد كانت ملكية السلطان لأراضى السلطنة مطلقة من الناحية النظرية وأيدتها الأعراف ، إلا أن الواقع كان يجرى حسب الظروف القائمة فى المنطقة . ومن ناحية أخرى كان هناك قانون « دالى » * الذى ينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، كما كانت هناك أيضا الشريعة الاسلامية بمثلها ونظمها وأشراطها والتى كان من المفروض أن يلتزم السلطان بها فى تعامله وتصرفاته ، خاصة وقد كان احترام التقاليد والعلماء والعدالة أمورا يحرص الجميع عليها ، ولطالما تفاخر السلاطين فى وثائقهم بحمايتهم للعدالة ونشر الويتها ، وكانوا إذا حدث نزاع حول الأرض احتكموا الى القضاء الذى كان يأخذ بالشريعة والعرف معا . ومع ذلك كله فان إحترام العدالة والملكية أمر معنوى يتوقف على تصرف السلطان ومدى التزامه الأخلاقى ، فالسلطان لا سبيل إلى محاسبته ولا رقابة عليه (٢) .

ولقد كانت العطايا التى يمنحها السلاطين على ثلاثة أنواع : الأول كان « أمر الرواعية » وهم عربان من كردفان أو الصباح كما تذكر الوثائق ، أو من دارفور ، حيث يعطى السلطان أحد رجاله حق التصرف فى هؤلاء على اعتبار أنهم رعاة فى مقابل أن يجد الرعاة حق المرعى والحماية ويقوم هؤلاء برعى حيوانات الموكل من قبل السلطان مع القيام بدفع حق السلطنة . والنوع الثانى من العطاء يتعلق بالقبائل

---

(١) الفور والأرض . ص ٥٧ .

(*) قانون دالى : هو عبارة عن مجموع الأحكام العرفية . وقد جمعها الفور فى كتاب واحد . وكانت تشكل قسما رئيسيا مع القضاء الشرعى الذى يستند الى الكتابة والسنة .

(انظر نعوم شقير : المصدر السابق . ص ١٨) .

(٢) محمد ابراهيم أبو سليم : المرجع السابق ص ٥٨ .

الرعوية أيضا ولا يقتضى أن تكون القبيلة عربية . ولم يكن هـؤلاء الرعاة يدفعون الكثير من الحبوب ولكن ما يدفعونه من الابل والماشية والسمن كان كثيرا . وفى مقابل ذلك كانت القبيلة تنـال الحماية وحقوق المرعى . كما كانت لصاحب العطاء أيضا مسئولية ادارية تجاه القبيلة . والنـوع الثالث من العطاء هو قطع الأراضى التى تقـدم للأفراد وهو أهمها جميعا وينقسم الى نوعين : نوع يعطى لشخص يزرعه ويستفيد من انتاجه فى معيشته ، وغالبا ما يكون فى شكل قطع صغيرة توصف بأنها هبة أو صدقة ، وأكثرها ما كان يعطى للعلمـاء والفقـراء . والنـوع الآخـر ويسمى « بالحاكورة » وهى قطعة أرض كبير ، يختص السلطان وحده بمنحهـا عن طريق وثيقة تسجل فيها حدودها وكافة الشروط (١) .

ويشير التونسى الى الاقطاعات التى كانت تمنح للأفراد فى دارفور ، ومن بينها الاقطاع الذى منحـه السلطان عبد الرحمن لوالد التونسى . وفيه يتضح تماما خلوه من أية التزامات أو ضرائب حيث كان يحق له أن يتصرف فيه كيفمـا يشاء ، لأنـه على حـد قول الوثيقة « هبة لوجـه الله تعالى » (٢) .

ويذكر التونسى أيضا أنه كان للسلطان أراض خاصة يقوم بزراعتها الأهالى دون مقابل ، كما كان لحكام الأقاليم مزارع خاصـة أيضا يقوم على زراعتها الأرقاء والأهالى (٣) .

ويقترب نظام ملكية الأرض بكردفان وتقلى من ذلك ، فكان أيضـا يقـوم على أسـاس أن جميع الأراضى كانت ملكا للملك الذى يمنحهـا

---

(١) محمد ابراهيم أبو سليم : المرجع السابق . ص ٥٩ وما بعدها .
(٢) تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان . ص ٦٧ ، أنظر أيضا نفس المصدر ص ٦٩ نص الوثيقة التى منح بمقتضاها والد التونسى اقطاعا بجهات دارفور .
(٣) نفس المصدر . ص ١٧٧ .

للأفراد بقصد الاستغلال مقابل جزء من غلتها فى صورة ضريبية (١) .

ذلك ماكان يجرى بالنسبة للأرض الزراعية ، أما فى مجـال التجارة فيمكن القول إن السلطنات الوطنية والمشيخات والممالك التى نشأت فى السودان قبل عام ١٨٢١ قد ارتكز نشاطها الاقتصادى بشكل أسـاسى على التجارة ، وكان زعماؤها من سلاطين وشيوخ ومكوك من أكبر التجار . وقد اشتهرت فى ذاك العصر مدن تجارية عديدة مثل الدر وأبريم ودنقلة وبربر والدامر وشندى فى النوبة ، وسنار والعطبرة وقوز رجب وسواكن فى شرقى السودان ، والأبيض وباره فى كردفان ، والفاشر وكـوبه فى دارفور ، فجميعها كانت مراكز للتجارة . وأهم سلعة كانت تتداول آنذاك وتكاد تكون السلعة الرئيسية لجميع تلك المراكز هى الرقيق الـذى كان يمثل ٣٨٫٨٪ من حجم تجارة دافور وسنار (٢) . وأهم ما يلاحظ على النشاط التجارى آنذاك هو غياب الإدارة المنظمة التى تشرف على أمـور التجارة ، اللهـم إلا اذا استثنينا الضرائب والمكوس التى كانت تفرض على القوافل ، كما أن تلك السلطنات والمشيخات لم تكن تخضع لسياسة تجارية موحـدة ، فليست هنـاك عملة مشتركة بينهـا أو نظـام ثابت للضرائب .

وفيما يتعلق بالحرف فلا نكاد نلمح تطورا ملموسا لها فقد كان جلها آنذاك يدويا بسـيطا ، وكان هذا شيئا طبيعيا لمجتمع حاجاته محـدودة الى جانب أنه يأنف العمل اليدوى حيث يغلب عليه طابع البداوة .

أما البناء الاجتماعى للسودان فى ذلك الوقت فيمكن القول إنه كان يستند الى قاعدة سكانية متنوعة قوامها القبيلة . فمن بجـاه فى الشرق على ساحل البحر الأحمر الى نوبيين فى الشمال فقبائل عربية على طـول

---

(١) نسيم مقار : المرجع السابق ص ١٦٤ .

(٢) Terence Walz; Trade between Egypt and Bilad AS - Soudan. 1700 - 1820. p. 36.

وانظر ايضا بوركهارت : المصدر السابق . ص ٢١٣ ، ص ٢٥٢ .

النهر وأخـرى متفرقة فى أرجـاء السـودان ، الى مجموعات سكانية زنجية وعربية بدارفور وكردفان ، وزنجية خالصة فى الجنوب .

نظام البداوة وآثاره الاجتماعية :

كان الرعى قبيل ضم السـودان عام ١٨٢١ هـو الحرفة الرئيسية لغالبية سكانه . ويميز البعض بين عدة أنواع للبداوة ، فهناك نوع يومى بين الصباح والمسـاء ، وآخر موسمى : فخلال موسم المطر يهبط الرعاة من الجبال الى السهول بين عطبره والنيل حيث تكثر المراعى ، وفى الصيف يفرون من السهول الجـافة المحرقة الى الجبـال المرتفعة حيث عيـون الميـاه والمرعى . وهنـاك نوع ثالث من تلك الانتقالات أو الهجـرات الجماعية والذى كان يشترك فيه الرعاة والحضر ويسمى بالنجيع والذى يكون تخلصا من الجدب كلما انخفض النيل أو فرارا من وباء الجـدرى الخطـير (١) .

ونظام البداوة هـذا ، كان من أبرز الظواهر البشرية للرعاة حيث تتحرك الجموع الهائلة من الحيوان ، وقبائل بأكملها أو أجـزاء منها ، تتحرك عبر الصحراء والوديان والسهول صاعدة الجبال ومنحـدرة منه ، آمنة متباطئة حينا ، أو وجلة مهرولة حينا آخـر هربا من الخطر ، محدثة من الثغاء والرغاء والصهيل والنباح والصراخ ، منتقلة بخيامها ومشاكلها اليومية المألوفة . فاذا وصلت المهجر تعقد صلات ود وألفـة قد تنتهى بعقد مصاهرات مع سكان المنطقة ، أو ربما تثير خصومة تؤدى الى اراقة الدماء بينهما . وفى كلتا الحالتين تتفق الآراء أو تختلف ، وتتفرق البطون المتحالفة أو يتحالف البعض مع قبائل أخـرى فتضعف بطون وتقـوى أخرى ، وتبرز قيادات جديدة تغير تاريخ القبيلة .

---

(١) حسين كامل أبو الليف : مرحـلة من مراحل التطـور السـياسى والاجتماعى فى السودان . المجلد الخامس من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . ص ٩٧ وما بعدها .

ومن الآثار الاجتماعية التى نجمت عن هذا النظام تفـرق السكان السودانيين الى جماعات صغيرة العدد متركزة فى مواطن متباعدة ، الأمر الذى أدى الى قلة العمران . وأصبحت الهجرة الى أمـد معلوم أو حتى الى غير عودة شيئا مألوفا ، فلم يعرف السودانى ــ آنذاك ــ الالتصاق الشديد بمكان محـدود كما كان الحال لدى فلاحى مصر .

دخـول الطرق الصوفية للسودان :

ومن الظواهر الاجتماعية الملفتة للنظر أيضـا فى تلك الفترة ظاهرة الطرق الصوفية التى بدأت تنمو فى السلطنة السنارية .

لقد هيأ المنـاخ السياسى والثقافى للمجتمع آنذاك أن تتبوأ هـذه الطرق مكانة كبيرة بين أفراد المجتمع ، فقد كانت بمثابة الزاد الفكرى الذى يرتوى منه الرجل العـادى الذى تلقى تعليما بسـيطا ، فلم يكن يستطيع أن يناقش بعض الأمـور أو الظواهر الخارقة ــ وما أكثرها ــ التى كان يبديها بعض شيوخ هـذه الطرق ، وما كان لهـؤلاء الأفراد الا أن يتقبلوا هذه الخـوارق التى لا تقـوى عقولهم على مناقشتها . كذلك فقد ساعدت الأوضاع السياسية على أن تجـد هذه الطرق التربة الملائمة لكى تنمو ، فقد كان السـودان آنذاك مفكك الأوصـال تتنازعه سلطنات وممالك ومشيخات راح كل سلطان و « مك » لها يقنـع بدائرته الضيقة غير ملتفت الى ضرورة خلق كيانات موحـدة ذات حجم كبير ، ومن هنا كانت هذه الطرق الصوفية هى البديل السياسى لكى ينضـوى فى صفوفها كل أبناء المجتمع السودانى من شـماله وجنوبه الى شرقه وغربه ، وتلاقت على باب حلقة شيخ الطريقة ــ على حد قول البعض ــ « نعال الفونج والعرب » (١) .

---

(١) ود ضيف الله : مقـدمة كتاب الطبقـات فى خصـوص الاولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان . ص ١١٨ .

هكذا كانت بنية السودان الاقتصادية والاجتماعية قبيل عام ١٨٢١ .. اقتصاد متخلف وأوضاع اجتماعية مترديه ، تلاها على القمة وضع سياسى مفكك حتى جاءت رياح الشمال لتسوق اسماعيل كامل لضم هذا الشتات ومحاولة انشاء نظام اقتصادى واجتماعى جديد .

التطورات الاقتصادية والاجتماعية (١٨٢١ ــ ١٨٤١) :

لقد بات من العسير أن يتطور الاقتصاد السودانى فى المرحلة السابقة من الشكل البدائى ذى الطابع القبلى ، طالما كان التفكك السياسى والادارى هو الطابع السائد بين سلطناته ومشيخاته . فلما خضعت البلاد لادارة واحدة منذ عام ١٨٢١ ، أصبح لهذه الادارة الجديدة سياسة اقتصادية تستمد نظمها وقوانينها من مثيلتها فى مصر ، وتعتمد أساسا على تنمية واستغلال موارد البلاد المتنوعة . وتتضح هذه السياسة حين خاطب محمد على بعض المشايخ والزعماء السودانيين قائلا : « إنه لا ينقصكم شىء لكى تنجحوا فلديكم الأراضى الواسعة ، كما عندكم الكثير من الماشية والغابات الشاسعة ، وشعبكم كثير العدد كما أن رجالكم أقوياء أشداء ونساءكم كثيرات الولادة . وقد كنتم « لغاية » هذا الوقت بدون مرشد يقودكم ويأخذ بيدكم ولكن ها هو قد جاءكم هذا المرشد ، وهذا المرشد هو أنا فأطيعونى واعملوا بنصائحى وحسب ارشاداتى وسوف أقودكم الى المدنية وأجلب لكم الرخاء ... إن مصر ليست بالاقليم الواسع المترامى الأطراف ولكنها بفضل العمل والصناعة وبفضل نشاط سكانها أصبحت عظيمة وسوف تصبح أغنى من ذى قبل ، وهذا أيضا معروف عن كافة البلاد الأخرى . وإذا صرفنا النظر عن مشارق السودان ومغاربه واكتفينا بجزيرة سنار لرأينا أنها من جهة الرقعة أكثر من عشرة أضعاف مساحة مصر ولكنها تكاد لا تنتج شيئا لأن سكانها كسالى لا يميلون للعمل . وان الانسان اذا توانى ولم يسع ، لن ينال المقصود . ضعوا فى رءوسكم جيدا انكم بدون عمل لا تستطيعوا

أن تحصلوا على شيء ... » (١) .

من بين فقرات هذا الخطاب السابق يمكننا أن نستخلص الخطوط العامة لسياسة محمد على الاقتصادية فى السودان منذ ضمه عام ١٨٢١ والتى تتمثل فى دعوة السودانيين الى استغلال مواردهم الطبيعية والبشرية ، ولفت أنظارهم الى أسس بناء هذا الاقتصاد المتمثل فى الأرض الواسعة والثروة الحيوانية والنباتية ، بالاضافة الى الأيدى العاملة القوية والتى يمكن زيادتها بزيادة النسل ، وأخيرا تكتمل أسس هذا البناء بمجىء المصريين الذين يمثلون الخبرة الجديدة المتطورة التى كانت لها تجربتها القوية والراسخة . لقد ركز الباشا على العمل والصناعة مطالبا الاستفادة من موارد البلاد المحلية ، وكأنه بذلك كله يرسى قاعدة اقتصادية مؤداها ان نهضة أى بلد ، اقتصاديا ، لا يمكن أن تأتى كلية من الخارج بل لابد من تسخير كافة الموارد الداخلية من طبيعية وبشرية لخلق اقتصاد قوى . هكذا كانت سياسة محمد على الاقتصادية فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، وقد لا نسرف القول إن خلصنا إلى أن هذه الأسس والأفكار التى طرحت آنذاك أصبحت — أخيرا — حقائق ثابتة لدى رجال الاقتصاد فى القرن العشرين .

لقد راحت الادارة المصرية تنفذ برنامجها السالف فى كافة المجالات ، ففى مجال الزراعة أمدت مصر السودان بما تحتاجه من الخبراء والفنيين فى شئون الرى والزراعة ، حيث قاموا بشق الترع واقامة الجسور الجديدة فى كافة مديريات السودان (٢) كما أرسلت أعدادا كبيرة من

---

(١) محفظة رقم ١٢٣ — ملف متفرقات — دوسية بدون تاريخ — السودان ١٢٥٤ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة ، انظر ايضا : الدكتور انجلو ساماركو : رحلة محمد على الى السودان تعريب طه فوزى ص ٩ — ١٠ .

(٢) دفتر رقم ٧٦٣ ، ديوان خديوى ، ترجمة المكاتبة التركية رقم ٣٠٨ بتاريخ ١٩ ذى الحجة سنة ١٢٤٥ هـ . من مأمور ديوان خديوى الى مأمور ميت غمر والسنبلاوين . دار الوثائق القومية بالقلعة ، انظر ايضا : الوقائع المصرية العدد رقم ١٢ بتاريخ رمضان سنة ١٢٤٤ هـ . ص ١٦ .

« الخولية » إلى سنار لتنفيذ البرامج الزراعية هناك (١) .

ونود أن نشير هنا الى حقيقة هامة وهى أن الجيش المصرى — فى هذه المراحل الأولى لبدء الادارة المصرية فى السودان — قد حمل على كاهله الى جانب مهامه العسكرية ، عبء المشاركة فى الاصلاحات الإقتصادية ، فقد إعتمد محمد على بشكل رئيسى على الجيش ، وكان الحكمدار ، قمة الجهاز الإدارى فى السودان ، ومديرو المديريات وسائر الكتبة — والذين كانوا جميعا من العسكريين — هم القائمين أيضا بالاشراف على تنفيذ البرامج الاقتصادية (٢) .

وقد تفانى هؤلاء الضباط وجنودهم فى تنفيذ تلك البرامج ، فكان على حد قول البعض ، « لا يمضى ستة أشهر على إنشاء معسكر للجنود المصرية فى السودان وإقامتهم فى معسكرهم حتى يكون من المؤكد ظهور الزرع والخضر .. » ، فالمصرى — كما يؤكد أحد الدارسين — ميال بطبيعته لغرس الحدائق والبساتين ، وفى أى مكان يحل فيه يتوقع المرء أن يجد بجواره بستانا (٣) . وكان بعض الضباط يقدمون عروضا لإنشاء سواقى فى بعض المديريات كدنقله وبربر ، والبعض الآخر ، كان يأخذ على عاتقه مهمة ابادة جيوش الجراد ، وحفر الآبار وتطوير بعضها (٤) .

هكذا جرت محاولات محمد على فى تنفيذ برنامجه الزراعى لأنه لم يكن يرمى الى اصلاح شىء موجود أصلا ، كما كان الحال فى مصر ، بل كانت محاولاته خلقا جديدا لشىء لم يكن موجودا من قبل .

---

(١) دفتر رقم ٢٠ ، معية تركى ، ترجمة البيورلدي رقم ٣٢٩ بتاريخ ٢٣ رجب سنة ١٢٤١ هـ . مرسوم . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) حمدنا الله مصطفى : الجيش المصرى ودوره فى الادارة المصرية بالسودان بين عامى ١٨٢٠ — ١٨٤٨ . ماجستير غير منشورة . كلية الآداب جامعة عين شمس . ص ١٦٣ .

(٣) Deherain : Le Soudan Egyptien Sous Mehemet Ali. p. 210.
انظر ايضا : عبد الله حسين : السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية . الجزء الاول . ص ٩١ .

(٤) حمدنا الله مصطفى : المرجع السابق . ص ١٦٤ .

وفى مجال الصناعة لا يمكننا القول بأن السودان قد شهد نشاطا إقتصاديا فى تلك الفترة القليلة نسبيا ، فقد كان الأمر يتطلب جهودا وامكانات خاصة ومكثفة تؤدى فى آخر المطاف الى خلق صناعة . وكل ما شهدناه فى هذه الفترة عدة محاولات متواضعة للبحث عن المعادن وخاصة الذهب . بالاضافة الى استمرار الصناعات اليدوية البسيطة التى تعتمد على المنتجات الزراعية والحيوانية وغيرها . لقد اصطدمت الصناعة السودانية أساسا بخيبة الأمل فى وجود الثروة المعدنية التى هى أساس بعض الصناعات ، بالاضافة لبعض المعتقدات الاجتماعية التى تحتقر هذا اللون من النشاط الذى كان ، فى نظرهم ، من اختصاص النساء والعبيد (١) .

أما الجانب التجارى فى السنوات الأولى لضم السودان فقد شهد نشاطا ملموسا تمثل فى التطورات السريعة بالنسبة للأوضاع الأمنية التى بدأت تنشرها الادارة المصرية فى ربوع السودان منذ أن توحدت الادارة ، بعد أن كانت التجارة مهددة من جانب قطاع الطرق وخاصة بين مصر والسودان والذين وصفهم بوركهارت وقاسى من هولهم الكثير (٢) . كما بدأت الادارة الجديدة منذ عام ١٨٢١ تعمل على عقد الاتصالات مع جيرانها أمثال سلطان دارفور وملك الحبشة رغبة فى فتح آفاق جديدة للتجارة السودانية واظهارا لروح المودة ، خاصة بعد أن بدأت هذه البلاد تترقب الأوضاع الجارية فى السودان عقب دخول اسماعيل كامل لسنار (٣).

ويلاحظ فى هذه الفترة أيضا قيام حملات نهرية بقيادة الضابط

---

(١) انظر فصل الثروة المعدنية والصناعة .

(٢) رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان ص ٢١ . انظر أيضا : أمين سامى :تقويم النيل وعصر محمد على باشا ، الجزء الثانى . ص ٣١٨ .

(٣) محفظة رقم ٢٦٥ عابدين — ملف احمد باشا مأمور السودان ، مرفق بالوثيقة رقم ١٥ مسلسل اصلى . بتاريخ ١٣ ربيع الآخر سنة ١٢٥٤ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

المصرى سليم قبطان متجهة الى الجنوب عن طريق النيل الأبيض ، وبدأت أولى هذه الحملات فى أوائل نوفمبر عام ١٨٣٩ ، والثانية فى ٢٣ نوفمبر عام ١٨٤٠ والثالثة فى سبتمبر عام ١٨٤١ ، وتوغلت هذه الحمـلات حتى خط عرض ٤٢َ ٤ْ شمالا (١) • ومن بين النتائج التى أسفرت عنها هـذه الحملات فتح طريق الملاحة والتجارة فى النيل الأبيض والسودان الجنوبى فاندفع التجار حاملين تجارتهم محاطين بسياج من الأمان •

ومن أهم الأمور التى تلفت الأنظار ان السـودان فى الفترة ما بين ١٨٢١ ، ١٨٣١ يكاد ان يكون مقفلا أمام التجارة العالمية بالذات ، اللهم الا من بعض المغامرين من الرحالة والمستكشفين الذين لم تـكن بغيتهم التجارة فى المقـام الأول ، فقـد احتكر محمد على أهم السلع التى كان ينتجها كالصمغ والعاج والجلود حتى اذا جاء عام ١٨٤١ بدأ الأوربيون فى الالحـاح ، وبشكل مكثف ، لتطبيق معاهدة ١٨٣٨ التجـارية مع الدولة العثمانية ، ومن ثم بدأت مرحلة جديدة فى تطور الاقتصاد السـودانى فى القرن التاسع عشر •

التطورات الاجتمـاعية :

لا نكاد نشعر فى هذه السنوات القليلة بتطورات اجتماعية سريعة من حيث البناء الاجتماعى للسودان وما طرأ على مؤسساته الاجتماعية ، ولكن يمكننا أن نرصد ونسجل ظاهرة اجتماعية هامة فى هذه المرحلة ونعنى بها إنشاء المدن الجديدة فى السودان والتى من أهمها :

---

(١) انجلو سـامارکو : رحلة محمد على الى السودان ص ١٢ ، ١٣ •
انظر ايضا : ملخص المجموعة الرسمية للجمعية الجغرافية بفرنسا فى عددها الصادر فى يوليو ١٨٤٢ • الرحلة الاولى للبحث عن منابع البحر الابيض (النيل الابيض) الصادر بها أمر ساكن الجنان محمد على باشـا والى مصر بقيادة ربان الفرقاطة البيكباشى سليم قبودان • (تعريب محمد مسـعود) ص ٨ ؛ ص ٣٧ •
وانظر ايضا : فرد ريك بنولا : كتاب مصر والجغرافيا • ص ٢٤ •

١ — مدينة دنقلة « الأوردى » (دنقلة الجديدة) :

سميت هذه المدينة بدنقلة الجديدة تمييزا لهـا عن دنقلة العجـوز أو القديمة ، كما سميت أيضا بدنقلة « الأوردى » (الجيش) ، ذلك أن جزءا من جيش إسماعيل كامل كان قد أقام معسكرا له فيهـا إبان ضم السودان . وقد حرف هذا الاسم بعد ذلك الى « العرضى » (١) . وقد كانت هذه المدينة بمثابة عاصمة للجزء الشمالى من السودان وعلامة بارزة للجهـود المصرية فى نشر العمران فى هذا الجزء من البلاد . وقد احتلت هذه المدينة فى تلك الفترة مكانة تجارية هامة سـوف نعرض لها فيما بعد ، فقد كان يربطها طريق تجارى الى الفاشر وآخر الى الأبيض * .

٢ — مدينة الخرطـوم :

تعتبر هذه المدينة من أهم المـدن التى أنشـأتها الادارة المصرية فى السودان وعلى الرغـم من أنهـا خلق مصرى ، الا أن أحـد التجـار الأجانب راح يقرر بأنها مدينة قديمة وأنهـا كانت قبل ضم السـودان لمصر بنصف قرن مدينة عظيمة الى أن هاجمها « الشلك » من سكان النيل الأبيض عام ١٧٧٢ ودمروها حتى جاء المصريون وأعادوا تأسيسها (٢) .

ولكن البعض ينفى تماما ما قرره هذا التاجر ، لأن ذلك يتنافى مـع ما تقرره الخرائط الهامة التى رسمت لأفريقيا وحوض النيل فى السنوات السابقة لسنة ١٧٧٢ ، فقد ظهرت تلك الخرائط وهى خالية من أى مدينـة أو حتى قرية كبيرة فى موضع الخرطوم ، كما أن كتابات « كايو » الذى كان يرافق اسماعيل عند ضم السودان قد خلت من ذكر مدينة أو « حلة »

---

(١) نعوم شقير : المصدر السابق . الجزء الأول . ص ٨٣ — ٨٤ .

(*) عن اهميتها التجارية انظر فصل التجارة والمواصلات .

(٢) Rollet, B; Le Nile et le Soudan. p. 153.

انظر ايضـا : احمد احمد سيد احمد : تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصرى ١٨٢٠ — ١٨٨٥ رسـالة دكتوراه غير منشـورة ، بجامعة القاهرة ص ٤٨ ، ٤٩ .

فى موضع الخرطـوم (١) .

وحاول أحـد الباحثين أن يربط بين اسم « الخرطوم » وبين قبيلة « الدينكا » التى تعيش فى جنوب السودان على أساس أن هـذا الاسم يتكون عند تلك القبيلة من مقطعين معناهما معـا (نقطة التقـاء مجريين مائيين) . وهنا تثار عدة تساؤلات حول ما اذا كانت منطقة الخرطـوم وطنا للدينكا قبل مجىء العرب اليهـا وأنهم هـم الذين أعطوها هـذا الاسـم أم لا ؟ (٢) .

واذا ما تتبعنا نشأة وتطور مدينة الخرطوم خلال مرحلة دراسـتنا لوجدنا أنفسنا نبدأ من عام ١٨٢٤ حين وصل عثمان بك (١٨٢٤ — ١٨٢٦) حكمدار السودان الى موضع الخرطوم والذى لم يكن به من آثار الحكومة الجـديدة سوى المعسكر وسوق « القش » . ورغم قصر مـدة حـكم « عثمان بك » فإن عهده قد شهد بداية نشـاط عمرانى فى البلاد تمثل فى قيام مدينة الخرطوم التى نقل اليهـا أقلام الحكومة ومخازنها بعـد أن كانت بود مدنى من قبل . وعمـل عثمان بك على إقامة بعض المنـازل بها للموظفين ، وأكثر من هـذا أعطى للمدينة أهمية تجارية بين سـائر مـدن السـودان (٣) .

وبعد وفاة عثمان بك خلفه محو بك (١٨٢٦) الذى قام بجمع الجنود المصرية وأقام بالخرطوم ، ولـكن مع ذلك وحتى نهـاية عهـده لم تكن الخرطوم قد ظهرت بمظهر المدن . ويرجع الفضـل الأكبر فى تأسيس مدينة الخرطوم الى خورشيد باشا (١٨٢٦ — ١٨٣٨) فقد بدأ فى بنائها

---

(١) Cailliauld; Op. Cit. Tome I. p. 252.
وانظر ايضا : احمد احمد سيد : المرجع السابق ص ٤٩ .

(٢) احمد احمد سيد : نفس المرجع ص ٥٩ — ٦١ .

(٣) Walkeley; C.F.J. «The Story of the Khartoum, S.N.R. Vol. XVIII. 1935, p. 227.
انظر ايضا نردريك بنولا : المصدر السابق . ص ١٧ .

حين شرع فى إقامة الجامع فى أواخر عام ١٨٢٩ ، وبعدها بدأ أهـل البلد فى العمارة ، وكان خورشيد يمـدهم بالألواح والأخشاب ، كمـا أعطى أوامره بازالة « بيوت الشكاب والقطاطى والزرائب » (١) .

وكان السهل الذى اقيمت عليه المدينة يخلو من مواد البناء ، الأمـر الـذى أدى إلى جمـود عمارتها فيتلك الفترة مما دفع خورشـيد الى إصدار أوامره الى الشيخ عبد السلام زعيم المغاربة فى حلة « كوكو » بحفر الآجر من بقـايا مدينة سـوبا القديمة ونقـله على المراكب الى الخرطـوم (٢) .

وهكذا أخـذت الخرطوم تسـمو فى مبانيها ودورها وسـط أقاليم السودان المختلفة وبدأت تزدهر بينما تضمحل سنار بعد أن كانت عاصمة البلاد . ولم تكن مدينة الخرطوم فى سنة ١٨٢٧ الا قرية بائسة ، ولم يكن يقطنها سوى ستمائة مواطن تقريبا ، ولكن فى سنة ١٨٣٤ ارتفـع عـدد سكانها الى حوالى خمس عشرة ألف نسـمة واتسعت مساحتها وأصبحت المدينة الرئيسية التى يقيم فيها الحكمدار (٣) .

وازدهرت الخرطوم تجاريا فأصبحت مركزا هاما من مراكز التجارة تقصده القوافل من كل الجهات وتحمل اليها المنتجات المتنوعة من البلاد المحيطة بهـا ، لذا فقـد زخرت بالوكلاء التجاريين القادمين من القـاهرة والقسطنطينية (٤) .

وقـد أعجـب القنصـلان الفرنسى « دروفـتى » Drovetti والانجليزى « صولت » Salt بهذه المدينة حين اصطحبهما محمد على

(١) مخطـوطة كاتب الشـونة ، تحقيق الدكتور مكى شـبيكه . ص ٢٨ — ٢٩ .

(٢) احمد احمد سيد : المرجع السابق ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٣) Combés; Edward, Voyage en Egypte et Nubie : dans les deserts et Beyouda. Des Bicharys et sur les cotés et la Mer Rouge. p. 111.

(٤) Ibid. p. 111.

معه خـلال زيارته للسـودان (اكتوبر ١٨٣٨ ــ مارس ١٨٣٩) ، حيث شاهدا هذه المدينة وهى محاطة بالحدائق الواسعة ؛ وفى خارجهـا كانت لقبائل تقوم بزراعة النباتات للماشية (١) • كذلك فقد لعبت الخرطـوم دورا علميا وسياسيا واجتماعيا الى جانب دورها التجارى ، حيث كانت ترسل باشعاعاتها نحو دنقلة وسواكن وأثيوبيا وفاشودة والأبيض ، وكانت منطلقا لرحلات الإكتشاف تجاه منابع النيل (٢) •

٣ ــ مدينة محمد على :

لقد ارتبطت نشأة هذه المدينة بزيارة محمد على للسـودان ، وعملية البحث عن الذهب فى شرقى السودان • ولسوء الحظ أن هذه المدينـة لم تنـل قسطا من الإزدهار أو الشهرة كسائر المدن الأخرى التى أنشأتها الادارة المصرية بالسـودان • وكانت هذه المدينة تقع على ميمنة النيـل الأزرق ، ففى خلال عمليات البحث عن خام الذهب فى تلك الجهـات أعجب محمد على بموقعها فضرب خيامه بهـا وأمر المهندس دارنو Darnoud أن يبنى بها قصرا ، كما طلب أن يقيم المهندسون بيوتهم بجوار القصر ، بالإضافة الى ثكنات لاقامة الجنـود • وعلى هذا النحـو برزت هـذه المدينة للوجـود •

ويعود الفضل الأكبر فى بروز هذه المدينة إلى أفراد الجيش الذين كانوا يرافقون البعثة العلمية الخاصة بالبحث عن الذهب ، وكانت بمثابة مدينة عسكرية عمالية لأن الجنـود أقاموا ثكناتهم بها ، بالإضـافة إلى كونها مأوى للمهندسين والعمال القائمة على عملية التنقيب • وحتى يخلد محمد على ذكراه فى تلك البقعة طلب اطلاق اسمه على هذا المكان « ليزداد

---

(١) Driault: La Formation De l'empire De Mohamed Aly. De l'arabie au Soudan Correspondance De Consuls De France en Egypte. p. 43.

(٢) Ibid. p. 43.

عمرانا وليذكر على ألسنة الناس »(١) . إلا أن هذه المدينة — بالذات — لم يقرر لها أن تبقى طويلا وربما يعود ذلك الى فشل المهمة التى دعت لإنشائها .

٤ — مدينة كسلا :

على أثر فتح أحمد باشا أبو ودان (*) لإقليم التاكة فى عام ١٨٤٠ تم إنشاء هذه المدينة . فقد إتخذ هذا الحكمدار معسكره على نهر « القاش » بسفح جبل كسلا ، وحين غادرها ترك بها حامية ثابتة من الجنود ، وحينئذ تدفق إليها الأهالى من المناطق المجاورة واتخذوها موطنا لهم ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه المدينة عاصمة لمديرية التاكه . وواضح تماما أن نشأة هذه المدينة وإزدهارها يعودان إلى الجيش المصرى فهو الذى استقر بها وأنشأ معسكره فيها ، وبعدها راحت المدينة تنمو وتتطور (٢) .

هكذا شهدت الفترة ما بين ١٨٢١ — ١٨٤١ تطورا اجتماعيا كان أبرزها إنشاء مدن جديدة مصحوبة بتطور إجتماعى . ومما يدعو إلى الإكبار والتقدير أن هذا الجهد الذى بذل فى انشاء هذه المدن لم يكن عشوائيا ، بل كان قائما على الدراسة والتخطيط ولعل نظرة فاحصة الى المواقع التى انشئت فيها هذه المدن تقيم الدليل على مدى صدق هذه المقولة ، فقد توزعت هذه المدن فى كافة أرجاء السودان وربطت بين

---

(١) محفظة رقم ١٢٣ مترجمة عن وثيقة تركية — ملف متفرقات تونسية بدون تاريخ (رجب / شوال سنة ١٢٥٤ هـ) رحلة ساكن الجنان مولانا محمد على باشا الكبير . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(*) انحصرت مدة حكمداريته بين عامى (١٨٣٨ — ١٨٤٣) .

(٢) حمدنا الله مصطفى : المرجع السابق . ص ٢٠٥ .

أجزائه ففى الشمال برزت دنقلة الجديدة التى كانت حلقة وصل مع دارفور وكردفان من جهة ومع الأجزاء الواقعة شمالها وجنوبها من جهة أخرى . كما أصبحت الخرطوم ، التى كانت بمثابة القلب لكونها عاصمة البلاد الجديدة ، ملتقى للتجار ، بالاضافة الى كونها مقر الحكم ، ثم كسلا التى ربطت الأجزاء الشرقية من السودان بداخل البلاد . وقد تجلى المعنى الاجتماعى من خلال الهجرات السكانية الى تلك المدن الجديدة واستقرار الوافدين اليها ومن ثم تناقصت أعداد البدو الرحل مع عمليات التوطين الجديدة ونشوء علاقات اجتماعية جديدة تتواءم وحياة المدن .

الفصل الأول

تطــور الأوضاع الزراعيــة

ــ الأرض : حجمها ــ أنواعها ــ شكل الملكية الزراعية أو الحيازة •

ــ العمــل : عمال الزراعة فى الســودان وجهود الحــكومة لايجاد عمــال متخصصين •

ــ الــرى : وسائله وتطــوره •

ــ الفصول الزراعية •

ــ الأدوات الزراعية •

ــ الغلات الزراعية •

ــ الثروة الزراعيــة •

ــ الآفات الزراعيــة •

ــ النظم والقوانين •

شغل موضوع الزراعة السـودانية فى القـرن التاسع عشر أذهان المسئولين بمصر والسودان ، فراحوا يبحثون عن وسـائل شتى للنهوض بها ، وذلك لوضع الاقتصاد السـودانى على عتبات العصر الحـديث ، أو على الأقل مواكبته للاقتصـاد المصرى آنذاك ، والذى كان قد سبقه فى عـدة مراحل من تطـوره • وإذا كانت أذهان المفكرين الإقتصاديين المحدثين ، وخاصة أولئك المشتغلين بأمور الزراعة قد وضعوا ركائز أساسية لدراسة أى نشـاط زراعى لبلد ما ، وجعـلوا عوامل الانتـاج الزراعى المتمثلة فى الأرض والعمل ورأس المـال على قمة تلك الركائز الضروريه للنهوض بالإنتـاج الزراعى ، فإن القائمين على هـذا الأمـر فى مصر والسودان أيضا قد توصلوا الى مثل هـذه العناصر فى القرن التاسـع عشر وإن اختلفت المسميات •

ففى واحدة من المكاتبات المرسلة الى السودان نقرأ « بأن أسـاس عمار الممالك مركب على ثلاثة أشـياء : الأول وجـود الأرض المخصبة والأمطـار ، والثانى وجـود النفوس لإستعمال الزراعة بهـا ، والثالث التبصرات التى تلـزم لنقـل المحصـولات وتوصـيلها لمحلات البيـع والشرى * » (١) •

الأرض :

وفيما يتعلق بالعنصر الأول وهـو الأرض فإنه يمكن القـول بأن الأراضى السودانية كانت مترامية الأطراف ومتعـددة ، وتقدر بملايين الأفدنة • وتشير احدى الوثائق فى عام ١٨٧١ — على سبيل المثال — الى أن الأراضى الصالحة للزراعة فى مديرية « التاكة » وحـدها تبلغ نحو

---

(١) دفتر رقم ٣٩١٠ معية سنية — صورة المكاتبة رقم ٨ بتاريخ ٩ رجب سنة ١٢٨٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة . ، انظر أيضا : دفتر رقـم ٥٥٨ معية تركية — ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥ ص ١٥ بتاريخ ٢ جمادى الآخر سنة ١٢٨٢ هـ . ارادة سنية الى جعفر باشا وكيل حكمدارية السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(*) الشرى : يقصد بها الشراء .

المليونين ونصف المليون من الأفدنة (١) • وكانت هناك شكوى دائمــة من كثرة الأراضى الصالحة للزراعة فى السودان بوجه عام والتى تتركز على سواحل نهر النيل ولا تجد من يقــوم بزراعتها فتركت بورا ، نظرا لقلة الأيدى الزراعية العاملة (٢) ، وتأخر الوسائل الزراعية الحديثة كالآلات التى تختزل الجهد الآدمى والوقت معا ، بالاضافة الى عامل هام ومؤثر يتمثل فى عزوف الرجل الســودانى عن العمــل فى الزراعــة والتى كان يعتبرها من أعمال العبيد ، وأخيرا يمكن أن نضيف الى ذلك خوف الفلاح السودانى من عــدم الوفاء بدفع الضرائب عن الأراضى للحكومة • كل ذلك ، مع غيره من العوامل الأخــرى ، قد ساهم بصورة فعالة فى تراكم تلك المساحات الشاسعة من الأراضى الزراعية وتركها دون زراعة •

وفيما يتعلق بأنواع الأراضى الســودانية فإنه يمكن تقسيمها إلى ما يلى :

١ — الأراضى الخراجيــة :

وهى تلك الأراضى التى يمكن لصاحبها أن يقوم بزراعتها مقــابل دفع ضريبة للحكومة ، وإذا توفى هذا الشخص دون وارث من الذكور ، أو قصر فى أداء الضريبة ، فإن الحكومة تمنحها لشخص آخــر يستطيع زراعتها واستغلالها وبالتالى يمكنه أن يؤدى ضريبتها (٣) •

---

(١) دفتر رقم ١٨٤٧ معية سنية — وثيقة رقم ١٣ بتاريخ ١٦ ربيع الأول سنة ١٢٨٨ هـ • ص ٦٩ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ١٨٤٧ معية سنية — نفس الوثيقة السابقة .

(٣) دفتر رقم ١٨٨٩ ج ١ معية سنية عربى — صــادر اقاليم ٧ مديرية دنقلة وبربر — وثيقة رقم ٦ ص ٣٩ بتاريخ ٨ شعبان سنة ١٢٧٤ هـ •
انظر أيضا : مصطفى ابو شعيشع : تاريخ الزراعة فى الســودان منذ عام ١٨٢١ حتى يناير ١٨٦٣ — رسالة دكتوراه غير منشورة — معهد البحوث والدراسات الافريقية جامعة القاهرة • ص ٢٤ .

٢ — أراضى مسموح المشايخ والمصاطب :

وهى الأراضى التى تركت لمشايخ البلاد ليقوموا باستغلالها لحسابهم الخاص دون أن يدفعوا عنها أية ضرائب ، وبالإضافة إلى ذلك فقد منحتهم الحكومة نسبة معينة على السواقى التى تقع فى دائرتهم بواقع « فرانستين » * عن كل مائة فرانسة نظير معاونتهم للمديرين والكشاف فى أمور الادارة وجمع الضرائب .

وفى عهد محمد سعيد لم يحصل منهم ضريبة أربعة أفدنة عن كل مائة فدان ما فى حوزتهم نظير جهودهم فى جباية الضرائب من الأهالى (١) .

وفى مقابل الخدمات التى كان يؤديها المشايخ والمتمثلة فى تقديم الطعام والمبيت لرجال الحكومة ، كان هذا المسموح بواقع ساقية واحدة عن كل خمس وعشرين ساقية بدون ضرائب (٢) . وقد أقرت هذه القاعدة فى عهد محمد سعيد ابان زيارته للسودان وقيامه ببعض الاصلاحات المتنوعة والتى شملت الجانب الاقتصادى .

٣ — أراضى الأبعادية :

من المعروف أن هناك أراض واسعة فى السودان وخالية من الزراعة ، ولم تكن فى حوزة أحد ، فقامت الحكومة بإعطائها للأفراد من أجل إستغلالها بوسائل مختلفة . وتشجيعا لهم فى إصلاحها أعفت بعضها من الضرائب لمدة ثلاثة أعوام ؛ فقد حدث أن منحت الحكومة بعض المهندسين من رجالها فى السودان أبعاديات من الأراضى البور بواقع

(*) الفرانسة من ١٢ — ١٥ قرشا .

(١) دفتر رقم ٧٣٤ ديوان خديوى عربى — وثيقة رقم ٤٠ بتاريخ ٢٣ جمادى الأول ١١٧٣ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ١٨٨٦ — صورة المكاتبة العربية رقم ٢ فى غاية جمادى الاولى سنة ١٢٧٣ هـ امر كريم الى مدير كردفان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

مائة فدان لكل مهندس ، يقـوم باستصلاحها وزراعتها ، ووفرت لهـم الآلات والأدوات والبذور (١) .

وفى عهـد محمد سعيد منح الضباط غـير القادرين على الخـدمة العسكرية أبعاديات واسعة فى السودان مكافأة لهم من جانب ، وكسـبا لمساحات جديدة مستصلحة ومستزرعة من جانب آخـر ، ووفرت لهـم الحكومة التقـاوى فى السـنة الأولى وأعفتهم من الضريبة لمـدة ثلاثة أعـوام أيضا (٢) .

٤ ــ أراضى الرزق :

وقد منحتها الحكومة منذ عهد محمـد على للمقتدرين والراغبين فى زراعة مسـاحات من الأراضى « البور » على شـكل « رزقة بلا مال » أى بدون ضريبة (٣) . وقد شملت هذه الأنواع من الأراضى مناطق متنوعة فى السـودان ، فى سـنار وحلفاية وكردفان (٤) ، ودنقـلة (٥) ، وبربر والجاعلين ، وأقاموا فيها السواقى تمهيدا لإستغلالها (٦) . ويبـدو أن

---

(١) محفظة رقم ١١٣ عابدين ــ رحلة ساكن الجنان محمد على باشـا الى السودان دار الوثائق القومية .

(٢) دفتر رقم ٤ معية سنية عربى ــ وثيقة رقم ١٩ بتاريخ ٥ شعبان سنة ١٢٧٤ هـ من اللـواء اراكيل باشـا الى المعية السنية ، دار الوثائق بالقلعـة .

(٣) دفتر ٣٣٤ صادر شورى المعاونة الى حكمدار السودان . ملحـق الوثيقـة التركية رقم ١٩٣ بتاريخ ٢٨ رمضان ١٢٥٤ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعـة .

(٤) دفتر رقم ٣٣٤ صادر شورى المعاونة ــ الى حكمدار السودان . وثيقـة رقم ١٩٢ بتـاريخ ٢٨ رمضـان ١٢٥٤ هـ . دار الوثائق القوميـة بالقلعـة .

(٥) دفتر رقم ٣٣٤ صادر شورى المعاونة ــ الى حكمدار السودان ــ ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥٨ بتاريخ ٢٠ رمضان ١٢٥٤ هـ . دار الوثائق القـومية بالقلعـة .

(٦) دفتر رقـم ٣٧٨ معية تركى ــ من الجانـب العـالى الى حكمدار السـودان ــ وثيقة رقم ٢٤٢٥ بتاريخ ١٧ شعبان سنة ١٢٦٠ هـ .

هذا النوع من الأراضى فى السودان كان يعطى أساسا للمسئولين الكبار القادرين على خدمة هذه الأراضى • وقد بقيت هذه الأراضى مستمرة فى أيدى الورثة لا تنزع منهم طالما كانوا يقومون بزراعتها • ومن أمثلة هذه الأراضى ما أعطى لحكمدار السودان أحمد باشا أبو ودان (١٨٣٩ — ١٨٤٤) بمديرية الخرطوم ، وقد ظلت زوجته بعد مماته تشرف عليها وتستفيد بريعها (١) • ومن أمثلة هذا النوع أيضا من الأراضى ما أعطى لخليل أغا أحد المسئولين الكبار فى إدارة السودان الذين خدموا الحكومة هناك بجهة بربر • وكانت هذه الأراضى أحيانا تعطى للأشخاص بناء على طلبهم إن كانوا فى حاجة للمعيشة ، ورعاية لأطفالهم إذا ضاق الحال بهم (٢) •

٥ ـ أراضى الأوقاف :

وهى تلك الأراضى التى أوقفت لخدمة المساجد والمدارس ، وذلك تشجيعا لأصحابها على إقامة شعائر الصلاة ، وتعليم أبناء السودان ، حيث كان المسجد وما يلحق به من خلوة يقوم بهذه المهمة التعليمية التى تحتاج — دون شك — الى مورد مالى ثابت يمكن أولئك الفقهاء من الالتفات الى هذه المهام (٣) •

٦ ـ أراضى الحكومة :

وهى تلك الأراضى التى احتكرتها الحكومة لنفسها وقامت

---

(١) دفتر رقم ٤٠٨ صادر معية ، وثيقة رقم ٩٤٦ بتاريخ ٩ محرم ١٢٦٣ هـ . من الجنات العالى الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ٦٠٣ ، صادر ديوان الكتخدا — وثيقة رقم ٦٩ بتاريخ ٢٢ ذى القاعدة سنة ١٢٦٥ هـ . الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ٣٣٤ صادر شورى المعاونة — وثيقة رقم ١٥٨ بتاريخ ٢٠ رمضان عام ١٢٥٤ هـ . الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

باستصلاحها وزراعتها لحسابها الخاص ، ببعض المحاصيل كالنيلة وقصب السكر والقطن (١) . وواضح أن هذه الأراضي قد زرعت بمحاصيل ذات نوعية خاصة كانت توليها الحكومة رعاية من نوع خاص أيضا . فالنيلة كما هو معروف كانت في أيام محمد علي تخضع للاحتكار الحكومي ، وأما قصب السكر والقطن فكانا من المحاصيل الهامة والرئيسية في البلاد وكان الأخير - ونعني به محصول القطن - يشكل محصولا أساسيا في صادرات البلاد سواء في مصر أو السودان ، ومن ثم لا ندهش إذا خصصت الحكومة في السودان أراض خاصة لها تخضع خضوعا مباشرا لاشرافها حتى تضمن سلامة هذه المحاصيل وعدم خضوعها للإهمال الأمر الذي يجعلها تضمن إستمرار تصديرها للسوق الخارجية .

وتجدر الإشارة إلى أن الأراضي السودانية - طبقا للظروف الطبيعية - ليست على وتيرة واحدة ، فقد وجدت هناك : أراضي الجروف ، وهي التي تقع على ضفاف النيل وتعتمد الزراعة فيها على مياه الفيضان إذا كان الشاطىء منخفضا وعلى السواقي إذا كان مرتفعا ، وأراضي الجزائر وهي الواقعة في مجرى النهر وتتم زراعتها عقب إنحسار مياه الفيضان ، وأراضي « المتره » وهي الأراضي التي تسقى بماء « المتره » وهي حفرة واسعة تحفر بعيدا عن النيل فيتسرب اليها ماؤه وتقام عليها السواقي . وينتشر هذا النوع من الأراضي في دنقله وبربر . وأراضي « الكروه » ، وهي عبارة عن منخفضات أشبه ما تكون بالترع يغمرها النيل أثناء الفيضان . وأخيرا أراضي « القبهارى » أو ما تعرف أحيانا بالأراضي المطرية ، وهي التي تروى بماء الأمطار ، وتكون بعيدة عن مجرى النيل (٢) .

---

(١) محفظة ١٩ بحر برا . وثيقة رقم ٤٩ بتاريخ ١٥ رجب سنة ١٢٦٠ هـ . من الجناب العالي الى حكمدار السودان . أنظر ايضا : ابراهيم فوزي : السودان بين يدى غردون وكتشنر - الجزء الأول ص ٦٥ .

(٢) نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته - الجزء الاول - ص ١٤٢ . انظر ايضا : نسيم مقار : أحوال السودان الاقتصادية من عام ١٨٢١ - ١٨٤٨ ص ٦٢ .

أما ملكية الأراضى السودانية فى ظل الإدارة المصرية فقد بقيت من حيث المبدأ ملكا للحكومة ، إلا أنهـا تركت فى حوزة أصحابها ولم تتعرض لها بشىء ، بل إنها أخذت تشجع الملاك على الحصـول على حجج شرعية لهذه الأراضى حتى تضفى على هذه الأراضى نوعا من الملكية للفلاحين فى السودان • ولما كان الحصول على مثل هذه الحجج متعذرا أمام الكثيرين منهم فقد تركتهم الحكومة يفلحون الأرض دون أن تناقشهم فى مسـائل فقهية حول ملكيتهم لها ، بل صـار كل ما يعنى الحكومة هو أن يظـل أصحاب الأراضى يزرعونها بانتظام ولا يتركونها بورا (١) •

وكان المبدأ الذى تسير عليـه الحكومة فى هـذا الشأن كما ورد فى سجلاتها الرسمية هو « أن الأرض ملك لمن يستصلحها ويزرعها (٢) •• » ومن ذلك يمكن القول صراحة أن مسـألة الملكية الزراعية فى السـودان واثباتها لم تكن هى الشغل الشـاغل لرجـال الادارة ، بل كان الهـدف الأساسى أمامها هو إستغلال هذه الأراضى زراعيا والإستفادة منها بقدر الإمكان ، ولا بأس لديهـا أن يكون مزارعـوها ملاكا أو لا يكونـون ، فالأراضى شاسعة ومترامية الأطراف ، وسكان السودان أو « العمـال الزراعيون » على وجه الخصوص قليلون أمام هذه المسـاحات ، ولذلك فإننا نود أن نشير الى حقيقة هامة وهى أن البـلاد السودانية فى تلك الفترة لم تشهد نموا أو بداية نمو لكبار الملاك الزراعيين فلم يكن الرجـل السودانى يحرص كثيرا — بعكس الفلاح المصرى — على تكوين أو انشاء مثل هذه الملكيات •

وربما يرجع عزوفه عن ذلك الى كثرة الأراضى الزراعية فى السودان ،

---

(١) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ — ١٨٨٥ • ص ١٠٠ — ١٠١ •

(٢) دفاتر محافظـة سـواكن (عـربى) صـادر دفتر رقـم ٢٥٨١ (قديم) ص / ٢٨/٥/٢/٤ ، مكاتبة رقم ٦٩ مامورية تركز عام ١٢٨٦ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

وأنه مهما حاول هذا الفلاح أن يحوز منها الكثير ، فإنها لا تضفى عليه مكانة إجتماعية خاصة ، أو حتى ترقى بها إلى مكانة سياسية عليا .

وقد كانت مسألة تملك الأراضى الزراعية فى السودان ومنح الحجج يخضعان لعملية اختيار دقيق للمزارع ، فإذا أظهر جده واجتهاده فى فلاحة الأرض استحق أن يتملكها ، أما اذا تبدى منه التقصير نزعت منه وأعطيت لغيره ممن يستطيع العناية بها (١) . ونادرا ما كانت الحكومة تتدخل فى بحث الملكية آلا فى تلك الأمور التى شرحناها ، أو فى حالة وفاة صاحب الأرض الذى لا يترك وريثا فهنا تتدخل وتسلمها لآخرين (٢) .

وأما فى جنوب السودان فقد كانت الأرض ملكا للدولة ، ولم يكن معترفا بالملكية الفردية ، وربما يعود ذلك لوفرة الأراضى التى كانت القبيلة أو الجماعة تملكها على المشاع ، فالملكية هنا هى ملكية القبيلة ككل لا الفرد بعينه ، فلم تنم بعد تلك النزعة الفردية بينهم فى هذه الناحية . ويفسر أحد الدارسين عدم شيوع الملكية الفردية فى تلك الجهات بأن أغلب سكان الجنوب كانوا من الوثنيين ولم يأخذوا بما حوته الشريعة الاسلامية من الاعتراف بالملكية الفردية (٣) . وربما يكون هذا التفسير غير مجانب للصواب ، فليست الملكية الفردية قاصرة على الشريعة الاسلامية ، بل إننا نلاحظ شيوع هذه الملكية فى بلدان أخرى لا تدين بالاسلام ومنها أيضا شعوب وثنية . ولكننا نميل الى ترجيح التفسير الأول الخاص بالملكية الجماعية على مستوى القبيلة التى تقوم بتلبية كل

---

(١) دفتر رقم ١٨٦٠ معية عربى — صورة المكاتبة الصادرة من المعية السنية الى المجلس الخصوصى بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٩٠ هـ . نمرة ٣١ ص ٤٩ .
دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ٢٨٣ وارد المجلس الخصوصى — صورة المكاتبة الواردة من مديرية عموم السودان الى المجلس الخصوصى بتاريخ ٩ ربيع الثانى سنة ١٢٩٠ هـ نمرة ٢ ص ١٣٦ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) محمد عمر بشير : جنوب السودان . دراسة لأسباب النزاع ص ٢٠ .

حاجة الفرد من خلال نظمها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية أيضا ، الأمر الذى لم يعد فيه مجال للفرد أن ينزع نزوعا فرديا .

وقد حدث تطور فى الضريبة الزراعية التى كانت تحصل على الأرض فى السودان فهى تارة فى أول الأمر ، وتحصل على الرءوس من الأهالى ، ثم هى تارة أخرى ترتبط مباشرة على الأرض ، ثم يعلن سعيد باشا صراحة إرتباطها بعدد الأفدنة التى فى حوزة الشخص ، إلا أن هذا النظام الأخير الذى وضعه سعيد ألغى على يد الحكمدار موسى حمدى الذى أمر بتحصيلها من الأفراد الذين فى حوزتهم الأراضى . ولا نريد أن نستطرد فى مسألة الضرائب فى السودان فلسوف نعود الى ذلك فى موضع آخر فيما بعد ، وثمة نقطة أخرى تتعلق بموضوع الأرض ، وهى أن محمد على عندما ضم السودان لم يقم بعمل مسح لأراضيه وإعادة توزيعها من جديد على الفلاحين ، كما حدث فى مصر عام ١٨١٣ ، وربما يفسر ذلك العزوف عن القيام بمثل هذه المهمة إلى إتساع الأراضى السودانية وتفرقها فى جهاته ، الأمر الذى كان متعسرا معه القيام بعملية حصر دقيقة لها ، وزاد من صعوبة ذلك أن الأراضى السودانية كانت متنوعة — كما ذكرنا — من أراضى جروف الى جزائر ومطرية وغيرها ، بعكس أراضى مصر التى كانت من نوع واحد .

وأكثر أراضى السودان لا تقاس بالفدان ، كما فى مصر ، وان وردت احصائيات متفرقة بالفدان ، ولكنها تقاس بالسواقى و « الجدعات » . والساقية عبارة عن ثمانية أفدنة فى الجزائر وعشرة فى البر الثابت (١) . وأما الجدعة فهى ثلاثة حبال ونصف (٢) .

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٢) نفس المرجع ص ٥٣ ، والحبل عبارة عن ثلاثة أذرع وقبضة وعمامة والقبضة والعمامة مقاييس قديمة فى السودان .

العمـــل :

وقد اتبعت مصر أساليب شتى للاهتمام بأمور الزراعة فى السودان ، وبدأت فى أول الأمر ومنذ عهـد محمد على تهتم بعنصر هـام من عوامل الانتاج الزراعى ونعنى به عمال الزراعة السـودانيين أو بمعنى آخـر وأكثر اتساعا المزارع السودانى ، فقد كان هذا العنصر البشرى لا يعلم من أمور الزراعة إلا قليلها ، وحتى هذا القليل كان متخلفا وباليا لا يتواءم والنهضة التى شـهدتها مصر فى مجـال الزراعة ، ولـما كان هذا العنصر البشرى ضروريا ولازما فى بلد كالسودان يتمتع بأراضى واسعة تحتـاج الى الخبرة الفنية من أهله فى هذا المجـال ، فقد أرسل محمد على فوجـا منهـم الى مصر من أجـل هـذا الغرض « ليتعلموا أصـول الزراعـة والفلاحة » (١) ويعودوا الى أوطانهم لنقل هذه العلوم وتطبيقها فى مجال الزراعة السـودانية .

وقد تطلب إلمـام هؤلاء المبعوثين بأمـور الزراعة البقـاء فى مصر سنوات أكثر عما حـدد لهم إذ ثبت أنهـم كانوا فى حاجة إلى مزيد من التعلم (٢) . ويبدو أن النية كانت صادقة تماما فى إحداث نهضة زراعيـة سودانية تعتمد فى أساسها على أبنائها ، وكانت المتابعة لهم جادة فلم تكن المسـألة مجرد سفر أو نزهة خارج البلاد وحسب ولكنها كانت تعنى أكثر من ذلك ... تعنى إلماما حقيقيا وفعليا لأحـدث الأسـاليب الزراعية فى مصر . ولـما أدرك السـودانيون أن محمد على قد وطـد العزم ، قولا وفعـلا ، على أن السودان لابد وأن يكون بلدا زراعيا من الدرجة الأولى ، وأنه قـد بدأ يلقى بثقله لإحـداث نقله زراعية فى السودان بادر بعض المشايخ فى السودان من تلقاء أنفسهم فى تقـديم عرائض يرجون فيهـا

---

(١) دفتر رقم ٣٢١ صادر شورى المعاونة . وثيقـة رقم ٦٥٨ بتاريخ ٩ صفر سنة ١٢٥٩ هـ . كتاب الى ديـوان المدارس . دار الوثائق القومية بالقلعـة .

(٢) دفتر رقم ٣٢١، صادر شورى المعاونة ، نفس الوثيقة السابقة .

السماح لأبنائهم بالسفر الى مصر لتلقينهم فن الزراعة (١) • وهنا أيضا لابد وأن نشير إلى إلتقـاء وجهتى النظر حول هذا الموضوع ، فلم تكن النية موجودة لدى الباشـا فقط ، ولكنها أيضـا موجـودة فى الشـعب السودانى ، فالجميع لديهم الرغبة فى بدأ نهضة زراعية على أسس علمية لإحداث نقلة زراعية فى السـودان •

ولم تقف الجهود عند هذا الحد بل كانت الحكومة فى السودان تقدم للمزارعين البذور بأسعار رخيصة وفى متناول أيديهم ، ولم تتقاض أثمانها منهم إلا عقب جمع المحصول بشرط أن يقـدم المزارع ضمانا بالسـداد مختوما بخاتم أحـد المشايخ السودانيين المتصلين بهؤلاء المزارعين وأيضا بالحكومة (٢) • وهذه التسهيلات فى تقديرنا أقرب إلى ما تقوم به الجمعيات الزراعية وبنوك الفلاحين فى مصر فى الأيام الحالية •

وحرصا على نشر الوعى الزراعى بين المزارعين السودانيين اشترطت الحكومة على المهندسين الذين استقدمتهم من مصر للبحث عن المعادن فى السودان ــ ثم منحتهم أبعاديات فى المناطق الخالية أو البائرة « كى يقوموا بصلاحها ــ أن يلحق بكل واحد منهم عدد معين من الأهالى توطئة لتعليمهم الزراعة الفنية على أسس سليمة ، من ناحيـة أساليب الزراعة وطـرق العناية بها وغـيرها من الجوانب الأخـرى (٣) • وبلغ حرص الحكومة مداه ، أنها كانت تشـترط فى تعيين بعض مديرى ومأمـورى المديريات

---

(١) دفتر رقم ٣١٧ ، صادر شورى المعاونة • وثيقة رقم ١٠٧٦ بتاريخ ٩ جمـادى الأولى سـنة ١٢٥٨ هـ ، ارادة الى مدير ديـوان المـدارس • دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفاتر محافظة سواكن ــ دفتر رقم ص / ٢٧/٥/٤٠ • مكاتبة رقم ٤٨ بتاريخ ١٣ ج (جماد ثان) سنة ١٢٨٦ هـ ص ٤٠ ــ رسالة الى الشيخ عمر أحد تجار سواكن . انظر ايضا صورة المكاتبة الصادرة من المعية السنية الى مدير عموم شرقى السـودان ومحافظ سـواحل البحر الأحمر نمرة ٢٤ بتاريخ ٧ رجب ١٢٩١ • دفتر رقم ١٨٧١ • دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) محفظة ١٢٣ عابدين (دوسيه بدون تاريخ) رحلة ساكن الجنان • دار الوثائق القومية بالقلعـة .

السودانية أن يكونوا خبراء فى الزراعة مثل « على دمنه » الذى اختير مأمورا على دنقلة نظرا لخبرته السابقة بأمور الزراعة (١) .

ومن بين تلك الوسائل التى اتبعت للنهوض بالزراعة فى السودان على عهد الخديو إسماعيل ، ما كانت تقوم به الحكومة من إعفاء بعض السواقى والمزروعات وخاصة الحدائق ، من الأموال المقررة عليها ترغيبا للأهالى فى مزيد من الزراعة ، وعملا على استقرارهم فى الأرض بعد أن هجرها الكثيرون ، وفروا الى أطراف السودان من جراء الضرائب (٢) .

ولم يكتف المسئولون بمصر بهذه الوسائل للنهوض بالزراعة السودانية ، ويقتنعوا بتلك التقارير التى تصلهم من السودان عن سير الأمور الزراعية بها ، ولكنهم كانوا يبعثون بلجان تفتيش خاصة من مصر « لاستكشاف الأراضى ، وفحص السواقى والحشائش » (٣) . وتقديم تقرير عن كل ذلك ، وهى أشبه بلجان المتابعة أو المراقبة ، وعلى ضوء نتائج هذه اللجان كانت تحدث تطورات ملموسة فى نواحى الزراعة وغيرها من جوانب الاقتصاد السودانى ، بل كان ينجم عنها أحيانا تغييرات وعمليات نقل لكبار رجال الإدارة فى السودان إذا ما تبدى أى اهمال من جانبهم .

الــرى :

وقد أولى المسئولون فى السودان إهتماما كبيرا لمسألة مياه الرى ،

---

(١) دفتر رقم ٦١ صادر المعية — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٣٣ بتاريخ ٢٠ شعبان ١٢٥٠ هـ . الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ٥٢٩ معية سنية — مكاتبة رقم ٤ بتاريخ ٦ رجب سنة ١٢٨١ هـ من الجناب العالى الى حكمدار السودان . انظر ايضا : على ابراهيم عبده : مصر وافريقية فى العصر الحديث . ص ٢٦ .

(٣) دفتر رقم ٢ اوامر عربية — امر كريم رقم ٧ صادر الى حكمدارية السودان بتاريخ ١٩ شوال سنة ١٢٩١ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

فقد كان الرى الحوضى ، من قبل ، هو النظام المتبع فى السودان ، وعلى وجه الخصوص فى جهات النوبة الشمالية حيث تقل الأمطار حتى تكاد تنعدم . وعندما يرتفع منسوب مياه النيل فى الفيضان تفيض المياه على الحياض المختلفة والمتاخمة للنهر فتظل هذه البقاع مغمورة بمياه الفيضان حتى يبدأ منسوب النهر فى الانخفاض التدريجى والانحسار . وبعد أن تنحسر المياه عن الحياض يبدأ الأهالى بزراعة أراضيها (١) . كذلك فقد قاسى السودانيون أيضا من جراء انحباس الأمطار الأمر الذى أدى لحدوث شح فى الحبوب وظهور مجاعات نظرا لاعتماد السودانيين فى معيشتهم على الحبوب وخاصة الذرة منها (٢) . لذلك كله كان لابد للادارة المصرية فى السودان أن تبحث هذه المسألة وتجد لها حلولا مناسبة ، ففى محاولة لادخال الرى الدائم فى السودان قام المسئولون بتوجيه عنايتهم الى حفر الترع والقنوات فى كثير من جهات البلاد ، ففى جهة دنقلة على سبيل المثال جرى حفر ترعة ، وأرسلت لذلك الآف الفئوس للقيام بعملية الحفر (٣) . وفى عام ١٨٤٣ صدرت الأوامر بحفر مجرى مائى فى طريق عتمور الكائن بين (أبو حمد) وكرسكو . وأسندت هذه المهمة إلى أحد المهندسين وبعض تلامذة « المهندسخانة » حيث تم توفير جميع الأدوات والتسهيلات اللازمة لاتمامها (٤) .

---

(١) مصطفى ابو شعيشع : المرجع السابق . ص ٩ .

(٢) محفظة ١٩ بحر برا تركى — وثيقة رقم ٤٩ بتاريخ ١٥ رجب سنة ١٢٦٠ هـ من المير ميران أحمد منكلى الى الجناب العالى . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) الوقائع المصرية : العدد رقم ٢٣٢ بتاريخ ٢٧ رجب ١٢٤٦ هـ . ص ٢ ، وانظر أيضا دفتر رقم ٧٧٤ ديوان خديوى — ترجمة المكاتبة التركية رقم ٦٨ بتاريخ ٧ رجب سنة ١٢٤٦ . من الجناب العالى الى مدير بربر . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) رئاسة مجلس الوزراء : مجموعة وثائق عن تاريخ السودان . ص ١٢ ، أنظر ايضا سجل تركى رقم ٢٠٨٨ وارد ديوان المدارس من غرة المحرم ١٢٥٩ هـ الى ١١ جمادى الآخرة ١٢٥٩ هـ — ترجمة الخطاب التركى رقم ٩٣٥ بتاريخ ٦ جمادى الآخرة ١٢٥٩ . من الشورى الى ديوان المدارس . دار الوثائق القومية بالقلعة .

كذلك فقد تم إقامة السدود على مجارى بعض الأنهار لحجز مياه الفيضان واستغلالها فى الزراعة كما حدث بالنسبة للسد الذى اقيم على نهر الجاش فى اقليم التاكة على عهد الحكمدار أحمد باشا أبو ودان والذى تم فتحه على يديه عام ١٨٤٠ ، وبذا أمكن الاستفادة من زراعة مساحات كبيرة من أراضى هذا الاقليم عن طريق التحكم فى هذه المياه التى كانت تضيع سدى من قبل (١) .

وفى سواكن قام المسئولون بإيجاد الحل الملائم لمشكلة المياه سواء للزراعة أو للشرب ، فقد وجدت آلاف الأفدنة الصالحة للزراعة فى حالة إهمال بسبب شح المياه فرأوا ضرورة الاستفادة من مياه السيول التى تسقط فى المنطقة والتى كانت أيضا تضيع دونما أية فائدة ، ولذلك فانهم توصلوا الى اسلوب أمثل حيث كانت السيول تتجمع فى خور يسمى بـ « التمانيب » (٢) ، وبدأوا يتحكمون فيها تماما ويعيدون توزيعها من من هذا الخور الى ترع يبلغ طولها ستة آلاف متر . وقد بدأ هذا المشروع فى عام ١٨٦٩ وتم انجازه على وجه السرعة وبدأ يعطى حوالى مائتين وخمسين ألف متر مياه صيفا وشتاء ، وبذلك أمكن استمرار زراعة المحاصيل طوال العام بعد أن كانت موسمية وتقتصر على أنواع محدودة من المحاصيل الزراعية . وقد شارك فى إنجاز هذا المشروع الجيوى ممتاز باشا (٣) .

وفى عام ١٨٧٢ وأثناء مرور محافظ مصوع على جهة « زلا » * التابعة للمحافظة لاحظ جملة أراضى متسعة صالحة للزراعة ، وبها خور لمجرى السيل من جهة الحبشة فاقترح القيام بسده لحفظ المياه والاستفادة

---

(١) مصطفى ابو شعيشع : المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٢) دفاتر محافظة سواكن — دفتر ص ٤ / ٢ / ٢٨/٥ جـ ٢ — مكاتبة رقم ٢ بتاريخ ٩ شعبان سنة ١٢٨٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(*) زلا : ميناء صغير جنوب مصوع .

(٣) دفاتر محافظة سواكن — الوثيقة السابقة .

بري الأرض المجاورة له ، وبالفعل تم البدء فى هذا المشروع وتنفيذه (١) . وفى بعض جهات كردفان حيث تشح المياه ويبقى الاعتماد فقط على مياه الآبار ، كان لابد من مواجهة هذه المسألة فقامت الحكومة باستكشافات مكثفة بحثا عن أماكن مناسبة لحفر آبار للمياه ، وتوجت هذه الجهود باستكشاف العديد منها فى (وادى أبو قرى) و (وادى الرزان) و (وادى جوز للحرما) (٢) .

ومن قبل إمتدح الرحالة جون بتريك ، الذى زار كردفان عام ١٨٤٧ ، مثابرة المصريين فى إيجاد المياه لزراعة الحدائق والبساتين وذلك بحفر العديد من الآبار على الرغم من عمق مياهها الجوفية (٣) .

وفى عهد محمد سعيد استمرت هذه المحاولات التى جرت لايجاد مصادر جديدة للمياه ، ففى أحد أوامره لمدير الخرطوم طلب مدة للقيام بحفر آبار للمياه فى الطريق الموصلة بين وادى حلفا والخرطوم (٤) ، حيث كانت هذه المنطقة تكاد تكون خالية من الآبار على الرغم من أهميتها كطريق بين السودان ومصر ، وكان يرمى من وراء حفر هذه الآبار الاستفادة منها سواء فى الزراعة أو لسقى المسافرين المارين بهذه الجهات .

وتابع الخديوى اسماعيل طريق أسلافه البحث عن المياه فى السودان بشكل جدى ومنظم ورصد لهذا الأمر البعثات الكشفية ، ففى

---

(١) جورج جندى وجاك تاجر : اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ص سجل رقم ١٨٤٨ — معية عربى .

(٢) جريدة اركان حرب الجيش المصرى — عدد رقم ٧ بتاريخ غرة ربيع الأول سنة ١٢٩٥ هـ السنة الثالثة — ١١٩٧ دوريات دار الكتب المصرية .

(٣) Petherick, J.; Egypt, the Soudan and Central Africa, pp. 300 - 307.

(٤) دفتر رقم ١٨٩٢ صادر الأوامر — صورة الأمر الكريم رقم ٦ ص ٤٨ — الى مدير سنار والخرطوم فى ١٧ جمادى الثانية سنة ١٢٧٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

أواخر عام ١٨٧٤ كلف الخديوى اسماعيل « ستون باشا » رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى بإعداد بعثتين كشفيتين تتجه إحداهما الى كردفان والأخرى الى دارفور ، إشترك فى الأولى ضباط مصريون أمثال أحمد حمدى وفى الثانية أيضا أمثال محمود صبرى وغيرهما . ولقد أسفرت الاستكشافات التى أجرتها هاتان البعثتان ، وخاصة الأولى منهما والتى تولى قيادتها الفعلية أحمد حمدى ، على طول المسافة الواقعة بين الدبة والأبيض ، عن أن الآبار المائية الموجودة بتلك المناطق تتميز بعذوبتها ووفرتها ، وأن أعماقها تتراوح فيما بين أربعة أمتار وخمسة وعشرين مترا الأمر الذى يشير الى مدى الجهد المضنى الذى أنفقته الحكومة فى هذا السبيل . وبالاضافة الى ذلك فقد تمكن رجال البعثة المصرية من استكشاف مجموعة أخرى من الآبار كانت تقع فى عدد من الوديان المختلفة مثل وادى « أبو سدير » و « أبو أنحراب » وغيرهما . وقد لاحظوا كثرة الآبار فى وادى « غيلاى » إذ كان يوجد به نحو ثلاثة وعشرين بئرا موزعة على إتساع مساحة الوادى التى تبلغ ميلين تقريبا ، وكانت أعماق هذه الآبار لا تزيد عن أربعة أمتار ومياهها قليلة ، ماعدا الآبار الموجودة بوسط الوادى التى تتميز بغزارة مياهها . كما أن جميع هذه الآبار تتميز بعذوبة مياهها (١) .

كذلك فقد حرص أفراد البعثة المصرية على إستكشاف عدد كبير من الأخوار المائية الموجودة بتلك المناطق والتى أصبحت إحدى المصادر الهامة لجلب المياه ومن أهمها أخوار الطريفة « وأبو سدير » و « البريجة » و « أبو هشيم » و « وأبو شاهين » و « الحسناوى » و « المزروب » « وأبو عروق » وغيرها ، وقد كانت مياه هذه الأخوار تتكون من جراء

---

(١) جريدة أركان حرب الجيش المصرى : السنة الثالثة — الجزء الأول من المجلد الثانى — العدد ٧ بتاريخ غرة ربيع اول سنة ١٢٩٥ هـ (٥ مارس سنة ١٨٧٨ م) . تقرير يتعلق بأشغال الاستكشافات التى اجراها من الدبة الى بندر الأبيض مركز مديرية كردفان صاغقول أغاسى اركان حرب تحت رياسة « كولستون » . ص ٤٩٧ ، ص ٤٩٨ . ، انظر أيضا : عبد العليم خلاف : جهود مصر الكشفية فى أفريقيا فى عهد الخديو اسماعيل ص ١٧٣ وما بعدها .

سقوط الأمطار ، كما لوحظ أن بعضها كان ينبع من الجبال القريبة منها كجبال « الطريفة » و « الصنقور » و « الجلود » و « الأبرق » وغيرها . وكان المجرى المائى لهذه الأخوار يتراوح ما بين ثمانية أمتار وعشرين مترا : وأعماقها لا تزيد عن ثلاثة أمتار ، وقد تأكد أفراد البعثة من أن كثيرا من هذه الأخوار كانت تصب مياهها فى الصحراء المجاورة ، بينما تصب بعضها كأخوار وادى « الزراق » و « المزروب » و « أبو عروق » فى « بحيرة الصاف » وقد أجرى أفراد البعثة بعض الكشوف عن هذه البحيرة فلاحظوا أن مياهها لا تتكون من مياه الأخوار فحسب ، بل أيضا من جراء إنحدار مياه الأمطار إليها حيث كانت أرضها منخفضة ، وعلى هذا فقد كانت المياه بهذه البحيرة غزيرة جدا الأمر الذى أهلها لأن تكون موردا مائيا هاما سواء للزراعة أو لسقى حوالى عشرة آلاف دابة تفد إليها يوميا حيث كانت تلك المناطق متميزة بتربية الماشية وتعتمد عليها إعتمادا رئيسيا .

كذلك فقد أشار أفراد البعثة الى وجود بحيرة أخرى تبعد عن بحيرة الصاف بمسافة خمسة وسبعين ميلا تقريبا بالقرب من بلدة « كجدر » أطلق عليها الأهالى اسم « مصارين » وتقل فى حجمها عن سابقتها كما أن عمقها لم يكن ليزيد عن مترين ، ومياهها كانت تتكون أيضا من مياه الأمطار التى تتجمع فى الوديان القريبة منها وتنحدر إلى البحيرة . وتوجد حول هذه البحيرة ثمانية آبار كان يفيد منها الأهالى فى الحصول على المياه عقب انتهاء موسم سقوط الأمطار وجفاف البحيرة . كذلك فقد توصل أفراد البعثة إلى إكتشاف مناطق جديدة تصلح لحفر الآبار مثل منطقة وادى « أبو قمرى » الواقعة بين « برق عجيل » و « البريجة » ومنطقة « وادى الزراق » الممتدة بين « الباويجى » و « الصاف » ومنطقة وادى جوز الحرما الواقعة بين الصاف و « كجمر » (١) .

(١) جريدة اركان حرب الجيش المصرى : العدد السابق ص ٢٩٨ — ٥٠٠ .

وفى تقرير الضابط الأمريكى « بروت » ، الذى وصل الى الخرطوم فى أوائل مايو ١٨٧٥ وبدأ مهمته الكشفية على رأس بعثة مصرية بدأت رحلتها من أم درمان فى ٢٠ مايو ١٨٧٥ متخذة حزاء النهر طريقا ثم اتجهت نحو الأبيض ، نلاحظ وصفا دقيقا أيضا للآبار المائية التى مر بها فى طريقه مثل آبار « أبو جراد » و « الحلبة » و « الدنابج » وغيرها حيث لاحظ أن المياه الموجودة بها كانت على أعماق بعيدة ، تتراوح بين ثلاثين وخمسين مترا ، بالاضافة الى قلة هذه المياه المستخرجة وإن كانت عذبة ، ولذلك فإنه أوصى فى تقريره بضرورة العمل على حفر آبار أخرى جديدة فى أماكن متفرقة حتى تنتشر مصادر المياه فى تلك الجهات (١) .

وفى أواخر عام ١٨٧٥ قام الضابط المصرى محمود صبرى على رأس بعثة كشفية إلى المنطقة الشمالية الغربية لدارفور ، وتحرك بالفعل من الفاشر فى ١١ ديسمبر سنة ١٨٧٥ واستمرت بعثته حتى ٣٠ يناير ١٨٧٦ قدم على أثرها تقريرا الى بوردى ، ومن بين ما جاء فيه أن بعض القرى فى تلك الجهات التى زارها لم تكن تجد صعوبة فى الحصول على المياه إذ كانت تجاورها وديان مختلفة تنتشر بها عدة آبار مائية مثل آبار « وادى المجدوب » وآبار « وادى كتم » وغيرها فى كوبية والدور و « أبو سكات » و « أبو عرديب » وغيرها أيضا ، وقد لاحظ كثرة الآبار فى وادى كوبية غربى الفاشر حيث كان يتميز عن بقية الوديان الأخرى باتساعه ، ويتجه مجرى هذا الوادى من الشمال الى الجنوب حيث ينبع من جبال « مى » الواقعة على بعد خمسة عشر

---

(١) جريدة اركان حرب الجيش المصرى : السنة الثالثة — الجزء الاول من المجلد الاول — العدد ١ بتاريخ ٢٧ شعبان سنة ١٣٩٣ هـ (١٥ سبتمبر ١٨٧٦ م) تقرير وارد لديوان الجهادية من طرف المسيو « براوت » بكباشى اركان حرب ، ويتضمن نتيجة الأعمال الكشفية التى اجراها فيما بين الخرطوم والابيض بولاية كردفان . وضورته بتعريب عمر أفندى رشدى بكباشى أركان حرب ص ١٢ .

ميلا شمال شرقى بلدة « كبكبية » ويتوقف جريانه عند بلدة « دار الزريقات » جنوبا حيث يكون بركا ومستنقعات وذلك عندما تكون الأمطار قليلة ، أما اذا كانت الأمطار غزيرة فانه يستمر فى جريانه نحو الجنوب ، حيث يصب فى بحر « الزريقات » الواقع جنوب دارفور والذى يسير مجراه من الغرب الى الشرق ليصب فى بحر الغزال (١) .

وفى مجال البحث عن وسائل أخرى لجلب المياه بصورة منتظمة وسريعة إقترح المسئولون بمصر إستخدام « طلمبات هوائية » كتلك التى تستخدم فى أوروبا لرفع المياه الى الترع ، والعمل على تدريب المزارعين السودانيين على استخدامها (٢) ولا شك فى أن ادخال هذا النوع من الآلات سوف يزيد من حجم المياه المستخدمة فى الزراعة بصورة ملموسة عما كان يتم رفعه بواسطة السواقى المستخدمة منذ القدم (*) . وفى عهد الحكمدار اسماعيل أيوب (١٨٧٣ — ١٨٧٧) تم استخدام الآلات البخارية فى أعمال الرى (٣) .

ولم تكن الإدارة فى السودان لتقبل أى نوع من التقاعس فى مسألة مياه الزراعة ووصل الأمر بها — فى بعض الأحيان — الى وقف صرف مرتبات بعض المسئولين عن هذا التقاعس (٤) ، فقد كانت لا تقبل ترك

---

(١) جريدة اركان حرب الجيش المصرى : السنة الثالثة — الجزء الأول من المجلد الاول — العدد ١ فى ٢٧ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ (١٥ سبتمبر ١٨٧٦ م) تقرير يتعلق بالخريطة الاستكشافية للجهات الشمالية الغربية من دارفور الخديوية مقدم من محمود افندى صبرى يوزباشى اركان حرب الى ميرالاى اركان حرب رئيس مامورية استكشاف دارفور . ص ٤٩ .

(٢) محافظ ابحاث السودان — محفظة رقم ١٨ دفتر رقم ٤ .

(*) ادخلت الساقية التى كان يجرها ثور الى السودان منذ اربعة قرون .

(انظر : Smith Hempton : The New African : p. 25.)

(٣) محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر . ص ١٩ .

(٤) دفاتر محافظة سواكن : دفتر ص /٢٨/٥/٢/٤ ، ورقم قديم (٣٥٨١) مكاتبة رقم ٦١٤٥ بتاريخ ٢ رجب ١٢٨٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

« قيراط واحـــد بدون زراعة » (١) • وفى سبتمبر عام ١٨٧٥ اقترح أن يتم انشـــاء مقياس للنيل فى جهة بربر بعد مصب نهر عطبره مشـــابها للمقياس الموجود بمنيل الروضة بمصر • ولا شـــك أن مثل هذا العمـــل يعد قمة مشروعات الرى فى الســـودان ، إذ عن طريقه يمكن معرفة زيادة وعجـــز الميـــاه (٢) •

الفصـــول الزراعيـــة :-

هناك ثلاثة فصول زراعية فى السودان وتحســـب بالأشهر القبطية وهى : الدميرة وهو فصـــل الفيضان ويبدأ من أواســـط بؤونه ويستمر لـــدة ثلاثة أشهر وتزرع فيه أرض السواقى ، والشتوى وهو فصـــل نزول النيل ويبدأ من أواسط شهر توت ويستمر لمدة ستة أشهر وهو أهم الفصول الزراعية ، وفيه تزرع أرض السواقى بعد حصاد زراعة الدميرة وتزرع أيضا الجروف والجزائر التى يغمرها النيل وأرض « الكروه » وأرض « الأمتار » • وآخر هذه الفصـــول الفصل الصيفى وهو فصـــل التحاريق ومدته ثلاثة أشهر من أواسط برمهات إلى أواسط بؤونه وتزرع فيه أرض السواقى والجروف وتحصـــد مزروعات هذا الفصـــل قبـــل أوانها وغالبـــا ما تكون علفـــا للمواشى وذلك حتى يتم إعـــداد الأرض لزراعة الدميرة (٣) •

أما الأراضى المطـــرية فليس لها ســـوى فصل واحـــد هو فصـــل الأمطار ، ويمتـــد سقوط الأمطـــار فى كثير من جهات الســـودان وحتى شمالى بربر • أما مديرية دنقلة فكانت الزراعة فيهـــا بواسطة الســـواقى

---

(١) دفتر رقم ٣٤٧ ، صادر تحريرات مديرية بربر والجاعلين — مكاتبة رقم ٥ بتاريخ ٣ رجب سنة ١٢٦٥ هـ . الى حاكم المتمة . دار الوثائق القومية بالقلمـــة •

(٢) محفظة رقم ١١ جهادية تركى — مكاتبة من الجناب العالى الى دولة ناظر الجهادية بتاريخ ٧ شعبان ١٢٩٢ هـ . انظر ايضا : أمين ســـامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا — المجلد الثالث — الجزء الثالث • ص ١٢٦٣ •

(٣) نعوم شـــقير : المرجع السابق • ص ٤٣ •

المقامة على النيل • ويستخدم السودانيون بالاضافة الى الساقية التابوت الذى يشبـه الساقية إلا أن له تجاويف فى جسم الاسطوانة بديلا عن الأوانى الفخارية فى الساقية •

ومن أهم الآلات الزراعية المستخدمة فى السودان المحراث والزحافة وتسمى « واسـوق » ويستخدمها فردان أو فرد واحـد وهى عبارة عن لوح خشبى مستو يسحب من الأمام بحبـل مزدوج متصل بسطح اللوح الخشبى لتسوية الأرض وعمـل الجسور ، والقصابية وتستخدم لتسوية سطح التربة ، وعصا الزراعة ، وهى عصا خشبية تنتهى بطـرف مقوس ومفلطح وحـاد وتدفع هذه العصا لاحـداث حفرة توضع فيهـا البذور ، وبالاضـافة الى تلك الأدوات هناك الفأس والمنجل وسكينة الحصاد والنورج والمذراة •

الغـلات الزراعيـة :

القطـــن :

إذا حاولنا أن نتكلم عن أهـم المحاصيل الزراعية فى السـودان ، فلا شك أن القطن يأتى فى مقدمتها من حيث الأهمية البالغة التى أولاها لـه المسئولون فى السودان • وقد عرف السودانيون القطن منـذ زمن بعيد وصنعوا منه أقمشة عرفت باسم « الدمـور » وكانت هذه الأقمشة تقوم مقام العملات النقدية فى الأسـواق ، إلا أن ذلك القطن كان من أردأ الأصـناف (١) •

وحتى فى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر كان القطن الذى يزرع

---

(١) English, G. B. : Narrative of the Expedition to Dongola and Sennar. pp. 18-21.

أنظر ايضا :

Numerous Authors : Agriculture in the Sudan. p.

بها من نوع ردىء أيضا ولا يصلح الا « للتنجيد » • وفى سنة ١٨٢١ حدث فى مصر تحول كبير فى زراعة القطن ، ذلك أن المسيو جوميل Jumel الذى جىء به من فرنسا لتنظيم مصانع النسيج لاحظ نوعا جيدا من القطن فى حديقة محو بك فأعجب برتبته ، ونصح محمد على بتعميم زراعته فى الأراضى الزراعية بدلا من قصره على الحدائق (١) •

ولقد لفت نظر محمد على إرتداء أحد رجاله وهو المعلم جنا الطويل لثوب جديد مصنوع من قماش قطن « مكاده » بالحبشة ، فبعث الى حاكم سنار طالبا إرسال كمية من تقاوى هذا القطن لتجربة زراعته فى مصر (٢) • وطلب محمد على إجراء التجارب فى المزارع الحكومية بمصر ، وأسفرت النتائج عن وجود نوعين من القطن المكادى : أحدهما ذو لوزة سوداء ولم يعط محصولا وفيرا ، والنوع الآخر ذو لوزة خضراء ويعطى محصولا جيدا ، فأمر الباشا بالتوسع فى زراعة الصنف الأخير (٣) • وبمرور الوقت ساءت بذرة هذا النوع من القطن (٤) •

وقد أبدى محمد على إعجابه ، فى عام ١٨٣٨ / ١٨٣٩ — حين زار السودان — بالنتائج التى توصل إليها محو بك فى زراعة القطن بالروصيرص، فطلب إرسال كميات من بذرته لزراعتها فى مصر بعد أن تغيرت بذرة

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ص ٥٨٥ .

(٢) دفتر صادر معية تركى — ترجمة المكاتبة التركية رقم ٦٢٩ بتاريخ ١٧ ربيع الآخر سنة ١٢٤٠ هـ من الجناب العالى الى البك الكتخدا . انظر ايضا دفتر ٢٠ معية تركى — ترجمة المكاتبة التركية رقم ٣٤ بتاريخ ٢٨ شوال سنة ١٢٤٠ هـ من الجناب العالى الى محو بك حاكم سنار . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ١٦٩ — ترجمة المكاتبة التركية رقم ٩٠١ بتاريخ ٣ ذى الحجة سنة ١٢٥٥ هـ من مجلس شورى المعاونة . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) دفتر رقم ٢٠٠ عابدين — ترجمة الأمر العالى — رقم ٢٤ بتاريخ ٢٥ رمضان سنة ١٢٥٨ هـ من الجناب العالى الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية .

القطن المصرى وهبطت بالتالى أسعاره فى أوربا (١) . واستمر السودان يبعث ببذور القطن ذات النوع الجيد الى مصر لاستخدامها فى الزراعة (٢) ، وأحيانا كانت ترسل بعض الشجيرات المزروعة بعد عمل كل الوسائل والإحتياطات اللازمة لوصولها سليمة إلى مصر (٣) وهذا لا يعنى أن مصر ظلت تستورد هذه البذور والشجيرات على مر الأيام ، ولكن ذلك كان من قبيل التجارب ، بل إن مصر هى التى كانت — فى أحايين كثيرة — ترسل ببذور القطن إلى السودان عندما يحدث شح فيها حيث يتم توزيعها على الفلاحين هناك (٤) .

وكانت الحكومة تقوم بتشجيع الفلاح السودانى على زراعة القطن وذلك بتزويده بالبذور وتعليمه طريقة زراعته . ولم تقتصر زراعة القطن على فئات معينة كالمزارعين فقط ، بل طلبت الحكومة أن يقوم الآخرون أيضا بزراعته ، وحذرتهم جميعا من عدم زراعة كافة البذور وأن لا تترك «ولا بذرة واحدة » (٥) . كذلك ، لأجل زيادة تشويق المزارعين

(١) دفتر رقم ٢٠ عابدين — ترجمة الأمر العالى رقم ٨٣٤ بتاريخ ٢٥ رمضان سنة ١٢٥٨ هـ من الجناب العالى الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية .

(٢) دفتر رقم ٢٢٩ ديوان الكتخدا ١ — وثيقة رقم ٨٣ بتاريخ ٦ جمادى الثانية سنة ١٢٦٨ هـ . ، أنظر ايضا : دفتر ٦٣٩ ديوان الكتخدا — وثيقة رقم ٥٤٩ بتاريخ ٩ ربيع الأول سنة ١٢٦٩ هـ الى الباشمعاون . دار الوثائق بالقلعة .

(٣) دفاتر محافظة سواكن (عربى) صادر — جـ ٢ دفتر ص ٨٥/٥/٢/٤/ مكاتبة رقم ٤٣ — مأمورية توكر بتاريخ ٢٧ رجب ١٢٨٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) دفاتر محافظة سواكن (عربى) صادر ، نفس الدفتر السابق ، مكاتبة رقم ٥٤ بتاريخ ١١ رجب سنة ١٢٨٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٥) دفاتر محافظة سواكن (عربى) نفس الوثيقة السابقة ص ١١١ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

السودانيين على الإقدام نحو زراعة القطن على نطاق واسع ، قامت الحكومة برفع أسعاره عند شرائه منهم (١) .

ووصلت عناية المسئولين بزراعة القطن إلى حد أنهم كانوا يبعثون من مصر بمراسلات تشرح الطريقة المثلى لزراعته ، ويبدو أن زراعة القطن فى السودان لم تكن تحتاج إلى جهود ضخمة كما هو الحال بمصر ، من حيث تكرار الحرث والرى ، بل يزرع ببذر تقاويه فى الأرض مثل الذرة ، ثم تنظف الحشائش ، ولما ينمو الشجر لا يتأثر مطلقا بشىء ، ويروى أن شجرة القطن فى السودان تعيش حتى عشرين سنة (٢) . ويتضح من ذلك أن شجرة القطن فى السودان تعطى محصولا لسنوات متتالية ، واذا ما غرست أغراس جديدة من القطن كل عام أصبحت الأراضى الخالية — على حد قول أحد المسئولين آنذاك — « غابات قطن » (٣) . وحتى الجراد الذى عرف بخطورته فى السودان لا يحدث ضررا بالغا على القطن ، فبالرغم من أنه يأكل أوراقه وفروعه الا أن الشجيرات تنمو ثانية بعد ذهاب الجراد وتظل تعطى محصولا وفيرا . أما زراعة القطن فى مصر فلا تنجح إلا عاما واحدا من شدة البرودة ، حتى أن القطن الذى تتأخر لوزاته فى أيام الصيف يتلف من البرودة أيام الشتاء ويضطر إلى إعادة زراعته مرة أخرى . أما فى السودان فإن القطن يعطى لوزات صيفا وشتاء إذا ما وجد ماء يرويه . وفى أيام الصيف اذا شحت المياه تسقط أوراقه ، أما اللوزات « فتتكرمش » وتبقى ، وبعد زوال الحر تنتج أوراقا ولوزات جديدة (٤) .

---

(١) دفاتر محافظة سواكن (عربى) ص / ٣٨/٥/٢/٤ ج ٦ (رقم قديم ٣٥٥٣) الى محافظ السواحل بتاريخ ١٢ جماد اول سنة ١٢٨٨ من مكاتبة رقم ١٠٩١ ص ٢٠ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) محافظ ابحاث السودان — محفظة رقم ١٨ دفتر رقم ٤ وثيقة رقم ٢٤٥ بتاريخ ١٠ شعبان ١٢٨٢ هـ . دار الوثائق بالقلعة .

(٣) محافظ ابحاث السودان — محفظة ١٨ ، نفس الوثيقة السابقة .

(٤) محافظ ابحاث السودان . نفس الوثيقة السابقة . دار الوثائق القومية بالقلعة .

ومن بين الوسائل الأخرى التى اتبعت لتشويق الفلاح السودانى فى زراعة القطن أن الحكومة كانت تبعث – أحيانا – ببعض تقاوى القطن دون أن تتعاطى منه شيئا سواء بالنسبة لأسعاره أو نفقات نقله ، بالإضافة إلى أنها كانت تبعث إليه بالخبراء اللازمين فى شئون زراعة القطن لتبصيره بأفضل السبل فى زراعته (١) . وكانت أيضا لا تلزم الفلاح السودانى بدفع الأموال على الأراضى التى تزرع قطنا ، بل كانت تكتفى بتحصيل العشور (٢) .

وفى مقابل تلك التسهيلات كانت الرقابة صارمة على زراعة القطن فى السودان ، فلم يكن يسمح بأدنى تهاون ، لأن هذا المحصول ، على حد بعض التعبيرات التى رددها أحد كبار المسئولين آنذاك ، « .. ينتج منه ذهب أحمر ، ومن محصوله يتيسر سداد الأموال بمواعيدها .. وترتفع المشقات والمضايقات .. » (٣) وفى واحدة من الوثائق نقرأ تعنيفا شديدا لأحد المسئولين بسواكن ، ذلك لأنه سمح للمزارعين أن يضعوا بكل نقرة أكثر من ثلاث حبات من التقاوى حتى يفرغوا من زراعته على وجه السرعة (٤) . وكانت زراعة القطن فى السودان أشبه بالمعارك وخاصة فى عهد الخديوى إسماعيل ، فها نحن نقرأ إحدى الرسائل التى بعث بها مأمور « سنكات » بسواكن يشكو فيها من قلة الذين جندوا من العمال لإنهاء عملية زراعته ، ويطلب توفير المزيد منهم حتى « يصير

---

(١) دفتر رقم ١٩٣٨ – صورة الأمر الكريم الصادر الى مديرية بربر رقم ٨٠ بتاريخ غرة المحرم سنة ١٢٨٨ هـ – دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ١٩٣٨ – صورة الأمر الكريم الصادر الى مديرية بربر رقم ٤ بتاريخ ١٦ شوال سنة ١٢٨٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفاتر محافظة سواكن – دفتر ص ٢٧/٥/٤/ – مكاتبة رقم ٦٣ بتاريخ ١٢ رجب سنة ١٣٨٦ هـ ص ١٦١ – دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) دفاتر محافظة سواكن – نفس الدفتر والوثيقة السابقة .

الهجوم على زراعته » فى أيام قلائل قبل جفاف الأراضى وانقضاء موسم الزراعـــة [١] .

ولقد ازدهرت زراعة القطن فى عهد الخديوى اسماعيل فى السودان ولا سيما فى الأجزاء الشرقية منه ، وفى أحد التقارير المرسلة الى المسئولين بمصر نجد بيانا وافيا بأراضى السودان الخصبة والصالحة لزراعة القطن ، ففى مصوع مثلا هناك ٧٤٩ر١٢٠ر١ فدانا تصلح لزراعته .

وفى سواكن وطوكر وبعض الجهات المجاورة يوجد ما يربو على مائتى ألف فدان من الأراضى التى يمكن ريها بواســطة السيول فقط وتكون جاهزة لزراعة القطن . وفى مديرية التاكة توجد أراضى مساحتها أكثر من سبعة ملايين فدان ، منها ما يزيد عن مليونين فى وادى القاش ، ويمكن زراعة مائة ألف فدان من أراضى هذه المديرية [٢] . وفى مأمورية القضارف شرقى سنار والخرطوم حيث تقل الجبال والرمال فى هذه الجهة فان جميع أراضيها منبتة وصالحة للزراعة ، وتتشقق قبل موسم هطــول الأمطــار فاذا أمطرت السماء إنساب الماء فى هذه الشقوق وتشبعت الأرض بالماء ، وفى هذه الحالة يمكن زراعة مائتى ألف فدان من القطن [٣] .

وفى جهات سنار حيث التربة الصالحة تجود أيضا زراعة القطن [٤] ،

---

(١) دفاتر محافظة سواكن — دفتر رقم ص /٤/٥/٢٧ (رقم قـديم ٣٥٨٠) — مكاتبة رقم ٩ ص ١٥ الى مأمــور سنكات بسواكن بتــاريخ ٧ جمادى الثانية سنة ١٣٨٦ هـ — دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) محنظة ١٥٢ عابدين بتاريخ ربيع الثانى ســـنة ١٢٨٨ هـ وهــذه البيــانات موجودة بالمحنظـــة رقم ٢٣ ، دفتر ١ رقم ١ من محافظ ابحــاث السـودان .

(٣) محنظة ١٥٣ عابدين — نفس الوثيقة السابقة .

(٤) F. O. 87-1404 Chartum. Decemb. 10 th. 1857. John Petherick to L. Muller. H. B. M's Acting Counsul Cairo.

ونظرا للمساحات الشاسعة من أراضيها ، فانه يمكن أن تتجاوز المساحات المزروعة قطنا بها ثلاثمائة ألف فدان (١) •

وفى مديرية الخرطوم توجد حولها أراضى بها القليل من الرمال ، وبها مواطن كثيرة للقبائل على النيلين الأزرق والأبيض وبحر عطبره ، وجميع أراضيهم تروى بماء الأمطار ، بالإضافة إلى وجود أكثر من ألف ساقية ، وإذا أضفنا إلى ذلك كله توفر وسائل النقل فى المديرية نظرا لوجودها قرب الأنهار أمكن زراعة حوالى مائتى ألف فدان قطن بها •

وفى مديرية كردفان ، خاصة الجزء الجنوبى (٢) منها ، يمكن زراعة مائة ألف فدان من محصول القطن (٣) • وفى مديرية بربر — لاسيما عند تلاقى نهر عطبرة بالنيل وفى الزاوية المنفرجة التى أوجدها تلاقيهما — بضعة مئات ألوف من الأفدنة صالحة للزراعة ويمكن زراعة مائة ألف فدان منها قطنا • وفى مديرية دنقلة حيث توجد أراضى صالحة للزراعة بواسطة السواقى ، كان من الممكن زراعة نحو ستين ألف فدان من الأقطان (٤) •

ومن هذا كله يتبين لنا مدى المساحات الشاسعة التى يمكن زراعتها قطنا فعلا آنذاك ، ويجب أن نلاحظ أن هذا لا يعنى عدم إمكان زيادة هذه المساحات التى ذكرت ، ولكن على العكس من ذلك توجد مساحات أخرى من أراضى المديريات السودانية يمكن بقليل من الجهود أن تضاف إلى المساحات السابقة ، إذ كان نقص الأيدى العاملة فى السودان يمثل واحدة من المشكلات التى تقف أمام التوسع الزراعى هناك ،

---

(١) محفظة ١٥٣ عابدين — نفس الوثيقة السابقة . ، انظر ايضا : دفتر ١٨٤٧ معية سنية ، وثيقة رقم ١٣ بتاريخ ١٦ ربيع الأول سنة ١١٨٨ هـ ص ٦٩ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) انظر : F. O. 78 - 1404 Op. Cit.

(٣) محفظة ١٥٣ عابدين — نفس الوثيقة السابقة .

(٤) نفس الوثيقة السابقة .

بالاضافة إلى سوء وسائل نقل المحصـــول سواء باستغلال الأنهــار السودانية أو غيرها من وسائل النقل الأخرى فى أماكن انتاجه .

ويرتبط إسم أحمد ممتاز فى السودان بالقطن وخاصة فى الجـزء الشرقى من البلاد . فقد شغل هذا الرجل وظيفة محافظ سواحل البحر الأحمر فى عهد الخديوى إسماعيل ، وبذل جهودا مضنية فى إستكشاف الأراضى الصالحة لزراعة القطن وتشويق الأهالى إلى الزراعة ، وطلب من مصر ارسال مقادير وافرة من البذور الجيدة وآلات لحلجه وكبسه واستخراج الميــاه (١) .

ولقد أراد ممتاز باشـــا الاستفادة من مياه السيول التى تضيع ســدى واستخدامها فى الزراعة ولا سيما زراعة القطن التى كانت شغله الشاغل آنذاك ، وذلك عن طريق عمل خزان لها قرب سواكن يتســع لحــوالى مائتين وخمسين ألف متر مياه صيفا وشتاء ، كما سبق أن ذكرنا ، وقدرت تكاليفه بثمانمائة كيســـة (٢) . ولم تكن قيمـــة هــذا المشروع تكمن فى زراعة مساحات واسعة من الأراضى المخصصة لمحصول القطــن أو غــيره من المحصـــولات ، ولكن أيضـا فى توفير ميــاه الشرب العذبة ، بالإضافة إلى توفير قدر من المــال للحكومة من جــراء فرض مبلغ زهيد من المال لقــاء هذه الخدمات (٣) ، ويبدو أن هذا المبلغ الذى فرضته الادارة هناك كان بقصد تغطية نفقات هذا المشروع . ففى مكان يدعى « شطة » أقام أحمد ممتاز سدا ترابيا ضخما لعمــل هذا الخزان ، وسخر له الأهالى لإنجــازه بأسرع وقت ممكن . ولقد لاقى أحمد ممتاز

---

(١) دفتر رقم ١٩٣٨ — أوامر صفحة ١٨ ، صورة الأمر الكريم الصادر الى مديرية بربر رقم ٤ بتاريخ ١٦ شوال ١٢٨٧ هـ . انظر ايضا :

Holt, P. M.; A Modern History of the Sudan. p. 73

(٢) محفظة ١٩ بحر برا ، وثيقة رقم ٢١ — تقرير احمد ممتاز محافظ سواكن بتاريخ ٩ شعبان ١٢٨٦ هـ — دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) محفظة ١٩ بحر برا — نفس الوثيقة السابقة .

بعض المصاعب من جانب جعفر مظهر باشا الذى شكاه الى الخديوى اسماعيل * ولكن — كما يذكر البعض — لم يلتفت الخديوى الى ذلك الأمر ، فقد كان تفكيره فقط مركزا على القطن وكيفية زيادة أسعاره وقيمة الأموال التى تتأتى من ورائه خاصة وأنه كان يطلب المال بأى وسيلة لسداد ديونه • وبدلا من أن يعاقب ممتاز باشا دعاه إلى القاهرة لشرح أفكاره حول زيادة إنتاج القطن السودانى ، فكشف ممتاز باشا عن مشروع لانتاج نصف مليون قنطار قطن سنويا فى شرقى السودان ، وبناء على الصورة الوردية التى رسمها ممتاز للخديوى طلب الأخير إليه أن يضع مشروعه فى حيز التنفيذ (١) •

وفى عام ١٨٧٠ عينه الخديوى حاكما عاما على الأراضى الممتدة فى سواكن ومصوع حتى الساحل الصومالي • وازاء هذا النصر الذى ظفر به ممتاز باشا راح ينفذ مشروعه ، وتحت تأثير من سلطته طلب من مدير التاكه أن يقوم ببناء « أطواف » * فى قوز رجب على نهر عطبره حتى يتم نقل قطن دلتا « القاش » الى مصر عبر النيل (٢) •

وفى عام ١٨٧١ أرسل الخديوى ، وربما ليتأكد من أن ممتاز باشا لم يخدعه ، مستشاره الخاص شاهين باشا كنج ليقدم له تقريرا عن مدى التقدم الذى أحرزه فى انتاج القطن ، وبالفعل وجد هذا المستشار أن ممتاز باشا عند وعده للخديوى ويعمل على قدم وساق فى إنجاز مشروعه القطنى ، وأثنى شاهين باشا على المشروع فى « شطه » ، وأوصى ببناء ترينكيتات Trinkitat (أطواف — أرماس) قرب توكر لشحن القطن ، ونصح بزراعة المزيد من الأراضى حينما لاحظ وجود الكثير من الأراضى

---

(١) Hill, R ; Egypt in the Sudan. p. 115.

(*) الأطواف هى عبارة عن الواح خشبية يشد بعضها الى بعض وتستخدم فى النقل عبر النيل .

(٢) Hill, Ibid. p. 115.

انظر ايضا : مكى شبيكه : السودان عبر القرون . ص ١٦٩ .

جاهزة للزراعة وتمتد من منطقة راوية الى عقيق (١) • ونظراً لنجاح زراعة القطن فى طوكر ألزم كل شخص هناك بزراعة مساحات من الأراضي أقلها من أربعة الى خمسة أفدنة ، ومن يأبى ذلك يفرض عليه « إجباريا » ، على حد قول ما ورد فى إحدى المراسلات — ، « ••• ما دام القصد هو حصول النفع لهم لا لخلافهم ولتباع معاشهم وانقاذهم من درجة الضيق •• » (٢) •

وتمتد مواسم زراعة القطن من أبيب الى أمشير (*) ، وفى زمن الصيف لا يعتريه أى ضرر بسبب ترادف الأمطار ، وكذلك فى الشتاء لا يخشى عليه من شدة البرودة نظرا لقرب السودان من خط الاستواء ، وهكذا فان الحرارة والبرودة لا يحدثان أى ضرر على زراعة القطن السودانى فى تلك المنطقة (٣) •

وتجدر الإشارة هنا إلى إرتفاع أسعار القطن سواء فى السودان أو فى مصر فى تلك الفترة من عهد اسماعيل وذلك بسبب الحرب الأهلية الأمريكية ، وانقطاع تصديره من الولايات المتحدة الى بلدان العالم الخارجى وخاصة أوربا ، ولكن عقب انتهاء هذه الحرب ما لبث التجار أن انصرفوا عن شراء أقطان السودان (٤) •

---

(١) Hill, Op. Cit. p. 116.
انظر ايضا شوقى الجمل : الوثائق السياسية لسياسة مصر فى البحر الأحمر • ص ١٠١ •

(٢) دفاتر محافظة سواكن — دفتر ص /٢٧/٥/٤ • مكاتبة رقم ١١٢ بتاريخ ٢٣ جمادى الثانية سنة ١٢٨٦ هـ • ص ٨٣ دار الوثائق القومية بالقلعة •

(*) ابيب وامشير من الشهور القبطية ، وكان يسير وفقها الفلاح السودانى وغالبا ما يقابل شهر أبيب شهر يولية ، وشهر أمشير شهر فبراير •

(٣) دفتر رقم ١٨٤٧ — معية — من محافظة سواحل البحر الأحمر — الى المعية السنية بتاريخ ٥ جمادى الثانية سنة ١٢٨٨ هـ ص ١٤٦ — وثيقة رقم ٣ مرور • دار الوثائق بالقلعة •

(٤) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ — ١٨٨٥ ص ١٠٣ ، انظر ايضا : Holt : op. cit., p. 73.

ولقد جرت محاولات ضخمة لنقــل القطن من مواقع الإنتاج وحتى وصــوله إلى مصر ، وكان الجمل إحدى الوسائل التى ينقل عليها القطن من الحقول الى النهر ، وحينئذ تقوم المراكب بنقله الى بربر ، ومــرة أخرى تقوم الجمال بنقله عبر الصحراء من « أبو أحمد » الى كرسكو ، على هيئة قوافل فى مدة تصل من عشرة الى خمسة عشر يوما ، ثم تشــحن إلى شلال أسوان ، وعليها هنا أن تقطع مسافة ما بين ثلاثة إلى أربعــة أميال بالجمال حتى تصــل الى أسوان ، ومرة أخرى يتم شحن القطن الى الاسكندرية عبر النيل (١) . ومن ذلك كله يتبين لنا أن محصــول القطن كان يمثل واحدا من أهم المحاصيل الزراعية السودانية فى عهــد الادارة المصرية ، وعلى وجه الخصوص فى عهد الخديوى اسماعيل ، ولقى اهتماما مكثفا من المسئولين فى جميع مراحله بدءا من إنتقــاء البذور ومــرورا بتمهيد الأرض وتوفير المياه وإنتهاء بنقله إلى مراكز الشحن والتصدير ، كذلك وضح لنــا أيضا أن المسئولين كانوا يسيرون وفق برامج وخطط مدروسة يقوم على تنفيذها رجــال أكفاء أمثال ممتاز باشــا فى شرقى السودان ، والذى إستحق أن يقرن إسمه مع اسم القطن فى السودان ، بالإضافة إلى وجود رقابة صارمة عليهم جميعا ، فكل هذه الخطوات كانت حلقات فى سلسلة قوية ، وكل حلقة منهــا تؤدى إلى الأخــرى لذا كانت النتيجة الطبيعية لكل تلك المقدمات المنطقية والعلمية انتــاج وفــير من القطن غطى الاستهلاك المحلى فى الســودان ومصر وتم تصدير كميات ضخمة منه إلى الخــارج إستطاعت فى فترة من الفترات أن تسيطر على الأســواق الأوربية والعالمية . وفى النهــاية أيضا إستطاع إنتاج القطن أن يساهم فى ميزانية الدولة بمــا وفره من نقد ضخم أدى أيضــا الى التخفيف من الأزمة الماليــة التى كانت تمر بها مصر فى تلك الآونة .

الـــذرة :

ويعد محصول الذرة من المحاصيل الرئيسية والتقليدية فى السودان

(١) F. O. 78 - 1404 op. cit.

اذ أنه كان يعد الغذاء الرئيسى للمواطن السودانى ، وتوجد عدة أنواع له أهمها : « الفترينـه » و « الكمرقى » ويزرعان فى شرقى السودان ، وأم قرط والصفرا ويزرعان على النيل الأبيض و « المقـد » وهو من أجود أنواع الذرة السودانية (١) .

وتزرع الذرة فى الأراضى التى تعتمد على الرى الدائم أو الـرى الفيضى أو أراضى المطر . وكان الســودانيون يقـومون بزراعتها مرة واحدة فى العام ، ولكن فى بعض المناطق زرعوها مرتين فى العام ، كاقاليم النوبة الشمالية ، فالزراعة الأولى كانت تعرف بالزراعـة الشتوية عقب الفيضان ويتم حصـادها فى نهاية شـهر مارس ، والزراعة الثانيـة هى الزراعة الصيفية وتبدأ بنهـاية شـهر ابريل ويتم حصـادها فى شـهر يوليـو (٢) .

وبالاضافة الى مناطق النوبة الشمالية فى زراعة الذرة نجـد منطقة التاكة تحوز على شهرة واسعة فى إنتاجه حيث أنتجت أنواعا منه ذات سـلالات ممتازة سـواء من حيث كبر حجمها وجـودة نوعها ونصـاعة بياضها وطيب مذاقهـا ، لذلك فقد كان يشـتد طلب الأهالى عليهـا فى أنحاء السودان لدرجة أن خبز القمح لم يكن يفضـل الخبز المصنوع من الـذرة إلا قليـلا (٣) .

ولقد حرص البشـاريون فى عطبره على زراعـة الذرة ولكنهم على الرغم من إمكانية الانتاج بصورة تكفى حاجاتهم ، فإنهم كانوا يعتمدون على إنتاج جيرانهم ، فكانوا يجلبونه من « قوز رجب » التى كانت تصلها

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق . ج ١ ص ٣٦ .
(٢) Ibry C. L & Mangles : Travels in Egypt & Nubia p. 14.
انظر ايضا : مصطفى أبو شعيشع : المرجع السابق . ص ١٦٤ .
(٣) بوركهارت : المرجع السابق . ص ٣٠٥ .

الغـــلال من إقليم التاكه . كذلك فقد كانت الذرة هى المحصـــول الرئيسى عند الميرفاب فى بربر (١) . وفى جبل دول لم تجـد العساكر فى أواخــر ١٨٤٥ أى نوع من الحبــوب أفضل من الذرة والتى كان الأهالى يحرصون على زراعتهـــا (٢) . وحتى فى هرر أيضـــا حرص الأهالى على زراعـــة الذرة (٣) ، وكذلك فى فيزوغلى (٤) .

وفى محاولة لإدخال سلالات جيدة من الذرة إلى السودان ، نظـــرا للإقبال الشديد عليها من الأهالى ، قامت الإدارة المصرية هناك بتجـــربة نوع من الذرة الحبشية كانت تعطى محصولا وفيرا ، وبالفعــل نجحت التجـــربة حيث أعطى كل عـــود ذرة ما بين « سبعة كيزان أو ثمانية » مما جعل محمد على يطلب تجربة زراعته بمديرية القليوبية بمصر (٥) . ويذكـــر فـــرن Werne المهندس الألمانى الذى رافق سليم قبطان فى رحلاته لكشف النيل الأبيض أن سليما قـــد أعطى السلطان (لاكونو) زعيم قبيلة البارى غلات زراعية من أجـــود السلالات ومن أهمها الذرة النيلية والذرة العويجة (٦) . وكان إنتاج الذرة فى السودان يعمـــل على ســـد الاستهلاك المحلى ، بل وترســـل منه — فى بعض الأحايين — كميات ضخمة الى مصر يتم شراؤها من الأهالى حسب الأسعار الجارية « بدون

---

(١) دفتر رقم ١٥٨١ — صادر من خلاصات جمعية الحقانية — وثيقـــة رقم ١١٣ بتاريخ ١١ صفر ١٢٦٢ هـ — دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ٣٧٨ بعية تركى — ترجمـــة الارادة رقم ١٣٣٢ بتاريخ ١٦ ذى الحجة سنة ١٢٦١ ارادة الى مدير كردفان . دار الوثائق القوميـــة بالقلعـــة .

(٣) جريدة اركان حرب الجيش المصرى : العدد ٦ بتاريخ غرة رمضـــان ســـنة ١٢٩٤ هـ .

(٤) الوقائع المصرية : العدد ١٠٣ ، بتاريخ ٢٦ رجب ســـنة ١٢٤٥ هـ ص ٤ .

(٥) دفتر رقم ١٦٩ صـــادر شورى المعـــاونة اقاليم — ترجمة المكاتبة التركية رقـــم ٦١٣ بتـــاريخ ٥ ذى الحجـــة ســـنة ١١٥٥ هـ . دار الوثائق القوميـــة بالقلعـــة .

(٦) Werne, Expedition to discover the Sources of the White Nile in the years 1840 - 1841, Vol. II. p. 77.

مجبورية » (١) وأحيانا أخرى كان يحدث العكس حيث ترسل مصر تقاويه اذا حلت مواعيد زراعته وكان المخزون قد نفد ، فكثيرا ما كانت تحدث ضائقة شديدة بسبب قلة هذا المحصول نظرا لعدم هطول الأمطار بالسودان (٢) • وكان الفائض من الذرة أحيانا أخرى يباع ومن أثمانه تصرف ماهيات بعض الجنود بالسودان (٣) •

الدخـــن :

ويجيء الدخن ، وهو حبه صغير أصفر ، في المرتبة التالية للذرة كأحد المحاصيل الغذائية في السودان ، بل انه في كردفان كان يعد غذاء رئيسيا للأهالي (٤) ، حيث يعتمد عليه حوالي ٩٠ ٪ من سكانها • كذلك فإنه يزرع في أقاليم النوبة الشمالية •

وتتم زراعة الدخن في بداية موسم الأمطار ، ولا يحتاج في زراعته إلى عناء شديد ، اللهم إلا شخصين فقط أحدهما يحفر الأرض حفرا متباعدة بمسافات محددة ، ويقوم الآخر بوضع البذور في كل الحفر ثم يردمها بقدمه ، وتتم عملية نموه في فصل الصيف ويستغرق نضجه حوالي أربعة أشهر • ويعطي الفدان الواحد من الدخن متوسطا قدره

---

(١) دفتر رقم ١٨٨٦ اوامر عربي — صورة المكاتبة العربية رقم ١ ص ١٣ بتاريخ ٩ جمادى الأولى سنة ١٢٧٣ هـ • أمر كريم الى مدير الخرطوم • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) دفتر رقم ٥٥٨ معية تركي — ترجمة الوثيقة التركية نمرة ٣ بتاريخ ٢٧ رجب ١٢٨٢ هـ • ارادة سنية الى ممتاز باشا محافظ سواكن ومصوع ، انظر أيضا : دفتر ١٨٨٦ — أوامر عربي — صورة المكاتبة العربية رقم ٦ ص ٦٩ بتاريخ ٢٠ ذى القعدة سنة ١٢٧٣ هـ • أمر كريم الى مدير اسنا • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) دفتر ١٠٠٧ نظارة المالية — الى جدة وبلاد السودان وغيرها — وثيقة رقم ٣٧ بتاريخ ٧ ذى الحجة سنة ١٢٦٣ هـ الى حضرة خالد باشا حكمدار السودان • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٤) جريدة اركان حرب الجيش المصرى : العدد ٨ بتاريخ غرة جمادى الأول سنة ١٢٩٥ هـ • ص ٥٨٢ •

حوالى نصف أردب (١) . ويستخرج من الذرة والدخن شراب « البوظة » أو المريسة (٢) .

القمــح :

أما القمح فلم تكن الأهالى تهتم بزراعته كثيرا لأنه لم يشكل غذاء رئيسيا لهم ، وكانوا يستعيضون عنه بالذرة . والمناطق التى كان يزرع بهـا قليلة جـدا سواء فى النوبة الشـمالية أو كردفان . وكانت زراعته تتم بواسـطة الرى الدائم عن طريق الآبار خاصة فى فصل الجفاف .

واشتهرت المحس بزراعته خاصة فى جزيرة « صاى » ورغم تشجيع الحكومة على زراعته الا أن إنتاجه ظل قليلا وكان تناوله يعد نوعـا من الترف (٣) .

محاصيل أخـرى :

كذلك فقد كانت زراعة الشعير قليلة فى السودان ، وهذا القليل منـه كان يزرع فى دنقلة بشـمالى السودان . ومن بين المحاصيل التى لقيت اهتماما كبيرا فى السـودان ، كانت النيلة ، حيث استخدم محصولها فى صباغة الملابس ، وكانت فى بادىء الأمر تنمو بريا دون تدخل بشرى (٤) ، ولكن الادارة المصرية فى السودان لم تقنع بهذا المحصول الضئيل منهـا

---

(١) دفتر رقم ١٦٢٦ جـ ٢ معية سـنية — عربى صـادر اقاليم مديرية كردفان وثيقة رقم ١١ ص ٨٩ ، بتاريخ ٣ جمادى الأولى سنة ١٢٧٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) نعوم شقير : المرجع السابق جـ ١ . ص ٣٦ .

(٣) دفتر رقم ١٨٨٦ أوامر عربى — صورة المكاتبة العربية رقم ٥ ص ١٨ بتاريخ ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٢٧٣ هـ . الى مدير كردفان .
انظر ايضا : مصطفى ابو شعيشع : المرجـع السابق . ص ١٧ .

(٤) دفتر ١٩٧ معاونة جهادية — ترجمة المكاتبة التركية رقم ٤٤٨ بتاريخ ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٥٣ هـ . من حكمدار السودان الى الجناب العالى . دار الوثائق اقومية بالقلعة .

فرأت أن تقوم بزراعتها والتوسع فيها والعمل على تحسين أنواعها لأن نباتها ينمو دون عناء ، فضلا عن أن استخراج الصبغة منها سهل وميسور ، بالاضافة الى ما يدره هذا المحصول من أرباح طائلة (١) .

ولقد نجحت زراعة النيلة نجاحا عظيما نتيجة الجهود الضخمة التى أولتها الحكومة لزراعتها ، وقد لاحظ ذلك الرحالة هوسكنز Hoskins خلال زيارته للسودان حيث خصصت لريها فى « دنقلة العرضى » خمسة آلاف ساقية (٢) . وفى أرقو وحدها خصص لزراعتها خمسمائة ساقية (٣) . وفى كردفان زرعت مساحات شاسعة منها وبعثت الحكومة بخبيرين لزراعتها ، وآخرين لتجهيزها من حيث إستخراج الصبغة منها . وعقب نضج المحصول كانت غالبا ما ترسل البذور الى مصر فى صناديق أعدت لهذا الغرض (٤) . وكانت الحكومة تسارع بمد يد العون عند حدوث أى نقص فى التقاوى ، التى تعددت أنواعها كالهندية منها والشامية (٥) ووصل الاهتمام مداه ساعة أن طلب محمد على من حاكم دنقلة أن يمتنع عن زراعة القطن ويتوسع فى زراعة النيلة (٦) . وقد لا ندهش لذلك الطلب اذا ما علمنا أن النيلة فى عهد محمد على كانت تدخل ضمن المحاصيل الاحتكارية التى كانت تعتمد عليها البلاد بدرجة أساسية فى دخلها القومى ، ولم يكن القطن عند محمد على فى ذلك الوقت قد أصبح

---

(١) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان . ص ٣٠ .

(٢) Hoskins ; Travels in Ethiopia. p. 177.

(٣) حسن أحمد ابراهيم : محمد على فى السودان . ص ١٥٢ .

(٤) دفتر رقم ١٨ صادر المعية . وثيقة ٦٧١ بتاريخ ١٢ جمادى الأولى ١٢٤٠ هـ . من الجناب العالى الى البك الكتخدا . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٥) دفتر رقم ١٩٧ معاونة جهادية — الى حكمدار السودان — ترجمة المذكرة التركية رقم ٤٨٨ بتاريخ ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٥٣ هـ .
انظر ايضا : دفتر رقم ٦٠٠ ديوان الكتخدا — وثيقة رقم ٢٣ بتاريخ ٩ شوال سنة ١٢٦٥ هـ . الى حكمدار السودان — دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٦) دفتر رقم ٤٦ معية تركى — ترجمة المكاتبة رقم ٦٠ بتاريخ ١١ جمادى الآخر سنة ١٢٤٢ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

يمثل محصولا رئيسيا ونقديا فى السودان بل كان ذلك على عهد اسماعيل باشا .

وقد بلغ انتاج السودان من أقراص النيلة المصنوعة سنويا آلاف الاقات (١) . وكان الفدان الواحد من أوراق النيلة يعطى حوالى خمسين قنطارا ، ويمكن الحصول على مائة وستة دراهم من كل قنطار واحد (٢) .

ونود أن نشير هنا الى أن الحكومة ظلت تحتكر محصول النيلة فى عهد محمد على ، فكانت تشترى القنطار الواحد من الفلاح السودانى بسعر ١٢ قرشا ، وكانت تبيع هى الأقة الواحدة على شكل أقراص مجففة بسعر خمسة وسبعين قرشا للنوع الممتاز من الدرجة الأولى ، وخمسين قرشا للدرجة الثانية وخمسة وثلاثين قرشا للدرجة الثالثة (٣) . وقد ظلت الحكومة تحتكر النيلة حتى عام ١٨٣٩ حيث أعلن محمد على إبان زيارته للسودان حرية التجارة فيها ، مع إستمرار المعونات السابقة التى كانت تقدم لمزارعيها من قبل للتوسع فى زراعتها (٤) .

وكان لهذا الإعلان أثر طيب فى نفوس الفلاحين السودانيين خاصة فى دنقلة — أهم مناطق زراعة النيلة فى السودان — الذين كانوا قد

---

(١) محفظة رقم ٢٧١ عابدين — ملف متفرقات السودان ، وثيقة رقم ١٦٧ بتاريخ ١٢ صفر ١٢٥٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر بدون رقم — ديوان خديوى تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٣٢٧ بتاريخ ٧ رجب سنة ١٢٤٥ هـ . من الجناب العالى الى حاكم دنقلة . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ٢٩٧ معاونة جهادية — ترجمة المذكرة التركية رقم ٤٨٨ بتاريخ ٢٤ ذى الحجة سنة ١٢٥٣ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) دفتر رقم ١٩٧ — معاونة اقاليم — صورة المكاتبة رقم ٨٠٨ بتاريخ ١٣ ربيع الثانى سنة ١٢٥٨ هـ . من الجناب العالى الى حكمدار السودان دار الوثائق القومية بالقلعة .

تقدموا بالتماسات الى الحكومة يرجون فيها السماح لهم بزراعة النيلة ، وبالفعل أجيبت طلباتهم ومنحوا « رخصا لزراعتها » (١) ٠

الأرز :

ومن المحاصيل التي حاولت الادارة المصرية زراعتها في السودان بشكل منظم الأرز ، فقد كان هذا المحصول من قبل ينمو بريا ، بالاضافة الى ما كانت تزرعه من قبل قبائل البقارة في كردفان على شواطيء البحيرات ، وكذلك في جنوب السودان (٢) ٠ الا أنه كان من النوع الرديء ذى الحبوب الصغيرة والمذاق غير المستساغ ٠

أما تلك الجهود التي بذلت لإدخال أنواع أخرى جيدة فكانت تتمثل في إرسال بعض التقاوى من الأرز المصرى لتجربته في أراضى السودان ٠ ويبدو أن هذه التجربة كان مصيرها الفشل ، اللهم الا في بعض المناطق القليلة في السودان (٣) ٠

وفي سنار فشلت زراعته على عهد محمد على ، رغم الجهود المكثفة التي بذلت من أجل زراعته ، وقد شرح المسئولون عن زراعته عوامل الفشل التي كانت تتمثل في صعوبة وصول المياه الى أراضى سنار نظرا لارتفاعها ، وكانت النتيجة أن العائد من زراعة هذا المحصول لم يغط نفقاته ، الأمر الذى دعا الى العدول عن المضى في زراعته (٤) ٠

---

(١) دفتر رقم ١٩٧ — معاونة أقاليم — صورة المكاتبة رقم ٨٠٨ بتاريخ ١٣ ربيع ثانى سنة ١٣٥٨ هـ — من الجناب العالى الى حكمدار السودان ٠ دار الوثائق القومية بالقلعة ٠

(٢) F. O. 78 - 1404. Chratum Decemb. 10 th. 1858 John Pethrick to Muller.

(٣) دفتر رقم ١٠ معية تركى — ترجمة المكاتبة التركية رقم ٣٣٨ بتاريخ ٧ شعبان سنة ١٢٤١ هـ من حاكم سنار الى الجناب العالى ٠ دار الوثائق القومية بالقلعة ٠

(٤) دفتر رقم ٧٦٤ ديوان خديوى تركى — ترجمة القرار التركى رقم ١١٧ ص ٤٠ بتاريخ غرة المحرم سنة ١٢٤٦ هـ دار الوثائق القومية بالقلعة ٠

وفى دنقلة نجحت زراعته نسبيا ، الا أن نفقات انتاجه أيضا كانت باهظة ، الأمر الذى جعل القائمين على زراعته يقصرونه على مساحات محدودة تكفى فقط حاجة عساكر الجهادية المقيمة بدنقلة (١) . فمن المعروف أن العساكر المصرية قد اعتادت أن تتناول فى وجباتها مقدارا من الأرز ، وأصبح هذا الطعام بحكم العادة ضروريا ، فلما وصلت هذه العساكر الى السودان كان لابد أيضا أن تستمر قائمة طعامهم كما هى ، وكثيرا ما وقع رؤساء الجنود فى مأزق بسبب تأخر ورود الأرز من مصر ، وأيضا بسبب عدم زراعته فى السودان أو بمعنى أدق عدم نجاحه فى التربة السودانية ، ولذلك فقد جرت كل تلك المحاولات لسد هذا النقص من ناحية ، ومن ناحية أخرى لكى يعتاد عليه الشعب السودانى كما هو المتبع بمصر ، خاصة وان السودان له من الأراضى الواسعة ما يساعد على تحقيق هذه الفكرة اذا ما زللت بقية الصعاب الأخرى كالمياه وغيرها . ورغم ذلك كله لم تنجح زراعة الأرز فى السودان وأصبح اعتماده كليا فى القرن التاسع عشر على ما تنتجه مصر . ومن المدهش أن الجهود قد وقفت الى هذا الحد فى محاولات زراعة الأرز فى السودان ، واستمرت الأوضاع كما هى حتى القرن العشرين !

قصب السكر :

وقد جرت محاولة لإدخال زراعة قصب السكر فى السودان ، وهو من المحاصيل الجديدة التى أدخلتها الادارة المصرية فى السودان ، وقامت بتجربة زراعته فى مساحة بلغت ثمانية عشر فدانا بدنقلة بقصد استخراج السكر منه (٢) .

---

(١) دفتر رقم ٧٦٦ ديوان خديوى تركى — ترجمة المكاتبة التركية رقم ١٥ بتاريخ ١٩ رمضان سنة ١٢٤٥ هـ . من حاكم دنقلة الى الجناب العالى .

(٢) دفتر رقم ٤٤ معية تركى ترجمة المكاتبة التركية رقم ١٤٤١ بتاريخ ١٩ ربيع الآخر سنة ١٢٤٨ هـ من الجناب العالى الى حكمدار السودان ، انظر ايضا شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل — ج ٢ ص ١٤٢ .

ويبدو أن زراعته فى السودان كانت مبشرة فى بادىء الأمر مما دفع الحكومة الى التوسع فى زراعته فى جهات بربر وسنار لملائمة مناخهما ، وتوفر المياه اللازمة بهما عن طريق السواقى ، لدرجة أن مأمور دنقلة طلب من الحكومة إنشاء مصنع للسكر فيها وإرسال خبير فى هذا الشأن (١) .

ولقد تم إنشاء مصلحة حكومية للاشراف على زراعة القصب فى بلدة « الكاملين » على النيل الأزرق وفى جنوب (أبو حمد) (٢) . ومع ذلك كله لم يكتب لزراعة قصب السكر فى السودان النجاح التام أو الاستمرار ، فلم يقبل الأهالى على زراعته ، ووقفت المياه حائلا دون نجاحه إذ أن زراعته تحتاج إلى كميات وفيرة منها وبشكل منظم ، بالإضافة إلى جهد شديد يبذل فى زراعته ورعايته . وهكذا تدر لهذا المحصول الفشل رغم المحاولات الجادة التى بذلت فى البحث عن عوامل فشله (٣) ، ورغم المقدمات الطيبة التى ظهرت فى تجاربه الأولية .

البن :

ومن المحاصيل التى عرفها السودانيون أيضا البن ، والذى يعتبر من أهم المحاصيل الزراعية فى ساحل البحر الأحمر الغربى وخاصة فى منطقة هرر ، والذى فاق فى جودته سائر أنواع البن ، حتى أن البن الذى كان يباع فى « مخا » باليمن ، والذى اشتهر بجودته ، هو فى الحقيقة بن هرر زرع بها وقام التجار بتصديره وبيعه فى مخا (٤) ،

---

(١) شوقى الجمل : المرجع السابق . ص ٤٤ .

(٢) Hoskins : op. cit. p. 5.

(٣) رئاسة مجلس الوزراء : مجموعة من الوثائق عن السودان . ص ١٠ .

(٤) جريدة اركان حرب الجيش المصرى — السنة الثالثة ١٢٩٤ هـ ، الجزء الخامس — المجلد الأول ، انظر أيضا : الوقائع المصرية العدد رقم ٦٥٦ الأحد ٢٨ ربيع الأول ١٢٩٣ هـ (٢٣ ابريل ١٨٧٦ م) ص ٥ .

ذلك لأن العرف قد جرى آنذاك أن ينسب البن الجيد الى محل بيعه . وقد اشتهرت عدة قبائل فى هرر بزراعته مثل قبائل « اللالا » ، و « ايتو شرشر » و « اويورا » و « العروس »[1] . وتثمر كل شجرة من أشجار البن فى السنة مرتين وكان مقدار ما يتحصل من الشجرة المتوسطة سبعة أرطال هررى وكل رطل يقدر بحوالى ٢٤٤ درهما[2] . وقد كان أمراء هرر يحتكرون زراعة البن فى تلك المنطقة ولا يسمحون للأهالى بزراعته ، ولكن الادارة المصرية تدخلت فى هذه المسألة ، وسمحت للأهالى أن يشاركوا هم أيضا فى زراعته ، وطلبت إعلان ذلك للناس جميعا ، وأن يقوم الحكمدار بنفسه بالمرور على الأهالى للتأكد من تنفيذ هذا الأمر . وزيادة على ذلك طلبت بذل الجهد فى زراعته وتحسين انتاجه ، وأوصت بالاستعانة بخبراء فى هذا الشأن من الانجليز ممن لهم دراية بذلك[3] .

وفى مديرية خط الاستواء أيضا جرت محاولة لزراعته هناك ، حيث قام أمين باشا باستيراد البن من أوغندا القريبة من المديرية ، وأدرك أنه طالما نجحت زراعته فى تلك الجهات المجاورة فانه بالتأكيد سوف تنجح محاولته أيضا فى المديرية وبالفعل أتت محاولته بنتائج طيبة ونجحت زراعته بمديرية خط الاستواء[4] .

ولقد أدخلت الادارة المصرية فى السودان كذلك الكثير من أشجار

---

(١) جريدة اركان حرب : العدد السابق ص ٤٦٢ .
(٢) جريدة اركان حرب — السنة الثالثة — العدد ٦ بتاريخ غرة شعبان ١٢٩٤ هـ ص ٤٧٤ .
(٣) جورج جندى وجاك تاجر : اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ص ٢٦٥ ، ص ٢٦٦ ؛ أنظر ايضا : سجل رقم ١٠ أوامر عربية بتاريخ ١٢ شوال سنة ١٢٩٢ هـ (١١ نوفمبر ١٨٧٥) رقم ٤ ص ٣٧ ، أنظر ايضا : شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل ، الجزء الثانى ص ١٢٩ وايضا شوقى الجمل : سياسة مصر فى البحر الأحمر ص ٢١٨ .
(٤) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء — الجزء الثانى — ص ٥ .

الفاكهة كالبرتقال والليمون والرمان والعنب (١) . وكان البطيخ يزرع فى السودان من قبل وخاصة فى جهتى دنقلة ودارفور . وكانت له فائدة كبرى — بجانب أنه فاكهة — فى دارفور حيث يستخدم كبديل للمياه طوال موسمه ، ولا يمكن للأهالى أن يقتربوا من مخازن المياه الا بعد نفاد البطيخ (٢) .

وتوجد أنواع أخرى كثيرة فى منطقة هرر كالموز والنارنج والسفرجل وغيرها (٣) ومن الجدير بالذكر أن بساتين الفاكهة فى عهد الخديوى إسماعيل كانت تعفى من الضرائب تشجيعا لزراعتها والإكثار منها (٤) . وقد عرف السودانيون أيضا زراعة الخضروات ، ولكن زراعتها لم تكن قد أخذت بعد شكلا كبيرا ، فمثلا لم يزرع فى هرر إلا صنف البطاطس (٥) ، ويبدو أن الخضروات فى تلك الجهة كانت فى حاجة الى المياه الدائمة والعذبة وهذا ما لم يكن يتوفر ، بل أن أحمد ممتاز أوضح فى تقرير له عام ١٨٦٩ إلى عدم توافر هذه العوامل لإنجاح زراعة الخضر فى معظم أنحاء السودان (٦) .

وقد اشتهرت السودان وخاصة سنار بانتاج نوع من التبغ وكثر

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على . ص ١٩٨ ، انظر ايضا : عمر طوسون : المرجع السابق ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) سجلات السودان — دفتر حسابات دنقلة وبربر رقم ٥٥٠٠ من الحجة ١٢٩٠ ١٢ شوال سنة ١٢٩٢ هـ ص ١٠ ، انظر ايضا : السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية فى افريقيا فى القرن التاسع عشر . ص ١٨٥ .

(٣) جريدة أركان حرب : العدد ٥ بتاريخ غرة رجب سنة ١٢٩٤ هـ . ص ٤٦٢ .

(٤) دفتر رقم ٥٢٩ محية سنية — مكاتبة رقم ٤ بتاريخ ٦ رجب ١٢٨١ من الجناب العالى الي حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٥) جريدة أركان حرب : العدد السابق . ص ٤٦٢ .

(٦) محفظة ١٩ بحر برا — وثيقة رقم ١٢١ بتاريخ ٩ شعبان سنة ١٢٨٦ هـ . من احمد ممتاز الى مهمند دار جناب الخديوى بمحافظ ابحاث السودان محفظة رقم ٢١ دفتر ١ .

تداوله خاصة فى منطقة شندى ويسمى بلسم « تابا » ، وعقب إمتداد الحكم المصرى للسودان أدخلت زراعة نوع جديد من الدخـان فى بلاد القضارف إمتـاز بجودة نوعه وعرف باسم « التنبـاك »(١) .

كذلك فقد عرف السودانيون زراعـة الكتان الذى كان ينمو بريا وخاصة بكردفان ، وقد طلب المسئولون بمصر جلب بعض منه لتجربته فى مصر لمعرفة مـدى فائدته فى صنع الحبال ، ويبـدو أن تجربته قـد أظهرت نتائج مشجعة مما دعا المسئولين الى التوسع فى زراعته خاصـة فى جهة دنقلة ، وقد طلب حاكمها السماح بزراعة هـذا المحصول بهـا فأجيب الى طلبه وأرسـلت له التقاوى اللازمة (٢) .

وتجـدر الاشـارة الى نبات آخـر اشتهر به السـودان وهـو « السنامكى » والذى كان ينمو بريا وخاصة فى النوبة الشمالية ، كـذلك فقد عرفت زراعته فى جهات النيل الأزرق . وتستخدم أوراق هذا النبات كمسهل . وقد ظلت الحكومة تحتكره حتى عام ١٨٤١ (٣) .

ومن محاصيل السودان الهامة والشهيرة الصمغ أو ما عرف باسـم الصمغ العربى وقـد اشتهرت به كردفان على وجـه الخصوص ، ونظرا لأهميته فقد أنشأ محمد على مصلحة خاصة به وعين لها ناظرا يقـوم بالإشراف على جمع المحصـول ، بل إنه زيادة فى العناية والحرص ، ورغم وجـود هذا المسئول فى كردفان مـكان انتاجه ، فانه كان يرسـل فى بعض الأحيان أحد كبار الموظفين للاشراف على جمع ونقـل هذا المحصول من كردفان الى دنقلة ، ثم يبدأ موظف آخر يتولى الاشراف على نقـله

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق . ص ١٥٤ .

(٢) دفتر رقم ٧٤٠ ـــ ديوان خديوى — ترجمة المكاتبة التركية رقم ٦٠١ بتاريخ ٢٦ رمضان سنة ١٢٤٣ هـ . من المعية الى أميرالاى الجهـادية . ، انظر ايضا : دفتر رقم ٧٦٦ ديوان خديوى — ترجمة المكاتبة التركية بتاريخ ٢٧ رمضان سـنة ١٢٤٥ هـ . من الجناب العالى الى حاكم دنقلة . دار الوثائق القومية بالقلعـة .

(٣) دفتر رقم ١٢٥٨ ـــ ايرادات ـــ وثيقة رقم ٢٥١ بتاريخ ٢٩ ذى الحجة سنة ١٢٥٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

من دنقلة الى حلفا ، وثالث من حلفا الى أسوان وهكذا حتى يضمن سلامة وصوله الى مصر [١] • وقد كان المحصول الذى يتم جمعه من السودان يقـدر بحوالى خمسين ألف قنطار فى العـام اذا كان الموسم جيـداً من حيث كثرة الأمطـار ، وبخمسـة عشر ألف قنطـار فى المواسـم الشحيحة [٢] •

وللصمغ فى السـودان أنواع عدة عرف بهـا مثل المطيش والنقى والزغل [٣] • وقد كان محمد على يحتكر محصـول الصمغ ولا يسـمح لغيره بالمتاجرة فيه ، فقـد طلب فى إحدى رسـائله لمدير التاكة فى عام ١٨٤٧ بأن « يمنع العرب من جمعه » حيث كان هـؤلاء العرب يبعثون به الى الحجاز [٤] • وقد كان الباشا يعـول أهمية بالغة على المحاصـيل التى كان يقـوم باحتكارها ومن بينها الصمغ ، ولم يكن ليسـمح بأى تهاون فيهـا ، فهى تمثل عنده ركنا أساسيا فى موارد البـلاد النقـدية حيث كان يصدره للعالم الخارجى ، فهـو مثلا يتدخل فى أدق شـئون الصمغ ويطلب بل ويشرح الطرق المختلفة لحفظه من البلل ؛ ووصـل به الأمر الى فصـل أحد المسئولين الكبار لاهماله فى العناية بهذا المحصـول الحيـوى [٥] •

---

(١) محفظة رقم ٢٧١ عابدين — ملف متفرقات — وارد من احمد باشـا الى دولة الباشمعاون فى ٢٠ المحرم ١٢٥٦ هـ ، انظر ايضا : محمد الأمين سعيد سياسة محمد على فى السودان — رسالة ماجستير بجامعة القاهرة ص ٤٤ .

(٢) محمد الأمين سعيد : المرجع السابق ص ٤٤ .

(٣) دفتر رقم ٣٣١ صادر المعية — وثيقة رقم ٩١٠ بتاريخ ١٥ جمادى الاولى ١٢٦٤ هـ . ارادة الى الباشا الكتخدا .

(٤) محافظ ابحـاث السودان — محفظة رقم ١١ كتاب رقم ٤١٣ صادر المعية وثيقة رقم ١٣٥١ بتاريخ ١٥ ربيع الآخر سنة ١٢٦٣ هـ . كتاب الى مدير التاكة . دار الوثائق القومية بالقلعلة .

(٥) دفتر رقم ٣٧٨ معية تركى — ترجمة الارادة التركية رقـم ١٥٦٧ بتاريخ ١٠ رجب سـنة ١٢٦١ هـ . ارادة الى مدير دنقلة . ، انظر ايضا : دفتر ٢١٥ عابدين — بند المتفرقات — ترجمة الافادة التركية رقم ٣٤ بتـاريخ ٢٣ ربيع الاول سنة ١٢٥٦ هـ . من المعاون الى مدير دنقلة .
دار الوثائق القومية بالقلعـة .

الثروة النباتيـــة :

وقد تميز السودان بأعداد وفيرة من الأشجار أشهرها النخيل وهى تكثر فى بلاد النوبة وتشتهر بأجــود أنواع التمر ، وأفضلها نخيل سكوت الذى حــاز شهرة واسعة ، ثم نخيــل المحس ، ثم نخيــل الشايقية فى جنوبى دنقلة • والدوم من أخص أشجار الســودان ، وهــو ينتشر فى أجزاء متفرقة من البــلاد •ويقوم السودانيون بتجفيف ثمره ثم يدقونه ويستخدمونه كغذاء (١) • ولمــا رأت الادارة المصرية فى عهــد الخديوى اسماعيل ضرورة مد خطــوط التليغراف فى أنحــاء السودان وجدت أن شجر الدوم يصلح لهذه الخطوط ، فرأت الاستفادة من أشجاره فى هــذا الشأن خاصة وانه يوجد بكثرة (٢) •

كذلك زخر السودان بأشجار أخرى مثل شجر الدوليب الذى يشبه أشجار الدوم ، والعرديب وهو شجر التمر الهندى ، وأشجار السدر وهى النبق ، وكذلك الجميز ، وأشجار السنط الذى اشتهر بصلابة أخشــابه وثقلها وكانت تصنع منها المراكب الكبيرة وآلات الســواقى فى السودان •

وكذلك وجدت أشــجار « الأبنوس » التى اشتهر بها الســودان وهى تكثر على النيل الأزرق ، ومن أخشابه كانت تصنع الكراسى والموائد والصناديق والعصى والمسابح • وهناك أيضــا شجر « العشر » الــذى يستخدم فى صناعة البارود والحبــال والقوارب الصغيرة وأسرجة الحمير وألواح الكتابة (٣) •

وبالاضــافة الى ذلك وجدت أشــجار « الأراك » الذى يستاكون

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق • جـ ١ ص ٢٩ •

(٢) دفتر رقم ٥٦٠ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٣٤ ص ٨٧ بتاريخ ٢١ محرم سنة ١٢٨٣ هـ • من شريف باشا الى المهمندار • دار الوثائق القوميــة بالقلعــة •

(٣) الوقائع المصرية : العدد ٥٤٨ ، الخميس فى ٢٠ ربيع الآخــر سنة ١٢٤٩ هـ •

أنظر أيضا : نعوم شقير : المرجع السابق • ص ٢٩ وما بعدها •

بفروعه بعد تهذيبها ، وأشجار الخروع ويستخرجون منها زيتا يدهنون به أجسادهم ورؤوسهم . وكذلك وجدت « الحلفا » وهى من النباتات الشهيرة أيضا فى السودان وتأكلها الجمال والدواب وتجفف وتصنع منها حبال يشدون بها السواقى والأسرة (١) .

وبالاضافة الى هذه الأشجار وجدت أنواع أخرى أيضا مثل « النسليق » الذى يعتقد بعض السودانيين أنهم اذا أرادوا أن يقدموا على شىء قطعوا غصنا منها وحملوه بأيديهم ظنا منهم أن حاجاتهم سوف تقضى بحمله (٢) . وهناك شجر « السردل » الذى ينبت فى كنف الجبال ويدوم أزمانا طويلة ، وتوجد أيضا شجرة « أبو خميرة » وهى تشبه شجر التمر حنا ويؤكل ورقها كورق « العرديب » ويداوى به بعض الأمراض التى تصيب العين ، وله ثمر كألسنة الحيوانات (٣) ، وهناك أنواع كثيرة أخرى من هذه الأشجار مثل « اللعوث » و « الدبكر » و « أم شلله » وغيرها . وقد استخدمت الأشجار فى دارفور لتخزين المياه بكميات ضخمة زمن الأمطار ، وتظل تشرب منها القوافل والأهالى لمدة ثلاثة شهور (٤) .

وكانت مصر فى حاجة الى أخشاب السودان ورأى المسئولون بمصر أن هذه الأخشاب لو عملت آرماثا وأرسلت الى مصر لانتفع أهاليها وتم توفير أثمان هذه الأخشاب ، وكانت الحاجة إليها شديدة فى مصر وخاصة فى المطابخ المصرية التى على حد قول المسئولين « لو استخدمت فسوف

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق ص ٣٥ .

(٢) الوقائع المصرية — العدد ١٠٣ ، الأربعاء فى ٢٦ رجب سنة ١٢٤٥ هـ ص ٤ .

(٣) الوقائع المصرية — العدد السابق . ص ٤ .

(٤) محفظة رقم ٢٩ معية عربى — مستخرج من المعية التركى رقم ١ — ٤٢ بتاريخ ١٤ صفر سنة ١٢٨٤ هـ . من القائمام محمد نادى الى الخديوى أنظر أيضا : السيد يوسف نصر : المرجع السابق . ص ١٨٥ .

يتضح مدى المبالغ التى يتم توفيرها » (١) • وبالفعل فقد جرت الاستعدادات من توفير الرجال والأدوات لقطع هذه الأخشاب فى عام ١٨٧٧ من غابات النيلين الأبيض والأزرق (٢) •

ولما رأى المسئولون بمصر غنى السودان بالثروة النباتية وتنوعها طلبوا إرسال عينة « فسائل أشجار وتقاوى نبات » من هناك وتجربتها فى الحديقة التى كان يجرى تنظيمها داخل سراى « طوب قبو » السلطانى بالأستانة (٣) •

وبالرغم من تلك الجهود التى بذلت للاستفادة من غابات ونباتات السودان فانها تعتبر جهوداً متواضعة، ذلك أن تلك الثروة النباتية الهائلة كان يمكن إستغلالها بصورة أفضل مما حدث نظرا لحجم المساحات الضخمة من الغابات وتنوع هذه الأشجار • ويبدو أن صعوبة النقل والمواصلات فى السودان وخاصة فى الوصول الى تلك الغابات وعدم وجود الأيدى العاملة الكثيرة ونـدرة الأدوات الحديثة وأخيرا قسوة المناخ قد حال دون الاستفادة منها اقتصاديا بصورة كاملة •

الثروة الحيوانية :

وبالاضافة الى الثروة النباتية يمكننا أن نتكلم أيضا عن الثروة الحيوانية فى السودان لما لهذا الجانب من أثر فعال فى عملية الانتاج الزراعى ، وخاصة فى مجتمع السودان فى ذلك الوقت حيث كانت

---

(١) محافظ أبحاث السودان : محفظة ١٨ — وثيقة رقم ٢٤٥ بتاريخ ١٠ شعبان ١٢٨٢ •

(٢) دفتر رقم ١٨٥٢ معية عربى — صورة المكاتبة رقم ٨٨ ص ٦ الصادرة من المعية السنية الى نظارة المالية بختم سعادة المهردار بتاريخ ١٦ شوال سنة ١٢٨٨ هـ •

(٣) دفتر ٥٥٨ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٣١ ص ٦٢ بتاريخ ٢٥ ربيع الأول سنة ١٢٨٣ هـ • ارادة سنية الى حكمدار السودان دار الوثائق القومية بالقلعة •

الحيوانات كالجمال والثيران والأبقار تلعب دورا لا بأس به فى عملية الاقتصاد • ومن المعروف أن السودان أيضا بالاضافة الى غناه فى الثروة النباتية هو أيضا غنى بثروته الحيوانية سواء المستأنسة منها أو البرية ، ويمكن القول بأن الادارة المصرية منذ أن امتدت الى السودان استطاعت أن تستغل هذه الثروة الى حد كبير وتسخرها فى خدمة الانتاج السودانى أو الانتاج المصرى • وقد حث محمد على — منذ الوهلة الأولى — رجاله فى السودان على الاجتهاد فى ارسال المواشى السودانية الى مصر • وقد حصل محمد على على هذه المواشى بثلاث وسائل ؛ الأولى عن طريق شرائها من أصحابها والثانية عن طريق الغزوات ضد القبائل المتمردة فى جبال السودان ، والثالثة كانت تؤخذ — أحيانا — بدلا من الضرائب اذا عجز البعض عن دفعها نقدا (١) •

وكان الباشا يعين بعض « النظار » فى الأماكن التى تمر منها المواشى وهى فى طريقها من السودان الى مصر ، وخاصة فى جهات أسوان وجرجا والمنيا ، وكانت مهامهم تنحصر فى تقديم الكشوف التى تصل الى هذه المناطق وعدد ما ينفق منها فى مسيرتها الطويلة (٢) • بل انه زيادة فى الاهتمام أرسل فى احدى المرات أعدادا كبيرة من الضباط والمعاونين لتوظيفهم فى « أشوان المواشى الآتية من بلاد السودان » (٣) •

---

(١) حسن احمد ابراهيم : محمد على فى السودان ص ١٣٨ — ١٤٠ •
انظر ايضا : Pallme : Travels in Kordofan. p. 37.

(٢) دفتر ١٨٩ ، شورى المعاونة الملكية — ترجمة الوثيقة رقم ١٦٧ بتاريخ ١٠ شعبان سنة ١٢٥٩ هـ . افادة الى الترسانة . وهى موجودة بمحافظ ابحاث السودان محفظة رقم ٨ . دار الوثائق القومية بالقلعة
انظر ايضا دفتر رقم ٣٦٩ معية تركى — وثيقة رقم ٤١٦٦ بتاريخ ٩ رجب سنة ١٢٥٩ هـ . ارادة الى الشورى . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ٢١٠ ، صادر ديوان المعاونة للاقاليم — وثيقة رقم ٣١١ بتاريخ ٦ صفر سنة ١٢٥٩ هـ — كتاب الى حكمدار السودان .
انظر ايضا : دفتر ٣١٧ — صادر شورى المعاونة — جهادية — وثيقة رقم ٧٤٩ بتاريخ ٨ شوال سنة ١٣٥٨ هـ . كتاب الى مدير الجهادية .

وقد وفر محمد على كل السبل حتى تصل هذه المواشى سليمة الى مصر ، من حيث الأعلاف وطريقة السير بها عبر صحراوات السودان وبين دور كل مديرية من المديريات السودانية والمصرية التى تمر عبرها هذه المواشى • وزيادة على ذلك كله أمر الباشا بارسالها فى فصل الخريف حتى يضمن وجود العلف الكافى لهذه الحيوانات (١) • وقد استمر ارسال هذه المواشى فى عهد خلفاء محمد على الى مصر ولكن بصورة متقطعة ، واستطاعت هذه الحيوانات أن تسد نقصا كبيرا فى حيوانات الزراعة (٢) سواء فى السودان أو مصر ، فهذه المواشى فى السودان استخدمت فى ادارة السواقى ، ويمكننا أن نتصور مدى الخسارة التى كان يمكن أن تواجهها مديرية كدنقلة — على سبيل المثال — اذا لم تتوافر مثل هذه الأعداد الهائلة من المواشى ، فقد كانت هذه البلدة وما حولها تعتمد بصورة أساسية عليها فى ادارة آلاف السواقى ، بالاضافة الى استخدامها فى عملية الحراثة وغير ذلك من المهام التى كانت تؤديها •

ومن بين الحيوانات الأخرى التى اشتهر بها السودان كانت الابل (*) ، وقد توفرت فى مناطق كثيرة من البلاد ، وكانت تؤدى هى الأخرى مهام عدة ، فقد كان السودانيون يقومون بتأجيرها لتجار الحضر ، بالاضافة الى أكل لحومها والانتفاع بأوبارها فى صناعة الخيام • الا أن الدور الكبير والرئيسى الذى لعبته الابل كان ينحصر فى الحمل والركوب ، ومن أشهر ابل الركوب والحمل ابل الهدندوة نظرا لشدة

---

(١) دفتر رقم ٧١ معية تركى — ترجمة الوثيقة رقم ٣٤٦ بتاريخ ١٩ ذى الحجة سنة ١٢٥١ هـ ، انظر ايضا : دفتر رقم ٢٤ معية تركى — ملخص الوثيقة رقم ٢٨٠ بتاريخ ٢٢ شوال سنة ١٢٤٤ هـ ، انظر ايضا : دفتر رقم ٧٤ معية تركى — ملخص الوثيقة التركية رقم ٣١٢ بتاريخ ٢٨ شوال سنة ١٢٤١ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا — المجلد الثانى — الجزء الثالث ص ٣٤٧ — ٣٤٨ .

(*) ادخلت الابل الى السودان عن طريق الفرس منذ ان غزا قمبيز مصر عام ٥٢٥ ق . م .

انظر : Smith Hempstone, The New African p. 25.

صبرها على الجــوع والعطش . وأما ابل الركوب فأشهرها على الاطلاق ابل البشارية نظرا لسرعتها وخفة حركتها ولين ظهرها (١) .

وتجدر الاشارة الى أن الابل قد لعبت دورا هاما فى حملة عــام ١٨٢٠ الى السودان ، فقد استعان الباشا بقبائل العبابدة فى جنوب مصر فى امداده بالابل لحمل الأمتعة والأسلحة عبر صحراوات الســودان ، وقد ظلت الابل تلعب دورا هاما منذ ذلك الوقت فى الجيش المصرى بل حتى وقت قريب وخاصة بسلاح الحدود حيث توجد صحراوات واسعة على كافة حدود البلاد .

ومن العجيب أن الفلاح السودانى لم يستخدم الجمل بصورة كبيرة فى عملية الانتاج الزراعى اللهم الا فى مســألة نقل المحصولات الزراعية ، فلم يستفد منــه — مثلا — فى ادارة السواقى مستغلا طاقته الكبيرة كما يحدث ببعض جهات مصر وخاصة بالوجه البحرى . وربما يرجع ذلك الى توفر البديل والمتمثل فى الأعداد الرهيبة من الثيران والأبقــار بصــورة لم تدع الى استخدام الجمل فى ادارة تلك السواقى ، وسهولة استخدام تلك الثيران والأبقار عن الابل ، وأصبحت هناك شبه قناعة بأن الابــل ينحصر دورها فى عملية النقــل والتنقل عبر الصحراء .

ولما كانت الأبقار والثيران ترسل الى مصر ، فقد أرسلت أيضا الابل لتؤدى دورها فى عملية الانتاج الزراعى بمديريات مصر (٢) .

وبالاضافة الى ذلك وجدت الأغنام والماعز فى السودان ، وعلى نطاق واسع أيضا ، ولكن يبدو أن الصوف والشعر الناتج عنهما كان قصــيرا ، لذا فان المســئولين بمصر رأوا أن من الأفضــل لو أرسلت أعــداد من

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق جـ ١ : ص ٤٠ .

(٢) محفظة رقم ٢٧١ عابدين — نمرة أصلية ٢١ ، نمرة حمــراء ٧٦ ، بتاريخ ٢٠ ربيع الأول سنة ١٢٥٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

الأغنام الى السودان فسيكون ذلك مدعاة لتحسين نسلها وظهور ذرية ذات صوف طويل (١) .

وتوجد أنواع أخرى من الحيوانات كالخيل بأنواعها الدنقلاوية والغرباوية والمكادية ، والحمير ، والبغال .

وربما يكون من المفيد أن نشير الى المكانة الهامة والخطيرة التى احتلتها الثروة الحيوانية فى حياة المجتمع السودانى ، فقد كانت تقيم مكانة الفرد بين قبيلته ، بل ومكانة القبيلة نفسها بين سائر القبائل الأخرى بما تمتلكه من هذه الثروة الحيوانية ، وحسب نوع الحيوان السائد فى كل قبيلة ، فعند قبائل البقارة فى غرب السودان وقبائل الدينكا فى جنوبه كانت تقدر بحجم الماشية التى فى حوزة كل من هاتين القبيلتين .

كذلك فقد لعبت الابل عند البجه دورا اجتماعيا هاما ، فالدية كانت تدفع ابلا ، وكذلك المهر ، وكانت الابل تفضل على سائر القطعان الأخرى كالأغنام مثلا ، ولا وجه للمقارنة عندهم بينها وبين الابل من حيث الأهمية الاقتصادية والوجاهة الاجتماعية اللتين تضفيهما هذه الثروة الحيوانية على مالكيها . فالقبيلة التى تنقص ابلها او تبيد تتعرض لكارثة ، وربما تهن ويضطرب كيانها ولابد بعد ذلك ، ان أرادت الحياة ، أن تندمج فى قبيلة أخرى وإلا فالفناء مصيرها (٢) .

وبالاضافة الى تلك الجهود التى بذلت فى السودان للمحافظة على

---

(١) رئاسة مجلس الوزراء : مجموعة من الوثائق عن تاريخ السودان . ص ١٥ ، أنظر ايضا : محافظ أبحاث السودان ، محفظة ١٨ ، دفتر رقم ٤ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٤٥ بتاريخ ١٠ شعبان سنة ١٢٨٢ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) محمد عوض محمد : السودان الشمالى سكانه وقبائله . ص ٥٢ .

الثروة الزراعية ، امتد الاهتمام الى محاربة الآفات التى تعرضت لها الزراعة كالجراد مثلا الذى كان يهجم على المزروعات ، ويؤثر بالتالى على حجم الانتاج الزراعى • ففى عام ١٨٦٥ عجزت الأهالى فى خلفا عن منعه فأكل مزروعات تلك الجهة ، حتى جريد النخيل ، ولم يترك شيئاً من « المزروعات والأشجار حتى سقوف المنازل أيضا » (١) •

وكثيرا ما كان ينتج عن تلك الهجمات الشرسة التى يقوم بها الجراد على المزروعات شح فى التقاوى والخبز أيضا (٢) •

ولم تقف الحكومة مكتوفة الأيدى أمام هذا الخطر ، فكانت كثيرا ما تكل الى الجنود مهمة ابادة الجراد وتقليل خطره ، عن طريق تغيير مسار اتجاهه ، أو القيام بحفر حفر فى طريقه وإشعال النيران فيها (٣) •

كذلك فقد كانت المزروعات تتعرض أحيانا لخطر بعض الديدان ، فكانت ترسل عينة منها لمصر لفحصها وابتكار الوسيلة الملائمة للقضاء عليها (٤) • وبالاضافة الى ذلك فقد وجدت الفئران فى بعض جهات السودان والتى كانت تصيب المزروعات بالتلف البالغ من جراء ما تسببه من أكل لها (٥) • وقد انتشرت أيضا الصراصير وهى ذات نوعين فى

---

(١) دفتر رقم ١ عابدين — وارد تليغرافات — صورة التليغراف العربى رقم ٦٧ — ورد بتاريخ ليلة ١٤ جمادى الثانية سنة ١٢٨٢ هـ • من مفتش عموم قبلى الى سعادة رياض باشا • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) دفتر رقم ٣٩٣ صادر المعية السنية — ترجمة الارادة التركية رقم ٥٥ بتاريخ ٢٣ رمضان سنة ١٢٦١ هـ • ارادة الى مدير كردفان • ، انظر أيضا : محافظ ابحاث السودان — محفظة رقم ١٧ — دفتر رقم ٢ وثيقة بتاريخ ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) محافظ ابحاث السودان — محفظة رقم ١٠ ، وثيقة مستخرجة من الدفتر رقم ٣٩٣ صادر ديوان المعية — ترجمة الارادة التركية رقم ٦٢ بتاريخ ٢٤ رمضان سنة ١٢٦١ هـ • ارادة الى مدير كردفان • دار الوثائق القومية بالقلعة • ، انظر ايضا :

Hill ; Egypt in the Sudan p. 55.

(٤) دفتر رقم ٢٠ معية تركى • ترجمة المكاتبة التركية ٢٨٥ — ٢٨ جماد أول ١١٤١ هـ من الجناب العالى الى حكمدار السودان — دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٥) نعوم شقير : المرجع السابق • ج ١ ص ٤٩ •

السودان الأول منها يسمى « الجنــوب » وهــو صغير الحجم والآخــر يعرف باسم « الجدجد » وهو صرصار الليــل ، وتكثر هذه الصراصير فى مواسم الأمطار وتفتك بالبذور والنباتات الصغيرة ، وأخــيرا وجــد النمل الأبيض الذى انتشر فى معظم أرجاء السودان وكان هو الآخــر يلحق ضررا بالغا بالنباتات • وهذه الأخطــار التى تعرضت لها الزراعة فى السودان قد تركت بعض الآثار عليها • ورغم تلك المحــاولات التى بذلت فى القضاء عليها ، فقــد أمكن ــ كما رأينــا ــ وقف أو تقليــل أخطار بعضها على المزروعات ، وفى أحيان أخــرى كانت تحدث أضرارا جسيمة ، قد تؤدى الى مجاعات اذا كانت واقعة على الحبوب •

النظــم والقــوانين :

وفى ختام هذا الفصل نود أن نشير الى أن السياسة الزراعية التى اتبعت فى السودان طوال هذه الفترة ، قد استمدت معظم عناصرها ونظمها الرئيسية من السياسة التى اتبعت فى مصر آنذاك مع شىء من التعــديل الذى اقتضته ظروف السودان الخاصة ، لعل فى مقدمتها وأهمها نظــام الاحتكار الزراعى فى عهد محمد على ، فقد طبقه فى السودان وان لم يكن بنفس الشــدة التى طبقه به فى مصر ، فالاحتكار فى السودان لم يشمل الحبوب وغيرها من الغلات الغذائية التى كان يعتمد عليها الفلاح السودانى فى معيشته ، وما يقــال عن نظــام الاحتكار الزراعى يمكن أن يقال عن نظام السخرة الذى اتبع مع الفلاحين • والسخرة فى الســودان كانت تنحصر فى بعض نواح معينة كتكليف بعض الفلاحين المقيمين على ضفاف النيــل بتيسير مرور المراكب والقوارب الحكومية وسحبها حين لا تقــوى الريح على دفعهــا (١) •

---

(١) دفتر رقم ٣٩٢ معية تركى ــ وثيقة رقم ١٨٥٦ بتاريخ ٢٦ رجــب سنة ١٢٦٢ هـ من الجنــاب العالى الى حكمدار الســودان • دار الوثائق القوميــة بالقلعــة .

ولم يحدث ذلك الا فى بعض الأوقات وبشكل غير رسمى وتحت ظروف معينة • وكانت الحكومة ترسل بعض المسئولين للتحقيق فى مثل هذه الأمور وتعاقب المسئول عنها (١) •

وقد منع سعيد باشا بشكل قاطع أعمال السخرة فى السودان وطلب بأن « لا يصير تسخير أبقار ولا جمال ولا أخذ شىء من الأهالى بغير رضاهم » (٢) • وقد اعترف الأجانب ، رغم بعض تلك التجاوزات التى حدثت من قبل بعض المسئولين تجاه الفلاح السودانى على عهد محمد على ، أنه كان أسعد حالا من الفلاح المصرى (٣) •

ولم يشأ محمد على أو خلفاؤه أن يشتدوا فى تطبيق النظم والقوانين مع الفلاح السودانى كما فعلوا مع الفلاح المصرى ، لأنهم كانوا يعتقدون بأن الزراعة فى السودان فى حاجة الى النهوض ولابد من ترغيب السودانيين فيها • وأما ما يقال عن تلك الغلات التى شملها نظام الاحتكار فى السودان فقد كانت برية ، مثل الصمغ ، وبعض المنتجات الحيوانية ، فالصمغ كان متوفراً فى الغابات سواء بكردفان أو سنار ، وأما جلود الحيوانات فلم يكن السودانى يستفيد منها بصورة كبيرة نظرا لعدم معرفته بطرق اعدادها وتمليحها • وهذه الغلات كانت تشترى من المزارعين بأسعار زهيدة ، وأحيانا تؤخذ فى مقابل الضريبة المقررة عليهم • ولم تكن الحكومة تصر على هذا الاحتكار ، فخلال زيارة محمد على للسودان فى عام ١٨٣٨ / ١٨٣٩ استمع لبعض الشكاوى حول احتكار

---

(١) دفتر ١٨٨٦ — اوامر عربى — صورة الامر الكريم رقم ٣٥ ص ٣٣ بتاريخ ٢٩ جمادى الأول سنة ١٢٧٣ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ١٨٨٦ — أوامر عربى — امر الى الشيخ احمد على بشير شيخ نلحيبة احمد بشير بخط المتمه — امر رقم ٣٥ ص ٣٣ بتاريخ ٢٩ جماد أول ١٢٧٣ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) Hoskins : Op. Cit. p. 232.

الحكومة لزراعة النيلة ، وأنهم يرغبون فى زراعتهـا لحسابهم الخـاص فما كان منه الا أن أمر بحرية زراعتها والاتجار بها (١) .

وقد خلص محمد سعيد باشا الفلاح السودانى من مشاكله الماليـة وذلك بالغاء الضرائب المتأخرة عليه ، وتخفيض الضريبة القائمة ، وأمر فى خلال زيارته للسودان عـام ١٨٥٧ بأنه من الآن فصـاعدا يقررون بأنفسهم ما يتفق مع ظروفهم وأحوالهم ، وكانت النتيجة لذلك أن أقبـل الفلاح السودانى على الزراعة بنفس راضية وانعكس ذلك كله على الانتاج زيادة ورخـاء (٢) .

وفى الفترة التى تلت عهـد محمد سعيد وحتى عـام ١٨٨١ ، بدأت تظهر بعض اللوائح والقوانين كأسلوب حتمى لمواجهة التطورات الزراعية فى السـودان والظروف المالية التى تمر بهـا البلاد ، وبدأ المزارعـون يتذمرون منها ، خاصة وقد اشتط الحكام فى اسـلوب تطبيقها مما أدى الى ضرورة بحث هذه اللوائح والقوانين حتى يتمكن الفلاح السودانى من القيام بأمـور زراعته ... ذلك ما قام به بالفعـل رءوف باشـا فى تقريره المشهور عام ١٨٨٠ عن أوضاع المديريات السودانية ولـكن بعد فـوات الأوان . *

---

(١) محفظة ١٢٣ — ملـف متنرقات — دوسية بـدون تاريخ سـنة ١٢٥٤ هـ رحلة ساكن الجناب محمد على باشا الى السـودان — وثيقة رقم ١٠٨/٢٥ ملف السودان — دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) Abbate : De l'Afrique Centrale ou Voyage Du S : A. Mohammed Said - Pasha dans Ses Provinces du Soudan. p. 47.

(*) سوف نعرض بالتفصيل فى فصل لاحق للضرائب وشئون المـال فى السـودان .

الفصل الثانى

الثروة المعدنيـــة والصناعة

(أ) البحث عن المعـــادن :

- الذهـــب
- الحـــديد
- النحـــاس
- الرصـــاص
- الملح فى الأجزاء الشرقية والجنوبية

(ب) أهم الصناعات وتطورها :

- الصناعات القائمة على الغلات النباتية :
  (صناعة حليج القطن — صناعة نسيج القطن)
- صناعة النيـــلة
- الصناعات الخشبية (صناعة المراكب — صناعة السواقى — صناعة الأسرة والأبواب والنـــوافذ — الأوانى والأوعيـــة الخشبية — صناعات أخرى) .
- الصناعات القائمة على أشجار النخيل والدوم .
- صناعة الصـــابون .
- صناعة قصب السكر .
- ادخال الحرف للسودان .
- عوامل فشل الصناعة السودانية .

الفصل الثانى

الثروة المعدنية والصناعة

لم يكتف محمد على ولا خلفاؤه فى السودان بالاهتمام بالجوانب الزراعية وحسب ، ولكنهم راحوا يفتشون عن مصدر اقتصادى آخر يساعدهم على بناء دولة قوية موطدة الأركان . ومنذ أن وطئت أقدام الجيش المصرى أرض السودان بدأ البحث عن المعادن ، بل قد لا نسرف القول ان قلنا ان هذا الاهتمام كان قبل ذلك ، فقد تردد كثيرا أن الذهب كان من بين الدوافع التى حفزت محمد على الى ضم السودان الى مصر . ومما لا شك فيه أن قيام أى نهضة صناعية فى أى بلد من بلدان العالم لا يمكن لها أن تزدهر أو حتى تقف على أقدامها الا اذا توافرت لها جملة أسباب على رأسها توافر مواد الخام بصورة اقتصادية ، بمعنى أن هذه المواد الخام لابد أن تكون متوفرة بشكل يغطى جميع نفقات البحث عنها والا أصبحت عملية التنقيب ضربا من التخبط الاقتصادى . ولهذا ، بدأ محمد على ، كما ذكرت ، ينقب عن هذه المعادن وفى مقدمتها الذهب الذى أولاه عناية بالغة .

(أ) الذهب :

تركز البحث عن الذهب فى السودان فى منطقتين رئيسيتين هما : حول جهات فازوغلى وفى جبل شيبون الذى يقع جنوبى كردفان ، ولكن فى واقع الأمر ان التركيز فى البحث كان على أشده فى منطقة فازوغلى .

وبمجرد أن سيطر اسماعيل كامل على سنار ، حتى قصد فازوغلى فى أول يناير عام ١٨٢٢ ، ومكث بها ثلاثة عشر يوما ، ثم مضى بعدها الى جهات « القماميل » فى جبال بنى شنقول ، وكان يرافقه فى هذه

الرحلة أخصائى المعادن « المعدّن » « مليود » وبعض « اللغمجية » (١) .

وكان الأهالى فى هذه المنطقة قد حفروا عـدة آبار « مناجم » فى سبيل البحث عن هذا المعـدن ، فملأ اسماعيل من ترابها جوربين وأرسلة الى الباشـا فى مصر لاخضـاعه للتجارب لمعرفة نوع الذهب ودرجـة جودته (٢) . وعقب تسلم الباشا للجوربين قرر أن يبدأ فورا البحث عن الذهب ، فطلب خبيرا أوربيا له دراية واسعة فى مجـال التعدين ، وأمر بارساله عقب فصل الخريف مباشرة إلى السـودان ليطوف مع نجـله فى تلك البلاد « فيعاين المواضع التى يرجى وجـود المعدن فيها ويتبين من حقيقة الحال بمقتضى صنعته . ثم يقرر ما وجـد ، ان وجد شـيئا وما لم يجده . فيقول الكلمة القاطعة ... » (٣) .

ويبدو أن الأحداث التى اندلعت فى السودان ، عقب الاجـراءات الضريبية التى اتخذها « حنا الطويل » وغيرها من الأسباب ، قـد حالت دون اتمام مهمة البحث عن الذهب . فعاد اسماعيل الى سنار ، ثم تطورت الأحـداث لتؤدى الى مقتـله فى اكتوبر عـام ١٨٢٢ ، ثـم تتلو ذلك أحـداث الدفتر دار الانتقامية . وأدت هذه الأحداث الى تهديد سلامة الطريق الى مناطق الذهب فى جهات فازوغلى وغيرها . وعقب هدوء هذه الأحداث وسيطرة الحكومة على الطرق المؤدية الى مناجم الذهب ، كلف محمد على فى عام ١٨٢٥ « بروكى » بصحبة درويش أغا « ناظر المعادن » للبحث عن المعادن بشـكل عام والذهب بصفة خاصة . ويبدو أن المسئولين

---

(١) حسن احمد ابراهيم : محمد على فى السودان . ص ١٠٠ .

(٢) دفتر ١٠ معية تركى ، ترجمـة الوثيقة التركية رقم ٢٤٠ بتـاريخ ٧ شعبان سنة ١٢٣٧ هـ . من الجنـاب العالى الى سر عسكر السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ١٠ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقـم ٢٤٥ ، بتاريخ ٧ شعبان سنة ٢٣٧ هـ من الجناب العالى الى سر عسكر السودان . دار الوثائق اقومية بالقلعة .

بالخرطوم لم يذللوا مهمة بروكى فمكث بها حتى عام ١٨٢٩ ولما ينجز مهمته التى جاء من أجلها (١) •

وفى عهد حكمدار السودان خورشيد باشا « ١٨٢٦ — ١٨٣٨ » أولى عملية التنقيب عن الذهب عناية لا بأس بها ، فقد آل على نفسه أن يذهب على رأس المنقبين ، أو يرسل « عيسى أغا » الى جبال بنى شنقول من أجل انجاز هذه المهمة ، ولكن ثمة أمور حالت دون اتمام خورشيد لمهمته ، حيث ترامت الى سمعه أخبار تزعم أن الأحباش يدبرون مع بعض القبائل السودانية والعصاة الفارين الى تخوم الحبشة مؤامرة للقضاء على سلطة الحكومة فى الجزيرة وسنار واعادة السلطة لأهل البلاد (٢) • إلا أن هذه القبائل السودانية ومن شايعها لم تنفذ مؤامرتها ، ولم تنزل من جبالها ، وربما كانت هذه الأنباء اشاعات مبالغا فيها ، أو أن هذه القبائل ربما ترددت فى هجومها بعد أن علمت باستعدادات الحكومة الضخمة للقضاء عليها (٣) • وهكذا حالت هذه الأحداث دون ذهاب خورشيد الى مهمته •

ومن بين اهتمامات خورشيد بمعدن الذهب ، وفى محاولة لعدم تسرب الذهب السنارى الى جهات أخرى ، طلب هذا الحكمدار من محمد على أن يرسل اليه الفى كيس * لشراء الذهب بواقع ثلاثمائة وخمسين قرشا للأوقية الواحدة (٤) • وقد قام الباشا بتحليل ذلك الذهب

---

(١) ساماركو : رحلة محمد على الى السودان • ص ٥ •

(٢) محفظة رقم ٢٦٢ عابدين — ترجمة الوثيقة التركية (بدون رقم) بتاريخ ٢٣ صفر سنة ١٢٥٣ هـ •

(٣) مكى شبيكة : السودان فى قرن • ص ٤٢ — ٤٣ •
انظر أيضا : حسن أحمد ابراهيم : المرجع السابق ص ١٠١ •

(*) الكيس = حوالى ٥٠٠ قرش •

(٤) دفتر رقم ٦٣ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٣٩ بتاريخ ٦ رمضان سنة ١٢٥١ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

بدارسك النقـود بمصر • وبالفعل قبل الباشا طلب الحكمدار وأرسـل له نصف ما طلبه من النقـود (١) •

وفى عام ١٨٣٧ خرجـت بعثة علمية ضخمة توفرت لهـا الكثير من الاستعدادات من خبراء وعمال وأدوات بهدف البحث عن الذهب تضـم ألفا من الجنـود « الجهـادية » برئاسة اللـواء مصطفى بك يصحبهم مسيو روسيجير Russegger ، ومسيو بوريانى Poreani الخبيران الموفدان من قبل محمد على للمساعدة فى البحث عن معدن الذهب ، ووصـل الجميع الى فازوغلى وشرعوا فى استخراج المعـدن واستمرار البحث عنـه ، ولكنهم لم يتوصلوا الى نتائج مرضية ، فتوجهوا الى جهة « سنجة » ومكثوا فيها ليلة ، توجهوا بعدها الى مكان يسمى « زنبو » فمكان يسمى « توجاتو » وقاموا بمسح هـذه المناطق ، وكانت النتائج كسابقتها • وأخـذ أفراد البعثة يتنقلون من مكان الى آخـر ، ويختبرون الرمال ، وتعرضوا فى عمليات البحث لمصاعب كثيرة خاصة من جانب بعض العبيد فى جبل سنجة (٢) ، ناهيك عن وعورة الأماكن ورداءة المناخ • وقد عـاد أعضاء هذه البعثة بعـد ستة أشـهر الى الخرطوم ، فأخـذوا يحللون ما تحصلوا عليه وعرض مسيو « روسيجير » ومسيو بوريانى نتـائج هذه التحليلات على الباشا فلم تكن مرضية ، فقد ورد فى تقرير بوريانى عن الذهب الذى عثر عليه فى طريق عودة البعثة الى الخرطوم « ان التبر المستخرج من الستة عشر قنطاراً من التراب الذى أخـذ من موضـع المعدن الكائن بجبل فازنقروا وغربل وغسـل بمعرفة خمسة عشر جنديا فى ثلاث ساعات يكون بصفة معدل ثمانية قناطير وعمل سبعة « أنفار » والنصف فى ثلاث ساعات ، وصافى الذهب السنارى الحاصل من هـذه القناطير الثمانية بعد الغسل والتصفية والاذابة خمس عشرة حبة بحساب

---

(١) دفتر رقم ٦٧ معية تركى — ترجمة الأمر الكريم رقم ٥٨٨ بتـاريخ ٢٦ رمضان سنة ١٢٥١ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) رفاعة الطهطاوى : مناهج الالباب . ص ٢٢١ — ٢٥٣ .

القيراط والوقية والحبة الجارية الاستعمال فى الوزن القديم وباعتبار الوزن السودانى • وعليه فيكون ما ينتج النفر الواحد من سكان البلد الموجودين فى يوم بشرط أن يعمل عشر ساعات فيه من الذهب ست حبات وثلثى الحبة • وبما أن « وقية » الذهب تساوى ثلاثمائة وخمسين قرشا فى بلاد السودان فيكون قيمة ست حبات وثلث الحبة الحاصلة من المعدن المذكور سبعة قروش و ١١ بارة * و ٦ ما نقر وثلث المانقر ، وعلى هذا الحساب اذا اشتغل شخص فى استخراج الذهب فيساوى قيمة ما يستخرج فى اليوم ٧ قروش و ١١ بارة و ٦ مانقر وثلث المانقر ... » (١) •

وفيما يتعلق بالذهب فى جهات قماميل ذكر بوريانى « أن التبر المستخرج من ستة عشر قنطارا من التراب الذى أخذ من موضع كائن بجبل « قشيش » من جبال قماميل وغربل وغسل بمعرفة عشرين جنديا فى ثلاث ساعات يكون بصفة معدل ثمانية قناطير من التراب وعمل عشر جنود فى ثلاث ساعات وصافى الذهب السنارى المستخرج من هذه القناطير الثمانية بعد الغسل والتصفية والاذابة ثلاث عشرة حبة بحساب القيراط والوقية والحبة الجارية الاستعمال فى الوزن القديم وباعتبار الوزن السودانى • وعليه فيكون ما ينتجه « النفر » الواحد من أهالى البلد الموجودين فى اليوم الواحد — بشرط أن يعمل عشر ساعات فيه — من الذهب أربع حبات وثلث الحبة • وبما أن وقية الذهب تساوى ثلثمائة وخمسين قرشا فى بلاد السودان فيكون ثمن الحبة من الذهب ٤٣ بارة و ٧ ما نقر ، وعليه فيكون ثمن الأربع حبات والثلث الظاهر من المعدل أربعة قروش و ٢٩ بارة و ½ ٥ مانقر وثلث المانقر •

(*) البارة اسم تركى أطلق على العملة المصرية « نصف فضة » وتساوى ربع القرش •

(١) محفظة رقم ٢٦٥ عابدين ، ملف حكمدار السودان — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٨٨ بتاريخ ٢٢ محرم سنة ١٢٥٤ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

وعلى هذا الحساب فاذا اشتغل شخص فى عملية استخراج الذهب لنتج فى اليوم الواحد من الذهب السنارى ما يساوى أربعة قروش و ٢٩ بارة و ١/٢ ٥ مانقر وثلث المانقر (١) .

وعلى العكس من بوريانى فقد كان زميله روسيجير متفائلا فقد جاء فى تقريره « ان الشخص الواحد ينظف كل يوم ثلثمائة وخمسين أقة من الرمل ، فيتحصل منها ذهب قيمته من ثمانين قرشا الى مائة قرش ، فكأن هذا المعدل يزيد عن معدل مسيو بوريانى عشرين مرة (٢) . وكان هذا الاختلاف بين التقريرين كفيلا لاثارة حنق الباشا على بوريانى ، الأمر الذى جعل الأخير يعدل عن رأيه — رغم اقتناعه به — قائلا ان الطريقة التى اتبعها مسيو روسيجير ، وهى التحليل بالزئبق . تعطى نتائج أفضل من الطريقة التى استخدمها ، وان العامل الواحد فى البحث عن الذهب يستطيع أن يحصل على ما قيمته أربعين قرشا يوميا (٣) .

ونظرا لهذا التضارب الشديد بين النتائج الواردة فى التقريرين قرر محمد على أن يبحث الأمر على الطبيعة ، فعزم فى ١٥ أكتوبر ١٨٣٨ على القيام بزيارة الى السودان والى مناطق فازوغلى وبنى شنقول لمعرفة حقيقة المعادن وقد أعد الباشا العدة من أجل البحث عن الذهب من حيث الخبراء ، والعمال اللازمين لعملية التنقيب الذين استطاع أن يجهز منهم أربعة آلاف ، ساعد فى جمعهم — بالأجرة — الشيخ ادريس من كبار المشايخ السودانيين القاطنين بالقرب من مناطق المعدن . ووعد هذا الشيخ الباشا بالاتصال بسكان جهات بنى شنقول والقماميل

---

(١) محفظة ٢٦٥ عابدين : الوثيقة السابقة ، انظر : حسن احمد ابراهيم المرجع السابق . ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٢) رفاعة الطهطاوى : المرجع السابق . ص ٢٥٥ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٥٦ .

الخارجين عن سيطرة الحكومة لاقناعهم بالدخول فى طاعة الحكومة والعمل فى مجال البحث عن الذهب نظير مرتبات لهم (١) .

وفى ١٤ يناير عام ١٨٣٩ وصل محمد على الى فازوغلى ونزل فى قرية « فامكة » على النيل الأزرق ، ومن هذه القرية بعث الباشا بثلاثة من خبراء المعادن وهم بوريانى الايطالى ، ولمبير وأحمد يوسف الجشنجى الى نواحى « فاشنغارو » وبنى شنقول للبحث عن الذهب (٢) . وقام هؤلاء الخبراء بتجارب عدة وقرروا انهم تمكنوا من وجود أدلة تثبت وجود هذا المعدن (٣) ، مما دفع الباشا الى الانتقال بنفسه الى هذه الجهات لتقرير الأمر على الطبيعة . ولقد قام الخبراء المعدنون بتجارب عديدة أملا فى الحصول على نتائج طيبة ، إلا أن هذه النتائج كانت كسابقتها مخيبة للآمال . وجمع الباشا كل المهندسين للتشاور وقرروا عمل تجربة بأسلوب جديد حيث جمعوا الرمال من جميع الأماكن بمقادير متناسبة لمعرفة مقدار ما يمكن استخراجه منها وكانت النتيجة كالسابق (٤) . وقام محمد على بتشكيل لجنة لاعداد تقرير شامل عن الأعمال التى قامت بها تلك البعثة أشير فيه الى فشل البعثة فى تحقيق هدفها ، فقد كان استثمار المناجم بواسطة الغسل الاعتيادى لا يمكن العامل من الحصول على ما يساوى ثلاثة قروش عن عمله فى اليوم الواحد (٥) . وعلى هذا يكون الباشا قد فشل فى الحصول على الذهب من جهات فازوغلى .

---

(١) محفظة ٢٦٥ عابدين — ترجمة الوثيقة رقم ٤٤ / ١٩٩ أصلى بتاريخ ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٢٥٤ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة ..

(٢) محمد فؤاد شكرى : رحلة محمد على الى السودان — مقال بمجلة كلية الآداب . جامعة القاهرة . العدد ٨ عام ١٩٤٦ . ص ٤١ ..

(٣) نفس المرجع ص ٥٣ .

(٤) رفاعة الطهطاوى : المرجع السابق . ص ٢٥٨ .

(٥) ساماركو : المصدر السابق . ص ١١ .

وبالرغم من ســوء النتائج التى توصــل اليها فريق الباحثين عن الذهب ، إلا أن الباشا لم يوقف عمليات البحث فى تلك الأماكن ، بل ترك وراءه نحو عشرين فردا منهم لمتابعة التنقيب (١) • وقد ارتبط بعملية البحث عن الذهب وزيارة محمد على للسودان انشاء مدينة عمالية اقترن اسمها باسم الباشــا وسميت بمدينة محمد على كما ســبق أن أشرنا اليهــا * •

ولا تعنى تلك النتائج غير المرضية التى توصل اليها محمد على أنه أهمل عملية البحث عن الذهب بعــد أن غادر السودان ، بل انه وعــد حكمدار السودان أحمد باشا أبو ودان أن يمده بكل الوسائل فى هــذا الصدد حتى يصل الى الهدف المنشود (٢) • ويبدو أيضا أن النتائج لم تكن مشجعة فى عهد أبو ودان ، فقد بعث بتقرير الى الجناب العالى من فازوغلى فى ١٧ ابريل عام ١٨٤٣ فيما يتعلق بأمور البحث عن هذا المعدن فى هذه المناطق أشــار فيه الى الفشــل الذريع الذى حاق بالخبراء فى الحصــول على هــذا المعدن بعد بحــوث وتجارب عديدة خاصــة فى « خور رونده » على بعد تسع عشرة ساعة ونصف من مدينة محمد على ، وكان جملة ما تحصلوا عليه أربعين أوقية من الذهب فقط (٣) •

وفى عهد الحكمدار أحمد باشا المنكلى طلب منه أن يذهب الى جهات فازوغلى وبالفعل أجرى ، ما بين عامى ١٨٤٣ ، ١٨٤٤ ، عدة تجارب للبحث عن الذهب فى الجبال الموجودة هناك ، إلا أن الكميات التى تم الحصول

---

(١) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٥٦ .

(*) انظر الفصل التمهيدى .

(٢) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٥٦ .

(٣) محفظة رقم ١٩ بحر برا — وثيقة رقم ٢٣ بتاريخ ١٧ ربيع الاول ســنة ١٢٥٩ هـ ؛ انظــر ايضا : حسن احمد ابراهيم : المرجع الســابق ص ١١٨ .

عليهـا لم تكن مشجعة على المضى فى البحث عنـه (١) • ومع ذلك فان محمد على قرر أن يرسل خبيراً من مصر ليتحقق من صحة النتائج التي توصل اليها المنكلى (٢) •

وواصل الحكمدار خالد خسرو « ١٨٤٥ — ١٨٤٩ » جهود سابقية فى البحث عن معدن الذهب فى جهات فازوغلى وبنى شنقول ، ذلك أن هـذا الحكمدار قد ترامى الى سمعه ، عن طريق الشيخ عدلان شيخ قبـائل العربان القاطنة جبل دول ، وجـود بئر قرب هـذا الجبـل ، فقـام الحكمدار بحمـلة فى عـام ١٢٦٣ هـ (١٨٤٦ / ١٨٤٧ م) من أجـل هذا الغرض وأخرى فى علم ١٢٦٤ هـ (١٨٤٧ / ١٨٤٨ م) الى جبـل قسان (٣) • ولأجل مساعدته فى انجاز هذه المهمـة أرسـل اليه محمد على مهندسا روسيا يدعى كوفالفيسكى Kovalvesky • وستمائة جمـل تحمل الأدوات من ترسانة بولاق (٤) • وعلى الرغـم من ذلك كله فان هذه المحـاولات — كالعادة — لم تأت بنتائج طيبة تتناسب والجهـود التى بذلت من أجلهـا (٥) •

أما المنطقة الأخرى التى جرى البحث فيها عن معدن الذهب فكانت فى جنوبى كردفان ونعنى بها « جبل شيبون » حيث زعم الأوربيون الذين زاروا هذه المنطقة ، أمثال براون Brown ، وبالم Pallme وبتريك Petherick وروسيجير — أن هذا المعدن متوفر هناك (٦) •

---

(١) محفظة رقم ١٩ بحـر برا — ترجمـة الوثيقة رقم ٦ بتاريخ ١٧ المحـرم ١٢٦١ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) حسن احمد ابراهيم : المرجع السابق ص ١١٨ ، انظر ايضا :
Hill : Egypt in the Sudan. p. 81.

(٣) محفظة ١٩ بحر برا — ترجمة الوثيقة رقم ٩٥ بتاريخ ٣ ربيـع اول سـنة ١٢٦٤ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) Hill; Op. Cit., p. 83.

(٥) Gessi; Op. Cit, p. 156.

(٦) Bell; S.N.R. Vol. 20 (1937), «Shaibon Gold», pp. 129-30.

ويذكر البعض أن الزنوج قد علموا بالتنقيب عن معدن الذهب فى تلك الجهة ولكنهم لم يعلموا قيمته تماما ، بينما على العكس منهم ، عرف الدناقلة ، الذين وصلوا الى هذه المناطق كتجار ، قيمته الاقتصادية فنقبوا عنه وربحوا من ورائه كثيرا (١) .

وقد طلب محمد على من الدفتر دار الذى ضم اقليم كردفان أن يولى اهتماما كبيرا للتنقيب عن هذا المعدن النفيس ويبعث اليه بالنتائج التى يتوصل اليها فى هذا الصدد (٢) .

وقد أولى خالد باشا مسألة البحث عن الذهب فى جبل شيبون اهتماما بالغا ، حيث قام بتعيين « حسن حيدر باشا » مسئولا عن التنقيب عنه (٣) . ومرة أخرى ، نسجل فى هذه الجهة فشلا لجماعات البحث عن معدن الذهب فى عهد محمد على .

وهكذا أنفقت الأموال الطائلة التى تحملتها الخزينة المصرية فى سبيل ذلك من حيث اعداد الآلات اللازمة للتنقيب وحملها الى تلك المناطق النائية وفى اعداد المهندسين والعمال اللازمين ، ولم تكن بطبيعة الحال الكميات التى تم الحصول عليها من الذهب — كما اتضح لنا من التقارير — تغطى النفقات الباهظة التى تحملتها خزينة الدولة فى مصر . ويسوق البعض (٤) عدة أسباب حول فشل بعثات التنقيب عن الذهب فى السودان على عهد محمد على وفى مقدمتها تلك التقارير المضللة التى تلقاها محمد على والتى تصور له امكان العثور على الذهب ، ثم الطريقة التى

---

(١) Pallme; Travels in Kordofan. pp. 160-61.

(٢) دفتر رقم ١٠ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤٨ بتاريخ ٥ ربيع الأول سنة ١٢٣٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) Hill; Op. Cit. p. 83.

(٤) انظر : حسن احمد ابراهيم : المرجع السابق . ص ١٣٤ وما بعدها .

استخدمها الخبراء فى البحث والتى كانت بدائية ، بالاضافة الى العداء السافر الذى لاقته بعثات التنقيب من جانب الأهالى فى تلك المناطق نظرا لما كانت تضمه هذه البعثات من عناصر أجنبية ، وقد امتنع الأهالى عن مد يد المعونة لهذه البعثات ، كذلك فقد كره المصريون العمل فى السودان عامة والجهات النائية منه كجبل شيبون وجهات فازوغلى خاصة ، كما أن المختصين المسئولين عن التنقيب لم يجدوا المعاونة الكافية من العسكر المسئولين عن حراستهم ، بالاضافة الى أن عرب الشايقية والزنوج السودانيين المكلفين بالعمل فى التنقيب عزفوا عن هذا العمل وهرب بعضهم كما حدث فى عام ١٨٤٥ حيث فر ثلاثة من الشايقية (١) .

وقد تعرضت البعثات التعدينية فى أحايين كثيرة الى نقص فى المؤن بسبب هروب الأهالى وتركهم لأوطانهم ورفضهم امداد البعثات بما تحتاجه ، وأخيرا يمكن أن نضيف لتلك العوامل السابقة صعوبة المناخ الذى لم يكن ملائما فى مناطق البحث لرجال البعثات المكلفة بالتنقيب ، فقد تعرضوا لبعض الأمراض كالملاريا التى أودت بأحد رجال البعثة التى تركها محمد على فى السودان وهو المسيو « ليفبره » Levbre (٢) .

وبالرغم من ذلك كله فان خلفاء محمد على حاولوا أيضا البحث عن معدن الذهب فقد كانوا — وخاصة فى مصر — فى حاجة شديدة الى هذا المعدن وخاصة فى سك النقود ولذلك فاننا نلاحظ المراسلات العديدة

---

(١) دفتر رقم ١ / ٢٤٥٣ مديرية بربر والجاعلين عربى وارد . أمر رقم ٣٧٣ . ص ٢٦ بتاريخ ٤ جمادى الثانية سنة ١٢٦١ هـ .
دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) رفاعة الطهطاوى : المرجع السابق ص ٢٦٠ .

الواردة من مصر الى السودان فى طلب هذا المعدن • (١) وهذه المحاولات التى قام بها خلفاء محمد على كانت متواضعة للغاية وربما يرجع ذلك الى فتور الهمم ، خاصة عقب فشل تلك الجهود السابقة غير المشجعة ، أو الى اهتمامهم بنواحى أخرى مضمونة النتائج كالزراعة والتجارة • وللأسف الشديد فاننا لم نعد نسمح على عهودهم عن جلب آلات حديثة أو ارسال خبراء متخصصين فى أمور المعادن الى السودان كما حدث فى عهد محمد على ، بل ظلت عملية البحث والتنقيب متروكة لجهود الأهالى المتواضعة ، أو لمحاولات الحكومة التى ظلت على منوالها القديم تخضع لأساليب بالية ثبت عدم جدواها اقتصاديا • ويبدو أن المسئولين فى هذه الفترة الطويلة قنعوا بالنتائج التى توصل اليها المنقبون فى عهد محمد على ، ولم يتداركوا أوجه القصور التى كانت تواجه هؤلاء ومن ثم يبدأوا من حيث انتهوا فآثروا السلامة ، أو أن وجود هذا المعدن فى تلك الأجزاء أصبح « أكذوبة » •

(ب) ــ الحديد :

ولم يقتصر البحث عن لمعادن فى السودان على معدن الذهب وحسب ، بل اتجه الى المعادن الأخرى كالحديد مثلا الذى اشتهرت به كردفان ، فصنع الأهالى منه أدواتهم المنزلية وآلاتهم المستخدمة فى شئون الزراعة ورؤوس رماحهم وان استخدموا فى ذلك أساليب بدائية لصهر هذا المعدن (٢) •

ولقد طلب محمد على الى الدفتر دار أن يتحقق من أماكن وجود هذا المعدن الذى ترامى الى أسماعه بأن مناجمه توجد بوفرة وأنه من

---

(١) امين سامى : تقويم النيل : المجلد الاول من الجزء الثانى ص ٤٢٨

(٢) Hill; Op. Cit., p. 57.

النوع الجيد ، كذلك فقد طلب اليه أن يهيىء « الأسباب اللازمة التى تستوجبها سهولة استخراجه وصوغه .. » (١) وقد طلب محمد على من الدفتر دار أن يرسل الى مصر خمسمائة قنطار من الحديد ، حيث كانت الكميات التى تحتاجها مصر تستورد من الخارج (٢) .

ولقد قام خورشيد باشا حكمدار السودان فى عامى ١٨٢٨ ، ١٨٢٩ باستخدام الحديد فى صنع مسامير بترسانته فى « منجارا » على النيل الأزرق . وقد أرسل محمد على بعثة للتنقيب عن هذا المعدن ، تضم ثمانية من المكتشفين الانجليز ، الى منطقة على النيل الأبيض من أجل بناء مسبك « مصهر » ، وقد صحبهم أحمد أفندي يوسف المعاون الذى عين خصيصا كمسئول عن المصنع المزمع انشاؤه (٣) .

ولم تستطع البعثة أن تؤدى مهمتها على الوجه الأكمل ، فقد اصيب أفرادها بالأمراض ومات منهم الكثير (٤) ، مما شل عملها وبالتالي أدى الى فشلها ، فقرر محمد علي عودة ما تبقى منها الى مصر (٥) . ولم نعد نسمع بعد ذلك عن استغلال معدن الحديد بكردفان إلا عندما أرسل المعدن روسيجير فى عام ١٨٣٨ على رأس بعثة رسمية . وفى العام التالى أرسل محمد على المهندس الفرنسي لامبرت Lambert الذى زار المنطقة وكتب تقريرا عن وسائل صهر الحديد المختلفة التى كان يستعملها العاملون فى هذا المجال (٦) . وفى عام ١٨٤٧ أرسل

---

(١) دفتر رقم ١٠ معية تركى ، ترجمة المكاتبة التركية رقم ٢٤ بتاريخ ٣ صفر سنة ١٢٣٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) Hill; Op. Cit., p. 57.

(٣) Ibid, p. 57.

(٤) دفتر ٣٨ صادر المعية السنية . ملخص الوثيقة التركية رقم ٣١٥ بتاريخ ٢٣ ربيع الأول سنة ١٢٤٥ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٥) دفتر ٣١ / ١٩ معية سنية عربى صادر ، الأمر الكريم رقم ٣٠٤ ص ٣٤ بتاريخ ٧ صفر سنة ١٢٦٤ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٦) Hill; Op. Cit., p. 58.

جون بتريك الى كردفان للتنقيب عن هذا المعدن واستخراجه بوسائل حديثة ، وسافر بالفعل وبدأ مهمته إلا أنه كان قد ترك الخدمة بالحكومة ، واشتغل بالتجارة عقب وفاة محمد على (١) ٠

وفى عام ١٨٤٨ أرسل شخص يدعى ابراهيم أفندى بصحبة مهندس انجليزى وبعض « اللغمجية » للبحث عن معدن الحديد فى كردفان (٢) ٠ إلا أن العمل قد توقف بناءً على طلب المسئولين نظرا الى أن الحديد المستخرج لم يعد يغطى نفقات استخراجه (٣) ٠

(جـ) — النحاس :

وأما فيما يتعلق بمعدن النحاس فقد اشتهرت جنوب دارفور به وخاصة فى الجهة المعروفة باسم « حفرة النحاس » ونظراً لأن دارفور لم تكن قد ضمت فى عهد محمد على ، وكانت حفرة النحاس بالتالى خارجة عن نفوذ الادارة المصرية فى السودان وتابعة لسلطان دارفور ، فقد أرسل محمد على أحد أتباعه ويدعى أحمد بك ، الى دارفور للتشاور مع سلطانها فى كيفية استخراج النحاس هناك (٤) ٠ ويبدو أن هذه المساعى باءت بالفشل ولم يتمكن محمد على من الحصول على النحاس فى تلك المنطقة ٠

وقد ظل استغلال حفرة النحاس يتم بمعرفة أهلها فقط ، وكان

---

(١) نسيم مقار : الرحالة جون بتريك ص ١ ٠

(٢) دفتر رقم ١٤ / ٢٥ معية سنية عربى وارد — وثيقة رقم ٢٤١ ص ٦٤ بتاريخ ٥ ذى القعدة سنة ١١٦٤ هـ ٠
دار الوثائق القومية بالقلعة ٠

(٣) دفتر رقم ٣٧ / ٢٢ ديوان المعية السنية عربى صادر — الوثيقة رقم ٢ ص ٧٩ بتاريخ ٢٤ ذى القعدة سنة ١٢٦٣ هـ ٠
دار الوثائق القومية بالقلعة ٠

(٤) دفتر رقم ١٠ صادر معية — وثيقة رقم ٢١١ بتاريخ غرة رجب سنة ١٢٦٤ هـ ٠

سلطان دارفور يمنع الآخرين من استغلالها ، وتصريف النحاس للخارج . وفى عهد الخديوى اسماعيل أمكن الحصول على عينة من هذا النحاس وأخضعت لدراسات علمية تمهيدا لاستغلال هذا المعدن اقتصاديا . كما أن الزبير رحمت الذى كان مديرا لبحر الغزال أرسل عينة من هذا المعدن الموجود فى (حفرة النحاس) الى مصر لفحصها ، وكانت النتيجة أن النحاس المستخرج منها نقى وصالح للاستغلال (١) .

وقد جاء فى الوقائع المصرية بتاريخ ٣٠ ابريل عام ١٨٧٦ ، وطبقا للتقارير الواردة الى (أوستون باشا) رئيس أركان الحرب من « بوردى » أحد أعضاء الجمعية الجغرافية الخديوية الذى كان يقوم باستكشافات فى جهات دارفور ، أن معادن النحاس المشهورة بتلك الجهات تبعد نحو ثلاث مراحل عن قرية « قبيسة » الواقعة على الدرجة الحادية عشرة من العرض الشمالى ، وأنه يمكن معاينة هذه المعادن وكشفها وهو متوجه الى موقع « حفرات المعادن » لأجل الوقوف على الحقيقة » (٢) .

وفى أحد تقارير هيئة أركان حرب الجيش المصرى عام ١٨٧٨ ترد اشارات حول وجود معدنى الحديد والنحاس حيث استرعى انتباه أفراد البعثة المصرية وجود مجموعات جبلية كثيرة تمتد من منطقة الدبة الى الأبيض مثل مجموعة جبال « زريقة » و « ايد الزلطة » و « الكاب » و « الحرارة » و « نصب الحصان » وغيرها . وتأكد هؤلاء الأفراد

---

(١) محفظة رقم ٩ معية عربى مستخرج من المعية التركى رقم ٤١ — ٤٢ ، بتاريخ ٢٤ صفر سنة ١٢٨٤ هـ . تقرير من القائمقام نادى الى الخديوى — دار الوثائق القومية بالقلعة . انظر ايضا :

شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل — الجزء الثانى ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٢) امين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا — المجلد الثالث — الجزء الثالث — ص ١٣٢٢ .

من أن معظم هذه الجبال تزخر بكميات هائلة من المعادن وخاصة معدنى الحديد والنحاس (١) .

معدن الرصاص :

وفى دارفور أيضا جرى التنقيب عن معدن الرصاص فى جهة « جبل الكتم » ، وفحص المياه المعدنية بجبل « مرة » فى عينين تسمى الأولى : بركة الانثى والثانية بركة الذكر (٢) . وقد دلت الاستكشافات المصرية التى تمت على أيدى هيئة أركان حرب الجيش المصرى فى غربى السودان بدارفور وخاصة ما ورد بتقرير الضابط محمود صبرى عن وجود معدن الرصاص فى أنحاء مختلفة من هذه الجهات وخاصة فى بلدة « البنداقة » الواقعة غربى الفاشر .ولعل اسم هذه البلدة يدل على كثرة ما كان يوجد بها من معدن الرصاص ، فهذا الاسم يعنى بلغة الفور المحلية كلمة الرصاص ، كما أن شيخ البلدة كان يلقب باسم « ملك الرصاص » (٣) .

وعلى سواحل البحر الأحمر بجهات زيلع وجبال بنى عامر بين سواكن وعقيق ، وعلى حدود هرر المتاخمة لشوا الحبشية ، كلف محافظ سواكن ووكيل محافظة زيلع (أبو بكر شحيم) وحكمدار هرر رءوف باشا

---

(١) جريدة اركان حرب الجيش المصرى — الجزء الاول من المجلد الثانى العدد رقم ٧ « تقرير احمد حمدى » ، انظر ايضا : عبد العليم خلاف : المرجع السابق . ص ١٨٢ .

(٢) دفتر رقم ١٤٨ معية عربى — مكاتبة رقم ٥٢ فى ٢٧ ربيع الاول سنة ١١٤٣ من المعية الى حكمدار السودان .

(٣) جريدة اركان حرب الجيش المصرى — السنة الثالثة — الجزء الاول من المجلد الاول — العدد الاول فى ٢٧ شعبان سنة ١٢٩٢ هـ (١٥ سبتمبر سنة ١٨٧٦ م) تقرير متعلق بالخريطة الاستكشافية للجهات الشمالية الغربية من دارفور الخديوية مقدم من محمود افندى صبرى يوزباشى أركان حرب الى اميرالاى اركان حرب مامورية استكشافات دارفور . ص ٤٩ . انظر ايضا : عبد العليم خلاف : المرجع السابق ص ١٩٦ .

بفحص الفحم فى تلك الجهات وذلك حتى يتسنى معرفة مدى صلاحيته كوقود نافع [١] . كذلك فقد تم البحث عن معدن الملح فى جهات السودان ، وخاصة سواحل البحر الأحمر . وقد تكونت فى مصر عام ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) ادارة خاصة لهذا الأمر أطلق عليها « مصلحتا الملح والنطرون » كان من بين مهامها الاشراف على الملاحات الموجودة بسواحل البحر الأحمر واستغلالها ، والعمل على استكشاف ملاحات جديدة [٢] . وكان بزيلع وحدها خمس ملاحات ، نظمت فيها عملية الاستخراج والتصريف ، وكان الأهالى فى هذه المنطقة يعتمدون عليه اعتماداً رئيسيا فى تجارتهم ، وقد حرصت الادارة المصرية هناك أن يباع الملح للأهالى بسعر منخفض . وقد تم بناء مخزن للملح المستخرج فى زيلع وأرسلت عينات منه الى البلاد الأجنبية والى لندن على وجه الخصوص لعمل الدعاية اللازمة له [٣] .

وبالاضافة الى ملاحات زيلع ، توجد ملاحة « راوية » بجهة سواكن وأخرى بين سواكن ومصوع ، وكان الملح المستخرج من ملاحة راوية ينقل منها على الحمير حتى البحر ، ثم ينقل بعدها بحراً الى جدة [٤] .

وقد تم تنظيم هذه العملية بدقة بالغة تحت اشراف مسئولين

---

(١) دفتر رقم ١٨٣٥ معية عربى — مكاتبة رقم ١٠ فى ١٦ صفر ١٢٨٧ هـ من محافظ سواكن الى المعية السنية ، انظر ايضا : دفتر رقم ١٧ مكاتبة رقم ٢٠ سايرة فى ٥ رمضان ١٢٩٢ هـ . من رءوف باشا الى المعية ، وانظر كذلك : دفتر رقم ١٠ معية عربى — ص ١٣ فى ١٢ شوال ١٢٩٢ هـ الى حكمدارية هرر وملحقاتها . دار الوثائق بالقلعة .

(٢) شوقى الجمل : سياسة مصر فى البحر الاحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ص ١٧٨ .

(٣) دفتر رقم ٢٤ وارد من معية عربى — مكاتبة رقم ٤٩ سايرة ص ٢٤ بتاريخ ٦ ربيع الأول سنة ١٢٩٤ هـ . من محافظ زيلع .

(٤) امين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا المجلد الثانى جـ ٣ ١١٢٩ .

مسئولية مباشرة أمام كبار رجال الادارة ، وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الدقة أن وصلت ايرادات الملاحة المذكورة — فى عام ١٢٩١ هـ (١٨٧٤ م) وحده — الى عشرين ألف جنيه (١) .

وفى جنوب السودان كانت توجد ملاحة واحدة تسمى ملاحة « أونجالتى » وهذه الملاحة استطاعت أن تفى بحاجات جميع سكان مديريتى بحر الغزال وخط الاستواء (٢) .

وبالرغم من تلك الجهود التى بذلت بحثا عن المعادن فى شرقى السودان إلا أن النتائج لم تكن أيضا بذات قيمة اقتصادية بحيث يمكن أن تشجع المسئولين على الاستمرار فى البحث عنها بصورة أكثر جدية . وثمة ملاحظة عامة حول البحث عن المعادن فى السودان ينبغي أن تذكر لوجه الحقيقة العلمية وهى أن المسئولين فى مصر بدءاً من محمد على وحتى عهد توفيق عام ١٨٨١ حين هبت رياح الثورة المهدية فى السودان ، لم ينقطعوا فى البحث عن المعادن فى أرض السودان شماله وجنوبه .. شرقه وغربه ، وان تفاوتت درجات الاهتمام من حاكم الى آخر ، فلا يمكن مثلا أن نقارن جهود محمد على فى هذا المجال بجهود خلفائه مجتمعين ..... وهكذا يمكن أن نقرر ، بعد بسط هذا الموضوع وبحث الجهود المتوالية من أجله ، ان الآمال والطموحات (المعدنية !) كانت أكبر بكثير مما فى باطن التربة السودانية فتوقفت الجهود الى ذلك الحد ، وقنع المسئولون بتلك النتائج التى كانت لها انعكاسات خطيرة فى عدم قيام صناعة قوية فى السودان فى ذلك الوقت .

ونتيجة لما سبق ، فان أى محاولة للرصد أو تتبع تطور الصناعة

---

(١) دفتر رقم ٢٢ أوامر عربية ص ١١٣ ، رقم ٦ أمر كريم صادر الى عموم شرقى السودان ومحافظ سواحل البحر الأحمر بتاريخ ٢٢ شوال سنة ١٢٩١ هـ .. دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء ، الجزء الثانى ص ٥٢٦ — ٥٢٧ ..

السودانية فى القرن التاسع عشر بصفة عامة ، سوف تكون مسألة شاقة أمام أى باحث فيها ، فسوف لا يجد صناعة قوية كما كان الحال فى شمال الوادى ، وينبغى عليه من ثم أن لا يضع فى ذهنه صورة لبعض البلدان الرأسمالية الأوربية — وخاصة فى القرن التاسع عشر — حيث بدأت بها ثورة صناعية — حتى لا تخرج النتائج مغايرة تماما ، كما أننا أيضا نحذر من استخدام بعض الاصطلاحات الخاصة ببعض المذاهب الاقتصادية ، اللهم فى بعض المواضع التى يناسبها المقام ، فى محاولة لشرح أوضاع الصناعة السودانية فى ذلك الوقت ، فالأوضاع جد مختلفة هنا وهناك ، اللهم إلا فى أمور قليلة فى مسيرة هذا التطور وخاصة فى عهد اسماعيل عندما بدأ الأجانب يشكلون قوة ضاغطة عليه فى السودان • وهنا بدأ السودان يتأثر بالفعل بما يجرى فى أوربا وتنعكس عليه ظروفه الاقتصادية التى جعلته يفتش عن أسواق جديدة لتصريف صناعاته •

لقد ظلت الصناعة السودانية فى بداية عهد محمد على — كما كانت قبل عام ١٨٢٠ تقتصر على انتاج سلع ضرورية تقوم على الغلات النباتية ، أو المنتجات الحيوانية ، بالاضافة الى بعض الأدوات التى صنعوها من المعادن كأدوات الحرب والقتال ، وأدوات الزينة ، وكلها صناعات بسيطة ، وكان يوكل أمر القيام بها عادة الى الرقيق والنساء اللاتى كن غالبا ما يقمن بأكثر الصناعات والمنتجات الريفية • ومع ذلك كله فقد كانت هناك بعض الصناعات السودانية على بساطتها تخدم بعضا من أمور الحياة فى البيئة السودانية ، ويسمح بتصدير الفائض منها — كالحصر مثلا — الى الخارج •

وبالرغم من ذلك كله يمكن القول بصفة عامة بأن الصناعة السودانية ظلت متأخرة اذا نظرنا بعين الاعتبار الى امكانات البلاد الطبيعية من حيث وفرة الخام — اذا استثنينا المعادن — والتى يمكن أن تقوم عليها بعض الصناعات التى تخدم نواحى النشاط الاقتصادى •

ومن الطبيعى خلال هذه المسيرة التاريخية الطويلة للحكم المصرى حتى عام ١٨٨١ أن تقوم بعض الصناعات التى تفاوتت درجة تقدمها طبقا لما كانت تعتمد عليه من مواد خام • وفيما يلى عرض لأهم تلك الصناعات :

(أ) الصناعات القائمة على الغلات النباتية :

١ ـ صناعة حلج القطن :

كانت هذه الصناعة فى بادىء الأمر وعلى عهد محمد على نادرة فى السودان ولم نسمع عنها بصورة قوية وربما سر ذلك أن زراعة القطن لم تكن قد ازدهرت بعد فى السودان ، إذ أن هذه الزراعة ـ كما علمنا ـ كانت قد بلغت مرتبة عظيمة فى عهد حكمدار السودان أحمد ممتاز على عهد الخديوى اسماعيل وعلى هذا فقد كان يتم تنظيف البذور فى محالج مصر (١) •

وتشير الوثائق أنه فى عام ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨ م) قد حدثت مشقة حول وجود بذور القطن بالسودان نظرا لعدم توافر المحالج الكافية لهذا الأمر ، مما دعا المسئولين هناك الى ضرورة « حضور دولاب حلاجة أفرنكى » يمكنه حلج كمية ما بين عشرة الى خمسة عشر قنطارا فى اليوم ، بالاضافة الى حضور خبير له المام بتركيب هذه الآلة • كذلك فقد طلب المسئولون أيضا ضرورة العمل على ارسال عدة « دواليب » أخرى نظرا لما سيصير اصلاحه من الأراضى مما ينتج عنه بالتالى زيادة فى انتاج القطن السودانى (٢) • ولم يكتف رجال الادارة فى السودان

---

(١) دفتر رقم ٦٣٩ ديوان الكتخدا ـ وثيقة رقم ٥٤٩ بتاريخ ٩ ربيع الأول سنة ١٢٦٩ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) محافظ سواكن ـ صادر (عربى) دفتر ص ٤ / ٢ / ٥ / ٢٨ مكاتبة رقم ٣ بتاريخ ١٠ شعبان سنة ١٢٨٦ هـ . ص ٥١ معية سنية . انظر أيضا :محفظة ١٩ بحر برا ـ وثيقة ١٢٢ . بدون تاريخ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

على عهد الخديوى اسماعيل بما كانت ترسله مصر من خبراء يقومون بمهمه ادارة ماكينات حليج القطن فى السودان ولكنها أخذت على عاتقها ضرورة ارسال تلاميذ سواء من مدرسة الخرطوم أو من أبناء العساكر أو غيرهم لتعلم هذه المهنة ، ثم يعودون الى السودان للقيام بهذه المهمة ، خاصة وان زراعة القطن قد بلغت شأوا عظيما فى ذلك الوقت من حيث زراعة مساحات شاسعة من القطن فى أنحاء كثيرة من السودان خاصة الجانب الشرقى منه ، مما استلزم بالضرورة القيام بعملية الحلج قرب مواقع الانتاج وعلى سبيل المثال كان القطن المتحصل من طوكر يرسل الى سواكن للحليج ، ناهيك عن الصعوبات التى كان يتعرض لها الخبراء القادمون من مصر الى السودان من ناحية سوء المناخ الذى يجعلهم عرضة للموت (١) .

وفى عام ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢ م) ازدادت الحاجة بشكل ماس الى المزيد من المحالج ، فقد بلغ ما طلب فى احدى المرات « ستمائة دولاب » للحليج من أجل تركيبها فى جهات الخرطوم وغاشودة والكوخ وأبو حراز والتضارف (٢) .

وعلى الرغم من ذلك كله فان ما كان يرسل من آلات حليج القطن الى جهات السودان لم يكن يفى بالحاجة المتزايدة اليها ، فقد جأر المسئولون هناك بالشكوى لقلة وجود هذه الآلات أمام الكميات الضخمة والمتزايدة من الأقطان السودانية التى هى فى حاجة الى حليج . ويبدو أن هذه الكميات قد بلغت من ضخامتها جدا جعل أحد المديرين فى

---

(١) دفتر رقم ٥٦٠ عربى — وثيقة بتاريخ ٢٩ ربيع الاول سنة ١٢٨٦ هـ . من مدير عموم قبلى السودان الى خيرى باشا . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ٦٧٣ عربى . وثيقة بتاريخ ٧ جمادى الاولى سنة ١٢٨٩ هـ من مدير عموم قبلى السودان الى المعية السنية . دار الوثائق القومية بالقلعة .

السودان يقول انه « على قدر ما ترسل محالج ومكابس الأقطان من المحروسة فانه توجد أقطان لتشغيلها .. » (١) .

من ذلك العرض لصناعة حليج القطن فى السودان يتبين لنا أن هذه الصناعة قد نمت وازدهرت على عهد اسماعيل على وجه الخصوص وهذا يعود الى السياسة الزراعية التى انتهجها أحمد ممتاز وخاصة زراعة القطن فى شرقى السودان بشكل مكثف ، الأمر الذى كان لابد أن تقوم معه وتواكبه صناعة حليج أيضا .

٢ ــ صناعة نسيج القطن :

كانت هذه الصناعة فى بادىء الأمر من نوع خشن ردىء يسمى « الدمور » وقد ذكر جيمس بروس أثناء زيارته حلفاية فى عام ١٧٧٠ أن صناعة نسيج القطن الخشن فى المنازل كانت موردا رئيسيا للرزق هناك ، وأن (قطع الدمور) كان يتم التعامل بها بدلا من النقود وعلى نطاق واسع . ولقد اقتصرت هذه الصناعة على النساء دون الرجال ــ عدا العبيد منهم ــ حتى عدت مشاركة الرجل فى هذا العمل من أقبح علامات الكسل (٢) .

وكان يتم نسج القطن بهذا الشكل البدائى فى مناطق النوبة الشمالية والدامر ، والمتمة ، وسنار ، وتقلى جنوب كردفان . إلا أن منطقة النوبة السودانية ــ وخاصة فى دنقلة وما يجاورها من بلاد ــ كانت قد اشتهرت بهذه الصناعة . فقد وجدت بها « الأنوال » العديدة التى تنتج الأقمشة القطنية ، فنحن نقرأ فى وثائق عهد محمد على فى السودان عن انتشار هذه الصناعة فى تلك المناطق وخاصة ما كانت تنتجه دنقلة وكان « يجرى بيعه بالوجه القبلى من مصر » (٣) .

---

(١) الوثيقة السابقة .

(٢) نعوم شقير : تاريخ السودان . جـ ١ ص ٤٦ .

(٣) محفظة رقم ٢٦٢ عابدين . ترجمة تقرير المسائل التى حرر عنها حكمدار السودان فى ذى القعدة سنة ١٢٥٢ هـ . دار الوثائق بالقلعة .

وكان القماش الذى يتم صنعه فى بربر من نوع يسمى « جديرى » ويبدو أن القماش المنتج منه لم يكن على المستوى الطيب حيث نقرأ شكاوى من جانب الأهالى بعدم مطابقة هذا القماش للمواصفات المطلوبة (١) .

وفى عهد الخديوى اسماعيل تم انشاء « ورشة بالخرطوم » لصنع ملابس الجنود بناء على اقتراح حكمدار السودان فى عام ١٨٦٤ (٢) .

ويبدو أن دارفور كانت تقوم بسد حاجتها من الأقمشة المنسوجة بمصانعها المحلية ، حيث طلب المسئولون بمصر ارسال عينة من الأقمشة التى تصنع بها للاطلاع عليها ومعرفة مدى دقتها (٣) . كذلك نقرأ فى جريدة أركان حرب الجيش المصرى أن أهالى هرر فى عام ١٨٧٧ بدأوا يتقدمون فى صناعة الأقمشة ونسجها عن سائر بلاد السودان الأخرى على الرغم من أن معظم مصنوعاتها المختلفة كانت تأتيها من بلاد العرب عن طريق البحر الأحمر حيث كانت الصناعة فيها متأخرة وبدائية (٤) .

وبالرغم من هذه المحاولات المتواضعة لخلق صناعة لنسج القطن

---

(١) دفتر صادر رقم ٣٤٨٢ تحريرات مديرية بربر ودنقلة وثيقة ١٣١ فى ٢٤ شعبان ١٢٨١ هـ .

(٢) أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا — مجلد ٢ . جـ ٣ ص ٥٩٦ وثيقة بتاريخ ٢٤ شعبان سنة ١٢٨١ هـ .

(٣) دفتر ٢٤ عابدين — صادر تلغرافات — صورة التلغراف العربى رقم ١١ فى ٢٥ رجب سنة ١٢٩١ هـ . من خيرى باشا الى سعادة حكمدار السودان بالفاشر ، أنظر ايضا : دفتر رقم ١٧ (معية عربى) قيد الافادات الواردة من جهات الأقاليم والمحافظات والمديريات . ص ٣٥ مكاتبة رقم ١ مرور بتاريخ ٢٨ شعبان سنة ١٢٥٢ هـ . من حكمدار السودان الى المعية السنية .

(٤) جريدة أركان حرب الجيش المصرى — السنة الثالثة — العدد ٥ بتاريخ غرة رجب سنة ١٢٩٤ . ص ٤٦٢ — ٤٦٥

فى جهات السودان فان هذه الصناعة ظلت فقيرة وغير دقيقة ولم تبلغ فى جودتها ما كانت تنتجه المصانع المصرية آنذاك فى اخميم والمحلة • ولكن، ينبغى أن نشير الى أن تلك المصانع القليلة كانت تقوم — الى حـد ما — بسد حاجة الاستهلاك المحلى • وأما فيما يتعلق بتواضـع هذه الصناعة رغم الانتاج الوفير من القطن فان ذلك يعود فى جملته الى أن معظـم الأقطـان السـودانية كانت تنقـل الى مصر ولا يتم تصنيعها داخـل السـودان •

٣ — صناعة النيـلة :

لقد كانت صناعة النيلة * واحـدة من الصناعات الجـديدة التى أدخلها الحكم المصرى الى السودان فى عهد محمد على ، فلأول مرة فى تاريخ هذه البلاد انشئت خمسة مصانع للنيلة بمديرية دنقلة فى كل من « مروى » و « حنـك » و « حفـير » ودنقلة العجـوز ودنقلة العرض (الأوردى) بلغ انتـاج الواحـد منها حوالى ١٨٤٦ أقة سنويا (١) • وكان محصول الفدان الواحد من النيلة يبلغ حـوالى خمسين قنطارا ، ومقدار الصبغة التى يمكن الحصـول عليهـا من القنطار حـوالى ١٠٦ دراهـم (٢) •

ولقد أرسلت الحكومة الى دنقلة خبراء فى هـذا الصـدد من مصنع قليوب ، بالاضافة الى « مرجلين » بآلاتهما للاشراف على تجهيز النيلة

(*) انظر الفصل السابق حول زراعة النيلة فى السودان •

(١) دفتر رقـم ٧٥٧ ديوان خديوى — وثيقة رقـم ٢٤ بتـاريخ ٢٥ ذى القعدة سنة ١٢٤٥ هـ ، أنظر ايضـا : حسن احمد ابراهيم : المرجـع السـابق ص ١٥٢ •

(٢) دفتر (بدون رقم) ديوان خديوى تركى — ترجمة الوثيقة التركيـة ص ٣٢٧ بتاريخ ٧ رجـب سنة ١٢٤٥ هـ • من الجناب العالى الى حـاكم دنقـلة •

وتعليم الأهالى أصول هذه الصناعة [١] . كذلك فقد عينت الحكومة أحد الأوربيين ممن لهم دراية فى هذا المجال رئيسا عاما لادارة مصانع النيلة فى السودان . ويبدو أن بقاء هذا الموظف الأجنبى هناك لم يدم طويلا اذ يحدثنا الرحالة « بكلر مسكاو » الذى زار مصانع النيلة عام ١٨٣٧ بأنه لم يعد يوجد أى موظف أوربى فى هذه المصانع [٢] . وربما يرجع ذلك الى حرص الباشا فى أن يتولى ادارة هذه المصانع والعمل بها عمال سودانيون بعد أن يتم تدريبهم على أيدى خبراء مصريين وأجانب ، وهذا بالفعل ما عبر عنه محمد على فى احدى مكاتباته لخورشيد « أغا » ناظر سنار [٣] . ومسألة الاستعانة بالخبرة الأجنبية هذه ظاهرة واضحة فى المؤسسات التى كان يبنيها محمد على من جديد ، فمعروف تماما أنه عندما أراد تكوين جيش قوى فى مصر أتى بخلاصة التفكير العسكرى الأوربى فى ذلك الوقت وكلفه بأداء هذه المهمة ونعنى به الجنرال سيف أو ما عرف باسم سليمان الفرنساوى وكذلك فى مجال الصناعة المصرية التى أنشأها فقد لاحظنا أنه أسند الى كثير من الخبراء الأجانب مهمة ادارة هذه المصانع وتدريب المصريين على ادارتها ، وهكذا كان سبيله أيضا فى بقية النواحى الطبية وغيرها ، فلم يكن هذا الرجل منغلقا على نفسه بل كان يحاول الاستعانة بأحدث ما وصل إليه العصر من تقدم ، ولذلك فإنه نجح كثيرا فى مشاريعه المختلفة . وكذلك كان الحال فى السودان فكانت سياسته فى السودان هى نفس السياسة التى اتبعها فى مصر .

---

(١) دفتر رقم ٢٨ صادر المعية لـ ترجمة المكاتبة التركية رقم ٢٤ بتاريخ ٢٥ ذى القعدة سنة ١١٤٥ هـ .من الجناب العالى الى مدير دنقلة .
دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) Puckler, Muskau; Egypt under Mehemet Ali, Vol. II. p. 164.

(٣) دفتر رقم ٧٤٢ ديوان خديوى — ترجمة الوثيقة رقم ١٨٥ بتاريخ ٢٧ ربيع الاول سنة ١٢٤٣ هـ . من الجناب العالي الي خورشيد انا ناظر سنار . دار الوثائق القومية بالقلعة .

وأما طريقة تحضير صباغة النيلة فتتلخص فى وضع أوراق سيقان نبات النيلة فى حوض كبير به ماء لمدة ثمان عشرة ساعة تقريبا ، ثم تنقل محتويات الحوض فى إناء آخر تجرى فيه عملية الغليان لبعض الوقت يحرك المحلول أثناءها بعصى ذات أفرع تساعد على تفتيت أجزاء النبات . وبعد ذلك يستخلص المحلول من البقايا النباتية ويترك حتى يتحول الى مادة رسوبية تصنع منها أقراص فتجفف وتصبح معدة للاستعمال (١) .

وكانت مادة الصباغة التى يتم الحصول عليها بهذه الطريقة لا تقل جودة عن ذلك النوع الذى اشتهرت به الهند فى ذلك الوقت (٢) .

وكانت النيلة السودانية تدر دخلا طيبا للحكومة ، كما كانت تخضع لاحتكارها حتى عام ١٨٣٨ عندما زار محمد على السودان حيث أعلن حرية زراعة الأهالى لها والاتجار فيها ، مما كان له الأثر الطيب فى نفوس المزارعين فأقبلوا على زراعتها والتوسع فيها (٣) .

(ب) ــ الصناعات الخشبية :

١ ــ صناعة المراكب :

من المعروف أن السودان يتمتع بثروة خشبية هائلة تتمثل فى الغابات ذات الأشجار الكثيفة ، وكان لابد من محاولة لاستغلال هذه

---

(1) Cadalvene ; L'Egypte, La Nubie, Tome II, p. 340 & Hoskins; op. cit., p. 53.

وانظر ايضا : نسيم مقار : المرجع السابق ص ٢٢١ .

(2) Muskau, P. op. cit., vol. II. p. 164. & Hoskins : op. cit. p. 52 & Cadalvene : op. cit., p. 339.

(٣) دفتر رقم ١٢٦ ديوان خديوى ــ صورة المكاتبة رقم ٤٠٨ بتاريخ ٨ صفر سنة ١٢٥٨ هـ . ، أنظر ايضا : رحلة ساكن الجنان ــ محفظة ١٢٣ ــ عابدين ــ ملف متفرقات ، دار الوثائق القومية بالقلعة .

الثروة فى صناعة المراكب والسفن [١] . وبالفعل فقد وجهت الادارة المصرية فى السودان اهتماما كبيرا لهذا الأمر واتجهت فى عهد الحكمدار خورشيد باشا الى بناء ترسانة لصنع القوارب فى « منجارة » أعلى النيل الأبيض ، وأخرى فى جهة الكاملين ، كما تم تشييد ترسانتين أخريين فى سنار وبربر [٢] .

وقد اهتم محمد على وهو بمصر بإرسال جميع مستلزمات صناعة المراكب من مهندسين وخبراء متخصصين فى هذا المجال ، خاصة اذا علمنا أن البلاد السودانية آنذاك كانت فى حاجة ماسة الى مثل تلك المراكب ، فقد كانت الوسائل المستخدمة فى مسألة النقل والتنقل — كما سنعرف — بدائية ولا تصلح لمسايرة عمليات التطور التى بدأها محمد على فقد بدأ يرسل البعثات العلمية فى النيل الأبيض والتى كانت تعتمد أساسا على المراكب والسفن ، ناهيك عن الإستخدامات الأخرى لهذه المراكب فى نقل المحاصيل بكميات ضخمة بدلا من الإعتماد على الإبل التى لا يمكنها نقل كميات كبيرة . ولهذا كله بدأت تلك الترسانات التى انشئت فى جهات السودان تقوم بصنع مراكب تقوم بهذه المهام . وعلى الرغم من هذا الإهتمام بهذه الصناعة فقد وجه نقد للمراكب المصنوعة فى ترسانات السودان الأمر الذى جعل محمد على يرسل فى عام ١٨٣٢ سعيد أفندى للتحقيق فى أسباب رداءة صناعتها وما ينبغى أن يتم إتخاذه نحو تقدمها .

وبمرور الوقت تحسنت صناعتها حتى إن كثيرا من واردات السودان

---

(١) الوقائع المصرية — العدد رقم ١٣١ — الثلاثاء ١٢ شوال سنة ١٢٤٥هـ ص ١ .

(٢) Hill; op. cit., p. 61.

أنظر ايضا : دفتر رقم ٨٧٥ ديوان الخديوى تركى — وثيقة رقم ٣٠٤ بتاريخ ٢١ رجب ١٢٤٨ هـ ص ١٩١ ؛ انظر ايضا : دفتر رقم ٢٥ / ٣٤٥٨ مديرية بربر والجاعلين (عربى) صادر وثيقة رقم ٢٢٢ بتاريخ ٢٤ ذى القعدة سنة ١٢٦١ هـ . دار الوثائق بالقلعة .

بدأت ترسل بواسطة المراكب فى النيل (١) والأهم من ذلك إزدياد أعداد المراكب والسفن المصنوعة محليا وخاصة فى عهد حكمدارية أحمد باشا أبو ودان الذى يعتبره البعض مؤسس النواة الأولى للبحرية التجارية فى السودان (٢) .

ولقد لعبت ترسانة الخرطوم دورا بارزا فى حملات الكشف عن منابع النيل الأبيض ، حيث أوفد محمد على الضابط المصرى سليم قبودان على رأس حملات ثلاث ، فأمدت هذه الحملات بالسفن اللازمة وسهلت من مهمتها وأسدت بذلك فوائد عظيمة للكشوف العلمية فى السودان حيث ترتب على هذه الرحلات كتابة تقارير علمية فى غاية الأهمية من النواحى الاقتصادية والاجتماعية وغيرها الأمر الذى ترتب عليه أن تمد الحكومة إدارتها واهتمامها الى تلك البلدان فيما بعد وإدخالها فى ركب التقدم بعد أن كانت معزولة عن الجزء الشمالى من السودان .

كذلك فقد كان لتقدم صناعة السفن فى السودان أثر طيب فى نشاط حركة النقل المائى فى النيل وبين المناطق الصالحة للملاحة ، ومع شمال الوادى . وكانت السفن المصنوعة محليا تستخدم فى نقل السلع والمنتجات السودانية المتنوعة كالصمغ وريش النعام والرقيق الى مصر ، كما كانت تقوم بنقل معدات الجنود وأدوات البحث عن المعادن فى السودان (١) .

وكانت ترسانات السودان تقوم أحيانا بصنع أعداد كثيرة من المراكب وإرسالها الى مصر ، فقد طلب فى عهد خورشيد من ترسانة سنار

---

(١) حسن أحمد ابراهيم : المرجع السابق . ص ١٥٠ .
انظر ايضا : نسيم مقار : المرجع السابق . ص ٢٣٥ .
(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار . الجزء الثانى ص ٢٣٣ .

أن تقوم « بصنع خمسين مركبا وإرسالها للمحروسة »(١) . وربما كان هذا الطلب لصنع هذه السفن فى السودان بقصد توفير الجهد فى نقل الأخشاب من السودان الى مصر ، وجعل هذه الصناعة قرب مواقع الإنتاج وهو تفكير إقتصادى سليم .

وبالرغم من تلك الجهود التى بذلت فى سبيل الإرتقاء بصناعة المراكب والسفن فى عهد محمد على فإننا نلاحظ أن الكثير من البواخر النيلية التى كانت موجودة بترسانة الخرطوم على عهد اسماعيل كانت قد أرسلت من مصر بطريق النيل بعد أن تم صنعها وتركيبها بمصر ، ماعدا الباخرة « الاسماعيلية » التى اتخذها حكمدارو السودان لركوبهم فقد جرى نقلها على هيئة قطع مفككة وتم تركيبها بترسانة الخرطوم (٢) .

ويبدو أن عملية الكشوف الجغرافية الضخمة التى تمت فى عهد اسماعيل فى أرجاء السودان وأفريقيا قد جعلته يولى عناية فائقة لصناعة السفن النيلية فأصدر فى عام ١٨٧٧ أمره الى الجنرال غوردون بإنشاء (دار صناعة نيلية) ، فاهتم الأخير بذلك كثيرا وقام بتنفيذ إنشائها على نظام بديع وتم فيها بناء المعامل والورش المختلفة ، وبلغ عدد العمال ٤٥٠ فردا ، بالإضافة الى الكتبة والملاحين والقبودانات ، كذلك طلب أن تشيد بها ثمان بواخر ليصل بذلك عدد البواخر التى كانت تستخدم الى ست عشرة باخرة ، بالإضافة الى الصنادل والسفن التى لم يكن يقل عددها عن ثلاثمائة كان أكبرها يحمل نحو ١٥٠٠ أردب وأصغرها يحمل خمسمائة أردب (٣) .

---

(١) الوقائع المصرية : العدد ١٣٦ بتاريخ ٢٧ شوال سنة ١٢٤٥ هـ . ص ٢ .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل : الجزء الأول ص ١٦١ .

(٣) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ، الجزء الثانى ص ٣٣٧ .
انظر ايضا : ابراهيم فوزى . السودان بين يدى غوردون وكتشنر ج ١ ، ص ١٧ .

٢ ــ صناعة السـواقى :

وتعد صناعة السواقى فى السودان من أهم الصناعات التى استغلت فيها أخشاب السـودان ، فقـد بلغت أعدادها الآلاف الكثيرة وخاصة فى شمال السودان فى منطقة دنقلة • وعلى الرغم من بساطة هذه السواقىّ ، التى لم تـكن تحتـاج الى آلات معقدة بل الى بعض آلات بسـيطة تتوفر لدى الفـلاح السودانى ، فإنها قـد أدت مهمتها على الوجـه الأكمل • وقد شجعت الإدارة المصرية الفلاح السودانى على إنشـائها والإكثار منهـا • وبلغت شهرة السواقى فى جهات دنقلة حـدا جعلت المسئولين فى السـودان يقـدرون الضرائب بعدد السـواقى لا بعـدد الأفـدنة * •

٣ ــ صناعة الأسرة :

لم يـكن استخدام الأسرة شـائعا بكثرة فى ذلك الوقت بين جميع السكان ولكنه اقتصر على سكان المدن وخاصـة التجـار منهـم وقبيلة الشايقية وسكان المحسن ودنقلة • أما الفراش الشائع عند البدو فـكان الحصير •

والأسرة السـودانية مستطيلة الشكل ذات قوائم أربعة قصيرة ، وقد تكون قاعدتها من الخشب أو أعـواد الغاب ويعرف هـذا النـوع بالسرير ، أو تشـد بسيور دقيقة من الجلد شـدا محكما وهنـا يعرف « بالعنقريب » • وقـد اشتهرت بصناعة الأسرة كل من سـنار وبربر ، وإمتازت سنار بالأنواع الجيدة التى كانت تجد طريقها الى الأسـواق الخارجية فى مصر العليا وبلاد العرب (١) •

(*) انظر الفصل الأول : تطور الأوضـاع الزراعية .
(١) نسيم مقار : المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .

كذلك فقد صنع السودانيون الأبواب والنوافذ من الأخشاب واشتهرت هذه الصناعة فى المدن الرئيسية مثل شندى وبربر وسنار ، أما النوافذ فكانت من الأحجام الصغيرة ، وكان يقتصر على نافذة واحدة فى كل حجرة ، لذلك فلم تكن تعطى إلا ضوءا بسيطا ولهذا فقد كان دائما باب الحجرة مفتوحا (١) .

ومن الخشب أيضا صنع السودانيون الأوانى والأوعية الخشبية واختص بها طائفة من النجارين فى المدن الشهيرة بالسودان كبربر وسنار والطياره بكردفان ، وإمتازت هذه الأوانى بدقتها الشديدة الى الدرجة التى لم تكن تبدو عليها آثار الآلات الحادة التى استخدمت فيها . وكان بعضها يستخدم فى الطعام والبعض الآخر يعلق على الحوائط داخل الحجرات بقصد الزينة ، وكانت تطلى بالدهان وتوضع على النار حتى يسود لونها ، كما أن بعضها كان كبير الحجم بحيث يسع من الطعام ما يكفى لأعداد كبيرة من الناس ، وهكذا كان يرجع انتشار هذه الأوانى الخشبية المتنوعة الى كثرة الأخشاب فى جهات السودان .

ومن الأخشاب أيضا صنعت الأدوات الزراعية كالجاروف والمذراه ، وأيادى الفؤوس والبلط ومقابض السكاكين ، كما أنهم صنعوا من الخشب القسى والسهام والرماح .

(جـ) ـ صناعات قائمة على أشجار النخيل والدوم :

من المعروف أن السودان وخاصة الجزء الشمالى فى النوبة منه تكثر به أشجار النخيل ، كما تكثر أشجار الدوم فى جهات أخرى مثل كردفان . وقد تفنن السودانيون فى الإستفادة من هذه الأشجار فصنعوا من خوصها وأليافها الحصر والأوعية ذات الأحجام والأشكال المتنوعة

---

(١) نسيم مقار : المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .

والتى إمتازت بدقة صنعتها وجمال ألوانها ، وكان السودانيون يصنعون بعض الأسرة والمقاعد من جريد النخيل وأليافه ، بالإضافة الى الحبال التى كانت تلعب دورا كبيرا فى حياة قطاعات عديدة من سكان السودان ، فالبدوى فى حاجة اليها لربط سلعه وخيامه على الإبل عند ترحاله ، والمزارع يستخدمها فى السواقى وغيرها من أمور الزراعة ، بالإضافة الى إستخدامها فى صناعة السفن التى كانت تفتقر الى المسامير . أما التجار فى المدن فكانوا يستخدمونها عند شحن بضائعهم فوق الجمال فى خلال الرحلات الطويلة عبر مفازات السودان الشاسعة أو الى خارج البلاد .

كذلك استخدم السودانيون نبات الحلفا فى صناعة الحصر والأوعية والقدور المجدولة جدلا دقيقا يحول دون نفاذ الماء منها وقد إستخدموها فى حفظ اللبن ، وإستخدموا بالإضافة الى ذلك ، ثمار القرع بعد نضجها فى صنع أقداح وأوانى متنوعة الأحجام ، وكانت ترسم عليها أشكال من الطيور والحيوانات .

وقد تميزت الأوانى المصنوعة من ثمار القرع بخفتها وكثرة احتمالها على عكس ما يتصور ، بالإضافة الى سهولة تنظيفها وعدم تعلق أجزاء من الطعام على جوانبها كما يحدث فى الأوانى الخشبية ، وأكثر من ذلك فقد كان سعرها زهيدا جدا . وقد أنتشرت جميع هذه الصناعات فى بقاع السودان المختلفة سواء بين البدو أو الحضر ، بيد أن هناك بعض المراكز إشتهرت بإنتاج أنواع ذات صفات جيدة وجميلة واكتسبت بالتالى شهرة واسعة مثل بلاد النوبة ، كذلك فقد إشتهرت الدامر بصناعة أجود أنواع الحصر من شجر الدوم التى عرفت بإسمها ، كما أن بدو الشايقية إشتهروا بصناعة الحصر ذات الألوان الجميلة .

ومن الملاحظ أن هذه الصناعات ، سواء التى قامت بين البدو أو سكان الريف والحضر فى أنحاء السودان المختلفة كانت من اختصاص النساء وعزف الرجال عن القيام بها مفضلين الخروج للتجارة أو العمل

بالزراعة ، فكان الرجل يأنف أن يقبع فى بيته كالسيدة ليؤدى مثل هذه الصناعات ، بالإضافة الى إرتباط بعض هذه الصناعات بالعبيد فقد كانوا يكلفون بها بالإضافة الى أعمالهم المنزلية فارتبطت بهم وأصبحت عنوانا للتدنى وسط مجتمع يموج بالتيارات القبلية التى تفخر بأنسابها ، ومن هنا تركوا هذه الصناعات وظلت محصورة بين النساء والعبيد فلم يحدث فيها تطور ملموس وظلت كما هى بدائية الصنع وإن كانت تسد حاجة المجتمع الضرورية •

صناعة الزيوت النباتية :

كانت هذه الصناعة شأنها فى ذلك شأن الصناعات السودانية الأخرى بدائية ، فإنه على الرغم من وجود النباتات الزيتية ــ كالسمسم ــ فى كثير من بقاع السودان فلم يستفد الأهالى منها إستفادة كاملة ، فقد ظلوا ، مثلا ، مكتفين باستخدام الخشب فى الإضاءة بدلا من زيت السمسم ، وفى عهد محمد على بدأ أهل كردفان ، كما يذكر « بالم » ، يستخرجون الزيت من السمسم ويستعملونه فى دهان ضفائر الشعر على رؤوسهم ، بالإضافة الى دهن بشرتهم (١) • فالسودانى ، وخاصة أولئك الذين يقومون بالأسفار عبر صحراوات السودان لهم ولع شديد بوضع الزيوت وأنواع الشحوم على رؤوسهم إتقاء لوهج الشمس المحرق • ومن أشهر النباتات الزيتية الأخرى « الخروع » الذى يزرع فى بلاد النوبة و « بطن الحجار » ومن ثماره يستخرج زيت طبى لدهان الشعر •

ومن الصناعات التى اشتهر بها السودان صناعة « المرديب » من التمر الهندى بدارفور وكردفان على وجه الخصوص ، وكانت تتم صناعته بوضع الثمار تحت تأثير حرارة الشمس حتى تختمر وتعمل منها

---

(١) Pallme, op. cit., p. 69.

أقراص كبيرة يتم تصـديرها الى كافة جهات السودان الداخلية وخارجه حيث يستخدم كمشروب •

كذلك فقد عرف السـودانيون صناعة الخمـور وأنواع المريسة • وهذه الخمور يقصد بها كافة الأنواع التى تستخرج أو تصنع من البلح والتى تسـمى « عرقى البلح » فى بعض جهـات مصر ، والنبيذ الذى يستخرج من كروم العنب • وهـذان النوعان إشتهرت بهما بلاد النوبة وذلك لتوفر أشجار النخيل والكروم بها •

ويقوم النوبيون فى السودان بصناعة الخمر من التمر وذلك بوضع ثمار البلح الناضجة فى قدور كبيرة من الفخـار بها ماء ثم توضـع على النار لتغلى لمـدة يومين كاملين دون انقطاع ثم يصفى الشراب ويوضع الرائق (العصـير) منه فى جـرار من الفخار تغلق بإحكام وتدفن تحت الأرض لمدة عشرة أيام أو اثنى عشر يوما حتى يختمر الشراب فيكشف عنه ويمكن عندها تقديمه للشرب [1] •

كذلك يصنع النوبيون نوعا آخر من الخمـر يسمى (البوظـة) أو المريسـة وهو شديد الشبه بالجعة أو البيرة • ويتم استخراجه من الذرة أو الشـعير ، وأفضل أنواعه ما كان من الشـعير • ويتم إعداد المريسة دون مشقة أو مجهود إذ يؤتى بحبوب الشـعير أو الذرة عقب تجفيفها أو تحميصها على النـار لتوضع فى إناء من الفخار به ماء بارد وتترك لمدة يوم كامل تتم خلالها عملية التخمير ، ثم بعدها يصفى السائل بواسطة قطعة قماش ليقـدم بعدها للشرب • وقد إشتهر شراب المريسة فى جميع أنحاء السودان نظراً لتوفر المادة التى تصنع منها وهى الذرة أو الشعير بعكس البلح الذى لا يتوفر إلا فى بلاد النوبة ، ولهـذا كان شراب المريسة ينتشر بين كافة السودانيين الى الدرجة التى جعلت البعض

---

(١) بوركهارت : المرجع السابق ص ١٢٤ ـــ ١٢٥.

يقول إن الكثير منهم كان لا يشرب قطرة ماء طوال السنة معتمدا على شرابها (١) .

وكانت المريسة على أنواع ، أشهرها المسمى « أم بلبل » التى شبهها أحد الرحالة الذين زاروا تلك المناطق فى القرن التاسع عشر بالشمبانيا (٢) ، والبعض الآخر وصفها بأنها نوع من البيرة (٣) . وكالعادة ، كان العبيد والنساء فى البيوت هم المكلفين بإعداد المريسة .

وقد اشتهرت مناطق معينة فى السودان كسنار ودارفور على سبيل المثال بزراعة التبغ ، وكان الأهالى يقومون بصنع أنواع من أوراقه على شكل أقماع هرمية الشكل ، وذلك بعد دقة — وهو أخضر — حتى يصير كالعجين ويجعلونه أقماعا ويجفف فى الشمس وكانوا يتعاملون بها — كما يقول التونسى « فى سفاسف أمورهم ... » (٤) .

ومن الصناعات التى أدخلت الى السودان على عهد محمد على صناعة الصابون وقد تم ذلك على يد الحكمدار أحمد باشا أبو ودان فى جهة كاملين بإقليم سنار حيث تم إنشاء معمل من أجل هذا الغرض . وكان هذا المصنع يقدم للآليات المرابطة هناك كل ما تحتاجه من الصابون . ولكن يبدو أن ثمة مشاكل حالت دون استمرار هذا المصنع فى أداء مهمته لفترة ما ، وهذه المشاكل نشأت من الخلاف الذى دار بين اللواء حمزة باشا مدير الخرطوم وبين شخص يدعى نور الدين كان شريكا لحكمدار السودان أحمد باشا أبو ودان الذى توفى وترك له

---

(١) Poncet; Avoyage to Ethiopia, p. 26.

(٢) نسيم مقار : المرجع السابق ص ٢٤٤ ، أنظر ايضا :
Journal of avisit to some parts of Ethiopia. p. 260.

(٣) Muskou, P. : op. cit., p. 164.

(٤) محمد بن عمر التونسى : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ص ٣٠٠ — ٣٠١ .

ادارة هذا المصنع ، وبدأ مدير الخرطوم يطالب الشريك الثانى بمبالغ باهظة ادعى أنها أثمان لمواد وردت بإسم الحكمدار السابق ولم تسدد منذ وفاة الحكمدار (١) .

ويبدو أن المصنع قد عاد ليؤدى مهمته مرة أخرى ، ففى فبراير عام ١٨٤٤ أبدى الرحالة لبسوس Lepsus الذى زار الخرطوم آنذاك إعجابا بالنشاط الظاهر فى بلدة الكاملين ، وأشار الى المصانع التى انشئت بها ومن بينها مصنع الصابون هذا . ويقرر أن ادارة هذه المصانع كانت على أحسن ما يرام من النظام والنظافة وهو أمر غير مألوف — على حد قوله — فى تلك البلاد (٢) .

وفى شوال عام ١٢٧٧ هـ (ابريل ١٨٦١ م) على عهد محمد سعيد باشا تشير الوثائق الى أن هذا المصنع لم يعد يؤدى دوره على الوجه الأكمل ، وبدأ المسئولون بالسودان يكتبون الى مصر كى تبعث لهم بكميات الصابون الضرورية . ويبدو أن هذه المشكلة ناشئة عن الإهمال ، حيث نجد ردود المسئولين بمصر على هذه الطلبات بالغة الحدة حيث تطلب من مدير التاكة أن يقوم « بمعرفة مدير سنار والخرطوم بتدارك ما هو لازم من هذا الصنف بأى وجه حسب السوابق .. » (٣) .

---

(١) محفظة ١٩ بحر برا — وثيقة رقم ٤٩ بتاريخ ١٥ رجب سنة ١٢٦٠ هـ من الميرميران احمد منكلى الى الجناب العالى . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

انظر ايضا : دفتر رقم ٣٩٢ معية تركى — وثيقة رقم ٨٦٥ بتاريخ ١٦ ربيع الأول سنة ١٢٦١ هـ خطاب الى مدير عموم الوجه القبلى .

(٢) Lepsus, Dr, R. : Letters from Egypt, Ethiopia and Sinai. tr. by J., B. Horner. pp. 163-165.

أنظر أيضا سيد احمد احمد سيد : رفاعه فى السودان . ص ٢٤ .

(٣) دفتر رقم ١٨٩٤ — أوامر عربى — صورة المكاتبة العربية رقم ٧٠ ص ٣٧ بتاريخ ٢٤ شوال سنة ١٨٧٧ . أمر كريم الى مدير التاكة .

صناعة قصب السكر :

ومن الصناعات التى أدخلتها الإدارة المصرية فى السودان صناعة قصب السكر ، حيث سمحت بزراعة محصول القصب فى دنقلة بقصد صناعة السكر منه (١) • وقد توسعت الحكومة فى إنتاجه بالمديريات الأخرى كبربر وسنار حيث كان المناخ ملائما لزراعته ، بالإضافة الى إمكانية توفير مياه الرى بواسطة السواقى بشكل منتظم • وقد طلب مأمور دنقلة إنشاء مصنع للسكر فيها ، وإرسال خبير لإستخراج السكر من القصب (٢) • كذلك نقرأ فى الوثائق عن وجود مصنع للسكر ، ضمن مجموعة المصانع التى كانت ببلدة كاملين بسنار ، أنشأه الحكمدار أحمد باشا أبو ودان (٣) •

وفى عهد الخديوى اسماعيل يطلب أحد مديرى السودان زراعة مائة فدان قصب حتى يتمكن من إنتاج السكر والعسل وتصريفة للأهالى بالأثمان المناسبة ، ويطلب المدير أيضا من المسئولين فى مصر الإسراع بإرسال الأفراد اللازمين من « النجارين » و « السكاكرية » الذين بفرشوط لعمل عشر معاصر ، وتعليم من يلزم تعليمه من الأهالى •• » (٤) •

وقد اهتمت الحكومة بإنشاء المطاحن بالسودان على نطاق واسع وخاصة فى عهد الخديوى اسماعيل • ففى عام ١٨٦٥ تمت الموافقة

---

(١) دفتر رقم ٤٤ معية تركى — ترجمة المكاتبة التركية رقم ٤٤١ بتاريخ ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٢٤٨ هـ • من الجناب العالى الى حكمدار السودان •

(٢) شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل • الجزء الثانى • ص ٤٢ •

(٣) محفظة ١٩ بحر برا — وثيقة رقم ٤٩ بتاريخ ١٥ رجب سنة ١٢٦ هـ دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٤) دفتر رقم ١٨٥٩ معية — صورة المكاتبة الواردة من مدير عموم قبلى السودان الى المعية السنية بتاريخ غرة شوال سنة ١٢٨٨ هـ • رقم ٩ ٨ ص ٤٢ دار الوثائق القومية بالقلعة •

على اقامة عشرة مطاحن موزعة على النحو التالى : ستة منها بكسلا ، وأربعة بسواكن • وبجانب هذه المطاحن تم إنشاء مخبز بجهة سواكن ، وهكذا أصبح من الممكن عقب إنشاء المطاحن والمخبز أن يقدم للجنود على حد تعبير أحد المسئولين « يوم جراية طازة ويوم بقسماط » (١) فقد كانت مسألة إعاشة الجنود فى تلك المناطق فى غاية الصعوبة • وكان الطعام الذى يقدم لهم مجففا مما دعا الكثيرين منهم الى الشكوى فكان هذا الحل الذى توصلوا إليه ، خاصة وان الحبوب كانت متوفرة الى حد ما بجهة سواكن •

وفى عام ١٨٧٥ طلب مأمور بربره إنشاء مطحنين ومخبز بهذه البلدة نظر لصعوبة جلب الدقيق حيث كان يكلفهم ذلك كثيرا من النقود ، بالإضافة الى الصعوبة الناتجة عن خبزه على « الصاج » الأمر الذى جعل صحة الجنود والضباط قد ساءت بسبب الإعتماد على « البقسماط » وحده دون الخبز ، وقام المأمور بشرح الفوائد التى تعود من إنشاء هذين المطحنين ليس فقط بالنسبة للجنود ولكن أيضا سوف يتم بيع كميات من الخبز لمن يرغب فى الشراء بالإضافة الى تناول أجر عملية طحن حبوب الأهالى (٢) •

ولقد شجعت الحكومة فى السودان الأهالى على تعلم الصناعات والحرف وإتقانها على الوجه الأكمل • فمثلا كانت مصر تبعث بالقبانيين وتطلب من المسئولين ضرورة الحاق أعداد من السودانيين بهؤلاء القبانيين لتعلم أصو لالصنعة ، وكذلك الحال بالنسبة للنجارين الذين بعثت بهم الحكومة الى السودان • وزيادة فى حرص الحكومة على

---

(١) دفتر رقم ٢٤ معية عربى — وثيقة رقم ٦٩ بتاريخ ١٨ جمادى الثانية سنة ١٢٩٤ هـ ص ٧٥ من مأمورية بربره الى المعية السنية . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل . المجلد الثالث — الجزء الثالث ص ١٣٧٥ .

نشر هذه الحرف إقترحت على القبانين بأن من يرغب منهم فى العودة الى مصر لا يمكن السماح له بذلك إلا إذا علم شخصين على الأقل حرفة « القبانية » وحتى لا تصبح هناك حاجة فى المستقبل الى إرسال مثل هؤلاء من مصر (١) .

وسيراً على هذا المنوال فى تشجيع تعلم الحرف وتعليمها للسودانيين قامت الحكومة — على عهد الخديوى اسماعيل — فى مديرية البحر « النيل » الأبيض بجنوب السودان بمنح أرباب الحرف الذين يتوجهون اليها من البنائين والنجارين و « المهندسين » وغيرهم مرتبات تزيد عن غيرهم ممن لا يتوجهون الى هذه الجهات النائية . وطلبت من هؤلاء الحرفيين أن ينتشروا فى عدة أماكن حتى يعم إنتشار الحرف والصناعات فى هذه المناطق (٢) . وكانت الحكومة أيضا لا تتخذ فى نشر هذه الحرف أسلوب القوة أو العنف فىترغيب الأهالى على تعلم هذه الحرف فكانت تحض رجال الإدارة فى تلك الجهات على اتباع أسلوب حكيم فى هذه المسألة ، وتشجيعا لأبناء الأهالى خصصت لكل صبى يقدم على تعلم مثل هذه الحرف راتبا من المال ، وأوصت بضرورة تعليمهم الحرفة على أصولها . ولم تنس فى الجانب الآخر القائمين على عملية التعليم هذه إذ كيف تعمل على حل مشاكل المتعلمين بكافة الطرق وتغفل الطرف الآخر الذى يؤدى هذه المهمة فجعلت لكل معلم مكافأة مقابل كل فرد يقوم بتعليمه (٣) . ولا شك أن هذه النظرية تتسم بالحكمة فى عملية التعليم حتى يستطيع المعلم أن يضاعف من جهده بنفس راضية . وهذا الأسلوب الذى طبقته مصر فى القرن التاسع عشر وفى جنوب السودان ، قد أخذت به الدول المتقدمة فى أوربا ، فهو يذكرنا بالسياسة المعروفة

---

(١) دفتر رقم ٧٤٤ — ديوان خديوى تركى — ترجمة الامر التركى رقم ١٧٧ بتاريخ ١٦ ذى القعدة سنة ١٢٤٣ هـ . من الجناب العالى الى خورشيد انما نلظر سنار — دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) امين سامى : المرجع السابق ، المجلد الثانى . ص ٥٦٤ .

(٣) نفس المرجع ص ٥٦٥ .

بإســـم : Stakanovism فى الاتحـــاد الســـوفيتى ، وسياسة تمجيــد الكفاية فى العمـــل التى كانت هى أصل نظام Arbeitehere فى ألمانيـــا الهتلرية (١) ٠

ولا نريد هنا أن نبالغ فى حجم الصناعات والحرف التى نشـــأت فى السودان حتى لا يتبادر الى الذهن صورة الحرف والصناعات التى نشأت فى مصر ، ولكنها كانت هنا متواضعة جدا وتنمو على استحياء ، وكان قوامها من حيث الأفراد رجال الجيش المصرى فى الســـودان كمـــا يبين الجـــدول التالى :

العـــدد	الرتبـــة	نوع الحرفة
٢٧١	نفـــرا	ترزية — جزمجية — خدما الجبخانة
٢٤	اونباشى	
١٢	جاويش	
١	بلوك امين	
٤	باشجاويش	
٢	ملازمون ثوان	
٢	ملازمون أول	
١	صـــاغ	
١	بيكباشى	

جدول يبين أصحاب الحرف من الضباط والصف
والجنود بالسودان عام ١٨٨١
(الوثائق الأفريقية ــ محفظة ١٠٣ ــ ملف ٦)

(١) على الجريتلى : تاريخ الصناعة فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ٠ ص ١٣٥ ٠

وبالاضافة الى أفراد الجيش المصرى ، استقدم بعض الصناع من مصر كما سبق القول • وعلى الرغم من تواضع هذه الصناعات فانها قد حازت اعجاب العالم الخارجى عندما اطلع لأول مرة على مصنوعات السودان أثناء عرضها بمعرض باريس الدولى سنة ١٨٦٧ ، وخاصة المصنوعات الفضية منها (١) •

وهكذا يتبين لنا من خلال عرضنا لأحوال الثروة المعدنية والوضع الصناعى فى السودان مدى الجهود التى بذلت للبحث عن هذه المعادن ومحاولة خلق صناعة حديثة وتطوير الحرف والصناعات البدائية التى كانت تسود المجتمع السودانى ، ثم أيضا محاولة ادخال حرف جديدة اقتضتها الأوضاع الاقتصادية الجديدة فى السودان • ولكن مع كل هذه الجهود المبذولة لابد من طرح تساؤل ثم محاولة الوصول الى إجابة عن السر فى عدم رقي الصناعة السودانية الى مستوى مثيلتها فى مصر آنذاك •

وربما يعود ذلك الى ما يلى :

أولا : إن المواد الخام التى وجه المسئولون اليها عنايتهم فى بادىء الأمر ورصدوا لها كل الخبرات قد باءت بالفشل التام ، وقد يعلم تماما كل خبراء الصناعة مدى أهمية هذا العنصر لقيام صناعة حديثة وقوية ومتطورة ، خاصة اذا كانت هذه المواد متوفرة قرب المصانع •

ثانيا : ان الثروة الحيوانية والمائية فى السودان بالرغم من كثرتها وتوفرها فى جميع أنحائه لم تستغل إستغلالا كافيا فى المجال الصناعى ولو إنها استغلت لنشأت حولها عدة صناعات قوية قوامها الثروة الحيوانية والثروة السمكية • وهكذا أغفل السودانيون عنصرا اقتصاديا

---

(١) احمد احمد سيد احمد : رفاعة الطهطاوى فى السودان ، ص ٥٣ .

هاما لقيام الصناعة والذى يتمثل فى مدى الإستفادة من التخصص الاقليمى للبلاد .

ثالثا : لم يستخدم السودانيون فى الصناعة طرق الإنتاج الحديثة على نطاق واسع ، وظلت تعتمد على أساليب قديمة بالية ، وربما يكون لهم العذر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وان كنا قد شهدنا تجربة لا بأس بها فى شمال الوادى قام بها محمد على ، إلا أننا لا يمكن أن نقبل الإعذار فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حيث بدأ العالم الأوربى يأخذ بأساليب حديثة ومتطورة فى كافة الجوانب الاقتصادية وخاصة الصناعية منها فظهر ما عرف بإسم الانقلاب الصناعى أو الثورة الصناعية .

رابعا : تخبط المسئولين الاداريين فى السودان ، ومعروف أن استقرار نظام الحكم الإدارى والقانونى فى أى بلد ما ينعكس تماما على درجة النجاح الذى تصيبه السياسات الاقتصادية التى تنهجها البلاد . حقيقة أن محمد على كانت له سياسة واضحة وكان يقوم بتنفيذها على أحسن وجه ، ثم جاء بعده خلف لم يسيروا على نهجه تماما ، بل حاول بعضهم النكوص على عقبيه فى مجال الصناعة فى مصر وذلك بقفل أبوابها ، فكيف ننتظر منه أن ينشىء صناعة قوية فى السودان ؟ وحتى اسماعيل الذى بدأ يأخذ بالأساليب الأوربية لم يعط الجانب الصناعى حقه بعكس ما فعل فى الجانب الزراعى حيث شهدنا نهضة زراعية لا بأس بها وخاصة فى مجال زراعة القطن .

خامسا : هناك سبب خاص بالسودان نفسه وهو أن الرجل السودانى قد عزف عن العمل فى الصناعة مفضلا العمل فى التجارة ، وهى مجال ضيق ، وغيرها من الأعمال ، وترك الصناعة للنساء والعبيد . ولذلك ظلت الصناعة السودانية بدائية فى أكثرها ولم تشهد فى تلك الفترة صناعة بالمعنى الحديث تعتمد على الآلات وتأخذ بأحدث الأساليب المعروفة آنذاك إلا فيما ندر .

الفصل الثالث

التجـارة والمواصـلات

(القسم الأول)

التجـارة الداخلية

— طرقهـا

— التجارة فى جنوب السودان :

(أ) تجـارة العاج .

(ب) تجـارة الرقيق .

— التجارة فى غربى السودان :

(أ) فى كردفان (مراكزها : الأبيض — باره — الطيـارة — أهم السلع) .

(ب) فى دارفور (أنواع التجارة — قوة نفوذ التجار وعلاقتهـم بالحـكم) .

— التجارة فى وسط السودان وشرقه :

(أ) فى التاكة (كسلا) — أسواقها .

(ب) فى سـواكن .

— التجارة فى شمالى السودان (بلاد النوبة) :

(أ) فى سكوت والمحس .

(ب) فى دنقلة العجوز .

(جـ) فى دنقلة الجديدة .

(د) فى بربـر .

(هـ) فى شـندى .

— التجارة الأجنبية فى السودان .

— التجارة مع مصر :

(أ) طرق التجارة بين السودان ومصر .

(ب) سياسة محمد على الاحتكارية وأثرها على السودان .

(جـ) أهم الصادرات والواردات بين البلدين وتطورها .

(القسم الثانى)

التجارة الخارجية

— طرقها .

— التجارة مع الحبشة .

— التجارة مع بلاد شبه الجزيرة العربية وجنوب شرقى آسيا .

— التجارة مع شمال أفريقيا .

— قوانين ونظم التجارة السودانية .

(القسم الثالث)

المواصلات

(أ) السكة الحديد .

(ب) البريد والتليغراف .

(جـ) المواصلات النهرية .

(د) المواصلات البحرية .

القسم الأول

التجارة الداخلية

شهدت التجارة السودانية اهتماما بالغا من المسئولين منذ أن ضم السودان الى مصر فى عام ١٨٢١ ، بل ان هذا الاهتمام التجارى قد اعتبره الكثيرون ممن تتبعوا تطور العلاقات المصرية السودانية فى القرن التاسع عشر أحد العوامل التى كانت قد وجهت محمد على شطر السودان ، إلا أن الاهتمام قد بدأ يتزايد تدريجيا فى السنوات التالية ليأخذ طورا آخر ، وهذا الطور بدأ فى عام ١٨٤١ بولوج التجار الأجانب وخصوصا الأوروبيين منهم مستظلين بتسوية ١٨٤٠ / ١٨٤١ التى فرضت على محمد على والتى تنص على ضرورة تطبيق كافة المعاهدات والاتفاقيات التى عقدتها أو تعقدها الدول الكبرى مع الدولة العثمانية ومنها اتفاقية عام ١٨٣٨ (بلطة ليمان) التى حوت بندا هاما يتعلق بحرية التجارة فى أراضى الدولة العثمانية ومنها مصر والسودان أيضا ، فقد أصبح السودان بمقتضى فرمانى ٢٣ مايو ، وأول يونية ١٨٤١ يحكم بواسطة محمد على ، وهذا يعنى سريان المعاهدات التى أبرمتها الدول مع الدولة العثمانية فى أراضيه ، وهكذا وفى ظل مزايا تسوية ١٨٤٠ / ١٨٤١ تدفق الأجانب على السودان ومنهم التجار ، وبدأ تغلغل النفوذ القنصلى والأجنبى فى السودان مثلما تغلغل فى مصر نتيجة اشراف الدول الأوربية على الدولة العثمانية وبالتالى على مصر والسودان .

طرق التجارة الداخلية :ـ

قد يكون من المفيد ونحن نعرض للتجارة السودانية أن نبدأ بالتجارة الداخلية لنتعرف على الطرق التى سلكتها وأنواعها ، فمن أهم الدروب التى سلكتها هذه التجارة والتى كانت أكثر ارتيادا فى القرن التاسع عشر بصفة عامة ما يلى :ـ

أولا : الدرب الموصل من الخرطوم الى بربر ومنها الى سواكن . والجزء الأخير من هذا الطريق من بربر الى سواكن قدرت مسافته بنحو ٢٤٥ ميـلا (١) .

ثانيا : الدرب الموصل من الخرطوم الى بربر والى كرسكو .

ثالثا : الدرب الموصل من دارفور الى الخرطوم والى دنقلة .

رابعا : هناك درب يوصل بين الخرطوم والقضارف الى مصوع .

ويلاحظ أن هذه الطرق وإن كانت داخلية إلا أنه كان يمكن النفـاذ من خلالها الى الطرق الخارجية التى سوف نتحدث عنها فيما بعد .

ويصف لنا على مبارك طريق وادى حلفا دارفور فيقول : « أنـه يخرج من وادى حلفا طريقان يوصلان الى دنقلة الأوردى ثم الى دنقلة العجـوز ومنها الى دارفور ، احـدى الطريقين فى البر الشرقى والأخرى فى البر الغربى ، فأما التى فى البر الشرقى فحجرية صعبة المسـالك ، ومسافتها حتى دنقلة الأوردى ثمانية أيام ، بسير الهجين المعتاد وعشرة أيام بسير القافلة ، ولا يمكن السـير فى هذا الطريق إلا بصحبة خبراء من عرب تلك الجهـات ، وكانت أجرة الجمل من حلفا الى شرق دنقلة الأوردى مائة قرش ديوانى وحمل الجمل فيها من أربعـة الى خمسـة قناطـير » (٢) .

وأما الطريق التى فى الغرب فهى رملية سهلة المسالك لا صعود فيها ولا هبوط إلا قليلا ، وهى أكثر أمانا ، ومسافتها إثنا عشر يوما بسـير القافلة وتسعة أيام بسـير الهجين وستة أيام بسير هجين البريد ويمكن

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق . جـ ١ . ص ١٠ .
أنظر ايضا : الشاطر بصيلى : تاريخ المواصلات فى سودان وادى النيل (القسم الاول) حتى ١٩٠٦ . ص ٨ .
(٢) الخطط التوفيقية الجديدة : جـ ٧ . ص ٤١ .

السير فيها بلا خبير ، وإن جرت العادة السير فى هذه الطريق بالخبير لأنه يؤدى مهام أخرى غير الدلالة على الطريق كحمل أثقال المسافرين إذا عطبت رواحلهم وضبط مسيرتهم • وتمر تلك الطريق على قرية صغيرة تسمى « شمنه » فى البر العربى على شط النيل ومنها يخرج طريقان : طريق الى الفاشر بدارفور وطريق الى الخرطوم (١) •

وقد فتحت بعثات الضابط المصرى سليم قبودان فى النيل الأبيض طريق الملاحة والتجارة مع جنوب السودان ، فعلى سبيل المثال كان يمكن الولوج الى منطقة بحر الغزال من ثلاثة طرق :

أولهما عبر النيل الأبيض عن طريق مرفأ (شامبى) ، وثانيهما عن طريق بحر الغزال عبر مرفأ الرق ، وثالثهما عن طريق شمال دارفور بمنطقة راجا (٢) • وأصبح من الميسور اتصال الشماليين بأهل الجنوب وقيام نوع من التبادل التجارى بينهما •

وهكذا ارتبط السودان شرقه وغربه ، شماله وجنوبه بعدة طرق داخلية سلكتها القوافل والمراكب محملة بالبضائع •

التجارة فى جنوب السودان :

(أ) تجارة العاج :

مع بداية أربعينيات القرن التاسع عشر ، وعقب فتح طريق الملاحة مع جنوب السودان بدأ التجار يتصلون بأهل الجنوب ، فمنذ شهر مارس ١٨٤٠ وهو التاريخ الذى عادت فيه رحلة سليم قبطان الأولى الى الخرطوم توالت الأخبار الشفوية عن ثروات الجنوب ، لا سيما وقد

---

(١) الخطط التوفيقية . ص ٤٤ .

(٢) التيجانى عامر : جنوب السودان ، بحر الغزال بين العصابات والحكومات ١٨٥٠ — ١٩٢٠ ص ١٧ .

عادت سفن الحملة الثانية الى الخرطوم وهى تحمل سن الفيل (العاج) وبعضا من غلات الجنـــوب (١) .

وقد كان العاج (سن الفيل) من أبرز متاجر الجنوب فقـــد عرفه تجار شمال السودان قبل فتح النيل الأبيض للملاحة إذ كان معظمه يأتى آنذاك من دارفور وكردفان . وبالرغم من الحظر الذى كان يفرضـــه محمد على ، على بعض السلع ومنها العاج غداة ضم السودان إلا أن التجار ومنهم تجار الخرطوم كانوا يقومون بتهريبه الى موانىء البحـــر الأحمر حيث تحمله سفن الشركات الانجليزية بالهند والتى كانت تقوم بإعادة تصديره الى أوربا (٢) .

وفى بادىء الأمر كان كبار التجار كالعقاد وغطاس وغيرهما محتكرين للعاج وكانت لهم منشآت ومخازن أو زرائب بالقرب من بحر الغـــزال ودارفور وكردفان وكان لهم جند وخدم وأتباع منتشرين فى كل مكان .

وقد سبق هؤلاء الرجال مغامرون أوربيون أمثال جون بتريك الذى نفذ الى بحر الغزال وتجـــول فى منطقة الدينكا عـــام ١٨٥٣ واســـتقر بإحدى « الزرائب » حيث باشر منهـــا أعماله التجارية بمنطقة الجـــور حتى عام ١٨٦٣ (٣) .

كذلك نشير الى مغامر آخـــر فرنسى الجنسية وهـــو ألفونسو دى مالزاك Malzac الذى جاء الى بحر الغـــزال عـــام ١٨٥٦ ، ويعتبر هو المؤسس لبلدة (رمبيـــك) التى دخل موضعها عن طريق « شامبى » وأسس له تجارة فى كلتيوما ، وظل يمارس نشاطه حتى وفاته ١٨٦٠ .

---

(١) نسيم مقار : جهود مصر فى الكشف الجغرافى ، البكباشى المصرى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل ص ١١٣ .
(٢) احمد احمد سيد احمد : تاريخ مدينة الخرطوم ص ١٣١ .
(٣) التيجانى عامر : المرجع السابق ص ١٨ — ١٩ .

وهناك أيضا شركة فرنسية ضمت لفيفا من المغامرين أمثال « الإخوان امبروز وجوليز بونسيه Poncet ، وهؤلاء دخلوا جنوب السودان عن طريق « شامبى » ومارست هذه الشركة كثيرها أعمال التجارة فى كافة ما ينتجه الجنوب الى أن صفيت أعمالها وغادرت بحر الغزال عام ١٨٧٣ (١) .

ولقد أصبحت تجارة العاج تشكل المورد الرئيسى لدخل التجار فى الخرطوم إذ كانت الرحلة الى الجنوب إذا ما عادت ، على الأقل بنحو خمسة وعشرين قنطارا فقط من العاج قادرة على تغطية نفقاتها ، هذا وإن كانت الرحلة فى أسوأ الأحوال لا ترجع بأقل من مائة قنطار ، وقدر البعض قيمة العاج الذى قام سوق الخرطوم بتصديره بين عامى ١٨٦٠ — ١٨٧٠ بنحو أربعين ألف الى مائة ألف من الجنيهات فى السنة (٢) .

ولما أصبح غوردون مأمورا على خط الاستواء (١٨٧٤ — ١٨٧٦) احتكر تجارة العاج فى هذه المديرية وتوقع المراقبون الاقتصاديون كساد هذه التجارة ، إلا أن الأمور سارت عكس ذلك تماما فى بادىء الأمر ، فلم تتعرض صادرات السودان من العاج فى تلك السنوات لأى شكل من أشكال الضعف ، وذلك لأن العائد الذى تدره كفيلا بأن يحتال التجار بكافة السبل للحصول عليه فقد كانت تدر دخلا لا يقل عن مائتين فى المائة فى أسوأ الظروف (٣) .

ويذكر أحد الدارسين أن الفترة التى عاد فيها غوردون حكمدارا للسودان (فبراير ١٨٧٧ — يناير ١٨٨٠) ، تذبذبت خلالها صادرات العاج تذبذبا شديدا ، فقد بلغت صادراته عام ١٨٧٩ حوالى

---

(١) نفس المرجع ص ١٩ .
(٢) احمد احمد سيد احمد : المرجع السابق ص ١٣٤ .
(٣) Gessi; op. cit., p. 61.

(٨٠٫٠٠٠ من الكيلو جـــرامات) ، بينما بلغت فى عام ١٨٧٨ أعلى معدل لها ، طوال الحكم المصرى وهو ٢٠٥٫٠٠٠ من الكيلو جرامات) • ويفسر ذلك بأن التجار كانوا يخزنون العـــاج عقب تهريبه حتى إذا وجـــدوا الفرصة الطيبة لبيعه أخرجوه (١) •

ولدينا احصائية تفصيلية لإنتاج العاج فى كل مركز من مراكز جنوب السودان عام ١٨٨١ ، تشير الى ارتفاع معدل انتاجه بشكل مضطرد ، إذ بلغ فى هذا العام جملة انتاج هذه المراكز ١٧٠٠ قنطاراً كما يشـــير الجـــدول الآتى :

اسم المركـــز	المقادير بالقنطار
بـــــود	١٠٠
لادو	٦٠
كـــرى	٢٠
دوفيليه	١٥٠
فويرا	٢٠
لاتوكـــا	٢٠
فاديبـــك	٥٠
مكراكـــا	٥٠٠
رول	٢٠٠
ممبيتـــو	٤٠٠
الاجمـــــالى	١٧٠٠

(١) احمد احمد سيد احمد : المرجع السابق ص ١٣٤ .

وقد بلغ ثمن الـ ١٧٠٠ قنطار على أساس ثمن القنطار الواحد ثلاثين جنيها حوالي ٥١٠٠٠ جنيه مصري (١) .

ولقد تعرضت سياسة احتكار العاج في جنوب السودان لاستياء التجار ونقد بعض المؤرخين ، فمن المعروف أنه لما أن تسلم غوردون حكم مديرية خط الإستواء حتى أعلن :

أولا : أن التجارة في العاج خاصة بالحكومة .

ثانيا : أنه لا يسوغ لأحد أن يأتي الى هذه النواحي دون الحصول على تذكرة « تصريح » من حاكم السودان العمومي ، وهذه التذكرة انما يعمل بها بعد النظر فيها من حكومة (غوندكرو وغيرها) .

ثالثا : أنه لا يسوغ لأحد أن يجمع رجالا مسلحين داخل هذه الجهات .

رابعا : ان جلب السلاح والبارود ممنوع .

خامسا : أن كل من يخالف هذا المرسوم يجرى عليه الجزاء بحسب القوانين العسكرية (٢) ويتبين من هذه القرارات انها كانت ضربة قاصمة لتجار العاج في تجارتهم فهي لم تحرمهم هذه التجارة وحسب ، بل حرمتهم حتى الدخول الى تلك الأراضي إلا بشروط شبه مستحيلة ، ومعنى ذلك كله أن غوردون سوف يقوم بإسم الحكومة بعملية إحتكار العاج ، ولكن من أين له الخبرة في هذا المجال الذى له رجاله ؟ . لقد أراد غوردون أن يستغل بعض التجار القدامى ويستثمر خبرتهم في هذا المجال فضم إليه بعضا منهم أمثال « الأطروش » وهو أحد صيادى العاج القدامى الذين قدموا الى هذه البلاد منذ زمن طويل مع مجموعة من الدناقلة

---

(١) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء . الجزء الثانى . ص ٧٧ .

(٢) ابراهيم فوزى باشا : كتاب السودان بين يدى غوردون وكتشنر — الجزء الأول ص ٦ .

وعمل بتجارة العاج فى بـلاد المكراكيين « نيام نيام » ونجح فيهـا ، وعقب احتكار الحكومة للعاج دخل فى خدمتها (١) . فقـد كان رؤسـاء الزرائب المنتشرة على طول ساحل بحر الزراف والنيل الأبيض مجبرين على إخـلاء منشآتهم فى ظرف ثمانيـة أشهر يصبح للحكومة بعـدها الحق فى مصادرة العاج والإستيلاء عليه .

وقد تسببت هذه الاجراءات فى خسائر جسيمة للحكومة تمثلت فى عدم دفع ضرائب سنة كاملة ، كمـا ترتب أيضا على إلغاء هذه الزرائب . والتى كانت مراكز طبيعية لتمويل الأهالى بلوازم المعيشة ، إزدياد نفقات الحملات التى قامت بها الحكومة فى تلك البلاد الشاسعة (٢) .

وقد وصف البعض أيضا قرار إحتكار العاج بعـدم الحكمة ، إذ أن هذا القرار قد جعل صيد الفيل يقل بصورة ملموسة فى المديريات وجعـل انتاج العاج فى البلاد الجنوبية (الاونيورو بوجه خاص) يتجه نحـو الجنوب بدلا من الاتجاه صوب الشمال طريقه الطبيعى (٣) .

وكان الخـديوى اسماعيل فى بعض الفترات يلجـأ الى الإحتكار لأسباب خاصة ، فها هو يخاطب صمويل بيكر بقوله « واحتكروا التجارة كما تقترحون وأنا أوصيكم بذلك لا لأنى أميـل الى الإحتكار ولكن لأن الإحتكار له ما يبرره فى هذه الحالة فهو ضرورى لإقصـاء التجار الذين يستخدمون العبيد كوسيلة من وسائل المقايضة . على أنى أريدكـم أن تحتكروها إحتكارا ينطـوى على السـماحة (٤) . وكان التجار يقدمون للجنوبيين فى مقابل العاج الخرز على اختلاف أنواعه وألوانه ، ثم الودع والقصدير ، وكانت جميعها تسـتخدم للتزين سـواء بالنسبة للرجـال

---

(١) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء . ص ٢٠٨ .

(٢) محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القـرن التاسع عشر هامش ص ٧٢ .

(٣) نفس المرجع ص ٧٢ ، ٧٣ .

— ص ٢٣٧ .

(٤) جورج جندى وجاك تاجر : اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية

أو النساء ، وكان الأهالى يفضلون هذه الأشياء على الذهب والفضة . وكانوا يقدمون فى مقابل ذلك بالإضافة الى العاج ، ريش النعام والمطاط والحديد والنحاس (١) .

(ب) تجارة الرقيق :

ولقد ارتبطت تجارة العاج بتجارة أخرى وهى تجارة الرقيق ، لأن مطاردة الرقيق وحدها كانت لا تأتى بربح وفير إذا ما سبق هؤلاء الرقيق الى الساحل فارغى الأيدى .

فكان التجار فى غزواتهم المسلحة ينتهبون العاج ويحملون الرجال والنساء والأطفال أسرى وعبيدا (٢) .

وقد كان لاعلان حرية الملاحة فى النيل الأبيض خلال عامى ١٨٥٣ / ١٨٥٤ نتائج خطيرة ، إذ سرعان ما أصبحت أقاليم النيل العليا وخاصة عند غندكرو ، ميدانا لنشاط تجارة الرقيق (٣) .

ومنذ عام ١٨٥٤ أصبحت تجارة الرقيق السلعة الرئيسية فى سوق الخرطوم بلا منازع بعد أن كان العاج يحتل هذه المرتبة ، ففى هذا العام وبالقرب من غندكرو على بحر الجبل قتل تاجر العاج السردينى « فودى » مع بعض رجاله ، وعقب هذه الحادثة توسع تجار الخرطوم فى استعمال الحراس بالإضافة الى أن عددا كبيرا من أصحاب رؤوس الأموال الصغيرة من أهل الخرطوم المتعددى الجنسيات قد تنبهوا منذ عام ١٨٥٠ الى ضخامة مكاسب رحلات العاج فبدأ الجميع يتجه الى

---

(١) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان ص ١٨ — ١٩ .
(٢) محمد صبرى : المرجع السابق ص ٥٣ .
(٣) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ — ١٨٨٥ — ص ٥٢ ، ٥٣ .

الجنوب ، كما أن الزنجى بدأ يرفع أسعار عاجه ، لذلك كان الاتجـاه الى تجارة الرقيق الذى كانت تقل نفقاته كثيرا عن العاج (١) .

هـكذا بدأ الاتجاه نحو الجنوب لإستنزاف رجاله فى صورة سـلع وبدأت تنتعش تجارة من أبشع أنواع التجارة فى العـالم والتى أطلق عليها البعض « تجارة العاج الأسود » وكان من الطبيعى أن يصحب هذه الانتعاشة اقامة عدة بيوت تجارية مثل بيت أحمد العقاد « وأبو السعود » « وأبو عمورى » والبصيلى وشنودة وغطاس وكجوك على وخليل الشامى ومحمد خير والزبير رحمت وخورشيد أغا وعبد الحميد وغيرهم .

ومن التجـار الأجانـب ديبـونو Debono وأمبيلى Ambile وينتميان الى سلالة مالطية ، ومالزاك Malzac ، وبارثلمى Barthelmy ولافارج Lafargue وبونسـيه Poncet وينتمون الى فرنسـا ، وبترك الانجليزى ، بالإضافة الى أحد البيوت الايطالية « انجيلو — بولوينزى — انطونيولى » (Angelo - Boloynesi - Antonyoli) الذى اختص بالتجارة الحبشـية .

وفى عـام ١٨٦٠ باع أكثر هؤلاء التجـار زرائبهم ومحطاتهم الى التجار العرب حيث عجزوا عن منافستهم (٢) .

وهـكذا تربع هـؤلاء الأفراد على قمة هـذه التجارة وتألفت من « أبو عمـورى » وبصـيلى وكوجك على « ديكتاتورية ثلاثية » فرضت سطوتها على السودان فى اقليم بحر الغزال ، فى حين تألفت من شـنودة

---

(١) أحمد احمد سيد احمد : المرجع السابق ص ١٣٥ .

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ، الجـزء الثانى ، ص ٣١٥ ، انظر ايضا شكرى : مصر والسودان تاريخ وحدة وادى النيل السياسة ص ٨٥ .

وخورشيد آغا ، وديبونو ديكتاتورية ثلاثية أخرى حــول غندكرو بإقليم بحر الجبــل وجهات النيل العليا (١) .

وكان لكل عصابة من تلك العصابات « مشرع » خاص بها يســمى مشرع الرق وأحيانا يسمى « زريبة » أو « ديم » (*) .

وكان لموسى العقاد فى عهد الخــديوى اسماعيل خمسة مشــارع فى جهات النيل الأبيض (٢) وقد كانت شركة العقاد هذه من الشركات التجارية بمصر والخرطوم التى استطاعت أن تحصــل من حكومة الخرطوم على احتكار حقوق الاتجــار فى أعالى النيــل .

ومن الأسماء المقترنة بأسرة العقاد أبو السعود العقاد الذى جــاء الخرطوم شابا حيث التحق ببيت العقاد التجارى ، وفى عام ١٨٧٠ تبوأ مكان الصدارة فى هذه الشركة وبدأ يمارس هذه التجارة على نطاق واسع الأمــر الذى جعل بيكر يضيق ذرعا به وبالتالى فوجه اليه فى ١٨ يونية ١٨٧١ من غندكرو خطابا شــديد اللهجة يتهمه فيه بالتحالف مــع قبيلة

---

(١) شكرى : المرجع السابق ص٨٦ .

(*) المشرع عبارة عن مكان محصن على شــكل مربع مبنى من عروق الخشب يقيم فيه التاجر أو وكيله ومعه حراس مسلحون ، وهذا المكان كان يضم أفرادا من العبيد لمصاحبة أسيادهم فى الغــارات والبحث عن العاج و العمل فى الحقول والبعض الآخر فى رعى الماشية .

انظر اسماعيل سرهنك : المصدر الســابق . ص ٣١٦ ، وأيضــا محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر . ص ٧٠ .

وأيضا : سعد الدين : الزبير باشا رجل السودان . ص ١٨ .

وأيضا : دفتر رقم ١٩٢١ عابدين اوامر كريمة ، صورة الأمر الكريم رقم ٢ ص ٤ بتــاريخ ٢٩ ربيع الثــانى ســنة ١٢٨٢ هـ . أمر كريم الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

وأيضا : Gessi; op. cit., p. 222.

وأيضا : Douin; G.; Histoire Du Régne Du khedive Ismail L'Empire African. 3 Partie (1874-1876). Tome Troisieme p. 58.

(٢) دفتر رقم ١٩٢١ — الأمر الكريم رقم ٢ بتاريخ ٢٩ ربيع الثانى سنة ١٢٨٢ هـ . الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

« البـارى » ضد الحكومة ، وقيام جماعته بسرقة المواشى والزنوج من داخل البلاد واشـاعة الفوضى فى المنطقة ثم طلب إليه أن يخلى مـع أتباعه المنطقة النازلين بهـا وأن يوافق على مصـادرة المواشى المسلوبة لصالح الحكومة .

ويبدو أن الأمر قـد تأزم بين بيكر و « أبو السعود » مما جعـل الأخير يشكو بيكر للخديوى ويتهمه بالتهجم عليه وإفساد تجارته ويطالب بالتحقيق فى هذا الأمر . ولكن الخديو حدد له مهلة ليخلى المنطقـة بل وصـل الأمر الى حـد طلب القبض عليه فورا ومنعه من هذه التجـارة خاصة وأن بيكر منذ عام ١٨٦٩ كان معنيا بالقضـاء على هذه التجـارة كما جاء فى البنـد الثانى من العقد المبرم بينه وبين الحكومة المصرية (١) .

ومن التجار الذين اشتهروا فى هذا المجـال أيضا على أبو عمورى بمنطقة بحر الغزال وهـو ينحدر أصـلا من بلدة نجع حمادى بصعيد مصر .

ومن الشخصيات التى ارتبطت « بأبو عمورى » وذاعت شـهرتها الآفاق شخصية « الزبير رحمت » فهو كغيره من التجار قد مارس تجارة الرقيق فى الجنوب وخاصـة ببحر الغزال حيث أنشـأ « ديم الزبير » واكتسب فيها شهرة عظيمة من خـلال تجارته وعصابته المسلحة هناك ،

---

(١) Crabites; Gordon. The Sudan and Slavery pp. 33, 5, 49 - 50.

وانظر ايضا : Hill; Abiographical Dictionary of the Anglo Egyptiann Sudan.

وكذلك : عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء . الجـزء الأول ص ٤٤ ، ٤٥ ، وأيضـا جميل عبيد : المديرية الاسـتوائية ص ٣٨١ ، ص ٤٣٣ ، ٤٣٧ . ، وكذلك : محمد أحمد الجابرى : فى شـان الله أو تاريخ السودان كما يرويه أهله ص ١٠٤ .

وايضا : محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ص ٥٣ .

واستطاع أن يعقد مع عربان الرزيقات اتفاقا لفتح طريق « شكا » للتجارة بين مملكته فى بحر الغزال وسلطنة دارفور ثم استولى على « شكا » وبسط سيطرته على جميع أجزاء بحر الغزال حتى استشعرت الحكومة خطره خاصة بعد هزيمته لمحمد الهلالى (البلالى) الذى أرسل الى بحر الغزال فى عام ١٨٦٩ ، فأسندت اليه قيادة الحملة التى ضمت دارفور عام ١٨٧٤ (١) .

هذا فيما يتعلق بالأفراد والجماعات التى سلكت هذه التجارة ، أما عن أسلوب الحصول على هذه السلعة فكان يتم عن طريق اشعال الحرب بين تلك القبائل الجنوبية ، فكانت القرى تغير على مثيلتها دون مبرر مقبول اللهم إلا مبرر السلب ، وكان الأسرى يباعون الى القبائل الأخرى ويبادلون بالبقر والماعز ، والى هذه الخطوة يمكن أن يسأل الجنوبيون عن تشجيع هذه التجارة حتى يأتى تجار الرقيق والعاج ويمرون ببعض القرى ويشترون صمتهم بوعدهم بالماشية ويستبقون لأنفسهم الرقيق والعاج ، وكانوا يبدأون جميعا عملهم ليلا بمساعدة الأهالى المسلحين بالرماح حيث يقومون بإشعال النيران فى الأكواخ ، بينما يقوم حلفاء التجار بنهب الممتلكات ومنها الأفراد ، ويظل الأسرى مقيدين حتى يفك أسرهم ويقادوا محملين بالعاج ومعهم الماشية . وما أن يصلوا الى الزريبة حتى تقسم الغنائم على النحو التالى : العاج والعبيد للتجار ، والماشية للوطنيين .

ثم يقيد العبيد ويظلون هكذا لمدة ثلاثة أسابيع حتى يصلوا الى

---

(١) دفتر رقم ١٨٦٤ معية ، ص ٣٨ ، صورة المكاتبة الواردة من مديرية عموم قبلى السودان الى المعية السنية بتاريخ ٢٥ شعبان ١٢٨ هـ دار الوثائق القومية بالقلعة . ، انظر ايضا : السودان — مجلس الوزراء — محفظة موضوعات عوايد . دار الوثائق القومية بالقلعة .

وايضا : سعد الدين الزبير : المرجع السابق ص ٦٥ ؛ وشكرى : الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ — ١٨٨٥ . ص ١٧٣ .

الخرطوم • وكانت هنـاك وسـيلة أخرى للحصـول على الرقيق وهى قيام البعض من الأهـالى ببيع أبنائهم بسبب الضائقات المختلفة مثـل المجاعات وغـيرها (١) •

ويفرق البعض بين نوعـين من هذه التجـارة ، الأولى وتعـرف « بالبحارة » حيث يتوغل صيادو الرقيق فى النيل الأبيض حتى يصلوا الى أعاليه منتشرين فى بلاد بحر الغزال وخط الإستواء • والنوع الثانى يسمى « بالنهاضة » وهم الذين كانوا يغزون الجبـال كجبال النـوبا وجبـال فازوغلى (٢) • وكان شـعارهم « يا دهب أحمـر يا مـوت أحمـر » (٣) •

وعقب تلك العمليات يصـل الرقيق الى أسـواق السودان لبيعـه للاهالى أو للتجار الذين يقـومون بتصديره الى الخـارج وأشهر هـذه الأسواق السودانية أسواق فاشـودة والقلابات والأبيض وهى تختص برقيق دارفور وجبال النوبا وبحر الغزال وخط الإسـتواء والحبشة ، وكان التجار يشترون من هذه الأسـواق ويقومون بالبيع فى أسـواق الخرطوم والمسلمية وود مدني وسنار والقضارف وكسلا وبربر وشندى ، ويصـدرون ما يزيد عن حاجة البلاد عن طريق النيل والبحر الأحمر (٤) ويباع الرقيق فى هـذه الأسـواق إما بالمزايدة العلنية أو عن طـريق الاتفاق الشخصى ، ولحظة شراء الرقيق يسـمح للمشترى قبل إتمـام الصفقة بإيواء الرقيق بمنزله ثلاث ليـال ذكرا كان أم انثى فى مقـابل « عربون » يعادل ربع الثمن أو خمسـة • ويعيب الرقيق أن يكون به

---

(١) الشاطر بصيلى عبد الجليل • تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط من القرن السابع الميـلادى الى القرن التاسـع عشر الميـلادى ص ٤٠١ •

(٢) نعوم شقير : المرجع السابق ج ٣ ص ٥٠ — ٥١ •

(٣) عمر طوسون : المرجع السابق ص ٣٥٠ •

(٤) شقير : المرجع السابق ، ص ٥١ •

مس من الجنون أو ألف التبؤل أو الشخير أثناء النوم أو مصابا بالزهرى ، فإن كان خاليا من هذه العيوب تمت الصفقة وإلا أعيد صاحبه واسترد العربون . أما إذا كانت الجارية بكرا وعاشرها المشترى معاشرة الأزواج فلا يمكن ردها (١) .

ويختلف ثمن الرقيق تبعا لإختلاف السن والصحة والجمال ، والصفة المطلوبة غالبا فى الرقيق الذكر النشاط والقوة ، وفى الأنثى الشباب والجمال . والرقيق من الإناث — فى أغلب الأحيان — أغلى من الذكور ، كما أن أثمان الأطفال أقل من أثمان المراهقين ، اللهم إلا إذا كانوا قد تعلموا اللغة العربية أو الخدمة بالمنازل فحينئذ تزداد قيمتهم خاصة وان مسألة هربهم قد أصبحت غير متوقعة . وأثمن الذكور جميعا الخصى المخصص لخدمة السيدات التركيات ، أما أثمن الجوارى جميعا فالحبشيات حيث تباع أكثرهن للمتاع البدنى (٢) .

وظل هؤلاء التجار يمارسون هذه التجارة رغم ما صدر اليهم من أوامر منذ عهد محمد على بالكف عن هذه التجارة خاصة وأنه — كما سبق القول — لم يعد محمد على يكترث بعائدها ، وبدأت الدول الأوربية تضغط عليه لمنعها واستمرت هذه المحاولات فى عهد خلفائه وخاصة فى عهد اسماعيل حيث أشرنا الى ما قام به مبكرا فى هذا الصدد .

---

(١) تقرير بورنج السابق ص ٥٥٧ ، ٥٥٩ ، ٥٧٤ .

(٢) نفس التقرير . ص ٥٧ . انظر ايضا :

احمد احمد سيد : المرجع السابق ص ١٧٢ ، ويقسم الأهالى السودانيون الاناث من الرقيق الى طبقات السن الآتية : فالبنات اللائى تقل أعمارهن عن ١١ سنة يدعون بالخماسى ، واللائى عمرهن من ١١ — ١٥ سنة يدعون بالسداسى وهن اغلى الرقيق . انظر :

Cailliauld; Voage a Meroé Au Fleuve Blanc, Au Della De Fazogl dans le midi Du royaune de Sennar A. Syouoh et dans Cinq autres Oasis, Tom. III, p. 117.

انظر ايضا : محفظة ١٩ بحر برا — وثيقة رقم ١ ملف رقم ١ دار الوثائق القومية بالقلعة .

وكثفت هذه المحاولات * على يد غوردون الذى أعلنها حربا شعواء على تجار الرقيق وأخيرا توجت بقرارات رسمية كان أهمها معاهدة ٤ أغسطس ١٨٧٧ التى نصت صراحة على ايقاف هذه التجارة ورسمت السبل الخاصة لمنعها تماما ولكن هذه المعاهدة لم تكن إلا مدادا على ورق فاستمرت هذه التجارة بشكل أو بآخر وأصبح من الصعوبة إيقافها حيث أمست متغلغلة فى كيان السودان الاقتصادى .

وفى عهد الخديوى اسماعيل وضعت عدة أمور لتنظيم عملية التجارة مع الجنوب بعد أن كانت متروكة للأهواء الفردية لكل تاجر ، فأقامت الحكومة المحطات العديدة بهدف انتشار الأمن وراحة المتمردين عليها والمستوطنين وكمرسى للوابورات والسفن التجارية (١) .

وقد خصصت الحكومة فى كل من هذه المحطات طبيبا ووفرت له كافة الأدوية لمعالجة من تقتضى معالجته من العساكر والأهالى والتجار ، على أن تتحمل الحكومة نفقات هذا العلاج . وكان الهدف من إرسال العساكر الحكومية الى هذه المنطقة كما جاء بالبند الثالث عشر لتنظيم

(*) حول هذه الجهود انظر على سبيل المثال مما يلى :
- نص معاهدة الرقيق بتاريخ ٤ أغسطس ١٨٧٧ المشار اليها .
- لائحة تنفيذ قرار الرقيق فى السودان بمحفظة اللوائح بدار الوثائق القومية .
- دفتر رقم ٤٦ عابدين — وارد تلغرافات — صورة التلغراف العربى رقم ٤٨ ص ٦٢ بتاريخ ٢٣ ربيع الأول ١٢٩٤ هـ . ارادة الى حكمدار عموم الأقاليم السودانية .
- محافظ السودان — مجلس الوزراء — رقيق — دار الوثائق القومية بالقلعة .
- محافظ السودان — مجلس الوزراء — رقيق — ترجمة نص الخطاب المرسل من نظارة الداخلية الى الكونت صالة بتاريخ ١٥ مايو ١٨٨٠ .
- وتفس المحافظ — محفظة الرقيق — صورة المنشور الصادر من نظارة الداخلية بخصوص منع الرقيق بتاريخ غرة رجب ١٢٩٧ هـ . (٩ يونية ١٨٨٠) .

(١) أمين سامى : تقويم النيل — المجلد الثانى ج ٣ ص ٥٦٥ .

جهات البحر (النيل) الأبيض هو « عماريتها وضبطها ووقاية أهلها والتجار المارة أو المقيمة بها من سائر أنواع الضرر (١) » . كذلك فقد جاء فى البند السادس عشر أن كل هذه الأمور الأمنية التى أجرتها الحكومة فى تلك البلاد كان القصد منها « توسيع دائرة التجارة فى تلك الجهات » . ولم تكن الحكومة تقتصر فى نشر مظلتها الأمنية على التجار السودانيين أو المصريين بل إمتدت هذه الرعاية الى التجار الأجانب طالما كانوا يحترمون القوانين التجارية « فى الأخذ والعطاء مع أهالى تلك الجهات » (٢) .

ولقد كانت هناك مبادرة شخصية من لدن موسى حمدى حكمدار السودان فى شأن تنظيم عملية الأجرة التى كان يتقاضاها بعض المرشدين نظير ارشادهم لحملات التجار فاقترح هذا الرجل أن يدفع هؤلاء مائتى قرش لرؤساء الإرشاد (الأدلاء) بالإضافة الى مائة قرش للخدم ، ولكن التجار لم يكن لديهم استعداد أن يدفعوا أكثر من ستة وثلاثين قرشا فقط ، ونتيجة لهذا الشح الذى كان يقابل به هؤلاء الأدلاء ، تعرض كثير من التجار للمخاطر فى هذه الرحلات ، من ذلك ما حدث للسيدة الفرنسية (تنى) Tinne التى تعرضت الى ظروف سيئة اضطرتها فى النهاية الى دفع مبلغ مائة قرش بدلا من ستة وثلاثين قرشا .

ويبدو أن هؤلاء التجار الفرنسيين كانوا برمين بمثل هذه الأوضاع والتنظيمات التى كانوا يلاقونها من قبل المسئولين فى السودان (٣) .

---

(١) أمين سامى : المرجع السابق . ص ٥٦٥ .
(٢) نفس المرجع . ص ٥٦٧ .
(٣) الأرشيف الفرنسى : محفظة ٥٩ بدار الوثائق القومية بالقلعة . رسالة موجهة من :
M. C. Thibut, Vice-Consul de France à Khartoum à M. Testu, Agent et Consul General de France. Alexandrie. Khartoum. Le 2 Juin, 1864.

ومن بين الأمور المنظمة للتجارة فى جنوب السودان بنود تنص على الكشف على المراكب وعدد أشخاصها فى الذهاب والإياب وإجراء التفتيش عليهم (١) • ويصف ابراهيم فوزى أوضاع التجار ببحر الغزال عقب سيطرة الحكومة على هذه المناطق قائلا : « ••• ثم كتبنا منشورا الى جميع الجهات (ببحر الغزال) لوكلاء الكباين (الشركات) والأهالى بصيرورتهم من رعايا الحكومة المصرية وأن يحضر أولئك الوكلاء والأعيان الى مركز (مشرع الرق) • ولم تمض أيام قلائل حتى حضر قناوى بك وأبو عمورى ونظاره (وكلاؤه) ومشايخه على القبائل طائعين ، وحضر أيضا وكلاء الخواجة غطاس • وهكذا أخذ رؤساء التجار يفدون واحدا بعد الآخر إظهارا لطاعتهم وسرورهم بإمتداد سلطة الحكومة المصرية عليهم ••• » (٢) •

وفى ظننا أن مجىء هؤلاء التجار لم يكن يعنى البتة رضاءهم عن هذه الأوضاع الجديدة التى أصبحوا فى ظلها تابعين بعد أن كانوا يسيطرون على هذه الجهات بقوة السلاح وكانوا بحق ، يشكلون حكومات غير شرعية • فمجيئهم اليوم لم يكن إلا نوعا من أنواع الهدنة المؤقتة ولا يمكن للمرء أن يتصور أن هؤلاء التجار سوف يقنعون بما تقرره الحكومة فى هذه الجهات ، ولعل فى ثورة سليمان نجل الزبير رحمت فى بحر الغزال ما يقوم دليلا على صدق هذه المقولة •

وقد أخذت الحكومة من التجار أسلحتهم ، وفرضت عليهم مقدارا معلوما من تجارتهم « كحصة للحكومة » كانت تقدر بثلاثة أخماس تجارتهم من ريش النعام والصمغ وسن الفيل وكان الحال يستوجب على الحكومة فى تلك الجهات المرور على أماكن هذه الشركات التجارية واحدا بعد الآخر ، لأخذ نصاب الحكومة منهم • وقد أبدى هؤلاء التجار كثيرا

---

(١) أمين سامى : المرجع السابق . ص ٥٦٧ .
(٢) السودان بين يدى غردون وكتشنر جـ ١ . ص ٣١ .

من الضجر إزاء هذه المعاملة وجأروا بالشكوى والتمسوا فى نظير ذلك أن تعفيهم الحكومة من أجرة نقل بضائعهم على مراكبها بين بحر الغزال والخـرطوم (١) .

التجارة فى غربى السودان (كردفان ودارفور) :

وفى غربى السودان كان من الطبيعى أن ينشأ نوع من الاتصال التجارى مع أجزاء السودان الأخرى وخاصة المجاورة له . وقد سهلت عملية ضم كردفان الى أجزاء السودان فى عهد محمد على زيادة هذه الصلات خاصة وأن تجارة كردفان قبل هذا الضم كان أكثرها يتجه نحو مصر ، أما الآن ، وقد أصبحت الإدارة واحدة والجميع يخضعون لقوانين واحدة بدأت هذه التجارة وخاصة فى كردفان يتجه كثير منها الى سوق الخرطوم . فكان سوق الأبيض يعج بتجار الخرطوم الذين يقومون بنقل بضائع كردفان الى سوق الخرطوم والتى كان أهمها الصمغ وريش النعام والعبيد والعاج وشمع العسل والقطن والسمسم والجلود والتمر الهندى والملح والدخان والذهب والماشية بالإضافة الى كميات قليلة من السنامكى والحنظل (٢) .

وقد احتلت الأبيض — التى كانت عاصمة لكردفان — مركزا تجاريا هاما نظرا لموقعها الهام على ملتقى طرق القوافل القادمة من النوبة وسناو ودارفور ووادای وشمال غرب أفريقيا ومصر (٣) . وقد سكن هذه البلدة الكثير من التجار سواء الذين كانوا قادمين من جهات السودان المختلفة أو أولئك الذين قدموا من خارج السودان ، وأصبح هؤلاء التجار يشكلون جاليات ولكل جالية حى تعرف به أو قرية من القرى الكبيرة . فالتجار الذين قدموا من دنقلة أقاموا فى احدى القرى بوادى

---

(١) ابراهيم فوزى — المصدر السابق . ص ٣١ .

(٢) Pallme; op. cit., vol. I. p. 280.

(٣) Ibid. pp. 295-8.

نجيلى Nagele . وكذلك الحال بالنسبة للقادمين من بلاد التكرور الذين سكنوا حيا عرف باسم حى التكارنه أو قرية الحجاج (١) .

وكان الرحالة والمكتشف جون بتريك واحـدا من أولئك التجـار الذين أقاموا فى الأبيض وتاجروا فى الصمغ العربى من كردفان بين عامى ١٨٤٨ ـ ١٨٥٣ .

ولم تقتصر الأبيض على هذه الأحياء بل اضيفت إليها أحياء أخرى عديدة على يد الإدارة المصرية فى السـودان تبعـا لإزدياد النشـاط التجـارى . ويصف أحـد الرحالة سـوق الأبيض بأنـه كان من أكثر أجزاء المدينة حيوية ونشاطا (٢) ، فقـد كان يضم أقساما متنوعة لعرض السلع المحلية والواردة من الخـارج ، فكان للابل والماشية والأغنـام « قسم » ، وللسلع رخيصة الثمن « قسم » خاص بهـا وكذلك الحـال بالنسبة للسلع عالية الثمن قسم ثالث . وكان الأخـير أكثر تنظيما من الأقسام الأخرى فهو عبارة عن صفين من « الدكاكين » المشيدة من الطمى و « سقيفة » لحجب أشعة الشمس عن واجهتها وكانت الأدوات المعدنيـة والذهب من أهـم السـلع المحلية ، بينمـا كانت السـيوف وأجراس الابل والأقواس ، والكحل والأسلاك النحاسية والحديد والمرايا والسكر والصابون والكبريت من أهم السلع الآتية من خارج كردفان (٣) .

وكان لتجار الجملة فى سـوق الأبيض قسم خاص ، شيدوا فيـه منازل خاصة بهم يقيمون فيها ، وتؤدى مهمة أخرى ، إذ كانت تعقـد فيها الصفقات التجـارية الكبيرة التى تأخذ طريقها الى الخـارج مثل الرقيق وسن الفيل أو ريش النعام والصمغ والتمر هندى (٤) .

---

(١) John Pethrick; op. cit., p. 300.
(٢) Hill; A Biographical Dictionary. p. 35.
(٣) Pallme; op. cit., vol. I. p. 280.
(٤) Ibid. pp. 297-98.

ولقد خضعت السلع التى كانت تعرض فى سوق الأبيض لنظرية العرض والطلب فهى تارة تنخفض بشكل نسبى أثناء قدوم القوافل المحملة بالكثير من هذه السلع وتارة أخرى ترتفع عندما يتعذر وصول القوافل من الخارج وخاصة فى موسم الأمطار . والرقيق هو أوضح مثال لذلك إذ كان سعره يرتفع عندما يصبح المعروض منه فى السوق قليلا والقوافل التى تقوم بشحنه على وشك مغادرة البلاد (١) .

والرقيق فى الأبيض كان إحدى السلع التجارية الهامة والرئيسية التى اشتهر بها على كافة أجزاء السودان الأخرى . لذلك فلا عجب إذا لاحظنا أن أسواق الرقيق فى الأبيض كانت تعقد يوميا .

ويتم الحصول على هذه السلعة بواسطة الجلابة من مواطن الزنوج القريبة ، فقد إعتادت البقارة القيام بشن الغارات على قبائل الشلك والدنكا وسكان مرتفعات النوبا . ولم يكن يخلو بيت من البيوت من وجود الرقيق ذكرا كان أم أنثى للقيام بشئون المنزل بل إن كثيرا من البدو كان يقتنى الرقيق ، كما أن الفلاح الكوردفانى كان يعتمد عليه فى الإنتاج الزراعى (٢) .

وبالإضافة الى الرقيق إشتهرت الأبيض بتجارة العاج إذ كان الجلابة من الأبيض وبارة يحصلون عليه من جهات كردفان والأقاليم المجاورة مثل دارفور وبلاد الشلك وبعض المرتفعات . ومن المدن التجارية الأخرى والتى تلى الأبيض من حيث الأهمية التجارية مدينتا بارة والطبارة ويرجع الفضل فى تشييد بارة الى الدناقلة * . وإشتهرت

---

(١) نسيم مقار : أحوال السودان الاقتصادية ١٨٤٨/٢١ ص ٣١٧ .

(٢) Pallme : op. cit., pp. 52-60.

(*) تجدر الاشارة الى ان الدناقلة قد احتلوا جزءا كبيرا من حركة النشاط التجارى فى الأبيض وبارة والطبارة وغيرها من المراكز التجارية فى كردفان بالاضافة الى مرتفعات النوبا المجاورة وكانت جماعتهم من اكبر

=

هاتان المدينتان على وجه الخصوص بتجارة الصمغ العربى ولم يــكن الإستغلال التجارى لهذه السلعة يتم على نطاق كبير بل كان يقتصر على الجهات المجاورة للمدن الكبيرة كالأبيض وطيارة ، وإمتاز صمغ كردفان بجودة نوعه ولذلك فقـد كانت أسعاره تزيد كثيراً عن مثيله من الصمغ المنتج من سنار والتاكا والحجـاز والسنغال .

وتتم عملية جمع محصـول الصمغ عادة عقب سقوط الأمطـار فى أشهر نوفمبر وديسمبر ويناير ، وكان فى استطاعة الفرد الواحـد أن يجمع خـلال هـذه الأشهر الثلاثة خمسـة قناطـير من الصمغ (١) . وأصبحت الطرق بين الخرطوم وكردفان تعج بقوافل الصمغ كما إستمر حجم تجارته فى إضطراد طوال الحكم المصرى فى السودان ، إذ بلغت صادرات سوق الخرطوم منه سـنة ١٨٨٠ مائة ألف قنطار (٢) .

كذلك فقد احتل ريش النعام أهمية كبيرة فى تجارة كردفان وأصبح من السلع التجارية الهامة خاصة بعد عـام ١٨٥٠ ، حيث سـارع تجار الخـرطوم الى إقامة الزرائب فى كردفان لتربية النعـام للحصول على ريشه وقشر بيضـه . ويبدو أنه أصبح مادة تجارية بالغة الأهمية ومن

=

الجمـاعات التجارية فى كردفان . وقد اخذ عليهم بالم الذى زار كردفان بين عامى (١٨٣٧ — ١٨٣٨) بعض سياستهم التجارية من حيث عـدم امـداد السوق بالسلع الجديدة ، بل وقفوا تجارتهم علي السـلع التقليدية التى اعتادوا المتاجرة فيها منذ سنوات طويلة ، كما ان الواحـد منهم لم يـكن يترك السـوق من اجل جلب سلعة أخري الا اذا باع كل ما لديه من السلع المعروضة حتى ولو كان المتبقى شيئاً قليلا ، كما أنه لا يبيع السلعة الا اذا وصلت الى السعر الذى يحدده بنفسـه دون المشـترى ولو ادى ذلك الى تلفها . ولم يكن احدهم ليثق فى زميله التاجر فى أن يترك سلعته معه حتى لو كان ابنــه .

انظـر : (Pallme; op. cit., pp. 301-2).

(١) نسيم مقار : المرجع السابق . ص ٣٢٠ — ٣٢١ .

(٢) أحمد احمد سيد : المرجع السابق ص ١٢٦ .

ثم كانت تلك الترتيبات الخاصـــة من أجـــل اقامة هـــذه الزرائب التى كان بعضها يضم أكثر من مائة نعامة (١) .

وبمرور الزمن وطبقا لمجرى الأحداث السياسية فى السودان ظهر نوع جديد من التجارة بين تجار كردفان وخاصة فى الأبيض ونعنى بها تجـــارة الأسلحة والبارود وخاصة عندما ثار سليمان نجل الزبير فى بحر الغزال ، فكان التجـــار يمدونه بهذه الأسلحة بل ويعطفون عليه لما ينالون منه من ربح وفير . وكانت هذه الذخائر ترسل بواسطة الجلابة أو صغار التجـــار فيما بين الأبيض وبحر الغزال . وقد حاول موظفو الإدارة فى الأبيض وقف هـــذه التجارة ولكن الصعوبات التى واجهتهم كانت عظيمة ، منهـــا القبـــائل التى كانت تقطن المناطق الواقعـــة بين كردفان وبحـــر الغزال بالإضافة الى خروج التجار فى قوافل صغيرة يمكنها الإختباء فى الغابات والمرور منها بسهولة (٢) .

وقد تسببت هذه التجارة فى أن يقوم غوردون باشا باللجـــوء الى وســـائل حساسة للقضاء عليهـــا فأمر بالقبض على التجـــار الجـــلابة وإرسالهم بالقوة الى « دارة » و « طويشة » « و أم شنجة » والأبيض وحدد لهم تاريخا معينا لوقف هذه التجارة وانهم مسئولون عن وجودها بعد هـــذا التاريخ ، وأمرهـــم بترك المراكز الواقعـــة جنوبى الأبيض والطويشة وطريق دارة وحصر تجارتهم فى الجزء الشمالى والغربى . وقد أدت هذه الإجـــراءات التى عمد اليهـــا غوردون الى قيـــام بعض القبائل ، منتهزين الفرصة ، بنهب الجلابة والتجار الذين كانـــوا بالأمس يعيشون بينهم وليس لهم دخـــل فى تجارة الأسلحة والبارود (٣) .

(١) أحمد أحمد سيد أحمد . المرجع السابق ص ١٢٧ .

(٢) دفتر رقم ٤٧ عابدين وارد تلغراف ـــ صورة التلغراف العـــربى الشفرة رقم ٣٥٥ ص ٧٥ بتاريخ ٢٧ يولية ١٨٧٧ . ورد فى يوم الثلاثاء ٢٧ رجب سنة ١٢٩٤ هـ . ، انظر أيضا : سلاطين باشـــا : السيف والنـــار فى السودان ص ٧ ، ٨ .

(٣) سلاطين باشا : المصدر السابق ص ٧ ، ٨ .

ومما لا شك فيه أن مثل هذه الإجراءات القاطعة والأحداث الجسيمة التى مست التجار وتجارتهم قد أصابت تجارة كردفان وجعلت التجار يجفلون ولا يخاطرون بأرواحهم وتجارتهم إذ أنه من المعروف أن التجارة والأمن توأمان لا يفترقان .

كذلك فقد كانت هناك أمور أخرى تأثر بها عامة التجار فى كردفان وهى تفضيل غوردون لبعض التجار مثل الياس أفندى (باشا فيما بعد) الذى أصبح « سر تجار » ورئيس مجلس مديرية كردفان ، ويبدو أن هذا التاجر كان يسدي خدمات كثيرة للحكومة فقد جهز من تلقاء نفسه وعلى نفقته ثلاثمائة فرد مسلحين من جماعته بل إنه قام بتجهيز ملابس للعساكر دون تأخير (١) .

ولا شك أن هذا الرجل كان يطمح الى منصب سياسى لحماية تجارته ، فقد وصلت الأحوال التجارية فى السودان بصفة عامة فى عهد حكمدارية غوردون (١٨٧٧ ، ١٨٧٩) الى درجة من السوء حيث رفع تجار البلاد وأعيانها عريضة الى الخديو اسماعيل عام ١٨٧٨ يشكون حالهم وفساد الحكام ، وما أصابهم من جراء تلك السياسة المتبعة حيالهم (٢) .

وأما تجارة دارفور المجاورة لكردفان فتكاد تكون متصلة بينهما نظرا لتجاورهما ، ويمكن القول أن السلع والمنتجات التى كانت تتاجر فيها كردفان ودارفور متشابهة كالرقيق والعاج وريش النعام .

هذا ، ولا يمكن القول بأن تجارة دارفور مع مديريات السودان

---

(١) دفتر رقم ٥ معية عربى ، وارد الافادات ص ٦١ — مكاتبة رقم ١١ بتاريخ ١٣ ذى الحجة ١٢٩١ من الحكمدارية الى المعية السنية انظر ايضا : محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن ١٩ ص ٦٩ .

(٢) نفس المصدر ص ٦٩ .

الأخرى قد توقفت تماما قبيل ضمها فى عام ١٨٧٤ ، لكننا نقول إنها قد تأثرت بعض الشىء بالظروف السياسية التى حدثت فى بعض أجزاء السودان وخاصة كردفان المجاورة لها والتى ضمت لسنار ، وخوف سلاطين دارفور من فقدان أزمة الحكم على يد محمد على .

فجميع هذه الأمور والملابسات قد أثرت دون شك فى مسيرة القوافل الدارفورية مع أجزاء السودان ولكن محمد على أدرك سراعا هذه الأمور ومدى خطورتها على الأوضاع التجارية فبدأ يكتب « رسائل إطمئنان » لسلطان دارفور ويبعث إليه بالهدايا تعبيرا عن الود وحسن الجوار ، وفى نفس الوقت يحث حكمدار السودان ومدير كردفان على ذلك ، فها هو ذا يكتب الى مدير كردفان قائلا « ... من الواجب عليك إذا ما أظهر نحوك فى خطاباته شعور المحبة والولاء أن تجامله وتعامله بالمثل ... » ، بل لقد وصل الأمر بمحمد على أنه كان يختار العبارات التى يكتبها مدير كردفان حيث يقول « وليكن خطابك التالى على هذا النحو ... إننى بحكم الجيرة أتمنى لك الخير وأميل الى مصافاتك ، غير إننى أعلم أن حبل المودة مقطوع بينك وبين محمد على منذ مدة . ولئن كان من الواجب على نظرا لما بيننا من المودة والولاء أن أسعى الى إزالة ما بينكما وإحلال التفاهم والوئام محل النفور والإختلاف ... » (١) .

ثم يقترح مدير كردفان على سلطان دارفور أن يسمح له باستغلال منجم النحاس الموجود فى سلطنته وبذلك تكون أفضل وأجمل مناسبة لعودة المياه الى مجاريها وإتصال حبل الود بالإضافة الى فتح طريق التجارة بين الطرفين (٢) .

---

(١) دفتر رقم ٣٧٨ ، معية تركى — ترجمة الارادة التركية رقم ٩٠٢ بتاريخ ٢ صفر ١٢٦١ هـ . ارادة الى مدير كردفان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) نفس الوثيقة السابقة .

وتمشيا مع سياسة تشجيع التجارة بين دارفور ومديريات السودان الأخرى طلب حكمدار السودان فى أواخر عام ١٨٧٣ من الزبير رحمت ، عندما أصبح مديرا على جهات بحر الغزال ، عدم تعدى حدود دارفور بل « ... تكون المودة والتجارة والأخذ والعطاء ما بين هنا (بحر الغزال) ودارفور على ما كانت عليه ... » (١) .

وهكذا بدأت جسور المودة والتجارة تقوى وتمشى على إستحياء فى عهد محمد على ثم بدأت تنمو فى عهد خليفتيه عباس ومحمد سعيد الى أن تم ضم دارفور فى عهد اسماعيل .

ومن أهم أسواق دارفور التى كانت تعج بالتجار والتجارة « الفاشر » وهى مقر السلطنة و « كوبية » و « كبكبية » و « سرف الدجاج » و « منطقة قرلى » (٢) .

وقد نشطت التجارة فى دارفور نشاطا ملحوظا ، وأمها التجار من كافة أنحاء السودان وتبوأ بعضهم مكانة رفيعة فى دارفور ، فمن قسم عبود بمديرية الخرطوم جاء الى أم « شنقة » بدارفور أشقاء للمتاجرة فيها ووصل أحدهم ويدعى الشيخ فضل المولى محمد الى منصب « سرتجار » تلك الجهة (٣) ، أو ما كان يسمى أحيانا بإسم (ناظر التجار) (٤) .

---

(١) دفتر رقم ٢٢ عابدين وارد تليفونات — صورة التلغراف العربى . الشفرة رقم ٢٧٥ ص ٢ بتاريخ ٦ ذو القعدة ١٢٩٠ هـ .

(٢) التونسى : تشحيذ الأذهان . ص ٢٩٦ — ٢٩٨ .

(٣) دفتر رقم ٥ معية سنية (عربى) ، وارد الافادات ص ١٦ ، مكاتبة رقم ٢ بتاريخ ١٥ شعبان ١٢٩١ هـ . من حكمدار السودان الى المعية السنية .

(٤) سجل ابعاديات بلاد السودان — توتى سنة ١٢٦٥ هـ — مخزن رقم ٢١ (السودان) عين ٩١ نمرة ٢٦١٧ . دار المحفوظات العمومية بالقلعة .

كذلك فقد جاء الى دارفور كثير من التجار الدنقلاويين الذين عرفوا بحب التنقل والمغامرة والولع بأمور التجارة كما لاحظنا فى كردفان وغيرها من أجزاء السودان • فقد تقلد أحدهم فى أوائل عام ١٨٧٥ منصب « سرتجار دارفور » بل وصل به الأمر بعد أن تضخمت ثروته الى الزواج من شقيقة حاكم دارفور السابق السلطان ابراهيم (١) ، حتى يضفى على نفسه نوعا من الوجاهة وهو ما تلجأ إليه عادة طبقة التجار حتى تضمن سلامة تجارتها ولا مانع لديها من وضع بعض رجالاتها فى دست الحكم إن وجدت الى ذلك سبيلا •

وتجدر الإشارة هنا الى أن جماعات التجار فى دارفور قد لعبت دورا كبيرا فى التمهيد لضمها الى الإدارة المصرية على عهد اسماعيل باشا ، فقد جرت اتصالات خفية بين بعض التجار وبين المسئولين فى الخرطوم لمعرفة أحوال دارفور ولعبوا دورا كبيرا فى إرشاد الجيش المصرى لدخول دارفور ومن هؤلاء التجار الذين لعبوا هذا الدور الشيخ فضل المولى محمد « سرتجار دارفور » وشقيقه ابراهيم ، فقد قاما مع غيرهم بتأمين الأهالى والعربان والتجار المقيمين ببلدة (أم شنقه) وغيرها وأحضروا الأبقار والغلال اللازمة للجنود (٢) •

ويبدو أن هذين التاجرين كانا بعيدى النظر فى هذا العمل فقد أدركا أن دارفور لا محالة سوف تفتح بيد الجيش المصرى وإذا ما تم هذا العمل بشكل دموى فلا شك أن فى ذلك كسادا للتجارة والتجار ، وكعادتهم فى كسب السلطة السياسية سعوا الى كسب ود الجيش المصرى ، وبدأو يحسبون المكاسب والخسائر تماما كما يفعلون فى التجارة

---

(٢) دفتر رقم ٤ معية عربى — وارد الافادات ص ٥٠ — مكاتبة رقم ١٠ مرور بتاريخ ٣ ذى الحجة ١٢٩١ هـ • ورد فى ١٦ محرم ١٢٩٢ هـ من حكمدار السودان الى المعية .

(١) دفتر رقم ٥ معية سنية (عربى) وارد الافادات ص ١٦ . مكاتبة رقم ٢ مرور بتاريخ ١٥ شعبان سنة ١٢٩١ هـ — من حكمدارية السودان الى المعية السنية • دار الوثائق القومية بالقلعة .

فسلموا وسلمت تجارتهم ، بل إن حكمدار السودان إقترح منحهم « مراتب شرفية » وتعيين أحدهم فى وظيفة « سرتجار أم شنقة » (١) .

كذلك فقد كان التجار فى دارفور حلقة وصل فى الأمور السياسية فهم حملة للخطابات التى تشرح الأمور الغامضة بين أمراء دارفور وخديوى مصر .

وليس معنى ذلك كله أن جميع طبقة التجار بدارفور لم يمسسها سوء خلال عمليات ضم دارفور فقد لوحظ أن العناصر الكبيرة من التجار هى التى نعمت تماما بما أسدته من خدمات للجيش ، كذلك فإن الأمراء الدارفوريين كانوا يشكون مر الشكوى من الزبير رحمت وما أحدثه فى بلادهم من آثار وتأثر التجار بذلك (٢) .

وقد تكون شكايات الأمراء صحيحة الى حد ما ، ولكن هى فى مجملها « صرخات حزينة » لما فقدوه من إمارة وأبهة فى دارفور . وعموما فإن المكاسب التى عادت على التجارة السودانية عقب ضم هذه السلطنة كانت طيبة حيث إنفتحت على داخل السودان بشكل مباشر .

التجارة فى وسط السودان وشرقه : — سوق الخرطوم :

أصبحت بلدة الخرطوم فى عهد الإدارة المصرية مركزا تجاريا هاما فى قليل من الوقت ، وقد تجمع فيها كثير من الأجانب بالإضافة الى مواطنيها من السودانيين والمصريين ، فقد طلب محمد على إبان رحلته الى السودان ضرورة الإهتمام بأحوال التجار بها من أجانب ومواطنين « وضرورة وضع نظام لهم » وإتجهت نيته منذ ذلك الوقت الى إنشاء سكة حديدية تصل

---

(١) نفس الوثيقة السابقة .
(٢) محفظة رقم ١٠٤ — ملف رقم واحد ، وملف رقم ٦ — قسم الوثائق الافريقية .

ما بين السودان ومصر (١) .

ومدينة الخرطوم كان لها سـوق يتوسط المدينـة ويفترش ثلاثة أو أربعة شـوارع ترابية ذات سقوف من القش وفروع الشجر ، تمتد على جانبيها محلات صغيرة متجاورة ، وأمام هذه المحلات تقوم مصاطب من الطين الجاف بارتفاع قدمين ، ويقوم التجار بوضع البضائع على هيئة أكـوام وصفوف من أمامهـم وخلفهم ، وفى المحـل الواحـد بسـوق الخـرطوم نجـد كل شيء : الملابس والطرابيش والأدوية والدهانات والدخان وغير ذلك .

ولم تقتصر التجارة فى الخرطوم على هذه المحلات الثابتة بل كانت هنـاك تجارة يحملها أفراد يطوفون بها من مكان الى آخـر ، فقـد عرف سوق الخرطوم أسلوبا أشبه بالمزاد فى تصريف بعض السلع ولكن بشكل بعيد عن صـورة المزاد فى هذه الأيام ، إذ لم يكن يوجـد مشترون يلتفون حـول البضاعة ، بل كان التاجر يدور بها فى السـوق ويتلقى عروض الشراء ، فإذا قضى وقتـا طويلا فى هذه المسألة بحث عن أكبر عرض شراء قدم له وذهب الى صاحبه وأتم عقد الصفقة معه . ومن أهم ما كان يتاجر فيـه على هذا النحو العبيد (٢) .

وقد كانت العملة التىيتداولها التجـار فى سوق الخرطوم هى نفس العملة المتداولة بمصر وكانت تضرب فى مصر وتركيا والنمسا وفرنسـا وإنجلترا . ولم يؤد هـذا التنوع فى مصادرها الى تغير قيمتها وتنوع أسمائها فقط بل تعداه الى حدوث مشاكل وإختلافات حول القيمة الشرائية لكل عملة وقبول بعض التجار التعامل بعمله ورفض البعض الآخر التعامل ببعض العمـلات .

---

(١) انظر رحلة ساكن الجنان : محافظ عابدين — السودان — وثيقـة بدون رقم ص ١١ ، ١٢ .
(٢) احمد احمد سيد احمد : تاريخ مدينة الخرطوم . ص ١١٢ .

وقد كانت أبخس عملة فى السوق قيمتها خمس بارات (ثمن القرش) وأغلاها الجنيه المصرى وأشهرها الريال والقرش (١) .

وقد إختصرت كثير من العملات والموازين والمكاييل والمقاييس بعد أن ظلت فترة طويلة — بعد ضم السودان للإدارة المصرية — تحت رحمة الإختبار ، وكان ذلك الإختصار نتيجـة لإحتكاك تجار الخرطوم بأفراد المجتمع الكبير فى المدينة وبخاصة المصريين والأتراك والأجانب (٢) .

ومن الجهود التى كانت الإدارة تبذلها فى السودان فى هذا الجانب تلك الزيارات المفاجئة التى كان يقـوم بهـا مدير الخرطوم للسـوق وبخاصة فى يوم الجمعة لمراقبة البيع والشراء وفحص الموازين والمكاييل ، وقد انشئت بالخرطوم فى عهـد الحكمدار جعفر باشا مظهر قـوة من « القواصة الضبطية » كانت تقوم بهذه المهام (٣) .

وأصبحت الخـرطوم على عهـد الادارة المصرية تتمتـع بأهميـة اقتصادية كبيرة — بالإضافة الى أهميتها السياسية على إعتبار أنها عاصمة البلاد — فقد كانت مركزا لكبار التجـار وخاصة تجار العاج والرقيق وجاءتها القوافل من كل أنحـاء السـودان محملة بكل أنواع السـلع والمنتجات سواء التى كانت موجودة فى البلاد أو التى ترد إليهـا من

---

(١) احمد احمد سيد : المرجع السابق ص ١١٣ . ومن أهم الريالات التى كانت متداولة فى السوق : الريال المصرى ويساوى ١٥ر١٩ قرشا والريال التركى (وكان يعرف « بالمحمودية » و... عملة ذهبية) ويساوى ١٨ قرشا ، والريال النمساوى (ريال مارياتريزا) ويساوى ٢٠ قرشا وكان من أوسع العمـلات تداولا . ومن القروش التى كانت متداولة فى السوق : قرش الحكومة (الصاغ) وقرش السـوق (نصف الصـاغ) ، والقرش التركى (الذى صك عـام ١٢٢٣ هـ) . والقرش النحاسى . وقد تفاوتت هذه القروش فى قيمتها (انظر حول ذلك امين سامى : تقويم النيل ، الجزء الثانى المجلد الثالث . اماكن متعـددة) .

(٢) احمد احمد سيد احمد : المرجع السابق ص ١١٣ .

(٣) دفتر رقم ٥٥٨ تركى قسم ثان — ارادة رقم ٩ الى حكمدار السودان بتاريخ ٢٢ شوال سنة ١٢٨٣ هـ ص ١٩ .

خارجها لدرجة أن الناس قد ردوا فى السودان عبارة تقول « إيش معدوم فى سوق الخرطوم » (١) .

ومن بين النظم التى استحدثت فى السودان إنشاء « مجلس تجار الخرطوم » حيث تم الإسترشاد عند وضع قوانينه بنسخه من قوانين مجلس التجار التى كان يجرى العمل بها فى مصر ، وذلك للفصل فى الدعاوى التجارية بالسودان (٢) .

كذلك فقد أصبح لسنار دور هام فى التجارة السودانية نظرا لموقعها الجغرافى عند ملتقى طرق القوافل القادمة من كردفان والحبشة ومصر وسواكن وهى بذلك حلقة وصل بين أكثر مناطق السودان الهامة ، وهذه الأهمية ربما ترجع الى أنها كانت عاصمة للسلطنة السنارية . كذلك فإن هذه الأهمية التجارية ترجع أيضا الى أنها تقع فى إقليم له شهرته الواسعة فى بعض السلع والمنتجات التجارية كالرقيق والصمغ والتمر هندى والسنامكى ، بالإضافة الى الذرة والتبغ وغيرها من المنتجات الزراعية التى كانت متوفرة بشكل يزيد على حاجة الإستهلاك المحلى فى سنار . وقد لعبت بعض المصنوعات القائمة على المنتجات الزراعية دورا هاما فى تجارة سنار أهمها « الدمور » الذى إشتهرت به ، كذلك فقد كان لذهب سنار الذى يأتيها من فازوغلى وبنى شنقول والكماميل أهمية خاصة فى تجارتها (٣) .

وجميع هذه السلع والمنتجات كانت تعرض فى أسواق سنار ، وأما ما كان يأتيها من الأقاليم الداخلية الأخرى فكان التمر والقمح

---

(١) شقير : المرجع السابق . جـ ١ ص ٩١ .

(٢) دفتر رقم ١٨٨٦ صادر أوامر عربى : أمر عالى لمديرية الخرطوم ١٢ ذى الحجة سنة ١٢٧٣ : انظر ايضا : امين سامى تقويم النيل وعصر عباس حلمى ومحمد سعيد . المجلد الأول ص ٢٣ .
وايضا : شوقى الجمل : تاريخ سودان . جـ ٢ . ص ٧٦ .

(٣) Douin : op. cit., Tome. I. p. 62.

والخيــول من دنقلة ، والحــديد وتبر الذهب والرقيق من كردفان • وبالرغم من ذلك كله ينبغى أن نشير الى أن سنار لم تعد بعد عام ١٨٢١ تحتل المكانة الأولى فى تجارة الســودان بل إنها تخلت عن هذه المكانة للخرطوم العاصمة الجديدة للبلاد • كذلك فقد لعبت كسلا الواقعة عنــد دلتــا نهر القاش دورا هاما فى تجارة المنطقة ، فمن المعروف أيضا أن هذه المدينة كما سبق القول قد نشأت عام ١٨٤٠ إبان الحكم المصرى فى السودان على يد الحكمدار أحمد باشا أبو ودان •

وفى عام ١٨٦١ وصف صمويل بيكر المعسكر الذى تركه أحمــد باشا أبو ودان عام ١٨٤٠ ، ونعنى به المكان الذى شغلته بلدة كســلا ، بأنــه أصبح مدينة مسورة وحصينة ومحاطة بخندق من المياه ، وفضلا عن ذلك فإن بها سوقا عامرة يقصدها التجار من الخرطوم وســواكن ، وكانت تقطنهــا طبقة غنية من التجــار من أبنــاء البلد واليونانيين والمصريين ويرأســهم « سرتجار » مصرى ، وكانت المدينــة على درجــة كبيرة من الأهمية الأمر الذى دعاه الى وضعها على قدم المساواة مع الخــرطوم العاصــمة (١) •

ومدينة كسلا تقع فى الاقليم المسمى بالتاكة والذى امتــاز بوفرة انتاجه من الصمغ والذرة ذات المواصفات الجيــدة بالإضافة الى ثروتها الحيوانية من الماشــية ، والابل وهذا الإقليم تمر به أكثر قوافل بــلاد النوبة وسنار ودارفور وكردفار المتجهة الى سواكن على ســاحل البحر الأحمر ، وقد إمتازت بلدة كسلا بموقعها الإستراتيجى فى أسفل الهضبة الحبشية كمفتاح نحو الأراضى الحبشية ومفترق للطرق (٢) •

---

(١) الناصر عبد الله ابو كروق : تاريخ مدينة كسلا ١٨٨٣ — ١٨٩٧ • رسالة ماجستير غير منشورة بجامعة القاهرة ص ١٥ •
انظر ايضا :
Baker. Sir Samuel; The Nile Tributaries of Abyssinia & the Himran Arabs. pp. 69 - 75.

(٢) الناصر عبد الله : — المرجع السابق • ص ١٥ •

وفى اقليم التاكة هذا حدث نوع من التبادل التجارى ، فحملت إليه قواغل شندى « الدمور » فى مقابل الذرة والماشــية حيث كانت بــلاد النوبة تفضــل اســتيراد الماشية من التاكة للقيــام بالأمور الزراعيــة وأهمها ادارة السواقى التى اشتهرت بها ، فكانت هذه الماشية تفضــل على ماشية سنار وغرب السودان (١) •

كذلك فقد قام تجار سواكن بنقل الصمغ من التاكة مقــابل الملــح والبصل وقد ظل هؤلاء التجار يتمتعون بحرية التجارة فى الصمغ حتى عام ١٨٤٧ حيث منعوا من ذلك وقامت الادارة نفسها بهذه المهمــة على أن تدفــع نفس الأثمان التى كان يدفعهــا التجــار وتقــوم بإرسالها لمصــر (٢) •

وقد كان للتاكة أسواقها المعروفة أهمها « سوق كسلا » و « سوق الهدندوه » و « سوق الحلنقا » ، وأشهرها جميعا سوق الهدندوه الذى أصبح يعج بالنشــاط التجارى • فقد كان يعقد مرة فى الاسبوع ويتردد عليه البدو وأهل الريف وبعض تجار القوافل المارة به • فأهل الريف يأتون بالماشية والابل وبعض منتجاتهم الريفية ومصنوعاتهم اليدوية (٣) •

وكانت تعرض فى هــذا الســوق أيضا بعض الســلع المجلوبة مثل الملح والتبغ من سنار وفارس واليمن ، بالإضافة الى بعض أنواع التوابل كالقرنفل والبخور • ولم تكن أسواق التاكة تخلو من بعض الحــدادين

---

(١) دفتر رقم ٢٠٨ ، صادر ديوان المعاونة للاقاليم — وثيقة رقم ٤٥ بتاريخ ١٢ محرم ١٢٥٩ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) دفتر رقم ٤١٣ صادر المعية السنية وثيقة رقم ٣٢٧١ بتاريخ ١٨ رجب ١٣٦٣ هـ ، كتاب صادر الى مدير التاكة •

(٣) محفظة ٢٦٨٠ عابدين — ملف السودان — وثيقة رقم ٣٦ أصلية رقم ٧٨ حمراء . من احمد باشا حكمدار السودان الى الباشمعاون الخديوى بتاريخ ٣١ جمادى الآخرة ١١٥٥ هـ . انظر ايضا : دفتر رقم ٧٦٠ الديوان الخديوى . ترجمة المكاتبة التركية رقم ٣٧٨ ص ١٤١ . بتاريخ ١٥ جمادى الأولى عام ١٢٤٥ هـ •

الذين يقومون بعمل السكاكين ورؤوس الحراب والسلال • وتجدر الاشارة أيضا الى مركز تجارى رئيسى فى السودان الشرقى وهو « قوز رجب » الذى يقع على مسافة ميل تقريبا من الضفة الشرقية لنهر عطبرة فى سهل رملى (١) وكانت هذه البلدة تتمتع بموقع جغرافى هام ، فالقوافل القادمة من سواكن الى سنار مباشرة كانت تمر بقوز رجب وتعرض فيها بعض السلع التى كانت تحملها •

وقد اعتمد سكان قوز رجب اعتمادا يكاد يكون كليا على التجارة ، إذ أنهم لم يكونوا يمارسون نشاطا زراعيا وإنما كانوا تجارا فى المقام الأول ، فقد كانوا يملكون القطعان الكثيرة من الأغنام التى ترعى على ضفاف العطبرة صيفا وداخل الصحراء شتاء ولم يكن ذلك ليصرفهم عن نشاطهم التجارى الذى إمتد الى أسواق النوبة لبيع الماشية والأغنام (٢) • كذلك فقد اشتهرت قوز رجب كغيرها من أجزاء السودان بتجارة الرقيق التى كانت شائعة آنذاك •

تجارة سواكن :

كذلك فقد كانت سواكن من أهم مراكز التجارة السودانية فى شرقى السودان • ويهمنا هنا الاشارة إليها من ناحية علاقتها بالسوق الداخلية للسودان ، أما علاقتها بخارج السودان فسوف نرجئه الى مقام آخر لحظة تعرضنا لتجارتها مع العالم الخارجى • لقد كانت هذه المدينة كغيرها من مراكز السودان التجارية تحفل بمجموعات ضخمة من التجار سواء من أهل السودان أو من القادمين اليها من الأقطار الخارجية ، والآسيوية منها ، على وجه الخصوص •

---

(١) نسيم مقار : المرجع السابق ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٢) Werne; Expedition to discover the sources of the white Nile in the years : 1840, 1841, vol. I. p. 20.

أنظر أيضا نسيم مقار : المرجع السابق ص ٣٠٥ •

وقد ربطت سواكن مع أقاليم السودان الأخرى بعدة طرق ، اخترقتها قوافل التجار والتجارة ومن أهمها :

١ ــ طريق يربطها ببربر ويخترق الصحراء الشرقية التى تفصل بين النيل النوبى وساحل البحر الأحمر ومتجها رأسا من الشرق الى الغرب ، وتقطعه القافلة فى مدة اثنى عشر يوما • وقد حف هذا الطريق قبيل الادارة المصرية بالمخاطر نظرا لإختراقه مواطن قبائل البشارية ، ولكن الادارة المصرية عنيت به ، فأمنته وحفرت الآبار على إمتداده ، خاصة بعد ضم سواكن • وهناك طريق آخر يصل ما بين سواكن وبربر ، مارا بالتاكة ، ولم يكن يطرقه أحد من التجار نظرا لخطورة المرور فيه • وبمجرد ضم التاكة أصبح هذا الطريق آمنا •

٢ ــ الطريق الذى يربط سواكن بشندى • وهو عبارة عن عدة طرق ، فهناك الطريق المباشر الذى يمر بالدامر • وهناك طريق آخر يمر بعطبره ومنها يتفرع الى فرعين : أحدهما يصل مباشرة الى سواكن مخترقا الصحراء والثانى يمر بالتاكة ، وكلاهما أكثر أمانا من الطريق الذى يمر بقبائل البشارية • أما طريق العطبرة فقد كان يمر بأوطان القبائل الصديقة للحدارية من تجار سواكن •

٣ ــ طريق يصلها بسنار وهو أيضا عبارة عن طرق ، كما وجد طريق آخر يمر بقوز رجب (سواكن ــ قوز رجب ــ سنار) ولا يمر بالعطبرة أو شندى • وكان هذا الطريق مفضلا فى الصيف رغم شدة الحرارة • ويرجع ذلك الى أن بدو الشكرية اعتادوا تهديد الطريق شتاء ، بينما يرحلون عنه صيفا وفقا لنظام الانتقال الموسمى بحثا عن المرعى •

٤ ــ الطريق الواصل بين سواكن وكردفان ، وله مساران الأول يبدأ من الأبيض فشندى ومنها الى سواكن مارا بالدامر أو العطبرة ،

أو التاكة ، وآخر من الأبيض فسنار ثم الى شندى ثم الى سواكن مارا بالتاكة (١) .

وعن طريق المسالك السابقة انتقلت تجارة سواكن الى جميع أجزاء السودان . وقد تزعم حركة النشاط التجارى فى سواكن جماعة الحدارية ، فقد ترددوا على سنار لشراء الذهب والرقيق ، كما ذهب بعضهم الى شندى لشراء نفس هذه السلع فى مقابل الخرز الزجاجى المعروف بإسم ريش Reish الذى كان يرد الى سواكن من بلاد الهند وكان يمثل — آنذاك — سلعة مربحة ، بالإضافة الى إمكانية إخفائه عن عيون الحكام الطامعين . وبالإضافة الى الرقيق والذهب كان تجار سواكن يحصلون من شندى على الخيل التى ترد من دنقلة ويقومون بتصديرها الى مخا والحديدة . ومن التاكة استوردوا الذرة التى لم تكن متوفرة بسواكن مقابل الملح والقرنفل والبصل .

وكانت السوق المحلية بسواكن تعقد فى مكان مكشوف محاطة بالأكواخ ، وفيها يتم عرض سلع ومنتجات السودان بالإضافة الى المنتجات والسلع الواردة من الخارج عن طريق البحر . وكان البدو المجاورون لسواكن يترددون على هذه السوق لشراء الذرة الآتية من التاكة والأقمشة القطنية « الدمور » الواردة من سنار .

وفى مجال الجهود المبذولة لخدمة التجارة الداخلية بين سواكن وكسلا وإيجاد حل لمشكلة النقص فى الابل اللازمة لنقل البضائع ، إقترح المسئولون فى عام ١٨٦٥ تسيير عربات خشبية تجرها ثيران تسمى « حريق » بين سواكن وكسلا ، خاصة وأن الثيران كانت متوفرة جدا فى تلك الجهات (٢) .

---

(١) نسيم مقار : المرجع السابق . ص ٣٥٩ .

(٢) دفتر رقم ٥٥٨ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية (بدون نمرة) ص ٢٦ بتاريخ ٧٨ جمادى الآخرة سنة ١٨٨٢ هـ . ارادة سنية الى وكيل حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

كذلك فقد وجدت اتصالات تجارية بين مصوع وزيلع وهرر وبربره وبين داخـل الأراضى السودانية وكانت هذه الموانى بمثابة جسر اتصال قوى للتجارة الخارجية لذا فسوف نرجىء الحديث عنها الى موضـوع التجارة الخارجية مع شبه الجزيرة العربية وبلدان جنوب شرقى آسيا •

التجارة فى شمالى السودان (بلاد النـوبة) :

(أ) فى سـكوت والمحس :

وهما من المراكز التجارية التى لها شهرة خاصة بتجارة التمر فى بلاد النوبة السـودانية إن لم يكن فى السـودان كله • ففى جهـات الدر و « ابريم » ينتج التمر بوفرة • وكانت الكميات الكثيرة منه تجد طريقها الى داخل السـودان ولا تصل الى الأجزاء الشمالية من النوبة أو صعيد مصر • وربما يرجع ذلك الى صعوبة الملاحـة فى منطقة (بطن الحجار) شمالى سكوت ، بالإضافة الى أن تجار الأقاليم السودانية مثل كردفان وإقليم الشايقية وسنار كانوا لا يكلفونهم مشقة الانتقال إذ كانوا يأتون بقوافلهم للحصول على التمر فى مقابل الذرة والذبدة والدروع المصنعة من جلود التماسيح والتى أولع النوبيون باستعمالها • ولم تقتصر تجارة المحس على التمر ، بل شملت كذلك الرقيق الذى كان يأتيها من دنقـلة وبربر ومنطقة الشـايقية (١) •

(ب) فى دنقلة العجـوز :

تحتل دنقلة العجـوز موقعـا جغرافيا ذا أثر فعـال فى النشـاط التجارى ، وأتاح لها هذا الموقع الاشراف على طريق القوافل بين مصر وكردفان حين مرورها ببلدة « الدبة » الواقعة فى جنوبها ، بالإضافة الى مرور قوافل سنار وشندى وبربر بدنقلة عبر صحراء « بيوضة » فى بعض

---

(١) نسيم مقار : المرجع السابق . ص ٢٨٨ .

الأوقات ، إذا ما تعرض الطريق الشرقى عبر الصحراء النوبيـــة لخطر الرباطاب (١) • وعلى هذا فقـــد تمتعت دنقلة بميزة تجارية من جـراء هـــذا الموقع الذى أتاح لها الحصـــول على مختلف أنواع السلع التى تحملها القوافل المارة بها • وقد عبر أحد الدناقلة عن ذلك للرحالة كومب Combes عام ١٨٣٤ بقوله « انه لم يكن هناك فى نظرهم أجمل وأعظم من منظر القوافل حين تغادر بلادهم وحين تعود إليها ، وأنهـــم كانوا آنذاك فى رخـــاء ونعيم » (٢) •

ولقد اشتهرت دنقلة بتصدير الخيل التى كانت تقـــوم بتربيتها ، وكذلك التبغ بالإضافة الى التمر الذى كانت تنتج بعضا منـــه والبعض الآخر يأتيها من المحس • ولدنقلة شهرة خاصـــة فى الرقيق المدرب على الخدمة فى المنازل وتقوم بتصديره الى شندى وبربر وكان يفضـــل على غيره من أنواع الرقيق سواء الواردة من سنار أو غرب الســـودان • كما كان لدنقلة أيضا شهرة واسعة وقديمة فى التجارة بشكل عام ولكنها بدأت تتدهور داخليا بسبب الغارات التى كان يشنها أهل الشايقية الأمر الذى أدى الى هجرة الكثيرين منهم فى الســـنوات التى سبقت الحـــكم المصرى الى داخل الســـودان ، فاشتهروا بنشـــاطهم التجارى وأصبحوا على حد قول البعض يمثلون « رجال المال والتجـــارة فى السودان » (٣) • ويشبههم كروفورد Crawford — فى هذا المجال — باليهود فى عصرنا الحـــاضر (٤) • فقد انتشروا فى كل جزء من أجزاء السودان وخاصـــة غربه وجنوبه وكانت لهم البيوت التجارية الضخمة وشاركوا فى أنـــواع التجـــارة التى عمت هـــذه المناطق من تجارة عاج ورقيق ثم بعد الغـــاء

---

(١) Crawford: The Fung Kingdom of Sennar. pp. 215-219 & Hoskins; Travels in Ethiopia. p. 61.

(٢) Combes; op. cit., Tome. II. p. 21.

(٣) Cadalvine; L'Egypte et al Nubie. Tome. II. p. 191.

(٤) Crawford, op. cit., p. 290.

الأخيرة عملوا بالحراسة والإرشاد • وهكذا حرمت دنقلة العجوز من نشاط أبنائها لتسعد به مدن أخرى • ويبدو أن سمة الهجرة عند الدناقلة من السمات المتأصلة فى نفوسهم إذ أنها لم تتجه الى داخل السودان وحسب ولكنها اتجهت أيضا نحو مصر والقاهرة على وجه الخصوص حيث عملوا فى المنازل •

(جـ) فى دنقلة الجديدة (الأوردى) :

سبق القول إن هذه المدينة قد ظهرت مع إمتداد الادارة المصرية الى السودان عام ١٨٢١ ، وإستطاعت أن تحتل مكانة تجارية عظيمة وساعدها على تبوء هذه المكانة التجارية إزدياد حركة نقل السلع بين كردفان ومصر عن طريق (الأبيض — الدبة) المار بها خاصة بعد أن قل استخدام طريق الأربعين بين دارفور وأسيوط • ولقد تم إنشاء العديد من المتاجر بها ، وزارها الرحالة هو سكنز عام ١٨٣٣ ووصف سوقها بأنه « •• أعظم من سوق أسوان ، وتعرض فيه مختلف أنواع الأقمشة والطرابيش والأحذية والأوانى الزجاجية وبعض أنواع الأدوية وأدوات التدخين ، والبن والسكر والملح وأدوات الزينة وبعض أنواع التوابل » (١) •

وفضلا عن ذلك فقد زخرت دنقلة بأسواق الرقيق الذى كان يأتيها من كردفان والخرطوم وسنار ويعرض بكثرة • وكان الجلابة عند مرورهم بدنقلة فى طريقهم الى القاهرة يتخلصون فيها من بعض الرقيق بالبيع حتى يمكنهم الانفاق عليهم وربما لدفع الرسوم الجمركية (٢) •

(د) فى بربر :

كانت بربر بحكم موقعها الجغرافى ملتقى للقوافل الآتية من داخل

---

(١) Hoskins; op. cit., pp. 183-184.

(٢) انظر تقرير هولرويد الوارد بتقرير بورنج بكتاب الدكتور محمد فؤاد شكرى بناء دولة مصر محمد على • ص ٥٥٦ •

السودان وخارجه فهي تستقبل — بحكم موقعها شمال شندى وسنار — القوافل الآتية من مصر عبر صحراء العتباى قبل أن تصل الى هذه الجهات ، وتمر بها قوافل شندى وسنار وهى فى طريقها الى مصر • وبالإضافة الى ذلك فهى تقع على أقصر طريق يصل النيل النوبى بساحل البحر الأحمر (طريق بربر — سواكن) عبر الصحراء الشرقية ، الذى ازدادت أهميته وكثر استخدامه عقب فتح الطريق البحرى بين سواكن والسويس (١) • وهكذا هيأ لها هذا الموقع شهرة تجارية شهد بها بعض الرحالة الذين زاروا بلادهم فى النصف الأول من القرن التاسع عشر (٢) • وقد كثر تردد قوافل بربر على دنقلة بانتظام حاملة التمر والتبغ ، كما كانت قوافل سنار تحمل إليها الرقيق والأسرة الخشبية وجلود الثيران بالإضافة الى البن الذى يجلبه تجار سنار من الحبشة والذى كان يباع ببربر بسعر أقل من بن مخا • وقد وجدت جماعة من تجار سنار ودنقلة كان لها نشاطها التجارى الملحوظ فى بربر • كذلك فقد كان لبربر صلات تجارية نشطة مع إقليم التاكة ، فقد تردد تجار هذا الاقليم على أسواق بربر لبيع الابل والماشية والحصول على الأقمشة القطنية (الدمور) والتوابل (٣) • بالاضافة الى الرقيق إذ كانت بربر ملتقى لتجار الرقيق القادمين من سنار والخرطوم عن طريق صحراء كرسكو (٤) •

(هـ) فى شندى :

كانت لشندى شهرة واسعة فى التجارة بين بلاد النوبة جميعا بما

---

(١) Petherick; Egypt, the Sudan. p. 143. & Crawford op. cit., p. 63.

(٢) English; A Narrative of the Expedition to Dongola and Sennar. pp. 116-117, & Cailliauld; op. cit., Tom. II. p. 118.

(٣) دفتر رقم ٣٨٤٦ صادر تحريرات مديرية بربر ودنقلة بتاريخ ٥ ذى الحجة سنة ١٢٦٧ هـ •

(٤) تقرير هولرويد السابق • ص ٥٥٦ •

فيها بربر ، وكانت هذه الشهرة تعود الى قبل ١٨٢١ ، لدرجة أنها عدت كأكبر مدينة تجـارية على مستوى وسط السودان وشرقه بعد سـنار . ويرجع الفضل الى موقعها الجغرافى الهـام الواقع على أعظـم طريقين للتجـارة فى افريقيا الشرقية : الأول بين كردفان ودارفور غربا وسواكن على البحر الأحمر ، ويبدو ما كان هذا الطريق معبرا للحجـاج القادمين من أفريقيا الوسـطى الى مكة كان ممرا تجـاريا هاما ، والطريق الثانى كان يصل ما بين سنار والحبشة جنوبا ومصر شمالا . ولعل هذا هـو السبب فى شـهرة شندى باسم « البوابة » (١) . ويشبهها البعض فى هذه الناحية بفلسطين الواقعة عند ملتقى الطرق الفاصلة بين الأقطـار العربية التى حولها (٢) .

وعلى هذا فقد كانت شندى بمثابة « مخزن كبير » للسلع والمنتجات الآتية من سنار ودنقلة وكردفان ودارفور والحبشة ومصر وبعض الأقطار الآسيوية مثل الصين والهند ومناطق شبه الجزيرة العربية ، وظل اعتمادها الرئيسى على هذه الحـركة الدائبة للقـوافل القادمة من تلك المنـاطق والبلدان . وكغيرها من بلاد النوبة لم تخل أسواقها من تجارة الرقيق تلك السلعة التى كانت رابحة فى ذلك الحين خاصـة إذا أدركنا خطـورة موقعها التجارى الذى كان لابد أن تسلكه قوافل الرقيق سـواء المتجهة الى الشرق أو الشمال .

التجـارة الأجنبية فى السـودان :

تعتبر تسوية عام ١٨٤٠ / ١٨٤١ معلما رئيسيا لتدفق الأجانب الى السودان ، مثلها فى ذلك مثل مصر ، حين فتحت هذه التسوية باب التداخل الأجنبى وتغلغله فى مصر . ونحن لا ننفى بذلك قيام محمد على بتشجيع

---

(١) آلان مورهيد : النيل الأزرق . ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

(٢) Crawford, op. cit., pp. 58-61.

الأجانب ـ من قبل ـ فى القدوم لمصر وسياحتهم فى السودان ، وتوفير سبل الحماية والأمن لهم ، حين كانت ـ آنذاك ـ سلطته وسيادته الداخلية عليهم كاملتين حتى تاريخ هذه التسوية • أما فى أعقابها فبدأ التسرب الأجنبى يزداد بشكل واضح ، ساعد على ذلك ظروف أوربا الاقتصادية التى كانت تعيشها فى ذلك الوقت • ونعنى بها الانقلاب الصناعى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، حيث بدأت أوربا تشعر تدريجيا بحاجتها الى مصادر جديدة للخام ، وأسواق خارجية أيضا لتصريف مصنوعاتها ذات الانتاج الكبير ، ووجدت فى مصر كل بغيتها ، فمصر ذات مناخ معتدل وأرض خصبة ، والأهم من ذلك كله أن مصر أصبحت بعد هذه التسوية « ذات وضع شاذ » بالنسبة للدولة العثمانية ناهيك عن معاهدات « الامتيازات الأجنبية » التى بدأت تسرى بموجب هذه التسوية (١) •

وقد عانى السودان ـ تقريبا ـ نفس المعاناة التى عاشتها مصر والناجمة عن تلك التسوية • فقد صدرت فرمانات : ١٣ فبراير ١٨٤١ ، ٢٣ مايو ١٨٤١ ، أو يونيه ١٨٤١ من لدن الدولة العثمانية الى محمد على ، وهذا كله يعنى ضرورة سريان المعاهدات والقوانين التى أبرمتها أو تبرمها الدولة العثمانية مع الدول ، وسريان قوانينها التى سنتها أو تسنها فى السودان ، ومنها الإمتيازات الأجنبية • كذلك فقد شجع الأجانب على القدوم الى السودان ـ عدا تسوية ١٨٤١ ـ عاملان رئيسيان : إستتباب الأمن فى ربوع السودان نظرا لقيام حكومة موطدة الأركان فى الخرطوم ، ثم فتح النيل الأبيض بفضل الرحلات التى قام بها سليم قبودان بين عامى ١٨٣٩ ، ١٨٤١ • وقد وفد الى السودان فى بادىء الأمر الرحالة والمستكشفون ، سواء مع جيش اسماعيل كامل نجل محمد على أو فى أعقابه ثم تبعهم التجار الأوربيون والليفانتيون لجمع

---

(١) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان • ص ٢١ •

العاج والإتجار فيه أولا ثم لاقتناص الرقيق بعد أن أصبح العاج غير مربح .

ولم يكن التجار الذين جاسوا خلال السودان بين عامى ١٨٤٠ و ١٨٦٠ من خيار القوم ، بل كانوا — كما وصفهم القنصل الإنجليزى فى مصر « كوهون (Col. Quhoun) — من المغامرين الذين اقتصرت تجارتهم على الرقيق ، تحميهم الإمتيازات الأجنبية ويرعاهم القناصل (١) .

ولقد جأر الأجانب بالشكوى — كما سنفصله فى حينه — من جراء سياسة الاحتكار التى اتبعها محمد على حيال بعض المنتجات السودانية ، وجرت محاولات كثيرة لأثنائه عن هذه السياسة . وتجدر الاشارة هنا الى أن التجار الفرنسيين — على ما يبدو — كانوا ، أحيانا ، يلاقون « معاملة خاصة » من جانب محمد على ، ففى احدى المرات ضبط تاجر فرنسى يتاجر فى الصمغ العربى الذى يدخل ضمن السلع المحتكرة ، فعفا عنه الباشا نظرا « .... لما بينه وبين الفرنسيين من الروابط الأكيدة .... » (٢) .

وقد وضع الباشا فى عهده نظاما لتجوال وسفر الأجانب سواء من التجار أو السائحين يتمثل فى ضرورة حصول الفرد منهم على « تذكرة » (تصريح) من القنصل التابع له ثم يقدمها الى (ديوان الأمور الأفرنجية) الذى يقوم بالتوقيع عليها وختمها (٣) .

---

(١) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق . ص ٢٢ .

(٢) دفتر رقم ٣٩٠ صادر ديوان المعاونة ، ترجمة الارادة التركية رقم ٢٤٨ بتاريخ ١٧ شوال سنة ١٢٦١ . ارادة الى ارتين بك . انظر ايضا : دفتر ٣٧٦ صادر ديوان المعية — وثيقة رقم ٢٦٥٩ بتاريخ غاية محرم ١٢٦٠ هـ . ارادة الى احمد باشا المنكلى .

(٣) دفتر رقم ٤٥٨ — معية تركى — ترجمة المكاتبة التركية رقم ٣٥٥ بتاريخ ٨ جمادى الآخرة سنة ١٢٦٥ هـ . من المعية السنية الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

وقد يكون من المفيد أن نشير الى الفروق الهامة بين تغلغل النفوذ الأجنبى والقنصلى فى السودان وبين مثيله فى مصر ، وهى : أولا : كثرة وفود الأجانب الى السودان بالمقارنة مع مصر ؛ فحكومة عباس الأول لم تول الأجانب اهتماما كبيرا لذا فإننا نجد عزوفا بينا عن مجيئهم الى مصر فى عهده ، ولم يبدأ مجيئهم بشكل واضح إلا منذ أواسط عام ١٨٥٤ • ثانيا : ان النفوذ الأجنبى والقنصلى فى مصر — الذى بدأ بين عامى ١٨٥٤ ، ١٨٦٣ واستمر بعدها — قد نتج عنه تقييد أو تقلص فى حقوق السيادة الداخلية لمصر ، وإرهاق للخزانة من جراء التعويضات الجسيمة والتمهيد للأزمة المالية • ولكن الوضع فى السودان كان أكثر خطورة • ذلك أن النفوذ القنصلى ومقره الخرطوم قد اتخذ لنفسه اسلوبا آخر غير المطالبة بالتعويضات المالية تمثل فى مؤازرة تجارة الرقيق حين تقلصت تجارة العاج (١) •

ومن العجيب حقا ، أن يشهد عهد عباس الأول إزورار الأجانب عن مصر ، بينما يشهد نفس العهد فى السودان تدفقا ملحوظا ونشاطا واسعا لهم • ففى عهده نمت تجارتهم وأنشئت قنصلياتهم ، وبدأ رهبانهم يبشرون بالمسيحية حتى إشتد ضغطهم عليه (٢) • ففى ١٢ مارس عام ١٨٥٠ وردت رسالة من الخارجية الانجليزية الى قنصلية الاسكندرية بضرورة وجود وكيل قنصلى فى الخرطوم لحماية التجار الانجليز الذين بدأوا فى ممارسة تجارة الصمغ وسن الفيل وغيرهما من منتجات السودان ، كما وافقت أيضا على اقتراح بتعيين « جون بتريك » لهذا المنصب (٣) •

---

(١) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٥٨ — ٥٩ .

(٢) محفظة ١٩ بحر برا — ملف رقم ١٦ — وثيقة رقم ١٠٢ ، مرفق بحرف (د) سنة ١١٦٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) F. O. 78-841 March 12, 1850. M-C. A. Murray, Alexandria Consular. No. 4.

وحول مهام التنصل الانجليزى انظر الوثيقة التالية :

F. O. 78-841 Inclose in M-C. A. Murray. May 6, 1850 No. 20.

وفى عهد الحكمدار عبد اللطيف باشا (١٨٥٠ — ١٨٥١) لاقى التجار الأجانب مشقة فى تجارتهم حيث وجه اليهم هذا الحكمدار تهمة شراء الرقيق وحمل الأسلحة ، كما اقترح أن تقوم الحكومة باحتكار التجارة بدلا منهم . وأمام ذلك كله قدم القناصل فى الخرطوم شكوى شديدة اللهجة ضد عبد اللطيف باشا مطالبين بحرية التجارة ، واتهموه بالإساءة الى رهبان الكاثوليك فى الخرطوم ، ثم طالبوا بإقصائه عن الحكم . وبالفعل نجحوا فى مسعاهم وإستدعى عباس هذا الرجل وتم تعيين رستم باشا بدلا منه (١) .

ويسجل عهد الخديوى اسماعيل تدفقا ملحوظا للأجانب فى السودان من تجار وسياح وموظفين تبوأوا أعلى مناصب الادارة فى البلاد . ويبدو أن الأسباب التى دعت الى استخدامهم ترجع الى أن مصر كانت — وهى لا تزال فى طور إنشاء الدولة الحديثة — تفتقر الى الخبرات المتوفرة لدى هؤلاء الأوربيين . كما أن استخدام موظفين أوربيين فى سلك الادارة يمكن الخديوى من اكتساب عطف الدول الأوربية أو موافقتها على مشروعاته التوسعية فى أفريقيا . وأخيرا فان اسماعيل حاول أن يقنع — من خلال ذلك — هذه الدول ولا سيما إنجلترا أن سياسته فى أفريقيا يمكن أن تخدم الحضارة الأوربية التى كان فريق من الإنسانيين ينادون بها آنذاك ، بل إنه تأكيدا على حسن نواياه دخل مع بريطانيا فى معاهدة خاصة بالغاء تجارة الرقيق فى السودان والمناطق المجاورة له ، حتى يجد اعترافا منها بالدور الحضارى الذى تقوم به مصر فى أفريقيا (٢) .

وقد بلغ من سطوة الأجانب فى السودان ان كان حكمدار السودان يخضع — أحيانا — لآراء بعضهم بناء على نصيحة المسئولين بمصر ، كما

---

(١) مكى شبيكة : السودان عبر القرون . ص ١٤٩ — ١٥٠ .
(٢) جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية العلاقات العربية الافريقية ص ٢٥١ .

تشير احدى الرســائل التى بعثت الى موسى باشــا عام ١٨٦٣ (١) ٠ بل بلغ الحد بهم أن كانت الأوامر تصدر فى صراحة تامة الى الحكمداريين بمؤازرة الأجانب فى السودان ٠ نرى ذلك واضحا من خلال النصائح التى اعطيت لجعفر باشا حكمدار السودان خلال تسلمه لوظيفته عام ١٨٦٥ ، حيث قيل له « ٠٠٠٠ إنكم ستجتهدون فى تقرير رفاهية العبـاد وتأسيس عمـران البـلاد وتجاملون الأجانب وتعاملونهـم بالحسنى ٠٠٠ » (٢) وبلغت سطوة الأجانب قمتها من خـلال تعيين غوردون باشـا حكمدارا عاما للسودان فى سنة ١٨٧٧ بعد أن كان حاكما لمديرية خط الاستواء ٠

وفى المجـال التجارى راح التجار الأجانـب ، والأوربيون منهـم بخاصة ، يجوسون ديار السودان من شماله الى جنوبه ومن غربه الى شرقه ٠ وشملت تجارتهـم جميع منتجات الســودان المشـار إليها ٠ وإزداد نشاطهم بإنشاء الوكالات التجارية ٠ ففى احدى وثائق الخارجية الأمريكية بتاريخ ٣١ يولية عام ١٨٧٦ وصف للوكالات الأمريكية المنتشرة فى سائر مدن مصر الكبرى والخرطوم (٣) كذلك فقد طلبت اليونان أن يكون لها وكيل قنصلى بسواكن نظراً لوجـود رعايا لها بالسودان (٤) ٠ كما رأت إنجلترا أيضا أن تكون لها قنصلية على ساحل البحر الأحمـر

---

(١) دفتر رقم ٥٣٧ — معية سنية — وثيقة رقم ٩ بتاريخ ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢٨٠ هـ . الى حكمدار السودان .

(٢) دفتر رقم ٥٣٧ — ترجمة الوثيقـة التركية رقم ٤ ص ٧ بتاريخ ٢٦ صفر سنة ١٢٨٢ هـ . ارادة سنية الى جعفر مظهر باشا حكمدار عموم السودان دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) الأرشيف الأمريكى بدار الوثائق القوميـة بالقلعـة — محفظـة رقم ١٢ .

Desp. No. 36. Agency and Consulate General of the U. S. in Egypt. Cairo, July 31, 1876. to Hon. Hamilton Fish. Secy. of State, Washington.

انظر ايضا : نفس الأرشيف — محفظة رقم ٦ ، مكاتبة رقم ٩٠ ، محفظة رقم ١٣ مكاتبة رقم ١١٧ .

(٤) دفتر (بدون رقم) معية وثيقة رقم ٩٥٧ بتاريخ ٢٢ رمضـان سـنة ١٢٨٨ هـ . الى ناظر الجهادية .

المواجه للسودان ، وفضلت أن تختار مصوع مكانا لها ، نظرا للتطــور المحتمل للعلاقات التجارية مع الحبشة ، بالإضافة الى قربها من الإتصال بعــدن (١) •

وفى يولية عام ١٨٦٤ بعث وكيل القنصل العام الفرنسي بالاسكندرية رسالة الى الخارجية الفرنسية ، وهى رســالة تلقاها بدوره من الوكيل الفرنسي بالخرطوم تتعلق باحتجاج مقــدم من مواطن فرنسي يدعــى (Bisson) (بيسون) ضد الحكمدار موسى حمدى الذى قام بطرده من أرض كان قد اشتراها ــ كما تقول الوثيقة ــ بمبلغ ٢٠٫٠٠٠ فرنك • ويفهم من هذه الوثيقة أيضا أن هذا المواطن الفرنسي كان على رأس جمــاعة من الناس حطت رحالها فى إحدى الجهــات بالسودان (لم تشر إليهــا الوثيقة ، ونرجح أنها فى شرقى السودان) واستطاعت أن تستعمرها بعد أن تلقت معونة من رجال الادارة فى السودان ، إلا أنه فجأة ــ كمــا تذكر الوثيقة ــ تغير الحــال بسبب ورود معلومات من باريس تفيد بأن هذا المواطن الفرنسي لم يكن مكلفا بأى مهمة من قبل الامبراطور ••» (٢)•

ثم بدأت ايطاليا تزحف نحو ساحل البحر الأحمر وخاصة نحــو مصوع ، بشكل أثار الخوف لدى المسئولين بمصر حين توجــه الايطالى (سوبكى) الى مصوع عام ١٨٦٥ بصحبة عائلته وأتباعه ومعداته بغرض الاقامة فى تلك الجهــات • وتصف إحدى الوثائق هذا الرجل بالفســاد خاصة عندما كان يعمل بالدائرة السنية فى مصر (٣) •

---

(١) F. O. 78-2632. Cairo, Map, 12, 1877. G. Vivian to the Earl of Derby.

(٢) الأرشيف الفرنسى ــ محفظة رقم ٥٩ بدار الوثائق القومية بالقلعة رســالة من :

M. Drouyn De L Huys, Ministre des Affairss Etrangers. Alexandrie. Le 24 Jullet. 1864. p. 257.

(٣) دفتر رقم ٥٦٠ ــ معية تركى ــ ترجمة المكاتبة التركية (غير رسمية وبدون نمرة) ص ١٠٦ بتاريخ ١٠ ربيع الثــانى ١٢٨٤ هـ • من المعية الى محافظ مصوع •

هكذا بدأ هذا النشاط المحموم لهؤلاء المغامرين الأوربيين سـواء أكانوا تجارا أو رحالة أو غيرهم ، والذى كان يواكب الموجة الاستعمارية التى بدأت — فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر — تجتاح القارة الافريقية • لقـد مهـد أولئـك التجـار والمغامرون الطريق لدولهـم الاستعمارية عن طريق شراء الأراضى على ساحل البحر الأحمر الغربى • ففى أوائل عام ١٨٦٥ بدأت احدى الشركات الفرنسية بالإشـتراك مع أحد التجار الفرنسيين ويدعى « بستره » شراء قطعة أرض بجهة مصوع من أحد مشايخ العربان •ويبدو أن الانجليز كانوا هم أيضـا يفكرون فى السيطرة على تلك الجهة مما أدى الى مجىء فرقاطة انجليزية « الى تلك الجهات • وقد انتهت تلك الحـادثة بشراء هـذه الأرض من ذلك التاجر الفرنسى وقفاً للنزاع والتسابق (١) • وفى عام ١٨٧٠ أتت باخـرة ايطالية الى عصب — تلك المنطقة الهامة التى تقع على رأس الحـدود قرب باب المندب — وأقامت بها منزلين خشبيين ، ثم راحت تشترى أراضى تلك الجهة من المشايخ والعربان بمبلغ سبعمائة ريال ، ولم تلتفت هـذه الجماعة الايطالية الى أن هذه الجهات تابعة لمصر (٢) • ثم عادت فرنسا من جديد لتشـارك فى هذه اللعبة ••• لعبة شراء الأراضى حيث راح أحد أتباعهـا ويدعى « قسطندى » بمنطقة مصوع يشترى قطعة أرض من أحد الأفراد • وللأسف الشديد وافق المسئولون — فى هذه المرة — على بيعها واستخرجت لهـا حجج شرعية ، بل وزيادة فى توسيع هـذه المسألة ، طلب المسئولون ، ألا يمنع الأجانب فى تلك الجهات من شراء الأرض طالما « ••• كانت خالية من المحذور ••• » وأنه « ••• لا بأس من أن تطبق بمصوع وسـواكن الأصـول المتبعة فى مصر واسكندرية

---

(١) دفتر رقم ٢٢ عابدين — ترجمـة الوثيقة (بدون رقم) ص ١٠٧ بتاريخ ١٢ شـوال سـنة ١٢٨٢ هـ • من افندينا الى معتمـده فى الاسـتانة دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) صورة المكاتبة الواردة من محافظة سـواحل البحر الأحمـر الى المعية السنية بتاريخ ٩ رجب سنة ١٢٨٧ هـ (سبتمبر ١٨٧٠) دار الوثائق القومية بالقلعـة •

والبنادر الأخرى بشأن بيع مثل هذه الأملاك للأجانب ... » (١) هكذا بدأ هؤلاء التجار الأجانب تساندهم دولهم فى السيطرة على أملاك الخديوية المصرية على سواحل البحر الأحمر الغربى غير قانعين بالاتجار فى السلع والمنتجات . ومن المؤسف حقا أن حكومة الخديوى استسلمت لمشيئة هؤلاء المغامرين ومكنتهم « رسميا » من السيطرة ، وكان هذا نتيجة طبيعية للإنفتاح الأجنبى المحموم على السودان وسواحله الشرقية الذى بدأ على شكل تجارة فتسلل وظيفى ثم إستيلاء على الأراضى فاحتلال دائم وأخيرا تقلص للنفوذ المصرى .

التجارة مع مصر :

طرقها : سلكت التجارة بين مصر والسودان طرقا عدة يمكننا أن نقسمها الى ما يلى : أولا : النوبة السفلى والعليا : فالنوبة السفلى بحكم موقعها كانت أقرب الى صعيد مصر وبمثابة حلقة وصل بين البلدين . وكانت أسواق إسنا ودراو وأسوان أماكن لتصريف سلع ومنتجات النوبة السفلى كالتمر والشب والسنامكى فى مقابل الذرة والمنسوجات القطنية . أما النوبة العليا أو الجنوبية فكانت مراكزها التجارية مثل بربر وشندى تتصل بمراكز التجارة فى صعيد مصر عن طريق القوافل الشرقى الذى يخترق الصحراء الشرقية ثم ينقسم الى فرعين متوازيين : الأول : يخترق صحراء العتمور (طريق أبو حمد — كرسكو) والتالى الى الشرق قليلا ويخترق صحراء العتباى (طريق بربر — دراو) . فعلى سبيل المثال يمكن لقافلة شندى المتجهة الى مصر أن تمر ببربر ثم عليها أن تختار السير إما فى محازاة النيل حتى (أبو حمد) ، ومنها تخترق صحراء العتمور الى كرسكو ثم دراو الواقعة شمالى أسوان ، أو أن تسير بعد أن تغادر بربر الى الشرق

---

(١) سجل رقم ٥٨٣ ص ٩٨ نمرة ٢٤ — ترجمة الادارة الصادرة الى ناظر الداخلية بتاريخ ٢٣ صفر سنة ١٢٨٨ هـ (أبريل ١٨٧١) (محافظ أبحاث السودان محفظة رقم ١) دار الوثائق القومية بالقلعة .

قليــلا مخترقة صحراء العتباى شمالا حتى تصــل الى دراو • وكان التجار فى الغالب يفضلون السير فى طريق العتباى تاركين طريق العتمور رغم أن الأخير قصير وذلك لأن القوافل كانت تعانى فى طريق العتمــور من شح المياه وقلة العشب الضرورية للابل ، ناهيك عن تعرض القوافل فى هذا الطريق لأعمــال السلب ودفع المكوس • وتقطــع القافلة طريق العتباى من دراو الى بربر فى مدة من ســتة عشر الى سبعة عشر يوما ، ومن بربر الى دراو فى مــدة اثنى عشر يوما ، وذلك لأن القافلة عقب مغادرتها لبربر تكون مزودة بعدد وافر من الابل فيمكنها بذلك اراحــة الابل المحملة ، بالتناوب ، بالاضافة الى جدية رجالهــا فى السير ليــلا بحيث إنهم كانوا لا ينامون إلا قليلا ، وأخيرا فإن نفقات القافلة المتجهة الى مصر تقل لتوفر الابل [1] • ويقال أن راكب الهجين السريع من رجال البريد فى إمكانه أن يقطع المسافة ما بين بربر ودراو فى ثمانية أيام [2] •

ولم يأل المسئولون ، ســواء فىمصر أو السودان ، جهدا فى سبيل تأمين هذه الطرق خاصة طريق العتمور ، الذى كانت تكتنفه المخاطر • ففى عهد محمد على لوحظ كثرة تعرض التجــار والمســافرين لأعمــال السلب والنهب على هذا الطريق فعهد بحراسته الى الشيخ حسين خليفة العبادى مقابل « عشر » ما يمر فيه من بضــائع وسلع [3] •

وفى عهد عباس الأول ظهرت الى السطح مشكلة هذا الطريق من جديد إذ بدأ عربان البادية بشن اعتداءات على المسافرين والتجار لدرجة أن مدير بربر طلب بعدم إرسال « ••• أدوات ميرى ولا تجارى بالعتمور ما لم يرسل خبير ••• » [4] •

---

(١) نسيم مقار : المرجع السابق . ص ٣١٤ .

(٢) Douin; Histoire du Soudan Egyptien - Tome. I. p. 61.

(٣) دفتر رقم ٣٧٨ معية تركى : وثيقة رقم ٥٩٣ بتاريه ١٥ ذى الحجة سنة ١٢٦٠ هـ . ارادة الى مدير دنقلة . انظر ايضا : حسن احمد ابراهيم : المرجع السابق . ص ١٤٩ .

(٤) دفتر رقم ٤٩ صادر معية عربى — صورة المكاتبة العربية نمرة ٢٩ ص ٢٨ف بتاريخ ٢٠ محرم سنة ١٢٦٧ هـ . من المعية الى مدير عموم قنلى .

ويبدو أن مشكلة هـذا الطريق قـد استمرت الى عهـد الخديوى اسماعيل حيث تشير الوثائق الى وقوع حوادث عبر الطريق من جانب بعض الأشـقياء من العربان الذين يعترضون طرق التجارة والتجار ، ووصل بهم الأمر الى قتل بعض العساكر أيضا (١) •

وفى رسالة من نائب القنصل الفرنسى بالخرطوم بتاريخ ١٨ أكتوبر عام ١٨٦٤ نقرأ شكوى مريرة من سوء طريق العتمور (أبو حمد — كرسكو) وطريق العتباى (بربر — دراو) ، حيث كانا دائما « مزدحمين باحتياجات الحكومة من السلاح والمؤن الحربية الخاصة بالجيش ، وكأن هذين الطريقين مسـخران لخدمة الجيش وحسب » • ويضيف قائلا : ان كل ذلك يترك قليلا من الأمل للتجارة التى تعانى كثيرا من المواصـلات والخسـائر الجسيمة الناجمة عن ذلك • فهناك على سبيل المثال بضـائع فرنسية مهملة ومعطلة بكورسكو نتيجـة الأزمة المستحكمة لمـدة شهور بسبب قلة الابل ، ، ناهيك عما يلقـاه التجـار من شـح فى الاحتياجات الضرورية ووهج الشمس المحرقة والجبال الجرانيتية المطبقة عليهم من كل جانب (٢) •

وراح نائب القنصل الفرنسى فى السـودان يردد فى رسائله تلك المخاطر التى لخصها فى عبارة واحـدة قائلا « ••• وللتجـار اليوم فى السودان عدوان : الحكومة بما تقوم به من تفتيش مستمر للتجار دونمـا معايير ثابتة ، والعدو الآخر : يتمثل فى جماعة الأعراب التى تغـير على

(١) دفتر رقم ٥٥٨ — ترجمة الارادة الصادرة الى حكمدار السـودان بتاريخ ٩ ربيع الثانى سـنة ١٢٨٣ ص ١٦٢ ارادة رقم ٢٣ . دار الوثائق بالقلعـة .

(٢) الأرشيف الفرنسى — محفظة رقم ٥٩ بدار الوثائق القومية بالقلعة . رسالة من :

M. C. Thibaut, Vice-consul de France à Khartoum à M. Tastu, Agent et consul General de France a Alexandrie. Khartoum, Le 18 Octobre, 1864. pp. 404-409.

القـوافل ... » (١) .

ولم تقف الحكومة إزاء هذه المخاطر مكتوفة الأيدى بل راحت تبذل الكثير لراحة التجار والمسافرين . ففى يولية عام ١٨٦٥ طلب من حكمدار السودان تأمين هذه الطرق ، والقيام بإعدام الأشخاص الذين تم القبض عليهم بتهمة إرتكاب حوادث السلب ، وإرســال البعض الآخر الى جهات جنوب السودان لإستخدامهم فى الأعمال الشاقة ، كما طلب الى الحكمدار أيضـا أن يطبق هذه العقوبات سالفة الذكر على من يرتكب مثل هــذه الأفعال مستقبلا (٢) . كما بعث المسئولون بمصر رسالة الى الشيخ حسين خليفة متعهد طريق العتمور يحثونه على أداء مهمته فى يقظــة قائلين له « ... إن من أهم الأمور المرغوبة الينا وأعظم المواد الملتزمة لدينا التى لم نزل نداوم على رعايتها والحض على مزيد ملاحظتها هو تأمين الطرق والمعابر وتسهيل السبل لكل وارد وصــادر وصيانة كل تاجر ومســافر حتى لا يضيع لأحد عقال بعير ولا يصــاب أحد فى نفسه ولا فى ماله بقليل ولا كثير ... » (٣) وبعد ذلك يوجهون اليه اللوم الشــديد على ذلك الإهمــال الذى أدى الى وقوع حــوادث النهب والقتل محذرين ومنذرين من وقوع مثل ذلك فى المستقبل (٤) .

والى جانب تلك الأعمال حرص المســئولون على حفــر الكثير من الآبار على طول تلك الطرق رعاية وراحة للتجار والمسافرين (٥) ، فوجود

---

(١) الأرشيف الفرنسى ، محفظة رقم ٥٩ . أنظر :
Annexe No 1. à la lettre de M; OUTREY, du 19 Novembre, 1865. M. Munzinger General du vice-Consul general de France a Alexandrie. Cassala (Taka) 12 aqut 1865. p. 1169.

(٢) دفتر رقم ٥٥٨ — نفس الوثيقة السابقة .

(٣) دفتر رقم ١٩٢١ أوامر كرام ص ١٨٩ — صورة الأمر الكريم رقــم ٢٣ بتاريخ ٩ ربيع ثانى سنة ١٢٨٣ أمر كريم الى الشيخ حسين خليفة متعهد طريق العتمور . دار الوثائق بالقلعة .

(٤) نفس الوثيقة السابقة .

(٥) دفتر رقــم ١٩ عابدين — وارد التليفرافات — صــور التليغراف العربى — رقم ٥٩١ بتاريخ ٣ ربيع الثانى ســنة ١٢٩٠ هـ . من مدير دنقلة وبربر الى المعية الســنية — ورد فى تاريخ ربيــع الثانى ســنة ١٢٩٠ . دار الوثائق القومية بالقلعــة .

المياه عبر تلك الصحراوات ، لا شك إنه يساعد على استمرار سير القوافل التجارية .

ثانيا : طريق منطقة حوض النيلين الأزرق والأبيض وروافدهما وكردفان الشرقية ، حيث تتدفق تجارة هذا الاقليم عبر هذين النيلين نحو الخرطوم ومنها الى بربر ثم شمالا الى مصر عبر صحراء العتباى أو طريق العتمور السابق ذكرهما (١) .

ثالثا : الطريق الغربى أو ما عرف باسم درب الأربعين : ويبدأ هذا الطريق من كوبى بدارفور حتى أسيوط . ويبدو أن استخدام هذا الطريق فى عهد محمد علي لم يكن بالصورة السابقة ، وذلك بسبب سوء العلاقات التى كانت بين سلطان دارفور ومحمد على وان كان الأخير قد بذل محاولات مضنية لتبديد السحابات التى تكونت فى سماء العلاقات بينهما . وليس معنى ذلك ان هذا الطريق قد إنتهى استخدامه ، بل إستمرت عليه التجارة بين مصر ودارفور فى العهود التالية لمحمد على ، خصوصا فى عهد اسماعيل حين أصبحت دارفور تابعة للادارة المصرية فى السودان . ففى عام ١٢٨١ هـ — (١٨٦٤ م) يحدثنا صاحب الخطط التوفيقية عن ورود احدى القوافل الضخمة من دارفور والمحملة بالبضائع المتنوعة مثل سن الفيل وريش النعام والخرتيت والتمر هندى والنطرون وجراب الجلد وغير ذلك (٢) .

ولم يكن طريق الأربعين يقتصر على حمل بضائع دارفور وحسب ،

---

(١) مكى شبيكة : السودان فى قرن . ص ١٣٦ . انظر أيضا : شوقى الجمل تاريخ سودان وادى النيل ، جـ ٢ . ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٢) على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة . جـ ١٧ . ص ٣١ — ٣٣ . وحول هذا الطريق واهميته فى التجارة . أنظر : التونسى : المصدر السابق . ص ٤١ — ٥٥ ، السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية فى أفريقيا . ص ٥ ، مكى شبيكة : المرجع السابق ص ١٣٦ ، الجمل ، المرجع السابق ص ١٣١ .

بل كان أيضا يقوم بحمل بضائع كردفان والمناطق المجاورة لدارفور مثل وادای وباجرمی وبورنو .

رابعا : طريق سواكن ـ السويس : وهـذا الطريق برزت أهميته عقب الحاق ميناءى سواكن ومصوع للادارة المصرية ، ولسـوف تزداد أهمية هذا الطريق كمعبر للتجـارة الخارجية السـودانية بمرور الوقت كما سنوضحه فيما بعد حين نتعرض لطرق المواصـلات البحرية بين مصر والسودان . وعلى الرغم من سهولة وقصر هذا الطريق ، فإن التجـار قـد عزفوا عن إستخدامه بسبب تحصيل جمـارك عالية على البضـائع الصادرة والواردة من والى سواكن والبالغة ثمانية بالمائة بالإضافة الى إرتفاع نفقات وابورات النقل بين سواكن والسويس ، لذلك فإننـا نجد حكمدار السودان يقترح فى عام ١٨٧٦ ـ حلا لهذه المشكلة ـ تخفيض الجمارك فى سواكن الى واحد بالمائة ، كمـا كان الجارى بالاسكندرية ، وإحتسا بأجرة القنطار الواحد الذى يتم نقله على الوابورات بواقـع ثمانية قروش فقط(١) .

وهكذا يتبين لنا مما سبق أن هناك طرقا عدة إستخدمت لنقل السلع والبضائع بين مصر والسودان منها ما كان بريا ومنها ما كان بحريا . ولعل من الملفت للنظر حقـا أن نهر النيل لم يـكن يلعب دورا هاما فى نقل السلع بين البلدين نظرا لما تكتنفه من « جنـادل » كانت تعـوق مرور السفن فيه ولذلك فضلت عنه الطرق الأخرى .

السـلع المحتكرة :

قبل أن نخوض فى أنواع السلع المصـدرة أو المستوردة بين مصر والسودان نود أن نشير الى مسألة هامة شغلت أذهان المسئولين والتجار فى مصر والسودان بل وأوروبا طوال عهـد محمد على ، وهى مسـألة

---

(١) دفتر رقم ١٧ (معية عربى) قيد وارد الافادات من جهـات الاقاليم والمحافظات والسايرة ص ٩٥ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

إحتكار التجارة فى بعض المنتجات السودانية كالصمغ وسن الفيل والسنامكى • فقد دارت مساجلات ومحادثات عنيفة وحادة بين محمد على من ناحية والتجار الأوربيين من ناحية أخرى وراح كل طرف يدلى بدلوه فى هذه المسألة • ولنبدأ القضية من أولها • فمنذ عام ١٨٢١ تمت لمحمد على السيطرة على سنار وبدأ يضع يده على الصمغ وسن الفيل والسنامكى ويحرم التجار الأجانب من هذه المنتجات • ويبدو أن هذا الأمر لم يرق للقنصل الانجليزى العام بالاسكندرية (تشارلس مرى) ولم يستطع أن يكظم غيظه من جراء هذا الاحكام فراح يتهم الباشا « بالغباء » لأن محمد على — فى رأى القنصل — قد حرم مصر من تجارة سنار التى بحثت لها عن منافذ أخرى (١) وفى ظننا أن القنصل البريطانى لم يكن موفقا الى حد كبير فى تحليله هذا إن كان فى نيته الخوف على « حرمان » مصر من مثل هذا المورد ، وربما يكون موفقا فقط إذا كان يعنى حرمان التجارة الانجليزية • فلقد كان الباشا يشترى هذه السلع برضاء الأهالى ولم تكن تجارة السودان قد أخذت منافذ أخرى ، اللهم إلا بعض حالات قليلة كان يتم تهريبها بواسطة السفن الانجليزية فى البحر الأحمر •

ولم تكن شكوى التجار الأجانب فى سنار فقط بل إمتدت الى كردفان حيث نجد الرحالة « بالم » يشكو بمرارة من أساليب إحتكار الصمغ التى لم تكن تقتصر على شراء الحكومة له ، بل كانت تمنع التجار من بيعه فى السوق ، ناهيك عن الضرائب الباهظة التى كانت تؤخذ على البضائع المصدرة الى مصر ، الأمر الذى كان يضطر معه كل فرد أن يبيع للحكومة (٢) •

وفى سواكن ومصوع نسمع صرخات التجار الانجليز من جراء

F. O. 78-708. Alexandria 15th. July. Ch. A. Murray to Lord (1) Cowley No. 14.

(٢) نسيم مقار : الرحالة بالم • ص ٤٤ •

الإحتكار • فقد بعث أحد المسئولين الانجليز في مصر عام ١٨٤٧ برسالة — نيابة عن أحد التجار الخاضعين لرعاية حكومة بريطانيا والمقيم بجدة وله بعض المندوبين في كل من سواكن ومصوع يعملون بتجارة الصمغ — يقول فيها : ان مندوبيه يتعرضون لعراقيل كثيرة منذ تم الحاق هذين المينائين الى الادارة المصرية بالسودان • ويضيف هذا التاجر أن الصمغ المصدر عبر المينائين يبتاعه مندوبوه من الحبشة وليس من السودان ، ومع ذلك فإن الباشا يريد فرض الإحتكار عليه (١) •

ويبدو أن محمد على لم يكن يتشدد — أحيانا — في مسألة الاحتكار أمام بعض التجار الفرنسيين حيث نرى أحدهم يعمل في تجارة الصمغ بكردفان على عهد الباشا على نطاق واسع ، ولكن بعد أن لاحظ محمد على إزدياد وتضخم تجارة هذا الرجل والتى بلغت في العام الواحد من ٤٥٠ — ٥٠٠ جمل من الصمغ أظهر قلقه وغيرته (٢) •

ولجأ التجار الأجانب ، والانجليز منهم — على وجه الخصوص — الى وسيلة ناجحة لإلغاء الاحتكار التجارى فراحوا يحتكمون الى معاهدة عام ١٨٣٨ (بلطه ليمان) والى المادة الثانية منها والتى تنص على إنه « ••• مسموح للرعايا البريطانيين أو وكلائهم أن يشتروا من سائر الأماكن الخاضعة لأملاك الدولة العثمانية (Ottoman Dominion) سواء أكان ذلك بغرض التجارة الداخلية أو الخارجية » (٣) • وراح القنصل بارنت Barnett يردد هذه المقولة ، ويطلب أن ينصاع الباشا لقوة هذه المادة ويوافق على حرية التجارة في سنار وسائر جهات السودان التى هى — طبقا لهذه المادة — جزء من أملاك الدولة العثمانية (٤) •

---

(١) F. O. 78-708. Cairo 2nd. July, 1847. Thomas Mirialacci to Alfréd Sloalne.

(٢) Deherain; Le Soudan Egyptien. p. 117.

(٣) F. O. 78-502, September 30, 1842, to L. t Col. Barnette.

(٤) F. O. 78-582, No. 25, Cairo, November, 16th 1844. C. J. Barnette to Earl of Aberdeen.

وفى أغسطس ١٨٤٧ يخاطب « مرى » بالمرستون قائلا « .. إننى سوف أكتب الى ارتين بك — الذى خلف بوغوص عام ١٨٤٤ — طالبا منه أن يخبر نائب السلطان إننى لا أستطيع قبول شرعية الإدعاء الذى حال دون تنفيذ شروط المعاهدة التجارية بالقوة ... » ، ثم يضيف بعد أن تزداد حدة مخاطبته « ... ولسوف أعتبر الحكومة المصرية مسئولة عن الأضرار التى تلحق بأى تاجر بريطانى من جراء سياسة الإحتكار لمنتجات السودان (١) . وتفيض وثائق الخارجية الانجليزية بالمراسلات المتبادلة بينها وبين قنصلها بالأسكندرية فى وصف الأحوال السيئة للتجارة البريطانية فى السودان والناجمة عن الإحتكار التجارى . وتذكر احدى هذه الوثائق أن محمد على إمعانا منه فى إحكام سيطرته على مقدرات التجارة السودانية طلب من الباب العالى ضم ثغرى سواكن ومصوع الى السودان . وقد عد هذا الطلب فى نظر تشارلس « ... عملا غير مشروع ، وأن محمد على بهذا قد أدى الى إغلاق المنافذ أمام المنتجات السنارية ، وجعل التجار الأوربيين فى جدة والمناطق الأخرى المرتبطين بتجارة الصمغ تحت رحمته .. » (٢) وهكذا بدأ التجار الأوربيون يجأرون بالشكوى من جراء هذا العمل ، فتقدم نفر منهم الى القنصل النمساوى والى القنصل الانجليزى لشرح هذه المسألة مما دعا قنصل النمسا الى مقابلة الباشا نفسه فى هذا الصدد ، ولكن محمد على لم يعره أذانا صاغية وتمسك بسياسته الاحتكارية (٣) .

هذا فيما يتعلق بالجانب الأوربى ، ولكن فى الجانب الآخر ألا يحق لنا أن نتساءل عن مبررات محمد على فى فرض سياسة الاحتكار على بعض المنتجات السودانية . والى أى مدى كان محقا فيها ؟ وما درجة

---

(١) F. O. 78-708, 10th. August, 1887. Ch. A. Murray to Viscount Palmerston No. 99.

(٢) F. O. 78-708, Alexandria, 15th. July 1847. Ch. A. Murray to Lord Cowley. No. 14.

(٣) F. O. 78-708. Ibid.

إقتناع الباشـا نفسه بهـا ؟ ففي رسـالة من محمد على الى القنصـل الانجليزى العـام بالاسكندرية راح يشرح مبررات سـياسته قائـلا : « ... إننى أعلم جيدا إن الغاء نظـام الاحتكار والأخذ بنظام التجارة الحرة يوجبان رخاء كل أمة .. وإننى كنت أتوق الى تحقيق هذه الأمنية غير أنها تعد أمرا حادثا فى هذا البلد كما يعلمه الجميع فلا يمكن حصولها دفعة واحـدة ، وإنما يجب أن تراعى سنة التدريج مع العناية بحـالة الأهلين وتوفير الأمن لهم كما يفعـل فى البلاد الأخرى المتمدنة ، وكنت قلت : لا يشددوا على وليتركونى وشأنى بعض مدة فإننى أدقق لحل مسألة التجارة الحرة حلا يرضاه الجميع وإننى مازلت على كلامى هذا ، فأعمل ليل نهار لتحقيقه ، وصديقنا (يقصد القنصل العام الانجليزى) وان كان يقدر مزايا ذلك ، غـير أن بعضا من التجار الواقفين على سير الأمـور يجب أن يقرروا هكذا .. » (١) . ولا يحتاج منا هذا الرأى الى جـدل كثير للاقتناع بوجهة نظر الرجل ، فهو لا ينفى مزايا حرية التجـارة ، والإنفتاح على العالم ، ولكن هذه المسألة قد تكون ضارة بالنسـبة لبلد كالسودان كان يعيش منذ عهد قريب على إقتصـاد قبلى بسيط وأمامه مراحل طويلة حتى يتطور ويقف على قدميه ، فلابد لهذا الاقتصـاد من من مرحلة حضانة ورعاية مباشرة من جانب الباشا فى بادىء الأمر حتى يستوى عوده ويبلغ أشـده . ولم يكن الباشا — فى تقديرنا — يتمسك بهذه السياسة عن عنت وجهل ويصر على رأيه دون الاستماع الى آراء غيره حول هذه السياسة ، بدليل أنـه وافق — دون تردد عنـد زيارته للسودان (١٨٣٨ / ١٨٣٩) — على الغاء احتكار النيلة حين شكا اليـه فلاحو السودان أمرهم فى هذا الصدد (٢) . كذلك فقـد كان محمد على يبرر حـق إحتكاره للصمغ والسنامكى بأن هذين المحصـولين ينبتان من

---

(١) دفتر رقم ٩ عابدين — ترجمة الارادة رقم ٣٤٤ بتاريخ شوال سنة ١٢٥٧ هـ من الجنـاب العـالى الى البك الترجمان . دار الوثائق القوميـة بالقلعـة .

(٢) انظر فصـل الزراعة .

تلقاء نفسهما ، وبذلك يصبحان من حق الحكومة (١) •

ونلمح من بين سطور احدى الرسائل — المرسلة من القنصل العام الانجليزى بالاسكندرية الى الخارجية الانجليزية فى ديسمبر عام ١٨٤٧ — اتهامات الى فرنسا بأنها كانت من وراء تمسك الباشا بهذه السياسة الاحتكارية (٢) •

ويبدو أن هذا الاتهام كان يستند الى التأييد الذى كان يلاقيه الباشا فى سياسته الخارجية والداخلية ، بالاضافة الى خريف العلاقة بين انجلترا وفرنسا والتنافس الدائر بينهما — آنذاك — فى المجال الاستعمارى • وبالرغم من حدة المناقشات التى دارت بين المسئولين الانجليز وبين الباشا حول مسألة الاحتكار ، فانهم كانوا — على حد تعبير احدى الوثائق — « •• يحسبون حساباتهم على أن الضغط الشديد من جانب انجلترا على الباشا معناه فقدان النفوذ القليل الذى كان لديهم عند الوالى ، فى مقابل زيادة النفوذ الفرنسى •• » (٣) •

وهكذا كانت الدبلوماسية الانجليزية حريصة كل الحرص على عدم توسيع هوة الخلاف مع الباشا ، حتى لا تتيح لفرنسا أن تجد طريقا ممهدا على حساب انجلترا • وغاية ما كانت تطمح اليه هذه الدبلوماسية هو تنفيذ الحقوق الواردة بالمعاهدة التجارية الموقعة مع الدولة العثمانية عام ١٨٣٨ (٤) •

وقد كثر الجدل بين انجلترا والباشا حول هذا الموضوع مما جعل الأخير يلجأ الى استشارة رجال القانون الدوليين فى باريس ولندن

---

(١) دفتر رقم ٩ عابدين — ترجمة الخطاب السادس رقم ٤٦١ بتاريخ ١٦ رمضان سنة ١٢٦٣ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) F. O. 78-708, Cairo, December 25th, 1847. Ch. A. Murray. to Vice Count Palmerston. No. 69.

(٣) F. O. 78-756, No. 2, February 4, 1848. to M. - Murray.

(٤) F. O. 78-756. Ibid.

وتريستا وتسكانيا وفلورنسا ، وقد أقروا جميعا وجهة نظر محمد على (١) .

وإزاء اصرار الانجليز على الغاء الاحتكار ، وبخاصة مساعى سفيرهم فى القسطنطينية « ستراتفورد كاننج Stratford Canning ، أصدر الباب العالى أمرا الى محمد على فى ٦ يونية عام ١٨٤٨ بالغاء احتكار تجارة سنار ، ومع ذلك ظل هذا الأمر حبرا على ورق ولم ينفذه أحد (٢) . وفى مستهل سبتمبر عام ١٨٤٨ رفع الانجليز مذكرة الى ابراهيم باشا ، أعادوا فيها مطالبهم بتطبيق معاهدة عام ١٨٣٨ المبرمة مع السلطان وحق الرعايا الانجليز « ... فى تصدير منتجات سنار بعد دفع الرسوم .. » (٣) ولكنهم ووجهوا أيضا بأبواب موصدة حيال هذا المطلب .

ومن الغريب حقا أن أولئك الانجليز الذين هاجموا سياسة محمد على الاحتكارية ، أشاروا - فيما بعد - على رياض باشا رئيس مجلس النظام فى عام ١٨٨١ على عهد توفيق باشا أن يطبق سياسة الاحتكار فى جنوب السودان ، والذى أشار بهذا هو « جيجلر » باشا الذى كان وكيلا لحكمدارية عموم السودان آنذاك (٤) .

وهكذا ظل الاحتكار مستمرا حتى جاء عباس الأول الى الحكم فقام

---

(١) محافظ السودان - محفظة بدون رقم - مجلس الوزراء - ١٢٦٣ هـ ، انظر أيضا : شكرى : بناء دولة ص ٦١ .

(٢) نفس المرجع . ص ٦١ ، ٦٢ .

(٣) F. O. 78-735, Memorandum for Ibrahim Pasha sent in September. 8, 1848.

(٤) دفتر رقم ٩ عابدين - ترجمة الخطاب رقم ٤٦١ بتاريخ ١٦ رمضان السودان - ترجمة الخطاب الوارد لحضرة دولتلو افندم رياض باشا رئيس مجلس النظار وناظر الداخلية والمالية من جيجلر باشا وكيل حكمدارية عموم السودان بتاريخ ١٨ يونية ١٨٨١ ص ٥١٠ .

بالغـائه فى عـام ١٨٤٩ (١) ٠

وفى الخامس من يناير عام ١٨٥٠ كتب تشارلس مرى قنصل انجلترا فى الاسكندرية الى الخارجية البريطانية يزف اليهـم نبـأ نتائج الغـاء احتكار الصمغ والسنامكى ومنتجات سنار الأخرى حيث تمكن كثير من التجار الأوربيين ــ ومنهم رعايا انجلترا ــ من العمل فى هذه التجـارة ، ثم نصح المسئولين بضرورة البحث عن وسيلة لحماية هؤلاء التجـار ، وأخيرا طلب من حكومته أن تحذو حذو الحكومة النمساوية بتعيين وكيـل لها فى الخرطوم (٢) ٠

وقد يكون من المفيد بعد أن ناقشنا مسألة الاحتكار التجـارى فى السودان أن نعرض بشىء من التفصيل لأهم أنواع الصادرات السودانية الى مصر والتى شملها الاحتكار ، وفى مقدمتها الصمغ العربى الذى إحتل المكانة الأولى فى تجارة السودان مع مصر ٠ فقد احتلت أشجار « السنط » التى يستخرج منها الصمغ مساحات كبيرة من مديريات كردفان والتاكة وسـنار ، كما عرفت منـه أنواع كثيرة أهمهـا ما كان يؤخـذ من سنط « الهاشاب » وسنط « الطلح » والنوع الأول أكثر جـودة من الثانى ، ولذلك كان الاقبال عليه كثيرا (٣) ٠

ويكثر وجـود أشـجار الصمغ بصفة عامة فى المناطق المدارية التى تمتـاز بأن فصل المطر فيها محدود ، وتتعرض للجفاف فترة طويلة من السنة ٠ فخلال أشهر المطر القليلة تظلل شجرة السـنط المنتجة للصمغ

---

(١) F. O. 78-804 Cairo, Mard 12, 1849. Ch. A. Murray to Sir Stratford Canning, No. 6.

وأنظر ايضا : شكرى : الحكم المصرى فى السـودان ص ٧٤ ، وزاهر رياض ٠ السودان المعاصر ص ٧٤ ٠

(٢) F. O. 78-840. Cairo January. 5, 1850. Murray to Viscount Palmerston. No. 2.

(٣) محمد محمود الصياد : السـودان ٠ دراسة فى الوضـع الطبيعى والكيان البشرى والبناء الاقتصادى ٠ ص ٢٨٢ ٠

تستمد الماء وتتشكل بحيث تحتفظ بالرطوبة فيها طوال أشهر الجفاف ، ويكون ذلك بتحويل المـاء الى مادة صمغية داخل لحاء الشجرة • وتمتاز هذه المادة بتحملها للحـرارة الشديدة وقلة تأثرها بجفاف الجو وعـدم قابليتها لتبخر الرطوبة بسرعة • وهكذا تستمر الرطوبة فى لحاء الشجرة خلال فصل الصيف • ويساعد التفاوت بين درجات الحرارة على تشقق لحـاء الشجرة فتخرج من خـلال تلك الشقوق المـادة الصمغية التى تتجمع فيها يعـرف باسم « الكمكول » • ولكن هـذه الشقوق الطبيعية لا تكفى فيقومون بعمل شقوق صناعية أو « طقوق » كما يسميها البعض فيزداد الإفراز (١) •

ويتميز الصمغ السودانى بانه يذوب تماما فى الماء على عكس صمغ « بوشـير » فى ايران الـذى لا يذوب فى المـاء ، أو صمغ عدن الأقـل ذوبانا (٢) • وكانت الحكومة تدفع مائة وخمسين مليما عن كل (مائة وعشرة أرطـال) ، ثم تحسنت تدريجيا سنة ١٨٥٠ الى (مائتين وسبعين مليمـا للقنطار (٣) • وكان يتم تصدير الصمغ الى أوربا وتركيا عن طريق مينـاء الاسكندرية •

هذا ، وقـد بلغ محصـول الصمغ عن سنتى ١٢٥٨هـ — ١٢٥٩ هـ (١٨٤٢ — ١٨٤٣ م) بمديرية كردفـان ١٨٫٢٥٧ قنطـارا وكسور (٤) • وهناك وثيقة تشـير الى أن ما وصل منـه الى مصر من كافـة مديريات السودان فى عام ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢) قد بلغ ٧١٣٨ قنطارا و٧٧ رطلا (٥) •

---

(١) محمد محمود الصياد : المرجع السابق ص ٢٨٣ .
(٢) نفس المرجع . ص ٢٨١ .
(٣) نفس المرجع . ص ٢٨٦ .
(٤) دفتر رقـم ٣٧٨ معيه تركى — ترجمـة الارادة التركية رقم ٨٣٠ بتاريخ ٢ صفر سنة ١٢٦١ هـ . ارادة الى مدير كردفان .
(٥) محفظة رقم واحد — موضوع التجارة (١٢٤٢ هـ — ١٢٦١ هـ) من محفظة رقم ٣ محفوظات ديوان التجارة والمبيعات بتاريخ ١٢ الحجة سنة ١٢٥٨ هـ . من الجناب العالى الى بوغوص بك مدير التجـارة والمبيعـات . دار الوثائق القومية بالقلعـة .

وقد كان الباشا يولى هذا المحصول اهتماما شديدا لأنه كان يلعب دوراً كبيرا فى التجارة الخارجية لمصر ، فكان ينتدب الكثير من المعاونين للاشراف على سرعة شحنه وإرساله الى جمرك أسوان ، كما كان يتم توزيع أولئك المعاونين على طول الطريق من مقر انتاجه حتى وصوله الى جمرك أسوان ، فيكون مقام الأول بكردفان والثانى بدنقلة والثالث بوادى حلفا والرابع بأسوان (١) .

وقد لاحظ محمد على تلاعب بعض القائمين على نقل الصمغ من جمرك أسوان الى القاهرة فقام بوضع حراسة من الجنود على كل مركب ، إلا أن رؤساء المراكب استطاعوا اكتساب هؤلاء الحراس الى جانبهم ، فابتكر محمد على طريقة جديدة تكشف هذا التلاعب ومؤداها انه كلما ورد صمغ الى جمرك أسوان يوزن وتؤخذ منه « عينة » وتوضع فى زجاجة وتختم من أمين الجمرك حتى إذا وصلت هذه العينة الى جمرك مصر توزن الإرساليات مرة أخرى وترسل رأسا مع تلك العينة الى الاسكندرية (٢) . هذا وقد كانت تشرف على عملية الحصول عليه ونقله مصلحة خاصة (٣) .

سن الفيل :

وبالاضافة الى احتكار الصمغ فقد تم احتكار سن الفيل أو ما كان يسمى بالعاج . وكان يرد الى مصر فى عهد محمد على من جهات سنار وكردفان ثم من دارفور وجنوب السودان فيما بعد .

---

(١) دفتر رقم ٢٠٩ — معاونة اقاليم — وثيقة رقم ٦٥٣ بتاريخ ٢١ جمادى الثانى سنة ١٢٥٩ هـ خطاب الى سليمان افندى أمين جمرك اسوان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ٣٩٣ ، صادر ديوان المعية — ترجمة الارادة التركية رقم ١٠٠٧ بتاريخ غاية رمضان سنة ١٢٦١ هـ . ارادة الى عباس باشا .

(٣) الوقائع المصرية . العدد رقم ٣١١ بتاريخ ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٢٤٧ هـ .

ويشير أحد الباحثين اعتمادا على الرحـالة بالم الذى زار كردفان الى أن محمد على كان يلجأ الى وسيلة غريبـة فى الحصـول على سن الفيل بحيث يترك باب التجارة فى هذه السلعة مفتوحا فلا يتعرض للقوافل أو التجار الذين يحملونه الى مصر حتى إذا وصلوا الى القاهرة ــ وقد تكبدوا المشـاق ــ تقدم هو بشرائه بالسعر الذى يحدده والذى كان ضئيلا للغاية كما يقرر هذا الرحالة (١) • وهذا القول فيه شيء من المبالغة إذا نظرنا الى هذه المسألة من عدة جوانب : الجانب الأول ــ كما توضحه الوثائق بجلاء ــ أن محمد على كان يحتكر شراء السن فى أماكن إنتاجه ويدفع للتجار أسعارا لا بخس فيهـا (٢) ، والجانب الثانى والذى يجب أن نعيـه تماما ان بالم نفسـه كان واحـدا من التجار المغامرين الذين جاءوا الى أفريقيا بحثا عن الثراء السريع ، فكان طبيعيا أن يردد ما كان يقوله بنو جلدته حول سياسة محمد على الاحتكارية ولا بأس عنده أن يرتدى مسوح القديسين المدافعين عن التجار وحرية التجارة • والجانب الثالث والأخير وهو الأهم فى رأينـا ، انه إذا جاز لنا أن نصـدق هذه العبـارة عن قيام الباشا بشراء العاج بثمن بخس فما الذى كان يجبر هؤلاء التجار على نقله وتكبد المشاق كل عام عبر صحراوات السـودان حتى يصلوا به الى مصر ؟ !

ويبدو أن شكاوى التجار الأوربيين قـد استمرت فى عهـد خلفاء محمد على ، ففى عام ١٨٥٠ على عهد عباس الأول قدم التجار الأوربيون فى السـودان شكوى تبناها قناصل كل من سردينيا والنمسا وفرنسا ، ووكيل القنصل الانجليزى ، حيث ضيق لطيف باشا حكمدار السـودان الخناق عليهم فيما يتعلق بالاتجـار فى هـذه السلعة على الطريقة التى يفضلونها هم لا التى تقوم بتنظيمها الحكومة عن طريق إجراء مزاد عام

---

(١) نسيم مقار : المرجع السابق ص ٣٤٥ نقلا عن الرحالة بالم : المرجع السـابق ص ٢٨٦ .

(٢) دفتر رقم ٢٦١ معـاونة ايرادات وثيقة رقـم ٢ بتاريخ ٣ محـرم سنة ١٢٥٨ هـ افادة الى محمود بك الايرادات • دار الوثائق القومية بالقلعة .

لهذه السلعة بحيث يمكن لهؤلاء التجـار الأوربيين أن يشـاركوا فيـه كغيرهم ، إلا أنهم ــ كما يبدو من رسـالة الحكمدار ــ كانوا لا يفضلون هذا الأسـلوب (١) .

وفى عهد محمد سعيد باشا استغل هؤلاء التجار حرية التجـارة فى هذه السلعة ولم يؤدوا الضريبة المقررة عليها للحكومة عقب بيعهم لها فى الخرطوم وترتب على ذلك أن تكدست عليهم أموال طائلة للحكومة (٢) . وتجدر الاشـارة هنا الى أنه فى عهد الخديوى اسماعيل تم إحتكار سن الفيل فى جنوب السودان . ففى مايو عام ١٨٧١ أصدر صمويل بيكر أمراً بمنع تجارة العاج بين الأهالى واحتكار الحكومة له (٣) .

وفى عام ١٨٧٤ أصدر غوردون باشا قرارا باحتكار الحكومة لتجارة العاج فى البحيرات الاسـتوائية (٤) . وهكذا أصبح العـاج فى المناطق الجنوبية على عهـد اسماعيل من ممتلكات الحكومة وكان على الأهـالى جميعهم دون استثناء توريده الى مستودعات الحكومة عقب صيد الفيلة ودون مقابل إذ كانوا يصطادونها إبتغاء الحصول على لحومها وشحومها أكثر مما كانوا يبغون أنيابها ، وقد كانوا من قبـل يبادلون عليها بالخرز وبزجاجة من الخمر المغشوشة التى يحملها التجـار (٥) . وقد كان يجرى

---

(١) محفظة ١٩ بحر برا ــ ملف ١٦ ــ وثيقة رقم ١٣٧ بتاريخ ٨ صفر ١٢٦٧ هـ . من وكيـل الأمـور الخارجية اصطفان رسـمى الى الحضرة الخديوية . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) امين سامى : تقـويم النيل وعصر عباس الاول ومحمد سـعيد ــ المجلد الاول من الجزء الثالث ص ١٣٦ .

(٣) عمر طوسـون : تاريخ مديرية خط الاسـتواء ، الجـزء الأول . ص ٣٨ .

(٤) دفتر رقم ١٨٧١ ــ عابدين ــ معية عربى ــ وثيقة رقم ٦ ص ٤١ بتاريخ ١٩ ربيع الأول سنة ١٢٩١ من المعية السنية الى حكمدار السودان . انظر ايضا : شكرى : الحكم المصرى فى السودان ص ٣١٠ .

انظر ايضا : Gessi, Seven years. p. 36.

(٥) عمر طوسـون : المرجع السـابق . جـ ٢ . ص ٣٧ .

بيع العاج المجلوب من هذه المناطق بالخرطوم ولكافة التجار (١) .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد كان التجار يقومون بتهريب العاج مع الرقيق على ظهور المراكب ، وإذا ما تم ضبطه على هذا النحو ، عقد له مزاد يتقدم له جميع التجار (٢) وقد كانت للعاج أنواع عدة ، ولكل نوع سعر محدد ، فمن أنواعه « العال » و « الظهر » و « البار » و « الكلنج » (٣) .

السنامكى :

كذلك فقد احتكرت الحكومة فى عهد محمد على تجارة السنامكى ، وقد إعتبرت دنقلة الجديدة بمثابة المستودع الرئيسى الذى يمد الحكومة بحاجتها من هذه السلعة التجارية نظرا لوفرتها فى هذه المنطقة (٤) . كذلك فقد توفرت فى جهات أخرى مثل كردفان إلا أن جمعها بغرض بيعها كان محدودا . ويبدو أن الاقبال على تجارة السنامكى فى مصر لم تكن بصورة مشجعة مما جعل المسئولين فيها يتصحون مدير دنقلة وبربر عدم إرسال هذه السلعة إلا حين يطلب منه ذلك (٥) .

---

(١) دفتر رقم ١٦ عابدين — صادر تلغرافات — صورة التلغراف العربى الشفرة رقم ٣٩٦ ص ٦١ بتاريخ ليلة ١٥ شوال سنة ١٢٩٠ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ١٨٧٥ صورة المكاتبة رقم ٣٦ ص ١٠١ بتاريخ ٢٤ جمادى الاولى سنة ١٢٩١ هـ . من حكمدارية السودان الى المعية السنية انظر ايضا : دفتر رقم ٢٧ عابدين — وارد تليغرافات صورة التليغراف العربى رقم ٦٦٠ ص ٩٧ بتاريخ ١٧ رمضان سنة ١٢٩١ هـ .

(٣) نفس الدفتر والوثيقة السابقة .

(٤) سجل رقم ٣٧٧ معية تركى — وثيقة رقم ١٢٦٩ بتاريخ ١٠ ربيع الاولى سنة ١٢٦٠ هـ . ارادة الى مدير دنقلة .

(٥) سجل رقم ٣٧٧ معية — وثيقة رقم ١٤٨٨ بتاريخ ١٧ جمادى الثانية سنة ١٢٦٠ هـ . ارادة الى مدير دنقلة . وايضا ؛ دفتر رقم ٤٣٨ معية تركى — وثيقة رقم ٤٥١٦ بتاريخ ٢١ ربيع الأول سنة ١٢٦٤ هـ . الى مدير دنقلة وبربر . دار الوثائق القومية بالقلعة .

ريش النعـام :

وهو أيضا من المنتجات التى إحتكرها محمد على ، ومع ذلك ، فقـد ظل يتداول بين الأهالى وخاصة فى غرب السـودان • فقد كانوا يقبلون على صيده وأكل لحمه بشراهة ويجدون له مذاقا لا يقـل عن اللحـم البقـرى • وفى أعقـاب ضم منطقة خط الاسـتواء تم إحتكار هـذه السلعة هناك حيث كان يتم تسليم الريش فى مستودعات الحكومة بعـد دفع نصف الثمن وحجز النصف الآخر لسداد الضريبة (١) •

الجـلود :

وأخيرا تم احتكار الجلود فى عهد محمد على ، فقد إحتلت القرب والأكياس التى تم صنعها من جلود الحيوانات مكانة هامة فى السـلع المستوردة من السودان ، خاصـة إذا علمنا أن المـدن المصرية آنذاك وبخاصة القاهرة كانت فى حاجة ماسـة لهذه القرب لنقل المياه من نهـر النيل الى السكان داخل المدينة • ويقدر ما كانت تحمله قافلة دارفور فى المرة الواحـدة بحوالى ٨٠٠٠ قربة سـواء أكانت مصنوعة من جلـود الثيران أو جلود الابل (٢) • ومما هو جدير بالملاحظة أن الجلود الخـام لم تكن تلقى مكانا أكبر بين صادرات السـودان الى مصر على الرغـم من وفرتها ويرجع ذلك الى جهل المواطنين بالسـودان بوسائل حفظهـا سليمة ، وهو ما أدركته حكومة محمد على حيث أرسلت خبراء من مصر

---

(١) عمر طوسـون : المرجع السابق . ج ٢ ص ٣٨ ، وكانت اسعاره كالتالى :

— ١٨ ريالا ثمن رطل الريش الأبيض بضاعة عالية ويسمى (عوام) .

— ١١ ريالا ثمن رطل الريش الاسـود بضاعة متوسـطة ويسـمى (الاسـود) .

— ٣ ريالات ثمن رطل الريش الأشهب بضاعة عادية ويسمى (Rebeda) وكانت هذه الأثمان لا تدفع نقدا بل غلة (عمر طوسـون : المرجـع السابق • ص ٣٨) .

(٢) نسيم مقار : المرجع السابق . ص ٣٥١ .

لإعداد الجلود ودبغها وتدريب السودانيين على ذلك وطلبت من الأهالى تسليم جلود الحيوانات التى يقومون بذبحها مقابل ثلاثة قروش للجلد الواحد من جلود الماشية وعشرين باره لجلد الضأن • وبهذا أصبحت السودان على رأس الأقطار التابعة لها التى تمدها بالجلود كما يتبين من الجدول التالى : (١) •

البلد	عدد الجلود
السودان	٩٥٫٠٠٠
الحجاز	٨٠٫٠٠٠
الشام	٢٠٫٠٠٠
كريت	٢٫٠٠٠

السلع والمنتجات غير المحتكرة :

(أ) **المواشى :** هناك نوع آخر من التجارة لم تكن الحكومة قد بسطت إحتكارها عليه اطلاقا ، وأهم تلك السلع التجارية المواشى التى إزداد الطلب عليها فى عهد محمد على • ويرجع ذلك الى تلك النهضة الزراعية التى كان الباشا يقوم بها فى مصر والتى كانت تلزمها تلك المواشى سواء فى أعمال الحرث أو ادارة السواقى (٢) •

ويذكر أحد الباحثين أن الباشا قد حصل على تلك المواشى من السودان بوسائل ثلاث ، أولها الغزوات التى أرسلت لصيد العبيد فى

(١) نسيم مقار : المرجع السابق • ص ٣٥١ •

(٢) دفتر رقم ٣٧٦ صادر ديوان المعية — وثيقة رقم ٢٧٤٩ بتاريخ ١٥ ربيع الآخر سنة ١٢٦٠ هـ ارادة الى احمد باشا المنكلى •

أنظر ايضا : سجل رقم ٣٣٧ معية تركى — وثيقة رقم ١٢٩٣ بتاريخ ٢٠ ربيع الثانى سنة ١٢٦٠ هـ • ارادة الى مدير دنقلة ومدير سنار ومدير تاكه ومدير الخرطوم • دار الوثائق القومية بالقلعة •

فازوغلى وجبال النوبا • وثانيها عن طريق الشراء من أصحابها وأخيرا حصل عليها على شكل ضرائب اذا ما عجز الأهالى عن دفعها نقدا (١) • وفى ظننا أن الوسيلة الثانية هى التى كان غالبا ما يتبعها الباشا ويحرص عليها أشد الحرص ، ولم يكن يجبر الأهالى على تقديم مواشيهم أو يهاجمهم فى ثروتهم التى تلعب دورا كبيرا فى تنمية الزراعة السودانية التى كان حريصا على إزدهارها • ولو كان فى نيته اللجوء الى غير وسيلة الشراء للجأ فورا الى ضم هذه التجارة تحت الاحتكار وقد كان فى أمكانه ذلك •

ويبدو أن الباحث قد تأثر بما ذكره فى الوسيلة الأولى والثالثة ببعض الأوربيين من الرحالة * وغيرهم ممن كانوا يمارسون أعمال التجارة آنذاك وكانوا شديدى الحنق على نشاط الباشا التجارى • وليس معنى ذلك أنه لم تحدث بعض تجاوزات من المسئولين فى السودان ، ولكنها لم تكن بشكل رسمى أو دائم • بل كانت التعليمات اليهم صريحة كى يقوموا بشرائها (٢) •

وقد عنى الباشا بإرسال هذه الحيوانات من السودان الى مصر فعين لها رجالا مخصصين لها بل وناظرا يشرف عليهم ، كما أنشأ المحطات اللازمة على طول الطريق الذى تسلكه ما بين السودان ومصر وأمد هذه المحطات بكل ما يلزمها من أعلاف ومياه وغير ذلك •

وكان محمد على يتوعد الكسالى والمهملين ممن يقومون على ارسال

---

(١) حسن احمد ابراهيم : المرجع السابق . ص ١٣٨ — ١٤٠ .

(*) اعتمد هذا الباحث فى هاتين النقطتين على ما ذكره كل من :
— Pallme; Travels in Kordofan. p. 37.
— Hill; Egypt in the Sudan. p. 55.

(٢) دفتر رقم ٣٦٩ معية تركى — وثيقة رقم ٣٤٧٨ بتاريخ ١٧ ذى القعدة سنة ١٢٥٩ هـ ارادة الى مدير الوجه القبلى ، انظر ايضا سجل ٣٧٧ — معية تركى — وثيقة رقم ١٢١٦ بتاريخ ٣ جمادى الثانية سنة ١٢٦٠ هـ . ارادة الى مدير دنقلة . دار الوثائق القومية بالقلعة .

المواشي بأقسى أنواع العقاب [1] فقد صدرت الأوامر لحاكم بربر أن يقوم بصرف العليق اللازم للأبقار الواردة من كردفان الى حاكم دنقلة لضمان وصولها سليمة ، كما طلب محمد على أن ترسل فى فصل الخريف لضمان وجود الأعلاف الكافية لها [2] • وزيادة فى ضمان سلامتها وعدم هلاكها فى الطريق أمر بأن تسير لمدة ثلاث ساعات أو أربع على الأكثر فى اليوم الواحد ، وأن يتم ارسالها على دفعات متعددة كل دفعة منها تتكون من حوالى مائتين وخمسين رأسا فقط ، وتبعث كل واحدة منها قبل الأخرى بيومين حتى لا يتسبب إزدحامها فى حدوث أذى وتعب لها • وزيادة فى الحرص عليها ، أوصى بأن تكسى أظلاف المواشى التى تعرضت للأذى بكسوة خاصة من « الليف » [3] •

ولم تكن تلك الرعاية تقتصر على مسافة الطريق عبر مديريات السودان وحسب ، بل كانت تمتد الى أماكن دخولها أرض مصر حيث كلف بعض المأمورين والمديرين فى الوجه القبلى بترتيب العلف الكافى لهذه المواشى وعزل الضعيف منها وتسليمه لشيخ المنطقة التى هى بها حتى تسترد نشاطها [4] • وقد بلغت المسافة التى كانت تقطعها المواشى أربعا وتسعين محطة ، كانت المواشى تقطع خلالها أربعمائة واثنين وثمانين ساعة ، وكانت أول محطة بالسودان تسمى « الترعة »

---

(١) دفتر رقم ١٩٩ معاونة اقاليم — صورة ترجمة المكاتبة رقم ٤٥١ بتاريخ ٢١ ذى القعدة سنة ١٢٥٨ هـ من شورى المعاونة الى عيسى افندى .
انظر ايضا : دفتر رقم ٣٧٨ معية تركى — وثيقة رقم ٣٦٤ بتاريخ ٢٠ شوال سنة ١٢٦٠ ، ارادة الى متعهد الصوالح ، انظر ايضا : ٣٦٩ معية تركى . وثيقة رقم ٣٦٤ ١٧٨٣ بتاريخ ١٦ ذى الحجة سنة ١٢٥٩ هـ . ارادة الى مدير الخرطوم ، أنظر أيضا : دفتر رقم ٣٧٨ معية تركى — ترجمة الارادة التركية رقم ٩٠٤ بتاريخ ٢١ صفر سنة ١٢٦١ هـ . ارادة الى مدير الجيزة والوجه القبلى والأقاليم الوسطى . دار الوثائق القومية بالقلعة .
(٢) حسن احمد ابراهيم : المرجع السابق . ص ١٤١ — ١٤٢ .
(٣) دفتر رقم ٨٤ معية تركى — ترجمة الوثيقة رقم ٣٠٩ بتاريخ ١٤ صفر سنة ١١٥٣ هـ . وايضا : حسن احمد ابراهيم : المرجع السابق ص ١٤٢ .
(٤) دفتر رقم ٨٥ معية تركى — ترجمة الأمر رقم ١١٠ بتاريخ ٢٠ ذى القعدة سنة ١٢٥٢ هـ .

وآخر محطة هى « غرب أســوان » (١) •

من ذلك كله يتبين لنا عظم الدور الذى كانت تلعبه هذه المواشى فى النشــاط الاقتصادى بمصر وخاصة فى عهد محمد على ، ومقدار الجهود التى بذلت لوصول هذه الأداة الانتاجية • ويبدو أنه فى أواخــر القرن التاسع عشر بدأ يقل ورود هذه المواشى كما تشــير بذلك الوثائق بشكل واضح حيث لا نقرأ أية خطابات حول ارسالها لمصر ، بل نقرأ وثيقــة تعلن صراحة انتهاء هذه المهمة (٢) • والتفســير المقبــول لانتهاء هــذه المهمة آنذاك هو اكتفاء مصر بما أرسل من هذه الحيوانات ، خاصــة إذا علمنا أن الآلاف منها كان يصــل سنويا منذ عام ١٨٢١ وبشكل منظــم كما لاحظنا • بل ان هناك وثيقة تشير الى أن عــدد المواشى السودانية التى تساق يوميا من « •• أصوان الى الجهات السفلى يتراوح عــددها بين مائة وستين ومائتين رأس من المواشى ••• » (٣) فلذلك نحن نميــل الى هــذا التفسير سالف الذكر •• وربما يذهب البعض فى تفســير ذلك الى نضوب المعين أو العقبات التى كان يصادفها القائمون على ارســالها الى مصر وغير ذلك • ولكن محمد على بما عرف عنه من همــة وعزيمة لم تكن لتقف أمامه مثل هذه الأسباب • وليس معنى ذلك كله انقطــاع ارسال هذه المواشى كلية ، فقد وصلت أعداد منها الى مصر خلال عهود خلفاء محمد على ولكن بشكل غير منظم وقليل جدا وليس كما كان الحال فى عهد محمد على •

ولم يقتصر ارسال الحيوانات على الأبقار فقط ، بل استوردت مصر

---

(١) محفظة ١٩ بحــر برا — ملف رقــم ١١ . دار الوثائق القــومية بالقلعــة .

(٢) دفتر رقم ٤١٢ — معية ســنية — مكاتبة رقــم ١٧٥٣ بتاريخ ٢٤ جمادى الثانية سنة ١٢٦٣ هـ . من المعية الى مدير الجنالك . دار الوثائق القومية بالقلعــة .

(٣) دفتر رقم ٣٩٢ — معية تركى — وثيقة رقم ١١٤٨ بتاريخ ١٩ ربيع الثانى سنة ١٢٦٢ هـ . خطــاب الى مدير الوجه القبلى .

الجمال من السودان • فقد لعبت الابل دورا هاما فى حملة السودان عام ١٨٢٠ حيث قامت بنقل المعدات والأمتعة ، كما استخدمت كدواب للركوب • واستمرت الابل تؤدى دورها سواء فى نقل البضائع عبر مفازات السودان ، أو فى الدوريات الصحراوية على حدود البلاد • بالاضافة الى أعمال الزراعة ، فقد كان محمد على يطلب امداده بعدد منها للعمل فى « الجفالك » وخاصة فى نقل المحاصيل (١) • كذلك فقد كانت مصر تشترى بعضا من أنواع الخيول السودانية وخاصة ما اشتهرت به بعض المناطق فى النوبة كدنقلة مثلا • ولكن هذا النوع من الحيوانات كان استعماله الرئيسي قاصرا على الجيش (٢) •

وبالاضافة الى ذلك كله فقد كانت مصر تستورد بعضا من الحيوانات البرية كالزراعة والخرتيت والفيل والغزال والطيور البرية (٣) • ويبدو

---

(١) دفتر رقم ١٨٨ — معاوية اقاليم — مكاتبة رقم ١٣١٨٣ بتاريخ ١٤ جمادى الأولى سنة ١٢٥٧ هـ . من شورى المعاونة الى حكمدار السودان .

انظر ايضا : دفتر رقم ٣٦٩ معية تركى — وثيقة ٤٣٨٨ بتاريخ ١٩ شعبان سنة ١٢٥٩ هـ. دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ٢٦٢ صادر ديوان الكتخدا — وثيقة رقم ٣٩ بتاريخ ٢٥ ذى القعدة سنة ١٢٦٧ هـ . الى البك المهردار . انظر ايضا : دفتر رقم ٦٧ معية عربى — صورة المكاتبة العربية رقم ٨ ص ٣١ بتاريخ ٢١ ذى القعدة سنة ١٢٦٧ هـ . من المعية السنية الى ديوان الجهادية ، أيضا : دفتر رقم ١٣ صادر معية عربى — صورة المكاتبة العربية رقم ٣١٢ ص ٨٦٢ بتاريخ ١١ شعبان سنة ١٢٦٧ هـ . من المعية الى الجهادية وانظر كذلك محفظة رقم ٧ معية تركى — وثيقة رقم ٢١٨ ص ١٩ بتاريخ ٢٤ ذى القعدة سنة ١٢٧١ هـ — من حكمدار السودان الى كاتب ديوان الخديوى .

(٣) انظر الوثائق الآتية : — دفتر رقم ٨ وارد تليغرافات عابدين — صورة التلغراف العربى رقم ٥٩ ص ٦٧ . بتاريخ ١٧ رجب سنة ١٢٨٥ هـ . من حكمدار السودان الى مهر دار الخديوى ، نفس الدفتر . تليغراف عربى رقم ٥٩٦ ص ٧٤ بتاريخ ليلة شعبان سنة ١٢٨٥ هـ . من محافظ السويس الى سعادة رياض باشا ، ونفس الدفتر تليغراف رقم ١٠١٠ ص ١٢٩ بتاريخ ١٩ رمضان ١٢٨٥ هـ . من مدير المنيا الى سعادة خيرى بك . ، دفتر رقم ٩ عابدين وارد تليغرافات — صورة التلغراف العربى رقم ٤٦٢ ص ٦٦ بتاريخ ليلة غرة محرم ١٢٨٦ هـ . من مدير اسنا الى سعادة رياض باشا . ، أيضا : دفتر رقم ١١ عابدين — وارد تليغرافات — صورة التليغراف العربى رقم ١٥٠٨ من الخاصة الى سعادة زكى باشا بتاريخ ٤ جمادى الأولى سنة ١٢٨٧ هـ . دار الوثائق بالقلعة .

أن الاهتمام بارسال مثل هذه الحيوانات والطيور كان يلقى اهتماما فى عهود خلفاء محمد على أما محمد على فلم يكن يحفل بها ، بل كان همه الكبير يتجه نحو حيوانات الانتاج .

تجارة الرقيق :

كان الرقيق القادم من الأراضى السودانية واحدا من السلع الهامة التى وجدت طريقها الى مصر حيث استخدمت أعداد لا بأس بها فى زراعة « الجفالك » المنتشرة فى الوجه البحرى على وجه الخصوص (١) .

وبالرغم من تعدد مصادر الرقيق السودانى الى مصر ، فان الجهات الغربية للسودان كدارفور وكردفان كانت هى المصدر الرئيسى لهذه السلعة الآدمية . وكانت القافلة القادمة من دارفور حتى أسيوط تستغرق نحوا من أربعين الى خمسين يوما فى سفرها بالطريق البرى (٢) وأما قوافل سنار فكانت تصل الى بربر فى نحو ستة أيام ثم تأخذ طريق النيل حتى تبلغ دراو بأسوان فى أربعين يوما . ويمكن لهذه القافلة أن تجتاز الصحراء فى زمن أقل بادئة من بربر . وأما قوافل دنقلة فتسير عادة فى نهر النيل ، ويلاحظ على هذا الطريق الأخير قلة الأعداد التى كانت تحملها السفن (٣) .

ويقدر البعض أعداد الرقيق التى كانت تصل الى مصر سنويا

---

(١) دفتر رقم ٤١٩ معية تركى — وثيقة رقم ٥٨٨٩ بتاريخ ٣ جمادى الثانية عام ١٢٦٣ هـ . من حكمدار السودان الى المعية . انظر ايضا : دفتر رقم ٦٩ وارد معية ، صورة المكاتبة العربية رقم ٣ بتاريخ ١١ ربيع الثانى سنة ١٢٦٧ هـ . من قلم الجفالك بالمالية الى المعية السنية . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) تقرير بورنج اعتمادا على تقرير هولرويد عن الدكتور محمد فؤاد شكرى : بناء دولة ص ٧٥٤ ، انظر ايضا دفتر رقم ٥٠ عابدين وارد تليغرافات صورة التلغراف العربى رقم ٣٤٨ بتاريخ ٢٠ أغسطس سنة ١٨٧٨ . من غور دون باشا الى سعادة خيرى باشا بالاسكندرية .

(٣) نفس التقرير السابق ص ٥٥٤ .

بين عشرة آلاف الى اثنى عشر ألفا حتى عهد محمد على (١) • وقد عدت أسيوط — آنذاك — أعظم سوق لتجارة الرقيق القادم الى مصر حيث وفدت اليها أعداد كبيرة من دارفور وسنار كما كانت هذه السوق تمد القاهرة وسوريا وتركيا مما تحتاجه من هذه السلعة (٢) •

وكانت هذه السلعة وهى فى طريقها الى مصر تلقى الكثير من المشاق • ففى واحد من التقارير التى بعثت بها القنصلية العامة للولايات المتحدة عام ١٨٧٨ بمصر نقرأ وصفا لاحدى قوافل الرقيق التى سلكت طريق الأربعين الى أسيوط ، من حيث الأخطار التى تتعرض له فى الطريق ، بالاضافة الى سوء المعاملة التى لقيها هؤلاء الرقيق • فقد بيع أحدهم — خلال الطريق — ثلاث مرات ، كما تعرض آخر للموت لحظة سقوطه من على الجمل وثالث ربط الى جزع شجرة لأنه طلب شربة ماء أثناء سير القافلة ، ورابع كان مصيره الرمى بالرصاص (٣) •

وربما يكون فى هذا الوصف شىء من المبالغة ، خاصة اذا علمنا أن التاجر الذى كان يجلب هذه السلعة كان يعنيه تماما أن يحافظ عليها سليمة حتى تصل الى السوق ، أما اذا تعرضت خلال الطريق للمرض أو الوفاة فهذا يعنى الخسران المبين للتاجر •

وتجدر الاشارة الى أن هذه التجارة لم تكن ذات فائدة كبيرة بالنسبة لمصر ، خاصة ابان عهد محمد على ، إذ كانت دائما عرضة للكساد سواء من ناحية الأمراض أو الموت عبر الطريق ، بدليل أن محمد على لم يحتكر هذه السلعة بل تركها حرة لسائر التجار (٤) •

---

(١) نفس التقرير • ص ٥٥٦ •
(٢) نفس التقرير • ص ٥٥٤ •
(٣) الأرشيف الأمريكى بدار الوثائق بالقلعة — محفظة رقم ١٤ ، رسالة من القنصل فارمان •

Desp. No. 235, Agency and consulate General of U. S. in Egypt. Cairo, June, 1878. Hon. W. M. Ekarts, Secy. of State, Washington.

(٤) Shukry; Khedive Ismail and the Slavery in the Sudan. p. 76.

وقد اكتظت أسواق القاهرة بالرقيق السودانى وهبطت أسعارهم فى ذلك الوقت • فقد ورد بتقرير بورنج على لسان أحد تجار الرقيق بكردفان ان الرقيق الواحد كان يكلف التاجر حتى وصوله القاهرة حوالى ستة جنيهات استرلينية ، بينما يباع بعد هذه المشاق بأقل من هذا المبلغ (١) • ومع ذلك كله ، ورغم كل اللوائح والقوانين والنداءات الأوربية فى وقف هذا التجارة ، فقد ظلت مستمرة بين مصر والسودان على المستوى الفردى بعيداً عن أعين الحكومة (٢) •

أما أهم السلع التى كانت تصدرها مصر الى السودان فكانت الأقمشة المختلفة وأهمها المعروف باسم القطنى و « الأجا » والأقمشة الكتانية من أسيوط ، واللباد الذى يوضع تحت سروج الخيل والقمصان التى تستخدم كدروع واقية والملح والأرز والسكر • كذلك فقد دخلت السلع الأوربية الى السودان عن طريق مصر مثل الكهرمان والآلات القاطعة كالأمواس والسيوف وبعض الصناعات كأسلاك الحديد والنحاس وبعض أدوات الزينة والورق ، بالاضافة الى بعض السلع من بلاد الشام كالصابون والمصنوعات الحريرية (٣) •

وتشجيعا للتجارة بين مصر والسودان حقق محمد سعيد خطوات

---

(١) تقرير بورنج السابق • ص ٥٦٢ •

(٢) دفتر رقم ٧٢١ قيد الأوامر واللوائح بديوان خديوى ، صورة المكاتبة رقم ١٠٦ ص ١٣ بتاريخ ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٧١ هـ ، وايضا : دفتر رقم ١٠٥٤ ، صادر نظارة المالية الى الدواوين ، وثيقة رقم ٢٦٨ بتاريخ ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٧١ هـ • الى جمرك اسوان ، وانظر ايضا : محافظ السودان ، مجلس الوزراء — رقيق — صورة ما تحرر من نظارة الداخلية الى حكمدار السودان فى ٨ ج سنة ١٢٩٧ هـ رقم ٣١ • وانظر ايضا : نص معاهدة منع تجارة الرقيق المبرمة بين الحكومة المصرية والحكومة الانجليزية فى ٤ اغسطس عام ١٨٧٧ م ، وكذلك لائحة تنفيذ قرار الغاء الرقيق فى السودان الموجودتين بكل من : محفظة اللوائح ، ومحفظة ١٦٢ عابدين ، محفظة رقم ٦ من الوثائق الافريقية بدار الوثائق القومية بالقلعة ، والوقائع المصرية العدد رقم ٧٣١ بتاريخ ٤ شوال سنة ١٢٩٤ هـ (١١ اكتوبر ١٨٧٧ م) ص ٣ ، ٤ •

(٣) نسيم مقار : المرجع السابق ص ٣٥٩ •

واسعة فى هذا المضمار حيث ألغى الضرائب الجمركية داخل السودان تماما وخفض الرسوم المتحصلة على المتاجر المصدرة من السودان الى خارجه فأتاح ، بذلك ، حرية التجارة وسهولة حركتها بين البلدين مما حدا بقنصل النمسا فى مصر ويدعى هوبر Huber الى القول : « ... إن البضائع الواردة من النوبة ودنقلة والخرطوم وسنار وكردفان وفازوغلى أصبحت تعتبر بضائع مصرية فلا يدفع عنها رسوما على الاطلاق ، ولا يفرض عليها أى شىء طالما كانت تستهلك فى داخل البلاد » (١) . وبالاضافة الى ذلك فقد أمر محمد سعيد بجباية « رسوم امرارية » طفيفة على البضائع الآتية عن دائرة النفوذ المصرى — اذا كانت فى طريقها الى خارج البلاد (٢) . كما أرسل محمد سعيد الى السودان نسخة من قوانين مجلس التجار الجارى العمل بها فى مصر للعمل بمقتضاها أثناء الفصل فى الدعاوى التجارية التى تنشأ بين التجار وبعضهم أو بينهم وبين الحكومة (٣) ويبدو أنه قد جرت فى عام ١٨٦٢ محاولة لتأسيس بنك يقوم بتمويل العمليات التجارية فى السودان وتم تسجيله بالقاهرة إلا أنه فشل فى عام ١٨٧٣ نظرا لسوء الادارة (٤) .

وإبان زيارة محمد سعيد للسودان عمل على الاتصال بسلطان دارفور عن طريق الكتابة اليه وابداء رغبته الأكيدة فى « تواصل التجارة ، سواء مع مصر أو مع بقية المديريات السودانية » (٥) .

---

(١) محفظة رقم ١ (موضوع التجارة) ١٢٤٢ — ١١٦٢ من محفظة رقم ٦ محفوظات ديوان التجارة والمبيعات بتاريخ ٢٤ شوال سنة ١٢٥٧ هـ . من الجناب العالى الى الباشمعاون . دار الوثائق القومية بالقلعة وانظر ايضا : شكرى : الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ — ١٨٨٥ . ص ٥٤ .

(٢) نفس المرجع . ص ٥٤ .

(٣) Hill; op. cit. pp. 97-98.

(٤) Ibid, p. 99.

(٥) محفظة رقم ١٠٢ — قسم الوثائق الافرنجية — ملف بتاريخ سنة ١٢٧٤ هـ صورة الوثيقة العربية رقم ١٣ ص ٥٧ بتاريخ ٢٨ ربيع الأول سنة ١٢٧٤ هـ من دفتر رقم ١٨٨٩ دواوين . أمر كريم الى سلطان دارفور .

لذلك فقد كان سلطان دارفور حريصا على وجود مندوب تجارى دائم يقيم بأسيوط نقطة وصول قافلة دارفور عبر درب الأربعين (١) •

واستمرت تلك الجهود فى عهد اسماعيل للارتقاء بالتجارة بين مصر والسودان ، فعقب توليه راح يبعث خطابات الود الى سلطان دارفور لزيادة حجم التجارة بين البلدين (٢) كذلك فقد عمل اسماعيل على تأسيس شركة تجارية فى يونية ١٨٦٣ سميت « شركة السودان » وبلغ رأسمالها خمسين مليونا من الفرنكات ، وكانت تهدف الى تنمية موارد السودان وادخال التجارة المشروعة فى الأقاليم التى لم تكتشف بعد • وقد أسهمت فى تأسيسها خمسة بيوت تجارية مصرية من الاسكندرية بمبلغ ثمانية وثلاثين مليونا من الفرنكات واكتتب بالباقى مصرف (الكريدى انترناسيونال) واتخذت الشركة إسما آخر هو (الشركة المصرية التجارية) • The Egyptian Commercial Trading Co.

ولقد فتحت أبوابها للممولين من لندن وباريس وفرانكفورت ، ومن شركة اوبنهايم وبيت « درفيو » بالاسكندرية • وأصبح لها برنامج واسع ، فقد كان اسماعيل يريد أن يصدر الى مصر سلعا تجارية كالحبوب والبن والسكر والأخشاب الى جانب السلع القديمة كالعاج وريش النعام (٣)• ومن مظاهر اتساع الحركة التجارية بين مصر والسودان انشاء البيوت التجارية العديدة أمثال بيت السيد أحمد العقاد ،

---

(١) محفظة رقم ٣ مديريات تبلى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤٧٥ بتاريخ ١١ رمضان سنة ١٢٧٥ هـ • من محمد سعيد والى مصر الى صاحب العزة مدير اسيوط •

(٢) امين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل • مجلد ٢ جزء ٣ • ص ٥٥٩ •

(٣) شكرى : المرجع السابق • ص ١٥ • شوقى الجمل : تاريخ سودان ج ٢ • ص ١٣٠ •

و « أبو عموری » ، وفرج الله الموصلی ، وغطاس وغيرهم والتی وصل عددها فی عصر اسماعيل الی نحـــو ثلاثة آلاف بيت مقــابل ألف بيت للاوربيين (١) .

(١) عبد الله حسين : الســـودان من التاريخ القديم الی رحلة البعثة المصرية . الجزء الأول ص ١٥٥ ، أنظر ايضا : الرافعی : عصر اسماعيل . الجزء الأول . ص ١٦٤ .

القسم الثانى

التجارة الخارجية

طرقها :

لم تقتصر التجارة السودانية على النطاق المحلى فقط ، ولكنها تعدت هذا النطاق الى العالم الخارجي وخاصة مع الحبشة ، وبلاد العرب وما جاورها ، وشمال أفريقيا .

وقد سلكت التجارة السودانية الى الخارج دروبا عدة قسمت الى ثلاثة أقسام على أساس المنفذ الذى يأخذه كل اقليم لتصدير تجارته عن طريقه الى العالم الخارجى .

فالاقليم الأول يضم النيلين الأبيض والأزرق وفروعهما ، والجزء الشرقى من كردفان ويرتبط هذا الاقليم بمصر عن طريق وادى النيل ، والبحر الأحمر بطريق بربر سواكن (١) .

وهذا الاقليم أو الطريق توجد به أغنى منطقة لانتاج الحبوب فى السودان ، والتى تقع جنوبى سنار وترتبط بسواكن بطريق القوافل الذى يمر بالقضارف . وتعتبر الخرطوم المركز الرئيسى لهذا الاقليم . وأهم متاجره العبيد والذرة والصمغ والعاج وريش النعام وجلود أفراس النهر وقرون الخرتيت والشمع والعسل والملح والتمر هندى والسنامكى ، والمسك والنيله (٢) .

---

(١) دفتر رقم ٥٥٨٢ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية (بدون نمره) ص ٢٦ بتاريخ ٢٨ جمادى الآخرة ١٢٨٢ هـ . ارادة سنية الى وكيل حكمدارية السودان . وانظر ايضا : محافظ ابحاث السودان — محفظة رقم ١٧ ، دفتر رقم ١٧ ، دفتر رقم ٢ ، وثيقة من جعفر مظهر باشا وكيل السودان الى مهردار الحضرة الخديوية بتاريخ ٢٧ جمادى الاولى سنة ١٢٨٢ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) أحمد أحمد سيد : تاريخ مدينة الخرطوم . ص ١٢٢ ، وانظر ايضا : الشاطر بصيلى : تاريخ المواصلات . ص ٨ ، وايضا مكى شبيكه : السودان فى قرن . ص ١٣٥ .

والاقليم الثانى يضم دارفور وغربى كردفان • وهذا الطريق يتصل بمصر بطريق درب الأربعين الذى يعد أيضا طريقا لخروج متاجر واداى وباجرمى وبرنو وغيرها من الجهات الواقعة غرب دارفور الى العالم الخارجى • ومن أهم ما حملته القوافل عبر هذا الطريق العبيد والصمغ وريش النعام والعاج والأبنوس والجلود • وتقدر هذه المتاجر بمائة ألف قنطار سنويا ، إلا أن حجم هذه التجارة قد هبط فى أواخر الحكم المصرى حين سد طريق الأربعين فى وجه تجارة الرقيق الى مصر • ويشير البعض الى تحول الكثير من تجارة واداى وباجرمى عن هذا الطريق الى طريق آخر يمتد من بحيرة تشاد الى مرزوق عاصمة فزان ثم طرابلس ، وذلك من جراء الهلع الذى أصاب سلاطين تلك الجهات من امتداد الحكم المصرى اليهم عقب ضم دارفور الى السودان عام ١٨٧٤ (١) • وقد يكون هذا التفسير صحيحا الى حد بعيد ، ولكننا نود أن نؤكد من ناحية أخرى ، ان محمد على وخلفاءه كانوا حريصين على الاتصال التجارى بتلك الجهات القريبة للسودان ، من خلال الرسائل التى كانوا يبعثون بها الى أولئك السلاطين مؤكدين من خلالها على احترامهم لحرية التجارة وانتقالها بين الطرفين • فازورار التجارة هنا عن درب الأربعين ليس مبعثة محمد على أو خلفاؤه بقدر ما كان نتيجة لحركة مناهضة تجارة الرقيق وضغط انجلترا الشديد لتنفيذ بنودها •

أما الاقليم الثالث فكان يضم الحبشة والمناطق المحيطة بها • ويرتبط هذا الاقليم بالبحر الأحمر عن طريق ميناء مصوع • وكانت تجارة الرقيق والبن والشمع والعسل من السلع والمنتجات التى سارت عبر هذا الطريق • وإذا حاولنا أن نعقد مقارنة بين حجم التجارة التى تمر عبر كل طريق من هذه الطرق الثلاثة لتبين لنا أن الطريق الأول كان يفوقها جميعا من حيث عدد القوافل والرجال الذين يعملون فى تلك المتاجر •

---

(١) أحمد أحمد سيد : المرجع السابق . ص ١٢٣ .

التجـارة مع الحبشــة :

من الطبيعى أن ينشــأ نوع من التبادل التجــارى بين الســودان والحبشة بسبب الجوار وتداخل الحدود والسكان • وكان اقليم سـنار ، الواقع على النيل الأزرق الذى ينبع من الحبشة ، من أكثر أقاليم السودان ارتباطا بالحبشة حيث يعد المنفذ الرئيسى لتجارة هذه الدولة الافريقية مع جهات الســودان الأخرى مثل دارفور وكردفان بل ومصر أيضــا • ولقد أكد الرحــالة الذين زاروا هذه البــلاد على استمرار مثل هــذه العلاقات التجارية بين السودان والحبشة • فالرحالة فالنتيــا Valintia الذى زار الحبشة فى أوائل القــرن التاسع عشر يؤكد استمرار حــركة القوافل التجارية بين الحبشة ودارفور (١) • وكذلك الرحالة بوركهـارت الذى أشار الى أن طريق القوافل بين سنار وجوندار بالحبشة — ابان رحلته بين عامى ١٨١٣ — ١٨١٤ — كان يؤمه الكثير من تجــار ســنار وتجار الحبشــة الذين أســماهم « بالجبرت » • وكان هؤلاء التجــار يعملون بتجــارة الرقيق والذهب ويلتقون فى مكان على منتصف الطريق بين البلدين على مسيرة أربعة أيام تقريبا من سنار ويسمى « رأس الفيل » حيث يتم تبادل السلع بين تجار سنار وتجار الحبشة (٢) • كذلك فقــد كانت مدينة « شلقا » Chiga على الحدود المشــتركة بين ســنار وجونــدار من أهم المراكز التجارية التى التقى فيها تجار البلدين لبيع الرقيق والذهب والماشــية وغــيرها • وكان تجار ســنار يصدرون الى الأحباش الملح الذى يحصلون عليه من شندى بالاضافة الى الأقمشــة القطنية « الدمــور » (٣) •

وفى عهد محمد على وعقب ضم السودان الى مصر تأثرت التجارة

---

(١) نسيم مقار : المرجع السابق • ص ٢٦٣ •
(٢) بوركهارت : المصدر السابق • ص ٢٤٠ •
(٣) نسيم مقار : المرجع السابق • ص ٢٦٤ •

بين الحبشة والسودان بالظروف والنظم الجديدة التى وضعها الباشا وخاصة نظام الاحتكار التجارى ، بالاضافة الى العلاقات السياسية بين « رؤوس الأحباش » وبين محمد على والتى اتسمت بالحذر والترقب حيث يذكر بورنج فى تقريره أن نزاعا شديدا كان قد نشأ بين الطرفين بسبب امتلاك محمد على لمنافذ الحبشة (١) . فمن المعروف أن السلطان العثمانى كان قد منح لابراهيم باشا ايالة جدة وملحقاتها التى هى سواكن ومصوع منفذ الحبشة الرئيسى الى البحر الأحمر ، والجزء الممتد على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر بما فيه الأراضى الحبشية التى تطل عليه وذلك فى يولية عام ١٨٢٠ مكافأة له على انتصاره على الوهابيين فى الجزيرة العربية ، ومعروف أيضا ان انجلترا قد وقفت بالمرصاد لمحمد على فى نزاعه مع الحبشة ، وهددت بأن دول أوربا لن تسمح بأى اعتداء على الحبشة البلد المسيحى . وفى ظننا أن وقوف انجلترا فى جانب الحبشة لم يكن إلا مسألة ظاهرية وتكأة لحماية مصالحها الحيوية فى البحر الأحمر التى بدأ محمد على يهددها ، ومنها أيضا ما يتصل بالحبشة نفسها التى بدأت انجلترا تسعى لاقامة علاقات تجارية معها بارسالها فالنتيا فى أوائل القرن التاسع عشر لأجل هذا الغرض .

كذلك فقد استطاع محمد على فى عام ١٨٤٦ أن يضم ميناء مصوع منفذ الحبشة — الى ادارته فى السودان ، ومن قبل كان قد ضم « القلابات » و « عطيش » عام ١٨٣٧ أيام خورشيد باشا حكمدار السودان ، وهى مناطق تقع على حدود الحبشة ، الأمر الذى جر الطرفين الى سلسلة من المنازعات فيما بينهما حيث لم يسلم الأحباش بضم هذه المناطق للسودان . وبناء على ذلك فقد ردوا بأن لهم الحق فى جمع الضرائب من أهلها ، إلا أن الادارة المصرية عارضت ذلك تماما . ونضيف

---

(١) تقرير بورنج السابق . ص ٥٨٩ ، وانظر ايضا :

F. O. 78-589. Aden, 18th. March, 1844. Copts Bttains Pol. Agent at Aden to J. P. Willough by Chief Secretary to Gov. t Bomby.

الى هـذا العـوامل التى أدت الى توتر العـلاقات بين الطـرفين زمن محمد على ، ما حدث عقب مقتل اسماعيل كامل نجل محمد على وما تلاه من فرار « الملك » نمر وجماعة من أنصاره الجعليين الى حدود الحبشـة وأصبحوا بذلك حجر عثره أمام طريق التجـارة الرئيسى من السـودان والحبشة والذي يمر عبر القلابات (طريق جوندار ـ سنار) • وهـكذا كانت تلك العقبات ذات تأثير سيء فى العلاقات التجارية بين البلدين •

ومع ذلك كله فقـد حاول أحـد التجـار الفرنسيين « فـزير » Vizire ـ بعد موافقة محمد على ـ أن يجلب عدة مقادير من البن الحبشى عن طريق السودان قدرت بحـوالى ٢٠٫٠٠٠ رطل سـنويا ، وجنى من ورائها أرباحا طائلة ، الأمر الذى جعل محمد على لا يجـدد موافقته له فى هذه التجارة وفضـل أن يحتكرها لنفسه ، ولكن النتيجة كانت نقصا بينا فى واردات هـذه السلعة وارتفاعا باهظـا فى أسعارها بالسودان • وربما أراد الأحباش ألا يفيد محمد على من تجارتهم بسبب العداوة بينهمـا (١) •

ويبدو أن الطرفين رغبـا فى ازالة ما حـدث بينهما حتى تستأنف التجارة بين البلدين ، فتوسط شيوخ السودان فى هذا الأمر ، وتبودلت المكاتبات والهـدايا (٢) • ويمـكن اعتبـار زيارة محمد على للسـودان (١٨٣٨ / ١٨٣٩) محاولة لعودة العـلاقات التجارية بين السـودان والحبشة • فقد أسفرت هذه الجهود عن فتح سوق عام فى اقليم القلابات

---

(١) Deherain, H; Le Soudan Egyptien Sous Mehemet Ali pp. 177-78.

(٢) انظر الوثائق الآتية : محفظة رقم ٢٦٨ عابدين ـ ملف السودان ـ وثيقة رقم ١٩ أصلية نمرة ٦١ حمراء بتاريخ ٢٣ ربيع الاخر سنة ١٢٥٥ هـ . من أحمد باشـا حكمدار السودان الى الباشمعاون الخديوى بتاريخ ٢٣ ربيع الآخـر سـنة ١٢٥٥ هـ . ، محفظة رقم ١٢٣ عابدين ـ ملف متفرقات ـ دوسيه بدون تاريخ ـ السودان سنة ١٢٥٤ ـ رحلة سـاكن الجنـاب ، وأيضا محفظة رقم ١٩ بحر برا صـورة الوثيقة رقم ٤٣ بتاريخ جمادى الأولى سنة ١٢٦٠ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

للاشراف على حركة التجارة وأصبح يقيم فيه وكيل مشــترك لكل من الحكومة المصرية والزعيم الحبشى الذى كان يحكم مقاطعة (مكادى) المتاخمة لاقليم القلابات . وانحصرت مهمة هذا الوكيل فى تحصيل الرسوم والعوائد الجمركية فى هذه المنطقة ، والتى رغب الطــرفان فى أن تكون رسوما رمزية تشجيعا للتبادل التجــارى بين الطرفين ، شريطة أن يتم تقسيم الايراد الناتج عن هذه الرسوم مناصفة بين الطرفين (١) .

وقد اشتهر سوق القلابات منذ ذلك الوقت وأصبح له شأن كبير فى تاريخ العلاقات التجارية بين السودان والحبشة (٢) .

وطبقا لهذه السياسة الجديدة بدأت الحركة التجــارية تنمو بــين البلدين فتم فتح طريق للتجارة بين فيزوغلى والحبشة فى عهد الحكمدار أحمد باشا ، وبدأت القوافل تســير فيه (٣) .

وفى عهد محمد سعيد باشا جرت محاولات من لدنه لدفع العــلاقات التجارية بينهما الى الأمام ، فأرســل أثناء زيارته للســودان برسالة الى ملك الحبشة يعبر له فيهــا عن المودة وحسن الجــوار و « ... صــلة المصــالح التجــارية التى هى أقــوى صــلة بــين أعضــاء العــائلة البشرية .. » (٤) .

وفى مستهل عهد الخديوى اسماعيل استمرت محاولات مد الجسور وتدعيمها بين البلدين خاصة فى المجال التجارى ، ولكن يبدو أن حــدوث

---

(١) محفظة رقم ٢٦٥ عابدين — ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥ مسلسل ٣١ اصلى بتاريخ ١٣ ربيع الآخر سنة ١٢٥٤ هـ . وايضا : دفتر رقم ١٨٩ معاونة اقاليم — مكاتبة رقم ٧٥١ بتاريخ ٢١ شــوال سنة ١٢٥٧ هـ . من الجناب العالى الى حكمدار السودان .

(٢) نعوم شقير : المرجع السابق . جـ ٣ . ص ٢١ .

(٣) محفظة رقم ٢٦٨ عابدين — ملف السودان . الوثيقة السابقة .

(٤) دفتر رقم ١٨٨٦ — اوامر عربى — صورة الوثيقة العربية رقم ١٣ ص ١٠ بتاريخ ٩ جمــادى الأولى ســنة ١٢٧٣ هـ . أمر كريم الى ســلطان الحبشــة .

بعض المنازعات بين الطرفين قد عكر صفو العلاقات • ففى عهد الحكمدار موسى حمدى (١٨٦٣ / ١٨٦٥) اعتدى الأحباش على حدود السودان واستطاعوا أن يستميلوا بعضا من العربان اليهم ولكن هذا الحكمدار استطاع أن يعيدهم الى سيرتهم الأولى ، وزيادة على ذلك قام بتحصين القلابات وفرض جزية سنوية عليها بلغت ٢٤٠٠٠ ريال • ولما كان بعض مشايخ الحدود يدفعون الجزية لملك الحبشة من قبل ، منعهم من ذلك وأصبحوا يدفعونها لحكومة السودان • ومع ذلك كله استمرت التجارة تفد من الجانبين الى سوق القلابات • فمن الحبشة كان يرد الرقيق وبعض الحيوانات كالبغال بالاضافة الى البن والذهب (١) •

وفى المقابل كانت الحبشة تتلقى الأنسجة والأردية والسروج والخيل الدنقلاوية • ولكن ينبغى أن نشير هنا الى أن شيخ عربان رفاعة الشرق فى تلك المنطقة قد فرض جزية على واردات السودان فى سوق « وهناى » (٢) •

وفى أغسطس عام ١٨٧٥ حاول ملك الحبشة منع دخول البضائع الحبشية الآتية من « عدوة » الى مصوع فثار التجار غضبا ، وأمام ذلك وافق الملك على فرض رسوم مضاعفة على البضائع المتجهة الى مصوع ، فمنهم من قبل ومنهم من رفض •ونتيجة لهذا كله طلب محافظ مصوع من المسئولين بمصر سرعة التدخل لرفع الضرر الذى أصاب التجار بسبب تصرفات ملك الحبشة ، واقترح هؤلاء التجار على الحكومة المصرية ارسال قوة عسكرية لعلاج هذا الموقف (٣) •

---

(١) الأرشيف الفرنسى بدار الوثائق القومية بالقلعة — محفظة رقم ٥٩ :
Annex No. I. à la lettre de M. Outrey, du 19 November; 1865. M. Munzinger Grant du Vice-Consulate de France à Mussaoue à M. Outerey, Agent et consul general de France a Alexandrie. p. 1169.

(٢) نعوم شقير : المرجع السابق • جـ ٣ ص ٣٣ ، ٣٤ •

(٣) دفتر رقم ٣٣ عابدين — وارد تلغرافات — صورة التلغراف العربى الشفرة رقم ٩٧ ص ١٦ بتاريخ ٩ شعبان ١٢٩٢ هـ • من محافظ مصوع الى سعادة خيرى بك •

وقد جرت فى أواخر شهر مارس عام ١٨٧٧ محاولة من جانب اسماعيل لعقد اتفاقية مع ملك الحبشة [١] • وقد ركزت هذه الاتفاقية على موضوع التجارة وضرورة تسهيل مرورها بين السودان والحبشة • وقد انتهز الخديوى فرصة طلب ملك الحبشة لبعض القوات المصرية — التى لم تفصح الوثيقة عن الغرض من ارسالها — فعرض بعض الشروط لاستمرار العلاقات الطيبة بين البلدين (السودان — الحبشة) ومن أهم شروط هذه الاتفاقية : أولا : منع التجارة فى الرقيق • ثانيا : اطلاق حرية المعاملات التجارية وعدم وضع قيود تحد من حرية حركتها ، واقترح فى هذا البند عدم تحصيل أية جمارك أو ضرائب على البضائع التى تصدر الى الحبشة من لدن السودان ، فى مقابل عدم أخذ أية مبالغ عن نفقات الجنود المرسلة للحبشة • ثالثا : زيادة حجم التبادل بين الطرفين والترخيص لكل من يرغب من التجار المصريين أو السودانيين بالتوطن فى الحبشة والقيام بالتجارة والسياحة والمحافظة على أرواحهم ، مع ضرورة بذل الجهود للمحافظة على سلامة التجارة فى الطريق بين البلدين [٢] •

وهناك بنود أخرى لا تتعلق بأمور التجارة تناولها مشروع هذه الاتفاقية • ويبدو من سلسلة الأحداث العسكرية المعروفة التى جرت فى عهد اسماعيل بين الحبشة ومصر ان هذه الاتفاقية لم توضع موضع التنفيذ •

---

(١) دفتر رقم ٤٦ عابدين — وارد تلغرافات — صورة التلغراف العربى الشفرة رقم ٣٤ ص ٨٠ بتاريخ ١٦ ربيع الأول سنة ١٢٩٤ هـ • (٣١ مارس ١٨٧٧) ارادة سنية الى غوردون باشا حكمدار عموم الأقاليم السودانية بسنهيت . دار الوثائق بالقلعة .

(٢) محفظة رقم ١٠٩ — قسم الوثائق الافريقية — الفترة التاريخية (١٢٨٦ — ١٣٠١) (١٨٦٩ — ١٢٨٤) حوادث بلاد الحبشة — رسالة الخديوى اسماعيل الى الأحباش . وللاسف الشديد فانه لم يرد تاريخ محدد لهذه الوثيقة ، ولكن بمقارنتها بالوثيقة السابقة رجحنا أن تكون فى عام ١٨٧٧ .

التجارة مع بلاد شبه الجزيرة العربية ومناطق جنوب غرب آسيا :
اهمية ميناءى سواكن ومصوع فى التجارة الخارجية :

لعبت سواكن باعتبارها منفذا تجاريا هاما على الساحل الغربى للبحر الأحمر دورا رئيسيا فى تجارة السودان الخارجية مع بلاد شبه الجزيرة العربية والبلدان المجاورة لها بل والبعيدة عنها مثل الهند والصين .

فمن المعلوم انه منذ القرن السادس عشر قد خضعت سواكن للنفوذ العثمانى حين استولى سنان باشا على هذا الميناء بالاضافة الى مصوع . وقد استمرت هذه السيادة على سواكن وان تذبذبت بين القوة والضعف (١) فقد كان هذا الميناء مع مصوع تابعين لايالة جدة ، وكان يطلق على هذه الجهات (ولاية الحبش العثمانية) ربما لانها كانت تشرف على بلاد الحبشة باعتبارها منافذ رئيسية لها على البحر الأحمر كما سبق القول . وعقب تدخل مصر عام ١٨١١ فى الجزيرة العربية الحقت ولاية الحبش بالادارة المصرية . وبعد تسوية ١٨٤٠ / ١٨٤١ بين مصر والدولة العثمانية عادت الى ما كانت عليه سابقا . وفى عام ١٨٤٦ احيلت ادارة جمركى سواكن ومصوع الى مصر مرة أخرى فالحقت إدارتهما بمديرية التاكا . إلا أنه فى عام ١٨٤٨ عاد الميناءان مرة أخرى الى جدة (٢) . وقد طلب الخديو اسماعيل إعادة ضمهما للادارة المصرية فقدم مبررات قوية لذلك الى كل من الدول الأوربية والدولة العثمانية . فبالنسبة للدول الاوربية راح يذكرها إنها إذا ما أرادت القضاء على تجارة الرقيق فان الحل الوحيد هو وضع هذين الثغرين تحت ادارة يمكنها معالجة هذه المسألة بحزم وشدة ، أما تبعية هذه المناطق (لجده)

---

(١) بوركهارت : المصدر السابق . ص ٣٤٢ وما بعدها .
(٢) شوقى الجمل : تاريخ سودان . ج ٢ ص ١٩٦ .
انظر ايضا :
Douin; Histoire du Regne de Khedive Ismail, Tome 3, Iire partie. p. 234.

وهى بعيدة عنها فلا يحقق الاشراف عليهـا • أما المبررات التى ساقها للدولة العثمانية فكانت تشير الى مطامع ومشروعات الدول الأوربيـة فى تلك السواحل التى كانت تبدو جلية فى محاولات القناصل ونوابهم الاتفاق مع المشـايخ المحليين ووضعهم تحت نفوذهم ، ولتفادى مثل هذه الأمور ينبغى ضم هذين الثغرين للادارة المصرية وتصبح مصر بالتالى أقدر على توطيد الأمن فى هذه الجهات ، بالاضافة الى أن الدولة العثمانية لن تخسر شيئا ، فمصر مستعدة لأن تدفع للخزانة العامة ما كانت تجبيه من جمارك سواكن ومصوع (١) • وبالفعل اعيدا للادارة المصرية فى مايو ١٨٦٥ (٢) • وفى مايو ١٨٦٦ جعلت الاحالة وراثية وغير مقصـورة على وال بعينه ، طبقا لفرمان تغيير الوراثة الصادر فى ٢٧ مايو ١٨٦٦ (٣) •

وعقب تسلم الادارة المصرية لسواكن ومصوع عين (مختار بك) محافظا لسواكن و (حسن بك رفعت) محافظا لمصوع • وفى عام ١٨٧١ تم فصل الأقاليم المطلة على البحر الأحمر — ومنها سواكن ومصوع — وتكوين محافظة مستقلة تعرف باسم (محافظة سواحل البحر الأحمـر) وعين لادارتها ممتاز باشا بلقب (مدير عام شرق السودان ومحافظ سواحل البحـر الأحمر) (٤) •

ومما لا شك فيه أن الحاق هذين الثغرين بادارة مصر كانت له آثار اقتصادية هامة ، كمـا أوضح أحـد المسئولين بالسـودان ، من حيث « ••• تقدم التجارة والمصالح الأميرية وعمار البـلاد •• » بالاضـافة

---

(١) شوقى الجمل : المرجع السابق • ص ١٩٦ ، ١٩٧ •

(٢) انظر مجموعة الفرمانات الشاهانية • فرمان ١٩٣ • دار الوثائق بالقلعة ، انظر ايضـا : محفظة ١٤٢ عابدين — سودان — ترجمة المكاتبة التركية رقـم ٦ بتاريخ ١٧ ذى القعدة سـنة ١٢٨١ من القبو كتخـدا الى الحضرة الخديوية • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) مجموعة الفرمانات الشاهانية • فرمان رقم ٩٢٥ فى ١٢ محرم سنة ١٢٨٣ هـ • انظر : شوقى الجمل : المرجع السابق ص ١٩٧ •

(٤) نفس المرجع • ص ١٩٩ •

الى « ... فتح واستكشاف الطرق والمعابر المتصلة بسواكن من كل الجهات والحصول على التعهدات القوية واللوازم اللازمة لنقل التجارة وسير القوافل ... والتجارة العمومية بالأمن التام مرة كل خمسة عشر يوما من حدود الحبشة الى تاكة ، ومنها الى سواكن ومن الخرطوم والبحر (النيل) الأبيض وكردفان الى بربر ومنها الى سواكن .. » (١) .

ويبدو أن تركيز المسئولين في السودان كان ينصب بصفة رئيسية على ميناء سواكن أكثر من مصوع ، لأن الأخيرة لم تكن لها نفس أهمية سواكن ، فأكثر ايرادات مصوع كانت تنحصر في الجمرك الذى يتقاضى عن الرقيق ، ثم تقلص هذا الايراد عقب الاتفاقيات التى وضعت بين الدول ، بالاضافة الى أن نفقاتها كانت أكثر من ايراداتها ، وأخيرا فانها كانت مسرح نزاع دائم لتاخمتها حدود الحبشة (٢) . أما سواكن فقد كانت في موقع متوسط بين جهات مصر والسودان الممتدة على ساحل البحر الأحمر ، كما أنه يمكن عن طريقها نقل كل واردات وصادرات السودان (٣) .

التجار الحضارمة : *

أما معظم نشاط سواكن التجارى فقد كان بأيدى الحضارمة الذين كانوا حلقات وصل بين أسواق السودان المحلية مثل بربر وشندى وسنار والتاكة والأبيض وبين موانىء بلاد العرب على البحر الأحمر

---

(١) محافظ ابحاث السودان : محفظة رقم ١٨ ، دفتر رقم ٤ ، ورقة رقم ١٤٥ من جعفر باشا مظهر الى الأعتاب الخديوية الكريمة بتاريخ ٢٣ ذى الحجة سنة ١٢٨٢ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) محافظ ابحاث السودان : نفس الوثيقة .

(٣) دفاتر محافظة سواكن — دفتر (عربى) صادر ٤٢/٥/٢/٤ مكاتبة رقم ٥ بتاريخ ١٩ ل سنة ١٢٨٨ هـ (ديسمبر ١٢٧١ هـ) .
انظر أيضا : صلاح الشامى : الموانىء السودانية ص ١٤٠ .

(*) أو الحضارمة نسبة لحضرموت موطنهم الأصلى في جنوب بلاد العرب .

بوجه خاص ، إذ كانوا يحصلون من أسـواق هـذه المناطق على السلع والمنتجات التى اشتهرت بها ويقومون بتصديرها الى الحجاز واليمن • وكان لهم فى جدة حى خاص بهم ، بالاضافة الى وكلاء تجاريين منتشرين فى أكثر مدن الحجـاز ، كما كانت لهم السـفن التجارية التى تقـوم بنقل التجارة بين سواكن وجدة ومخا والحديدة •

ومن أهم السلع التى صدرها السـودان عن طريق سواكن الرقيق ، فقد كان هذا الميـناء أحد الأسواق الرئيسية لتصديره حيث كان يأتيها من سنار وشندى وغرب السودان والحبشة • وقد تضاءلت هذه التجارة بمرور الأيام خاصـة عقب أحكام منافذ خروجها فى عهد اسماعيل وبالذات منفذ البحر الأحمر • كذلك فقد صدرت السودان الى بلاد العـرب الذرة التى كانت تأتيها من اقليم التاكة الذى اشتهر بوفرة انتاجه منهـا مع جودة نوعها • كما اشتد الطلب فى الحجاز واليمن على الحصر السودانية وذلك لجودة نوعها ، فكان البدو يقبلون عليها ، كما كان أهل الحضر فى المدن يقبلون عليها أيضا وخاصة فى مكة والمدينة حيث كانت المساجد تفرش بالحصر •

كذلك فقد استوردت بلاد الحجاز من السودان القـرب والأكياس الجلدية التى غدت من منتجـات السودان الرئيسية وكانت تستخدم فى حفظ ونقـل الماء والزاد • كمـا تم تصدير الزبدة الى بلاد الحجـاز حيث كانت مكة والمدينة تعتمد ، فى حاجتها الى هذه المادة الغذائية ، وخاصة فى موسم الحج ، على ما كان يـرد من السـودان عن طريق سـواكن ومصـوع [١] •

ولقد لقى الذهب السنارى — وخاصة زمن محمد على — طريقه الى بلاد العر بحتى ان البعض يقدر متوسط ما كان يدخل بلاد اليمن منـه

(١) نسيم مقار : المرجع السابق . ص ٣٨٢ .

بين عشرة آلاف واثنتى عشرة أقة سنويا ، وكان هذا الذهب ينقل — غالبا — عن طريق ميناء مصوع الى اليمن (١) • وقد يكون فى هذا الرقم مبالغة إذا علمنا أن محمد على — بجهوده الكبيرة التى سبق الحديث عنها — لم يستطع الوصول الى نتائج مرضية بالنسبة للذهب •

وفى عهد الخديوى اسماعيل نلاحظ تصدير الصوف والصمغ العربى والجلود بأنواعها والتمر هندى والسنامكى والسيوف الى بلاد الجزيرة العربية وما جاورها عن طريق ميناء مصوع (٢) •

أما السلع التى كانت ترد الى السودان عن طريق البحر الأحمر فكانت الأقمشة على اختلاف أنواعها والبن والخرز الزجاجى المعروف باسم ريش Reich والمصنوعات المعدنية البسيطة مثل الأجراس والمسابح والصابون والسكر وخشب الصندل والتوابل • ولم تكن جميع هذه السلع تأتى مباشرة من بلاد العرب ، بل كان بعضها يأتى من بلاد الهند والبعض الآخر من أوربا عن طريق موانىء البحر الأحمر الشرقية والخليج العربى الواقعة على طريق التجارة بين الشرق والغرب وتربطها بسواكن علاقات تجارية أهمها جدة والحديدة ومخا ومسقط والبصرة (٣) •

وتجدر الاشارة هنا الى الأطماع الانجليزية التى بدأت فى منطقة البحر الأحمر خاصة بعد انفتاح المجال أمامها للسيطرة على الهند • ومن هذه الأطماع سيطرتها على عدن لتصبح قاعدة لنشاطها التجارى والسياسى فى المنطقة • حيث قامت بتحصينها عسكريا وجعلها محطة للسفن ومستودعا للتجارة مع بلاد العرب والساحل الافريقى المقابل •

---

(١) Hamnt; L' Egypte Sous Mehemet Ali, Tome. II, p. 588.

انظر ايضا : نسيم مقار : المرجع السابق ص ٣٨٣ •

(٢) محفظة رقم ٥٣ معية — مرفق (د) — محافظ ابحاث السودان — محفظة رقم ٣٦ دفتر رقم ٢ (بيان بالأصناف الصادرة من كمرك مصوع الى كمرك السويس باسم الخواجة كرستو غرانساوى من ابتدى ١٠ رجب سنة ١٢٨٩ هـ — ربيع الأول سنة ١١٩٣ هـ) دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) نسيم مقار : المرجع السابق • ص ٣٨٤ •

كما حاولت الاحتفاظ بعمـلاء تجاريين لها فى موانىء سـواكن ومصوع وزيلع وبربره سـواء من بين السـكان أو من الفرس أو الهنود أو من الانجليز فى بعض الأحيان • ولم يقبل محمد على هذا النفـوذ الانجليزى وسعى الى وقفه إلا أن انجلترا عارضته بشدة واضطرته الى التنازل عن مشروعاته التوسعية فى الساحل الافريقى (١) • بل واضطر أيضـا الى الانسحاب من بلاد العرب عقب اتفاقية لندن ١٨٤١ وان كان قـد سعى فى ضم سواكن ومصوع بعد ذلك كما مر بنا •

وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها الادارة المصرية فى السـودان للاهتمام بسواكن لتلعب دورها فى التجـارة الخارجية والداخلية إلا أن البعض يشير الى تذبذب سواكن تجاريا فى عهد الحكم المصرى بصفة عامة. ويفسر هـذا التذبذب بأن مصر كانت لا تحرص على بـذل تلك الرعاية أو خدمة التوجيه البحرى إلا فى أضيق الحدود وفى الحالات التى يتعارض فيها ذلك مع أغراضها الاقتصادية والعسكرية (٢) • كما يذهب نفس القائل الى أن رحلة محمد على السودان كانت تهدف ــ من بين ما تهدفه اليه ــ الى جذب تجارة السـودان الى موانىء البحر المتوسط ، بدلا من موانىء البحر الأحمر ، لتأخذ طريقها الى أوربا (٣) • ويمضى نفس الباحث قائلا : لقد بقيت لسواكن نفس الصورة المهزوزة فى التجارة السـودانية حتى حدث الانقلاب الخطير الذى قفز بها الى الازدهار والشهرة ونعنى به شق قناة السويس وافتتاحها للملاحة الدولية عام ١٨٦٩ وترتب على ذلك شدة الصراع بين انجلترا وفرنسا للانتفاع بالطريق وظهـور أطماعهما السياسية والاقتصادية فى تلك الجهات • لذلك فقد كان طبيعيا أن تعطى مصر اهتمامات لممتلكاتها فى سـواحل البحـر الأحمر ــ ومنهـا سواكن ومصوع وغيرهما ــ حيث شهدت هذه الفترة رغبة مصر الحقيقية فى عودة

---

(١) تقرير بورنج السابق . ص ٥٨٥ .
(٢) صلاح الدين الشامى : المرجع السابق . ص ١٣٥ .
(٣) نفس المرجع . ص ١٣٥ .

سواكن الى النشاط والازدهار من خلال اهتمامها بالطرق البرية الموصلة اليها وإرساء قواعد الأمن على طول هذه الطرق وتوفير المياه العذبة (١) .

والجدول التالي (*) يبين السفن التي زارت سواكن في الفترة الواقعة بين عامي ١٨٦٩ — ١٨٧٧ .

السنة	السفن	عدد السفن	السفن المصرية تجارية حربية	السفن الأجنبية	الحمولة بالطن
١٨٦٩	٤٦	٣٠	—	٢١٦	—
١٨٧١	٢٠١	٦٩	—	١٣٢	—
١٨٧٣	٣٤١	٣٣٠	١٤	٧	٥٨ر٤٣٣
١٨٧٤	٢٦٤	١٩٦	٢٩	٩	٤٤ر٩٠١
١٨٧٥	٣١٩	٢٩٥	٢١	٣	٦٠ر٣٣٦
١٨٧٦	٢٢٥	١٧٨	١٢	٣٥	٧٢ر٠٥٨
١٨٧٧	٢٣٠	١١١	١٣	١٠٦	٨٠ر٥٢٣

ومن هذا الجدول يمكن أن نستخلص ما يلي :

أولا : زيادة عدد السفن وحمولتها بشكل مضطرد من سنة الى أخرى . وتتفق هذه الزيادة مع زيادة حركة ورود السفن الى البحر الأحمر بعد افتتاح قناة السويس للملاحة الدولية من ناحية والنشاط الانتاجي والتطور الاقتصادي المترتب على توجيه الحكومة واستقرار النظام في الأقاليم السودانية من ناحية أخرى .

---

(١) صلاح الدين الشامي : المرجع السابق . ص ١٣٨ .

(*) Douin; op. cit., Tome. II. 3'eme Partie. p. 1245.

وانظر ايضا : صلاح الدين الشامي : المرجع السابق ص ١٤٨ .

ثانيا : التناقص الواضح فى عدد السفن الأجنبية خلال السنوات الخمس منذ عام ١٨٧٢ • وواضح أن مجموع تلك السفن قبل عامى ١٨٦٩ ، ١٨٧١ كان يمثل نسبة تبلغ من ٦٠ ٪ الى ٨٠ ٪ من عدد السفن التى تزور سواكن ، وانها هبطت بعد ذلك الى نسب مئوية ضئيلة للغاية • ويمكن ربط الزيادة فيها قبل عام ١٨٧٢ باقبال السوق الأوربية على استيراد القطن السودانى بسبب تعذر الحصول عليه من الولايات المتحدة خلال الحرب الأهلية وتفسير هذا التناقص فى عدد السفن الواردة الى هذا الميناء يزداد صعوبة إذا علمنا أن حركة السفن الأجنبية فى ميناء مصوع لم تتأثر خلال تلك الفترة (١) وربما كان للجهود المبذولة فى وقف تجارة الرقيق وإحكام الرقابة على سواكن أثر فى قلة ورود هذه السفن الى سواكن • وقد تساعدنا احدى الوثائق فى تفسير ذلك ، حيث تشير الى ظهور الأمراض « ببر الغرب » (ساحل البحر الأحمر الغربى) ، الأمر الذى أدى الى عمل « كورنتينة » على المراكب الواردة الى سواكن ، مما دعا الى الحاق الضرر البالغ بالتجار وتعطلت حركة التجارة ، بالاضافة الى انتشار الأمراض التى أثرت بشكل وبائى على الجمال والأبقار حيث نفقت الآلاف منها • وقد أدى ذلك بشكل مباشر الى شل حركة القوافل المتجهة الى سواكن والتى تعتمد اعتمادا كليا على الجمال (٢) • ويمكن أن نضيف الى هذه الأسباب جميعا الظروف العسكرية التى حدثت بين مصر والحبشة فى تلك الآونة •

زيلع والتجارة الخارجية : (*)

ترجع أهمية هذا الميناء الى أنه يقع فى خليج عدن قرب مدخل البحر الأحمر من الجنوب ، وكان تابعا من قبل لولاية اليمن قبل أن

---

(١) صلاح الدين الشامى : المرجع السابق . ص ١٤٩ .

(٢) دفتر رقم ٣١ عابدين — وارد تليغرافات — صورة التليغراف العربى الشفرة رقم ١ ص ١ بتاريخ ٣ ربيع الثانى سنة ١٢٩٢ هـ .

(*) الحقت جهات زيلع وبربره وهرر بحكمدارية عموم السودان عام ١٨٧٧ . وكانت زيلع وبربره من قبل تابعتين لحكمدارية هرر . (الوقائع المصرية : العدد رقم ٦٦٩ بتاريخ ١٩ صفر سنة ١٢٩٤ هـ) .

يدخل الى حوزة الادارة المصرية ، ولم يكن هذا الميناء صالحا للملاحة فعملت الادارة المصرية على اقامة مرسى له بطول ٣٥٠ مترا وعرض سبعة أمتار حتى يمكنه استقبال التجارة الخارجية وتصدير بعض منتجات السودان والجهات المجاورة له ، وكانت تجارة زيلع مع جهتين رئيسيتين : الأولى عدن وكانت تستورد منها الأرز والذرة والأقمشة البيضاء والصمغ والسكر والدخان والخرز • أما الثانية فكانت مع القبائل المجاورة لها حيث تبعث اليها بالأغنام والأبقار والمسلى والتمر هندى • وهذه البضائع تستبدل بالعاج وريش النعام والصمغ والبن والرقيق قبل الغاء تجارته رسميا ــ حيث كانت زيلع من أكبر الأسواق الافريقية لبيع الرقيق (١) •

ولتوسيع نطاق التجارة وتنظيمها فى زيلع عملت الادارة المصرية على ادخال واستعمال النقد والموازين والمكاييل ، ونشر الأمن والطمأنينة بين الأهالى مما أدى الى اتساع نطاق التجارة الخارجية بين زيلع والجهات المجاورة • كما قامت أيضا بتوسيع الطريق الموصل بين زيلع وهرر الأمر الذى كان له الأثر الفعال فى رواج التجارة ، بالاضافة الى تسهيل انشاء محال تجارية لمن يرغب من الأهالى والأجانب وذلك عن طريق منحهم أراضى للبناء من أجل هذا الغرض (٢) •

بربره والتجارة الخارجية :

كانت بربره بطبيعتها ميناء تجاريا صالحا لرسو السفن ، ولم تكتف الادارة المصرية بذلك بل أولته عنايتها • فقد زار (ميكلوب باشا) رئيس عموم الفنارات والموانى فى عهد اسماعيل وعين الأماكن الملائمة لانشاء

---

(١) دفتر رقم ١٤٨ صادر مغية • ص ١٦ ــ وثيقة رقم ٣٧ بتاريخ ١٦ رمضان سنة ١٢٩٦ • امر الى ابو بكر افندى شحيم وكيل محافظ زيلع وملحقاتها ، أنظر ايضا : شوقى الجمل : سياسة مصر فى البحر الأحمر • ص ١٧٥ وما بعدها • وايضا : عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل • الجزء الأول • ص ١٣١ ــ ١٣٢ •
(٢) شوقى الجمل : المرجع السابق • ص ١٧٦ •

فنار لارشـــاد السفن ومرسى لتسهيل عملية الشحن والتفريغ (١) • كما حرصـــت الادارة المصرية على تنظيم عمليـــة البيع والشراء فى بربره ، فأرسلت الموازين والمكاييل من مصر لتوحيد الوزن والكيل وأيضا العملة التى كانت تجلب من عدن (٢) • وقد أدت هذه الاصلاحات الى اتســاع نطاق التجارة واستقرار القبائل بالمدينة بعد أن كانت لا تبقى بها إلا زمن الموسم الذى يمتد من اكتوبر الى مارس من كل عام (٣) • وهذا يذكرنا بسياسة ابراهيم باشا فى ســوريا إذ كان أكبر همه توطين البدو الرحــل وتحضرهم حتى تتبدل طباعهم الجــافة من خــلال المشــاريع الزراعية والعمرانية • ومن الغريب حقا ان الحكومة المصرية — رغم تحملها تلك الجهود فى بربرة — بالاضافة الى أعباء الأمن والادارة — اضطرت تحت ضغط الحكومة الانجليزية الى عــدم تحصيل جمــارك بحجة أن أغلب علاقاتها التجارية كانت مع عدن ، كما اضطرت أيضا الى فتح واعــداد ميناء (بلهــار) للتجارة — وهو ميناء صغير لا يبعد عن بربره ســوى مسافة قليلة — الأمر الذى كبدها نفقات باهظة (٤) •

---

(١) Douin, op. cit., Tome III. 3 eme Partie. p. 578.

انظر ايضا : شوقى الجمل : المرجع السابق ص ٢٩ ، نفس المؤلف : سياسة مصر فى البحر الأحمر ص ١٤٥ .

(٢) انظر محفظة تحت عنوان (السودان) (جمادى الثانية — آخر ذى الحجة سنة ١٢٩٣ هـ) دفتر رقــم ١١ معية صادر صــورة المكاتبــة الصادرة رقم ١٠٢ بتاريخ ٧ صفر ســنة ١٢٩٣ هـ • ص ٨١ من المعية الى المالية . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقــم ٣٧١٤ وارد معية عربى • ص ١٤٦ رقــم ٢ (فى ١٢ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ) ، انظر أيضا : شوقى الجمل : تاريخ ســودان ، جزء ثان ، ص ١٠٩ ، انظر ايضــا : محمد صبرى : مصر فى أفريقيا الشرقية هرر — زيلع — بربره • ص ٤٦ . (كانت قبيلة « عيــال » الصومالية على سبيل المثال لا تقيم فى بربرة الا فى فصــل الشتاء فبدات تبنى بيوتا ودكاكين تقضى فيها العام كله : (نفس المرجع • ص ٤٦) .

(٤) دفتر رقم ٥٠ عابدين وارد تليغرافات — صورة التليغراف العربى الشفرة رقم ١٨٧ ص ٣٣ بتاريخ ٩ رجب ١٢٩٥ هـ (٩ يولية ١٨٧٨) من غوردون باشا بالخرطوم الى خيرى باشا .

انظر ايضا : شوقى الجمل : المرجع السابق ص ٢٠٩ .

وقد اعتاد التجار الذين يأتون الى بربره فى زمن الخريف من عدن أو مخا أو الحديدة أن ينزلوا فى بيوت من الخشب ويدفعوا « أرضية » عن كل بيت « للابانة » الصوماليين نظير المحافظة على هذه البيوت فى غير أوقات الموسم • وقد رأت الادارة المصرية بعد انتظام الأمور فى بربره تحصيل هذه المبالغ للحكومة فقط ، لأنها أصبحت هى المسئولة عن الأمن فى بربره ، ولكن اتفق أخيرا على أن تقتسم هذه الضريبة بين الحكومة وبين « الابانة » الصوماليين (١) •

ولتنظيم عملية التجارة ببربره جمع المحافظ تجار وأعيان البلد وطلب منهم أن يختاروا رئيسا لهم « سر تجار » لتنظيم أمور الأخذ والعطاء ولتقديم الضمانات من التجار والأشراف على شئونهم • كما أرسلت نسخة من القوانين التجارية المعمول بها فى مصر للعمل بموجبها فى بربره (٢) • ونتيجة لتلك الجهود ساد الأمن جهات بربره وأصبح « ••• بمقدور سيدة واحدة المسير منفردة ببعيرها ، دون التعرض لها من جانب القبائل الصومالية ••• » (٣) •

ولقد كانت تصدر بربره الى عدن الأبقار التى كان يصل عددها سنويا الى ما يقرب من عشرة آلاف بقرة ، بالاضافة الى الخراف التى بلغت ما يقرب من ستين ألف خروف سنويا • بالاضافة الى الزبدة (٤) • وتجدر الإشارة الى أن عدن كانت تعانى كثيرا طوال أشهر الخريف قبل امتداد الادارة المصرية الى بربره لتعذر شحن الأبقار والخراف على مراكب صغيرة بسبب هبوب رياح الشمال العاصفة ، حتى جاءت هذه

---

(١) شوقى الجمل : سياسة مصر فى البحر الأحمر • ص ١٤٧ •

(٢) دفتر رقم ٣٧١٥ صادر محافظة بربره — وثيقة رقم ٤٤ فى ١٤ شوال سنة ١٢٩٣ هـ •

(٣) دفتر رقم ٣٧١٤ — معية عربى — وثيقة رقم ٢٠ بتاريخ ١٢ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ ، أنظر ايضا : شوقى الجمل : المرجع السابق ص ١٤٨ •

(٤) محمد صبرى : المرجع السابق • ص ٤٦ •

الادارة المصرية فأمكن حل هذه المشكلة واستمر التبادل التجارى مع عدن طوال العـــام (١) ٠

تجـــارة هرر الخارجيـــة :

كانت هرر متصلة ببربره تجاريا ، فقد اعتادت تجارتها أن تصـــدر وترد عن طريق ميناء بربره ، لذلك فقد قيل « ان الذى يهيمن على بربرة يمسك بيده ذقن هرر » (٢) ٠ وقد أصبحت هرر — بموقعهـــا الذى يميل الى الداخـــل بعيدا عن الساحل — تحتل مكانة تجارية لا بأس بها إذ مكنها هذا الموقع من تجميع البضائع الآتية من داخل القارة ومن الحبشة لتصدر بعد ذلك عن طريق ميناء بربره وأحيانا عن طريق زيلع ، وكذلك الحـــال بالنسبة للبضائع الواردة من بلاد العرب واليمن وعدن (٣) ٠

وينبغى أن نفرق بين مرحلتين من مراحل تطـــور هرر التجـــارى ٠ ففى المرحلة الأولى ، وهى التى سبقت امتداد الادارة المصرية اليها ، عاشت فى تخبط تجارى حيث سادتها الفوضى وانعدام الأمن فقد كان المسافر لا يأمن على حياته وبضائعه إلا اذا أضفت عليـــه كل القبـــائل التى يمر بها حمايتها ، فلا يخطو خطـــوة إلا برفقة رجـــل من رجـــال القبيلة المسمى بالابان مقابل أجر فاحش ٠ وقد ذكر مستر بروكمان ان الرحالة برتون كان لا ينتقل خطوة إلا بصحبة الابان يسلمه الواحد منهم لزميله حتى تنقضى الرحلة (٤) ٠

وأما المرحلة الثانية والتى أصبحت فيها هرر تحت الحكم المصرى

---

(١) محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القـــرن التاسع عشر ص ٣٧ ٠

(٢) محمد صبرى : مصر فى أفريقيا الشرقية . ص ٣٢ .

(٣) جريدة أركان حـــرب الجيش المصرى . العـــدد رقم ٦ غرة شعبان سنة ١٢٩٤ هـ . الجزء السادس — المجلد الاول . ص ٤٦٥ .

(٤) Brockman; British Somali land. p. 217.

وانظر أيضا : شوقى الجمل : سياسة مصر فى البحر الأحمر ص ٢٢٢ ، وكذلك جريدة اركان حرب ، العدد السابق ص ٤٦٥ .

فقد عمل خلالها رءوف باشا بمجرد ضمها على تأمين الدروب والقضاء على قطاع الطرق ، وعانى كثيرا فى هذا الصدد من قبائل « الجـالا » . وقد نصح رؤوف بضرورة استمالة هذه القبائل عن طريق « ... صرف مؤونة » لهم وترتيب « ماهية » لمشايخهم والحاق بعض أفرادها بصفة عساكر بمرتبات دون حمل السلاح ، بل يكتفى بأسلحتهم المعتادين عليها حتى يمكن اصلاح أخلاقهم وتهذيب طباعهم وفى النهاية يستتب الأمن وتروج التجارة ... » (١) .

لقد كانت التجارة — تقريبا — هى المرتزق الوحيد لأهل هرر وأغلب المناطق المجاورة وكانت قاصرة — من قبل — على فصل الشتاء ، وذلك لأن أغلب قبائل السومال والجالا كانت تقيم فى الصيف على الهضبات لاعتدال مناخها وتعمل على رعى قطعانها الضخمة . وكانت ريح الشتاء تساعد السفن الشراعية على اجتياز البحر والوصول للموانى (٢) .

وقد أصبح من الضرورى للتجار القادمين من بلاد العرب والمتوجهين الى الأجزاء التابعة لهرر والى بلاد الحبشة أن يمروا بهذه المدينة . صحيح أن هناك طريقا من « تجره » والحبشة لكنه غير آمن من قبائل الدناكل وباقى العربان المقيمين حوله (٣) .

أما أهم واردات بلاد الجزيرة العربية الى هذه الجهات فكانت تتمثل فى الأقمشة « البفت » وبعض الحرير الخاص بالأمراء ، والخرز وبرادة النحاس » (٤) ، كذلك فقد حملت السفن الآتية من عدن وحضرموت ومسقط واليمن الأرز الهندى والتمر والأقمشة القطنية والدخان والحديد والسكر والشاى والنبيذ (٥) .

---

(١) شوقى الجمل : المرجع السابق ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ، الوقائع المصرية . العدد رقم ٦٣٩ بتاريخ ١٣ ذى الحجة ١٢٩١ .
(٢) محمد صبرى : المرجع السابق . ص ٣٢ .
(٣) جريدة اركان حرب ، العدد السابق . ص ٤٦٥ .
(٤) الوثائق الافريقية — محفظة ١٠٣ — بتاريخ ١٨ سبتمبر سنة ١٨٧٥ . دار الوثائق القومية بالقلعة .
(٥) محمد صبرى : المرجع السابق ص ٣٢ .

وكان التجار العرب يشترون من هرر البن الجيد والجلود المدبوغة وغير المدبوغة وما يرد الى المدينة من البضائع الأخرى كجلود النمر وريش النعام وسن الفيل ، وكان أمير هرر من قبل له حق احتكار الصنفين الأخيرين (١) •

وقد إقترح محمد رءوف أن تتولى الحكومة المصرية تجارة هرر بنفسها حتى يمكن الحصول على ثلاث فوائد : الأولى الحصول على جملة المكاسب الناشئة عن التبادل التجارى مع بلاد الجزيرة العربية ، والثانية زيادة تداول العملة • وأما الفائدة الثالثة فكانت زيادة ايرادات جمارك مصر والسويس وزيلع وهرر ، بالاضافة الى المكاسب التى سوف تعود على الأهالى (٢) • ويبدو أن الحكومة فى مصر لم توافق على مثل هذا الاقتراح لأنها آثرت ألا تعود القهقرى لسياسة الاحتكار التجارى •

وفى ختام عرضنا للأوضاع التجارية بالنسبة للمناطق الواقعة على ساحل البحر الأحمر نخرج بحقيقة هامة مؤداها أن تلك المناطق كانت حلقة وصل بين تجار الجزيرة العربية واليمن وعدن وحضرموت وبلاد الهند والصين وغيرها من المناطق المجاورة وبين مديريات السودان وما جاورها من البلدان الافريقية • فقد هيأ لها موقعها الجغرافى أن تشرف على التجارة الخارجية السودانية هناك وأن تلعب هذا الدور الخطير الذى ازدادت خطورته وأهميته بامتداد الادارة المصرية اليها •

التجارة مع شمال وغرب أفريقيا :

كذلك فقد كان للسودان اتصالات تجارية بشمال وغرب افريقيا ترجع الى زمن بعيد وان كانت هذه الاتصالات لم تصل الى درجة تماثل

---

(١) الوثائق الافريقية — الوثيقة السابقة .
(٢) نفس الوثيقة .

تجارته مع الحبشة أو بلاد الغرب • وبطبيعة الحال كانت هذه الاتصالات مع الأقاليم السودانية المتاخمة مثل كردفان ودارفور ، فقد حفلت الأبيض عاصمة كردفان بالتجار المغاربة ، لدرجة أننا نسمع عن حي خاص بهم فى هذه المدينة ، وفى هذا الحى كان يتم عرض السلع والمنتجات التى يجلبونها من بلادهم بالاضافة الى السلع التى ترد اليهم من أوربا (١) • وبالمثل نسمع عن نشاط المغاربة بالفاشر عاصمة دارفور أمثال الشيخ عبد الغنى التازى وكيل دولة المغرب الأقصى بمصر ، ممن رغبوا فى تأسيس شركات تجارية فى دارفور ، بالاضافة الى الشريف العمرانى والحاج الحبابى المغربى (٢) • وفى الجانب المقابل نرى التجار السودانيين من كردفان ودارفور يبعثون بتجارتهم الى طرابلس وغيرها محملين بمنتجات بلادهم حيث يلتقون بالتجار المغاربة ويعقدون معهم الصفقات التجارية •

وقد لعبت امبراطورية البرنو (٣) فى وسط افريقيا دورا هاما فى تجارة السودان مع شمال وغرب افريقية ، فهى بحكم هذا الموقع كانت ملتقى للقوافل التجارية • وقد تعرضت هذه الامبراطورية فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر لفترة من الفوضى واجهت فيها التجارة نوعا من السلب والنهب من جانب السكان وغارات البدو • ولما تولى محمد الكانمى زمام الأمور استطاع القضاء على اللصوص وقطاع الطرق ، كما وضع حدا للحروب والفتن الداخلية مما كان له الأثر فى انتظام حركة القوافل التجارية • وقد اشتهرت دارفور بقافلتها التجارية مع شمال وغرب افريقيا سيما خلال السنوات الأولى من حكم محمد على حين دب الخلاف مع سلطان دارفور • ولست مع القائلين ان هذا الخلاف كان مرده الى تعرض محمد على لرجال قافلة دارفور المتجهة لمصر

---

(١) نسيم مقار : المرجع السابق • ص ٣٨٣ •

(٢) ابراهيم عبده : مصر وافريقية فى العصر الحديث • ص ٢٨ •

(٣) حول هذه الامبراطورية انظر : ابراهيم طرخان : امبراطورية البرنو الاسلامية • الهيئة المصرية العامة للكتاب •

واستيلائه عليها بثمن بخس ، وانما العامل الأول وراء هذا الخلاف هو تخوف سلطان دارفور من محمد على وسياسته فى ضم الأقاليم السودانية خصوصا وان الحدود قد أصبحت متاخمة والجولة القادمة كانت تنتظر دارفور ، فكان طبيعيا أن يخشى السلطان على عرشه من التهاوى الأمر الذى نشأ عنه تخوف سياسى تلاه فتور تجارى ، وان كان الباشا قد عمل حثيثا لتنشيط التبادل التجارى بين الطرفين كما سبق القول (*) . إذن ليس هنالك ما يدعو لترديد مثل هذه الأقاويل عن علاقة محمد على به آنذاك . والمسئولون عن ترديد هذه النغمات هم أولئك الأوربيون الذين كانوا فى إستياء شديد من سياسة محمد على الاحتكارية (١) .

ومن أهم السلع والمنتجات السودانية التى وجدت طريقها الى شمال وغرب افريقية الرقيق (قبل الغائه) حيث كان يمثل السلعة الأولى فى التجارة مع بلاد المغرب . ويليه الذهب وريش النعام وسن الفيل والوسائد الجلدية ذات الألوان الزاهية والأوانى الخشبية التى يتم صنعها بكردفان . أما أهم واردات بلاد المغرب فكانت الأقمشة المصبوغة والمنسوجات الحريرية والبسط وأوراق الكتابة والطرابيش المغربية والقفاطين وأقداح القهوة .

قوانين ونظم التجارة السودانية :

وفى ختام هذا الفصل قد يكون من المفيد أن نشير الى النظم والقوانين التى كانت تحكم التجارة السودانية بشكل عام ومدى تطورها خلال فترة الدراسة . ففى عهد محمد على سبق أن أشرنا الى نظام الاحتكار الذى كان يطبقه الباشا فيما يتعلق ببعض السلع والمنتجات السودانية حتى استطاع الأوربيون بعد كثير من الضغوط وبعد وفاة

(*) انظر فيما سبق ص . ١٦١ ، ١٦٢ .

(١) من أمثلة هؤلاء :

— Driault : La Formation de L'empire de Moh. Ali p. 82.

— Jomard : Observation Sur : le voyage au Darfur. p. 7.

الباشا أن يصلوا الى مأربهم بالغاء الاحتكار ، وبدأت التجارة السودانية تخضع لمعاهدة بلطة ليمان الموقعة بين انجلترا والدولة العثمانية فى ١٩ أغسطس ١٨٣٨ والتى تم العمل بها فى مارس عام ١٨٣٩ • وقد كان لهذه المعاهدة آثار عميقة فى المجال الاقتصادى ، فبموجبها ألغى الاحتكار ومن خلالها أيضا تسلل الأجانب الى السودان • فقد نص فى بندها الثانى على ضرورة أن يكون لرعايا دولة بريطانيا العظمى أو لمن ناب عنهم فى كل الممالك العثمانية أن يشتروا كل الأصناف ــ بدون أدنى استثناء ــ من حاصلات تلك الممالك زراعية كانت أم صناعية ، ويتعهد الباب العالى بإبطال احتكار الحاصلات الزراعية وغيرها من الأصناف ، والغاء الرخص التى كانت تعطيها الحكومة المحلية بشرائها ونقلها من مكان لآخر بعد شرائها •

أما فيما يتعلق بالنظام الجمركى الذى كان يسود السودان ــ آنذاك ــ فانه كان يسير وفقا لنظام الدولة العثمانية والذى يتم تنفيذه فى سائر أملاكه ومنها مصر ولكن بشىء من التحوير أو التطوير الذى كان يدخله عليه حكام مصر •

وينبغى أن نشير هنا الى أن مصر والسودان كانتا ــ آنذاك ــ تعتبران حكومة واحدة ، ولذلك فقد اقترح فى عام ١٨٤١ التخلص من متاعب إنشاء جمارك متعددة فى جهات السودان والاكتفاء بانشاء جمرك واحد فى أسوان التى « ••• هى باب السودان » • واستيفاء رسوم البضائع الصادرة من مصر الى السودان والواردة من السودان الى مصر فى هذا الجمرك ، على أن يقيم أمين الجمرك فى كرسكو (١) •

وتشجيعا للتجارة الخارجية فى عهد محمد على بين كل من دارفور

---

(١) رئاسة مجلس الوزراء : مجموعة من الوثائق عن تاريخ السودان ص ١٩ •

والحبشة كان يكتفى بتحصيل رسوم جمركية خفيفة (١) وكانت القيمة الجمركية التى تؤخذ على البضائع الآتية من السودان مارة بأسوان وليس معها « رفتية » (شهادة) تبلغ ١٢ ٪ وذلك اعتبارا من ذى الحجة سنة ١٢٥٧ (أول يناير سنة ١٨٤٢ م) (٢) .

وفى عام ١٨٦٥ أبلغ مأمور ادارة بندر مصوع المسئولين بمصر انه سوف يأخذ رسما جمركيا يبلغ ١٢ ٪ على السنامكى والصمغ المصدر عبر هذا الميناء (٣) . وتسهيلا لدفع الرسوم بجمرك أسوان طلب اليه أن يقبل دفعها عينا من أصناف السلع اذا لم يدفعها التجار نقدا (٤) .

ورغبة فى تشجيع التجار المسلمين على العمل بالتجارة أمر محمد على فى أغسطس عام ١٨٤٢ أن يكتفى بتحصيل ٥ ٪ منهم فقط كرسم جمرك على البضائع الواردة الى مصر بمعرفتهم (٥) . وقد أعفى محمد على البضائع التى كانت ترد باسم القناصل من الرسوم ، كما أعفى أيضا الحيوانات التى ترد من السودان الى مصر من هذه الرسوم (٦) .

وفى عام ١٨٤٥ أصدر محمد مادة تقضى بتوقيع العقاب الشديد على من يتعامل مع بعض التجار الذين وضعوا « بالقائمة السوداء » والحق

---

(١) رئاسة مجلس الوزراء . ص ١٩ .

(٢) دفتر رقم ٢٦١ معاونة أقاليم — صورة ترجمة الوثيقة رقم ٧ بتاريخ ٨ محرم سنة ١٢٥٨ هـ . الى محمود بك مدير الايرادات .

(٣) دفتر رقم ٤٦٦ — معية تركى — مكاتبة رقم ٤٧٨ بتاريخ ٧ ذى القعدة سنة ١٢٦٤ هـ من خليل بك مأمور ادارة بندر مصوع الى المعية السنية . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) محفظة رقم واحد بعنوان (موضوع التجارة) (١٢٤٢ — ١٢٦١ هـ) وثيقة بتاريخ ٥ ذى القعدة سنة ١٢٥٨ هـ . من الجناب العالى الى الباشمعاون . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٥) المحفظة السابقة . وثيقة بتاريخ ٢٢ رجب سنة ١٢٥٨ هـ . من الجناب العالى الى الباشمعاون .

(٦) المحفظة السابقة . وثيقة بتاريخ ٢٨ ذى القعدة سنة ١٢٥٨ هـ ، وأيضا : نفس المحفظة ، وثيقة بتاريخ ٢٣ رجب سنة ١٢٥٩ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

هذه المادة بقانون الحقانية • ويرجع السبب فى اصداره تلك المادة الى ذلك التلاعب الذى حدث فى احدى صفقات الأخشاب التى عقدها مجموعة من التجار وكانت مخالفة للمواصفات التجارية • وقد تم ابلاغ هذه المادة القانونية لكافة الجهات ومن بينها الخرطوم (١) •

وفى عهد محمد سعيد صدرت الأوامر بأخذ رسم جمرك مقداره ٥ ./ على البضائع الواردة من دارفور وجهات النيل الأبيض ان كان الغرض منها التوزيع داخل الحكومة ، وتحصيل ٣ ./ ان كانت بضائع امرارية (ترانزيت) بغرض تصديرها الى الخارج ، على أن يوضع على الأخيرة خاتم يبين أنها بضاعة ترانزيت (٢) •

ويبدو أن الرسوم الجمركية فى عهد اسماعيل قد وصلت الى ٨ ./ الأمر الذى أدى الى شكوى التجار الأجانب وتذمرهم من هذه الرسوم ومطالبتهم بتخفيضها الى ١ ./ فقط ، وبالفعل صدرت أوامر بذلك ، ونفذت فى جمرك سواكن (٣) • ويبدو أن هذه الاستجابة السريعة جاءت حين علم المسئولون ان جمرك طرابلس الغرب يحاول منافسة الجمارك المصرية عن طريق تخفيض نسبة رسومه الجمركية الى ٢ ./ فقط بدلا من ٨ ./ حتى تتحول تجارة السودان وافريقية عن طريق مصر الى

---

(١) دفتر رقم ١٩٨٣ صادر جمعية الحقانية — ترجمة المادة التركية رقم ٢٧٤ بتاريخ ٧ شوال سنة ١٢٦١ هـ • الى مدير الخرطوم • مادة • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) امين سامى : تقويم النيل وعصر عباس ومحمد سعيد • مجلد ١ جـ ٢ • ص ١٣٦ •

(٣) انظر الوثائق التالية : — محفظة رقم ٥١ معية تركى — وثيقة رقم ١٨٣ بتاريخ ٢٥ جمادى الاولى سنة ١٢٦١ هـ نمرة ٢ من يوسف فهمى امين الجمارك المصرية العامة الى مهردار الخديوى وايضا : نفس المحفظة ، وثيقة رقم ٤١٦ (باللغة العربية) بتاريخ ٣ ذى الحجة سنة ١٢٩١ هـ • من اسماعيل صديق ناظر المالية الى مهردار خديوى وايضا : دفتر رقم ١١ صادر معية — صورة المكاتبة رقم ٩ ص ١٢١ بتاريخ ٢٢ رمضان ١٢٩٣ هـ • من المعية السنية الى ديوان الزراعة والتجارة • دار الوثائق القومية بالقلعة •

هذا الميناء • ولكن المسئولين بمصر فطنوا لذلك وأصدروا أوامرهم بتخفيض هذه الرسوم كما ذكرنا (١) •

وفى ٣١ مارس عام ١٨٧٧ طلب غوردون باشا حكمدار السودان استخدام موظفين أوربيين فى جمارك السودان خصوصا بجهات بربر وسواكن ومصوع وزيلع وتيجره بالاضافة الى أسوان • وقد وعد المسئولون ببحث هذا المطلب ، ولكن لم نقرأ فى الوثائق — التى اطلعنا عليها — ما يفيد تحقيق هذا المطلب (٢) • ويمكن تفسير هذا المطلب برغبة غوردون فى السيطرة على منافذ التجارة الداخلية والخارجية للسودان ووضعها تحت رحمة الأوربيين تمهيدا للسيطرة الأوربية على هذه المناطق الحيوية ، على الرغم من عمله فى خدمة الادارة المصرية • ولا ننسى ان غوردون كان مرشحا للعمل فى السودان من قبل أمير بريطانيا ، ولذلك فان مثل هذه المطالب ليست مثار دهشة ولا حتى جديدة فى مظهرها على رجال الادارة فى السودان فى ذلك الوقت • فقد طالبت انجلترا مرات عديدة بتعيين موظفين أوربيين فى السودان تحت ادعاءات صورتها للعالم أنها جد خطيرة كتجارة الرقيق مثلا التى لا يمكن وقفها — من وجهة نظرها — إلا بتعيين مثل هؤلاء الأوربيين الأوفياء ذوى القلوب الرحيمة !

وفى عام ١٨٧٧ أجبر الانجليز الخديوى اسماعيل على توقيع معاهدة أصبح بمقتضاها ثغرا بربره وبلهار حرين أمام التجارة وأعفيت صادراتهما من الرسوم والعوائد الجمركية الأمر الذى جعلهما يمثلان عبئا ثقيلا على خزانة الحكومة المصرية (٣) •

---

(١) دفتر ٥٣٠ معية سنية تركي — ترجمة كتاب المعية لأمين جمرك اسكندرية رقم ١٠٢ فى ١٨ ذى القعدة سنة ١٢٧٦ هـ . ص ١٥٠ .

(٢) دفتر رقم ٣٤ عابدين — صادر — صورة التليغراف العربى الشفرة رقم ١٩ ص ١٦٤ بتاريخ الثلاثاء غرة ذى القعدة سنة ١٢٩٤ هـ .

ارادة الى سعادة غوردون باشا حكمدار الاقاليم السودانية . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) محمد صبرى : مصر فى أفريقيا الشرقية . ص ٤٥ .

القسم الثالث

(المواصلات) *

(أ) السكة الحديد :

قبيل منتصف القرن التاسع عشر بسنوات قليلة بدأت المديريات السودانية تأخذ طريقها نحو الحياة المستقرة ، حيث عاد الفارون من الجبال والصحراوات ، كما بدأ تثبيت الملكية الفردية وازداد النشاط الزراعي فانتعشت بذلك الحياة الاقتصادية وبدأ المستوى المعيشي للسكان في الارتفاع النسبي • وكان من الطبيعي والحالة هكذا أن تكون الخطوة التالية القيام بتحسين وسائل النقل والمواصلات داخل المديريات السودانية وربط أجزائها ببعضها البعض ، ثم محاولة ربط السودان كله بمصر من خلال شبكة مواصلات •

ولقد بدأ التفكير في انشاء سكة حديدية لربط السودان بمصر في عهد محمد سعيد باشا حيث جرت محاولة لاقامة خط حديدي يدور حول الجنادل والحواجز النهرية تسير عليه السفن ، ولكن يبدو أن هذا المشروع لم يجد قبولا وبالتالي لم ير النور (١) • كذلك فقد حاول هذا الوالي مرة أخرى انشاء خط حديدي حيث كلف المهندس الفرنسي (موجيل) الذي كان يعمل في خدمة الحكومة بتقديم تقرير حول هذا

(*) سوف لا نتعرض للطرق البرية وسنكتفي بما تحدثنا عنه من الطرق البرية التي سلكتها التجارة الداخلية والخارجية في السودان . انظر فيما سبق ص ١٣٧ وما بعدها .

(١) الشاطر بصيلي عبد الجليل : تاريخ المواصلات في سودان وادي النيل — القسم الأول حتى عام ١٩١٦ . ص ٢٨ .

الموضـــوع ، ولكن فداحـــة النفقات التى تطلبها هذا المشروع جعلتـــه يعـــدل عنـــه (١) .

وفى عهد الخديوى اسماعيل احتل موضوع المواصلات فى السودان ، وخاصـــة السكة الحديد حيزاً كبيراً من تفكير هذا الرجل . وقد أبـــدى اهتمامه بها فى حديث له مع المسيو جارنييه Garnier أحد رجال القنصلية الفرنسية وذلك فى أكتوبر عـــام ١٨٦٤ . وفى هـــذا العام أرســـل بعثة برئاســـة المهندس حسن بك الدمياطى لبحث انشـــاء خط حـــديدى بين ســـواكن وكسلا مخترقا التلال عن طريق خـــور النقيب (٢) . وفى نفس الوقت أرسلت بعثة ثانية برئاسة المهندسين الانجليزى « براى ووكـــر » (Bray & Walker) لدراسة الطريق بين كرسكو الى « أبو حمد » والخرطوم لانشـــاء سكة حديدية . وفى مارس عـــام ١٨٦٥ قـــدما تقريرهما الى الخديوى ثم سافرا من أسوان الى كرسكو حتى وصـــلا الى شـــندى مخترقين الصحراء النوبية ثم عـــادا بطريق صحراء « بيوضة » ودنقلة ثم وادى حلفـــا . وقد بلغ طول هذا الخط ٧٦٥ ميـــلا ، وكانت نفقـــات الميـــل الواحـــد ١٢٦٦٧ جنيها (٣) . وأمام ضخامة هذه النفقات تعطل العمل فى هذا المشروع . وقد بعث الخديوى فى عام ١٨٦٦ الى حكمدار السودان يقول « ... انه لو انشئت فى السودان السكك الحديدية التى أصبحت الأساس الأعظم للتقدم والعمران لأفادت البلاد الفوائد الجمة فى قليل من الوقت — والله يعلم أن هذه الفكرة لم تبرح مخيلتنـــا لحظة واحـــدة — ولو كان فى الامكان لأمرنا بمباشرة العمل فى هذا المشروع منذ

---

(١) صلاح الدين الشـــامى : المواصـــلات والتطـــور الاقتصـــادى فى السودان . ص ٩ . انظر ايضا : الشاطر بصيلى : المرجع السابق ص ٢٨ ، نعوم شقير ة المرجع الســـابق ج ٣ . ص ٣٢ ، الرافعى : عصر اسماعيل ج ١ . ص ٤ .

(٢) الشاطر بصيلى : المرجع السابق . ص ٢٨ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٨ ، انظر أيضا : شوقى الجمل : تاريخ سودان . ج ٢ . ص ١٣٤ ، وأيضـــا :

Hill; Op. Cit., p. 123.

الآن ، ولكن ما الحيلة وانشـــاء السكك الحديدية فى تلك الجهــة يصطدم بصعوبات كبيرة ويحتاج الى نفقات طائلة ، والحــالة تقتضى بارجـــاء تحقيق مثل هذه المشروعات العظيمة التى تتطلب هذه النفقات الى بعــد فترة ، ريثما تتخلص الماليــة من بعض الضيق الذى تعانيه فى الوقــت الحاضر ... » (١) .

وفى أوائل يناير عام ١٨٦٧ أرسل « اسماعيل الفلكى » على رأس بعثة لبحث مسألة السكة الحــديد بين (سواكن وبربر) أو من (سواكن الى شــندى) وأتمــت البعثة مهمتها وعــادت الى مصر بتقريرها الذى يقترح ترجيح طريق شــندى ، الذى قدرت مســافته بحوالى ٥٨٤ كيلو متراً ، عن طريق بربر الذى تعترضه الجبال (٢) . ويتضح من ذلك كله ان مشروعات السكك الحديدية لربط الســودان بمصر شمالا أو البحــر الأحمر شرقا كانت تسير جنبا الى جنب .

وبعد مرور أربع ســنوات لآخــر محاولة فى انشــاء سكة حديدية بالسودان عاد التفكير من جديد عــام ١٨٧١ فاستدعى الخديوى اسماعيل مهندسا انجليزيا يدعى جون فاولر Fowler ، وأبرم معه عقدا لمــدة خمس سنوات لوضع التصميمات الخاصة بانشــاء السكة الحديد وتحسين الملاحة النهرية فاقترح هذا المهندس فى تقريره ما يلى (٣) : ضرورة قيام خط حديدى من وادى حلفــا ينتهى عند بلدة شندى ، كمــا اقترح أن

---

(١) دفتر رقم ٥٥٨ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٧ بتاريخ ٢٨ صفر سنة ١٢٨٣ هـ . ص ٥٩ . الى حكمدار الســودان . وانظر ايضا شوقى الجمل : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر . ص ٨٢ .

(٢) سجل رقم ٥٦٠ — معية تركى ، دفتر معية تركى (بدون نمرة) ص ٨٩ قسم ثان . بتاريخ ٢٤ صفر سنة ١٢٨٤ هـ . انظر ايضا : شوقى الجمــل : المرجع السابق ص ١٣٤ ، وايضا اسماعيل سرهنك : حقــائق الأخبــار ص ٣١٥ .

(٣) تقرير مستر فولر عن السكة الحديدية السودانية لتوصيل السودان بمصر ، بناء على أمر سمو الخديوى سنة ١٨٧١ (١٢٩٠ هـ) . وهذا التقرير مودع بمحفظة اللوائح — دار الوثائق القومية بالقلعة .

تكون « المتمـة » * آخر محطة لهذا الخط ، وفضلت المتمـة بالذات كمحطة نهائية نظرا لموقعها المتوسط بين بربر والخرطوم ، بالاضـافة الى مركزها التجارى الهام للغلال والأقطان والسكر الذى يحتمل وروده من تلك الجهات والأراضى المتسعة جنوبى شندى ، لاسيما وانهـا ملتقى لطرق القوافل التى ترد من الخرطوم ومن النيل الأبيض وسواكن والنيل الأزرق (١) • وفى حالة عـدم امكان تحقيق هذا المشروع اقترح انشـاء أحد الطريقين الآتيين : الأول يبدأ من كرسكو مخترقا صحراء النـوبة « صحراء العتمور » الى (أبو حمـد) ، يسير بعدها فى اتجـاه النيل حتى شندى والثانى يبدأ من وادى حلفا ويسير فى اتجاه النيل حتى بلدة (امبقـول) مخترقا صحراء بيوضة حتى المتمـة أمام شندى • ولقـد فضل الطريق الثـانى الذى يبـدأ من حلفا لأنه يمكن فى هذه الحـالة استفادة السكان بين كرسكو ووادى حلفا من المواصـلات كما أن هنـاك سببا هاما وهو ان مرور الخـط عبر صحراء بيوضة أفضل من صحراء النوبة نظرا لتمتع صحراء بيوضـة بالمياه الكثيرة والعـذبة والأشجار والأعشاب الصالحة لاطعام الابل والمواشى مدة عملية السكة الحديد (٢) •

وبعد اختيـار المحطتين الابتدائية والنهائية والاتجاه العمومى للخط الحديدى تم بحث موضـوع مرور السكة من وادى حلفا الى الجنـوب وهل تكون على الشاطىء الغربى أو الشرقى للنيـل • وأخيرا تم تفضيل الشاطىء الشرقى (الأيمن) نظرا لقلة النفقات ، بالاضافة الى أن الشاطىء الأيسر به رمال متحـركة يخشى من خطورتها على المشروع •

ويبلغ طول الخط الحديدى ٨٨٩ كيلو مترا ، قسم الى أربع مراحل :

١ ـ من وادى حلفـا الى بلدة « كوهـة » (على الضفة اليمنى للنهـر) ٢٥٩ كم

(*) بلدة تقع على الشاطىء الايسر للنيل امام شندى .
(١) نفس التقـرير السابق •
(٢) نفس التقـرير •

٢ — مرحلة اجتياز النهر وذلك بعمل قنطرة فوق النهر —

٣ — من كوهه الى امبقول (الضفة اليسرى للنهر) ٣٤٩ كم

٤ — من أمبقول الى شندى (عبر صحراء بيوضة) ٢٨١ كم

وبذلك يكون مجموع المراحل الأربع ٨٨٩ كيلو مترا (١) .

وقدرت نفقات هذا المشروع بحوالى أربعة ملايين من الجنيهات أو ٤٥٠٠ جنيها لكل كيلو متر تقريبا . وقد جرى حوار بين الخديوى اسماعيل وبين المستر سوزول مراسل جريدة النيويورك هيرالد حول نفقات هذا المشروع حيث سأل هذا المراسل الخديوى قائلا ان هذا المشروع يكلفكم كثيرا فأجابه : « ... لا يكلفنا أكثر من أربعة أو خمسة ملايين من الجنيهات وهذا مبلغ يسير ، فما قيمة ستة أو ثمانية أو عشرة ملايين اذا حصلنا على الفائدة المرجوة ؟ انه من الجنون صرف مليون من الجنيهات فى عمل غير مجد ، ولكن لا تنس موارد السودان . انى سأنشىء الخط مهما كلفنى ذلك . ألا تعتقدون ان السودان يساوى أكثر من عشرة ملايين ... » (٢) ؟ وعلى العكس من رأى هذا المراسل كان القنصل الأمريكى فى مصر فى ذلك الوقت يرى ضرورة انشاء هذا الخط حتى يمكن وقف تجارة الرقيق فى السودان (٣) .

وبالفعل تعاقدت مصر مع شركة انجليزية لانشاء المائة ميل الأولى

---

(١) نفس التقرير السابق . وقد اختلفت تفاصيل الأرقام التى أوردها المرحوم الشاطر بصيلى قليلا فجاءت بالنسبة للمرحلة الأولى ٢٥٧ كم ، والثالثة ٢٤٩ ، والرابعة ٢٨٣ كم ، وان كان يلاحظ ان المجموع الكلى لا يختلف . (انظر : بصيلى : المرجع السابق . ص ٢٧٣) .

(٢) عن جريدة النيل — ترجمة — بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٨٧٢ . انظر : جورج جندى وجاك تاجر : المرجع السابق . ص ٢٧١ .

(٣) رسالة بيروسلى قنصل الولايات المتحدة الى وزارة الخارجية بتاريخ ٢٤ فبراير سنة ١٨٧٣ عن جورج جندى وجاك تاجر : المرجع السابق ص ٢٧٣ .

من وادى حلفا الى « كرمـة » ، وعين شـاهين باشا مشرفا على العمل بالانابة عن الحكومة المصرية • وبدأ العمل فى ١٥ فبراير ١٨٧٥ ، ووصل الى بلدة « سرس » (بعد حلفـا) فى عام ١٨٧٧ • وقد بلغت نفقـات الحكومة المصرية لانشـاء الثلاثة والثلاثين ميـلا حوالى نصـف مليون جنيـه [1] •

وفى عام ١٨٧٨ توقف العمل فى هذا المشروع بسبب تدهور الأوضاع المالية فى مصر ، بالاضـافة الى عدم اقتنـاع غوردون بهذا المشروع ، فقد كان يميل الى مد خط حـديدى من سواكن الى بربر لا عن طـريق النيـل [2] •

وفى ٣ نوفمبر عام ١٨٨١ قرر مجلس النظار (الوزراء) تشـكيل لجنة لبحث مسألة استئناف العمل فى سكة حديد السـودان حتى دنقلة الجديدة • وقـد ناقشت اللجنة مشروعين ، الأول مقدم من شخص يدعى (جورنج) كان يهـدف الى مد السكة الحديدية الى جهـة (فركـه) أمام شلالات (دال) • والثانى يرمى الى مـد خط سكة حـديد حتى (حنـك) أى الى دنقلة الجديدة • وقد فضل المشروع الثانى لقيمتـه

---

(١) الشاطر بصيلى : المرجع السابق • ص ١٣٤ • ويقدر د • شوقى الجمل المسافة التى تمت فعلاً بحوالى ٥٧ كم (سـودان وادى النيل ج ٢ ص ١٣٥) بينما يقدرها د • صلاح الشامى بحوالى ٥٣ كم (المرجع السابق ص ١٣ — ١٤) وحول العمل فى المشروع انظر على سبيل المثال الوثائق الآتيـة : دفتر رقم ١١ صادر معية — صورة المكاتبة الصادرة رقم ٢٠ ص ١٣٠ بتاريخ ٢١ جمادى الثانية سنة ١٢٩٣ هـ • دفتر رقم ١٥ معية وارد — افادات عربى ص ١٦٨ وثيقة رقم ٤٧ بتاريخ ٢ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ ، دفتر رقم ١٧ معية عربى — قيد وارد الافادات من جهـات الأقاليم والمحافظـات السايرة ص ١ — مكاتبة رقم ٦ (١٤٣ سايرة) بتاريخ ١٥ شعبان سـنة ١٢٩٢ هـ •

(٢) صلاح الدين الشامى : المرجع السابق • ص ١٣ — ١٤ ، انظـر ايضا : شـقير : المرجع السابق ج ٣ • ص ١٠ •

الاقتصادية (١) ، وكانت اللجنة مملوءة بالحماس فى اتمام خط السكة الحديد وقدمت براهين على ذلك منها ان ايرادات القسم الأول من الخط الذى تم انشاؤه (من وادى حلفا وسرس) كانت فى عامى ١٨٧٩ / ١٨٨٠ أكثر من مصروفاته وأن الوضع سوف يزداد فى التحسين للأسباب الآتية :

أولا : ان التجارة المصرية السودانية فى تقدم حيث بلغت ايرادات السكة الحديد فى عام ١٨٧٨ مبلغ ٣٦٢٠ ليرة * مصرية ، وفى عام ١٨٧٩ بلغت ٥٠٨٣ ليرة مصرية ، وفى عام ١٨٨٠ وصلت الى ٧٣٩٠ ليرة أى أنها تضاعفت فى مدة سنتين .

ثانيا : ان مد سكة حديدية طولها ٤٠٠ كيلو مترا يجلب التجارة أكثر مما تجلبه سكة طولها ٥٠ كيلو مترا .

ثالثا : انه متى تيسر نقل البضائع عن طريق السكة الحديد من دنقلة الى وادى حلفا قلت نفقات النقل فضلا عن عدم تعرضها للتلف ، كما هو الحال بالنسبة للقوافل التى تقطع مسافة طويلة وسط أخطار جسيمة .

وفى النهاية رأت اللجنة ضرورة استئناف العمل ومد الخط من « سرس » الى دنقلة الجديدة (٢) . وتطالعنا مذكرة بتاريخ ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨١ حول هذا الموضوع مقدمة من أحد الأفراد الى الحكومة

---

(١) انظر نص هذا التقرير بمحافظ السودان — سكة حديد — نظارة الاشغال — تقرير القومسيون الذى تعهد للبحث فى انشاء السكة الحديدية السودانية « محفظة بدون رقم » بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٨٨١ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(*) هكذا وردت كلمة ليرة وان كنا نعتقد ان واضع التقرير يعنى جنيها .

(٢) محافظ السودان — سكة حديد — التقرير السابق .

المصرية للتصريح له باتمام الخط المذكور — الذى توقف عـام ١٨٧٨ الي النقطة التى تعينها الحكومة وانه سيتكفل الانفاق على المشروع نظرا للضائقة المالية التى تمر بها البـلاد شريطة أن تتنـازل الحكومة له عن الخط الذى سبق انشاؤه ، حيث يقوم هـو بتشغيله عن طريق شركـة مساهمة • أما اذا ازداد دخل العملية عن ضمان الحكومة فيكون لها حق الانتفاع ببعض الزيادة وفضلا عن ذلك يحق لهـا الحصول على الخط المذكور عن طريق الشراء فى أى وقت تشاء (١) •

ولم نقرأ فى الوثائق عن نتائج هذه الاقتراحات ، ويبدو أن الأمـور ظلت على ما هى عليه حتى عام ١٨٨٤ حين وصلت مجموعة من المهندسين الانجليز وتسلمت الخط الحـديدى بين حلفا وسرس (٢) •

البريد والتليغراف :

(أ) البريـد :

لقد كانت مسـألة البريد من التطورات الملموسة فى حياة المواطن السودانى ، وذلك منذ أن ضم هذا البلد الى مصر • فقد أولى محمد على هذه المسـألة عنايته حتى جاء خلفاؤه فأكملوا المسيرة •

وقد كانت الخرطوم هى المركز الرئيسى للبريد حيث ينقل فى السفن ثم يحمل على ظهور الابل فى مرحلة تالية من الطريق حتى يصل الى مصر • كذلك فقد كان لتوزيع هذا البريد فى داخـل المديريات السودانية نفس الاهتمـام •

---

(١) مذكرة بشأن الموافقة على انشاء شركة مساهمة لمد خطوط السكك الحديدية بالسودان • السودان — سكة حديد — محفظة (بدون رقـم) ٢٠ ديسمبر ١٨٨١ — ٤٤ ابريل سنة ١٨٨٣ • دار الوثائق القومية بالقلعة •
(٢) الشاطر بصيلى : المرجع السابق • ص ٣٧ •

ولقد أصبحت مأمورية دنقلة فى عهد محمد على مركزا للاتصـال بين مأموريات سنار وكردفان فى بداية ضم السودان حيث أمـر حاكمها بأن يتلقى أخبار سنار وكردفان وأن يبعث « بهجانة » فى الجبال عند وصول أخبار جديدة عن تلك المأموريات • وفى عهد الحكمدار خورشيد باشا جرت تعديلات فى مسألة البريد حيث صدرت اليه الأوامر بتنظيم البريد وذلك بتحديد موعـد ذهاب وعـودة الهجانة باليوم والسـاعة وأن ينذر من يقوم بالتأخير ، ويقطع مرتب من لا جمـل له ، ويقوم كذلك باعداد دفتر للتعيين والرفت • وبالفعل فقد تم انشاء محطات عديدة على طول الطريق من الخرطوم إلى مصر تستريح فيها الابل وتبدل • وكانت الرسائل تصل الى الخرطوم مرتين كل شهر ، وتقطع المسـافة بينهما فى خمسة وعشرين يوما أو ثمانية عشر يوما • وقد عقب المسـيو « جومار » على انتظـام البريد فى عهد محمد على بقوله « ••• من ذا الذى كان يصـدق قبـل أربعين عاما بل خمسة عشر عاما فقط أن تصلنا الرسائل من ضفاف النيـل الأبيض الى ضفاف السين فى اثنين وثلاثين يوما • وتصلنا من (قزنقور) (جنوب فازوغلى) عند الدرجـة العاشرة من خط الاستواء فى خمسـين يومـا » (١) •

وزيادة فى الحرص على انتظام وصول البريد عين معاون لكل مديرية للطواف على محطات البريد فى جميع أنحاء المديرية والتفتيش على الجمال ومعرفة مدى قدرتها على القيام بعملها ، وتوقيع عقوبة الجلد على كل من يهمل فى أداء هذه المهمة من شيوخ المحطات (٢) •

---

(١) جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعـلاقات العربية الافريقية ص ٢٧٦ عن :

Jomard ; M, Observation Sur Le Voyage au Darfur, et le Nile Blanc Supérieur. Paris, 1845.

(٢) سجل مديرية بربر وجاعلين رقم ٣٤٥٧ . الى محمد افندى مأمور اشغال سر عسكر بتاريخ (٧ رمضان ١٢١٦ هـ — ١٩ جمادى آخر ١٢٦٢ هـ) دار الوثائق القومية بالقلعة .

وكانت الخطابات والأوامر التى تصل الى المديريات السودانية تلف « بمشمع » وتوضع فى داخل أكياس تسمى « جربان » لوقايتها من الأمطار ، كما كانت ترفق بهذه الخطابات « حافظة » من كرسكو توضح فيها المحتويات وأسماء أصحاب الخطابات ثم تختم هذه الخطابات بالشمع الأحمر زيادة فى الحرص عليها من العبث (١) .

وقد صدرت أوامر الى مختلف الجهات لاجراء المزيد من التنظيمات التى تكفل وصول البريد فى الموعد المحدد له ، وأن يدون الوقت — الذى يقوم فيه البريد — على المظروف حتى يتسنى معرفة الموعد المحدد له ، وبذلك يمكن معرفة الموعد الذى يصل فيه الى المحطات . وبهذه الوسيلة يمكن تحديد المسئولية ويتفادى التأخير (٢) .

وفى عهد محمد سعيد باشا تم تنظيم البريد بين الخرطوم ومصر فسيره على الهجين بطريق كرسكو وأنشأ محطات فى هذا الطريق (٣) . ويقول فردريك بنولا ان الجمهور فى أيام محمد على لم يكن له الحق فى استخدام السعاة لنقل مراسلاته العادية وحمل النقود من جهة الى أخرى إلا فى عهد محمد سعيد ، فكان مقدار الرسم الذى يؤخذ على الخطاب المرسل من مصر الى الخرطوم سبعة قروش ونصف . وكان يصل الى الخرطوم فى حوالى خمسين يوما من تاريخ ارساله (٤) .

ومنذ عام ١٨٦٤ اتسع نطاق المراسلات وأصبح عبئا ثقيلا على

---

(١) سجل مديرية بربر وجاعلين رقم ٢٤٥٥ . الى متعهد البريد بتاريخ ١٤ ربيع ثان ١٢٦٢ هـ — ٣ رجب ١٢٦١ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ٣٩٢ صادر وثيقة ١٢٢٥ الى حكمدار السودان بتاريخ ٤ جمادى أول ١٢٦٢ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) فردريك بنولا : كتاب مصر والجغرافيا . ص ٣٦ ، أنظر أيضا نعوم شقير : المرجع السابق ج ٣ ص ٣١ ، أيضا : عبد الرحمن الرافعى : اسماعيل . الجزء الأول . ص ٤٠ .

(٤) بنولا : المرجع السابق . ص ١٠٠ .

الحكومة فرأت اسناد هذه المهمة الى احــدى الشركات الأجنبية . وفى أول يناير عــام ١٨٦٥ عادت الحكومة الى الاشراف على هــذه المصلحة وعهدت بادارتها الى « موتزى بك » ولم تلبث على عهــده ان ازدهرت ازدهارا ملحوظا إذ انشئت مكاتب جديدة للبريد فى مصر والسودان .

وبالاضافة الى ذلك ، فقد عنيت الادارة المصرية فى السودان — على عهد الخديوى اسماعيل — بتنظيم بريد برى بين ســواكن والقصير حتى يتم تنظيم الخط الملاحى البحرى بين ســواكن ومصــوع وبينهــا وبين السويس . وبالفعل تم انشاء مكتبين للبريد بكل من مصوع وســواكن ، وتم تخصيص باخرة لنقــل بريد السودان كافة من سواكن الى مصر مرة كل أسبوع . فقد كان البريد السودانى ينقل من الخرطوم الى ســواكن براً بواســطة رجال الهجانة ، ثم من ســواكن الى الســويس بحرا . وبالاضافة الى ذلك تم ربط مصوع وسواكن بخط بحرى ، فخصص وابور للاقامة بكل منهما ، وجــرى تنظيم مواعيد تحركهما بدقة تامة (١) .

وفى عام ١٨٦٧ تم افتتــاح مكتب للبريد بســواكن ، وفى عــام ١٨٦٩ افتتح مكتب بمصوع (٢) ، وما ان حل عام ١٨٧٣ حتى عمت مكاتب البريد أرجاء السودان ، فى وادى حلفا وكرسكو ودنقلة وبربر والخرطوم ثم امتــدت فيمــا بعــد الى ســنار وفازوغلى والقضــارف والأبيض والفــاشر (٣) . وفى نفس العــام تم انشــاء ادارة خاصــة للبريد فى

---

(١) امين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا . المجلد الثانى من الجزء الثالث ص ٦٥٣ . انظر ايضا : شوقى الجمل : المرجع الســابق ص ١٩٩ ، وايضا : محفظة رقم ٣٨ معية تركي — ترجمة الوثيقــة التركية رقم ٩٣ بتاريخ ١٩ محرم ١٢٨٣ هـ . من جعفر مظهر الى السكرتير الخاص للجناب العالى . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ٣٣ عابدين وارد تليغرافات . تليغراف رقم ٤٦ بتاريخ ١٤ شعبان ســنة ١٢٩١ هـ . من حكمدار السودان بالفاشر الى خديوى باشــا .

(٣) دفتر رقم ٣٣ — الوثيقة السابقة . وايضا : شوقى الجمل : المرجع الســابق ص ١٣٣ — ١٣٤ وايضا بنولا : المرجع السابق . ص ١٠٠ — ١٠١

الخرطوم (١) • وفى عام ١٨٧٥ تم افتتاح خط جـديد للبريد بين بربره وعدن وزيلع (٢) • ولقد انضم البريد السودانى الى اتحاد البريد العالمى فى عـام ١٨٧٨ (٣) • كذلك فقد رتب أمين باشـا بريدا أسـبوعيا يربط محطات خط الاستواء بعضها بالبعض الآخـر ، مما حـدا بالمبشر فيلكن Felkin الى القـول بأن المراسـلات كانـت تسـافر وهى أكثر أمنـا (٤) •

وظلت مكاتب بريد السودان تؤدى مهمتها بانتظـام الى أن تعطلت عقب اندلاع الثورة المهدية • أما مكتب الخرطوم فقد ظل حتى سـقوط المدينة فى أيدى الثوار عـام ١٨٨٥ (٥) •

والجدير بالذكر ان هناك احصائية فى عام ١٨٧٨ تذكر بأن مصاريف « بوستة » السـودان تبلغ ستة عشر ألف جنيه سنويا • أما الجارى تحصيله من ايرادها فهو مبلغ سبعة آلاف جنيه فقط (٦) •

التليغـراف :

وفيما يتعلق بخطوط التليغراف فقد بدأت الادارة المصرية فى مدها بين مصر والسودان منذ عام ١٨٦٤ • وفى عام ١٨٦٦ وصلت هذه الخطوط الى وادى حلفا • وفى عام ١٨٧٠ الى قرب الخرطوم • كذلك فقـد تم

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل — الجزء الأول : ص ١٦٥ .
(٢) دفتر رقم ١٥ معية وارد الافادات (عربى) ص ١٦ . مكاتبة رقم ٦ بتاريخ ١٥ رمضان سنة ١٢٩٢ هـ .
(٣) شوقى الجمل : المرجع السابق . ص ١٣٤ .
(٤) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء . الجزء الأول . ص ٣٨٥ .
(٥) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق . ص ١٦٥ .
(٦) دفتر رقم ٥٠ عابدين وارد تليغرافات — صورة التليغراف العربى الشفرة رقم ٢٣٠ بتاريخ ١٦ رجب سنة ١٢٩٢ هـ (٢٠ يولية ١٨٧٨) من غوردون باشا بالخرطوم الى سعادة صبرى باشا .

تمهيد طريق (سواكن — بربر) لمد خطوط التليغراف به وجـرى تفضيل هذا الطريق على طريق (سواكن — كسلا) لقربه وسهولته • كما مـدت أيضا خطوط التليغراف بين سواكن ومصـوع وموانيء البحر الأحمـر وبينها جميعا وبين الخرطوم (١) •

ولقد اختصر التليغراف — بين زيلع وبين سواكن — زهاء نصـف البحـر الأحمر الجنوبى ، وأصبح من السـهل الاتصال بهذا الميـناء الأخير من أى جهـة على السـاحل (٢) ، كذلك فقـد وصلت الخطوط التليغرافية فى غربى السودان الى (فوجه) شرقى الفاشر (٣) •

وكانت الحكومة تولى عناية تامة لحسن سير أمور التليغراف ، ومن ذلك أنها قررت ترتيب (خفر) على طول هذه الخطوط وخصـوصا فى المسافة من حلفـا الى دنقلة وذلك لحفظ وصيانة هذه الخطـوط (٤) • وكان (سلامه بك) كبير مهندسى عمـوم التليغراف فى عهـد اسماعيل حريصا على تفقد سير هذه الخطوط بانتظام (٥) • وقد بلغت مسـافات الخطوط التليغرافية التى انشئت فى السودان عام ١٨٧٠ حـوالى ٢١١ كيلو مترا • كمـا بلغ عدد مكاتب التليغراف فى مدن السـودان عام

---

(١) دفتر رقم ٢ عابدين — وارد تليغراف ص ٨٨ — ترجمة التليغراف التركى نمرة ٥٩٦ فى ١٦ ذى القعدة سنة ١٢٨٢ هـ . أنظر شوقى الجمل : الوثائق التاريخية . ص ٧٠ .

(٢) محمد صبرى : مصر فى افريقيا الشرقية . ص ٢٠ .

(٣) دفتر رقـم ١٩٤٦ أوامر عـربى نمرة ٢ ص ٣٨ وثيقة بتاريخ ٨ ذى الحجة ١٢٨٩ هـ .

(٤) دفتر رقم ٢٨ صادر تليغرافات عابدين — وثيقة رقـم ٨١ بتاريخ ٢٧ ربيع الآخـر سنة ١٢٩٣ هـ • من خيرى باشـا الى وكيل اشـغال السكة الحديد السودانية .

(٥) شوقى الجمل : المرجع السابق . ص ١٣٦ .

١٨٧٧ واحداً وعشرين مكتبا (١) • وتجدر الاشارة الى انه فى عام ١٨٧٨ تم ادماج مصلحة البوستة بالتليغراف (٢) •

المواصـــلات النهـرية :

كانت الملاحة فى نهر النيل بصفة عامة قبل ضم الســـودان عـام ١٨٢١ لا تمثل أهمية كبيرة بالنسبة لخطوط النقل والمواصلات السودانية وذلك بسبب جهل السودانيين فى ذلك الوقت بصناعة السفن • كما أن التجـارة التى كانت تنقل عن طريق النيل عرضة للرســوم والضرائب والسلب والنهب ، لدرجة ان الرحـــلات الطويلة عبر النيل قـد أوقفت تماما فى أواخر عهد السلطنة السنارية نتيجة للفوضى وغياب الأمن (٣) •

وما ان خضع السودان للادارة المصرية حتى بدأت تظهـر نهضة واضحة فى صناعة السفن ، إذ انشئت ــ كما سبق أن ذكـرنا ــ لأول مرة فى تاريخ السودان الحديث ترسانات الخرطوم وسنار وبربر ودنقلة لتمد الحكومة بالسفن الشراعية لنقل السلع والمنتجات السودانية كالصمغ وسن الفيل وريش النعام المصدر الى مصر (٤) •

وفى محاولة للتغلب على المشاكل التى كانت تعترض التجـارة عبر النيل بين مصر والســودان قامت الحكومة بازالة العقبات التى تعترض الملاحة فى مجرى نهر النيل الجنــوبى فأرسلت الحمــلات المكونة من المهندسين والعمال الفنيين الى تلك الجهات لكسر الصخور وشق القنوات بينها حتى يمكن للسفن المرور خلالها (٥) •

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ١٦٥ .

(٢) دفتر رقم ٣٦ صادرات تليغرافات ــ صورة التليغراف العــربى الشفرة رقــم ٥٨٣ بتاريخ ١٦ اغسطس ١٨٧٨ . ارادة ســنية الى سعادة حكمدار الأقاليم السودانية .

(٣) حسن احمد ابراهيم : المرجع السابق . ص ١٤٩ .

(٤) دفتر رقم ٧٦٦ ديوان خديوى ــ ترجمة المكاتبة التركية رقم ٢١٢ بتاريخ ٢٧ رمضان سنة ١٢٤٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٥) دفتر رقم ٣٠١ ــ معاونة جهادية ــ ترجمة الأمر رقم ١٠٣٣ بتاريخ ٢٠ ربيع الآخر سنة ١٢٥٤ هـ . الى مختار بك . دار الوثائق بالقلعة .

كذلك فقد عملت الحكومة على تنظيم وتسهيل الملاحة فى الجنادل (أو ما يعرف باسم الشلالات) حيث عينت فى كل منها لجنة من مشرف عام و « ريس » مع بعض البحارة وأهالى المنطقة ، بالاضافة الى تعيين شخص فى كل المدن الهامة الواقعة على النهر للاشراف على سلامة الواردات السودانية الى مصر عبر النيل (١) ٠

وقد أكد الرحالة الذين زاروا السودان أيام حكم محمد على أن حركة النقل بطريق النيل قد اتسعت بين مصر والسودان فى ذلك الوقت حتى أصبح كثير من التجار والجلابة فى دنقلة وسنار يفضلون شحن بضائعهم وبخاصة الرقيق الى اسنا على سفن وقوارب كبيرة أعدت لهذا الغرض بدلا من نقلها بواسطة الابل عبر الصحراء (٢) ٠

وينبغى ألا نعول كثيرا على أهمية نهر النيل كطريق للتجارة — فى ذلك الوقت — فرغم تلك الجهود التى بذلها المسئولون ، واشادة بعض الرحالة فان هذا الطريق كان لايزال محفوفا بالمخاطر الطبيعية أو العقبات التي يثيرها السكان المقيمون حول ضفتيه ٠ أما ما يقال عن تفضيل تجار الرقيق لهذا الطريق المائى فهو نوع من الاستثناء — فأكثر التجار فى ذلك الوقت كانوا يفضلون دروب الصحراء — لأن الرقيق لم يكن يتحمل مشقة الصحراء الأمر الذى يجعله عرضة للموت ، وهذا يعنى كارثة للتجار بعكس بعض السلع الأخرى التى لم تكن عرضة للتلف ٠ ولهذا كله اختار تجار الرقيق أخف الضررين وفضلوا طريق النيل ٠

واستمرت جهود الباشا فى الاهتمام بالملاحة عبر نهر النيل

---

(١) حسن أحمد ابراهيم : المرجع السابق ٠ ص ١٥١ ٠

(٢) Deherain; Op. Cit. pp. 128-340-1 & Muskau; Op. Cit., Vol. II. p. 104.

وخصوصا داخــل الأقاليم الســودانية ، ومن ذلك فتح النيل الأبيض للملاحة والتجارة عقب الحملات الثلاث التى قام بهـا سليم قبطــان فى النيل الأبيض • ففى أعقــابها نشطت حركة الملاحة فى النيــل الأبيض ومناطق النيل العليا (١) •

وقد تركت الحكومة للتجار الأجانب حرية الملاحة وامتلاك الســفن واستئجارها من ترسانات الحكومة من أجــل القيام برحلات تجارية الى الجنــوب (٢) • ولكن فى عهــد الحكمدار عبد اللطيف باشا (١٨٤٩ — ١٨٥٢) — كما سبق القول — جأر التجار بالشكوى لأنه أراد احتكار الملاحة فى النيل الأبيض وانتهى الأمر باستدعائه واعلان حرية الملاحة • وكان من نتائج ذلك ازدياد نشــاط حركة الملاحة والتجــارة فى حوض النيل الأبيض ، وحوض بحر الغزال وبحر الجبل وأصبحت (غندكرو) بين عامى ١٨٥٠ / ١٨٦٠ مركزا رئيسيا لتجارة العاج فى تلك المناطق •

ولقد بدأت معرفة السودانيين بالسفن التجارية فى نهر النيــل على فترات عدة • والبداية كانت على عهد سعيد باشا خلال زيارته للســودان عام ١٨٥٧ ثم خلال حملة صمويل بيكر عام ١٨٦٩ ، ثم فى عهد حكمدارية غوردون باشــا منذ عام ١٨٧٧ •وقد نقلت أجــزاء أكثر هذه الســفن على ظهــور الابــل عبر صحراء العتمــور من كرســكو وعبر الصحراء الشرقية وجبال البحر الأحمر من ميناء سواكن الى ترسانة الخرطوم حيث اعيد تركيبها من جديد • وكانت أول سفينة وصلت الى السودان فى عهد سعيد باشــا هى تلك السفينة التى استقلها الأمير عبد الحليم باشا نجل محمــد على عنــد تعيينه حكمدار للســودان (٢٤ نوفمبر ١٨٥٥ — ٢٨ ديسمبر ١٨٥٦) (٣) •

---

(١) ساماركو : رحلة محمد على الى السودان . ص ١٢ — ١٣ .
(٢) نسيم مقار : المرجع السابق . ص ٣٣٥ .
(٣) الشاطر بصيلى : المرجع السابق . ص ١٩ .

وفى عهد الخديوى اسماعيل جرى بحث عدة مشروعات للنقل المائى عبر نهر النيـــل وهى :

١ — انشاء ترعة ملاحية شرقى أسوان لتجنب مناطق الجنادل .

٢ — أو انشاء هذه الترعة فى الغرب .

٣ — انشاء مجرى ملاحى فى منطقة الجنادل نفسها وذلك بتحطيم الصخور . ولـكن الأزمـة الماليـة — آنذاك — حالت دون تنفيذها (١) .

وإبان حملة صمويل بيكر تم ارسال ست سفن * الى الخرطوم ، كما أرسلت ثلاث سفن أخرى مفككة عبر صحراء العتمور (كرسكو — الخرطوم) للتركيب فى ترسانة الخرطوم (**) .

وقد حـاول غوردون ايجـاد مواصلات بطريق النيل فى الجهـات العليا لمجرى النهر لتحل محل وسـائل النقل البرية المتهالكة هناك والتى كانت تكلفه نفقات باهظة . وهذه الوسائل كان لابد منهـا بين معسكره العام والنقط المنتشرة فى الجنوب . وقد انشـأ غوردون (بالجفلاى) شمال بحيرة البرت ترسانة لتنظيم الملاحة فى تلك المناطق . وكان مشروعه — فى استخدام النيل فى النقل جنوب غندكرو — ضربا من المجازفة إذ كان يســود الناس آنذاك اعتقاد — لا أساس له — بأن النيل ابتـداء من جنوب الرجاف وحتى دوفيليه غـير صـالح للملاحة وبالتالى لا يمكن استخدامه (٢) .

---

(١) شوقى الجمل : تاريخ سودان — ج ٢ . ص ١٢٧ .
(*) « الطلحاوية — البورديين — صافية — المنصورة — شبين — امبـابة » .
(**) « الاسماعيلية — الخديو — نيانزا » .
(٢) عمر طوسون : المرجع السابق . ص ١٣٥ .

ومن العقبات الخطيرة التى كانت تواجه الملاحة فى نهر النيل وخصوصا فى الجهات الواقعة جنوبى الخرطوم تلك السدود النباتية الكثيفة التى اعترضت مجرى النهر • وقد كانت هذه السدود فى فصل الأمطار — على حد قول البعض — تشغل مساحة تعادل مساحة انجلترا (١) • فقد كانت تتخللها ثلاثة مسالك مائية رئيسية كانت عرضة لأن تسد كلها أو أى منها فى أى وقت (٢) لهذا كله بذلت جهود مضنية من قبل الحكومة لفتح منطقة السدود • وذلك بتجنيد الأعداد لهم لانجاز هذه المهمة (٣) •

وقد أشاد غوردون باشا بجهود اسماعيل باشا أيوب (١٨٧٣ — ١٨٧٧) فى ازالة العوائق التى كانت تعترض الملاحة فى مناطق السدود النباتية لدرجة أنه أصبح فى الامكان الانتقال من الخرطوم الى غندكرو فى غضون ثلاثة أسابيع بعد أن كانت الرحلة تستغرق من قبل من عام ونصف الى عامين •

المواصلات البحرية :

احتل السودان جزءا طويلا من ساحل البحر الأحمر الغربى بحكم موقعه وكانت كل من سواكن ومصوع بالاضافة الى جدة على الساحل الشرقى للبحر الأحمر قبل عام ١٨٤٦ تحت ادارة عثمانية ، وضعفت حتى هذا التاريخ الرابطة السياسية والادارية بين الأقاليم السودانية وسواحل

---

(١) الان مورهيد : النيل الأبيض . ص ٩٢ .

(٢) نفس المرجع . ص ٩٣ وحول هذه السدود النباتية انظر ما يلى :
دفتر رقم ١٧ عابدين — صور التليغراف العربى رقم ٦٠٦ بتاريخ ٩ هاتور سنة ١٢٨٩ هـ . ورد فى ١٧ رمضان ١٢٨٩ هـ . من مدير عموم قبلى السودان الى صبرى باشا ، وايضا الوقائع المصرية . العدد ٥٥٢ فى ١٧ ابريل ١٨٧٤ . ص ١ وايضا : جورج جندى وجاك تاجر : المرجع السابق . ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

(٣) جميل عبيد : المديرية الاستوائية . ص ٤٠٨ ، ص ٤٤١ .

البحر الأحمر وبالتالى انعكس ذلك على عدم اهتمــام السودانيين بالبحر وتركوا هذه المهمة للجداربة من سكان سواكن ٠

ولكن عقب عام ١٨٤٦ نشطت حركة الملاحــة بين موانىء السودان وموانىء الساحل الشرقى للبحر الأحمر وبينها جميعا وبين الســويس ٠ وقد كانت هناك عدة عوامل أدت الى ذلك من أهمها استخدام البخار فى تسيير السفن وما أدى اليه من تطــور سريع ، والتنافس الدولى بين انجلترا وفرنســا وتفكير الأخــيرة فى ضرب انجلترا فى مستعمراتها فى فى الشرق والهند ، بالاضافة الى ادراك مصر لمطامع الدول الاستعمارية ومحاولة سبق هذه الدولة فى الاهتمام بهذه الموانىء (١) ٠

وفى عهــد محمد على تم فتح طريق مبــاشر للملاحة بين ســواكن والسويس حتى يتيسر نقل السلع السودانية القريبة من الساحل والتى يصعب نقلها بطريق النيل أو الصحراء وأهمها الماشية من التاكة (٢) ٠

وفى عام ١٨٥٦ على عهد سعيد باشا تم الحصول على فرمان يمنحه حق تكوين شركة ملاحية بين موانىء البحر المتوســط وموانىء البحــر الأحمر ٠ وبالفعل تم تأسيسها فى عام ١٨٥٧ وسميت بالشركة المجيدية ٠ وكانت تقوم بالملاحة بين السويس وموانىء الحجــاز واليمن والقصــير وسواكن ومصوع ٠ وكانت لهذه الشركة أربعة مراكب هى (الحجاز ونجد والقبارى وجدة) (٣) ٠

وفى عهد الخديوى اسماعيل حلت الشركة العزيزية محل الشركــة

---

(١) شوقى الجمل : سياســة مصر واســتراتيجيتها فى البحر الأحمــر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . مقال بكتاب : البحــر الأحمر فى التاريخ ص ٤١٠ .

(٢) نسيم مقار : المرجع السابق . ص ٣٣٩ .

(٣) انظر مجموعة الفرمانات الشاهانية ، فرمان رقم ٨٥١ ، انظــر ايضا : شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل ، ج ٢ ، ص ٧٥ .

المجيدية وكانت تقــوم بنقل المتاجر والمسافرين الى ثغور البحر الأحمر والبحر المتوســط وقد خصص لها الخديوى سبع بواخــر كانت موجودة من قبل ، وأوصى بانشــاء بواخر جديدة فى انجلترا • وأصبح يقود هذه البواخر ضباط البحرية القدامى الذين تركوا الخدمة •

ولبواخر الشركة العزيزية فضــل كبير فى نشــاط حركة التجــارة الخارجية لمصر وتسهيل مواصلاتها البحرية مع الأقطار الأخرى ، بل انها نافست شركات الملاحــة الأجنبية فى هذا المجــال الأمر الذى أدى الى نمو ايراداتها ، فلجأ الخــديوى لشراء أسهمها حتى يحتكر أرباحهــا ، وجعلها احدى ادارات الحكومة عرفت بمصلحة (وابــورات البوســتة الخديوية) ، وأصبح لها ست وعشرون باخرة تقوم بالتجــارة ونقــل البريد فى ثغور البحر المتوسط وثغور البحــر الأحمر كسواكن ومصوع وينبع وجدة والحديدة ثم تجتاز باب المندب الى زيلع وبربره (١) •

وكانت هنــاك مواقيت منتظمة لمرور البواخــر فيمــا بين موانىء السويس وجدة وبربره وبين السويس وبربره ، وبين بربره وزيلع وعــدن بحيث يمكن ربط جميع موانىء البحر الأحمر بخطوط مواصلات منتظمة وبذلك أمكن للمتاجر وللمسافرين أن ينتقلوا فى سهولة ويسر ، بالاضافة الى الدور الذى كانت تلعبه فى نقل البريد (٢) •

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ، الجزء الأول ص ١٨٨ — ١٨٩ . وانظر أيضا الوثائق الآتية : دفتر رقم ٣ عابدين — وارد تليغرافات — صورة التليغراف العربى رقم ١٠٦ بتاريخ ٢٢ ربيع الآخر ســنة ١٢٨٣ هـ من وكيل القومبانية بالسويس الى رياض باشا . وانظر ايضا نفس الدفتر صور تليغرافات تحت أرقام ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ بنفس التاريخ ، أيضا نفس الدفتر ، صورة تليغراف رقم ١٤٩ بتاريخ ٢٨ ربيع الآخر ســنة ١٢٨٣ هـ من القومبانية بالسويس الى رياض باشا . وانظر أيضا دفتر رقم ٤ عابدين وارد تليغرافات — صورة التليغراف العربى رقم ٥٨ بتاريخ ليلة ٥ جماد أول ســنة ١٢٨٣ هـ . من وكيل القومبانية بالســويس الى رياض باشــا . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) محافظ أبحاث السودان . محفظة رقــم ٣٦ ، دفتر رقم ١ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

ولقد كانت الشركة العزيزية تحتكر ملاحة السفن التجارية فى كل من نهر النيل والبحر الأحمر والبحر المتوسط • والجدول التالى يبين ايرادات ونفقات الشركة ثم أرباحها خلال ثلاثة أعوام (يونية ١٨٦٣ ــ ٩ مايو ١٨٦٦) ❋ •

المكان	الايراد بالجنيه الاسترلينى	النفقات	الأرباح
البحر المتوسط	١١ر٢ر٢٣٠ر٢٩٦	٠ر١٧ر٤٩٠ر١٦٢	١١ر١٥ر٥٢٢ر١٣٣
البحر الأحمر	٦ر٥ر٦٤٥ر٣٤٢	١ر١٦ر٢٧٥ر١٥١	٥ر٩ر٣٤٩ر١٩١
نهر النيل	١٠ر٠ر٦٠٣ر٢٤٤	٩ر١٨ر٥٨٠ر١٢٩	١ر٢ر٢٢٠ر١١٥

ويمكننا أن نستنتج من هذا الجدول ما يلى :

أولا : حققت جميع البواخر سواء فى البحرين المتوسط والأحمر أو نهر النيل أرباحا •

ثانيا : ان بواخر النقل فى البحر الأحمر قد حققت أكثر الأرباح ، وربما يرجع ذلك الى كثرة الرحلات والبضائع التى كانت تمر بها على الشاطئين الشرقى والغربى للبحر الأحمر وحتى باب المندب ، بالاضافة الى الرعاية الكبيرة التى كانت تلقاها فى هذه الموانىء التى كانت تحت سيطرة الادارة المصرية •

(❋) الأرشيف الامريكى ، محفظة رقم ٤ ، ملف رقم ٤ بدار الوثائق بالقلعة •

Despatch No. 93, Agency and Consular General of the United States of America. Alexandria, Egypt, June 17, 1867. Hon. William H. Seward. Secretary of State.

وبافتتاح قناة السويس للملاحة البحرية فى عام ١٨٦٩ ازدادت أهمية البحر الأحمر كطريق للمواصلات فازدادت حركة السفن العالمية به الأمر الذى أدى الى فتح آفاق أرحب للتجارة المصرية السودانية ، وانتعاشة اقتصادية لموانىء البحر الأحمر • بل ان افتتاح القناة قد أدى أيضا الى زيادة عدد البواخر الراسية فى ميناء البصرة العراقى بسبب كثرة ورود السفن الأوربية عبر القناة ، وان كان ذلك قد أدى الى فقدان العراق — نسبيا — لعملية نقل منتجات اليمن مثل البن ومنتجات الهند الى دمشق وحلب ، حيث أصبح من الأرخص نقلها مباشرة عبر القناة الى الموانىء الشامية (١) •

هكذا يتبين لنا من خلال تتبعنا لتطور طرق المواصلات السودانية من برية ونهرية وبحرية أنها جميعا قد لعبت دورا فى التجارة السودانية وان تفاوت هذا الدور بينها بحيث يمكننا القول ان الطرق البرية ، وخصوصا طرق القوافل ، كانت على رأسها جميعا • كذلك يمكن أن نخلص الى أن نهر النيل لم يلعب دورا رئيسيا فى التجارة الداخلية للسودان على عكس ما كان يتوقع منه على اعتبار انه ممر طويل يشق البلاد من جنوبها الى شمالها وتتصل به فروع عدة كان يمكن به ومعها أن تزدهر التجارة السودانية •

---

(١) عبد العزيز نوار : تاريخ العرب الحديث والمعاصر — الجزء الأول . العراق ص ١٧٢ •

الفصل الرابع

الضرائب وشئون المال

- أنواع الضرائب
- تحصيل الضرائب وأساليبه
- الاصلاحات الضرائبية :

(أ) فى عهد محمد على .

(ب) فى عهد محمد سعيد .

(جـ) فى عهد اسماعيل .

(د) اصلاحات رؤوف باشا .

- النظام المالى فى السودان على عهد محمد على .
- انعكاسات مصر السياسية عام ١٨٤١ على أوضاع مصر والسودان ماليا .
- خلفاء محمد على ومالية السودان .
- التدهور المالى فى عهد اسماعيل وعلاقة السودان بذلك .
- ميزانية السودان عام ١٨٨١ وملاحظات حولها .

* * *

- نظام الاقتصاد السودانى فى القرن التاسع عشر .

ـ أنواع الضرائب :

لم تكن أنواع الضرائب التى فرضتها الادارة المصرية فى السودان جديدة على مواطنى هذا البلد ، بل انهم الفوها من قبـل ، زمن السلطنة السـنارية ، وان كانت بصـورة تختلف عن تلك التى فرضتها الادارة المصرية ، إذ كانت الأولى أقرب الى الالتزامات منهـا الى الضرائب ، وذلك لعدم وجود عملة رسمية متداولة بين الناس فى ذلك الوقت • ومن أهم هذه الضرائب كانت ضريبة الأسواق ، حيث كان يتم تحصيل ضريبة عن كل رأس من الرقيق يتم بيعـه بلغت « قيراطا واحـدا » ❊ من الذهب • كذلك كانت تجبى ضريبة عن كل رأس يتم بيعـه من الجمـال والبقر تبلغ عشرين « مهلك » (١) •

وقـد جرى أيضـا تحصيل خمسـة « مهلك » عن كل خروف • و « مهلك » واحد عن كل رأس مباع من الماعـز • أما الحمير والخيـول فلم تحصل عنها ضرائب (٢) • كذلك فقد كانت هناك ضريبة « العشر » على منتجات الأرض المروية بالسواقى أو المطر • وكانت هذه الضرائب تزداد فى سنى الانتاج الكثير ، فيضاف ٢ « بورمـا » ❊❊ من الدخن عن كل جمـل (٣) •

وبالاضافة الى هذه الضرائب نلاحظ أشكالا أخرى منهـا ما سمى

---

(١) المهلك : عملة اثيوبية تساوى $\frac{1}{16}$ من التالير ، والتالير هـو ايضا عملة اثيوبية ، وكان يعرف باسم ريال مارى تريزا ، كمـا كان يسمى « ابو طيره » لوجود رسم على وجهه على شكل نسر .

(٢) Douin; Op. Cit., Tome. I. p. 272-73.

(٣) Hill; Op. Cit., p. 13.

❊ قيراط الذهب يساوى تاليرا واحدا . او دولارا ، أو ريالا ، وكان سعره آنذاك ما يوازى ١٥ قرشا .

❊❊ البورما مكيال يملأ زنته خمسة ارطال .

« بالسخرة » ، وهى ضريبة عامة تقدر طبقا لحالة السكان المالية . وهذه الضريبة كانت توزع بنسب معينة على خزانة السلطان وعلى الوزراء . وكان الوزراء يقومون بتوزيع جزء منها على « المكوك » و « الارابيب » والمشايخ ثم الأشخاص القائمين بخدمة السلطان . ومن الضرائب أيضا كانت « المترة » وهى ضريبة خاصة لجيب السلطان ، و « المخلاية » وهى ضريبة غلال تدفع لخيل فرسان السلطان . وضريبة « النزل » وكانت تخصص لأمور ضيافة السلطان ومساعدته فى تنقلاته . و « العادة » وكانت تحصل للسلطان لتغطية نفقات الظروف الخاصة به من زواج وطهور وغير ذلك و « النار » وهى ضريبة كانت تحصل من القرى التى تعمد الى حرق الحشائش حيث كانت هذه الحشائش المحروقة تعد كنوع من السماد للأرض . و « العنة » ، وهى ضريبة محلية تحصل على المنسوجات التى تصنع فى داخل البلاد (١) .

وكانت معظم هذه الضرائب أو الالتزامات يتم جبايتها بواسطة الفقهاء سواء أكانت نقدا أو عينا فى صورة منسوجات من الدمور أو فى صورة حبوب كالذرة مثلا ، أو حتى فى صورة حيوانات .

وأما الضرائب التى فرضتها الادارة المصرية فى السودان منذ عهد محمد على فقد كانت متنوعة بتنوع النشاط الاقتصادى ، فمنها الضريبة الزراعية التى فرضت على الجماعات المستقرة التى تمارس الزراعة (٢) ،

---

(١) الشاطر بصيلى عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والاوسط . ص ٢٦٦ — ٢٦٧ انظر ايضا : محفظة رقم ٩ معية عربى مستخرج من المعية السنية رقم ٤١ — ٤٢ بتاريخ ٢٤ صفر سنة ١٢٨٤ هـ . من القائمقام محمد نادى الى الخديو ، انظر ايضا السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية فى افريقيا ص ٩٥ .

(٢) Hill; Op. Cit., p. 14.

ومنها ضريبة الانتاج الحيوانى على البدو الذين احترفوا الرعى وتربية الحيوان ، ومنها الرسوم الجمركية على التجار والجلابة فى المدن ومراكز النشاط التجارى ، ولا سيما الضرائب التى كانت تؤخذ عن العبيد .

كذلك فقد حصلت أنواع أخرى من الضرائب كضريبة الرأس ، وضريبة النخيل فى بعض المديريات التى كثر فيها النخيل ، وضريبة العقارات فى المدن الكبيرة ، وضريبة عن قوارب النيل و « الفلايك » ؛ وبالاضافة الى ذلك فقد تم تحصيل رسوم على التقاضى وعقود البيع والشراء والتسجيل والزواج والطلاق والمنازعات الخاصة بالميراث .

ولقد اختلفت قيمة الضريبة التى كانت تؤخذ على الأراضى باختلاف نوع الأرض وأسلوب ريها ، فالأراضى التى كانت تزرع على الأمطار أو ما كانت تسمى بـ « السلوكا » Selouka لم تفرض عليها ضرائب مباشرة ، بل فرض على كل قرية تقديم بعض الالتزامات للجيش من القمح والضأن والزبد وكانت تؤخذ حسب المساحة المزروعة (١) .

كذلك فقد اختلفت تقديرات الضرائب من مديرية الى أخرى فى السودان وذلك حسب ظروفها وامكاناتها ، فالضرائب التى كانت تحصل من سنار — أحيانا — كانت تقل عن مثيلتها فى مديرية أخرى ، وخصوصا الضريبة التى حصلت عن العبيد (٢) .

وفيما يتعلق بسواكن كان المعتاد من قبل أن تؤخذ ضرائب عرفت باسم (عوائد الدخول) على البضائع المصدرة من سواكن الى جهات السودان الأخرى والواردة لها من هذه الجهات ، فقامت الادارة المصرية عام ١٨٦٦ بالغائها واكتفت بالجمرك القائم بتحصيل الرسوم

---

(١) Hill; Op. Cit., p. 14.

(٢) Douin; Op. Cit., p. 272.

على البضائع الواردة والمصدرة (١) ، ثم منحت عوائد القصابة (الجزارة) الى أحد الأفراد بسواكن على شكل التزام نظير مبلغ بلغ أربعمائة ريال سنويا ، وذلك عن المواشى التى تذبح بالبلدة أو ترسل الى جدة (٢) . وفى جنوب السودان صدرت الأوامر بعدم اضافة أعباء جديدة عليهم تزيد عما ألفوه من قبل ، نظرا لحداثة دخولهم بسالك المدنية (٣) .

وفى عام ١٨٧٥ شرع اسماعيل أيوب فى فرض ضرائب على أهاليها فجعل على كل فرد خمسين قرشا فى السنة ، وأكثر من ذلك قليلا على الأغنياء . وقد طلب من الحكمدار تخفيفها وجعلها من قرشين الى عشرة قروش حتى لا ينفر الأهالى منها . كما اقترح آخرون — أمثال سلاطين باشا — أن يقدم أهل دارفور ضريبتهم على هيئة عبيد (٤) .

هكذا تنوعت الأشكال الضرائبية فى السودان من مكان لآخر وطبقا للنشاط الاقتصادى الذى مارسه السكان ، ولم تكن هذه الضرائب بأشكالها المختلفة والتى فرضتها الادارة المصرية جديدة على المواطن السودانى وان اختلفت مسمياتها فقد تدرجت من « طلبيات » الى « فردة » ثم الى « فردة منظمة » وأخيرا وصلت الى ما يعرف باسم الضرائب بالمعنى المستخدم حاليا .

---

(١) محافظ ابحاث السودان — محفظة رقم ٢٤ ، دفتر رقم ١ ، منقول عن دفتر رقم ٢١١ ص ١٥١ بتاريخ ٢٦ ربيع الثانى عام ١٢٨٩ هـ . دار الوثائق بالقلعة .

(٢) شوقى الجمل : المرجع السابق . ص ١٠٦ .

(٣) امين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل . مجلد ٢ ص ٥٦٤ .

(٤) نعوم شقير : المرجع السابق . ص ٨٣ ، وانظر ايضا : سلاطين باشا : السيف والنار فى السودان . ص ٢٦ .

تحصيل الضرائب وأساليبه :

لقد شرعت الادارة المصرية منذ أن دخل اسماعيل كامل سنار فى تنظيم تحصيل الضرائب ، حيث أمر بتشكيل لجنة ثلاثية ضمت كلا من المعلم حنا الطويل وسعيد أفندى سكرتير الباشا ، والارباب دفع الله و د أحمد • ولعلنا نلاحظ أن هذه اللجنة كانت تضم عضوا من أهل البلاد السودانيين • وقد أمر اسماعيل بتسجيل المنازل وتقسيمها الى « عال » و « متوسط » و « دون » بالاضافة الى تسجيل الرقيق والقطعان التى كانت فى حوزة الأهالى (١) •

وقد شارك الشايقية فى تحصيل هذه الضرائب ، بالاضافة الى مشايخ البلاد ، وربما كانت مسألة اشراكهم فى هذه المهمة فكرة صائبة حتى لا ينفر السودانيون من أدائها لرجال الادارة المصرية بشكل مباشر • وفى بعض المديريات كان يطلب من المدير تعيين أفراد للقيام بهذه المهمة ، حتى يتم انجازها بصورة طيبة (٢) •

ويبدو أن ثمة مصاعب كانت تواجه القائمين على تحصيل هذه الضرئب وخاصة الضريبة الزراعية ، فقد كانت الضرائب التى تحصل عن السواقى فى بعض أجزاء السودان غير مطابقة للواقع ، وبمعنى آخر أن هناك مبالغة فى عدد السواقى التى كانت مسجلة بالدفاتر ، فبينما كانت هناك ٧٠٦ سواق فى بلاد الجعليين كان المقيد منها فى سجلات الضرائب ٢٤٣٧ ساقية (٣) •

---

(١) Holt, P. M., A Modern History of the Sudan p. 43.

(٢) دفتر رقم ٣٧٨ معية تركى ، ترجمة الافادة التركية رقم ٣٠٨١ بتاريخ ٢ رجب سنة ١٢٦٢ هـ ، افادة الى مدير دنقلة . دار الوثائق بالقلعة .

(٣) Hill, Op. Cit., p. 14.

ولقد أولى محمد على مسألة جمع الضرائب أهمية بالغة فكان يصدر أحكاما قاسية على أولئك المتهاونين فى تحصيلها • فقد أصدر أوامره ذات مرة « بوقف ترقية » أحد الضباط الكبار الذى كان يشـغل وظيفة مدير بربر وجاعلين لأن الكشف الوارد من لدنه لا يدل على أنـيه أصبح أكثر نشاطا من سلفه فى تحصيل الضرائب • كذلك فقد أصـدر فى ذات الوقت أمرا « برفت » أميرالاى المشاه الأول لاهماله فى تحصيلها أيضا (١) •

وفى المقابل كان يكافىء المجدين ، فقد بعث ذات مرة يشكر حكمدار السودان على نشاطه ومساعيه فى « تحصيل الأموال المتأخرة » ويطلب منه مكافأة أحد مديرى السودان لجهوده فى هذا الصدد (٢) •

ولا يفهم من ذلك أن القائمين على تحصيل الضرائب كانوا سوطا مسلطا على ظهور السودانيين ، فقد كان اسماعيل كامل يراعى الانسانية فى جمعها ، ويعمل على التخفيف منهـا تارة وتعديلها تارة أخـرى ، كما كان محمد على يندهش أحيـانا لأن العـدالة لـم تراع فى تحصيل الضرائب ، ويطلب بألا يتحمـل الفقراء والأهالى سـوى الضريبة التى تتفق وقدراتهم (٣) • وفى واحـدة من رسـائل محمد على الى الباشـا سر عسكر السودان فى عام ١٨٢٢ طلب منه تحصيل الضريبة « ••• على البيوت بحسب الأنفس ، لا على البـلاد والحلل (القرى) ، مع ضرورة تعيين مأمورين من ذوى العفـة والاستقامة والدراية ومعاملة الأهـالى

---

(١) دفتر رقـم ١٨٩ معـاونة اقاليم — مكاتبة رقـم ٨٨١ بتاريخ ٢٦ ذى القعدة سنة ١٢٥٧ هـ . من الجنـاب العالى الى حكمدار السـودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ١٨٨ معاونة اقاليم — مكاتبة رقم ١١٦١ بتاريخ ٢٥ ربيع الثانى سنة ١٢٥٧ هـ . من الجناب العالى الى حكمدار السودان انظر ايضا : دفتر رقم ٢٥٧ معاونة ايرادات — ترجمة الافادة رقم ٥٧ بتاريخ ٢١ محرم ١٢٥٧ هـ . الى مدير الايرادات . دار الوثائق بالقلعة .

(٣) Douin; Op. Cit., pp. 280-82-83.

بالرفق واللين ويذكره بأن كل أمر جديد لابد أن تكون له « مرارة بادية فى النفوس » (١) •

وفى رسالة أخرى الى حاكم دنقلة طلب محمد على اعفاء السواقى فى كل من قسمى « سكوت » و « محس » من الضريبة المفروضة عليهما لأن الجراد قد أكل المزروعات فى ٥٥٠ ساقية ، بل انه يوافق على أن يقترض أصحاب السواقى فى هاتين المنطقتين الحبوب اللازمة لطعامهم وزراعتهم السنوية من الشونة (٢) • وتسهيلا لأخذ الضرائب من بعض المناطق وافق الباشا أن يؤخذ الصمغ بدلا من الأموال النقدية ، وأحيانا الرقيق ، لأنه على حد قول الرحالة « بالم » الذى زار كردفان « أيسر على المرء أن يجد فى هذا الاقليم عبدا من أن يجد دولارا » (٣) •

وهكذا تضافر الجميع فى تحصيل الضرائب سواء من أهل البلاد كالمشايخ والشايقية ، أو من رجال الادارة كالحكمدار والمديرين وغيرهم ، وصدرت الأوامر لهم جميعا تدعوهم الى الرفق بالأهالى فى تحصيلها ومراعاة الظروف المحيطة بكل جهة من جهات السودان •

---

(١) امين سامى : تقويم النيل وعصر محمد على . ج ٢ ص ٢٩٦ .

(٢) دفتر رقم ٧٤٣ — خديوى تركى — سودان دنقلة — وثيقة رقم ١١٩ بتاريخ ٨ رجب سنة ١٢٤٣ هـ . من الجناب العالى الى قاسم اغا حاكم دنقلة . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) نسيم مقار : الرحالة جون بتريك . ص ٣٨ . وانظر ايضا : دفتر رقم ٤٣٨ معية تركى — وثيقة رقم ١١٢ بتاريخ ٢٧ شوال سنة ١٢٦٣ هـ الى حكمدار السودان ، وايضا دفتر رقم ٤٥ صادر معية عربى — صورة المكاتبة العربية رقم ٧٦ ، ص ٨٩٨ بتاريخ ١٩ شعبان سنة ١٢٦٦ هـ الى حكمدار السودان ، وأيضا دفتر رقم ٤٥ صادر معية عربى — صورة المكاتبة العربية رقم ٧٦ ، ص ٨٩٨ بتاريخ ١٩ شعبان سنة ١٢٦٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

موقف الشعب السودانى من الضرائب :

وعلى الرغم من تلك المحاولات التى بذلت لتيسير جباية الضرائب ، فقد كانت هذه المسألة الضرائبية من بين العوامل الرئيسية فى تفاقم الأحداث فى سنار عام ١٨٢٢ والتى تمثلت فى حركة تمرد هجر فيها السكان قراهم ، وانتهز بعض الموتورين من الحكم المصرى أمثال « حسن ود رجب » الذى أزكى نيران الفتنة ، وبدأ بعض السودانيين يفكرون فى الانقضاض على الحكومة ، بل انهم بدأوا بالفعل فهاجموا بعض الفصائل المصرية المعزولة وقتلوا كثيرا من أفرادها ، وكان ذلك فى مارس ١٨٢٢ . ولكى يبثوا الذعر والخوف فى نفوس الجنود أشاعوا بأن اسماعيل كامل قد قتل فى الجبال الموجودة بصعيد السودان ، وأن معظم جيشه قد أبيد ، وأن هناك هجوما مضادا ضد القوات المصرية . وانتقلت هذه الفوضى الى شندى وبعض القرى المجاورة لها ، وراحوا يقتلون كل من يقابلهم وحيدا من الجنود المصريين ، وهرب سكان حوالى خمسمائة قرية بين حلفاية وبين فازوغلى (١) .

ولما علم اسماعيل الخبر أسرع الى سنار ، وبدأ فى معالجة الأمور بحكمة بالغة فعامل الأهالى برفق ، ولم يقتل أحدا منهم سوى « ود عجيلاوى » وبدأ يفتش عن السبب المباشر لهذه الأحداث فعرف أنها الضرائب التى فرضها ديوان أفندى والمباشر حنا الطويل ، فلم يقبل تلك الأوضاع الجديدة التى اشتطا فى وضعها وتنفيذها ، وطلب موافاته بالدفاتر ليقوم بتعديلها فوجد أن المباشر قد أرسلها الى مصر فأوفد رسولا ليعود بها فلم يدركها . وأخيرا لامهم على ذلك وطلب منهم

---

(١) محفظة ١٩ بحر برا — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢١ بتاريخ غرة رجب ١٢٣٧ من اسماعيل باشا الى ولى النعم . دار الوثائق القومية بالقلعة .

انظر أيضا : حمدنا الله مصطفى : المرجع السابق . ص ٢٥٥ .

تحصيلها برفق من الأهالى • ومن العجيب حقا أن اسماعيل حين عاد من جبال فيزوغلى الى سنار ، وكانت نيران الفتنة مشتعلة وأفراد جيشه يواجهون القتل ، لم يلجأ الى استخدام القوة وهو الشاب الذى لم يتجاوز العقد الثالث من عمره ، وكان معه الايان من الجنود يمكنهما بأمر منه أن يعملا القتل والتخريب ، إلا أنه فضل اللجوء الى الأسلوب الهادىء لأنه على حد قوله « لو أخذناهم بالعقاب لأدى ذلك الى تشتت الآخرين والى خراب جديد ففضلنا أن نؤمن ونطمئن كل واحد منهم » (١) •

وقد كان موقف محمد على من هذه الأحداث فى جانب الشعب السودانى وضد القائمين على جمع الضريبة ، ففى رسالة له راح يخاطب ابنه اسماعيل قائلا « يا ولدى العزيز ان هؤلاء قد بالغوا وأفرطوا فى مسألة « الفردة » حتى نفروا الناس عنهم ، والصراط السوى هو مراعاة خطة الإعتدال فى كل شىء » • ثم مضى يلقى باللائمة على المباشر حنا الطويل ومساعديه قائلا : « ان حنا الطويل لا يفطن لهذه الدقائق وان ما تفعله هذه الطائفة فى سبيل كسب المنافع ليأتى فى الغالب مخالفا لقانون الحكومة » • وأخيرا طالب بضرورة البت فى أمر هذه « الفردة » وافراغها فى قالب موافق (٢) •

وهكذا نخلص الى أن تلك الأحداث الدموية التى جرت فى مستهل الادارة المصرية بالسودان كانت ترجع أساسا الى سوء تطبيق نظام الضرائب الجديدة على تلك البلاد •

ومن الأحداث المتعلقة بالضرائب فى عهد محمد على ما جرى فى

---

(١) محفظة ١٩ بحر برا ، نفس الوثيقة السابقة .

(٢) دفتر رقم ١٠ وثيقة رقم ٢٢٩ بتاريخ غرة شعبان سنة ١٢٣٧ هـ . من الجناب العالى الى ابراهيم باشا . وأنظر أيضا : مخطوطة تاريخ ملوك السودان . تحقيق الدكتور مكى شبيكه • ص ١٧ .

عام ١٨٣٦ حين قام عربان البشارية فى الصحراء النوبية بالامتنـاع عن دفـع الضرائب المسـتحقة عليهم ، وقيـام الكاشف محمد خربوطلى بمحاربتهم والاستيلاء على بعض الابل منهم بعد أن أوقع الهزيمة بهم ، ولكن المتمردين لم يقبلوا هذا الأمر الذى انتهى اليه حالهم فدبروا كمينا للكاشف حتى قتلوه بالاضافة الى قتل ثلاثة وعشرين من رجاله (١) . وفى مارس عام ١٨٤٤ تمرد أهل التاكة بسبب الضرائب التى فرضـت عليهم عقب ضم الاقليم ، الأمر الذى أدى الى أن يقـوم أحمد باشـا المنكلى حكمدار السودان بمحاربتهم . ويبـدو أنه كان من الصعب على عربان البشارية أو سكان التاكة فهم هذه الضرائب والأعباء التى بدأت الحكومة تطالبهم بها بشكل منظم وهم الذين اعتادوا على التنقل وحرية الحركة ولا سلطان عليهم سوى سلطان شيخ القبيلة الذى يحكم فيما بينهم وفقا لأعراف حفظوها ، أما أن يأتى محمد على بقوانين جـديدة فذلك شىء غريب ودخيل على حياتهم ، ومن ثم — من وجهة نظرهم — لابد وأن يقفوا فى وجهه وهو ما حدث بالفعـل ففهم المصلحة العامة فى ذلك الوقت لم يكن قد تبلور لدى سكان المدن فما بالنا ببـدو الصحراء وفى أوائل القرن التاسع عشر !

وقد انتقلت مقاومة الأهالى للضرائب الى طور آخر من أطـوار المقاومة ، طارحة شكل المقاومة المسلحة ، وهذا الطور الجـديد تمثل فى عمليات الهروب وهجر السواقى ، ففى أوائل عام ١٨٤٧ مثلا ، بلـغ عدد السواقى الخربة فى مديرية دنقلة بعد أن هجرها أصحابها حـوالى ١٢٦٣ ساقية . وكان ينبغى أن تدفع عنها ضرائب الى الحكومة ، فتقـدم المدير بشكوى الى المسئولين بمصر يشرح فيهـا هذه المسألة ويسألهم

---

(١) Hill, Op. Cit., p. 36.

وأنظر أيضا : دفتر رقم ٧٨ معية تركى — ترجمة الأمر الكريم رقـم ٣٥ بتاريخ ١٢ ربيع الآخر سنة ١٢٥٢ هـ من الجناب العـالى الى خورشيد باشا حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

المشورة تجاه ذلك (١) • ويبدو أن الاجراءات التى كانت تتبع فى جمـع الضرائب والتى لم يألفهـا السودانيون ، وخاصة قطاعات البدو منهم ، قد أدت الى هروبهم • فقـد رفض العربان المقيمون بمديرية التاكـة « دفع العوايد المقررة عليهم » والتجأوا الى مينائى سواكن ومصوع • وقد كان هذا الأمر واحـدا من الأسباب التى أدت الى ضم هذين الميناءين الى الادارة المصرية (٢) •

ولا ينبغى أن نقف طويلا عند مسألة هروب الفلاحـين والعربان السودانيين على اعتبار أنها ظاهرة انفرد بهـا السـودان تحت الادارة المصرية ، فنفس الظاهرة قد تكررت فى ذلك الوقت فى مصر • ومن أمثلة ذلك ما حدث بقرية « منية السيرج » التى كانت تقع قرب القاهرة آنذاك ، حيث قام بعض الفلاحين بالهروب منها من جـراء بعض الاجـراءات الادارية القاسية ، وقـد تلى عمليات الهروب هـذه أحكام قاسية على أولئك الفلاحين (٣) • ويبدو أن هذه الظاهرة لم تكن قاصرة حتى على فترات التاريخ الحديث فى مصر بـل كانت تضرب بجذورها فى أعمـاق

---

(١) دفتر رقم ٥٨٦ صادر ديوان الكتخدا — وثيقة رقم ٢٣٤٣ بتاريخ ١٥ ربيع الآخر . ١٢٦٣ هـ . كتاب الى مدير المديرية . دار الوثائق القومية بالقلعـة .

(٢) دفتر رقم ١٠٠١ وارد نظارة المالية من مختلف الجهات — وثيقـة رقم ١٩٦ ، بتاريخ ١٦ رجب ١٢٦٣ هـ . بند المعية ، وانظر ايضـا : دفتر رقم ٤١٩ — معية تركى . بتاريخ ٢ صفر ١٢٦٢ هـ . من حكمدار السودان الى المعية .

انظر ايضـا : محفظة رقم ٢٧١ عابدين — ملف احمـد باشا حكمدار السودان — مكاتبة بتاريخ ٩ جمادى الأولى ١٢٥٦ هـ .

وانظر ايضـا : دفتر رقم ٤١٣ صـادر المعية السنية — وثيقة رقم ٣٢٦٩ بتاريخ ١٧ جمادى الآخر ١٢٦٣ هـ . كتاب الى مدير التاكة .

انظر ايضا : دفتر رقم ٨ عابدين — ترجمة الخطاب رقم ٤٢٩ بتاريخ ٩ ذى الحجة ١٢٦٢ هـ . من الجناب العالى الى الباب العـالى دار الوثائق القوميـة بالقلعـة .

(٣) F. O. 78-582. No. 4. Alexandria. 24th. 1844. J. L. Slodart the Earl of Abearden.

التاريخ المصرى قديمة ووسيطة ، وكانت تمثل لونا من ألوان المقـاومة السلبية لتلك الحكومات (١) .

واستمر ضجر الأهـالى من العبء الضرائبى الى عهـد الخديوى اسماعيل ، وقد عبروا عن هذا الضجر ـ أحيانا ـ فى شـكل شكاوى ، ففى أكتوبر عـام ١٨٧٠ وردت شكوى من بعض الأهالى ببربر بسبب زيادة ضرائب السواقى والأطيان والنخيل عليهـم ، فطلب المدير كشف ببيان ذلك فعلم أن الزمام الذى كان مربوطا فى عام ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ / ١٨٦٣ م) بواقع الساقية الواحـدة ٢٣٥ قرشا فى العـام ، والفدان من الجزائر ٢٥ قرشا ، والفدان من الجروف والعتامير عشرين قرشا ، والنخيل كل واحدة ٢٠ر١ قرشا . وفى عام ١٢٨٠ هـ (١٨٦٣ / ١٨٦٤) أضيف على كل ساقية ٧٥ قرشا وعلى فدان الجزائر ١٥ قرشا ، وعلى فدان الجروف ٣٠ر١٣ قرشا . وفى عـام ١٢٨٣ هـ (١٨٦٦ / ١٨٦٧) أضيف على كل ساقية ١٥٠ قرشا وعلى فدان الجزائر ٢٠ قرشا والجروف ٣٠ر١٦ قرشا والعتامير عشرة قروش ، وكل نخـلة قرشا واحـداً . وكان مجمـوع ما على العربان من ضرائب ٣ر٤٠٣٤٨٧ قرشا وبذلك تكون قد وصلت الى ١٨ر٦٧٢٤٧٨ قرشـا عـدا أجـور المستخدمين التى اضيفـت الى الضرائب . ونتيجة لكل هذه الزيادات ، بالاضافة الى الأعباء المضـافة اليها كأجـور لجامعيها أصبحت ضريبة السـاقية من ٢٧٥ قرشـا الى ١٠ر٥٣٤ قرشا ، وفدان الجزائر ٢٢ر٣٢ قرشا (٢) ، كما أشارت الشكوى

---

(١) انظر المقالات الآتية بكتاب « الأرض والفلاح » الصادر عن الجمعية المصرية للدراسات التاريخية : د . عبد العـزيز صالح : الأرض والفـلاح فى مصر الفرعونية . ص ٦٢ ، د . مصطفى كمـال عبد العليم : الأرض والفـلاح فى عصر البطالمة . ص ١٠١ ، د . مصطفى العبادى : الأرض والفلاح فى مصر الرومانية . ص ١٣٥ ، د . سيدة كاشف : الأرض والفـلاح فى مصر الاسـلامية . ص ١٩٦ .

(٢) دفتر رقم ١٨٤٩ وارد المعية ، ص ١٣ ، صورة المكاتبة الواردة من مديرية بربر الى المعية السنية رقـم ٤ بتاريخ ٢٠ شعبان سـنة ١٢٧٨ هـ (أكتوبر ١٨٧٠) دار الوثائق القومية بالقلعة .

أيضا الى أن مساحة الأراضى التى تؤخذ عنها ضرائب لم تعد ثابتة طوال العـــام نتيجة ما يطرأ عليهـــا من « أكل البحر وطرحه » • كذلك فقـــد أدت هذه الأحوال السيئة الى « تسحب » (هروب) الأهالى نتيجة تراكم هذه الضرائب وعجزهم عن سدادها (١) •

وهكذا يبدو جليا أن حجم الضرائب قد بدأ يزداد تدريجيـــا عن ذى قبل ســـواء فى عهد محمد على أو محمد سعيد حين كانت الزيادات تدريجية بينما أصبحت الآن على عهد اسماعيل حادة • ورغم كل الجهود التى بذلها محمد سعيد من قبل وحدوث بعض الاستقرار فى هذه الناحية ، فقد بدأت المشكلة تطل برأسها فى عهد اسماعيل وبشكل حاد ، واستمرت فى التـــدهور وازدادت معهـــا الشكوى من لدن الأهالى • ففى عـــام ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥) أرســـل عمدة « الشباك » بقســـم حلفا بكرسكو الى المسئولين بمصر يعرض لمسألة الضرائب المتحصلة عن النخيل فيقول ان الضرائب التى كانت تحصل على النخيل فى عهد محمد على باشا كانت على النحو التالى : النوع العالى (الممتاز) كان يحصـــل عنه قرش وعشر قضات ، والمتوسط خمسة قروش وثلاثون فضة وعن « الـــدون » وهـــو أرادأ أنواع النخيل ثلاثون فضة ، واستمر هذا الوضع حتى عام ١٢٧٨ هـ (١٨٦١ م) • وفى عـــام ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ / ١٨٦٣) صدر أمر بتعيين محصول النخيل بالعشور واســـتمر ذلك حتى عـــام ١٢٨١ هـ ، ١٢٨٢ هـ (١٨٦٦ م) ثم فرضت بعد ذلك ضريبة تتراوح ما بين ثلاثة قروش الى أربعة قروش • ثم يضيف قائلا وبذلك حدث لنا الضرر والتعب ، ثم حدث نتيجة تقديم عدة « عرضحالات » للمديرية والمفتش والخديوى ان صدر الأمر باجراء التعـــداد وربط ضرائب النخيل بالعشـــور وذلك فى عـــام ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ / ١٨٧٠ م) (٢) •

---

(١) نفس الدفتر والوثيقة السابقة .

(٢) دفتر رقم ٣١ عابدين — وارد تليغرافات — صورة التلغراف العربى رقم ٥٤٩ بتاريخ ٩ جمادى الآخر سنة ١٢٩٢ هـ . من حمزة سليمان عمـــدة الشباك بقسم حلفـــا بكرسكو الى مهردار خديوى . دار الوثائق القوميـــة بالقلعـــة .

واستمرت الحالة الضريبية فى تلك المنطقة تتذبذب بين مد وجـزر إلى أن أصبحت الضريبة كالتالى : سبعة قروش وعشرون فضة على النوع العالى (الممتـاز) ، وخمسة قروش عن المتوسط ، وثلاثة قروش وعشر فضـات على الدون . وفى عـام ١٢٩١ هـ (١٨٧٥ م) سـددت الضريبة كالتالى : ستة قروش عن النـوع العالى ، وأربعة قروش عن المتوسط ، وقرشان وثلاثون فضة عن الدون . ويختم صاحب هذه الشكوى قائلا : انه لا قدرة لديهم على دفع مثل هذه الضرائب نظرا لضيق « معليشهم » فى تلك البلاد وتشتت أهاليهم للعمل فى خارج القرى سـواء فى السودان أو خارجه بمصر . ولم يعد يوجد بتلك المناطق سـوى النساء والضعفاء والفقراء من غير القادرين على دفع الضرائب ، بالاضافة الى أن النقـد كان يعوزهم وكل ما كان بيدهم منه يستبد لونه بالغلال التى يجلبها التجار اليهم من بلاد أخرى . وقد التمس صاحب الشكوى ، بالانابة عن هؤلاء جميعا ، التخفيف من الضرائب أو معاملتهم بحسب المنشـور كمـا كان سابقا (١) . من ذلك يتبين لنا أن الوضع الضرائبى كان عبئا ثقيـلا على المواطن السودانى وكان لابد أن تجرى بعض الاصلاحات فى هذا السبيل .

الاصـلاحات الضرائبية :

(أ) فى عهـد محمـد على :

لقد جرت محاولات فردية وعلى فترات متفاوتة فى عهد محمد على لاصلاح الوضع الضرائبى فى السودان ولكنها لم تثمر نجاحا كبيرا ، ومن هذه المحاولات ما تم فى عهد خورشيد حين اقترح تعديل ضريبة السواقى طالبا من المجلس الخصوصى تطبيق النظام الضرائبى السائد فى مصر ، وذلك بمسح الأراضى وربط الضريبة عليها وذلك بدءا من عام ١٢٤٣ هـ (١٨٢٨ م) (٢) .

---

(١) نفس الوثيقة السابقة .

(٢) محفظة ١٩ بحر برا — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢١ بتاريخ غرة رجب سنة ١٢٣٧ هـ من اسماعيل باشا الى ولى النعم . دار الوثائق القومية بالقلعـة .

كذلك فقد جمع هذا الحكمدار مشايخ البلاد وطلب منهم اختيار شيخ من بينهم ينوب عنهم فى تعديل نظام الضريبة فاختاروا الشيخ عبد القادر الذى أشار عليه بضرورة اعفاء الفقهاء والأعيان منها حتى يتسنى لرجال الادارة الاستعانة بهم فى تسكين روع الأهالى وعودتهم الى أوطانهم التى هجروها ، وبالفعل فقد استجاب خورشيد لنصيحته (١) .

(ب) **فى عهد سعيد :** ويبدو أن مثل هذه الحلول لم تكن ذات فعالية الى أن قرر سعيد باشا فى عام ١٨٥٧ القيام بزيارة الى السودان وبدأ فى وضع علاج جذرى لمسألة الضرائب وخاصة تلك المتعلقة بالأوضاع الزراعية التى كثرت الشكوى حيالها . ويبدو أن سعيد قد آل على نفسه أن ينصف الفلاح السودانى كما حاول انصاف الفلاح المصرى من خلال اللوائح والقوانين الزراعية التى أصدرها . فلما وصل الى السودان لاحظ مدى الحالة السيئة التى يعيشها الأهالى بسبب كثرة الضرائب المربوطة على السواقى والأطيان فضلا عن الأعباء الأخرى المطلوبة منهم (٢) .

وقد طلب أن تجمع الأموال من الأهالى حسب طاقتهم حتى يسكن روعهم ويعمروا أوطانهم بدلا من الهروب منها . وازاء ذلك كله قام بسؤال المشايخ والأهالى الذين حضروا اليه وهو قادم من حدود بربر عن الاسلوب الأمثل الذى يؤدى الى راحتهم ويمكنهم من خلاله دفع الضرائب دون أدنى مشقة ، فطلبوا منه أن يحصل مال كل ساقية بواقع مائتين وخمسين قرشا ولكن محمد سعيد أمر بانزال هذا المبلغ الى مائتين فقط عن كل ساقية رغبة فى كسب حب الأهالى وجذب قلوبهم وخاصة

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق . ج ٣ . ص ١٩ ، ٢٠ .

(٢) دفتر ١٨٨٦ أوامر عربى .

صورة الأمر الكريم رقم ٣٥ ص ٣٣ بتاريخ ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٢٧٣ هـ أمر كريم الى احمد على بشير شيخ ناحية احمد على بشير بخط المتمة . دار الوثائق القومية بالقلعة .

أولئك الذين هربوا من البلاد (١) • وأما الأطيان الأخرى كأطيان الجزائر فقد قرر أن تؤخذ على الفدان الواحد خمسة وعشرون قرشا ، وعلى الفدان الواحد من أراضى الجروف عشرون قرشا (٢) • وهكذا استطاع سعيد أن يدخل السعادة الى قلوب الأهالى الذين عاهدوه ببذل قصارى جهدهم ، واستجلاب قلوب من هربوا من البلاد حتى يعودوا الى عمار الأراضى • ثم طلب أيضا من الأهالى والعمد أن يرشحوا هم أنفسهم مديرا عليهم من بين المشايخ والمكوك حتى يؤدوا عن طريقه الضرائب المستحقة عليهم ، فاذا رفض البعض أن يكون هناك واسطة بينهم وبين الحكومة فيمكنهم فى هذه الحالة سداد ضرائبهم مباشرة الى الديوان • كما أقر بأن لا تحصل أية مبالغ اضافية عن المقرر ، وأن يكون التوريد فى « موسم الرواج » أى وقت ظهور المحصول • ولما كان محمد سعيد باشا يعلم أن المشايخ فى تلك البلاد يقومون بأعباء كبيرة فى جمع الضرائب بالاضافة الى خوفه من أن يقوم هؤلاء المشايخ بجمع أموال تزيد عن المطلوب ، فقد قرر لكل شيخ « مسموحا » مقداره ساقية واحدة عن كل خمسة وعشرين ساقية من أراضيهم لا تؤخذ عليها ضرائب ، وطلب كذلك أن لا تؤخذ أموال عن الأراضى « الشراقى » التي تنشأ عن عدم فيضان النيل أو عدم نزول الأمطار (٣) •

وازاء تلك الاصلاحات الضرائبية كان من الطبيعى أن يعود أولئك الفارون من الضرائب الى أراضيهم القديمة ، وهنا نشأت مشكلة جديدة بسبب عودتهم • حيث أن الأراضى التى هجروها أصبحت تحت أيدى آخرين • وقد أوجد لها سعيد حلا فقرر ان كان أصحاب الأراضى الفارون قد مضى على هروبهم خمسة عشر عاما وأصبحت أراضيهم تحت أيدى

---

(١) دفتر ١٨٨٦ اوامر عربى — نفس الوثيقة السابقة •

(٢) نفس الدفتر والوثيقة •

وانظر ايضا : Abbate; op. cit., p. 30

(٣) دفتر رقم ١٨٨٦ — اوامر عربى — نفس الوثيقة السابقة •

آخرين تعطى لهم أراض جديدة من أراضى « الناحية » وان لم تكن قد مضت هذه المدة يستردوا أطيانهم القديمة ويمنح واضع اليد أطيان غيرها [١] .

كذلك فقد تجاوز محمد سعيد عن الضرائب المتأخرة التى كانت على الأهالى وطلب من المسئولين فى السودان أن ينفذوا هذه الأوامر والوصايا وخاطبهم قائلا : « ... واعلموا انه اذا لم تحفظوا هذه الوصايا وتجروا العمل بموجبها ، بل تركتم كل ذلك وعدلتم عن الحق ، وحصل منكم ظلم أو غدر لأى إنسان نعاقبكم بأشد العقاب .. كونوا على حذر من ذلك ... » [٢] وهكذا استطاع محمد سعيد بتلك الاصلاحات الضرائبية أن يصحح كثيرا من الأخطاء التى وقع فيها من سبقوه ، واستطاع — على سبيل المثال — أن يعيد كثيرين ممن هاجروا من مديرية بربر الى كردفان والنيلين الأبيض والأزرق ، وكذلك المهاجرين من اقليم التاكة والسودان الشرقى عموما . ومعروف أنه بهجرتهم هذه من بلادهم الأصلية قد أضافوا أعباء ثقيلة على كاهل الذين بقوا ولم يهاجروا معهم فتحملوا نصيبهم من الضرائب . وزاد الحال سوءا ان رؤساء القبائل والزعماء والشيوخ المحليين ، وهم المكلفون بتحصيل الضرائب وتوريدها للحكومة انتهزوا الفرصة واستغلوا هذا النظام الضرائبى لمصلحتهم الشخصية . وقد هيأ لهم كبارهم وصغارهم الفرصة لمثل هذه الأفعال . فقد بلغت الضرائب عن الساقية الواحدة فى اقليم النوبة ما قيمته ثلاثة جنيهات انجليزية سنويا ، وان كانت مديرية بربر وحدها تدفع سنويا ستة آلاف كيس كضريبة أى حوالى ثلاثين الف جنيه سنويا [٣] .

---

(١) نفس الدفتر والوثيقة السابقة ، انظر ايضا امين سامى : تقويم النيل وعصر عباس حلمى باشا ومحمد سعيد — المجلد الاول ص ١١٢ ، ايضا زاهر رياض . السودان المعاصر ص ٧٨ ، وايضا : محمد احمد الجابرى : فى شأن الله . ص ٢٤ .

(٢) دفتر رقم ١٨٨٦ — نفس الوثيقة السابقة .

(٣) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان . تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ١٨٢٠ — ١٨٩٩ — ص ٧٠ .

واستمرارا فى سياسة محمد سعيد الضرائبية فى التخفيف عن المواطن السودانى قام فى مايو ١٨٥٧ باصدار أمر له باعفاء بعض رجال العلم بمديرية كردفان من الأموال المقررة عليهم ، بناء على طلب منهم حيث أنهم كانوا يقومون بمهمة التعليم وانه ، على حد تعبيره ، كان من شيمته اكرام أهل العلم وضرورة تحبيب المواطنين فى نشر العلوم (١) • كذلك فقد طلب فى نفس العام من مدير التاكة أن يعيد النظر فى مقدار الزمام المربوط على كل قبيلة من العربان المقيمين بهذه المديرية وأن يرفع منه الثلثين ويقيد الثلث الباقى عليهم (٢) •

وعلى الرغم من تلك الجهود المضنية التى بذلتها الادارة المصرية فى السودان على عهد محمد سعيد لحل المسألة الضرائبية فقد استمر بعض العربان والمشايخ فى الهروب واللجوء الى أماكن بعيدة عن أعين السلطة الحكومية حتى لا يدفعوا نصيبهم فى الضرائب • وقد أرسل محمد سعيد باشا فى أغسطس عام ١٨٥٨ الى سلطان الحبشة يشرح له مسألة أولئك الهاربين الى تخوم بلاده هربا من الضرائب ، ويطلب اليه معاونته فى اعادتهم الى السودان (٣) • وللأسف الشديد — كما هو واضح تماما — فان قطاعات كبيرة من الأهالى لم تزل عند أفكارها البالية حول مفهوم الضريبة وارتباطها بالمصلحة العامة التى سوف تعود بالنفع على جميع الأهالى • وتبدو الأصابع الأجنبية سافرة تعبث وتثير الشكوك

---

(١) دفتر ١٨٨٦ اوامر عربى — صورة الأمر الكريم رقم ٨ ص ١٦ بتاريخ ١٣ شوال سنة ١٢٧٣ هـ • أمر كريم الى مدير كردفان • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) دفتر رقم ١٨٨٦ — اوامر عربى — صورة الأمر الكريم رقم ٨ ص ٣٧ بتاريخ ٥ رجب سنة ١٢٧٣ هـ • أمر كريم الى مدير التاكة • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) دفتر رقم ١٨٩٠ أوامر عربى — صورة الفرمان العربى رقم ٨٩ ص ٤١ بتاريخ ٢١ محرم ١٢٧٥ هـ فرمان من محمد سعيد باشا الى سلطان البلاد الحبشية • دار الوثائق القومية بالقلعة •

حول الجهود التى يحاول بذلها محمد سعيد فى السودان ، من خلال الحوار الذى دار بين الباشا وبين أحد المسئولين الانجليز بمصر آنذاك حول أهمية رحلة محمد سعيد الى السودان والآمال المرجوة من ورائها •
فقد أشار الباشا لهذا المسئول عن ضرورة اعادة تنظيم الادارة فى السودان على أسس جديدة وافساح المجال للعناصر السودانية بدلا من أولئك الحكام الذين لا هم لهم سوى الابتزاز • وقد وافقه المسئول الانجليزى على ضرورة اجراء مثل هذه الاصلاحات ، ولكنه أبدى تحفظا غريبا ، حول الآمال المرجوة من تلك الاصلاحات التى يرمى اليها الوالى ، مؤداه أنه لا يستطيع أن يرسم صورة للنتائج المستقبلية لتلك التدابير التى تبناها محمد سعيد [1] وهكذا يبدو التشكيك واضحا من جانب كبار المسئولين الانجليز بمصر فى قيمة الأفكار الاصلاحية التى كان الباشا ينوى اجراءها فى السودان • ولكن محمد سعيد لم يستمع الى مثل تلك الأفكار المثبطة للهمم فى جدوى اصلاح السودان ، والتى بلغت قمتها فى اطلاق اشاعة تقول بأن الباشا كان ينوى ترك السودان ، بل مضى فى تنفيذ برامجه الاصلاحية فى السودان وعلى رأسها الاصلاح الضرائبى وسط تلك المتاعب •

(جـ) فى عهد اسماعيل:

وفى عهد الخديوى اسماعيل كان لابد من اجراء تعديلات وتنظيمات جديدة فى مسألة الضرائب تتواكب والظروف الجديدة • وبالفعل قام حكمدار السودان موسى حمدى (١٨٦٣ — ١٨٦٥) بعقد مجلس مع المديرين ومشايخ البلاد وأعيانها لمناقشة الضرائب ، وأسفر هذا الاجتماع عن ايجاد نظام جديد مؤداه ان كل فلاح لابد أن يحصل على « بيركى » ويكون بحوزته ليدفع بمقتضاه الضرائب المستحقة عليه على

---

(1) F. O. 78 - 1200, No. 52, November 4 th. 1858. Fredrick A. Bruce to the Earl of Clordon.

ثلاثة أقساط معينة فى السنة ، وكلما دفع قسطا منها قيد له فى السركى الذى بيده ، مثلما يقيد فى يومية الصراف (١) .

وفيما يتعلق بمسألة الضرائب فى أجزاء البحر الأحمر مثل سواكن ومصوع فى ذلك الوقت ، يطالعنا أحد التقارير المقدمة من محافظ مصوع وقت تسلم الادارة المصرية لهـا فى عام (١٢٨٣ هـ ـ ١٨٦٦ م) حيث يشـير الى تلك الفوضى التى كانت متبعة فى تحصيلها من قبـل ذلك التاريخ ، مما جعله يضطر الى طلب حضور مشايخ العربان الذين يدفعون أموالا فى مصوع واجراء تحقيقات فى المتأخرات عليهم وجهـا لوجه ، كما أرسل مكاتبات الى باقى الأهالى ممن يدفعـون الضرائب للحضور . وخلال هـذا الاجتمـاع تبين أن شخصين من عائلة واحـدة ادعيا أن جديهما منذ عصر السلطان سليم كانا يقومان بتحصيل « العشور » ولهم دراية بحـالة هذه البـلاد وقبائل « الحبـاب » التى تقطنها وبدافعى الضرائب والعشور . فقام باستدعائهما . ومن المعلومات التى استقاها منهما وضع نظاما تقريبيا عن أماكن القبـائل المقيمة بهـا ، وأوضاعها المختلفة ، كذلك فقد علم ان الطريقة التى كانت تتبع من قبـل فى تحصيل العشور تتم عن طريق أحد ابنى العـم سالفى الذكر والذى كان يلقب بلقب (نائب) ويقوم بتحصيل العوائد من القبائل والرسوم على البضائع والأشياء الواردة من الحبشة الى مصوع نظير ألف (فرانسة) من ايراد الجمرك ، وكان هذا الأمر مدعاة للنزاع بين ابنى العـم . ولكن حسن رفعت رأى أن يخصص مرتبا منتظما قدره ٧٥٠ قرشـا شهريا لكل من

---

(١) الياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهـد الخديو اسماعيل باشا من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٩ . المجلد الثانى ص ٢٨ ، انظر ايضا : نعـوم شـقير : المرجع السـابق . ج ٣ ص ٣٣ ، انظر أيضـا : محمد صبرى الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر . ص ١٨ ، انظر ايضـا : ابراهيم فوزى : السودان بين يدى غوردون وكتشنر ، الجـزء الثانى ص ٦٧ .

هذين الشخصين مع تخصيص مرتبات مناسبة ببعض أقاربهما [1] .

وفى جهات طوكر كان المسئولون عن الضرائب فيهـا يمهلون بعض المزارعين عدة شهور فى أدائها ، نظرا لانشغالهم فى أمور الزراعة كمـا حدث بالنسبة لعربان « أرتيقه » عـام ١٨٧٠ [2] . فقد كانت أمـور الزراعة لا تقل فائدة عن غيرها خاصة وأن تلك الجهات كانت تتميز بزراعة القطن . وكان المسئولون يبعثون برسـائل عديدة الى جهـات سواكن وما حولها كى يكف الجنود عن طلب أموال الميرى المقررة على الزراعـة وأن يترك هذا الأمـر « لملاحظ » العربان ، حتى لا ينفرونهم منها [3] .

(د) اصلاحات رؤوف باشـا :

وفى أواخر عهد الخديوى اسماعيل بدأ تفاقم الوضـع الضرائبى فى السودان فكثرت الشكوى من لدن الأهالى ، لدرجة أن بعضهم كان يفضل موتا جمـاعيا على أن يدفـع ريالا واحـدا حيث ذاع المثل القـائل : « عشرة فى التربة ولا ريال فى الطلبة » [4] .

وهناك من يفسر ضجر الأهالى منها فى هـذه الآونة ، فيذهب الى أنها لم تكن موزعة توزيعا عادلا إذ كانت شـديدة على الفقراء خفيفة على الأغنياء [5] . وليس المقصود بأنهـا كانت خفيفة على الأغنياء ان

---

(١) محفظة رقم ٣٨ معية تركى — ترجمـة المكاتبة رقم ٢٢ بتاريخ ٦ المحرم ١٢٨٣ هـ انظر ايضـا : شوقى الجمـل : سياسة مصر فى البحـر الاحمـر . ص ٦ .

(٢) محافظة سواكن — عربى صادر ، جـ ٦ ، دفتر رقم ٤ / ٢ / ٥ /٣٢ (رقم قديم ٣٥٨٥) مكاتبة رقم ٣٧٦ فى ٧ ج سـنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) . دار الوثائق القومية بالقلعـة .

(٣) محافظة سواكن — عربى صادر ، دفتر رقم ٤ / ٢ / ٥ / ٢٨ ، مكاتبة رقم ٨١ بتاريخ ١٦ ل سنة ١٢٨٦ هـ . (١٨٦٩) دار الوثائق القومية بالقلعـة .

(٤) Mekki Abbas; The Sudan Question p. 30.

(٥) نعوم شقير : المرجع السابق . جـ ٣ . ص ١١٠ .

الحكومة هي التي شرعت ذلك في قوانينها ، ولكن المقصود بذلك أن الأغنياء كان بمقدورهم استمالة المأمورين لقربهم منهم ومن بقية الحكام ، بالاضافة الى أن جانبا كبيرا من أملاك الأغنياء والمأمورين في السودان كانت معفاة من الضرائب . كذلك فقد تولى عملية تحصيل الضريبة جماعات « الباشبوزق » الشايقية والأكراد والمغاربة الذين تم على أيديهم ضم السودان عام ١٨٢١ فاستعملوا القسوة في تحصيلها . وأكثر من ذلك أن المأمورين لم يكتفوا بالضرائب الرسمية بل راحوا يفرضون على الأهالي « فرضا » غير رسمية يقومون بتحصيلها مع الضرائب (١) . ويتفق مع هذا التفسير سلاطين باشا الذى عمل مفتشا ماليا في السودان عام ١٨٧٩ وطلب اليه – حينذاك – أن يقوم بجولات في أرجاء السودان ويفحص شكايات السودانيين المعارضين لدفع الضرائب (٢) . فقد لاحظ هذا الرجل من خلال جولاته كثيرا من الأراضى التى كان يمتلكها الموظفون الحكوميون والتى لا تؤخذ عنها ضرائب البته ، ولما سأل عن سر ذلك أجيب بأن هذا امتياز للموظفين نظير خدمتهم للحكومة ، وكانوا يستاؤون تماما إذا ما قيل لهم أنهم يتناولون أجرا لقاء خدمتهم (٣) .

وفى مايو عام ١٨٨٠ قام رؤوف باشا حكمدار السودان بوضع تقرير مطول عن أوضاع السودان عامة والاقتصادية منها على وجه الخصوص ، حاول فيه أن يقدم صورة حقيقية للأوضاع التى كانت سائدة آنذاك ، وخاصة فيما يتعلق بجباية الضرائب . فمن بين ما لاحظه بمنطقة (وادى الحجر) التابعة لمديرية دنقلة أن الأهالى عقب سقوط الأمطار يقومون بنقل الطمى والأتربة من النيل الى الأراضى الحجرية لزراعتها رغم وجود أراضى صالحة للزراعة فسألهم عن سر ذلك فأجيب « ... بأن ذلك ناشيء عن ضعف حالهم وعدم تحملهم لدفع مالية

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق جـ ٣ . ص ١١٠ .
(٢) سلاطين باشا : المصدر السابق . ص ٣ .
(٣) نفس المصدر . ص ٣ .

سواقى الأراضى الصالحة للزراعة إذ أنها بلغت خمسمائة قرش سنويا ، وما يتحصل منها لا يكفى مصروفاتها وسداد ماليتها ... » (١) واقترح الحكمدار لحل هذه المسألة بوادى الحجر أن تخفف الضرائب عن كاهل الأهالى .

وفى كرسكو لاحظ الحكمدار أيضا « ... أن الميرى مربوط له عوايد على كل « حمل » يدخل منها لبربر .. » (٢) ، وأن هناك « قبانيا » وناظر شونة اتحدا فيما بينهما وبين ناظر شونة (أبو حمد) فى أخذ مال الحكومة لأنفسهم . واقترح الحكمدار حلا لذلك بأن يحال تحصيل العوائد الى متعهد خاص عن طريق « .. اشهارها فى صورة مزاد ، ويقوم الشخص الذى يرسى عليه العطاء بدفع مبلغ معلوم للحكومة » ، شريطة أن تقوم الحكومة بتحديد ما يأخذه هذا المتعهد على كل حمل وأن يقوم بدفع مرتبات سائر الموظفين بتلك الجهة (٣) . وفى كرسكو أيضا تذمر الأهالى من ارتفاع الضريبة المقررة على سواقيهم والتى تراوحت بين ٦٢٠ قرشا الى ٦٤٠ قرشا على الرغم من أن السواقى بمديرية دنقلة القريبة منها كانت ضريبتها ٥٠٠ قرش وكان من نتيجة ذلك كله هروب الأهالى وترك السواقى خرابا ، فاقترح الحكمدار أيضا تخفيض الضريبة (٤) . وقد تكررت نفس الشكوى من قسوة الضرائب على الأهالى فى كل من بربر والخرطوم حيث شاهد الحكمدار بنفسه آثار شدتها عليهم ومدى تفاقمها الى صورة سيئة عن ذى قبل حين زار أراضى الخرطوم — كما أشار بالتقرير — منذ اثنى عشر سنة حين كانت سواقى الأهالى عامرة وأصبحت الآن خرابا (٥) .

---

(١) تقرير حكمدار السودان محمد رؤوف باشا ، بتاريخ ٢٨ مايو عام ١٨٨٠ مودع بمحافظ السودان ، تحت عنوان : موضوعات (محفظة بدون رقم) بدار الوثائق القومية بالقلعة .
(٢) نفس التقرير .
(٣) نفس التقرير .
(٤) نفس التقرير .
(٥) نفس التقرير .

وقد طلب الحكمدار الكشوف المقيدة بها حسابات تلك المناطق منذ عشر سنوات فتبين له أن أصل أموال تلك الجهات المذكورة فى تلك السنوات قد بلغت ٣١٤٨١٧٥ جنيها ، وأن ما تم دفعه منها بلغ ٢٩٦٢٧١١ جنيها والباقى مبلغ ٨٧٧٤٦٤ جنيها ، ومن ذلك وضح له أن ليس فى مقدور الأهالى تحمل دفع هذه الأموال . ويفسر الحكمدار سر هذا التأخر فى سداد الأموال (الضرائب) بأن الحكمدار السابق جعفر مظهر باشا (١٨٦٦ ــ ١٨٧١) كان « قد أجرى علاوة ثلثى المال » على جهات السودان عموما ، ومنذ ذلك الوقت بدأ الأهالى فى تأخير السداد (١) .

وعقب هذه الجولات الطويلة التى قام بها رءوف باشا فى جهات السودان لتلمس جذور المشاكل التى كانت تعانى منها البلاد ، ومن بينها الضرائب على وجه الخصوص ، ومناقشة هذه المشاكل جميعا على الطبيعة ، اقترح حلا جذريا لهذه المشكلة يتلخص فى رفع « ربع » الضريبة المقررة على الأهالى فى السودان وبعدها يمكن أن تزدهر الزراعة بعد أن تعود السواقى الخربة الى العمل وبالتالى يمكن زيادة ايرادات السودان (٢) .

ويبدو أن هذا العلاج الذى وضعه رءوف باشا عام ١٨٨٠ لم يأت بنتيجة فعالة ، أو بمعنى أدق لم تتح له الفرصة الطويلة كى يأتى أكله حيث داهمته أحداث الثورة المهدية .

وتعليقا على هذه النتائج السيئة راح البعض يفتش عن تلك العوامل التى أدت الى تفاقم الوضع الضرائبى فى السودان وأرجعها الى تلك القوانين الضرائبية التى فرضتها الإدارة المصرية بالسودان ذات العيوب

---

(١) نفس التقرير . ورقة رقم ٥ .
(٢) نفس التقرير . ورقة رقم ٥ .

أو الثغرات ، فقد ظلت تلك القوانين لفترة طويلة دون تعديل جذرى اللهم إلا فيما أجراه محمد سعيد باشا خلال زيارته للسودان ، فظل القانون الضرائبى هناك فى مجمله وجوهره ولم يتطور والظروف الجديدة حتى قيام المهدية . وكان ينبغى أن يفطن المسئولون الى ذلك التطور الذى حدث فى حياة السودان الاقتصادية نتيجة للمشروعات العمرانية التى جاء بها الحكم المصرى حيث تعدل معها توزيع الثروة على السكان ، الأمر الذى كان لابد أن يصحبه تطور جديد فى أنظمة الضرائب يتم من خلالها توزيع هذه الأعباء توزيعا عادلا . وبالتالى يمكن رفع عبء الضريبة عن فئة لم تعد هى الفئة الممولة فى المجتمع السودانى . لقد ظلت فئات المزارعين والبدو وبعض الشرائح الفقيرة من السكان هى التى تدفع الضريبة ، بينما الفئات الأخرى ممن يمكن أن نطلق عليهم كبار التجار ، وكبار الموظفين والمشايخ فى الدولة من الذين نالوا مراكز كبيرة فى سلك الادارة يتهربون من الدفع ، كذلك فقد وجدت طبقة أخرى من السكان وهى طبقة كبار تجار العاج والرقيق ممن أثروا ثراء فاحشا ، وأصبحوا — دون مبالغة — يشكلون دولة أو دولا داخل السودان وأصبح لهم جيش ضخم وزرائب عديدة ووقفوا فى وجه الحكومة التى راحت تارة تهددهم وتارة أخرى تستميلهم أو تستأنسهم الى جانبها ، كما حدث مع الزبير رحمت الذى ضم دارفور والذى كان أصلا أحد كبار تجار الرقيق .

وهكذا ظلت هذه الفئات تزداد ثراء على ثراء بينما كانت فئات المزارعين والبدو تدفع الضرائب ، وكان لابد أن يحدث ذلك الخلل الكبير والهوة العظيمة بين هذه الفئات جميعا ، وكان حتميا ، نتيجة لتلك الأسباب أو المقدمات ولأسباب أخرى ، أن ينفجر بركان المهدية عام ١٨٨١ .

* * *

الشئون المالية :

كان النظام المتبع فى شئون المال فى السودان على عهد محمد على

أن يقوم كل « خط » (*) من مأموريات السودان بتقديم حساباته الى ديوان المديرية فى أوقاتها المحددة (١) • ، كما كانت حسابات السودان آنذاك مرتبطة بمثيلتها فى مصر حيث كانتا تتبعان معا « ديوان الايرادات » (٢) • وصار المسئولون بمصر يطلبون كشوف خزانة حكمدارية السودان كل خمسة عشر يوما ، الأمر الذى شق على الحكمدارية تنفيذه بانتظام نتيجة النقص الذى كان متفشيا فى هذه الناحية ، ونعنى بها عملية تنظيم الحسابات ، وهذا النقص كان مرده الى قلة الكتبة والصيارفة القائمين على هذه العملية ، وحداثة عهد البلاد السودانية بمثل هذه الأمور التنظيمية الجديدة والدقيقة فى حين واحد • وتبدو هذه المشاكل جلية فى الرسائل التى تبودلت بين مصر والسودان آنذاك (٣) ، بل ان أحد المباشرين الذين عينوا لمهمة الحسابات فى سنار عام (١٢٤٥ هـ ــ ١٨٣٠ م) كان من المحال أن ينجز هذه المهمة كل ستة أشهر (٤) •

ويبدو أن ذمم الكتبة والصيارفة فى ذلك الوقت كانت خربة الأمر الذى دعا الباشا الى مجابهة ذلك بأسلوب شديد حين لاحظ تعاونا

---

(١) دفتر رقم ٧٨ معية تركى ــ ترجمة الافادة التركية رقم ٣٤٤ بتاريخ ١٢ ربيع الآخر ١٢٥٢ هـ • من الجناب العالى الى خورشيد باشا حكمدار السودان •

(٢) دفتر رقم ٩٣٠ ، الخزينة ، ترجمة الافادة رقم ٨٢ بتاريخ ٢٢ جمادى الأولى ١٢٥٦ هـ من الخزينة الى مجلس شورى المعاونة • انظر أيضا : دفتر رقم ٣٧٦ صادر المعية السنية بتاريخ ١٩ صفر سنة ١٢٦٠ هـ •

مكاتبة رقم ٦٥٣ من المعية السنية الى مدير ديوان الايرادات . دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) دفتر رقم ٢٦١ معاونة ايرادات • وثيقة رقم ٨٧٥ بتاريخ ٢ محرم ١٢٥٧ هـ إفادة الى توفيق محرم • انظر أيضا : الوقائع المصرية العدد ٢٢٤ فى ٤ رمضان ١٢٤٦ هـ • العدد رقم ١٠٤ فى مسلخ رجب ١٢٤٥ هـ •

(٤) الوقائع المصرية : العدد رقم ١٥٣ بتاريخ ٢٢ ذى الحجة سنة ١٢٤٥ هـ ص ٤ •

(*) الخط : مصطلح ادارى يعنى قسما من اقسام المديرية .

خفيا بين الصيارفة فى نهب الأموال ، فأبعد كل من له صلة قرابة بالآخر وأودع بعضهم السجن والخدمة بترسانة دنقلة لفترات طويلة (١) • فكان الباشا لا يرى سببا يحول دون تولى بعض السودانيين أمور الحسابات فتم تعيين أحدهم « أمين خزنة » لاحدى مديريات السودان (٢) • وبعد أن كانت ميزانيات المأموريات ترسل رأسا الى مصر تغير الوضع عقب انشاء ديوان الحسابات فأصبحت كل مأمورية أو مديرية ترسل ميزانيتها الى الخرطوم ومنها الى مصر • واستمر ذلك حتى نهاية عهد محمد على (٣) •

ومن الأمور الجديرة بالملاحظة حقا فى المديريات السودانية آنذاك ، تلك الأعداد الرهيبة من الكتبة الذين كانوا يقومون بتسجيل كل شاردة وواردة فما من صغيرة أو كبيرة إلا أحصوها ، ولم يكن يتم صرف أى شىء من المخازن إلا ويسجل فى بيانات دقيقة وبخط واضح وأرقام أكثر وضوحا ودقة (٤) •

ومنذ بداية أربعينيات القرن التاسع عشر — وبالتحديد بدءا من ١٨٤٠ / ١٨٤١ — شهدنا تطورا فى الأوضاع المالية لمصر والسودان • فقبيل هذا التاريخ جرت أحداث خارجية هامة تأثرت بها مصر اقتصاديا ، ونعنى بها الحروب التى خاضتها مصر فى الشام ، وما تحملته من نفقات طائلة بسبب هذه الحروب الأمر الذى أدى الى ضرورة البحث عن

---

(١) الوقائع المصرية • العدد رقم ٣٢٥ بتاريخ غرة رجب سنة ١٢٤٧ هـ •

(٢) دفتر رقم ٢٧٢ معاونة ايرادات — مكاتبة رقم ١١١ بتاريخ ٩ ربيع الاول سنة ١٢٦٠ هـ • من شورى المعاونة الى مدير الايرادات •

(٣) دفتر حسابات ابعادية كردفان رقم ٥٥٧٨ بتاريخ ١٩ رمضان سنة ١٢٦٢ هـ — ٢٩ رمضان سنة ١٢٦٣ هـ • (٩ سبتمبر ١٨٤٦ — ١٠ سبتمبر ١٨٤٧) •

(٤) سجل ٤٦٢٣ — مخزن رقم ٢١ قلعة — عين ٩١ — بيان شطب المنصرف من الخزينة العامرة لجهة بلاد السودان سنة ١٢٤٦ هـ •
دار المحفوظات العمومية بالقلعة •

موارد جديدة سواء فى مصر أو السـودان • وقد حاول حكمدار السودان (أحمد باشـا أبو ودان) فى عام ١٨٤٠ أن يجعـل من ضم منطقة التاكة الى الادارة السودانية اضافة جديدة لموارد السودان كما كان حريصـا فى نفس الوقت أن يبلغ ذلك مسامع الباشـا الذى كان يتحرق شـوقا وأملا فى البحث عن موارد جديدة للبلاد (١) • وفى سبتمبر عـام ١٨٤١ راح الباشا يطلب من حكمدار السودان بعبارة صريحة « •• أن يجمـع ما يمكن جمعه من النقود الذهبية والذهب الخـام وارسـاله الى مصر بغاية السرعة •• » (٢) • كما كان الباشا يستحث حكمدار السـودان على ارسـال النقود الى مصر وخاصـة فى مستهل عـام ١٨٤٢ مما جعـل الحكمدار يخاطب المسئولين بمصر أنه قـد أرسل « ••• كافة النقـود الموجودة فى خزائن السـودان •• » وانه « ••• سوف يرسل كل خمسة عشر يوما كشوفا ببيان حسابات الخزائن المذكورة ••• » (٣) •

ويحاول محمد على فى تلك السـنوات أن يضرب مثلا لكيفية زيادة الايرادات سواء فى السودان أو مصر من خلال خطاب مرسل الى حكمدار السودان فى ابريل عام ١٨٤٣ ومن واقع الحالة التى كانت تعيشها مصر والسـودان فيقول للحكمدار « ••• انكم تقولون فى جوابكم اننى جاد ومجتهد فى تكثير الواردات ، ولكن تكثير الوارد انما يكون بتقليل المنصرف ولكن أنتم على عكس ذلك آخذون بتزييد المصروفات وهذا غلط منك •• » ثم يضيف قائلا : « •• وها أنا أبين لك ما هو الواقـع وهو أنه لما عـاد الجيش من بر الشـام اجتمع حضرة ولدنا الباشا صاحب الدولة وكبراء

---

(١) دفتر رقم ٢٢٥ عابدين ـــ ترجمة الافادة التركية رقم ١٠ اصـل ، ١٧ مسلسل بتاريخ ١٨ ربيع الأول سـنة ١٢٥٦ هـ • من شورى المعـاونة الى الباشـا حكمدار السودان •

(٢) دفتر رقم ١٨٩ معاونة اقاليم • مكاتبة رقم ٣٥٤ بتاريخ ٢٢ شعبان سنة ١٢٠٧ هـ • من الجناب العالى الى حكمدار السودان •

(٣) دفتر رقم ١٩٧ معاونة أقاليم ـــ مكاتبة رقم ١٦ بتاريخ ٢١ محـرم ١٢٥٨ هـ من شورى المعاونة الى حكمدار السودان • دار الوثائق القوميـة بالقلعـة •

مصر وتبادلوا الرأى لتقليل المصرفات ، وذلك ان الرجال الذين ربيتهم من سنين كثيرة وأدخلتهم فى حظيرة الانسانية والذين جمعتهم من هنا وهناك قرروا تفريقهم ، وفى ذلك الوقت كنت فى القرى فقدموا لى ذلك القرار الذى قرروه لتقليل المصروفات ، فلما اطلعت عليه لم أر تفريق أولئك الأشخاص الذين جمعتهم من مدة مديدة وأخذت فى تثقيفهم شيئا حسنا .. » (١) وكان من رأى محمد على أن يعطوا نصف مرتبهم ويمكثوا فى بيوتهم الى أن تأتى الساعة التى يطلبون فيها للعمل ، وبالفعل تم ما أراد ، الى أن بدأت الحالة فى التحسن وازداد الدخل عادوا الى الحكومة بمرتباتهم كاملة . وبعد أن ضرب هذا المثل لحكمدار السودان نبهه الى أن المتأخر على السودان من الديون قد بلغ مبلغا ضخما وأن المخرج من هذا لا يكمن فى تقليل المستخدمين والمصروفات وحسب ، ولكن الحل يكمن فى زيادة دخل موارد البلاد باتباع أساليب أخرى . ووصف له طريقة مثلى لجمع المتأخرات وهى القيام بصرف بضعة آلاف لأولئك الرجال القائمين على جمع الأموال فى السودان الأمر الذى يحفزهم الى أداء مهمتهم بنفس راضية وسهولة ويسر وتكون النتيجة الطبيعية زيادة كبيرة فى الايرادات (٢) .

من ذلك يتبين لنا عدة حقائق أولها : ان مصر كانت عقب حروب الشام قد عانت مشكلة مالية حاولت التصدى لها عن طريق تسريح أفراد الجيش ولكن محمد على رفض هذا الحل وأصر على أن هؤلاء المسرحين يمكن أن يكونوا قوة انتاج لا بأس بها . وثانيها : أنه لابد من البحث عن أساليب أخرى جديدة وبديلة لزيادة الدخل والبحث عن علاج لأسباب القصور فى الايرادات . وثالثها : ان محمد على لم يكن يخشى الزيادة الرهيبة فى العاملين بالدولة ولا يلق عليهم وحدهم تبعة القصور

---

(١) دفتر رقم ٢٠٨ صادر ديوان المعاونة الى الاقاليم . وثيقة رقم ٥٠٥ بتاريخ ٤ ربيع الآخر سنة ١٢٥٩ هـ ارادة الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ٢٠٨ ، نفس لوثيقة السابقة .

فى الانتـاج وضعف الاقتصاد ، ولـم يكن فى نفس الوقت يلجـأ الى الحلول السطحية والسريعة بل كان يبحث عن العلاج الناجع للمشكلة . وهكذا فان المرء ليدهش حقا وهو يقرأ تلك الرسائل أو « الروشتات » المالية التى كان يبعث بهـا محمد على فى القرن التاسع عشر الى مرؤسيه فى أقصى السـودان مناقشا ومحللا لأدق وأخطر المشكلات الاقتصادية وكأنه واحد من رجالات الاقتصـاد المتمرسين ، بل كان يفوقهم فى أن اجتهاداته كانت تؤتى ثمارا مؤكدة كما تراءى لنا .

وكانت بعض ايرادات المديريات السودانية فى عهده ــ أحيـانا ــ لا تف بمصروفاتها كما حـدث للتاكة عام ١٨٤٤ ، حين حـدث نوع من الاختلال فى ميزانها التجارى الذى تأخر بسببه تسليم العساكر الموجودة فيها لمرتباتهم (١) . وليس معنى ذلك أن كل المديريات السودانية فى تلك الفترة كانت على شاكلة التاكة من حيث اختـلال حساباتها ولـكن ذلك ربما يكون « حالة خاصة » بهذه المديرية لحداثة ضمها للادارة المصرية فى السودان وعدم ترتيب حساباتها الخاصة كسائر المديريات الأخـرى أو ربمـا لاتسـاعها الشـديد الـذى يؤدى الى زيادة مصروفاتها على وارداتها ، وربما تكون كل هذه العوامل معا .

خلفاء محمد على ومالية السـودان :

لم يكن اهتمام خلفاء محمد على يقل عن اهتمامه بالسـودان من حيث النهوض اقتصاديا وماليا ، مع تحفظ جوهرى وهو أن الجميع كانوا يصدرون القرارات النظـرية السليمة ولكن محمد على كان يختلف عنهم جميعا بمتابعته المباشرة والدقيقة لمدى تطبيقها وتهيئة الظروف الملائمة لكى تؤدى مهمتها . لقـد طلب عباس الأول فى عـام ١٨٤٩ أن تستمر

---

(١) دفتر رقم ٣٧٦ ــ صادر ديوان المعية ــ وثيقة رقم ٢٨٧٥ بتاريخ ٢٤ جمادى الآخر سنة ١٢٦٠ هـ . ارادة الى أحمد باشا المنكلى .

نفس الجهـود السـابقة وألا تقـل رتبة الحكام الذين يتولون الوظائف بالسـودان عن رتبة لـواء (١) .

والجدول ✻ التالى يبين ميزانية مديريات السـودان فى عهـدى محمد على وعباس الأول :

المديريـة	بالجنيه الايراد	المصروفات	ملاحظـات
سنار وفيزوغلى	٣٢٧١٥٨	٧٠٨٦٧	بها زيادة فى الايراد
التاكـا	١٣٠٧٠٤	٢٤٢٣٠	بها زيادة فى الايراد
دنقـلة وبربر	٥٥٧٢١١	١٢٤٤٢٥	بها زيادة فى الايراد
الخرطـوم	٤٠٥٩٦٧	١٥٩٤٣٥	بها زيادة فى الايراد
كردفـان	٣٤٤٠٤٤	٩٥٣٥٣	بها زيادة فى الايراد
معدن الذهب بجبـل فيزوغـلى	٣٥٥٩	٣٤٢٧	بها زيادة فى الايراد
معدن الذهب بجبل قيسان	٥٥١٥	١١٧٢٩	به نقص فى الايراد

ومن هذا الجدول الذى يوضح لنـا ايرادات ومصروفات مديريات السـودان بين عامى ١٢٦٠ هـ — ١٢٦٨ هـ (ديسمبر ١٨٤٣ / ١٨٤٤ — ١٨٥٠ / ١٨٥١ / ١٨٥٢ م) نستخلص أن ميزانية السـودان فى عهدى محمد على وعباس الأول كانت طيبة ولم يحدث بهـا عجز كما لاحظنـا اللهم ألا فيما يتعلق بخام الذهب بجبل قيسـان ، وقد سبق أن تعرضنا لهذا الموضوع من حيث ثبوت عـدم جدواه الاقتصادية ✻✻ ، وها هى

---

(١) أمين سامى : تقويم النيـل وعصر عباس الأول ومحمد سعيد . المجلد الأول ، الجزء الثالث . ص ٢٤ .

(✻) الوثائق الافريقية — محفظة ١٠٣ ، ملف رقـم ٦ . دار الوثائق القومية بالقلعـة .

(✻✻) أنظر فصل الثروة المعدنية والصناعة .

الأرقام مرة أخرى تثبت ما سبق ذكره • كذلك نلاحظ مسألة هامة بهذه الميزانية وهى أنها لا تعـد انعكاسا لجهود عباس الأول فى السودان بل اننا نعدها نتائج لجهـود محمد على ولـكن عباس استطاع أن يقطف الثمار وحسب •

وإذا مضينا نتتبع الأحـوال المالية فى السودان بعد ذلك سـوف نلاحظ انعكاس الأزمات المالية عليـه منذ عهد محمد سعيد • ففى عام ١٢٧٣ هـ (١٨٥٦ م) كان لمستخدمى السـودان استحقاقات متأخـرة على الدولة (١) ، ولم يـكن بالسـودان نقـد يكفى لاعطـائهم هـذه الاستحقاقات المتراكمة رغـم محـاولاته المتميزة فى اصـلاح الجهـاز الضرائبى بالسودان كما مر بنا • وفى عهـد اسماعيل بدأت بوادر هـذه الأزمات تطل برأسها ، ففى أوائل عهد الحكمدار موسى حمدى (١٨٦٢ — ١٨٦٥) وفى عام ١٨٦٤ على وجه التحديد طلب ارسال ثلاثة أو أربعـة آلاف كيس نقدا الى مديرية التاكة بسبب ما أصابها من ضائقة ماليـة نتيجة القحط الذى أصـاب حاصلاتها (٢) • وفى عهـد الحكمدار جعفر صادق باشا (١٨٦٥ — ١٨٦٦) استمرت مشكلة التاكة الماليـة وطلب منه إذا ما وصـل الى مقر الحكمدارية « أن يبحث ايرادها ومصروفاتها بحثا دقيقا ، وأن ينظم ميزانيتها نظاما موافقا •• » وأن يعرف ما إذا كان السـودان فى حاجة الى نقود اضافية عن الايراد السنوى (٣) • ووصل الأمر بمصر الى صرف النظر عن شراء بعض السفن من انجلترا واحضار هذا المبلغ المخصص لها ، من انجلترا حتى يمكن المسـاهمة

---

(١) أمين سامى : تقويم النيل وعصر عباس حلمى باشا ومحمد سعيد باشا • المجلد الأول ، الجزء الثالث • ص ٢١٢ •

(٢) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ — ١٨٨٥ ص ١١١ •

(٣) دفتر رقم ٥٣٧ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقـم ٢ ص ٦٦ • بتاريخ ٢٨ محرم سنة ١٢٨٢ هـ • ارادة سنية الى صاحب السـعادة

به فى حل الأزمة المالية بالســودان (١) .

ومن هنا يلاحظ أن أعباء السودان فى تلك الســنوات الحرجة من عهد اسماعيل قد ساعدت فى تفاقم الأزمة الماليــة فى مصر ، بمــا كان يقدم لها من أموال .وفضلا عن ذلك فقد تم ارســال كميات كبيرة من الغلال الى الســودان لتباع بأسعارها الأصلية للأهالى وموظفى الحكومة بكل من سواكن وكسلا وبربر والخرطوم (٢) .

وتشير الوثائق الى الحجــم النقــدى الكبير الذى كانت تبعث به مصر الى السودان ، ففى اكتوبر عــام ١٨٦٥ تم ارســال ستة وعشرين كيســا ، ووعــد المسئولون أن يرسلوا على الفــور عشرة آلاف كيس آخــر (٣) .

ولــا وصــل حكمدار الســودان الى الخرطوم عام ١٨٦٥ وجــد الخزانة خاوية من النقود ، كما تبين له تأخــر كثير من الاستحقاقات ، وأن الخمسة آلاف كيس التى أحضرها معه لم تكف حتى لصرف عــدة شــهور من استحقاقات العساكر المتأخــرة ، ولم تجر تســوية ايراد ومصروف حكمدارية السودان حتى تاريخ رسالته . وفى ختام رســالته

---

(١) محافظ ابحــاث السودان ــ محفظة رقم ١٧ ــ ترجمة افادة من محمد شريف باشا الى صاحب السعادة (رياض باشا) بتاريخ ١٧ صفر سنة ١٢٨٢ هـ . دار الوثائق بالقلعة .

(٢) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق . ص ١١٢ .

(٣) دفتر رقم ٥٥٨ معية تركى ــ ترجمة الوثيقة التركية رقم ١١ ص ٢٨ بتاريخ ٢٩ جمادى الآخر سنة ١٢٨٢ هـ . ارادة الى حكمدار الســودان وبيان هذه النقــود التى أرسلت كالتالى :

٥٠٠٠ كيس ارسلت فى ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٨٢ هـ مع جعفر باشا وكيــل الحكمدارية .

١٥٠٠٠ كيس أرسليت فى آخر ربيع الأول سنة ١٢٨٢ هـ الى ســعادة الباشا حكمدار الســودان .

١٠٠٠ كيس ارسلت فى ٦ جمادى الاولى سنة ١٢٨٢ هـ الى ســعادة جعفر باشا وكيل الحكمدارية ٥٠٠٠ كيس ارسلت فى ٥ جمادى الآخرة ســنة ١٢٨٢ هـ الى سعادة جعفر باشا وكيل الحكمدارية (محفظة رقم ١٧ ــ نفس الوثيقة السابقة) .

طلب الحكمدار « إسعافه » ومساعدته بخمسة عشر ألف كيس ترسل على الفـور (١) .

وفى عام ١٢٨٣ هـ (١٨٦٦ م) تبين وجـود عجز بميزانية السودان مقداره سبعة آلاف وثلثمائة كيس (٢) . ولم تقتصر مساعدات مصر فقط على النقود بـل أرسلت أيضـا كميـات من الدقيق فى عـام ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ م) مقدارها أربعـة وعشرون ألف أقـة « على ذمة مأمـورية النيل الأبيض » وطلب أن يرسل الفائض الى مصـوع بالاضـافة الى تخصيص جزء لبربره (٣) .

وفى اكتوبر عـام ١٨٧٠ بلغت مصروفات محافظة مصوع فى خلال عام واحد ٦٦٣٦ كيسًا ، بينما بلغت ايراداتها ٣٦٩٣ كيسًا الأمـر الذى يشير الى عجز واضح فى ميزانها التجارى . وفى مديرية التاكة ازدادت مصروفاتها عن ايراداتها بحـوالى ألف ومائة كيس ، أما محافظة سواكن فقد كان ايرادها يزيد قليلا عن مصروفاتها . وقد اقترح لأحداث توازن فى هـذا العجز ، وخاصة بجهة سواحل البحـر الأحمر ، الاستغناء عن « أوجاق القواصة » الذى كان استحقاقه السنوى ٣٧٢٣ كيسًا (٤) .

وفى عام ١٨٧٠ نقرأ فى احدى الوثائق بعض أوجه المصروفات التى تمت فى السـودان وكلفت الميزانية الشيء الكثير ، الأمـر الذى يلقى بعض الأضواء فى تفسير الأزمة الماليـة التى عاشها السـودان فى تلك

---

(١) دفتر رقم ١ عابدين ، وارد تليغرافات ، ترجمة التليغراف التركى رقم ١٢٥٠ وارد بتاريخ ليـلة ١١ شعبان سـنة ١٢٨٢ هـ . من حكمدار السـودان الى رياض باشا .

(٢) دفتر رقم ١٩١٦ ، أوامر كريمة ، صورة الأمر الكريم رقم ٢٢٣ ص ٩٦ بتاريخ ١٧ ربيع الآخر سنة ١١٨٣ هـ . امر كريم الى المالية .

(٣) محافظة سواكن (عربى) صادر ٤ / ٢ / ٥ / ٢٨ (تابـع محافظة مصوع عموم (هكذا) . مكاتبة رقم ٢٠ بتاريخ ٧ شوال سـنة ١٢٨٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) دفتر رقم ١٨٤٧ معية سنية . وثيقة رقـم ٣ ، صـورة المكاتبة الواردة من محافظة سواحل البحر الاحمر الى المعية السنية . ص ٣٩ بتاريخ ٨ رجب سـنة ١٢٨٧ هـ .

الفترة ، وخاصة السنوات السابقة لعـام ١٨٧٠ مباشرة إذ « ... كان جارى بها عمارات ميرية وطوابى ومساكن عسكرية ، حتى من الجملة لم يكن يوجـد بها أشـوان وقشـلاق وجبة خانات ودواوين وإسباتاليات إلا « شىء قليل » * مبنى بالطين والطوب الأخضر ، وفى كل سـنة يهد من الأمطار ويحبر تجديده « سنوى » ** بمصاريف زايدة ومشقة بدون فايدة » (١) .

ويذكر حكمدار السودان جعفر مظهر باشا ان جهـات السـودان حتى لحظة قدومه السـودان لم تكن تعرف الطوب الأحمر ولا الجـير ولم يكن يوجـد بها أية « بنايين وحجارة ونجارين وحدادين .. » (٢) فمن ذلك يتضح لنا أن المصاريف التى انفقت فى تلك الآونة على البـلاد كانت جسيمة جدا ، إذ كان عليهم أن يبدأوا فى تعمير البـلاد حتى تواكب ما يحدث فى مصر . وكانت النتيجة أن اجـراء مثل هذه الاصـلاحات كان يتطلب نفقات باهظة وفى ظروف حرجة كانت تمر بهـا مصر . ومن الغريب حقـا أنه رغم هذه الظروف المالية الصعبة التى عاشها السودان قبيل عـام ١٨٧٠ والتى أشرنا اليها حالا فان ميزانية البـلاد تسجل فى هذا العـام بالذات فائضا بلغ نحـو عشرين ألف كيس (٣) . ولا ينبغى أن نسارع بالحكم على أن البـلاد السودانية قد أصبحت فى بحبـوحة من العيش ولكنها زيادة طارئة وغير مستقرة .

ومنذ عام ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) تم إحالة حسابات جهات السودان وسواحل البحر الأحمر الى نظارة (وزارة) الجهادية بدلاً من تبعيتهـا لعدة دواوين ، على أن يتم تعيين وكيل للمالية بديوان الجهادية ليقـوم

(*) شيئا قليـلا .

(**) سـنويا .

(١) دفتر رقم ١٨٣٦ معية تركى — صورة المكاتبة الواردة من حكمدارية السـودان الى المعيـة السنية رقـم ٦ بتاريخ ٤ محرم سـنة ١٢٨٧ هـ . (١٨٧٠) ص ٢٧ .

(٢) نفس الدفتر والوثيقة . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) نفس الدفتر والوثيقة السابقة .

بعرض الميزانية بديوان المالية (١) • ولكن فى عام ١٨٧٧ صدر أمر بناء على طلب حكمدار عموم السودان بتشكيل ديوان خاص بالحكمدارية ليقوم « ... بقبول وتسوية حسابات جهات فروع وعموم السودان وإناطته بأمور ماليتها من ايرادات ومصروفات » ، ثم عين مأمور خاص لهذه المصلحة (٢) • ولم تسلم دارفور من آثار الضائقة المالية التى عمت البلاد إبان عصر اسماعيل فقد كان المتحصل منها كايراد سنوى ــ كما ورد فى يونيو عام ١٨٧٨ ــ خمسين ألف جنيه تقريبا ، بينما كان مطلوبا لها من الحكمدارية مائة ألف جنيه سنويا حتى يمكنها تصريف أمورها ، وكانت الحكمدارية لا تستطيع أن تسهم بأكثر من خمسة عشر ألف جنيه سنويا ، نظرا لما كانت تتحمله من أعباء أخرى تجاه باقى مديريات السودان ، بالاضافة الى الدين المطلوب منها سداده لمصر ، حيث كان من المفروض أن ترسل خمسة عشر ألف كيس سنويا (٣) •

ولقد كانت انعكاسات الأوضاع المالية التى كانت تمر بها مصر فى عام ١٨٧٨ واضحة على السودان ، فمن المعروف ان الخديوى اسماعيل فى هذا العام وجد نفسه مرغما تحت ضغط كل من فرنسا وانجلترا على قبول تشكيل « لجنة تحقيق عليا » حين صدر أمر عال فى ٢٧ يناير عام ١٨٧٨ بتاليفها وآخر فى ٣٠ مارس علم ١٨٧٨ لتنظيم هذه اللجنة وتحديد اختصاصاتها • وقد سيطرت لجنة التحقيق بفضل هذين المرسومين على كل شئون مصر المالية • وكان يرأس هذه اللجنة « فردناند دلسبس » إلا أن الرئاسة الفعلية كانت لوكيلها الانجليزى

---

(١) دفتر رقم ٢ أوامر ص ١٥ ، صورة الأمر الكريم الصادر الى محافظ زيلع وملحقاتها رقم ٢٣٠ بتاريخ ١٠ شعبان ١٢٩٢ هـ .

(٢) أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا ــ المجلد الثالث ، الجزء الثالث .

(٣) دفتر رقم ٥٠ عابدين ــ وارد تليغرافات ــ صورة التلغراف العربى الشفرة رقم ١٤٥ بتاريخ ٢٧ يونية ١٨٧٨ (٢٦ جمادى الثانية ١٢٩٥ هـ) • من غوردون الى خيرى باشا . انظر ايضا : عبد الرحمن الرافعى . عصر اسماعيل • جـ ٢ . ص ١٠٥ .

« ريفرز ويلســون » نظرا لغياب دلسبس فى الاسماعيلية • وأما الوكيل الثــانى فكان « دى بلينيير » الفرنسى بالاضــافة الى الوكيل المصرى رياض باشا وأعضاء آخرين لصندوق الدين •

وقد رأت هذه اللجنة ضرورة الحد من سلطة الخديوى المطلقة كشرط أساسى للاصلاح المالى ، وتوالت الأحــداث لتفضى الى تشــكيل وزارة عرفت بالوزارة المختلطة أو المسئولة فى أغسطس عام ١٨٧٨ وكانت تضم الانجليزى « ريفرز ويلسون » للمالية والفرنسى « دى بلينيير » للاشغال العمومية • وكانت مهمة هذه الوزارة فى المقــام الأول دفع الأقســاط المستحقة للدائنين الأجانب • وهكذا تم تقييد سلطة الخديوى واخضاعها « للوصاية الدولية » وأمكن عن طريق هذه الاجراءات التى اتخذت تحت ستار السهر على مصالح الدائنين فرض الرقابة الفعالة على مالية مصر •

ولا يعنينا هنا الدخول فى تفصيلات ما قامت به هــذه الوزارة فى مصر ، ولكن ما نود أن نشــير اليه حقا هو آثار تلك الاجــراءات على السودان • فقــد أرسلت « ارادة سَنية » الى غوردون باشــا حكمدار السودان (١٨٧٧ ــ ١٨٧٩) فى يونية عــام ١٨٧٨ بخصوص ميزانيــة الأقاليم السودانية التى تحت ادارته ترجــوه أن يرسل الى « رئيس قومســيون الانكيت الأعلى » ، ويعنى به رئيس لجنــة التحقيق ، كل ما يحتاجه من إيضاحات حول الشئون المالية للسودان • كما تشــير هذه الارادة أيضا الى أن ولســون ــ وكيل اللجنة ــ قد بدأ يباشر اختصاصه للوقوف على حالة المالية المصرية ، ولــا كانت ميزانية حكمدارية السودان لم ترد الى مصر منــذ يناير ١٨٧٧ ، فانه يرجو إرســال كشوف ميزانية الســودان عن عامى ١٨٧٧ ، ١٨٧٨ على وجه السرعة (١) •

---

(١) دفتر رقــم ٣٥ عابدين ــ صادر تليغرافات ــ صورة التليغراف العربى الشفرة رقم ٤٦٨ بتاريخ ٢٨ يونية سنة ١٨٧٨ ، أنظر أيضــا : مع نفس الوثيقة ترجمة مكاتبة فرنســاوى من ولســون وكيل رئيس قومسيون الانكيت ، دار الوثائق القومية بالقلعة .

وهكذا بدأت أحوال مصر المالية السيئة تنتقل آثارها الى السودان وأصبحت مسألة الاشراف الأجنبى لا تقتصر على مالية مصر فقط بل وعلى السودان أيضا .

وفى عام ١٨٧٨ بدأت مصر تطالب السودان بدفع متأخرات بلغت ثلاثة وثلاثين ألفا وخمسمائة جنيه ، وقسمت على قسطين ، أحدهما يدفع فى ١٥ أغسطس عام ١٨٧٨ والآخر فى ٣٠ سبتمبر عام ١٨٧٨ ، مع ملاحظة ان ميزانية السودان قد حل بها عجز فى عامى ١٨٧٦ ، ١٨٧٧ (١) .

ومن المدهش حقا أن ميزانية السودان منذ عام ١٨٧٧ بدأت تتدهور بشكل سريع ، مع ملاحظة أن التهم السابقة التى كان يرمى بها الحكمداريون والموظفون من حيث الجشع وفساد الذمم وغيرها من الاتهامات التى كانت تكال لهؤلاء الحكام أصبحت الآن غير واردة — من جانب الأوربيين — بعد أن تولى حكم السودان حكمدار أجنبى ونعنى به غوردون باشا ، ولعل فى مطالعة أرقام ميزانية عام ١٨٧٨ ما يقوم دليلا على صحة ما نقول . ففى هذا العام بلغ الايراد ٧ بارة ، ١٢ قرشا ، ٥٧٩٧٢٥ جنيها ، والمصروفات ٢٤ بارة ، ٦٧ قرشا ، ٦٧٦٨٤٩ جنيها ، أى أن هناك عجزا واضحا فى الميزانية السودانية ، بالاضافة الى أن هناك متأخرات على السودان فى نفس العام بلغ مقداره ٢٩ بارة ، ٦٩ قرشا ، ٣٢٧١٦٨ جنيها مطلوبة لجهات عدة على شكل استحقاقات وتركات متأخرة لاربابها أو « مطلوبات تجار » وغيرها (٢) .

وراح حكمدار السودان — غوردون — يلجأ الى حلول وتبريرات

---

(١) دفتر رقم ٥٠ عابدين — وارد تليغرافات — صورة التليغراف العربى رقم ٢٤٨ بتاريخ ٢١ يولية ١٨٧٨ . ورد فى ٢٣ يولية ١٨٧٨ .

(٢) دفتر رقم ٣١ — وارد معية عربى — ص ٦٤ ، مكاتبة رقم ١٩ بتاريخ ٢٧ شوال سنة ١٢٩٥ هـ (٢٤ أكتوبر ١٨٧٨ م) من حكمدارية السودان الى المعية .

يلقى بها فى وجه المسئولين بمصر كقوله : ان السـودان يتحمـل نفقات الصرف على المسجونين القادمين من مصر (١) • غير انه من المعلوم ان هؤلاء الأشـخاص يمكنهم أن يصبحوا أداة طيعة يمكن للحكمدارية أن تستغلها فى العمران وكافة الأشغال كمـا كان يحدث بالفعل بالترسانات السـودانية • وقوله أيضا ان هذه الأزمة والخلل الذى أصـاب الميزانية السودانية انما هو ناشىء من كثرة مصروفات بعض الجهات كالتاكة التى لا تنتج شـيئا ، وضرورة رفت أحـد كبار الموظفين لها نظرا لارتفـاع راتبه (٢) ، وكأن هذا الراتب الذى كان يتناوله هذا الموظف هو السبب الرئيسى لحدوث عجز بميزانية السـودان ، وكان الأجـدى به ان يبـدأ بنفسه أولا ، فقد كان الموظفون الأوربيون والأجانب عموما فى السودان يتناولون أضعاف أضعاف مرتبات غيرهم من الموظفين المصريين • أمثـال بيكر وغوردون نفسه •

وعلى هذا المنوال سـار المسئولون فى مصر والسـودان فى حـل الأزمة المالية فى السودان • وقد صدر منشور فى تلك الآونة « •• باستقطاع يوم واحـد » من شهرية كل فرد من مستخدمى الحكومة فى السـودان ، واستثنى المنشور من ذلك كافة الموظفين الذين لهم عقـود مع الحكومة أمثال غوردون !! (٣) وقد ضج الموظفون فى السـودان من هذا الاجراء ، الأمر الذى جعل غوردون نفسه يرسل الى المسئولين بمصر ، مبينـا الآثار التى نجمت عن تطبيق مثل هذا القرار وحـاول أن يجعل الاستثناء يشمل جهات السودان كلهـا (٤) •

---

(١) دفتر رقم ٣١ السابق ، نفس الوثيقة السابقة . ص ٦٤ •

(٢) دفتر رقـم ٥٠ عابدين — وارد تليغرافات — صـورة التليغراف العربى الشفرة رقـم ٦٤١ ص ٩٢ بتاريخ ٨ نوفمبر ١٨٧٨ • من غوردون باشا بالخرطوم الى خيرى باشا •

(٣) دفتر رقـم ٥٠ عابدين — وارد تليغرافات — صـورة التليغراف العربى الشـفرة رقـم ٦٦٠ ص ٩٤ بتاريخ ١٨٧٨ • من غوردون باشـا بالخرطوم الى خيرى باشـا •

(٤) نفس الدفتر والتليغراف السابقين ص ٩٤ •

هكذا مضت الأحوال المالية فى السودان على عهد غوردون ووصلت الى نقطة خطيرة كان ينبغى عندها أن يسارع المسئولون فى مصر الى دراسة هذه الأوضاع على وجه السرعة وإيجاد الحلول المناسبة للخروج منها • وعلى ذلك فقد صدر أمر عال لحكمدار السودان رؤوف باشا (١٨٧٩ — ١٨٨١) فى عام ١٨٨٠ ورد به وصف لأحوال السودان من كافة الجوانب واقتراحات لحل الأزمات والمشاكل التى تعانى منها البلاد • وقد جاءت على رأسها جميعا المشكلة المالية حيث طلب منه « •• أن يقوم بتحصيل الأموال والعوايد بطريقة لا يتأتى منها الأضرار بحالة الأهالى ولا الإجحاف بحقوق الخزينة » (١) •

ومضى هذا الأمر يبين للحكمدار طرائق جمع الضرائب والأموال الأخرى وأسلوب ارسالها الى نظارة المالية مما يفهم منه أن موضوع الحالة المالية كان يشغل أذهان المسئولين بصورة رئيسية (٢) •

ولقد جرت محاولات كبيرة من رؤوف باشا لدراسة أوضاع السودان بصفة عامة ، والمالية على وجه الخصوص ، وذلك من خلال زيارات ميدانية لمديريات السودان ، تعرف من خلالها على كافة المشاكل وحاول وضع حلول جذرية لها • كما أنه أرسل ميزانية تفصيلية عن كل مديرية ومصلحة حكومية فى السودان من حيث الايراد والمنصرف وقيمة العجز بكل واحدة منها • ولحسن الحظ أن هذه الميزانية كانت لعام ١٨٨١ الذى يعتبر آخر سنى هذه الدراسة حيث تتوقف عندها لمعرفة حصاد السنوات السابقة لها ، ولذلك فان الوثائق والأرقام المالية تسعفنا تماما فى معرفة تطور الوضع المالى للسودان قبيل عام ١٨٨١

---

(١) محافظ السودان — محفظة بدون رقم — الرقيق — صورة الأمر الصادر لسعادة حكمدار السودان فى ٣ ر سنة ١٢٩٧ هـ • رقم ٢ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) السودان — محفظة بدون رقم — نفس الوثيقة السابقة •

وفى عام ١٨٨١ على وجـه الخصوص (١) .

واذا ألقينا نظرة فاحصة لميزانية السـودان عام ١٨٨١ * فسوف نلاحظ ما يلى : أولا : ان هناك مديريات ومصالح حكومية بالسودان كانت ايراداتها تزيد عن مصروفاتها كمديرية الخرطوم ومديرية كردفان ومطبعة السـودان . ثانيا : أن هناك مديريات ومصالح أخـرى بها عجز مثـل مديرية التاكة ومديرية خط الاسـتواء ومصـلحتى التيلغراف والسـكة الحـديد . ثالثا : بلغ ايراد السـودان فى هـذا العـام ٣٥ بارة ، ٣٨ قرشا ، ٤٥٩١٥ جنيها ، كمـا بلغت مصروفاته ١٢ بارة ، ٩ . قروش ، ٥١١٦٨٤ جنيهـا ، وبلغ العجز فى هـذه الميزانية ١٧ بارة ، ٧٠ قرشا ، ٥٢٥٢٧ جنيهـا .

ولنا ملاحظة على هـذه الميزانية التى أوردها رؤوف باشا وتتعلق بمديرية خط الاسـتواء حيث أورد أن بها عجزا ، وأكـد مرة أخـرى فى موضـع آخـر هذا العجـز (٢) . إلا أننا نستبعد حدوث مثل هـذا العجز بالنسبة لهذه المديرية فى ذلك الحين لأننا لم نجـد ـ من خـلال

---

(١) أنظر حول ذلك الوثائق التالية :

ـ السودان ـ ديوان السودان ـ حسابات ـ محفظة بدون رقـم ـ تليغراف رقم ٢ بتاريخ ٢٥ مايو سنة ١٨٨١ من حكمدار السـودان الى سعادة وكيل مالية مصر .

أيضا : السـودان ـ اعتمادات ميزانيـة ايرادات ومصروفات مديرية عموم هرر عـام ١٨٨١ .

أيضا محافظ السودان ـ ديوان السودان ـ حسابات ـ محفظة بدون رقم ـ صورة التلغراف المحرر لحكمدارية السودان بتاريخ ٢٣ مايو ١٨٨١ نمـرة ٢٩ .

كذلك الوثائق الافريقية ـ محفظة رقم ١٣ ، ملف رقم ٦ ، وبه تفصيلات دقيقـة عن كل مديرية من حيث الايـراد والمنصرف والعجـز أو الزيادة .

كذلك ـ السودان ـ محافظ مجلس الوزراء : تقرير محمد رؤف بتاريخ ١٨ جمادى الآخر سنة ٢٩٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(*) أنظر الملحـق الخاص بالميزانية .

(٢) السـودان ـ مجلس الوزراء ـ تقرير محمد رؤوف باشـا بتاريخ ٢٨ جمادى الآخر عام ١٢٩٧ هـ . (١٨٨٠ م) . دار الوثائق القومية بالقلعة .

ما أطلعنا عليه من وثائق وما أكــده الدارسون — أية شكوى من لدن المسئولين بها منذ ضمها للادارة المصرية بالســودان وحتى عــام ١٨٨١ رغم الجهود التى انفقت لتنظيمها • ويورد لنا الأمير عمر طوسون أرقاما تفصيلية حول ايرادات ومصروفات هذه المديرية عــام ١٨٨١ (١) يتبين لنا منها أن ايراداتها كانت تغطى مصروفاتها تماما بل تزيد عنهــا حيث شهدت هذه المديرية نشــاطا اقتصاديا ملموسا وخاصة على يد أمين بك الذى لو وجــد الوقت الكافى لاستطاع بهذه المنطقة أن يغذى أســواق السودان وغيرها بكافة الحاصلات والمنتجات • ومما يدعم قولنا هذا أن رؤوف باشا قد ذكر فى موضع آخر بعيد عن التقرير ، حين وضع ميزانية خط الاستواء ، انه لم يجــد لها كشوفا ، فلجــأ الى مصادر أخــرى غير مباشرة (٢) •

وفى موضع آخر نقرأ بأن ميزانية هرر وزيلع وبربرة فى عام ١٨٨١ قد حوت عجــزا واضحا ، فبلغت جملة الايرادات ٣٧ قرشــا ، ٥٣٠٣٤ جنيها ، والمصروفات ٧٢ قرشا ، ٨٦٢٧٠ جنيها (٣) •

كذلك فاننا نلاحظ عجزا آخر فى ميزانية عموم سواحل البحر الأحمر مثل مصوع وسواكن حيث بلغت الايرادات فى عام ١٨٨١ ٥٥ قرشــا ، ٥٤٤٣٠ جنيها والمصروفات ٦٢ قرشا ، ١٣١٦٦٩ جنيها ، وبلغ العجز ٧ قروش ، ٧٧٢٣٩ جنيها (٤) •

(١) انظر تاريخ مديرية خط الاستواء • ج ٢ • س ٧٢ وما بعدها •

(٢) قسم الوثائق الافريقية — محفظة رقم ١٠٣ — ملف رقم ٦ • ويلاحظ ان حسابات المديرية الاســتوائية كانت منفصلة عن حسابات الســودان ، كما كانت منفصلة اداريا أيضا عنه ، (انظر الاخطار الذى ارســل لغوردون كمامور للمديرية الاستوائية بدفتر رقــم ١٩٤٨ — اوامــر عربى ١٩ فبراير ١٨٧٤) امر كريم الى حكمدار السودان • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) الســودان — اعتمادات ميزانية — ميزانية ايــرادات ومصروفات مديرية عموم هرر سنة ١٨٨١ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٤) السودان — اعتمادات ميزانية — ميزانية عن ايرادات ومصروفات بحافظتى مصوع وسواكن وعموم سواكن وعموم ســواحل البحــر الأحمر عام ١٨٨١ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

ومن الملاحظات الجوهرية التي تؤخذ على الميزانية التي قدمها رؤوف باشا عام ١٨٨١ أنها لم تشر لا من قريب أو بعيد الى حجم الديون المتأخرة على السودان ، وذكر الوسيلة أو الوسائل المؤدية الى سدادها . كما أنها أيضا لم تشرح لنا أسباب العجز أو الزيادة الذين لحقا ببعض المديريات والمصالح الحكومية بالسودان . فلا شك أن مثل هذه التساؤلات كان ينبغي أن تجيب عليها ميزانية عام ١٨٨١ ، خاصة إذا علمنا أنها وضعت فى ظروف اقتصادية دقيقة وصعبة كانت تمر بها البلاد سواء فى السودان أو فى مصر .

هكذا مضت الحالة المالية فى السودان منذ محمد على وحتى أوائل عهد توفيق ، بين منحنيات ومنعطفات حادة كانت تتعثر حينا وتقوى حينا آخر حتى وصلت عام ١٨٨١ الى نقطة اللاعودة ولتتبدد كل المحاولات مع رياح الثورة المهدية ..

نظام الاقتصاد السودانى فى القرن التاسع عشر :

قد يكون من المناسب بعد هذا العرض لفصول الاقتصاد السودانى ، أن نرسم صورة أو نقوم « بتوصيف » لهذا الاقتصاد فى الفترة الزمنية التى تهمنا بدراستها ، أو بمعنى شامل النظام الاقتصادى للسودان فى القرن التاسع عشر .

وبداية نود أن نشير الى حقيقة هامة وهى ان الاقتصاد السودانى فى هذه الفترة كان يستمد أسسه وأركانه الرئيسية من الاقتصاد المصرى فى شىء من « التحوير » أو الاختلاف نتيجة لظروف السودان الخاصة ، كما أن هناك حقيقة أخرى مؤداها أن النظام الاقتصادى فى السودان فى تلك الفترة لم يسر على وتيرة واحدة من حاكم الى آخر بل كانت هناك تغييرات جذرية أحيانا وبصمات قليلة فى بعض الأحيان .

ففى عهد محمد على كانت مصر تسير وفقا لنظام « الاقتصاد

الموجـه » حتى عام ١٨٣٨ ، وهذا النظـام يعتمد على مبدأين : الأول الاستقلال الاقتصادى والثانى الاحتكار والتوجيه فى بعض السلع (١) • فقد كان يطبق سياسته الاحتكارية فى مصر والسودان والتى سبق أن تحدثنا عنها ، والاختلاف الوحيد بين تطبيق هذه السياسة فى البلدين أن الاحتكار فى السودان كان أقل وطأة ، فقد كان محمد على متسامحا جدا مع المزارع السودانى فى رفع الاحتكار عنه •

وبعد معاهدة بلطة ليمان (١٨٣٨) بين الدولة العثمانية وانجلترا ، جرت محاولات لتطبيق سياسة اقتصادية جديدة تتجه نحـو الحـرية الاقتصادية ، ونقول « جرت محاولات » ، لأن هذه المعاهدة لم يطبقهـا محمد على تماما فى بادىء الأمر فى كل من مصر والسـودان ، فقـد ظل ينفذ سياسته القائمـة على الاحتكار ، حتى بدأت الدول الأجنبية وخاصة انجلترا ، تضغط عليه لإلغاء هذه السلبية • ومنذ عـام ١٨٤١ م يمكن القول أن الباشا بدأ يتنازل قليـلا عن سياسته ليفسح لسياسة الحرية الاقتصادية مجالا أرحب حتى تم إلغاء الاحتكار فى مصر والسودان تماما وبدأ تدفق التجار الأجانب الى السودان بصورة واضحة ولم يجـدوا أدنى مقاومة من عباس الأول الذى اشتهر بكرهه للأجانب فى مصر ، بل راح يحميهم ، ويقصى — فى سبيلهم — كبار الموظفين كما سبق القول • وتأكد مبدأ الحرية الاقتصادية فى عهد محمد سعيد الذى ترك للـزراع حرية اختيار نوع المحاصيل التى يزرعونها سواء فى مصر أو السودان ، وحرية بيعها ونقلها وقام بإلغـاء الجمارك الداخلية (٢) • وزيادة على ذلك قام فى السودان ، بتنظيم المسألة الضرائبية بما يتمشى وحالة السكان فخفف من وطأتها عليهم • وبدأت رؤوس الأموال والتجـارة الدوليـة تدخل الى السودان • ومعروف أن سعيد بادر منذ أوائل حكمه فى مصر الى إلغاء ضرائب « الدخولية » التى كانت تقف عائقا فى وجه التجـارة

---

(١) أحمد احمد الحتـه : تاريخ مصر الاقتصادى . ص ٤٢ • ٤٣ .
(٢) حسين خلاف : التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث . ص ٤٣٢ •

الداخلية • وقد صاحب انتهاج سعيد هذا النهج بدء ظهور الرأسمالية الحديثة سواء فى مصر أو السودان فى شكل مشروعات مالية وتجارية وزراعية تمثلت فى قيام بعض الشركات المساهمة ، أو فى شكل مشروعات فردية كما حدث فى السودان من قيام شركات من كبار التجار لبيع العاج ثم الرقيق وأشهرها شركات العقاد وبصيلى والزبير وغيرهم •

وقد تأكدت الرأسمالية فى عهد اسماعيل على وجه الخصوص ، فظهر ما يمكن تسميته — تجاوزا — بالشركات فى جنوب السودان وأثرى التجار ثراء فاحشا لدرجة أن أحدهم وهو الزبير رحمت كان يشكل دولة داخل دولة ، واستطاعت الحكومة المصرية أن تستغل قوته الاقتصادية ومكانته الاجتماعية والحربية فعهدت اليه بفتح دارفور عام ١٨٧٤ • وقد استمرت هذه السياسة الاقتصادية حتى قيام الثورة المهدية عام ١٨٨١ •

الفصل الخامس

التركيب الاجتماعى وتطوره

- معيار تقسيم المجتمع السودانى
- البجاه (البجه)
- النوبيون
- القبائل العربية
- قبائل ساحل البحر الأحمر
- سكان الجبال (قبائل النوبا)
- سكان الجنوب (الزنوج والمتزنجون)
- مجتمع القبيلة السودانى
- الوضع الاجتماعى للرقيق السودانى .
- الأجانب

معيار تقسيم المجتمع السودانى :

لعلماء الاجتماع عدة معايير فى دراسة المجتمعات الانسانية من حيث بنائها الاجتماعى ، فمنهم من يقسمها الى طبقات وفقا لمعايير عدة منها حجم الثروة والتى تتدرج من الغنى الى الفقر • وربما يصلح هذا المعيار للمجتمعات التى قطعت شوطا كبيرا فى تطورها الاقتصادى بحيث تكون الفوارق الطبقية قد ظهرت جلية بين طبقة وأخرى • ولما كان هذا التقسيم ، من ناحية أخرى ، نابعا أساسا من المجتمعات الأوربية التى مرت بمراحل اقتصادية متدرجة من الاقطاع الى الرأسمالية ، كما أن لها ظروفا طبيعة خاصة تختلف تماما عما حدث فى مجتمعاتنا الشرقية وفى السودان بشكل خاص ، لذا فقد طرحنا هذا المعيار جانبا •

وهناك معيار آخر درج الكثيرون على استخدامه ، والذى يقسم فيه المجتمع الى حكام ومحكومين • وهذا المعيار ، فى تقديرنا ، يحمل بين جنباته سمات المجتمعات الشرقية التى تحظى فيها الفئات الحاكمة بجاه السلطة والثروة بينما فئة المحكومين تعيش على هامش الحياة • وقد أضفى على هذه الفئة الأخيرة صفات تتنافى تماما مع آدمية البشر فهى أشبه بالقطيع الذى لا يملك أية مقومات للارادة الأنسانية • كما أن تقسيم المجتمع الى حكام ومحكومين يتنافى مع طبيعة المجتمع السودانى الذى يتمسك تماما بتعاليم الدين الاسلامى التى لا تنظر الى المجتمع على أنه يتألف من حكام ومحكومين ، بحيث تجعل بينهم فواصل حادة ، ولكل شريحة سماتها المتنوعة ، بل نظرت اليهم جميعا على أنهم متساوون • لذلك فقد كان السودانيون شديدى النفور من هذه النظرة الأخيرة للمجتمع وخصوصا فى القرن التاسع عشر الذى شهد تطورات دينية خطيرة تمثلت فى الطرق الصوفية ، التى سوف نتحدث عنها ، والتى جعلت من المجتمع السودانى ــ الذى حوى بين جنباته سلالات شتى ــ مجموعة شبه متقاربة ، فأكثرهم كان منضويا تحت طريقة صوفية

أو أخــرى .. الغنى المتخم بالثروة والفقير حافى القدمين .. كلاهمــا جلسا جنبا الى جنب مع شيخ الطريقة . وهكذا فان تلك المعايير النظرية الواردة من مجتمعات أوربية لا يصلح تطبيقها فى الســودان ، ومن ثم وجب علينــا أن نبحث عن معيار يتلاءم وأوضــاع هــذا البلد الذى له « خصوصية متميزة » تصلح كمعيار له . فالســودان قد ضم قبــائل عربية ، بعضها عاش حول شريط نهر النيل ، والبعض الآخر منها انتشر فى أجزاء متفرقة من البلاد . كذلك فقد سكنته مجموعات أخــرى فى شرقى البلاد تختلف عرقيا عن سابقتها وتدعى (بالبجــاه) ، بالاضــافة الى النوبيين فى شمالى البــلاد ، والزنوج فى جنوبها ، وقبائل أخــرى على ساحل البحر الأحمر الغربى وجماعات من الأجانب وفدت إليــه من كل أنحاء العالم . كل هذه الجمــوع أو المجموعات السكانية كانت جــد متباينة ، فلكل واحــدة منها صفات وخصائص تختلف عن الأخــرى ، بحيث بات من الصعب أن ندرسها تحت تلك المعايير التى طرحناها جانبا ، وأصبح من الأفضــل علميا ، وكمــا درج أكثر المهتمين بدراســة سكان السودان — أن ندرس كل جمــاعة على حــده متخذين معيــارا خاصا بطبيعة المجتمع الذى ينقسم الى عــدد من التكوينات الســكانية ذات الطبيعة القبلية والتى تتمثل فى المجموعات التالية :

١ — البجــاه (البجــه) * :

سكن البجاه الأراضى الواقعة بين البحر الأحمر شرقا ونهر عطبره ثم النيــل الأكبر غربا ، ومن المنحدرات الشــمالية للهضبة الحبشــية جنوبا الى نهاية حدود محافظة أسوان فى الوقت الحاضر شمالا .

وينقسم البجه الى أربعة أقسام رئيسية ، ويمكن أن نطلق على كل قسم منها اسم قبيلة وهى : البشاريون فى الشمال ، فى تلك البيئة الجبلية

(*) بكسر الباء ، وهو النطق المتداول اليوم وان كان البعض قد نطق الاســم بضم البــاء .

الصخرية حيث تقل المياه ويندر الكلأ ، كما أنهم أيضا يقطنون الاقليم المسمى بصحراء العتباى • ويليهم من الجنوب « الأمرار » الذين يمتدون بانحراف فى اتجاه من الجنوب الغربى فى مسار على الخط الحديدى الى الشمال الشرقى فى اتجاه ميناء بور سودان ** • والى الجنوب منهم « الهدندوة » ويمتازون بكثرتهم العددية فى السودان عن بقية الأقسام الأخرى • وتمتد ديارهم من سواكن الى سنار ، وفى الأراضى المجاورة للخط الحديدى الذى يمتد بين البلدين • وهكذا فانهم احتلوا « دلتا القاش » وعاشوا على شواطىء العطبرة المجاورة لهم على خط عرض ١٥ •

وأخيرا نجد القسم الرابع منهم ويسمى « بنى عامر » فى الجنوب الشرقى حيث تمتد أوطانهم من طوكر فى الشمال الى داخل حدود أرتريا جنوبا (١) •

وتوجد جماعات أخرى من البجة ذات كيانات صغيرة وأهمها « الأشراف » و « الارتيقا » و « الكميلاب » و « الحالنقا » وغيرهم ، البعض منها تابع للجماعات الكبيرة والبعض الآخر يفضل أن يعيش مستقلا محاولا إثبات أهميته من خلال أحاديثهم عن أبطالهم القدامى فى العصور الغابرة • ويعلق الدكتور محمد عوض على هذه الظاهرة قائلا : « ••• وليس فى دعواهم هذه وجه غرابة لأن نظام القبائل من طبعه

(**) نظرا لعدم حدوث تغيير جغرافى كبير فى توزيع هذه القبائل فقد استخدمنا هذا الوصف الحديث .

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالى ، سكانه وقبائله . ص ١٦ ؛ وانظر ايضا محافظ ابحاث السودان ، محفظة رقم ١٨ — دفتر رقم ٤ بتاريخ ٢٢ ذى الحجة سنة ١١٨٢ هـ دار الوثائق القومية بالقلعة وانظر أيضا : محمد محمود الصياد : الناس فى افريقية ، ص ٧٦ . وكذلك : سليجمان : السلالات البشرية فى افريقية . ص ٩١ ، ٩٢ .
وأيضا :
Hamilton, J. A. de. C.; The Anglo Egyptian Sudan from within p. 140.

عرضة للتقلب والتطور على مدى الأزمنة ، فيعلو شأن بعضها حينا من الزمن بفضل أسرة قوية الشوكة ، كبيرة الثروة ، ثم لا تلبث بعد ذلك أن يدركها الضعف بسبب الحروب أو الأمراض أو سوء القيادة فيضعف أمرها ويقل عددها .. » (١)

وللبجة لغة حامية خاصة بهم وتسمى « التبداوى » أو « بداويت » ولكن العشائر الجنوبية من البجة من أمثال بنى عامر وجيرانهم من الجماعات القليلة تتكلم لغة « تجره » وهى لغة سامية (٢) . وليس معنى ذلك أن البجة لا يعرفون اللغة العربية ، بل انهم يتحدثونها بالاضافة الى لغة التبداوى أو لغة تجره . ولكن العربية ليست اللغة الأصلية عندهم على الرغم من أن بعضهم يحتفظ بنسب مكتوب فى ورقة يعود بهم الى « قريش » . وتعد اللغة العربية والدين الاسلامى من آثار النفوذ العربى الذى دخل أوطانهم فى عهد متأخر نسبيا من الشرق أو الشمال (٣) .

ويحاول مكمايكل أن يتلمس فوارق بين جماعة البنى عامر وسائر الجماعات الأخرى البجاوية ، فبالاضافة الى التباين اللغوى بين هاتين الجماعتين هناك تباين آخر فى الناحية الجسمانية ، بالاضافة الى قلة التجانس فى هذا الفرع إذا ما قورن بالهدندوة وسائر الجماعات الأخرى البجاوية (٤) .

وفى محاولة لتتبع المراحل التاريخية للبجة يحاول سليجمان أن يجد صلات بينهم وبين المصريين القدماء على أساس أنهما من سلالة واحدة أو من سلالات متقاربة ، وعلى وجه الخصوص سكان مصر الجنوبية

---

(١) السودان الشمالى : ص ٢٧ .

(٢) MacMichael, D. S. O.; A History of the Arabs in the Sudan, Vol. I. p. 35.

(٣) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية . ص ٢٥٠ .

(٤) MacMichael; Op. Cit., p. 35.

الذين لم تمتزج دماؤهم كثيرا بالمهاجرين من آسيا عن طريق برزخ السويس • وقد اعتمد سليجمان فى إثبات رأيه هذا على مقارنة جماجم المصريين القدماء — ومنهم بعض الملوك — مع أشكال البجة الحاليين • ويؤكد الدكتور عوض على هذا الرأى القائل بأن الشعبين من أصل واحد ، وان كانت طبيعة البيئة قد سلكت بالمصريين طريقا وأسلوبا فى الحياة ، وسلكت بالبجة طريقا آخر ، فانفصلت أوطان الفريقين فترة من الزمن الى أن نشأت بينهما صلات بحكم الجوار (١) •

ولندع أقسامهم وأصولهم العرقية لنتحدث عن أوضاعهم تحت الادارة المصرية فعلى الرغم من أن الادارة المصرية بصفة عامة كانت سهلة لينة — لم تحاول أن تخضع البجة لحكم صارم دقيق يتنافى مع ما ألفوه من الحرية — فقد واجهت منهم فى بعض الأحيان عنتا ساعة كان رجال الادارة — فى بعض الأحايين — يطلبون منهم المساهمة فى تقديم الابل ، كما حدث بالنسبة للبشارية الذين باغتوا جنود خورشيد باشا — حكمدار السودان — عام ١٨٣٦ وقتلوا منهم الكثير (٢) •

وفى عام ١٨٤٢ على عهد أحمد باشا أبو ودان قام بشاريو العمراب بحركة عصيانية منتهزين انشغال الحكمدار فى حرب التاكة ضد الهدندوة وقام أحمد باشا بتكليف الشيخ سليمان نمر العبادى بالقضاء على حركة البشاريين حيث خرج سليمان من بربر على رأس قوة من جماعة العبابدة تقدر بنحو ألفى جندى استطاعوا بها هزيمتهم ، لكن البشاريين تمكنوا من قتل سليمان وجنوده (٣) • ولا تعنى هذه الأحداث — فى تقديرنا — أكثر من سوء فهم للادارة المصرية ونواياها الحسنة حيال هؤلاء ، وكان لابد لهذه الادارة أن تدرس أحوالهم لتأخذ بأيديهم • وقد

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٥٦ •

(٢) دفتر رقم ٧٨ معية تركى — ترجمة الأمر الكريم رقم ٣٥٠ بتاريخ ١٢ ربيع الآخر سنة ١٢٥٢ هـ • من الجناب العالى الى خورشيد باشا حكمدار السودان • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) Hill; Egypt in the Sudan. pp. 72-73.

جاء ذلك متأخرا بعض الشيء • ففى سبتمبر عام ١٨٦٥ ورد تقرير طويل من السودان يشرح حالة البجة فى مديرية التاكة من جميع النواحى • ففى مستهل التقرير اشارة الى اختلال المديرية حيث لا مدن ولا بنادر ولا قرى يمكن أن يعين فيها ناظر قسم أو مأمور أو معاون • أما القبائل فعبارة عن بدو رحل فى حالة من التوحش ، ينتقلون فى كل موسم وفصل الى مساقط الغيث لرعى مواشيهم ، فلا يقيمون فى مكان واحد شهرا أو شهرين • كما أن المسافة بين جدود قبيلة وأخرى تتراوح بين ٣ ، ٧ الى ٨ أيام على الأقل • وإذا ظهرت أية مطالب أو حاجة للمديرية لدى هذه القبائل تنقضى مدة لا تقل عن عشرة أيام فى البحث عن الوادى أو الجبل أو المحطة التى تقيم فيها القبيلة • وبعد معرفة محل إقامتها يخاطب شيخ مشايخ أبدانها ، حتى أن مشايخ الأبدان لا يواجهون الحكام ولا يعرفونهم ، وكذلك الحال بالنسبة لحكام المديرية الذين لا يعرفون مشايخ الأبدان (١) •

وربما لأول وهلة يسارع قارىء مثل هذا التقرير باتهام الادارة المصرية بالتقصير تجاه سكان هذه المديرية ، ولكنه قد يجد لها بعض العذر إذا علم أن هذه المديرية قد ضمت فى عام ١٨٤٠ ، بالاضافة الى المشاكل المحيطة بها من حيث اتساع مساحتها ومجاورتها للحبشة واختلاط السكان ببعضهما البعض الأمر الذى يثير كثيرا من المشاكل أمام هذه الادارة التى كانت تحاول أن ترطد أركانها بعد سلسلة الأحداث التى مرت بها عقب ضم السودان • وهكذا كان هناك « مشوار » اجتماعى طويل أمام هذه الادارة لتهذب من طباع هؤلاء البدو والبجاة منهم على وجه الخصوص •

وقد عاش البجاوى حياة بسيطة من حيث المسكن الذى سوف

---

(١) محافظ أبحاث السودان — تقرير طويل عن أحوال مديرية التاكة بتاريخ ١١ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ هـ ، والمودع بالمحفظة رقم ١٧ بالدفتر رقم ١٧ بالدفتر رقم ٢ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

نتحدث عنه فى موضوع لاحق والمأكل الذى كان أيضا غاية فى البساطة ، فلم يكونوا يزرعون شيئا سوى الذرة العويجة فى مساقط الأمطار ويجمعون المحصول ويبللونه بقليل من الماء ثم يضعونه على حجر كبير يشبه الرخام ويدقونه بحجر آخر صغير ثم يرفعون الدقيق عن الحجر ويقومون بعجنه ووضعه على صاج أو « قصعة » ساخنة وينزلوه قبل أن ينضج • وجميع سكان مديرية التاكة — والبجاة منهم — يأكلون طعامهم بهذه الكيفية كما أن أكثرهم كان يتغذى على السمن والجبن واللحم واللبن ، والأخير يكثر عندهم لتوفر الأغنام والجمال (١) •

ولم يكن البجاة يميلون الى الاختلاط كثيرا ، الأمر الذى دعا البعض الى وصفهم بجفاف الطبع ، وشدة النفور من الناس ، بل والتوحش أحيانا • فميله للعزلة لم يكن فى الواقع وليد الخوف أو الاحساس بالغربة عن الناس بل يعود الى طبيعة البيئة الجبلية التى نشأ بها والتى لا تساعد على التجمع والاختلاط ، فهو ليس مبغضا للغرباء والأجانب • بل انه ألف العيش وحيدا فلا يجد لهم مكانا فى دائرة حياته (٢) •

ويبدو أن البجاوى لم يكن يبادر بالتعارف بل ينتظر ذلك من الآخرين • ولم تكن تجربة رجال الادارة المصرية — فى بادىء الأمر — مع بعضهم طيبة • ففى أحد التقارير نقرأ وصفا لأوضاعهم ولوما لحكام الادارة المصرية الذين تركوا العساكر يعيثون فسادا فى بلادهم ، وكأن الادارة بذلك هى المسئولة عن مثل هذه التجاوزات • فقد بسط كاتب هذا التقرير مثالا لذلك قائلا : انه إذا ما طلبت الحكومة من شيخ احدى القبائل بعض المطالب وأهمل فى تقديمها وتيقن من أن الحكومة ستلومه وتعاقبه على هذا الفعل ، يعمد ظلما الى التحرش برجال احدى البدنات الصغيرة فيعتدى عليهم مستغلا بعض الحزازات الشخصية ، ثم يدعى أن شيخ هذه البدنة هو المتسبب فى تأخير طلبات الحكومة وان

(١) محافظ أبحاث السودان : التقرير السابق •
(٢) محمد عوض محمد : المرجع السابق • ص ٢٧ — ٢٨ •

سائر القبائل قد حذت حذوه ، ويطلب من الحكومة عددا من العساكر لتأديب هذه البدنات (١) • وهكذا بدت الحكومة أمام الجميع انهيا المسئولة عن تلك المشاكل ، ظاهريا ، بينما الواقع غير ذلك تماما •

ويبدو أن النزاع الدائم كان من طبيعة تلك القبائل حتى أصبح من المستحيل أن يمر رجال القبائل المتنازعة بديار بعضهم البعض ، الأمر الذى أدى الى تعطل التجارة ومرور القوافل ، ناهيك عن وقوع الكثير من القتلى نتيجة هذه النزاعات القبلية (٢) •

وقد حاول رجال الادارة وقف هذه التعديات والقبض على مرتكبيها ومحاكمتهم — فى محاولة لبسط السلام الاجتماعى — ولكن يبدو أنه أمام كثرة مثل هذه الجرائم وطول الاجراءات التى تقتضيها أمور المحاكمة طلب المسئولون فى شرقى السودان الترخيص لهم بمجازاة الفعلة بالقصاص وذلك بإعدام القاتل فى حينه حتى يتم وقف هذه المذابح ، ولما كانت مثل هذه القوانين لا تطبق إلا على العسكريين تطلب الأمر دراستها بمصر • وبالفعل اقتنع المسئولون بهذا الطلب ووافقوا على تنفيذ القانون العسكرى (٣) •

ومن بين الأمور السيئة التى كانت منتشرة بين القبائل مسألة الاغارات المتبادلة ونهب الحيوانات — وخصوصا الجمال — ولم يكن رجال الادارة المصرية فى تلك الجهات ليقبلوا مثل هذه الأعمال ، فأرسلوا فى عام ١٨٧٦ الى مشايخ هذه القبائل ، الذين تعهدوا بوقف الاغارات

---

(١) محافظ ابحاث السودان — التقرير السابق •
(٢) محافظ ابحاث السودان — نفس التقرير •
(٣) دفتر رقم ٢٥ عابدين — وارد تلغرافات — صورة التليفراف العربى رقم ٢٧٨ بتاريخ ٢٠ جمادى الآخر سنة ١٢٩١ هـ • من مدير عموم شرقى السودان الى المعية السنية ، أنظر أيضا : دفتر رقم ١٩٤٨ — أوامر عربى — صورة الأمر الكريم الصادر الى مدير شرقى السودان • محافظ سواحل البحر الأحمر بتاريخ ١١ رجب سنة ١٢٩١ هـ نمرة ١٨ ص ٩٢ •

وتأديب الخارجين عن حدود القانون (١) .

وكان رجال الادارة بالسودان يحاولون بشتى الطرق ان يولفوا بين قلوبهم وأن يأتلفوا هم أنفسهم معهم ، فعمدوا الى تكريم مشايخهم والإنعام عليهم بالرتب كما حدث فى فبراير عام ١٨٦٨ حين تم منح كل من شيخ بنى عامر الرتبة الرابعة ، كما تم من قبل منح شيخ قبائل الهدندوة نفس الرتبة السابقة (٢) .

وبالاضافة الى ذلك كان رجال الادارة فى السودان يقومون بالمرور على البدو « ... ويخبرونهم ان كان فى نفسهم شىء بسبب سوء الادارة التى كانوا يعاملون بها ، فانه مرخص لكل كبير وصغير منهم ومسموح له بأن يعرض تظلمه دون خوف أو خشية معتمدا بذلك على بساط العدل والرحمة ... » (٣) ويبدو أن هؤلاء البدو فى زمن الخديوى اسماعيل قد بدأو يشعرون بالاطمئنان من قبل بعض العساكر التى كانت تنهب أموالهم ، فقد أصبحوا الآن « ... يتعجبون جدا لعدم اعتداء العساكر المصرية ، وتعرضهم لأموالهم وأعراضهم وشرفهم فى الطريق كما فى السابق ولدفع أثمان صنف اللحوم من الغنم والبقر مقدما وزيادة عن الثمن الذى يطلبوه عند ابتياعهما ، وكانوا يسرعون فى تبشير بعضهم ان الله تعالى قد أمدهم بعساكر منظمة جديدة مشفقة .. » (٤) .

وكان رجال الادارة المصرية كلما اقتربوا من منازل هؤلاء العربان

---

(١) دفتر رقم ٤٠ عابدين — وارد تليغرافات . ص ٩٨ . صورة التليغراف العربى الشفرة رقم ٥٨٥ بتاريخ ١٩ جمادى الآخر سنة ١٢٩٣ هـ من وكيل عموم شرقى السودان وسواحل البحر الاحمر بسنهيت الى سعادة خيرى باشا . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ٥٧٣ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤ بتاريخ ٧ ذى القعدة سنة ١٢٨٤ هـ . ص ١٩ من الجناب العالى الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) محفظة رقم ٣٦ معية تركى — صورة ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٤٥ بتاريخ ١٠ شعبان سنة ١٢٨٢ هـ . من جعفر باشا الى مهر دار خديوى . دار الوثائق ا لقومية بالقلعة .

(٤) نفس الوثيقة السابقة .

عمد الأخيرون — خلافا للمعتاد — الى سوق أغنامهم ومواشيهم الى الطرق التى يمر منها العساكر قائلين « .. ان أموالنا فداء للعساكر العادلين المؤدبين .. » وزيادة على ذلك فان نساءهم كن يزغردن لحظة مرور العساكر (١) .

وكانت الحكومة لا تأل جهدا فى دفع ومقاومة الأمراض التى تواجه عربان البجة ، كما حدث فى مايو عام ١٨٦٦ حين تفشت بين عربان قبيلة بنى عامر « بخور بركة » نوع من الحمى المسهلة التى تشبه مرض الكوليرا ، فعمدت الادارة الى اتخاذ كافة الاجراءات الصحية المناسبة حتى تم إزالتها تماما فى أيام معدودات (٢) .

وفى يونية عام ١٨٧٠ إشتكى ناظر قسم بنى عامر من كثرة الوحوش التى تهاجم مواشى العربان ليلا ونهارا الأمر الذى يسبب لهم ضررا بالغا . وقد خصصت الادارة مكافآت مالية سخية لكل من يقتل أحد هذه الحيوانات وكانت هذه المكافأة تزداد حسب خطورة الحيوان (٣) .

ومن العلامات المشرقة التى تذكر للادارة المصرية بالسودان تجاه عربان البجة تلك المحاولات التى جرت لتوطين وإستقرار هذه القبائل البدوية عن طريق العمل بالزراعة ، وهذا الاجراء يعد تطورا خطيراً فى حياة أولئك البدو الذين لم يعتادوا على البقاء طويلا فى بقعة واحدة ، بل جبلوا على حياة التشتت فى شعاب الجبال وراء قطعانهم حيث يوجد الكلأ . ولقد كان أكثر المنتفعين بمشروعات الرى فى طوكر وكسلا من البجة . ومع التسليم بأن مستواهم فى الانتاج الزراعى لم يكن

---

(١) نفس الوثيقة السابقة .

(٢) محافظ أبحاث السودان — محفظة رقم ١٨ — دفتر رقم ٤ من جعفر باشا مظهر حكمدار السودان بتاريخ ٢٢ ذى الحجة سنة ١٢٨٢ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ١٨٣٥ — معية سنية — صورة المكاتبة الواردة من محافظ سواحل البحر الأحمر الى المعية السنية بتاريخ ٢٢ ربيع الأول سنة ١٢٨٧ نمرة ٢ . ص ٣٥ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

عاليا إلا إنه مع ذلك لم يكن منحطا • ففى شرقى السودان سارع عربان الكميلاب وارتيقا الى زراعة الذرة بجهة طوكر (١) • وقد شجعت عملية الزراعة هذه على جلب الكثير من البدو الفارين — أمثال عربان أرتيقا — الى المجىء الى جهة طوكر والإستقرار بها وإحداث لون من العمران (٢) •

وتشجيعا لعربان الكميلاب — وهم فرع صغير من البجة — على الزراعة والإستقرار قام رجال الادارة بمحافظة سواكن بصرف التقاوى لملاحظ طوكر لتوزيعها على هؤلاء العربان على أن يسددوا أثمانها عقب جمع المحصول (٣) •

كذلك قام المسئولون فى تلك الجهات بتقديم نصائحهم ومشوراتهم لهؤلاء العربان فيما يتعلق بأمور الزراعة • فقد لوحظ أن أكثر العربان يعيشون فى مسغبة من العيش وأنهم يعجزون عن سداد الضرائب المطلوبة منهم فأشارت عليهم بزراعة القطن والاكثار منه حتى يزداد دخلهم ويمكن انقاذهم من الفقر • وبالفعل أرسلت اليهم أنواع جديدة من القطن ذات رتب عالية من أمثال القطن الهندى والسيلانى (٤) •

ولقد كانت منطقة دلتا نهر الجاش منطقة مستنقعات وأعشاب وشجر تؤمها السباع ، فطهرت أراضيها وزرعت بمختلف المزروعات فيما بين عامى ١٨٤٠ ، ١٨٧٠ ، وأصبح محصول القطن من أهم

---

(١) دفاتر محافظة سواكن — دفتر صادر ٤ / ٥ / ٢٧ سواكن . بتاريخ ٩ ج سنة ١٢٨٦ هـ — مديرية التاكا عموم — مكاتبة رقم ٣ ص ٣ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) الدفتر السابق — مكاتبة رقم ١١ بتاريخ ٩ جمادى ثان سنة ١٢٨٦ هـ ص ٥٩ .

(٣) الدفتر السابق — مكاتبة رقم ٨٦ بتاريخ ١٩ جمادى ثان سنة ١٢٨٦ هـ .

(٤) الدفتر السابق . ماكتبة رقم ١٣٤ بتاريخ ١٧ ج سنة ١٢٨٦ هـ . ص ١١ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

مزروعاتهـا (١) .

هكذا تأثرت حياة القبائل البجاوية بالمشاريع الزراعية والعمرانيـة التى تمت فى طوكر ودلتا القاش ، وفى نمو مدينة كسـلا والقضارف . وقد صحب هذا التطور تشـابك المصالح واحتشاد العناصر المختلفة . واستجاب البجة الى هذه التطورات وبدأوا يتخـذون قرى على ضفاف القنوات ، ويحتلون أحيـاء من بعض المدن وأخـذ كثير منهم يعمـل بالزراعة كما أسلفنا بالاضافة الى مختلف الحرف . ولم يترتب على هذا التطور تفكك فى النظـام القبلى أو العصبية القبلية عنـدهم . فالقاضى الذى يفصـل فى خصوماتهم سيان ان عقـد مجلسـه فى داره بالقرية الجديدة ، أو فى خيمته وسط مسالك عتباى الوعرة (٢) .

ومن الأمور الملفتة للنظر حقا فى حياة البجة ــ على اختلاف قبائلهم وأوطانهم ــ انقطاع الصلة تماما بالبحر ، فليست لهم سفن أو قوارب ولا يعرفون حـرفة الصيد البحـرى ، وأهملوا بذلك مـوردا هاما فى غذائهم . وعلى الرغم من أنهم يرعون ابلهم على ساحل طوله أربعمائة ميـل ، بل قد تشرب ابلهم قليلا من ماء البحـر أحيانا ، فانهم لم يلقوا بالا الى هذا البحر . وعلى الرغم من طواف جماعات عربية بالسواحل ــ واشتغال بعضها بصيد اللؤلؤ فى « دنجو ناب » وغيرها من الجهات ــ فان البجة لم يتعلموا شيئا من ذلك لدرجة ان الموانىء التى نشأت على البحر لم يكن البجـة قد شاركوا فى انشائها (٣) .

النوبيـــون :

سكن النوبيون الأراضى الملاصقة لنهر النيل من شـمالى أسـوان حاليا الى بلدتى الدبة وكورتى . ويعتبرهم الجغرافيون من الشـعوب

---

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالى . ص ٣٧ .
(٢) نفس المرجع . ص ٢٩ .
(٣) نفس المرجع . ص ٤١ .

النهرية التى تلتزم وادى النيل التزاما شـديدا وذلك بسبب اشتغالهم بالزراعة من جهة ، ولأن الصحراء المتاخمة للنهـر شرقا وغربا قد أرغمت هؤلاء النوبيين منذ زمن طويل أن يظلوا ملتزمين للنهر وللمساحات القليلة الصالحة للزراعة والتى تحف بنهر النيل (١) .

ويتميز هذا الاقليم الضيق بقـدرة كبيرة على امتصاص العنـاصر الغريبة التى تدخله من حين لآخر ، وعلى تمثيلها تمثيلا كاملا حتى تندمج فى سائر السـكان .

وقد شهد النوبيون على مدى آلاف السنين ألوانا من السـلالات والجماعات سواء أكانت غازية أو مهاجـرة ما لبثت أن استولت عليهـا البلاد وأدمجتهـا فيها ، وهـذه الخاصية معروفة فى مصر ولكنها أكثر وضوحا فى بلاد النـوبة .

وإذا حاولنا أن نتتبع أصـول النوبيين منذ القدم ، فان ذلك قـد يحتاج منا الى صفحات كثيرة * ، ولكن يكفى أن نقول ان النوبيين شعب قديم ، سكن أوطانه الحالية منذ آلاف السنين ، وقد جـاء العرب الى بلادهم واختلطوا بهم وأصهروا اليهـم وبذلك أضيف النسب العـربى الجديد الى النسب النوبى القديم إلا أن هذه الهجرات العربية لم تكن من القوة بحيث تهضم الثقافة النوبية ، ومن ثم بقيت اللغة النوبيـة

---

(١) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية . ص ٢٨٤ .

(*) من أهم الدراسات التى تناولت أصل النوبة ما يلى :

— The Archealogical Survey of Nubia.

— Seligman; Nubian Origins S.N.R. Vol. XIII. pp. 137-48.
— Kirwan; A Survey of Nubian origins. S.N.R. Vol. XX. p. 47.
— G. W. Murray; English - Nubian Dictionary (1423).
— Junker and Shafer; Nubisch Texetc.

بالاضـافة الى الكتب المتعلقة بالسـودان واهمهـا : كتابات ماكمايكل وترمنجهام وكتب الرحالة أمثال بوركهارت ، والمراجع العربيـة مثل كتابات المقريزى والمسعودى وابن خلدون وغيرها .

بلهجاتها المتنوعة حتى يومنا هذا جنبا الى جنب مع اللغة العربية ، بينما آخذ النوبيون الاسلام (١) .

وقد لا يكون من قبيل الترف التاريخى إذا أشرنا الى الخلط — الذى نشأ بسبب البحوث اللغوية المتعلقة بالدراسات النوبية — بين الشعب النوبى وبين سكان الجبال أو الجماعات التى أطلق عليها اسم « النوبا » فى الجبال الواقعة جنوبى كردفان (٢) . فشعب النوبة كما ذكرنا قديم أما « النوبا » أو « النوباويون » ، كإسم لسكان جبال كردفان الجنوبية فلا يعرفه السكان أنفسهم ! ، وهم يدعون أنفسهم أحيانا سكان الجبال أو إن كل شعبة منهم تسمى بإسمها .

ويخلص الدكتور محمد عوض الى أن أصول النوبيين فى السلالات القوقازية عريقة وقديمة ، وان الصفات الزنجية التى نراها أحيانا بينهم هى العنصر الطارىء الدخيل (٣) .

وقد اختلف العلماء فى أصل تسمية النوبة كما اختلفوا فى تاريخهم ونشأة لغتهم . فقد عرفهم المصريون القدماء بإسم « نوب » أو « نوبو » بمعنى الذهب أى أنها بلاد الذهب ، حيث أن أوطان النوبيين مجاورة لمناجم الذهب (٤) . كما أطلقوا على بلاد السودان اسم « تا — نحسو »

---

(١) محمد محمود الصياد : الناس فى افريقية . ص ٧٤ — ٧٥ ويذهب على مبارك الى ان النوبة بطن من لواته ، وهى قبيلة من البربر سكنت تلك الجهات (الخطط التوفيقية الجديدة . جزء ١٧ . ص ٣٨ — ٣٩) ولسنا ممن يميلون الى هذا الراى الذى لا يستند الا على مجرد تشابه بين كلمتي « البربر » و « البرابرة » رغم ان التسمية الأخيرة غير دقيقة ويطلقها العامة من غير النوبيين . فالبربر والنوبيون كلاهما بعيد جدا فى الموطن ، بالاضافة الى الاختلافات الواضحة بينهما من حيث الملامح الشكلية ، والجوانب الثقافية .

(٢) السيد ابراهيم البدوى : النوباويون . دراسة تاريخية انثروبولوجية بمجلة الجمعية الجغرافية . العدد ٦ لعام ١٩٧٣ ص ١١٥ وما بعدها .

(٣) محمد عوض محمد : المرجع السابق . ص ٣٠١ .

(٤) نفس المرجع . ص ٣٠١ .

Ta - Nehesu ، تاء = أرض ، نحسو = السـودان • وعلى هـذا فربما تكون هناك صلة لغوية بين نحسو وكلمة (النحاس) العربية إذ أن سكان النوبة يميل لونهم من اللون النحاسى (١) •

ويتحدث النوبيون لغة تختلف قليلا من اقليم الى اقليم • فلأهـل المحس وسكوت لهجة ، ولأهل دنقـلة فى جنوبهم والكنوز فى شـمالهم لهجة أخرى • وقـد فسر ذلك بأن الجهـات الوعرة فى اقليم الجنـادل الوسطى حالت دون الاختلاط بأهل الشمال والجنوب فتشابهت لغـة سكان الجنادل • غـير أن هذا التفسير لا يسـاعد على أيضـاح تشابه لهجات الدناقلة والكنوز مع بعد المسـافة بينهما • ويفسر الدكتور عوض هـذه المسألة بافتراضه أن الاتصـال بين اقليم الكنوز والدناقلة كان كثـيرا بحكم العلاقات التجارية بين الجنـوب والشـمال ، وكان لابد لسرعة الاتصال من تجنب الاقليم النهرى الكثير الجنادل والذى لا يلعب دورا هاما فى التجارة ، من المعروف أن الدناقلة والكنوز بحكم موقعهم يقومون بدور كبير فى تلك التجارة وبالتالى كان لابد أن يحـدث هذا الاتصـال والتشـابه اللغـوى (٢) •

وينقسم النوبيون عموما الى خمس مجموعات رئيسية : الكنوز فى الجزء الممتد من أسـوان الى كرسكو ، والفديجة ما بين وادى حلفـا وكرسكو ومعروف أن هاتين المجموعتين تشكلان النوبة المصرية فى الوقت الحاضر وقد تم تهجيرهم الى منطقة كوم أمبو بأسـوان خـلال بنـاء السـد العالى •

وأما المجموعات الثلاث الباقية فهى التى تشكل النوبة السـودانية فى الوقت الحاضر وهى على النحو التالى : الدناقلة فى الجنـوب ما بين

---

(١) Budge; The Egyptian Sudan, Its History and Monuments Vol. I. p. 505.

وانظر أيضا شوقى الجمل : معالم سودان وادى النيـل جـ ١ . ص ٧ .

(٢) محمد عوض محمد : السودان الشمالى . ص ٣٠٤ .

الدبة وأبى فاطمة ثم المحس والسكوت فى اقليم الشلالات والجنادل (*) .

وقد يكون من المفيد ونحن نتتبع تطــور المجتمع النوبى السودانى فى ظل الادارة المصرية حتى عــام ١٨٨١ أن نميز بين فئتين من السكان : الأولى وتشمل فئة الزراع المستقرين . ففى اقليم دنقلة يعتــدل جريان النهر وتخلو الجنادل وتتيسر الملاحــة ويتسع السهل الفيضى فى مواضع عدة ، الأمر الذى يتيح للســكان نشاطا زراعيا يقوم على الرى الحوضى والسواقى . وفى المحس لا يتسع النهر للزراعة إلا بمقدار ضئيل ولكن رغم ذلك توجــد جهات يتسع فيها الوادى وتتم عمليات الزراعة (**) .

أما الفئة الثانية فهى فئة التجار . فالدناقلة ــ على وجه الخصوص ــ اشتهروا بعملياتهم التجارية فى كافة أرجــاء السودان ، فى وسطه وغربه وجنــوبه ، وظهر من بينهم تجار ذوو ثروات ضخمة وكونوا تجمعات كبيرة فى البلاد التى سكنوها لدرجة أن بعض الأحياء ــ فى كردفان مثلا ــ عرفت باسمهم (***) .

ولقد تجمع الدناقلة فى عهــد خورشيد باشــا « بحلة المراكبية » بالخرطوم حيث مارسوا مهنة التجــارة ، وشاركوا فى رحلات الجنوب التجــارية كحراس وخصــوصا بين عامى ١٨٤٢ ، ١٨٥٤ حــين احتكر حكمدارو الســودان التجارة فى الجنوب . ومنذ عام ١٨٦٠ عظم عددهم فى الخرطوم وجنوبها حيث رافقوا تاجر الرقيق محمد خــير الدنقلاوى الذى كان يهاجــم الشلك . وقــد قدر عددهم فى تلك الســنة بثمانيــة عشر ألفــا (١) . وعقب اعــلان الحكومة الحرب على تجارة الرقيق فى عهد اسماعيل لم يتناقص عددهم فى الخرطوم بل تولوا حملات الحكومة

(*) انظر الخــريطة .

(**) انظر فصل تطور الأوضاع الزراعية فيما سبق .

(***) انظر القسم الأول من فصل التجارة والمواصلات .

(١) أحمد احمد سيد أحمد : تاريخ مدينة الخرطوم . ص ١٦٠ ــ ١٦٢ .

فى القضاء على تجارة الرقيق فى بحر الغزال تحت قيادة البلالى عام ١٨٦٩ ، كما مارسوا نفس المهمة مع صمويل بيكر فى خط الاستواء فى نفس العام ، وأيضا مع غوردون بين عامى ١٨٧٤ — ١٨٧٦ (١) ٠

ولقد كانت الهجرة من أهم سمات الجماعات النوبية فقد ضاق اقليم المحس والسكوت بسكانه ، نظرا لقلة موارده فهاجروا الى أماكن جديدة داخل السودان مثل جزيرة « توتى » واقليم « عيلفون » ٠ وهنا فى هذا الموطن الجديد نود أن نشير الى أن المحس قد استعربوا وأصبحوا لا يختلفون عن جيرانهم من العرب وأصبحت لغتهم الوحيدة هى اللغة العربية كذلك تجدر الاشارة الى أن أغلب الهجرات التى اتجهت الى جبل « ميدوب » وشمال كردفان ودارفور ومصر كانت من المحس (٢) ٠

ولا تزال الهجرة حتى الآن سمة مميزة للرجل النوبى سواء فى السودان أو مصر ، وقلما تجد الرجال مقيمين فى تلك الأوطان بل إن النساء هن اللاتى يقمن بالنصيب الأكبر فى العمل الزراعى ، على عكس المرأة عند القبائل العربية السودانية ٠

٣ — القبائل العربية :

لعل من المفيد أن نشير بادىء ذى بدىء الى أن النظام القبلى فى المجتمع السودانى يمثل ركنا أساسيا فى بنائه ٠ وسوف نلاحظ أن القبائل العربية التى وفدت الى السودان جاءت بكثير من نظمها المختلفة ، والاجتماعية منها بوجه خاص ٠وبالرغم من التطورات الجديدة التى حدثت فى الموطن الجديد إلا أن مسألة الانتماء الى قبيلة ظل يمثل شيئا من الوجاهة الاجتماعية وله احترامه الشديد سواء فى المدينة أو فى

---

(١) احمد احمد سيد : المرجع السابق ٠ ص ١٦٢ — ١٦٣ ٠

(٢) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية ٠ ص ٣٠٤ ٠

الحلة (القرية) • ويصعب تماما ، وخصوصا فى القرن التاسع عشر ، اجراء تقسيمات حادة لمجتمع القبيلة فى السودان بمعنى أن نقول ان هناك فروقا واضحة بين مجتمع المدينة ومجتمع القرية • فالرجل سواء فى المدينة أو فى الحلة لابد وان يكون منضويا تحت اسم قبيلة وهذه مسألة يحرص عليها الفرد السودانى تماما فلم يكن لمعيار الثروة كبير وزن بينهم بقدر ما كان ضروريا أن ينتمى الى قبيلة عربية •

ويشير البعض الى جملة أمور حول تاريخ العروبة فى السودان ، منها هجرة عرب اليمن الى الحبشة قبل القرن العاشر الميلادى وتأثر أطراف السودان الشرقية بذلك ثم تلتها هجرات أخرى من الحجاز منذ ظهور الاسلام ، ومعروف أن نشأة السلطنة السنارية قد أرجعها البعض الى جماعة من القبائل العربية من بنى أمية (١) • ويشير مستر « ريد » الى وصول العرب الى شرقى السودان منذ زمن طويل حين اخترقت مجموعات منهم البحر الأحمر الى السودان الشرقى واتخذوا لهم زوجات من السكان الحاميين ويقصد بهم البجة ، وعن طريق ذلك أمكنهم أن يرثوا مناصب خطيرة (٢) •

وبالرغم من تعدد المسالك التى سلكها العرب نحو السودان سواء من الشرق عبر البحر الأحمر أو من الشمال خصوصا عبر مصر ، فان ماكمايكل يرى أن طريق مصر كان أهم منفذ للعرب الى السودان ويفضله عن المنفذ الشرقى ، ويعلل الأسباب التى دعت العرب الى الهجرة من مصر الى السودان بأعداد غفيرة الى أن الحكم فى مصر قد انتقل من أيدى ولاة عرب الى اسرات تركية غير عربية منذ الحكم الطولونى مما

---

(١) يوسف فضل : مقدمة فى تاريخ الممالك الاسلامية فى السودان الشرقى ص ٤٥ ، وانظر ايضا : الشاطر بصيلى : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط . ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

(٢) انظر مقالته فى S.N.R ، الجزء الثانى — مجلد ١٣ . سنة ١٩٣٠ . ص ١٥٠ .

جعل العرب يشعرون بضيق أدى الى هجرتهم للجنوب كما يشير أيضا الى أن العرب الذين أتوا الى مصر كانوا من بيئة شبه الجزيرة العربية الرعوية فوجدوا فى البيئة الجديدة (مصر) أنهم قد حرموا مما ألفوه فى بيئتهم الأصلية من ارتحال وتنقل فتركوا مصر ميممين شطر بيئة تشابه شبه الجزيرة العربية (١) •

بعد ذلك كله يجدر بنا أن نعرض لتوزيع القبائل العربية فى السودان ، وهنا نذكر بأن العرب فى بلادهم الأصلية كانوا ينقسمون الى قسمين كبيرين : القسم الأول يعرف بالجنوبيين من سكان اليمن وما يليها ، والقسم الثانى ويعرف بالشماليين من سكان الحجاز ونجد • وقد عرفا أحيانا بإسم العرب العاربة والعرب المستعربة أو القحطانيين والعدنانيين •

وإذا كنا نلحظ أن العرب فى أى بقعة هاجروا اليها ينقسمون الى مجموعات ينتمى بعضها الى العدنانيين والبعض الآخر الى القحطانيين ، فإن شبيها بهذا قد حدث فى السودان • فقد مثل الجعليون أو العباسيون الشعبة العدنانية ، كما مثلت القبائل الجهنية الشعبة القحطانية •

(أ) الجعليون * :

تمتد أوطان هذه المجموعة الكبيرة من القبائل العربية من دنقلة فى الشمال الى بلاد الدنكا فى الجنوب • وللجعليين أوطان أخرى بعيدة عن

---

(١) Mac Michael; op. cit., vol. I.
انظر شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل الجزء الأول . ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(*) علينا ان نفرق بين قبيلة الجعليين وبين مجموعة الجعليين أو العباسيين ، فقبيلة الجعليين تعيش على ضفاف النيل بين مصب عطبرة شمالا وخانق سبلوقة جنوبا . (محمد عوض : السودان ووادى النيل ، دراسات فى تكوين وادى النيل ومكان السودان وسكانه من حوض هذا النهر ص ٤٤) .

النهر فى سهل البطانة وكردفان وهى فروع للأوطان النهرية التى تشغل من نهر النيل مسافة تبلغ زهاء الألف كيلو متر •

ويلاحظ الدكتور محمد عوض على توزيع الجعليين عدة أمور أهمها :

١ ــ انتشار بعض قبائل هــذه المجموعة من أوطانهــا النهرية الى أوطان أخرى فى كردفان مثــل الجوامعة والبديرية والبطاحين فى ســهل البطانة ، وبعضها استوطن فى جزء من جبــال النوبا حيث أسس مملكة تقــلى •

٢ ــ لم يكن هذا الانتشــار الذى اتخذته المجمــوعة الجعلية على ضفاف النيل من دنقلة شمالا الى خط عرض ١٥° مضطرداً بل حدث فيــه انقطاع فى احدى أجــزائه من وادى النيل الأبيض احتلته بعض قبــائل الكواهلة •

٣ ــ باستثناء ما سبق ، فان المجموعة الجعلية قــد احتلت الوادى كله لا ينازعها فيه منازع اللهــم إلا فى أطرافه الشــمالية حيث يقاسمها الدناقلة ، وفى الجنوب حيث جماعات البقــارة ، وفيما عدا ذلك ســاد الجعليون المساحات المتاخمة لنهر النيل (١) •

وينتسب الجعليون الى ابراهيم الملقب بجعل ، وهو طبقا للروايات ابن سعد بن فضــل بن عبد الله بن عباس عم النبى (صلى الله عليــه وسلم) وعلى هذا فالجعليون ينتسبون الى الأصل الهاشمى ولذلك فانهم يســمون أحيانا بالمجمــوعة العباسية • ويرفض الدكتور محمد عوض الــزراية بهــذا النســب أو التشــكيك فى حقيقته ، كمــا فعــل ماكمايكل ، نظرا لأن أدلة الأخير غير قوية • فقــد سبق أن شكك البعض فى انتســاب البشاريين وغيرهم الى بنى كاهل ثم أظهرت الأدلة صدق هذا الانتســاب (٢) •

---

(١) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية • ص ٣٢٠ •
(٢) السودان الشمالى • ص ١٦٤ •

ويقول ماكمايكل حول هذا الانتساب انه اختراع خالص ، وان لم يكن كذلك ، فأقصى ما يدل عليـه هو تجمع خليط من القبـائل المتباينة الصفات تحت قيادة رجل يدعى الانتساب الى بنى العباس (١) •

وتشمل المجموعة الجعلية على عدد كبير من القبائل ، إلا أن بعضها صغير جدا ومن أشهرها :

أولا : القبائل النهـرية :

الجعليون : وهم الذين أخذوا اسم المجموعة ، وهم دون شك أكبر جـزء من هذه المجموعة ، ويمتد موطنهم من خانق سبلوقة الى العطبرة • وتعد شندى عاصمة الجعليين ، وان كانت المتمة على الضفة اليسرى للنهر تمثل مركزا ثانيا لهم أيضا ، والميرفاب ويسكنون فى الشمال من عطبرة حـول بربر ، والرباطاب ويقطنـون فى المنطقـة من بربر الى (أبو حمـد) • والمناصير من أبو حمد الى آخر الشلال الرابع • والشايقية من الشلال الرابع الى اقليم الدبة • والجوابرة فى داخـل بلاد النوبة بين الدناقلة والمحس والركابية وموطنهم وسط بلاد المحس ، والجموعية وأتباعهـم شمال وجنوب أم درمان حاليا الى حدود الكواهلة ، والجمع فى غرب النيل الأبيض جنوب بلاد الكواهلة •

ثانيا : القبائل المقسمة بين النهر وكردفان :

وتضم هذه القبائل البديرية الذين يقطن جزء منهم بلاد النـوبة والجزء الآخـر كردفان •

ثالثا : القبائل التى ابتعدت عن النهر :

وتضـم الجوامعة فى أواسـط كردفان وشـمال وشرق الأبيض ،

---

(1) History of the Arabs in the Sudan Vol. I. p. 197.
انظر ايضا : محمد عوض : المرجع السابق • ص ١٦٥ •

والغديات جنوبى الأبيض ثم البطاحين فى النصف الشمالى من البطانة (١) .

وقد لا يكون المجال متسعا لتتبع كل قبيلة من هذه القبائل على حده ، وإنما قد يكون فى الحديث عن أشهرها ما يغنينا عن ذلك خصوصا وأن هناك عوامل مشتركة تجمع بين قبائل هذه المجموعة الكبيرة . وتعد الشايقية * واحدة من أهم قبائل هذه المجموعة ، وقد وصفهم بوركهارت فى أوائل القرن التاسع عشر بأنهم كانوا يتمتعون بالاستقلال التام ، ولهم ثروة ضخمة من الماشية والحبوب وانهم اشتهروا بالكرم ويمجدون رجال العلم (٢) .

ومنذ عام ١٨٢١ ارتبط الشايقية برجال الادارة المصرية فى السودان ، ففى خلال مسيرة الحملة التى قادها اسماعيل كامل عام ١٨٢٠ لم يستسلم الشايقية له إلا بعد قتال مرير فى معركة كورتى حيث انه لم تجد محاولات اسماعيل لاثنائهم عن القتال ، وأسفرت المعركة عن هزيمتهم . ومع ذلك ينبغى أن نشير الى أنهم كانوا محاربين أشداء لم يلقوا السلاح إلا بعد قتال شديد (٣) . وقد أكرم اسماعيل باشا ابنة أحد ملوكهم ويدعى (صبير) بعد أن وقعت فى الأسر مما جعله يقبل الانضواء تحت الادارة المصرية ، وأصبح كثير من الشايقية منذ ذلك التاريخ جزءا من الجيش المصرى غير النظامى ، كى يمارسوا مهنتهم الحربية التى أولعوا بها فاشتركوا فى غزو الفنج وفتح الجزيرة (٤) . وقد منحتهم الادارة

---

(١) محمد عوض : المرجع السابق ص ١٦٨ .

(*) الشايقية هم ابناء شايق بن حميدان بن صبح ابو مريخة وهو الذى تزعم رواياتهم انه هاجر بالقبيلة من بلاد العرب الى السودان (عبد المجيد عابدين : قبائل من السودان الأوسط والغربى . ص ١١) .

(٢) أنظر : رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان . ص ١٧٢ .

(٣) حمدنا الله مصطفى : المرجع السابق . ص ٤٧ .

(٤) دفتر رقم ١٨٩٥ صادر الأوامر — صورة الأمر الكريم رقم ٨٣ ص ١٨ . أمر كريم الى نظارة الجهادية فى ٢٠ محرم سنة ١٢٨٧ هـ .

المصرية مساحات من الأراضى قرب مصب النيل الأزرق وحول خانق سبلوقة ، وأصبح لهم وطن جديد فى خلفاية الملوك والجهات التى تليها فى الشمال • وظل الشايقية طوال عصر محمد على واسماعيل مخلصين تماما للادارة المصرية فى السودان وكانوا عنصرا هاما اعتمدت عليه هذه الادارة فى المحافظة على الأمن وجمع الضرائب ، وان كانت المسألة الأخيرة قد أضفت عليهم سمعة غير طيبة • وظلوا على هذا الولاء حتى فى عنفوان الثورة المهدية الى أن سقطت الخرطوم فى يناير عام ١٨٨٥ فى أيدى رجال المهدى • ولذلك فإن أمر العفو الذى صدر عن جميع القبائل لم يكن يشمل الشايقية (١) •

وأما الفرع الآخر من المجموعة العباسية والذى يعد أيضا من الفروع الهامة لهذه المجموعة فهو فرع الجعليين بشندى والمتمة • وقصة هذه المجموعة أو بالأحرى زعيمهم الملك نمر مع الحكم المصرى معروفة تماما لدارسى التاريخ السودانى الحديث • فهو الذى أجمع المؤرخون على أنه المدبر لقتل اسماعيل كامل الأمر الذى جعل الدفتردار يحطم شندى ويفر أهلوها الى أجزاء السودان وتخوم الحبشة • وقد استقرت جماعة منهم حول منطقة مقرن النيلين حيث عمل معظمهم تجارا ، أو بالأحرى باعة متجولين ، يشترون بضاعتهم بالأجل ويتجولون بها الى أماكن بعيدة تاركين أهليهم بالخرطوم ومتجهين الى قرى النيل الأزرق وكردفان ، وكانت تجارتهم تتركز فى الأقمشة القطنية والتوابل والعطور والخضاب وغيرها • وكان من المعتاد أن يغيب التاجر منهم عن موطنه عاما كاملا ، كما كان يقنع بالربح القليل • واشتهروا بالصبر والشرف والأمانة ونادرا ما كانوا يغتنون • وكان لهذا الخلق التجارى أثره الطيب فى العلاقة بينهم وبين بقية سكان الخرطوم (٢) •

---

(١) نكولز : الشايقية • ص ٦٠ وانظر أيضا : محمد عوض محمد : المرجع السابق ص ٢١٨ •

(٢) احمد احمد سيد : المرجع السابق • ص ١٦٤ •

ثانيا : الجهنيـــون :

وهم المجموعة الثانية الكبيرة من القبائل العربية فى السودان والتى يذكر البعض انها تنتمى الى « جهينه » أى الى القحطانيين باليمن * .

وترجع القبائل الجهنية فى السودان نسبها الى عبد اللـــه الجهنى الصحابى ، وهو وان لم يكن من جهينة مباشرة فانه من قضـــاعة التى تنتسب اليها جهينة . ويبدو انه قد حدثت بعض الفروق بين العدنانيين ، والقحطانيين فى شبه الجزيرة العربيـــة ، وفيما بينهم فى الســـودان ، ففى المنطقـــة الأولى كان النـــاس يفخرون بأنســـابهم اليمنية دون أن يحاولوا خلطها بأنساب أخرى . أما فى السودان فانه قد حدث تصاهر بين العباسيين والجهنيين ونشأت بينهم صـــلات وروابط . وثمة فـــرق آخـــر ، وهـــو ان مجموعة القبـــائل اليمنية تنتمى الى قبيـــلة معروفة ومشهورة . أما الجعلية فيســـمون بإسم شخص يدعى ابراهيم جعـــل أو يتصلون بنسب العباس أى الى شخص أيضا . وتفسير ذلك عنـــد ماكمايكل ان الجهنيين ظلوا على بداوتهم وهم فى السودان ولم يحـــدث بينهم وبين باقى الســـكان إمتزاج شـــديد فاحتفظوا بوحدتهم تبعتهـــم للقبيـــلة . أما الجعليون فعلى العكس منهـــم اختلطوا اختلاطا شـــديدا بالسكان السابقين . ومعنى هـــذا أن الجعليين كانت لهم قبيلة عربيـــة واحدة ينتمون اليها وضاعت معالمها بعد كل هذا الاختلاط [1] .

ويعلق الدكتور محمد عوض على هذا الرأى قائلا : « لعل الأوفق أن الجعليين لم يكونوا أول الأمر قبيلة واحدة بل جماعات عـــديدة من قبائل متقاربة الأنساب ، هاجرت على دفعات وفى أزمان متفرقة واستقرت

(*) انقسمت قحطان الى شعبتين كبيرتين هما : كهلان وحمير وتفرعت عن كهلان عدة قبائل مشهورة مثل جزام ولخـــم وكندة والأوس والخـــزرج وغـــيرها . ومن حمير تفرعت قبائل مشهورة ايضا مثل قضاعة وبلى ومنهـــا جهينة الى نحن بصددها (محمد عوض . المرجع السابق ص ٢٠٨) .

(١) محمد عوض محمد : المرجع السابق . ص ٢١٠ نقلا عن ماكمايكل .

فى الأوطان التى تعيش فيها الى أن نشأت بينهـم أسرة قوية تولـت الزعامة ووحدت القبيلة فكان لهذه الأسرة الفضل فى توحيد المجمـوعة وإدماج السكان الأصليين فى المجموعة العربية (١) .

والمجموعة الجهنية فى السـودان لا تتركز فى منطقة واحـدة مثل العباسيين الذين تركزوا فى الاقليم النهرى من السودان ، بل انتشرت فى الشرق والغرب ، وقلما تدعى قبائل جهنية فى السودان بهذا الإسـم بل تدعى كل قبيلة فيهـا باسـمها الخاص . وربما يعـود ذلك الى أن هجراتهم كانت متفرقة زمانا ومكانا . ويتوزع الجهنيون فى السودان بين ثلاث مجموعات رئيسية : المجموعة الأولى هى مجموعة رفاعة ومعهـا القواسمة والعبد لاب والعركيين وغيرهم ، وهناك اللحـويون والحلويون والعوامرة والخوالدة وغيرهم . ثم أخيرا الشكرية . وتسكن هذه المجموعة النصف الشرقى فى أقاليم النيل الأزرق والبطانة .

والمجموعة الثانية هى مجموعة فزارة ﴿*﴾ ، وتضم دار حامد وبنى جرار والزيادية والبزغة والشنابلة والمعاليا . وتعيش هذه المجمـوعة فى الجهات الشرقية والوسـطى من كردفان . أما المجموعة الثالثة فتضـم الدويحية والمسلمية والبقارة والحاميد والماهرية والكبابيش والمغـاربة ، وتنتشر هـذه المجمـوعة فى كردفان ودارفور ، وان كان بعضهم مثـل المسلمية والدويحية لهم أوطان أخرى فى الجزيرة والنيل الأزرق (٢) .

ويتركز الجهنيون الغربيـون فى كردفان بكثرة بعكس دارفور التى يقل عددهم فيها ، وهم ينقسمون الى قسمين : رعاة ابل فى الشمال مثـل

---

(١) محمد عوض : المرجع السابق . ص ٢١٠ — ٢١١ .

(*) بنو فزاره بهذا الاسم لم يعد لهم وجـود فى السـودان ولـكن فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان هذا الاسم يطلق على اكبر مجموعة من رعاة الابل فى كردفان ودارفور ثم تمزقت هذه المجموعة ومن اهم اجزائها دار حامد (محمد عوض : المرجع السابق ص ٢٢) .

(٢) نفس المرجع ص ٢١٤ .

الكبابيش والحمر (١) • وبالرغم من أن حرفتهم الرئيسية كانت الرعى ، إلا انهم عملوا أيضا فى نقل البضائع من كردفان الى النيل كما كانوا ينقلون الصمغ من الأبيض الى الدبة وهو ما يزال رطبا ، وكثيرا ما كانوا يجدون متاعب بسبب ذلك حيث يجف أثناء المسير فيقل وزنه ، وربما يكون ذلك مدعاة لحدوث تلاعب فى الوزن ، الأمر الذى خلق نوعا من سوء الفهم بين الطرفين • ويبدو أنهم كرهوا الحساب الدقيق فاتجهوا فى بعض الأحيان الى العمل مع الجلابة رغم قلة ما يبذلونه من عطاء (٢) •
أما القسم الآخر فرعاة بقر ويسمون بالبقارة ، وهذا الإسم لا يطلق إلا عليهم على الرغم من وجود بعض القبائل الأخرى التى ترعى البقر ، أى أن هذا الاسم خلص بالقبائل الجهنية فى كردفان ودارفور التى تعنى بزعى الأبقار ومن أشهر قبائل البقارة فى كردفان بنو سليم على النيل الأبيض وأولاد حميد وفرع من الهبانية والحوازمة ثم المسيرية وأخيرا الحمر فى الركن الجنوبى الغربى من كردفان • وأما الجزء الذى يعيش فى دارفورد فتمثل فى الرزيقات والهبانية والتعايشة ، وبنى هلبة وبنى خزام (٣) •

ويمتاز البقارة بصفات حربية وهم يشبهون الشايقية من هذه الناحية ، بالاضافة الى أنهم صيادون مهرة • وهذه الصفات الحربية مكنتهم من إنشاء أوطانهم فى بلاد جديدة وجعلتهم يدافعون عنها • وكثيرا ما حدث تصادم بينهم وبين سلطنة دارفور الأمر الذى أضعف شوكتهم فيما عدا قبيلة الرزيقات ويبدو أن الحياة التى تعيشها قبيلة البقارة جعلت هذا الصدام أمرا حتميا لأنهم أثناء فصل الجفاف فى أواخر الشتاء ينزحون بماشيتهم نحو الجنوب حيث يصطادون الفيلة

---

(١) جريدة أركان حرب . العدد رقم ٨ غرة جمادى الأولى سنة ١٢٩٥ هـ تقرير احمد افندى حمدى . ص ٥٧٨ .
(٢) عوض عبد الهادى العطا . تاريخ كردفان السياسى فى المهدية ١٨٨١ — ١٨٨٩ م . ص ١٢ .
(٣) محمد عوض محمد : المرجع السابق . ص ٢٢٩ .

ويهاجمون الزنوج ويخطفون ماشيتهم • وفى فصـــل المطر يتجهون نحو الشمال هربا بقطعانهم من الذباب والمستنقعات الى المرتفعات الشمالية الجافة والتى يدعي الدارفوريون أنها ملك لهم ومن ثم كان لابد من حسم هذا الأمر عن طريق القتال •

الكواهـــلة :

وهى من المجموعات الصغيرة فى السودان إذا ما قورنت بالمجموعة العباسية أو الجهنية • وهذه المجموعة تنتسب فى أصولها الى كاهل بين أسد بن خزيمة فهم بذلك يعدون من عرب الشمال إلا أنهم منفصلون عن المجموعة الجعلية فى النسب • وقد نزلوا فى وقت متقـدم على السواحل السودانية للبحر الأحمر ما بين عيذاب وسواكن ، واختلطوا مع البجـة بل وتعلموا لغتهم وصاهروهم واندمجوا فيهم بحيث لم يعد لهم وجـود فى أقاليم البجة كوحـدة قبلية مستقلة ، وهم بذلك قـد حملوا النسب العربى للبجة • وهناك بطـون أخـرى من بنى كاهل انتقلت من شرقى السودان الى أقاليم عطبرة والنيل الأزرق ، وأخرى الى النيل الأبيض تسمى بالكواهلة وأحيانا بإسم الحسانية والحسينات • كذلك فإن هناك قبيلة فى كردفان تحمل اسم الكواهلة (١) •

وتجدر الاشارة الى أن هناك بعض القبائل اختلف النسابة حـول أصولهم مثل الشكرية المجاورة للبجة • فالبعض يضعهم تحت مجمـوعة جهينة • ومع تسليمهم بأنهم من جهينة إلا أنهم يفضلون الانتساب الى قريش • وهم يعيشون فى أقليم البطانة ويجاورون بشارى ام ناجى فى سهل البطانة • ومن القبائل الأخرى التى جاورت البجة « الرشايدة » أو الزبيدية والحمران •

---

(١) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية • ص ٢١٤ •

قبائل ساحل البحـر الأحمر :

ويقصد بهذه القبائل على وجه التحديد جماعات السومال والدناكل والجالا • فمن المعروف أن بعضا من هذه الجماعات القبلية قد شملتها الادارة المصرية فى عهد اسماعيل باشا •

وقد اصطلح علماء الأجناس على تقسيم القوقازيين فى أفريقيـا الى قسـمين حاميين وسـاميين ، كما انهـم يميزون بين الحاميين الشرقيين والحاميين الشماليين • وعلى هذا فان هذه القبائل تندرج تحت طائفـة الحاميين الشرقيين (١) •

وتبدأ أوطان السـومال من المجرى الأسـفل لنهر تانا على الدرجة الثامنة من درجات العرض الجنوبى وتتجه نحو خليج عدن • وأكثر هذه الأوطان يقع فى الوقت الحاضر داخل جمهورية الصومال ، كما أن بعضا منهم يعيش فى الجزء الجنوبى الشرقى من أثيوبيا أى منطقة أوجادين • ويعبر عن السومال فى بعض الأحيان بأولاد عيسى الذين يتكونون من ثلاث قبائل كبيرة ، وكل منها ينقسم الى أفخاذ عديدة (٢) •

وتعد قبيلة الدناكل جزءا من القبائل الواقعة جنوبى هرر ، وهناك مئات الأقسام الصغيرة لتلك القبائل المنتشرة فى هذه المناطق (٣) • وأما الجالا فتسمى أحيانا باسم « النولى » أو « الجالانولى » وتنقسم الى

---

(١) محمد عوض محمد : المرجع السابق ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

(٢) جريدة اركان حرب الجيش المصرى . السنة الثالثة ١٢٩٤ هـ — العدد رقم ٥ بتاريخ غرة رجب سنة ١٢٩٤ هـ . والمقـال بعنوان : نبـذة تتعلق باستكشاف اراضى العيسى وقبائل الجالا وهرر (تأليف عبد الله افندى فوزى صاغقول أغاسى أركان حرب . ص ٣٨٦) .

(٣) جريدة أركان حرب ، العدد رقم ٦ بتاريخ غرة شعبان سنة ١٢٩٤ هـ ص ٤٧١ وانظر ايضا : الأرشيف الأمريكى ، محفظة رقم ١٨ مكاتبة رقم ٣٧٨ بتاريخ ٢٦ نوفمبر ١٨٧٥ .

أربع قبائل وأراضيها محصورة بين (جلديسة) ومدينة هرر (١) .

وأكثر هذه القبائل كانت تعيش على ما تكتسبه من حمل البضائع على ابلها ، ولم يكونوا زراعا أو صناعا . وكان البدوى الواحد منهم يكتفى بتأجير جمل أو اثنين مرة واحدة فى السنة أو مرتين ، ومتى أخذ الأجرة كسا نفسه وأسرته ومكث فى قريته يرعى ابله وغنمه ، يشرب ألبانها ويأكل لحومها . وأما مشاكلهم العامة فكانت تناقش مع مشايخهم وتخضع لأعرافهم وعاداتهم وتقاليدهم ومتى استقر رأى مشايخهم على حكم تم تنفيذه فورا (٢) .

قبائل النوبا (سكان الجبال) :

يستخدم لفظ نوبا للدلالة على السكان المتزنجين فى المنطقة التى تعرف باسم جبال النوبا أو تلال النوبا (دار نوبا) وهى تقع فى الجنوب الشرقى من كردفان (٣) .

ولسنا فى حاجة الى تكرار ما سبق أن ذكرناه عند تعرضنا بالحديث عن سكان النوبة السودانية حين خلصنا الى أنه من الصعب أن تكون هناك صلة قوية بين الأصول النوبية والنوباويين * .

ويذكر الدكتور محمد عوض ان سكان الجبال يمثلون سلالة مستقلة عن الجماعات التى تحيط بها ، وهى تعد مجموعة وطنية قديمة سكنت هذا الاقليم منذ زمن بعيد ، وقد أتاحت لهم أوطانهم الجبلية نوعا من

---

(١) محفظة رقم ٣ عابدين وارد معية . فى ٣ محرم سنة ١٢٩٣ هـ . تقرير مقدم من اركان حرب مأمورية هرر . انظر ايضا : شوقى الجمل : الوثائق السياسية لسياسة مصر فى البحر الأحمر . ص ٢٩٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٩٤ .

(٣) السعيد ابراهيم البدوى : المرجع السابق . ص ١١٥ .

(*) انظر فيما سبق ص ٣٢٣ .

الحمـــاية (١) • والبعض الآخر يرجعهم الى الجنس الزنجى ، وان كانوا قد تأثروا بالدماء الحامية والسامية فى بعض المناطق مثل منطقة تقـــلى والجـــزء الشمالى من الجبال (٢) •

ويذكر تقرير أحمد أفندى حمدى الصادر فى ابريل عام ١٨٧٨ الى أن أصل هــذه المجمـــوعة السكانية يرجـــع الى شخص يدعى الشـــيخ عبد الهادى الشهير بمعاركه مع الدارفوريين ، والذى قدم من « الدابة » مع جم غفير من عائلته وسكنوا تلك الجهة • ثم تزوج بأمرأة من النوبا القاطنين منـــذ زمن طويل ، فتناسلت ذريته واختلطوا بالنوبا وصـــار للجميع « •• عزوة واحدة » (٣) •

وواضح أن هذا الرأى يحـــاول أن يوفق بين الآراء المختلفة التى تقربهـــم تارة من النوبة ومن الزنوج تارة أخـــرى وتبعدهم عن كليهما تارات أخـــرى •

وللنوباويين لغات ولهجات عدة حتى قيل ان عدد اللغات بين النوبا يعادل عدد الجبال • وهذا القـــول وان كان فيه شىء من المبالغة فانـــه لا يخلو أيضا من الصواب • وقد أرجع البعض لغات النوباويين الى ثلاثة اصول رئيسية أطلقوا عليها الأسماء الآتية :

١ ــ الســـودانية •

٢ ــ النبتوئية •

٣ ــ النوبيـــة • فكل قبيـــلة تدخل لغتهـــا ضمن نوع من هـــذه

---

(١) محمد عوض محمد : المرجع السابق ص ٣٠٢ •
(٢) السعيد ابراهيم البدوى : المرجع السابق ص ١٣٥ •
(٣) جريدة أركان حرب : تقرير أحمد افندى حمدى السابق ص ٥٨١ •

الأنواع الرئيسية (١) • وقد قسم آخرون اللغات النوباوية الى عشر وحدات (٢) •

وقد بنى النظام الاجتماعى لدى النوباويين على وحدة « العشيرة » التى تتألف من مجموعة أشخاص تربطهم صلات القرابة •

ومن مجموعة العشائر تتألف وحدات أكبر • وأكثر العشائر عندهم أبوية تنحدر من آباء منذ قديم الزمان • إلا أنه توجد فى الجزء الجنوبى عشائر تنحدر عن طريق الأم • وقد يحدث أن تنقسم العشيرة الى قسمين إذا حدث الزواج داخل العشيرة الواحدة لأن الزواج محرم على الأفراد المنتمين الى عشيرة واحدة (٣) •

ويعمل النوباويون بالرعى والزراعة ، وهنا نشير الى أن النوباويين لا يوجد عندهم « عمال زراعيون » أى اجراء يشتغلون بصفة دائمة فى أرض غيرهم ، كما أنه ليس لديهم طبقة عبيد تعمل لطبقة السادة • فقد كان لقبائل النوبا نظام خاص مع الرقيق وهو نظام التبنى بحيث يصبح الرقيق جزءاً من الأسرة ويعمل فى خدمتها كفرد منها ، وله عليها حق دفع المهر ، إذا تزوج ، ومنحه قطعة أرض • ولذلك فقد قيل انه عندما حرمت تجارة الرقيق فى السودان لم ينتج عن هذا التحريم أية مشقة بالنسبة للقبائل النوباوية (٤) •

سكان الجنوب (الزنوج) :

هناك ملاحظة هامة نود أن نستهل بها حديثنا عن سكان الجنوب السودانى تتمثل فى ذلك الخطأ الفاحش فى اطلاق وصف « العبيد » عليهم

---

(١) محمد عوض محمد : المرجع السابق • ص ٣٠٤ •

(٢) عوض عبد الهادى العطا : المرجع السابق • ص ١٨ ، انظر ايضا :

Stevenson. R. C.; The Nuba People of Kordofan Province. p. 13 - 14.

(٣) محمد عوض محمد : المرجع السابق ص ٢٠٦ •

(٤) نفس المرجع ص ٢٢٢ •

بدلا من الزنوج أو المتزنجين ، فالعبودية ليست سلالة من السلالات بل هي من صنع الإنسان ، الذى مارسها سواء فى أفريقيا ـ بالنسبة لذوى البشرة السوداء ـ أو فى أوربا بالنسبة لذوى البشرة البيضاء على مر التاريخ (١) .

ويتمثل هؤلاء السكان فى عدة مجموعات قبلية من أهمها :

(أ) الدنكا : تندرج المجموعة الدنكاوية تحت ما أسماه البعض بالنيليين Nilotes ، الذين تتوزع أوطانهم فى كينيا وأوغندا وأطراف أثيوبيا الغربية والسودان وسوف نركز ـ بطبيعة الحال ـ على الأقسام التى تدخل ضمن السودان .

وتعتبر الدنكا من أكثر المجموعات النيلية عددا وانتشارا ، إلا أنهم لا يحتلون أراضى متصلة ، بل تفصل بينهم قبائل النوير ، وتشكل أوطانهم موقعا وسطا يمتد من السوباط الأدنى الى بحر الجبل ثم الى بحر الغزال . والمساحة التى يحتلها هذا الشعب الدنكاوى من حيث الطول تعد طويلة جدا حيث تبدأ من العرض السادس الى الخط الثانى عشر الشمالى ، باستثناء الجزء الذى يحتله النوير . وأما من حيث العرض فان مواطن الدنكا ضيقة فى الشمال وتلتزم الجانب الشرقى للنيل الأبيض ومواضع قليلة من الجانب الغربى . وهذا الجزء من أوطان الدنكا لا يزيد اتساعه من الشرق الى الغرب على ثلاثين كيلو مترا . ويسمى سكان هذا الجزء الشمالى من الدنكا ـ فى بعض الأحيان ـ بدنكا النيل الأبيض (٢) . وأما الجزء الجنوبى من مواطن الدنكا فهو أكثر اتساعا ويشتمل على أقطار يتصل بعضها ببعض تبدأ بالسهول

---

(١) يونان لبيب وآخرون : مشكلة جنوب السودان . ص ٣٤ .
(٢) محمد عوض محمد : المرجع السابق . ص ١٥٠ .

الشرقية فى حوض بحر الجبل ثم تمتد فى شكل مروحة الى الشمال الغربى حتى تصل الى بحر العرب • ولهذا جرت العادة بتقسيم الدنكا الى ثلاث شعب : شعبة النيل الأبيض وشعبة بحر الجبل وشعبة بحر الغزال (١) •

وتطلق هذه الجماعات الدنكاوية على نفسها اسم (جنج) Djing (مفردها جانج) ثم حرفها جيرانهم العرب الى دنكا ومفردها دنكاوى • وهذا الاسم يعنى مجموعة كبيرة من القبائل تبدو لأول وهلة ان كلا منها مستقل بحياته السياسية والاجتماعية والثقافية ، وربما يكون هذا صحيحا الى حد كبير ، إلا أن هناك عناصر أساسية تتحد فيها كاللغة والدين والعادات والنظم السياسية والاجتماعية • ولكل قبيلة من هذه القبائل اسمها الخاص * •

ويرى أحد الباحثين ان الدنكا قدموا من منطقة البحيرات العظمى بشرق أفريقيا ، ويضيف قائلا : ليس لهذه القبائل أو غيرها من قبائل الجنوب السودانى أن تزعم بأن أبناءها هم سكان الجنوب الأصليون إلا بقدر ما يحق ذلك للقبائل العربية التى هاجرت للشمال (٢) •

وتتنوع المهن التى مارسها أهل الدنكا طبقا للظروف المحلية طبيعية كانت أم بشرية • وعموما تشكل مهنة الرعى أساسا عند معظم قبائل الدنكا ، إلا أنه بالاضافة الى ذلك وفى الجزء الأوسط من أوطان الدنكا نلحظ جماعات تعيش على مهنة صيد الأسماك ، والسر فى ذلك هو انتشار المستنقعات فى هذه المنطقة وتعذر الوصول الى المراعى حيث تغمر المياه مساحات كبيرة من الأراضى • وتسمى القبائل التى تعيش فى هذه الأجزاء

---

(١) محمد عوض : المرجع السابق . ص ١٥١

(*) من أمثلة هذه القبائل : بود — علياب — سيك — اجار — توى

(٢) محمد عمر بشير . جنوب السودان . دراسة لأسباب النزاع ص ٢٤ •

باسم (مـون ثان) Mon-than أو جماعة الثان وتعنى بلغتهم الأرض الجلفة وسط المستنقعات • ومرة ثالثة نلحظ تنوعا فى المهن حيث تصادفنا قبيلة « سيك » التى تقطن السـهول الواقعة غربى بحر الجبـل والتى تشتهر بمهنة استخراج وصهر الحديد • ويبدو أن هـذه المهنة منتشرة بشكل واسع بين قطاعات كبيرة من الدنكا حيث نلحظ « عشائر الحدادين » فى الجنوب الشرقى من بحر الغزال • وربما يكون لهـذا الاسم الذى حملوه صلة بعملية استخراج وتصنيع الحـديد • وهناك احتمـال أيضا بوجـود عشـائر أخـرى من الدنكا تشتغل بصهر الحـديد فى حوض الغـزال (١) •

ولقد نتج من عملية صهر الحديد لدى هذه القبائل كتل مستديرة من الحديد قطرها حوالى ٢٠ سنتيمترا كانت بمثابة وحدة للمبادلة والتعامل حيث أمكنهم عن طريقها شراء الثيران من القبائل الأخرى التى اشتهرت بتربية الماشية ، بالاضافة الى استخدامها فى دفع المهور للزوجات وان كان ذلك خارجا عن المألوف لـدى هذه القبائل التى اعتـادت دفـع مهورها ماشية • وهنا نشير الى أن العشـائر التى تعتمد على الحديد تتزاوج فيما بينها ، ولكن ليس معنى ذلك أنهـا منغلقة على نفسـها فى هـذه الناحية بل يمكنها أيضا أن تصاهر القبـائل ذات الماشية التى تعـد فى مرتبة أعلى منهـا ، إلا أن قلة ما تملكه قبائل الحـديد يجعل من العسير حدوث مثل هذا التصاهر (٢) •

وعموما فالماشية هى قوام الاقتصاد الدنكاوى وخاصة البقر ، فهى مقياس ثروتهم وفخرهم وعزهم ومصـدر سعادتهم وعمـاد مركزهـم الاجتماعى ، وبها تدفع المهور والديات فالفرد الذى لا يملك ماشـية فى

---

(١) محمد عوض محمد : المرجع السابق ص ١٥٣ •
(٢) نفس المرجع ص ١٥٤ عن سليجمان : Pagan Tribes. p. 138.

هذا المجتمع – عليه أن يحصل عليها فورا حتى وان اضطر الى الهجرة الى خارج وطنه للعمل ثم يعود لشراء واقتناء الماشية . والغريب حقا ، حتى انه اذا عاد هذا الفرد من الخارج فان ثروته التى جمعها لا تمكنه بسهولة من شراء الماشية من قبائل الدنكا . فالنقود عندهم أحقر من أن تقبل ثمنا للبقر ، وهنا يضطر الفرد الى شرائها من قبائل البقارة فى الأسواق الشمالية . فالماشية عندهم ليست مجرد مادة للحياة الاقتصادية، على الرغم من خطورة ذلك ، بل هى أهم من ذلك كله من الناحية الروحية . فكل شىء عندهم لا يعلو على الماشية !! . فالأكواخ العظيمة لا تكون للآدميين بل للماشية ومن أجلها توقد النيران ويحرق روثها لطرد البعوض عنها ، والرجل الدنكاوى يدافع ببسالة عن ماشيته اذا ما حدث اعتداء عليها وكأنما يزود عن عرضة أو دينة (١) !

وقد جرت محاولة جادة – من جانب أحد الآباء الفيرونيين « ويدعى « نادل » بالاشتراك مع زميل له لتصنيف أجروميه دنكاوية . وقد توجت هذه الجهود فى عام ١٩٣٦ باخراج قاموس « دنكاوى » (٢) .

(ب) **الشلك** : يتميز الشلك بأنهم جماعة متميزة قائمة بذاتها لا تنقسم الى قبائل ، مندمجة الأوطان ومتلاصقة ، أى أنها تكون وحدة سياسية واجتماعية وثقافية وتقع هذه الأوطان على الضفة اليسرى (الغربية) للنيل الأبيض وتمتد من شمال قرية (كاكا) عند نهاية خط العرض الحادى عشر الشمالى الى قرب بحيرة (نو) . أما على الضفة اليمنى (الشرقية) فقد انكمشت أوطانهم بحيث أصبحت عبارة عن مساحة صغيرة تبدأ من شمال (ملكال حاليا) بقليل وحتى الشرق من حله (دوليب) قليلا (٣) .

---

(١) محمد عوض : المرجع السابق . ص ١٥٦ .

(٢) Santandrea, S.; Little Known Tribes of the Bahr El Ghazal. S. N. R. Vol. XXIX, 1948. Part I. p. 78-87.

(٣) محمد عوض محمد : المرجع السابق . ص ١٧٧ — ١٧٨ ؛ انظر أيضا مصطفى فهمى وآخر : فى جنوب السودان . دراسات اجتماعية ونفسية وتربوية . ص ١٦ .

ويرجع سليجمان أصل جماعة الشــلك الى رجل يدعى « نياكنج » Nyakang هاجر هو وأتباعه من وطن آبائه شرقى بحر الغزال ثم أخذ يتجــول ، قاهرا الأعداء فى طريقه ، حتى أصبح ذا قــوة فتمكن من تكوين أسرة حاكمة وأمة . ويرجح أن نياكنج قد عاش فى أوائل القرن التاسع عشر الميــلادى (١) .

وتتكون جماعة الشلك من الوحدات الاجتماعية التالية :

أولا : عشيرة الملك : وتســمى كوارث Kwareth ، وهى التى تنحدر من نسل الجد الأكبر الملك نياكنج ، وهذه العشــيرة موزعة فى أرجاء البلاد ، ومنهــا يختار ملك البــلاد شريطة أن يكون والده قــد سبق له أن تولى الملك . وهذه العشيرة تنقسم الى أربعة أقسام :

١ ــ الملك نفسه أو الرث .

٢ ــ أبناء وبنــات الملك الحــالى أو الراحــل ويســمون باســم « نييرث » .

٣ ــ أبناء أبناء الملك ويسمون « نيارث » .

٤ ــ حفداء أبناء الملك .

ويلاحظ فى القسمين الأخيرين انه لا ذكر للبنات ، وذلك لأن بنات الملك لا يتزوجن حتى لا ينجبن من يزاحم الملك فى ملكه . وقد تولى أفراد هــذه الطبقة (الرث) الكثير من المراكز فى أنحــاء بلاد الشلك وكانــوا يتزوجون بكثير من الزوجات حتى تتسع عصبتهم .

ثانيا : عشيرة أرورو Ororo : وتأتى فى الطبقة الثانية بعــد عشيرة الملك ، وهى أصلا من العشيرة المالكة إلا أنها حرمت من حقوقهــا

---

(١) سليجمان : السلالات البشرية فى افريقية ص ١٥٨ .

فى بعض العهود إذ أنه يحق للرث أن يحرم أى أسرة أو فرع من عشيرته . وجرى العرف أن يتخذ منها الملك بعض زوجاته . والميزة الوحيدة التى تميز الأورورو عن العشائر الأخرى دورهـم الخاص فى بعض الطقوس الضرورية التى لابد من اجرائها عند تنصيب الرث الجديد و عند وفاته .

ثالثا : حاشية الملك وأتباعه المقربين ويسمون باسـم (بانج رث) Bang Reth وهم عبارة عن متطوعين للخدمة ، أو أسرى فى الحروب أو من نسل اقترف آباؤهم جريمة القتل فضم الأبناء الى الحاشـية . وتنحصر مهامهم فى الخدمات الزراعية والمبانى وخدمة الملك . وعند وفاة الملك يتولى فريق منهم خدمة مقبرته .

رابعا : الشعب ويسمى (كولـو) Kolo ، وتبلغ عشائرهم نحو المائة ، وتحرص كل عشيرة منها على وصل نسبها بأتباع الملك نياكنج (١) .

ومن الجماعات الأخرى التى سكنت جنوب السودان جماعة النوير فى منطقة السدود وما حولها ، أى بحر الجبل الأدنى حتى بحيرة (نو) . ويعملون برعى الماشية والزراعة . ويرتبط النويريون بالدنكا من حيث الزواج ، وعموما فهم قريبون فى نظمهم الاجتماعية من الدنكا والشـلك المجـاورين لهم (٢) .

كذلك فقد ضم الجنوب السودانى جماعة الآزاندى والتى تمتد حتى الكونغو ويمكن حصرها على وجـه التحديد بين خط العرض الثانى جنوب خط الاستواء الى خط العرض السادس الشمالى فى حوض بحر الغزال . وهنـاك عدد من الازاندى أصبح يسمى بافريقية الوسطى . ويعـرف الأزاندى فى السـودان باسم (الافنجـره) Avangara ويقابله اسم المانجبيتو Mangebetu فى الكونغو . وتجدر الاشـارة الى أن اسم

---

(١) محمد عوض : المرجع السابق . ص ١٨٣ — ١٨٥ .
(٢) زاهر رياض : السودان المعاصر . ص ٥١ .

الأزاندى يختلط كثيراً باسم تلك العشائر المندمجة فى الأزاندى مثل (المكركا) Macarca . كذلك ينبغى أن نشير أيضاً الى الاسم الذى أطلقه الجغرافيون العرب فى العصور الوسطى على سكان أواسط افريقية وهو (نيام نيام) ، وكانوا يقصدون به مجموعة سكان الاقليم الأوسط الذى يشمل الكونغو وأعالى النيل . وعلى هذا يكون تعميم هذا الاسم على الأزاندى دون غيرهم خطأ . والصحيح أن نسمى الشعوب بأسمائها(١) .

ولقد كان أساس السكان فى أعالى الكونغو والغزال عبارة عن جماعات متفرقة من الأقزام وقليل من الزنوج منتشرين فى هذه البيئة الواسعة حتى تعرض هذا الاقليم لضغط من الجنوب والشرق من بعض سلالات البانتو . ولم يلبث هذا الضغط أن تلاشى أيام الموجات المتتالية من الغرب من عناصر سودانية غربية ، وترتب على هذه الموجات الزاندية ظهور سلالات جديدة واندماج القديم فى الجديد وتوحيد الثقافة وتكوين ممالك منظمة فى هذه المساحات الواسعة . وقد كان أكثر هذه الموجات تقودها عشائر ذات صفات حربية عالية وكان آخرها بقيادة الأفنجرة حتى استتبت الأمور فى أواخر القرن الثامن عشر . وفى أوائل القرن التاسع عشر أصبح الأفنجرة يسيطرون تماما على الأجزاء الشمالية فى مقابل المانجبيتو فى الجنوب (٢) .

ومن الجماعات الأخرى فى جنوب السودان جماعة « البارى » وهى من الشعوب النيلية الحامية التى احتلت الباب الجنوبى لنهر النيل . وتنتشر أوطان البارى على الضفتين الشرقية والغربية لبحر الجبل . أما اذا أدخلنا البارى فى الجماعات التى تتكلم اللغة البارية فان هذه الأوطان تمتد شمالا فى خط العرض السادس ، وهنا يحتل البارى الجزء

---

(١) محمد عوض : المرجع السابق . ص ١٩٠ .
(٢) نفس المرجع . ص ١٩٥ عن :
Baxler and Butt; The AZ andi

الأوسط • ويروى البارى أن أجـدادهم جاءوا من الشرق أو الجنـوب الشرقى وآخذوا يتنقلون حتى احتلوا الاقليم الواسع شرقى بحر الجبل وأخذوا يتعرضون لإغارات من جماعات أقوى منهم حيث أرغمـوا على الجلاء عن معظم أوطانهم شرقى النيل واللجوء الى الأراضى الواقعة الى الغـرب (١) •

وينقسم البارى الى عشائر منفصلة واغترابية أى لا يتزوج امروء من عشيرته ، حيث انهم يعتقدون ان ذلك ضار بالنسل • ولهم رواية حول ذلك مؤداها ان الزواج فيما مضى كان منتشرا بين أفراد العشيرة فترتب على ذلك انتشـار الأمراض فتدخل الزعماء فى الأمر وقسموا القبيلة الى أقسام وحرموا الزواج داخل كل قسم وبالتالى داخل كل عشيرة • وهناك تقسيم اجتماعى آخـر — الى جانب تقسيم البارى الى عشائر — وفيه يقسم المجتمع الى قسـمين فى كل مكان • الأول يدعى (لـوى) Lui والثانى يدعى (دوبى) Dupi أى طبقة الخاصة والعامة أو الأحرار والخدم • كما وجـد تقسيم آخر لتمييز الأفراد سواء أكانوا من الخاصة أو العامة ويتناول جمـاعات قليلة تسمى (كـور) أى طبقة العـارفين يشئون الماء مثل جالبى المطـر ومساعديهم • وقد يكون فى طبقـة الكور الكثير من (الدوبى) ولكن زعيم المطر لا يكون إلامن طبقة (لوى) • وهناك طبقات أخرى خلاف الدوبى ينظر اليهم الأحرار نظرة احتقـار مثل طبقـة الصـيادين أو اليارى Yari وطبقة الحـدادين وطبقـة صيادى النهر (٢) •

مجتمع القبيلة السـودانى :

من ذلك التطور السكانى الذى تعرضنا له على أرض السـودان لاحظنا بوضوح أن القبيلة كانت تشكل ركنا أساسيا فى هذا البناء السكانى

---

(١) محمد عوض : المرجع السابق • ص ١٩٠ •
(٢) نفس المرجع • ص ١٢٠ وما بعدها •

فى القـرن التاسع عشر . وقد لا يـكون من قبيل الاسراف الفكرى أن نقف أمـام هذه الظاهرة التاريخية لنجدد معالمها وسماتها .

وأولى هذه السمات هى وضوح ولاء الفرد الشديد لقبيلته الـذى يبلغ درجة القداسة للقبيلة ، وهـذا الولاء كان يفرض عليه مجمـوعة التزامات غير مكتوبة ، بل هى أعراف اتفق أفراد قبيلته فى السير على منوالها . فهناك فائدة مؤكدة فى انتسـاب المرء الى قبيلة يجلها ويفخر بها ، لأن هـذا خليق أن يرتفع به عن كل سلوك يشين سمعة القبيـلة ويلحق الضرر بها . والغريب ان هذا الولاء القبلى فى السـودان وان كان يفوق أحيـانا الولاء للحكومة فانه لم يتناقض أو يصطدم معهـا أو حتى يضر بوحـدة البلاد القـومية . ولا عجب فقد تركت الادارة المصرية القبائل السودانية تعيش وفق « سـبرها » دون التغلغـل فى كل كبيرة وصغيرة على عكس ما يبدو أحيانا . وفى نفس الوقت استفادت من نظام القبيلة السـودانية الذى يحتم الـولاء للقبيلة فحاولت كسب القبائل حتى تحول هذا الولاء اليها . ولعل أروع صورة فى كسب هـذا الولاء ما حدث بالنسبة لقبيلة الشايقية تلك القبيلة الوحيدة التى وقفت فى شمالى السودان أمام الحملة التى قادها اسماعيل كامل عام ١٨٢٠ والتى قاتلت بشراسة — فقد استطاع اسماعيل كامل أن يكسب ولاءها بعد ذلك وأصبح رجالها مقاتلين فى صفوف الجيش المصرى بعـد أن وقفـوا فى وجهـه ، وكانـوا بحق من أشـد مؤيدى ومعضدى الادارة المصرية فى السودان حتى اندلاع الثورة المهدية كما سبق الاشارة .

ومن السمات الأخرى التى تميز مجتمع القبيلة السودانى وجـود زعيم لها أو شيخ ، وهذا الشيخ غالبا ما يكون فى مسغبة من العيش ، كامتلاك القطعان الكثيرة من الابل أو الماشية أو الأغنـام أو غـيرها . وبالاضافة الى ذلك كان لابـد أن يتمتع هـذا الشيخ برجاحة العقـل ، ولذلك فانه غالبا ما يكون من الطاعنين فى السن ، الذين زادتهم الحيـاة

تجربة • وهذا الشـيخ كان يمثل جسر اتصـال بين الإدارة وبين أفراد القبيلة ، فهو المتحدث باسمها وكلمته مسموعة وطلباته مجابة •

وقد استعانت الادارة المصرية فى السودان بنوعين من المشايخ : مشايخ المدن والقرى النهرية كما كان الحال فى دنقلة وبربر وحلفاية والروصيرص وفازوغلى وغيرها • وهذا النوع من المشايخ ثبتوا فى مناصبهم واحتفظوا بشارات وظائفهم « كالطاقية ذات القرون » والقلنسوة الحريرية وحمالة السيف وما شابه ذلك • وفى مقابل ذلك كان عليهم القيام بواجباتهم الادارية من حيث جباية الضرائب وحل النزاعات الصغيرة •

أما النوع الثانى من المشايخ فهم مشايخ البدو وهـو ما نريد أن نركز عليه فمن خلالهم تبدو سمات القبيلة جلية واضحة • وقد أقرتهم الادارة المصرية أيضا على قبائلهم والتى من أهمها الشكرية والحسانية والكبابيش وغيرها (١) • ومن هؤلاء المشايخ الذين ارتفعت مكانتهم لدى رجال الادارة المصرية فى السودان الشيخ عبد القادر ود الزين الذى أصبح بمثابة مستشار للحكمدار فى المسائل الأهلية وخصوصا فيما يتعلق بأمور القبائل ، فكان لرأيه القدح المعلى فى هذه الشئون الأمر الذى أضفى نوعا من الاستقرار الاجتماعى وبخاصة فى الأمور الأمنية فى الفترة التالية مباشرة لضم السودان • وكان محو بك حكمدار السودان يأخذ دائما بآرائه •ولذلك فقد كان حريصا قبل أن يغادر السودان أن يوصى خليفته خورشيد بأن يأخذ بآراء هذا الشيخ • وقد أخذ خورشيد — بالفعل — برأيه وانتخبه رئيسا لمجلس المشايخ الذى عقد فى الخرطوم بناءً على أمره (٢) • وظل هذا الرجل يؤدى خدماته للادارة المصرية فى ظل أحمد باشا أبو ودان •

---

(1) Deherain; Le Soudln Egyptien sous Mehemet Ali. pp. 151?52.

(٢) دفتر رقم ٧٧٩ صادر ديوان الخديوى — وثيقة رقم ٣٢٣ بتاريخ ١٩ صفر سنة ١٢٤٨ هـ . أنظر أيضا : تاريخ ملوك السودان . تحقيق مكى شبيكه ص ٢٨ .

ومن بين مشايخ القبائل الذين لعبوا دورا كبيرا فى السودان الشيخ (ادريس عـدلان) فى عهد الحكمدار خالد باشا . فقد تعهد هذا الرجل وجميع القبائل التى كانت تحت نظارته بتقديم كافة التسهيلات للقائمين على عملية البحـث عن الذهب فى جهة قماميل وجبـل قسان وفازوغلى وغيرها من الجهات التابعة له والقريبة منه (١) .

كذلك تجدر الاشارة الى مشايخ قبيلة الشكرية (الشـيخ أحمد أبو سن) وخلفائه أمثال الشيخ عوض الكريم أبو سن الذى كان شـيخا لعموم مشايخ الشكرية فى عهد الخديوى اسماعيل . هذا ، وقد كان يحق لشيخ عموم القبيلة أن يعزل أو ينصب من يشاء من شيوخ البدنات فى قبيلته كما حدث فى عام ١٨٧١ عندما حاول حكمدار السودان التدخـل فى شئون قبيلة الشكرية فأجابه المسئولون بمصر بقولهم « ... ان مشايخ عمـوم العـربان ونظـارهم مسـئولون عن جميع مصـالح قبايلهـم وبدناتهم ، ولذا مصرح لهم بالعزل والتنصيب فى حق مشـايخ الفـرق والبدنات بحسب صالح المصلحة .. » (٢) .

وكانت الادارة المصرية تعمل على تكريم هؤلاء المشـايخ تشجيعا لهـم فى أداء مهامهم على أحسن وجه ، ومن أمثلة هذا التكريم الكساوى والسيوف والنياشين المتنوعة . فقد كانت هـذه الخلع والنياشين تضفى على شيخ القبيلة مكانة سامية بين رجاله وترضى فيه نزعات السـيادة والزعامة التى تؤكد مكانته الاجتماعية وسط القبيلة ، بالاضافة الى أن

---

(١) محفظة ١٩ بحر برا . سودان ١٩ / ٤٢ من خالد خسرو الى الجناب العالى ـ دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ١٨٤٩ معية سنية ـ صورة المكاتبة الواردة من حكمدارية السـودان الى المعيـة السـنية بتاريخ ١٦ ربيع الأول سـنة ١٢٨٨ هـ . وثيقة رقم ١٣ ص ٣٦ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

مثل هذه الانعامات دليل على رضاء الحكومة عن خدماته لها (١) •

ومن السمات التى تميز مجتمع القبيلة السودانى وجود (مجلس الأجاويد) الذى كان يتم اختياره من بين كبار السن من رجال القبيلة المعروفين برجاحة العقل • وكانت مهام هذا المجلس تنحصر فى المسألة القضائية التى تكون نتيجة للنزاعات التى تنشأ بين أبناء القبيلة • وهذا المجلس كان ينجح كثيرا فى أداء مهامه ، كما كانت أحكامه لا تستأنف • وهذه الأحكام غالبا ما تكون عبارة عن دفع أعداد كبيرة من الابل لمن وقع عليه الضرر • وفى أغلب الأحيان كان يتنازل صاحب الحق عن تناول هذه الغرامة • وتستمد قرارات هذا المجلس أساسا من الشريعة الاسلامية ومن مجموعة الأعراف السائدة بين أفراد القبائل •

ويلاحظ أن مجتمع القبيلة السودانى — على وجه الخصوص — كان يسوده الوئام والسلام الاجتماعى وان المشاكل التى كانت تحدث ترجع فى الغالب الى الاختلاف حول أماكن المرعى • أما المشاكل الأخرى فتكاد تكون غائبة تماما عن هذا المجتمع • ومرد ذلك يكمن فى أن المصالح فى داخله لم تتشابك كثيرا أو تتعقد • فالأرض رحبة ، والسكان قليلون وفرصة اللقاء قليلة جدا إلا فى مواسم معلومة • فايقاع الحياة كان بطيئا جدا •

وقد يكون من الضرورى أن نعرض لعلاقة الحكومة بهذا المجتمع ومدى ما أصابه من تطور فى ظل الاصلاحات التى أدخلتها الادارة المصرية • ففى عهد محمد على قامت الحكومة جاهدة بتشجيع الزراعة

---

(١) دفتر رقم ٢٨٩ صادر ديوان المعاونة الملكية — وثيقة رقم ٢٠٩٥ بتاريخ ٢ ربيع أول سنة ١٢٥٩ هـ . افادة الى كامل بك . دار الوثائق بالقلعة انظر أيضا : دفتر رقم ٣٢ عابدين — صادر تليغرافات — صورة التليغراف العربى الشفرة رقم ٥٧٠ بتاريخ ٩ جمادى اول سنة ١٢٩٤ هـ . ص ٩٤ انظر أيضا : دفتر رقم ٤٨ عابدين — وارد تليغرافات — صورة التليغراف العربى رقم ١٠ بتاريخ ٢٨ اغسطس ١٨٧٧ من غوردون باشا الى سعادة خيرى باشا . دار الوثائق القومية بالقلعة .

لاستقرار البدو ، واستمرت هذه السياسة فى عهد خلفائه كما سبق أن ذكرنا ، وخصوصا فى عهد اسماعيل حيث كثرت مشاريع الزراعة وبخاصة زراعة القطن فى شرقى السودان الأمر الذى أغرى البدو هناك بالانخراط فى سلك الزراعة وتحولهم من بدو رحل الى زراع مستقرين * .

كذلك فان الحكومة قد شجعت على اقامة القرى الصغيرة أو ما يشبه المحطات على الطريق بين كسلا وسواكن وتوطين البدو فيهما حتى يشيع الأمن عبر هذه الطرق التى يمر فيهما المسافرون (١) . كما كان رجال الادارة فى مصر والسودان يصرون على ضرورة الاستفادة من أراضى السودان الواسعة فى احداث عملية استقرار للبدو الرحل وبالتالى حدوث عملية تطور نحو التمدن ، وقدمت فى هذا الصدد الكثير من الاقتراحات . ففى ديسمبر عام ١٨٧١ اقترح مدير عموم قبلى السودان تشكيل مديرية قائمة بذاتها يكون مركزها القضارف وتسمى مديرية القضارف وراشد . وشرح النتائج التى سوف تترتب على ذلك والمتمثلة فى زيادة الرقعة الزراعية التى ستؤدى الى جذب الأهالى واستقرارهم « .. وتحويلهم من حالة التوحش الى المدنية .. » (٢) .

ولم تكن هذه السياسة الاصلاحية تقتصر على قبائل شمالى وشرقى السودان بل شملت أيضا قبائل الجنوب التى كانت فى حالة شديدة من التأخر . ففى احدى رسائل اسماعيل الى بيكر يوصيه هو ومن معه بأن يكونوا عادلين مع قبائل البارى حتى يطمئنوا اليهم . ويضيف قائلا :

(*) انظر فيما سبق فصل تطور الأوضاع الزوراعية .

(١) دفتر رقم ٥٥٨ — معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥ ص ١٥ بتاريخ ٢ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٢ هـ . ارادة سنية الى جعفر باشا وكيل حكمدارية السودان .

(٢) دفتر رقم ١٨٥٩ معية سنية — صورة المكاتبة رقم ٢٤ الواردة من مديرية عموم قبلى السودان الى المعية السنية تاريخ ٢٩ شوال سنة ١٢٨٨ هـ . ص ٣ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

« ... ان العمل الخلقى والمادى سـوف يستغرق زمنا طويلا لا أعـلم مداه .. » كما يوصيهم بمتابعة السير فى هذا الطريق . وأخيرا يلخص وصيته اليهم فى ثلاث كلمات « .. علموا واستعمروا واستجلبوا الأهالى اليـكم .. » (١) .

ولقد كانت الحكومة — أحيانا — تتدخل فى بعض النزاعات القبلية فى هذا المجتمع اذا بلغت حدا خطيرا ولم يسـتطع رجـال القبـائل أن يتوصلوا الى حل لها ، فكانت تطلب اليهم — حين تفشل أعرافهـم فى حسم النزاع — أن يمتثلوا لقوانين الحكومة « .. وأن يقسموا على ذلك حسب طريقتهم فى القسم » . وكانت الأوامر تطلب من رجال الادارة فى مثل هذه النزاعات الشديدة أن يظهروا لهـم بمظهر القوة ولكنها مـع ذلك تطلب منهـم أن يعاملوا « ... كلا منهم بحسـب حالتـه ومركزه واعتبـاره ... وأن يلاطفوا بعضهم ، ويخيفوا الآخرين حتى تسـير الأمـور حسب المرغوب » (٢) .

ويبدو أن بعض القبائل العربيـة فى كردفان كانت لا تزال تعيش على عاداتها القديمة التى تتمثل فى النزاع لأوهى الأسباب . ففى عهـد الخديوى اسماعيل وفى زمن الحكمدار موسى حمدى نشـب قتـال بين عربان الحمر وبين عربان الكبابيش اشتهرت بحرب « العقـال » حيث جمعت القبيلتان رجالها الى ساحة الحرب وقامتا بعقـال الابل وتقاتلتا طويلا حتى انتصر الحمر (٣) . كذلك فقد كان النزاع يمتد أحيـانا الى نطـاق أوسع ليشمل عربان كردفان ودارفور المتجاورتين على الحدود ،

---

(١) جورج جنـدى وجاك تاجـر : اسـماعيل كما تصـوره الوثائق الرسمية ص ٢٣٧ .

(٢) محفظة رقم ٥٥٨ معية تركى ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥ بتاريخ ٢ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٢ هـ . ارادة سنية الى جعفر باشا وكيل حكمدارية السـودان . ص ١٥ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) الياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل باشا — المجلد الثانى . ص ١٠ .

وكان هذا النزاع يوقع المسئولين فى حيرة شديدة ، وخصوصا قبل ضم دارفور للسودان • ولذلك فقد قيل ان مثل هذه النزاعات القبلية كانت من بين العوامل التى دعت الى ضم دارفور لحوزة الادارة المصرية فى السودان (١) •

كذلك فقد دأبت بعض القبائل فى شرقى السودان وساحل البحر الأحمر على الاقتتال فيما بينها ، الأمر الذى كان يدعو رجال الادارة للتدخل • ففى نوفمبر عام ١٨٧٥ اجتمع على ظهر الباخرة (محمد على) شيوخ وعقال قبائل (توته) و (كبلاله) و (براوه) وغيرها وأقسموا على المصحف والسيف أن يظلوا متحدين وألا يهاجم بعضهم بعضا (٢) •

ومن الأمثلة الأخرى التى دعت الادارة المصرية للتدخل ما حدث فى عام ١٨٨٠ بين قبائل الحباب والرشايدة • فقد وفد بعض عربان الرشايدة منذ خمسة عشر عاما من هذا التاريخ بعائلاتهم ومواشيهم وأقاموا بأراضى عربان الحباب التابعة لمصوع • ونتيجة هذا الجوار احتدم النزاع بينهما ونتج عنه كثير من القتلى والجرحى وخسائر فى الحيوانات الأمر الذى دعا الحكومة الى دفع ثمانية آلاف وخمسمائة ريال للرشايدة بالاضافة الى دفع أثمان الابل فى مقابل ترك أراضى الحباب وتوطينهم فى أماكن أخرى متفرقة ، أو عودتهم للحجاز • وأخيرا توجهوا الى سواكن • ولكن يبدو أن الخطر من وجودهم لم يكن قد زال لذلك نلاحظ أن اقتراحات رجال الادارة كانت ترى ضرورة عودة

---

(١) دفتر رقم ٥٥٨ معية سنية — قسم ثان — ارادة غير رسمية الى حكمدار السودان بتاريخ ٢٣ جمادى أولى سنة ١٢٨٣ هـ • ص ٨ •

(٢) محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ص ٣١ •

الرشايدة الى الحجاز ولو كان ذلك بالقوة اذا لم يتوقف خطرهم فى تلك الجهـات (١) .

هكذا كان مجتمع القبيلة السودانى فى ذلك الوقت يعيش وفق نظمه الخاصة التى حرص عليها تماما ، وتلك كانت سـياسة الادارة المصرية تجاهه ، فلم تتدخل إلا بقدر حين تتأزم الأمور ، ولهـذا كله فان معظم القبائل السودانية ظلت محافظة على ولائها للادارة المصرية حتى قيـام المهدية وسقوط الخرطوم فى يناير ١٨٨٥ .

الوضع الاجتماعى للرقيق السـودانى :

قد يكون من الضرورى ونحن نعرض لأوضاع المجتمع السودانى أن نتناول شريحة من بنائه قدر لهـا أن تشغل حيزا كبيرا من الاهتمـام ، ولا زالت – فى تقديرنا – تتسع لوجهات نظر جـديدة . ونعنى بهـذه الشريحة جماعات الرقيق التى جلبت من جنوب السـودان وأطرافه . ولابد من تحفظ قبـل الاسترسال فى الحديث . فلسـنا بحاجة لتكرار ما سبق ذكره فى الجانب الاقتصادى ، بالاضافة الى أننا سوف لا نخرج فى معالجتنا لهذه القضية الاجتماعية عن نطاق السودان .

بداية ، لسنا مع من ذهبوا الى وضع الرقيق السودانى فى نهـاية السلم الاجتماعى للسودان تحت تسمية « العبيد » وقد سبق أن أوضحنا الأسباب التى دعتنا الى ذلك (*) .

واذا ما انتقلنا مع الرقيق داخل البيت السودانى وخارجه وجب علينا أن نشير الى مبدأ هـام كان يحكم العلاقة بين هؤلاء الرقيق وبين مالكيهم وخصوصا المسلمين منهم ، وهو ان الاسـلام يدعو الى تحرير

(١) محافظ السـودان – مجلس الوزراء – محفظـة اعانات قبائـل وعربان . صورة ما تحرر من الداخلية لمحافظ سواحل البحر الأحمر فى ٢٠ رجب سنة ١٢٩٧ هـ . نمرة ٣ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(*) أنظر فيما سبق .

رقابهم ومساواتهم مع غيرهم من بنى الاسلام . كذلك نشير الى حقيقة هامة وهى وجــود فروق واضحة بين الإستعباد الأمريكى والإســترقاق الشرقى . فعند الشرقيين لم يكن الرق من الأنظمة التى تحط من قــدر الانسان . فلم يكونوا يرون فى الرقيق متاعا كثيرا أو شيئا ماديا كمـا كان الرومان فى القــديم ولا يعتبرونه بمثابة آلة يقدرون قوتهـا كمـا تقدر قوة الآلات « بالأحصنة » ولذلك لا ندهش أن وصف البعض حالة الرقيق فى الشرق الاسلامى بأنه « ... لم يكن إلا تبنيا » ، وان الرقيق سرعان ما يندرج فى سلك الأسرة التى شرته بمالها (١) .

لقد راح الأوربيون ينعون على الشرق ، وبلاد السودان خصوصا ، استحوازهم الرقيق ونسوا أن كثيرين منهم عندما ساحوا فى الســودان وفى أفريقيا ارتكبوا الكثير من الخزى ، فمنهم من كان يزور أســواق الرقيق لمجرد الاطلاع على شىء سـمع بـه فاذا أعجبتهم ســودانية أو حبشية ابتاعوها بثمن بخس ارضاء لغرائزهم حتى اذا أطفأوا جمرة شهواتهم أطلقوا سراحها بالاعتاق ، وهللوا أمام العالم أنهم دعاة تحرير الرقيق فى افريقيا ، غافلين عن حقيقة هامة وهى ان تحــرير الرقيق فى بلاد لا تستطيع فيها المرأة أن تعيش إلا فى ظل رجل يقــوم على شئونها وإلا فالفقر والفاقة والدعارة هى النهاية الطبيعية لها حتى تكسب قوت يومها . لم نرد بهذا القــول أن نرسم صــورة وردية لمعاملة السودانيين والشرقيين بصفة عامة للرقيق ، ولكن كثيرا ما خــرج البعض عن هــذه القواعد العامة والمثل والاعراف .

لقد كانت الجوارى مرغوبات لــدى أهل المــدن أكثر من الرقيق الذكور ، وبخاصة الشيوخ منهم ، ولذلك فقد كان لهؤلاء الشيوخ عائلات كبيرة ، ولا تصبح الزنجية فى عرفهــم حرة إلا اذا ولــدت من سيدها . إلا أن بعضهن يصبحن حرائر غداة زواجها والسبب فى ذلك عدم توفــر

---

(١) كلوت بك : لمحة عامة الى مصر ، الجزء الاول ص ٥٢٦ .

البنات لدى هؤلاء الشيوخ لتقديمهن « كبدل » للعائلات التى يصهرون اليها ، لأن العرف لديهم فى هذه الحالة يقضى بأن يحمل الأطفال — ثمرة الزواج — أسماء عائلات وقبائل امهاتهم • وما كان السودانى ليرضى ذلك ، الأمر الذى يضطره الى الزواج من الرقيق (١) •

وكان المصريون والأتراك يميلون كثيرا الى بنات « الجالا » الحبشيات ويعاملوهن باحترام قد لا يقل عن احترام الحرائر • وعند شرائهم للرقيق يقومون بختانه واختيار اسم جديد له (٢) •

ويرتدى الرقيق فى بيت سيده قطعة صغيرة من قماش القطن يغطى بها وسطه حتى ركبتيه اذا كان فى العمل ، إما اذا كان خاليا أو كان الطقس يميل الى البرودة فيغطى جسمه بأكمله • وكان شديد الولع بتزين رقبته بالتمائم • كما كانت الجوارى تتحلى بأساور كثيرة • ولزوجة الرقيق تأثير عليه ، الأمر الذى يجعله فى أغلب الأحيان يرضى بزوجة واحدة • ولذلك فكثيرا ما نلاحظ أن جند الحكومة من الرقيق يصطحبون زوجاتهم أثناء التحرك خارج الخرطوم وتقام لهن أكواخ خلف معسكرات الجند • وقد جرت العادة أن يعامل السيد رقيقه بالرحمة مما يحمل الرقيق دائما الى حبه أكثر من موطنه الأول ، ونادرا ما كان يسىء المصريون أو الأتراك معاملة رقيقهم بعكس الأوربيين الذين يقسون عليهم مما دعا الحكومة الى اصدار قانون يمنع أى أجنبى من ضرب رقيقة ، فإذا عصا سيده أرسله إلى القاضى حتى يتولى تقويمه (٣) • وغالبا ما كان السيد هو الذى يقضى بين رقيقه فى منزله فاذا حدث أن قتل أحدهم زميله فى منزل واحد فيمكن لسيده أن يعاقبه أو يبيعه • أما اذا كان القتيل ملكا لسيد آخر جاز تعويضه أو رفع الأمر للقضاء

---

(١) احمد احمد سيد : المرجع السابق • ص ١٧٣ •

(٢) Cailliauld: Op. Cit. Tome III, p. 117.

(٣) احمد احمد سيد : المرجع السابق • ص ١٧٥ •

على أساس انها « قضية تبديد » • ولكن فى حالة قتل السيد تنظر على أساس أنها « قضية قتـل » (١) •

ومن الأمور التى كانت تقلق السـادة هروب العبيد من بيوتهـم ولذلك كان الرقيق من الاناث يتمتع بقدر كبير من الحرية عن الذكور ، بل كان الاقبال كثيرا أيضا على شراء الأطفـال لقلة فرصـة هروبهم • وكانت الحكومة تستمع لهـؤلاء الرقيق اذا ما أبـدوا شكاوى تجـاه مالكيهم • واذا ثبت معاملتهم معاملة سـيئة ووقوع ضرر عليهـم كانت الحكومة تجازى أصحاب الرقيق باعتاقه مجانا وتسليمه أوامر عتقه من المديرية • وليس معنى ذلك أن يطلب هـؤلاء الرقيق ذلك دون وقـوع ضرر ، ففى مثل هـذه الأحـوال تلقى عليهـم النصـائح ويعادوا الى أصحابهم (٢) •

ويلقى البعض باللائمة على نظام اسـتخدام الرقيق فى البيـوت باعتبار أن ذلك مناقض تماما للتحفظ الشديد الذى يسود المنازل والذى تقتضيه العلاقة الأسرية فى الشرق (٣) • ولا نعتقد ان فى ذلك تناقضـا ، فالرقيق لا يختلطون عن قرب بالنسـاء خصوصا اذا علمنا أن منـازل السـودانيين متسعة جدا وتتوفر فيها أماكن لاقامتهم مـع زوجاتهم • وقد يصدق هذا القول على سكان المدن المزدحمة ، وان لم تكن المـدن السودانية ــ آنذاك ــ تشـكو من أى زحام • ومع ذلك كله فقد جرت ــ أحيانا ــ عمليات « تطويش » للرقيق حتى يمكنهم الاختلاط وان لم تنتشر هذه العادة فى السودان بشكل واسع •

---

(١) Pallmc; Op. Cit. p. 114.

(٢) دفتر رقم ١٦ صادر تليغرافات ــ صورة التليغراف العربى رقم ٤٢ بتاريخ ٢٥ رجب ١٢٩٠ هـ من خيرى باشا الى مديرى السودان • دار الوثائق بالقلعة ، انظر ايضـا دفتر رقم ٤٦ عابدين ــ وارد تليغرافات ــ صـورة التليغراف العربى الشفرة رقم ٢٤٨ ص ٦٢ • ورد بتاريخ ٢٢ ربيع الثانى سنة ١٢٩٤ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) الأرشيف الأمريكى : محفظة ١٩ :

Desp. No. 235, Cairo, May 16 th. 1878.

ولم يقتصر عمل الرقيق السودانى على الخدمة البيتية ، بل كانوا يكلفون بالأعمال الزراعية ، والانخراط فى سلك الجهادية (١) .

وعموما فقد كان الرقيق السودانى يلقى معاملة طيبة فى كافة الجوانب التى عمل بها ، حتى ليمكننا القول — دون تردد — بأن الفرد منهم كاد أن يصبح واحدا من أفراد البيت إذ كان يستمتع بحقوق كثيرة . فكانت تخصص له — أحيانا — قطعة أرض يقوم بزراعتها واستغلالها لحسابه الخاص . وكان يمنح يوما كل أسبوع لمزاولة أموره الخاصة دون فرض رقابة مشددة عليه (٢) .

هكذا تغلغل الرق فى المجتمع السودانى وأصبح ركنا أساسيا من أركانه وألف الناس آنذاك العلاقات الاجتماعية التى سادت بين الرقيق وأسيادهم كما ألفها الطرفان وزادها الزمن رسوخا بحيث أصبح من الصعب بل من الخطورة أن تجتث مثل هذه العلاقات بقرارات رسمية أو مقاومة منظمة وأحيانا مسلحة . فقد كان من العسير على بيكر وغردون وغيرهما من المسئولين فى عهد الخديوى اسماعيل أن يعيدوا بناء المجتمع السودانى باصدار لوائح وقرارات سريعة اصطدمت بشدة بهذا البناء الراسخ منذ مئات السنين ، وراحت تدمره كريح صرصر عاتية تهلك الزرع والنسل .. إنها الثورة المهدية .

الأجانب :

قد يكون من المفيد بعد أن تحدثنا عن الجماعات السكانية بأشكالها ونظمها الاجتماعية المتنوعة أن نشير الى مجموعة أخرى سكنت السودان

---

(١) دفتر رقم ٣٧٨ معية تركى — ترجمة الارادة التركية رقم ١١٤٩ بتاريخ ١٣ ربيع الآخر سنة ١٢٦١ هـ . ارادة الى احمد باشا المنكلى وانظر ايضا دفتر (بدون رقم) ص ٢٣ وثيقة بتاريخ ١٠ رمضان سنة ١٢٩٢ هـ . افادة الى حكمدار السودان — دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) الشاطر بصيلى : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط ص ٢٦٥ .

لفترة طارئة قصرت أو طالت ونعنى بها الأجانب ، وهنا أيضـا لابد أن نتحفظ القول حول فئتين من السـكان لا يمكن أن ندرجهم تحت بنـد الأجانب ، الفئة الأولى تضم الأتراك الذين لم يكونوا فى القرن التاسـع عشر فى عداد الأجانب سواء فى مصر أو السودان • فالعلاقة بين مصر والدولة العثمانية معروفة تماما وخصوصا نظمها التى لم تكن تفرق سكان البلدين بل تعتبر كلاهما مجموعة واحـدة تخضع للسلطان العثمانى • أما ادراجهم فى عداد الأجانب فى السودان التى كانت تابعة للادارة المصرية فى ذلك الوقت ــ كما يذهب أحد الدارسين ــ (١) فهو لون من الخطـأ التاريخى • حقيقة ان السودانيين كانوا يعدونهم « مجـازا » من الغرباء رغم أنهم مسلمون مثلهـم ، وربما يرجـع ذلك الى أن أغلب الحكام فى الوظائف العليا كانوا يتحدثون اللغة التركية ومن ذوى اصول تركيـة ، إلا أن ذلك لا يعد مبررا لادراجهم ضمن الأجانب •

ويبدو أن كلمة « تركى » فى السودان قد تناولتها الألسنة والأقلام ــ وخاصة فى السودان ــ بشكل غير دقيق • فعند الأهالى كل من كان يتولى وظيفة عليا وله بشرة بيضاء ويرتدى الطربوش الأحمر ويتحدث التركية ويراعى الآداب العثمانية فهو تركى ، بل اتسع مدلول هذا اللفظ عند السودانيين ليشمل الموظفين المصريين والسوريين وغيرهم من رعايا الدولة العثمانية وبدأ تعميمها على كل مسلم أبيض تركيا كان أم مصريا أو من أية جنسية أخرى ، حتى وصل الأمر مـداه بوصف فترة الادارة المصرية فى السودان « بالتركية » •

أما الفئة الثانية التى لا نعتبرها من الأجانب هى فئة « القبط » المصريين أو ما أسماهم السودانيون بالنصارى فقد كانوا يطلقون كلمـة (النصـارى) على كل من يدين بالمسيحية ، ولما كان الأوربيون الأجانب مسيحيين فقد جمعوا الطرفين معا تحت كلمة النصارى • ولهذا كله بدأت بهذا التحفظ وأنا أتحـدث عن الأجانب •

---

(١) احمد احمد سيد : المرجع السابق ص ١٨٦ .

أما الأجانب بالمعنى الدقيق – لذلك العصر – فقد كانوا يتمثون فى التجار الأوربيين والرحالة والمكتشفين ورجال البعثات السياسية والدينية ، وأخيرا فى بعض الحكام فى عهد الخديوى اسماعيل ، وهؤلاء الأوربيون من جنسيات متعددة ؛ أكثرهم من اليونانيين ثم الايطاليين فالفرنسيين فالنمساويين فالألمان وأخيرا الانجليز (١) .

وقد ازداد عدد الأوربيين بعد سنة ١٨٥٢ حين تم فتح النيل الأبيض للتجارة الحرة حيث صدرت لائحة يناير فى هذا العام والتى تقضى بما يلى :

١ – معاملة التجار الأوربيين فى السودان بمقتضى الامتيازات الأجنبية والمعاهدة التجارية التى عقدت مع الدولة العثمانية عام ١٨٣٨ .

٢ – بناءً على التصريح الممنوح للتجار الأوربيين باحضار وبيع بضائعهم للدولة العثمانية وشراء محصولات الدولة العثمانية ومنتجاتها الصناعية وبيعها فى داخل البلاد واخراجها ، فيجب ألا يمنعوا من التجارة بتلك الكيفية ، وألا تؤخذ منهم فوائد أكثر من الذى تقرر فى المعاهدة .

٣ – منع أى ظلم أو تعد على التجار الأجانب وعدم تعطيل الحكام لأشغال هؤلاء التجار .

٤ – عدم إرغام الحكام للتجار الأجانب على أخذ رخصة بنقل أموالهم وبضائعهم ، لأن معاهدة ١٨٣٨ ألغت ذلك .

٥ – عدم إحتكار النقل وإرغام الحكام للتجار الأوربيين على دفع أجرة تزيد عما اتفقوا عليه مع أصحاب المراكب والجمال وغيرها . وعدم تعرض الحكام لوسائل النقل التى استأجرها هؤلاء التجار .

---

(١) Jomard; Etudie Geographipue et Hist. pp. 486 - 502.
انظر ايضا : احمد احمد سيد : المرجع السابق . ص ١٨٧ – ١٨٨ .

٦ — تؤخذ الفوائد الجمركية على بضائع التجار الأوربيين فى جمرك أسـوان فقط •

٧ — عدم تكليف التجار الأجانب الذين يتوجهـون للنيل الأبيض بالمراكب على أخذ حراس لهم من الحكومة • واذا طلب أحـدهم حرسا يعطى له شريطة دفع مصاريف الجنود والمهمات ، واذا توجه بدون حرس وحدث له ضرر فليست الحكومة مسئولة عنه •

٨ — منع حكمدار السودان من احتكار المحصولات وإباحة الاحتكار وتحديد الأسعار وعدم وضع قوانين تخل بأعمال التجار وتلزمهم البيع جـبرا •

٩ — يجب على حكمدار السـودان حين الفصـل فى المنازعات بين الأجانب والأهالى أو بين الأجانب والحكام مراعاة العقـود والمعـاهدة التجارية المعقودة عام ١٨٣٨ م •

١٠ — حكمدار السودان وحكامه ممنوعون من جلب سن للفيل ومن التجارة فيه وفى الأصناف الأخـرى (١) •

من ذلك يتبين لنا مـدى الامتيازات التى اعطيت لهـم من قبـل المسئولين ، فراحوا — كتجار — يشكلون قوة ضغط رهيبة على السودان يستغلون ثراوتها — كما سبق أن بينا فى فصـل التجارة — الأمر الذى أضفى عليهم مكانة اجتماعية رفيعة بين أفراد المجتمع السودانى •

والى جانب عملهم بالتجارة اشتهر الأوربيون عامة بالعمل كأطبـاء حكوميين وفى مقدمتهم الايطاليون • فقد كان على عهد خورشيد باشـا طبيب وصـيدلى منهـم ، كمـا أننا نلاحظ الدكتور فرن (werne. J)

---

(١) احمد احمد الحتة : الأجانب فى مصر والسـودان ١٨٤٩ — ١٨٦٢ ص ١٨٦ •

مديرا للقسم الطبى بالسودان وجراح المستشفى العسكرى بالخرطوم .
ومن الأطبــاء الفرنسيين دكتور برون (Perron) العالم والباحث الذى ترجم رحلة التونسى فى دارفور الى الفرنسية . وفى عام ١٨٧٩ نشـهد طبيبا سويسريا كمدير للقسم الطبى فى السودان .

وقد عمل الأوربيون فى مجــالات أخــرى ، فمنهم المهندس دارنو D'arnaud وشيلوبك Chelu Bey الفرنسيين وسبادا الايطالى الذى عمل مديرا للترسانة ، ولمبروزو Lamproso الذى كان مديرا للبريد (١) .

ومن الأمــور الجلية فى عهــد الخديوى اسماعيل مســألة توظيف الأجانب فى السودان وعلى وجه الخصوص فى جنوبه أمثال صمويل بيكر وغوردون الانجليزيين والدكتور « شنيتزر » (أمــين باشــا) ، وجسى Gessi وغــيرهم .

ويعزو البعض ظاهرة توظيف الأوربيين فى السودان بوجه خــاص ومصر عامة الى أكثر من سبب ، منها أولا : ايمــان اسماعيل الشــديد بالحضارة الأوربية ورغبته فى جعل بلاده قطعة من أوربا . وفى هــذا لم يأت اسماعيل بجديد فقد ســبقه فى ذلك جده محمد على ، إلا أن النتيجة اختلفت بالنسبة للرجلين ، فمحمد على استطاع أن يتحكم دائما فى هؤلاء ويجعلهم أدوات لتنفيذ سياسته فى بناء مصر الحديثة ، بينمــا حدث العكس بالنسبة لاسماعيل فتحكموا هم فيه وتحولوا الى أدوات لتنفيذ سياسة بلادهم ، والسبب الثانى يعود الى أن اسماعيل أراد أن يكسب الثقة الأوربية لحاجته للقروض ولدفــع التهمة التى ألصقها به الغرب من أنه وراء انتشار تجارة الرقيق . وقد أفرز هذا التوظيف نتائج عكسية فبدلا من قيــام هؤلاء الموظفين بالدور الذى كلفوا به راحــوا يشنون حملة تشهير عنيفة ضد تجارة الرقيق فى المناطق التى حكموها ، ثم بدأوا يدخلون فى نزاعات عقيمة مع حكام السودان . وأخــيرا فإن

(١) أحمد أحمد سيد : المرجع السابق ص ١٩١ .

هؤلاء الموظفين غلبوا المصالح الأوربية على مصالح الحكومة وكانوا مخلب قط لنهش الوجود المصرى فى تلك الأصقاع لصالح دولهم ولصالح بعض الشركات الاستعمارية (١) .

ومن العناصر الأجنبية التى أقامت فى السودان ، رجال البعثة الكاثوليكية ففى عام ١٨٤٨ وصلت الى الخرطوم البعثة الكاثوليكية الأولى ، وكانت الخرطوم القاعدة التى يخرج منها رجال هذه البعثة لتحقيق أهدافهم . وفى عام ١٨٥٥ استطاعت هذه البعثة أن تبنى لها محطة فى جنوب السودان بين شامبى وبور . وقد بلغ أفراد هذه البعثة ثلاثين فردا منذ مجيئها . ويبدو ان هذا العدد ظل على هذا النحو نتيجة للخسائر التى منوا بها فى الأرواح ، فلم تأت منهم أعداد كثيرة إلا لتعويض النقص فقط . وقد عادت البعثة الى بلادها عام ١٨٦١ بسبب تلك الخسائر أو عدم الوصول الى تحقيق أهداف تتناسب والجهود المبذولة . وفى عام ١٨٧٢ عادت الى الخرطوم برئاسة الأب (كومبونى) Componi, D. وقامت بافتتاح محطات لها فى بربر والأبيض والدلنج بجبال النوبا . واستمرت مزدهرة حتى عام ١٨٧٨ حين خسرت حوالى سبعة عشر فرداً من جراء الملاريا فأقفلت محطتها فى بربر . ولما وصل خبر هزيمة هكس فى ديسمبر عام ١٨٨٣ — انسحبت البعثة الى القاهرة .

ومن العناصر الأجنبية التى نشير اليها فى السودان الرحالة والمكتشفون ، فقد كانت رحلاتهم فى الغالب تبدأ وتنتهى بالخرطوم ومكث أكثرهم سنوات طويلة بالسودان وانغمسوا فى مجتمعها ، ومن أشهرهم برون روليت — وهجلين وبترك ، وشوينفرت ويونكر وكازاتى ، وسبيك وجرانت وصمويل بيكر وغردون وغيرهم . وقد لعبت الادارة المصرية فى السودان دورا كبيرا فى تسهيل رحلاتهم من حيث منحهم

---

(١) يونان لبيب رزق : تفكك الامبراطورية المصرية فى افريقيا . دراسة بكتاب : العلاقات العربية الافريقية . دراسة تاريخية للاثار السلبية للاستعمار . ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

تذاكر المرور التى تطلب من رجال الادارة لمساعدتهم طوال الرحلة .
وقد شاركت هيئة أركان حرب الجيش المصرى فى عهد الخديوى اسماعيل بالاشتراك مع هؤلاء الأجانب بدور كبير فى اكتشاف الطرق والأماكن المجهولة من السودان وافريقيا (١) .

ومع تعاظم أعداد الأوربيين فى السودان ، كان لابد من رعاية مصالحهم ولذلك بدأت دولهم تبعث بممثلين سياسيين لها حماية لهؤلاء الرعايا ، وبخاصة التجار منهم ، ولذلك لا نعجب أن أصبح بتريك التاجر الانجليزى المشهور ممثلا سياسيا لبلاده فى السودان . وكان الممثل السياسى فى الخرطوم بدرجة نائب قنصل ، إذ كان القنصل يقيم بمصر ، ونلاحظ أن بعض نواب القناصل لم تكن لهم صلة قربى بالدولة التى يمثلونها إذ لم يكونوا أصلا منها ولا يتحدثون حتى لغتها ، ولذلك لا نعجب أيضا اذا وجدنا بعض نواب القناصل كانوا ممثلين لأكثر من دولة فى السودان .

وكانت القنصلية الفرنسية هى أول قنصلية أجنبية افتتحت فى الخرطوم عام ١٨٣٠ . وكان التاجر الفرنسى (ثيبو) هو أول ممثل لها حتى عام ١٨٦٩ . وأما القنصلية البريطانية فقد تأخر افتتاحها حتى عام ١٨٤٩ . وربما يعود هذا التأخير الى العقلية الانجليزية العملية ، فلم يكن آنذاك إلا انجليزيا واحدا هو بتريك الذى كان يعمل تاجرا ، بالاضافة الى أن مصالح بريطانيا التجارية لم تكن تستدعى قيام تمثيل سياسى لها إذ كانت هذه المصالح تسير فى سهولة ويسر . ومعروف أيضا أن محمد على كان يحتكر بعض المنتجات السودانية ومنها العاج ، ولما تحررت هذه التجارة رأت بريطانيا أن تستفيد منها ، فكان لابد بالتالى من ممثل يرعى هذه المصالح المتزايدة والتى امتدت الى الاهتمام بمعرفة أحوال السكان من جميع النواحى من حيث عددهم وأماكن

---

(١) انظر حول ذلك : عبد العليم خلاف : جهود مصر الكشفية فى عهد الخديوى اسماعيل . ص ١٦٨ وما بعدها .

اقامتهم وخصوصا التجمعات القبلية (١) . وأول نائب قنصل لبريطانيا هوبلودن (Plowden, W) وخلفه جون بتريك عام ١٨٥٩ الذى استمر حتى عام ١٨٦٤ حين أغلقت القنصلية بسبب الشبهات التي حامت حول نائب القنصل ومدى مشاركته فى تجارة الرقيق ولم تفتح مرة أخرى إلا فى سنة ١٨٨٢ حين احتلت مصر (٢) .

أما القنصلية النمساوية فقد افتتحت عام ١٨٥١ حيث عين دكتور « رتز » Reitz ممثلا لها . وافتتحت القنصلية الألمانية عام ١٨٦٥ . كما كان لسردينا نائب قنصل يسمى فودى Voudy اشتهر بتجارة الرقيق ولقى حتفه على يد جماعة البارى عام ١٨٥٤ . وخلفه التاجر المشهور (برون روليت) عام ١٨٥٥ . وأما الولايات المتحدة الأمريكية فكان لها ممثل سياسى منذ حوالى عام ١٨٦٠ وهو تاجر قبطى . كما كان لايران ممثل منذ أواخر سنة ١٨٦٢ (٣) .

وبعد استعراضنا للفئات والعناصر الأجنبية فى السودان قد يكون من اللازم أن نعرض لأحوالهم الاجتماعية . وبداية نلفت النظر الى أن معظمهم كان من المغامرين والمفلسين والمجرمين الذين جاءوا ليجربوا حظهم فى جمع الثروة . ولم يكونوا يملكون شيئا الأمر الذى أدى الى انغماسهم فى الرزائل كتجارة الرقيق مثلا وغيرها . وبالرغم من أن معظم هذه النوعية من المهاجرين قد باعت زرائبها واختفت من مجتمع الخرطوم حوالى عام ١٨٦٠ فان الأوربيين فى السودان وبخاصة الخرطوم كانوا لا يزالون يضمون بينهم جماعات سيئة السمعة تكثر من تسرى الجوارى . ويفسر البعض ذلك بقلة النساء الأوربيات بينهم ، وحتى أولئك الذين تزوجوا زواجا شرعيا من الجوارى لم يستطيعوا إذابة

---

(١) F. O. 78 - 841, No. 20 6, 1850.

(٢) احمد احمد سيد : المرجع السابق . ص ٢٠٣ .

(٣) نفس المرجع : ص ٢٠٣ وما بعدها .

التفاوت الاجتماعى الكبير بينهم وبين نسائهم الأمر الذى نتج عنه مفارقات صارخة (١) •

وقد استغل هؤلاء الأوربيون ما كان يسود المجتمع السودانى فى حق المالك فيما يملك من رقيق فأفرطوا فى التسرى لدرجة ان الواحد منهم كان يتقلب بين أربعين جارية وله من بعضهن أطفال يعجز عن اعالتهم والطامة الكبرى كانت تحدث حين يغادر هذا الرجل الأوربى السودان الى بلاده تاركا الأم مع أطفالها فتضطر الى بيع جسدها مشيعة الفاحشة فى المجتمع (٢) •

وكان الأوربيون يجمعون المال بشتى الطرق مستغلين وظائفهم فى ذلك • فقد ثبت أن الطبيب الايطالى مدير الخدمة الطبية فى السودان كان وراء تدبير كثير من حالات التسمم الأمر الذى أدى الى أن يقوم الحكمدار أحمد باشا أبو ودان الى فصله من وظيفته (٣) وكان كثيرهم يثير الشبهات فى الغرض الذى أتى من أجله الى السودان ، فالتجارة كانت الواجهة التى تواروا من خلفها ، أما الذى مارسوه فكان « كل شىء » كما ذهبت احدى الوثائق المعاصرة (٤) • فكان أكثرهم لا يعمل فيما تخصص فيه ففرد ريك فرن الذى عمل مهندسا على عهد أحمد باشا

---

(١) Legan, G; Voyaeg aux Deux Niles (Nubia-Kordofan Soudan Oriental execute de 1860 - 1864,pp. 28-29

وانظر ايضا : احمد أحمد سيد : المرجع السابق ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٠٦ .

(٣) Werne, F.; African Wanderings or an exedition from Sennar to Taka, Basa, Beni Amer, with particular glauce at races of Bellad Sudan. tr. by J.R. Johnston. p. 113.

انظر ايضا : احمد أحمد سيد : المرجع السابق ص ٢٠٧ .

(٤) محفظة ١٩ بحر برا ، ملف رقم ١٢ — دار الوثائق بالقلعة .

أبو ودان لم يكن إلا محاميا ، وكان يردد أن على الأوربي فى الخرطوم أن يعرف كل شيء ليعمل أى شيء ، ومنهم من كان واسع الحيلة ، فأمين باشا الألمانى ومدير خط الاستواء اخبر « جيجلر » وكيل الحكمدار فى عام ١٨٧٩ عند قدومه الى الخرطوم انه تركى وكان يداوم على حضور صلاة الجمعة ، بل بلغت الحيلة بالأوربيين انهم كانوا يغشون التجار ببيع جواريهم من النساء على اعتبار انهن عذارى — بعد تحويلهن صناعيا الى هذا الوضع — لأخذ الفرق بين سعر العذراء والمرأة (١) .

كذلك فقد كانوا لا يتورعون عن اثارة الفتن بين السكان . فقد حدث فى عام ١٨٦٨ ان وردت رسالة عن وجود تاجر بمصوع مرسل من قبل الانجليز لحث السكان على الانضواء تحت تبعية انجلترا المجاورة لهم فى عدن ورفع العلم الانجليزى بدلا من علم السلطان (٢) .

وعلى الرغم من تلك الأعمال المشينة التى كان يقترفها الأوربيون فى السودان كانت الادارة المصرية هناك تعمل جاهدة على أن يسود العدل بين جميع طوائف السكان — ومن بينهم الأجانب — فقد حدث أن رفع أحد رعايا فرنسا قضية ضد الحكومة وصدر حكم المحكمة لصالح هذا الرجل فوافقت المالية بمصر على أن تدفع الحكمدارية استحقاقاته فورا حتى قبل إتاحة الفرصة للاستئناف (٣) .

وقد بلغ الأجانب شأنا عظيما فى عهد الخديوى اسماعيل حيث

---

(١) احمد احمد سيد : المرجع السابق ص ٢٠٧ .

(٢) محافظ ابحاث السودان . وثيقة عن بيان الحوادث التى وقعت فى شهر محرم سنة ١٢٨٥ هـ وتوجد بالمحفظة رقم ١٧ ص ٧٩٢ . دار الوثائق بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ٥٢ عابدين — وارد تليغرافات — تليغراف رقم ٤٧٨ بتاريخ ١٨ جماد أول سنة ١٢٩٦ هـ (١٩ مايو ١٨٧٩) من حكمدار السودان والسواحل بداره الى المعية السنية بمصر . دار الوثائق القومية بالقلعة .

تسلطوا على أعلى الوظائف الادارية بالسودان المتمثلة فى وظائف مديرى المديريات والحكمدارية ولعل غردون وغيره ، ليقيم الدليل على صـــدق هذا القول ، فقد أدى هذا التسلط الى اثارة المشاكل الاجتماعية بين السكان السودانيين حيث عم السخط بينهم تجاه هؤلاء الأجانب • وقد لا نبالغ ان قلنا ان هذا التغلغل الأجنبى كان من بين العـــوامل التى حركت الثورة المهـــدية •

الفصل السادس

العادات والتقاليد

- المسكن

- عادات متعلقة بحياة الأسرة :

(أ) عادات الميلاد •

(ب) عادات الختان •

(ج) عادات الصبا والمراهقة والشباب •

(د) عادات الزواج •

(هـ) عادات الطلاق •

(و) مركز المرأة •

(ز) عادات وتقاليد أثناء الوفاة •

- عادات وتقاليد خاصة بالمعتقدات الدينية •

- عادات متصلة بالخرافات والسحر •

- الأزياء السودانية •

- عادتا الدلكة والشلوخ •

كان من الطبيعي بعد أن عرضنا للجماعات السكانية والقبلية التي التي شكلت المجتمع السوداني ، أن نعرض لعاداتهم وتقاليدهم حتى نستطيع أن نرسم صورة حقيقية أو قريبة منها ، للأوضاع الاجتماعية التي كان يحياها أبناء المجتمع السوداني في القرن التاسع عشر ، فالحديث عن هذه العادات والتقاليد هو اقتراب من قلب هذا المجتمع في محاولة لسماع نبضاته وتطوراتها عبر سنى هذا القرن وحتى عام ١٨٨١ .

وقبيل الخوض في هذا الموضوع نود أن نشير الى أننا بصدد عادات وتقاليد متباينة من منطقة الى أخرى ومن جماعة الى جماعة . وبمعنى آخر فعادات الزواج في شمالي السودان — على سبيل المثال — جد متباينة عن مثيلتها في الجنوب ، وكذلك الحال في شرقه وغربه . ذلك لأن السودان كما سبق أن أشرنا يعد أنموذجا مصغرا لقارة أفريقيا من حيث التنوع الشديد للمجموعات السكانية التي تعيش في جنباته ، الأمر الذي كان طبيعيا أن تتنوع معه عادات أهل البلاد وتقاليدهم اللهم إلا ما كان يستمد خيوطه الرئيسية من الدين الاسلامي ، والعوامل الطبيعية التي تشترك فيها قطاعات كبيرة من سكان البلاد .

ولسوف تكون مسيرتنا داخل المجتمع من خلال عاداته وتقاليده بدءً بالمكان الذي يقطنه الفرد ومرورا بمولده ثم نشأته وزواجه وألوان التسلية التي يمارسها ومعتقداته وانتهاءً بوفاته .

١ — المسكن :

هناك سمة عامة مشتركة لمنزل الفرد السوداني سواء كان في البادية أم في الريف أو الحضر وهي البساطة الشديدة والاتساق مع البيئة . واذا ما تناولنا نمط البيت البجاوي فيمكن أن نقول بأن حياة البداوة التي عاشها الرجل البجاوي اقتضت أن يكون هذا البيت أو المسكن خفيفا بحيث يسهل نقله وبناؤه في زمن قصير . ويعتبر البيت « البديجاوي » Bidjau أو البرش المصنوع من الحصير هو السائد بين هذه

الجماعات (١) • وانشاء أو اقامة هذا المسكن وتقويضه يقع على كاهل المرأة فقط إذ يعد من غير اللائق أن يقوم الرجل به إلا اذا كان المسكن لرجل مريض أو ضيف حيث تقتضى العادة أن تحتجب المرأة عن الظهور • ويتألف هذا المسكن فى مجمله من الحصير أما السقف المصنوع من هذه المادة أيضا فيتألف من طبقة واحدة أو طبقتين : طبقة داخلية من الحصير الغليظ والسميك • ويحمل هذا المسكن أعواد منحنية فى الطرفين ، ولهذا المسكن فتحة أو باب يقع غالبا فى الجانب الشرقى • وقد تغطى جوانب المنزل بأكسية من الصوف الذى يؤخذ من الغنم أو من الشعر الذى توفره قطعان الماعز • ويتميز الأثاث الداخلى لمسكن الرجل البجاوى بالبساطة الشديدة ، فالفراش قوامه الحصير الدقيق ومن تحته الحصير الغليظ • ويحوى هذا المنزل أدوات القهوة ، وبعض القدور والأوعية المصنوعة من الجلد أو الخوص أو القرع لحفظ الماء واللبن (٢) •

وإذا ما تركنا مواطن البجة الى منطقة التقاء النيلين الأبيض والأزرق فسوف نشهد نشاطا فى بناء المساكن • فقد كانت هذه المبانى وخاصة التى كان يقطنها سكان الموضع الذى انشئت به الخرطوم عبارة عن « بيوت الشكاب والقطاطى والزرائب » (٣) ، فأمر خورشيد بازالتها وامداد الأهالى بالألواح والأخشاب •

وقد وصلت اعداد المنازل فى الخرطوم عام ١٨٥٠ الى حوالى ثلاثة آلاف بيت ، وكان يمكن الحصول من أسواق هذه المدينة على كثير من الكماليات الأوربية (٤) •

ويبدو أن بناء المساكن فى سائر أنحاء السودان لم يكن يخضع

---

(1) Clark, W.T.: Manners, Customs and beliefs of the Northern Bega. Vol. XXI, part I, 1938, p. 6.

(٢) محمد عوض محمد : السودان الشمالى سكانه وقبائله • ص ٤١ •

(٣) مخطوطه كاتب الشونة — تحقيق د • مكى شبيكة • ص ٢٨ — ٢٩ •

(٤) الان مورهيد : النيل الأزرق • ص ٢٥٦ •

لشروط معينة حتى عام ١٨٦٧ ، حيث نقرأ فى احدى الوثائق أن أى موقع يختار لبناء المساكن بعد هذا التاريخ ينبغى أن تتوفر فيه الشروط الآتية :

١ — أن يكون معتدل المناخ .

٢ — أن تتوفر فيه الميـاه .

٣ — أن يكون موافقا للاستحكامات والقواعد الحربية (١) .

كذلك صـدرت الأوامر فى نفس العـام فيما يتعلق بمبانى مدينة الخرطوم حيث جـرى تجـديد مبانيها ، والحكومية منهـا على وجـه الخصوص . وأما فيما يتعلق بمساكن الأهالى فقـد طلب أن « تنشـأ بطريقة تتفق وقواعد الصحة وفن الهندسة » (٢) .

وفى جهات ساحل البحر الأحمر السودانى بسواكن ومصوع جرت محاولة لانشـاء مساكن على طراز حديث حين صـدرت الأوامر فى عام ١٨٦٧ صريحة ومحذرة للمسئولين هناك بألا يأخذوا « .. أى ربح على ثمن الطـوب والحجارة والجـير والبلاط والخشب ... » بل يعطـوه « ... للأهالى بثمنه الأساسى ترغيبا للناس فى البناء وتسهيلا لهم » (٣) وربما ندرك قيمة مثل هذه التسهيلات اذا علمنا أن المواد اللازمة للبناء كالحجارة والجير لم تكن متوفرة بمصوع ، بل كانت الحكومة تقوم بجلبها للأهالى (٤) . ويتبين من ذلك تماما ان المساكن التى كانت مقامة سـواء فى الخرطوم أو فى سواكن ومصوع قبل عام ١٨٦٧ كانت متواضعة وغـير

---

(١) دفتر رقم ٥٥٨ قسـم ثانى ، ص ٢٩ نمرة ١٠ — ترجمة الارادة الصادرة الى حكمدار السودان بتاريخ ٢٢ شوال سنة ١٢٨٣ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعـة .

(٢) دفتر رقم ٥٥٨ ، ص ١٩ ترجمة الارادة رقم ٩ بتاريخ ٢٣ شوال سنة ١٢٨٣ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ٥٥٨ ، نفس الوثيقة السابقة .

(٤) محفظة رقم ٣٨ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٢ بتاريخ ٦ محرم سنة ١٢٨٣ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

صحية ، كما يبدو أيضا أن الاهتمام لم يكن قاصرا على المبانى الحكومية بل إمتد ليشمل مساكن الأهالى فى نفس الوقت ، حيث بدأ ممتاز باشا منذ عام ١٨٦٩ بتشييد مساكن للأهالى فى سواكن ، بالاضافة الى اصلاح البعض الآخر (١) .

وفى مدينة هرر كانت البيوت تبنى من الحجارة الصخرية المستخرجة من الجبال المجاورة لهذه المدينة ، وكانت تسقف بالخشب والبوص على نسق البيوت المصرية آنذاك ، إلا أنها كانت خلوا من النوافذ وكان بعض المسئولين المصريين يلومونهم على ذلك ، إلا أنهم اكتشفوا أن الأهالى مصيبون فى هذه الناحية نظرا لانخفاض درجة الحرارة عندهم الأمر الذى لا تصبح فيه ضرورة قصوى لعمل مثل تلك النوافذ . وقد وردت احصائية فى عام ١٨٧٧ لعدد المنازل المقامة بهرر بلغت تسعة آلاف وخمسمائة وستين منزلا ، وكانت المدينة مقسمة الى شوارع وحارات ، إلا أن هذه الحارات كانت غير منظمة ، وربما يعود ذلك الى أن أراضيها ــ هى الأخرى ــ كانت غير مستوية (٢) .

واذا اتجهنا نحو غربى السودان وخاصة فى جبال النوبا حيث نطالع تقرير أحمد أفندى حمدى الذى جاء فيه وصف لمساكن الأهالى هناك والتى كانت عبارة عن « .. تكولات مصنوعة بشكل الخيام من القش ... مستديرة الشكل .. » (٣) ويبدو من هذا الوصف انها كانت بسيطة جدا فى شكلها العام تتناسب وظروف سكانها الذين يعتمدون بشكل رئيسى على الزراعة ، لذا فاننا نلاحظ أن كثيرا من تلك المساكن بجوار المزارع .

---

(1) Bloss, J.F.; The History of Suakin. S.N.R. vol. XX, 1937, Part II. P. 246.

(٢) جريدة أركان حرب ــ السنة الثالثة ، العدد رقم ٥ بتاريخ غرة رجب سنة ١٢٩٤ هـ . ص ٣٩١ ، ٣٩٢ .

(٣) جريدة أركان حرب ــ العدد رقم ٨ بتاريخ غرة جمادى أول سنة ١٢٩٥ هـ . ص ٥٨١ .

وفى جنوب السودان وخاصة عند الدينكا تطالعنا « الوقائع المصرية » عام ١٨٧٦ م بوصف مسهب لمساكنهم التى كانت عبارة عن حجرات متفرقة بين المزارع ، غير مجتمعة فى مكان واحد . ومن الغريب أن أوسع الحجرات عندهم وأفضلها كانت للحيوانات حيث كانوا يؤثرون دوابهم على أنفسهم . وكانت هذه الحجرات التى يقطنونها تفرش بالطين الممزوج بالتبن حتى يتحجر ، وأما الأسقف فمن الأخشاب الصلبة التى يعالجونها بالطين حتى تتماسك وتمنع تسرب المياه منها . ولا تبقى هذه المساكن أكثر من ثمانى سنوات أو عشر حيث تبلى ولا تصلح للسكنى [1] .

وعند الشلك يسمى المنزل بلغتهم جول (Gol) وهو أصغر الوحدات السكنية والملائمة للحياة الريفية ، ويتكون من كوخين أو ثلاثة يحيط بها سياج وبجواره قطعة أرض . ومن جملة هذه المنازل تتألف القرية أو الحلة . وتوزع المنازل حول فضاء أو ساحة تتوسطها « زريبة » أشبه بكوخ كبير تأوى اليه مواشى القرية أثناء الأمطار [2] . وهنا أيضا نلاحظ مرة ثانية مدى كلف الرجل الشلكاوى ، كما هو الحال عند الدنكاوى ، بالماشية .

ويبدو بصورة عامة مدى حرص الادارة المصرية فى السودان على توفير مياه الشرب للسكان فى بعض أنحاء البلاد ، فكما حرصت من قبل على توفير بعض مواد البناء لاقامة مساكنهم — بالاضافة الى ادراكها أن البيت الصحى مع المياه النقية مؤشر طيب نحو تقدم البلاد اجتماعيا والانتقال من مرحلة متخلفة الى مرحلة أرقى نسبيا — بدأت تعمل على ادخال المياه النقية الى تلك المساكن الحديثة التى نشأت فى كنفها . فقد لاحظ المسئولون بسواكن فى أوائل عام ١٨٦٦ امكانية توصيل المياه الى هذه البلدة بواسطة « البرابخ » من نبع ماء عذب على بعد أربع أو خمس

---

(١) الوقائع المصرية : العدد رقم ٦٦٢ بتاريخ ٢٦ جادى الاولى سنة ١٢٩٣ هـ (١٨ يونية ١٨٧٦ م) .

(٢) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية . ص ١٨٠ .

سباعات منها ، وطلبوا من المهندس الموجـود أن يقوم مع زميل لـه بهذه المهمة (١) • وقد كان مشروع مياه الشرب هـذا يخدم ثلاثين ألف نفس بسـواكن (٢) •

وفى شمالى السودان فى المناطق الكائنة بين كروسكو وأبو حمد تم توفير هذه المياه عن طريق حفر آبار تركب عليها طلمبات يدوية لأن فى ذلك — على حد قول أحد المسئولين — « •• رحمة كبيرة للناس •• » (٣) •
هذا هو شكل وحالة المسكن الذى كان يعيش بداخله المواطن السودانى فى القرن التاسع عشر ويبدو فيه التنوع الشـديد والاتساق الشـديد أيضـا مع البيئة المحيطة به ، بالاضـافة الى أن بعضها كان انعكاسا لمعتقداتهم السائدة بينهم • وأخيرا نلمح آثار — ولا نقـول بصمات — الادارة المصرية واضحة تماما عليها •

٢ — العادات المتعلقة بحياة الأسرة :

(أ) الميـلاد :

من المعروف أن كثرة الأطفال وخاصة الذكور منهـم فى المجتمعات البدائية تلعب دورا هاما فى حياة الأسرة ، ولذلك فاننا نجد حرصا شديدا على الاكثار منهم • فعند قبائل البجة توقد النار أربعين يوما أمام المنزل حين يولد طفل ، وقد تكون المدة أقل من ذلك أو ربما يكتفى أحيانا بايقاد مصباح أمام الدار ، ولعـل هذا الايقاد — كما يقول البعض — للائتناس

(١) دفتر رقم ٥٦٠ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٤ ص ١٨ بتاريخ ١٥ شعبان سـنة ١٢٨٢ هـ • من المعية الى محافظ سواكن • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) دفتر رقم ١٩١٦ — أوامر كريمة — صورة الأمر الكريم رقـم ٣٨ ص ٥٦ • بتاريخ ٥ ربيع أول سنة ١١٨٣ هـ • أمر كريم الى افلاطون بك • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٣) محافظ الأبحاث ، محفظة رقم ١٨ ، دفتر رقم ٣ ، وثيقة بتاريخ ١٧ رمضان سـنة ١٢٨٢ هـ • من شـاهين باشـا كنج محافظ القـلاع وفريق العسكرية • دار الوثائق القومية بالقلعة •

أو كما يزعمون لطرد الجن عن الأم النفساء التى تكون عرضـــة للأذى من هذه الكائنات طوال مدة النفاس (١) .

وعقب ولادة الطفل تخرج بعض النسوة ومعها المشيمة (الخلاص) والخرق الملوثة حتى تصل الى شجرة فتلقى فى وسط فروعها هذه الأشياء وفى خلال ذلك يقمن بترديد أغنية خاصة بهذه المناسبة ان كان المـولود ذكراً ، أما إن كان المولود انثى فيذهبن ويعدن صامتات ، وبهذا الأسلوب يصبح من السهل الإعلان عن نوع المولود دونما أى إعلان آخر ، وبعد ذلك يقوم الوالد بعمل وليمة للجميع . وعقب الولادة بأســبوع يحتفل بتسمية الطفل حيث يؤتى بشاة وتذبح وفى خلال عملية الذبح ينطق باسم الطفل . وقد جرت العادة عندهم ألا يرى الأب طفله إلا بعد مرور ثلاثين يوما من مولده (٢) .

وامتلاك الأطفال لدى الدنكاوى مقدس . ويبـدو هذا الاهتمـام عندهم أثناء ولادة توأمين ، فعندها يجمع الوالد جميع أقاربه من الذكور بحضور أحد الكهنة ويمكن أن يشهد هذا الاحتفال أقارب الأم من الذكور . وتقام الصلوات لالهـم الأكبر (نهيالك) فيذبح عجـل ويمسح ببوله الأبوان والرضيعان ، وبعدها تتم تلاوة دعـاء معين للاله حيث يشكرونه على ما وهبهما ويطلبون منه أن يقبل الذبيح وأن يمنح الطفلين الحياة . وهذه الطقوس تبين لنا حرص الدنكاويين على الأطفال وتدينهم الشديد ، كما انها تبين أيضـا الفرق بينهـم وبين بعض النيليين الحاميين الذين يتخلصون من أحد التوأمين وذلك بقتل أحدهما ظنا منهم أن ذلك يمنح الحياة للطفل الآخـر (٣) .

والطفل الدنكاوى عادة لا يحمل اسما واحـدا طوال حياته ، بـل

---

(١) Clark; Op. Cit. p.7.

(٢) محمد عوض محمد : السودان الشمالى .

(٣) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية . ص ١٦٤ — ١٦٥ .

تتعدد هذه الأسماء طبقا لمراحل عمره ، فمنها ما يحمله أثناء ولادته ، ومنها ما يختاره لنفسه حين يكبر وينتقل الى طبقة السن التى يتبعها . ومن الأمور العجيبة أنه قد يحمل فى احدى المراحل السنية « اسم ماشية » ، فكل طفل يبلغ سن الفتوة يكون له عجل خاص به ويطابق اسمه الجديد لاسم العجل ، وهذه العجول ليست كغيرها بل لها ميزة شكلية خاصة من حيث قرونها ، ومكانتها الممتازة بين أقرانها التى تجعلها تسير فى مقدمة القطيع (١) .

وأما عادة الولادة عند عرب السودان فتبدأ قبل مجىء الطفل حيث يولم الأب وليمة للأهل والخلان لنجاة العروس والجنين من الخطر بعد مضى سبعة أشهر ، ويسمون الولد فى الأسبوع الأول من ولادته ، وغالبا ما يختارون الأسماء الاسلامية مثل محمد وأحمد وعلى وبكر وعثمان وعمر ومصطفى وعبد الله . وللجعليين أسماء خاصة بهم مثل : الريح والزبير والعاقب ومدثر ومزمل ومساعد ، وكذلك فللشايقية أسماء خاصة مثل : طنبل وخشم الموس وعقود . وعند البقارة : حلة وبايلة وكنتوش وشطة وجماع . ولعبيدهم أسماء خاصة نحو : عبد الأسد وعجب سيده ومفتاح الخير وعبد الرجال وبخيت وهلال وألماظ وفيروز ، وللنساء تاج الملوك وبحر النيل ويمامه وبخيته وكعب الغزال . كما كان الأب والأم يكنيا باسم ابنهما البكر أو بنتهما البكر (٢) .

(ب) عادة الختان :

وما أن يبلغ الطفل الحول الأول أو الثانى حتى تجرى له عملية ختان . وتتشابه هذه العملية عند البجة والنوبة والعرب ، وتجرى للأولاد والبنات على السواء ، ولا تختلف عند الأولاد عما يحدث فى مصر . أما ختان البنت فعملية قاسية . وقد وجد نوعان منها ، الأول

---

(١) محمد عوض محمد : المرجع السابق . ص ١٦٤ — ١٦٥ .
(٢) نعوم شقير : المرجع السابق . ج ١ . ص ٢٢٥ .

يسمى بالختان السنى الذى يشبه ما يحــدث فى مصر والثانى : الختان الفرعونى الذى يوشــك أن يكون عملية جراحية ، وتجرى فى الحــون السادس الى الثامن (١) •

والختان الفرعونى ينتشر بين القبائل العربية على طول النيــل من دنقلة الى سنار ، وأما الختان السنى فينتشر بين بادية أهــل الغرب • ولقد حاول حكمدار السودان عبد اللطيف باشا (١٨٥٠ — ١٨٥١ م) أن يقضى على عادة الختان الفرعونية حيث قاص كثيرا من النساء اللائى كن يتولين أمرها إلا انه فشل فى القضاء عليها (٢) •

(جـ) عادات الصبا والمراهقة والشباب :

وعندما يكبر الغلام عند قبائل البجة ويمكنه أن يرعى الغنم يعطى خنجرا واذا بلغ الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة أعطى سيفا ودرقة • ويبدو أنه لا توجــد ثمة فوارق أو نظــام معين لتصنيف المجتمع حسب طبقات السن لدى هذه القبائل البجاوية عند بلوغهم مرحلة المراهقة كما هو الحــال عند بعض القبائل الجنوبية •

ومن عادة الأطفال عند الدنكا أن يتبعوا الشباب أثناء رعى الماشية للتدريب على هذه الحرفة ، كما يتم تعليمهم تدريجيا ، فيبدأون بجمــع فضلات الماشية للوقود ، فاذا كبروا قليلا تعلموا كيف يحلبون البقر ، وفى نحو التاسعة من عمرهم يذهبون بمصاحبة أبيهم الى النهر أو بركة ماء للتدريب على صيد الأسماك . وبعد بضعة أعوام أخــرى يتعلمون أو يشاركون فى صيد فرس النهر • وأما البنات فيتعلمن من أمهاتهن أعمال الزراعة ، ولا يختلط بهن أثناء تلك الأعمــال إلا الأحداث من الأولاد والبنــات •

---

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالى . ص ٤٣ •

(٢) نعوم شقير : المرجع السابق . الجزء الأول . ص ٢٢٦ •

وفى نحو العاشرة تخلع قواطع الطفل السفلى ، وهى مظهر لتنشئة الصبى وانتقاله الى مرحلة الفتوة • وللدلالة على بلوغ مرحلة الفتوة عند شباب الدنكا تجرى له عملية « وشم » فى الجبهة عبارة عن سطرين أو ثلاثة من الندوب ، ويتم عملها بواسطة الرمح ولا يسمح لها أن تلتئم بسرعة حتى يظل أثرها على الجبهة واضحا • ويصحب هذه العملية امتحان خاص للشباب المراد تنشئته فى سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة الى منطقة المستنقعات حيث يعيشون نحو شهر فى العراء أو فى حفر يحفرونها ولا يزود هؤلاء الشباب بالقوت أبدا ، بل يتركون ليحصل كل منهم على قوته بنفسه متكبدا المشاق ، مذللا الصعوبات التى تصادفه بنفسه ، وما أن ينقضى الشهر حتى يعودون الى القرية لتحلق رؤوسهم ، وتنهال على كل واحد منهم التبرعات من آبائهم من ثيران وزوارق ورماح وحراب للصيد وغيرها • وأثناء عودتهم الى القرية يختار هؤلاء الشباب واحدا منهم لقيادتهم ويقوم والد هذا الشاب المختار باحياء حفلة عودتهم للقرية ، وبعدها ينتقلون من قرية الى أخرى فى طابور وراء قائدهم ويمكنهم من الآن فصاعدا محادثة الفتيات وتدريجيا يسمح لهم بالاشتراك فى بعض المعارك • وبهذا يدخل الأولاد أولى مراتب السن التى تختلف مراتبها من مكان لآخر وهى فى الغالب حوالى ست :

١ ــ من ١٥ ــ ٢٠

٢ ــ من ٢١ ــ ٢٦ •

٣ ــ ثم الى الثانية والثلاثين •

٤ ــ ثم الى الأربعين •

٥ ــ ثم الى السابعة والأربعين •

٦ ــ ثم الى ما يتجاوز تلك السن ويدخل فى مرحلة الكهولة والشيخوخة •

ويقتصر الاشتراك فى المعارك على المراتب الثلاث الأولى (١) .

وربما لا نتجاوز الصـواب ان قلنا أن هنـاك لونا من التشابه فى تنشئة الشـباب الدنكاوى بما كان يحـدث عند شباب اسبرطة بيـلاد اليونان قديما حيث كان يربى الفتى هناك على الحياة القاسية الأمر الذى يخلق منه رجلا شديد المراس فى القتال وفى أمور الحياة .

ومن العادات المنتشرة بين الشـباب الشيلكاوى عـدم السماح له بالجلوس فى اجتماع الرجال المسائى فى ساحة القرية ، كما أنه لا يسمح له أيضا بالاشتراك فى القتال أو الزواج إلا بعد الاشتراك فى رقصـة خاصة تعتبر بمثابة اختبار للشبان لاجتياز مرحلة الطفولة والدخـول فى زمرة الرجال . ويختلط الشـباب المراهقون مع الفتيات فى خـلال هـذه الرقصة متبعين نظاما دقيقا فى أدائها (٢) .

ومن العادات المنتشرة بين قبائل عرب السودان والمرتبطة أسـاسا بالفتوة والشـباب عادة « البطـان » فاذا تنافر شـابان لأى سبب من الأسباب طلب أحدهما الآخر للبطان فان رفض عد جبانا وامتنعت البنات عن الزواج منه ، واذا قبـل أخذ كل منهما سوطاً ووقفا تجاه بعضهما يفصلهما سرير (عنقريب) وخلع كل واحد منها ثوبه وتجرد من ملابسه حتى وسطه ، ومن حولهما الناس للشهادة . ويبدأ أحدهما بجلد الآخـر سوطا على ظهره ثم ينتظر حتى يجلده زميله سـوطا وهـكذا يتبادلان الضرب بالسياط ولا يتحركان بل لا يحركان كتفا أو حتى جفنا الى أن يقع أحدهما من شدة الضرب فيحمل الى بيته ويزوره مصارعه ويصالحه ، وهـذه العـادة كانت تنتشر بين العامة ولا يشـارك فيها الخاصـة . وأما أسبابها فهى النساء ، فاذا أحب شـاب فتاة وزاحمه آخر طلبه

---

(١) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية . ص ١٦٦ .
(٢) مصطفى فهمى وآخـر : دراسـات اجتمـاعية ، نفسـية تربوية ص ٨٩ .

« للبطان » وفاز بها الغالب ، وأحيـانا أخرى يكون « البطـان » لمجرد المباهـاه واظهار القوة • وقد يشترك فيه أكثر من اثنين من الشـباب ويكون على ايقاع « الدلوكه » ، فمن أراد البطان يمسك سوطه ويهـزه فوق النساء اللائى يضربن « الدلوكه » قائلا « ابشرن بالخير أنا أخـو البنات عشرة » ويصطف الجميع صفا واحدا ثم يبرز أحدهم فيضرب كل من فى الصف سوطا ويلقى السوط ويعود الى الصف ويأتى شـاب آخر ويأخذ السوط ويفعل فعل الأول وهكذا حتى يأخذ كل واحد منهم نصيبه ضاربا ومضروبا • وقد تعجب احدى الفتيات بشاب من الحضور فتنتزع سوارا من معصمها وتلبسـه اياه فيأخـذ الشاب سوطه ويهزه فـوق رأسها قائلا : « ابشرى بالخير أنا أخو البنـات عشرة » وأن وجـد له منافس من الحضور فى حب الفتاة قام له وتبارزا الى أن يكل أحدهمـا من الألم أو يهتز كتفه فيفوز الآخر بقلب الفتاة (١) •

عـادات الـزواج :

(أ) عنـد البجـة :

تكاد تتشابه عادات الزواج فى أمورها الرئيسية عند البجة والقبائل العربية ، فأبناء العمومة أو الخؤولة مفضلون دائما ، ولا يعطى الرجـل ابنته لزوج غريب إلا بعد استئذان أقاربها ممن يصلوا للزواج ، ويحدد الصداق وفقا للعرف السائد •

وتبدأ الخطوبة عند البجة بتقديم الخطيب هدية من البن والسكر أو بعض الماعز ، وهذه الهدية ترد اليه ان رفض طلبه ، وعنـد الموافقة يقدم الصداق الذى يقضى به العرف • وتهدى للزوج والزوجة ناقـة عشراء فى مسـتهل حيـاته الزوجية • ومن العـادات التى تعبر عن التكافل الاجتماعى لدى البجـة أثناء الزواج قيام نسوة الحى ببنـاء

(١) نعوم شقير : المرجع السابق ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

منزل الزوجية الجـديد ، ومن العـادات المرتبطة بهذا البناء وجـود طبق بجوارهن وبه كمية من التمر ، تقـدم لكل رجـل يمر بهـن فاذا تنـاول بعضا منه اضطر لأن يقدم هدية ، وتجمـع الهدايا التى تحصل بهذه الوسـيلة وينتفع بهـا فى عمـل وليمة العرس • ومعظم رجـال الحى يعرفون هذه العـادة فيحذرون من الاقتراب من المكان الذى يشاد فيه بيت الزوجية الجديد (١) !

(ب) عند القبائل العربية :

ومن الأمور المشهورة عندهم فى الزواج صغر سن المتزوجين سواء من الذكور أو الاناث • ولابد للخاطب أولا أن يرى خطيبته ولو بالحيلة ، فاذا أعجبته عمل على استرضاء أهلها وخصوصا والدتها التى تلعب الدور الرئيسى فى قبول الخاطب ورفضه • وتشير احدى الوثائق فى عام ١٨٦٧ بأن شخصا أراد الزواج باحـدى الفتيات وبعث الى والدتها برسـول لطلب يدها ولكن الأم رفضت ذلك متعللة بغياب زوجها الأمر الذى دعا الخاطب الى أن يسارع الى بيت من أراد خطبتها لقتلها بسبب رفض الأم قبـوله خطيبا (٢) •

وكانت المهور فى السودان ابان القرن التاسع عشر مرتفعة جـدا لدرجة أنها بلغت أحيانا خمسمائة ريـال وعشر أبقـار وعشرة جمـال وأربعين رأسا من الغنم • وهذه المسألة دعـت بعض الحكمداريين الى التدخل فورا لوضع حد لهذه المسألة فنادى أحمد باشا أبو ودان وغيره بتخفيض المهور والحض على الزواج سعيا وراء زيادة عدد السكان فى البلاد وبالفعل أتت هذه الدعـوة ثمارها ، وأصبحت المهور ما بين خمسة وسبعين قرشا ومائة وخمسين قرشا (٣) •

---

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالى . ص ٤٦ .

(٢) دفتر رقم ١٩٢٣ — أوامر عربى — صـورة الأمر الكريم رقـم ٩ ص ٦٧ بتاريخ ٥ محرم سنة ١٢٨٤ هـ . أمر كريم الى حكمدارية السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) أحمد أحمد سيد أحمد : رفاعة الطهطاوى . ص ١٢٩ .

وتجـدر الاشارة الى أن القبائل العربية السودانية تحترم النسب جدا وتنزله المنزلة الأولى فى زواج بناتهم ، فهم يفضلون زوجا ذا نسب لا يملك شيئا ، ولا يزوجون رجلا ثريا لا نسب له ، ويتضح ذلك بجلاء اذا حل بأرضهم رجل ذو نسب يرجع الى النبى (ﷺ) أو الصحابة زوجوه بناتهم بلا مهر • وهم أيضا يجلون رجال العلم ويزوجونهم بلا مهر أيضـا (١) •

وعند الاتفاق على المهر يكتبون وثيقة الزواج ويعينون موعدا لحفل الزفاف وقبل حلول هذا الموعد بأسبوع يعد العريس الذبائح وشيئا من الذرة والروائح العطرية والأكسية للعروس وماشطتها « ووزيرتيها » وأقاربها ، وتحمل هذه الأشياء فى أطباق مغطاه الى بيت العروس مصحوبة بالطبـول والزغاريد •

وأما استعداد أهل العروس فيتمثل فى عزل العروسة بمكان منفرد حيث تسلم للماشطة لتمشط شـعرها وتطيبه وتلبسها أفخر الثياب • وأما العريس أيضا فيلبس أفخر الثياب الجديدة المعدة لهذه المناسبة • وفى الليلة المعينة للدخـول يجتمع أهـل العريس وأصـدقاؤه وأهـله بمنزله ويزف على فرس الى بيت العروس مصحوبا بالطبول والرقص • وهناك تفاصيل كثيرة حول هذه المناسبة يحرص السودانيون عليها تمـاما فللعروس « وزيـران » أيضا ، كما أن العريس يقيم بمنزل العـروس مدة تطول أو تقصر حتى تنجب له (٢) •

(جـ) عند النوبيـين :

وللنوبيين عادات فى الزواج تتفق مع ما سـبق ذكره فى الخطـوط الرئيسية وتختلف فى التفاصيل ، فعندهم اذا وصـل العريس الى بيت

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق ، ص ٢١٢ •
(٢) نفس المرجع ص ٢٢٤ •

العروس تقـام وليمة ويعقد القران ، ثم يأتـون بالعريس الى غرفة العروس فيجد الباب موصدا وأمامه رجل يمنعه الدخـول حتى يعطيه شيئا من المال وعند الدخـول مع رفاقه ترشهم امرأة من أهل العروسـة بالمـاء ويصلى العريس ركعتين ثم يتقـدم الى العروس ملامسا جبهتها بيده ثم يقبل يده ويجلس بجوارها نحو ربع ساعة ، ثم تؤخـذ العروس الى غرفة أخرى ويبيت العروس بمفرده حتى الفجر ، ثم ينزل الى النيل مبكرا ويعود ومعه غصن أخضر ويدخل الى غرفة العروس ويضربها به ويعود الى غرفته حيث يجتمع مع بعض أقاربه • وبعد سبعة أيام على هذا الحال يؤتى بالعروس رسميا الى غرفة العريس • وتختلف قليلا بعض هذه التفاصيل فى هذه المناسبة من مكان لآخر فى بلاد النوبة • وعمـوما يبقى العريس فى منزل عروسته شهرا أو أكثر حسب الاتفاق ثم يذهب بعد ذلك معهـا الى منزله • ولا تنطـق الزوجة باسم زوجهـا الى أن تمـوت (١) •

وفى جهات بربره وهرر حدث نوع من التزاوج بين المصريين وسكان تلك الجهات ، وكان معظمهم من الضباط والجنود (٢) • ويرجع السبب فى ذلك الى حسن المعاملة التى كان يلقاها الأهـالى من هؤلاء الجنـود والضباط ، والتحـول الخطـير الـذى بدأ فى أوضاعهم الاقتصـادية والاجتماعية منذ أن امتدت الادارة المصرية الى تلك الجهات فأنس هؤلاء الأهالى اليهم ووجدوا ان الاصهار اليهم فيـه مكانة اجتماعية رفيعـة لهم خاصة وأن الجميع يدينون بالاسلام •

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق • ص ١٩٧ •

(٢) انظر : الوثائق الافريقية ـ محفظة رقـم ١٠٣ وثيقـة بتاريخ ٣ ذى القعدة ١٢٩٣ هـ •

انظر ايضا : محافظ بربره ـ قيد الاشهادات ـ محفظة رقـم ٣٨١٥ (قـديم) ١٢٠ (مؤقت) ـ الفترة من « ١٢ ربيع الأول سنة ١٢٩٣ هـ ـ ٢ صفر سنة ١٢٩٨ هـ » . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(د) عند أهل دارفـور :

كان من الأمور المعتـادة فى دارفور خـلال القرن التاسع عشر ان الشبان إناثا وذكرانا ينشئون جميعا فى صغرهم فيقومون برعى الأغنام ومن ثم يجتمعون معا ولا حجاب بينهم الأمر الذى يؤدى الى حـدوث شىء من المـودة بين الفتى والفتاة ، حتى يبعث بأبيه أو أمه أو أحـد أقاربه لخطبتها فاذا تمت الموافقة حضر الناس والشهود لاتمام العقـد ووضع الشروط الكثيرة التى تتضمن أموالا باهظة تذهب كلها الى بيت العروسة ، بينما لا يعقدون لها إلا على شىء رمزى من هذه الأموال . وبعد اتمام العقد يتركون الأمر لفترة طويلة جدا حتى يتشاوروا ويتفقوا على تحديد ميقات معلوم لاتمام الزفاف .

ويتوافد الناس من كل جهة أفواجا وتجرى لكل فوج مقابلة خاصة بالطبول ثم تقدم لهم الأطعمة والمشروبات كل حسب مقامه وتجـرى بعد ذلك بعض الرقصات المتنوعة يشترك فيهـا الرجال والنساء . فهنـاك رقصة « الدلوكة » حيث ترقص النسـاء الجميلات من بنات الأكابر . وهناك رقصة « الجبل » لأواسط النساء وأمثالهن من الشبان وهناك أيضا رقصة « اللنقى » لمن دونهن . وحتى العبيد لهم رقصات خاصة بهم (١) .

هكذا يبدو التمايز الاجتماعى واضحا بين القـوم خـلال حفلات الزواج ، ولا يمكننا أن ننفى تمـاما حدوث مثل هـذا فى مجتمع كانت تنتشر فيه تجارة الرقيق ويتنوع سكانه تنوعا شـديدا ، كما أننا فى نفس الوقت لا نستبعد المبالغة النسبية فى وصف مثل هذه الحفلات ، فمن الطبيعى أن يختلف أسلوب المقـابلة من شخص لآخـر ، كمـا انه من الطبيعى أيضا أثناء الرقصـات أن يميل كل شخص الى من يجـد فيه صفات مماثلة لصفاته . وهذه الأمور لازالت حتى الآن وان كانت تأخـذ شكلا آخـر .

---

(١) محمد بن عمر التونسى : المرجع السابق : ص . ٢٢٩ — ٢٣٤ .

وعقب هـذا الحفـل الذى يتخـلله الأكل والشرب تزف العروس بالدلوكة ويطوفون بها حـول البلد ثم يأتون بهـا الى بيت الزوجية • وكذلك الحال بالنسبة للعريس الذى يزف من جانب رفاقه الشبان حتى يأتون به الى المنزل الذى وصلته العروس من قبل • ويوجد فى عـادة الزواج عند الفور ما يسمى أيضا بالوزير بالنسبة للعريس و « الميرم » بالنسبة للعروس وهى تقابل كلمة الوزير •

وهناك تفاصيل كثيرة لطقوس الزواج عندهم ، إلا أن أهم ما يجب الاشارة اليه فى مسألة الزواج أن أهل الزوجة محترمون بصورة كبيرة لدى العريس فأمها كأمه وأبوها كأبيه واخواتها كاخوته (١) •

ويبدو التكافل الاجتماعى واضحا فى عادات الزواج عندهم ، فكل جماعة من الجماعات المدعـوة لهذا الحفـل تأتى اما ببقرتين أو ثورين أو بشياه اعـانة لصاحب الوليمة (٢) ومن عاداتهم أن العريس لا يفتض عروسه إلا بعـد سبعة أيام كرامة لها ولأبويها • كـذلك فقد رسخت لديهم عادة أن الرجل لا ينفق على زوجته بعد الزفاف إلا بعـد مرور سنة ، فان جاء بشىء قبل السنة فهو فهو على سبيل الهدية (٣) •

وعلى وجه العموم فسكان دارفور يفضلون الزواج الباكر كسـائر السودانيين ويمكن أن تصل زوجاتهم الى أربع نساء • ومن عادة بعض القبائل فى الأطراف بغرب دارفور « كالقمر » و « المساليط » الذين لم يدخلوا الاسلام أن يلتقى أبناؤهم وبناتهم فى الخلاء أثناء رعى مواشيهم ويقيمون قرى صغيرة ويعيشون فيها عيشة الأزواج ما يقرب من سـنة حتى اذا حملت منه زوجته كتبوا عليها وإلا فصلوها عنه (٤) •

---

(١) التونسى : المصدر السابق • ص ٢٣٤ •
(٢) نفس المصدر ص ٢٤١ •
(٣) نفس المصدر ص ٢٤١ •
(٤) نعوم شقير : المرجع السابق ، الجزء الاول ، ص ١٩٤ •

(هـ) الزواج عنـد الجنوبيين :

أول ما يلفت انتباهنا فى عـادات الزواج لدى الدنكا أن الرجـل لا يسمح له أن يلتمس زوجته فى العشيرة المنتمى اليهـا ، ولا يجـوز له أيضا أن يقترن من امرأة تمت بصلة القرابة الى والدته فهـذا الزواج فى تقديرهم من المحرمات بل من الكبائر التى تجلب غضب أرواح السلف (جـــوك Jok) والتى ينتج عنها موت الأطفال أو عقم الزوجـات بالاضافة الى الوبال والدمار ، وبطبيعة الحال فان مثل هـذه المخـلوف لا يمكن أن تحدث وهذا يرجع الى تمسك هذه الجماعات البدائية بالعادات والأعراف المقدسة التى لا يمكن أن يحيد عنها أحـد • ولو فرض وحدث خروج عن تلك العـادة فالعرف يقضى على الرجـل أن يقدم فدية من أربعة رؤوس من الماشـية ويمسح جسـد الآثمـين ببعض السـوائل المستخرجة من بطن الذبيحة (١) •

ولا نريد أن نسارع لنقول إن العلم الحديث قد توصل أخيرا الى ما عرفته جماعة الدنكا من خطورة الزواج بالأقارب والذى تنتج عنـه ذرارى ضعيفة من كل النواحى ، ولكن تفسير هذه الظاهرة لا يعـدو أن يكون مجرد عادة تناقلها الخلف عن السلف وأصبحت جزءا من تكوينهم الدينى حافظوا عليها على مر الأيام •

ومن العادات التى تسبق الخطوبة عندهم أن يذهب العريس بنفسه بصحبة جماعة الى بيت العروس ويلتمسون بعض التبغ ليدخنوه ، فتذهب العروس وتطلب هذا التبغ من أبيها فان أعطاها اياه فهذا علامة الرضـا ثم يأتى دور الأبوين للاتفاق على المهر الذى يختلف من قبيلة الى أخرى ، فالقبيلة الثرية بماشيتها قد يصـل المهر عندها الى خمسين رأسـا من الماشية معظمها من البقر ، بالاضافة الى بعض الغنم والماعز ، وعند سكان

---

(١) محمد عوض محمد : الشـعوب والسلالات الافريقية ص ١٦٠ — ١٦١ •

المستنقعات لا يزيد المهر على خمسة رؤوس من الماشية حيث المراعى محدودة عندهم ، وقد يقدم الخطيب زوجا من الأسنة التى تستخدم فى صيد فرس البحر ، وبعضا من السمك ودهان فرس البحر . وفى بعض الحالات يجوز تأخير دفع جزء من المهر ولا يكون سببا لتأخير الزواج . وعند جماعة « الحدادين » يتألف المهر فى معظمه من أقراص الحديد . ولا يحتفظ والد العروس بالمهر بل يوزعه على أقارب الفتاة من الذكور ويستبقى منه فقط بقرة أو بقرتين ، وقد يدهش البعض لذلك ولكن قد تزول الدهشة إذا علمنا أن هؤلاء الأقارب يتعاونون فى دفع مهر الشاب عند زواجه ، فلذا كان من الضرورى أن يتقاسموا مهر الفتاة . لذلك فقد كان رد المهر عملا شاقا الأمر الذى ترتب عليه ندرة شديدة فى حالات الطلاق عند الدنكا . وفى ليلة الزفاف يذبح ثور وتقام حفلة رقص يشهدها شباب القرية ولا يشارك فيها العريس ، أما العروس فتشارك فيها وفى نهايتها تزف الى عريسها (١) .

ومن عادات الزواج الغريبة عند الدنكا أنه اذا توفى شاب دون أن يتزوج فلابد لأخيه أن يتزوج بالانابة عنه ، قبل أن يتخذ لنفسه زوجة ، فالزواج عندهم أمر لا يحرم منه المرء حيا أو ميتا ، وهذه الزوجة فى عرف المجتمع زوجة الأخ المتوفى وأولادها أولاده ، وقد تفسر هذه العادة بما عرف عند الدنكا بتمجيد أرواح السلف (Jok) وتقديسهم إذ لابد للرجل — عندهم — أن يكون له نسل يمجدوا روحه حتى لا تظل الروح — فى اعتقادهم — ثائرة وناقمة عليهم (٢) .

ولا تختلف عادات الزواج كثيرا عند الشلك فى جنوب السودان عن جماعة الدنكا ، فالزواج عندهم يرتبط بعملية « شراء الفتاة من أبويها » . وعادة ما يذهب والد العريس الى والد العروس ليسأله عن عدد الثيران

---

(١) محمد عوض محمد : المرجع السابق . ص ١٦٣ — ١٦٤ .
(٢) نفس المرجع . ص ١٦٣ — ١٦٤ .

والأغنام التى يرتضيها فى عملية مبادلة ابنته واذا ما اتفقا على الثمن يحضر العريس الثيران (١) .

ولابد للعروس أن تخبر زوجها ان كانت عذراء ، واذا حدث أن زنا بها أحد ، فانها تأتى فى اليوم التالى لزواجها وقد وضعت على رأسها كتلة من الأعشاب ، ثم تركع أمام زوجها معترفة له بذنبها ، فيأخذها الى الزعيم لمعرفة الزانى ومحاكمته طبقا لوسائله التى تقضى غالبا بأن تدفع الآثمة عددا معينا من الثيران (٢) .

وقد عرف الشلك نظام تعدد الزوجات ، طالما أن الرجل قادر على متطلبات الزواج من البقر المطلوب ، وليس لديهم تقيد بعدد معين من الزوجات ، ولا تعترض الزوجة على هذا الأمر . ففى اعتقادهم أنه كلما كثرت زوجات الرجل فان ذلك يساعد على أن تكون له أسرة كبيرة يعاون بعضها بعضا (٣) .

ولا تختلف مراسم الزواج عند قبائل البارى كثيرا عن الدنكا والشلك إذ يتألف المهر عندهم من الماشية أيضا ، ولكن ثمة أشياء عندهم فى هذه الناحية نود أن نشير اليها ، فرجال البارى العاديون لا يتزوجون إلا بأمرأة واحدة بعكس ثراتهم الذين يتزوجون بأكثر من واحدة . وعندهم أن الفتاة أفضل من الفتى ، لأن البنت عند زواجها تجلب لأهلها مغنما كثيرا من الماشية ، أما الولد فعلى العكس من ذلك تماما ، فزواجه يكون مدعاة لنقص ثروتهم من الأبقار والثيران (٤) .

وفى ختام حديثنا عن مسألة الزواج فى السودان نود أن نشير

---

(١) Gessi; Op. Cit. pp. 32 - 33.

(٢) Ibid. p. 33.

(٣) مصطفى فهمى وآخر : دراسات اجتماعية . ص ٧٣ .

(٤) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء ، الجزء الثانى ص ٥٦ .

الى ظاهرة جديدة أوجدتها الادارة المصرية فى تلك البلاد ، وخاصة فى شرقى السودان وجنوب ساحل البحر الأحمر ونعنى بها قيد الاشهارات الزواجية ، وايداع صورة من كل وثيقة زواج بالمحكمة التابع لها الفرد (١) •

الطلاق :

من الأمور التى تقترن عادة بالزواج مسألة الطلاق • وينبغى أن نشير الى ملاحظة عامة تتعلق بالطلاق فى المجتمع السودانى ، وهى قلة أو ندرة حدوث حالات طلاق بين سكانه ، ومرد ذلك — فى تقديرنا — الى أن معظم الزيجات التى تتم تكون من داخل القبيلة الواحدة التى تجمع بينها أواصر القربى والجوار ، بالاضافة الى « الاصهارات المتبادلة » — ان جاز هذا التعبير — فيما بين أبناء القبيلة ، والتى يستحيل فيها الطلاق ، فلو فرض أن طلق زوج زوجته ، ففى الحال سوف تلقى أخته نفس المصير • ويمكن أن نضيف سببا أخيرا لندرة حالات الطلاق وهو شدة تمسك هذا المجتمع بتعاليم الاسلام وفهمهم إياه فهما صحيحا ، فعلى الرغم من « ترخيصه » للطلاق بشروط ، فهو يعتبر أبغض الحلال عند الله •

ومع ذلك كله فقد تتعذر الحياة بين الزوجين ، ويعالج البجاه هذه الحالة طبقا للعرف السائد بينهم حيث عرفوا عادة خاصة تسمى « التعليق » أى يطلق زوجته بشرط يفرض عليها ، ولا يجوز لها أن تتزوج برجل آخر حتى تستوفى هذا الشرط ، فان لم تستطع الوفاء تظل معلقة ،

---

(١) محافظ بربره « عربى » — قيد الاشهارات بمحافظة بربره . دفتر رقم ٣٨١٥ (قديم) ١٢٠ (مؤقت) — ص ١ « ١٢ ربيع اول سنة ١٢٩٣ هـ — ٢ صفر ١٢٩٨ هـ » دار الوثائق القومية بالقلعة .

ومن أمثلة الشروط عدم الزواج من رجل يشك فى أنه عشيقها وأنه كان سببا فى فساد الزيجة الأولى (١) .

ويجوز الطلاق عند سكان الجنوب والنيليين بوجه عام ، ويرجع سبب الطلاق عند الدنكا الى العقم ، فاذا مضت سنتان أو ثلاث ، ولم تنجب الزوجة جاز الطلاق ، وهنا ينبغى أن ترد الى الزوج الماشية التى قدمها مهرا لها بالاضافة الى « العجول » التى أنجبتها فى تلك الفترة . وأحيانا ان كان الزوج فى سعة من العيش احتفظ بزوجته الأولى وتزوج بأخرى ، فتعدد الزوجات ـ كما ذكرنا ـ ليس ممنوعا عندهم وان كان نادرا لعدم استطاعة الكثيرين امتلاك أعداد وفيرة من الماشية . وفكرة الطلاق عند الدنكا واردة عندهم منذ بداية الزواج ، والدليل على ذلك ان الزوجة تبقى فى منزل أبيها حتى تنجب أطفالا ويثبت لزوجها بصورة لا تدعو للشك مقدرتها على الانجاب . والطلاق عند الدنكاليس من حق الزوج فقط ولكن يجوز أن يكون من جانب الزوجة أيضا ، حيث تمتنع عن معاشرة زوجها أو تترك منزله عائدة الى أبيها ، وفى كلا الحالين يرد المهر للزوج . كما يحدث الطلاق أيضا اذا هربت الزوجة الى رجل آخر (٢) .

وفى عام ١٨٧٣ وردت الى « مجلس الاحكام » بمصر شكوى من السودان تتعلق بطلب بعض النسوة للطلاق من أزواجهن الذين تركوا السودان منذ سبع سنوات وعشر سنوات ، ولما كان يخشى عليهن من « الأمور غير المرضية » ، وعدم استطاعتهن الانفاق فقد طلبن الطلاق والفتوى شرعيا فى هذا الأمر حيث ان مذهب المالكية يقر بجواز هذا الطلاق (٣) . وهكذا يتبين لنا من هذه الشكوى أن هذا الطلاق كان

---

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالي . ص ٤٧ .
(٢) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات . ص ١٦٣ .
(٣) دفتر رقم ١٨٦٠ معية عربى ـ صورة المكاتبة رقم ٨ الصادرة من المعية السنية الى مجلس الأحكام بتاريخ ٧ جمادى الثانية سنة ١٢٩٠ هـ ـ ص ٨٥ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

ضروريا حتى لا تشيع الفاحشة فى المجتمع ، وحتى يمكن لمثل هؤلاء النسوة أن يجدن من ينفق عليهن ، خصوصا وأنه قد مضت على غياب أزواجهن سنوات طويلة ، وربما يكون فى مثل هذه الحالة رد على أولئك الذين يرمون المجتمعات الاسلامية — من خلال مسألة الطلاق — بالتأخر فأيهما أفضل أن تترك هذه النساء طوال حياتهن يعشن على أمل عودة أزواجهن أم يجدن حلا كريما يصون عفتهن ويحفظ للمجتمع تماسكه ، وهو ما فعله الاسلام حيال هذه القضية ؟ كما يتبين لنا كذلك من خلال هذه الوثيقة ان الادارة المصرية كان لديها الاتجاه الى رعاية أبنائها السودانيين وتماسكهم الاجتماعى رغم ما يشاع لدى كثير من الدارسين ان الحكم المصرى فى السودان كان هدفه الرئيسى استغلال السودان اقتصاديا وحسب •

مركز المرأة :

وما دمنا قد تحدثنا عن مسألتى الزواج والطلاق فينبغى أن نشير الى مركز المرأة فى المجتمع السودانى • والمرأة فى المجتمع البجاوى تلعب دورا هاما فهى التى تقوم بعمل المسكن وتقويضه كما سبق أن ذكرنا ، كما أنها تقوم ببعض الصناعات كنسج الشملات من صوف الغنم أو وبر الابل ، وفى موسم الأمطار فى الخريف تقوم بصنع السمن من الألبان المتوفرة فى هذا الوقت من السنة • وقد كان للمرأة فيما مضى فى الميراث مكانة واضحة إذ كان الولد يرث خاله وهذه العادة كانت منتشرة بين كثير من القبائل الحامية • وقد غير الاسلام هذه العادة عند البجاه فأصبح الأبناء يرثون آباءهم ، وقد صحب هذا التحول حرمان النساء من الميراث تماما لأن المرأة — فى نظرهم — اذا ورثت انتقل ما تحصل عليه من الإرث الى قبيلة أخرى • وهذه العادة تنقص من حقوق المرأة

عند البجة ، وقد ظهرت لـدى الأمرار دعوة تنادى بأن هذا الاجـراء مخالف للشريعة (١) .

ومع ذلك كله فتجدر الاشارة الى أن الزوج البجاوى يكن لحمـاه وحماته احتراما شديدا لدرجة أنه لا يستطيع أن يجلس فى حضرة الحم أو الحمـاة (٢) .

وأما نسوة القبائل العربية على وجه العموم فمر فهات ومدللات الى حد كبير ، فقلما تقوم المرأة عندهم بأعمال المنزل المعتـادة فى بيتها من طحن وخبز وطبخ وغسل ، فكل هذا منوط بالجوارى ، وخصوصا مسألة الغسل فانه من أكبر المصائب على المرأة أن تضطر الى غسل ثياب زوجها . ويبدو أن عزوف المرأة عند هذه القبائل عن أداء مثل هذه الأعمـال يعود الى كثرة الجـوارى فى ذلك الوقت وسـهولة تداولهـم بحيث ان خلو أى منزل منهم للقيـام بهذه الأعمال يعد من الأمور المعيبة فى المجتمع السودانى آنذاك خاصة وأن هذه الأعمال قد ارتبطت الى حد كبير بهؤلاء العبيد ، بالاضافة الى شعور المرأة فى هذه القبـائل العربية بأنهـا من سلالة أرقى الأمر الذى يتطلب أن يقوم آخـرون بخدمتها فى بيتها وأن دورها الأساسى ينحصر فى عملية التربية فقط . وقد وصـل تدليل المرأة عندهم الى حد أنه اذا دخـل زوجها المنزل وكانت جالسة أو مضطجعة فانها لا تتحرك من مكانها ، وإذ طلب حاجة أمر بهـا الخدم أو قضـاها بنفســه (٣) .

وليس معنى ذلك الانتقاص من مكانة الرجل بل هو شىء من الدلال والاحترام لهذه المرأة ولعل هذه الأمور أقرب الى ما نشاهده فى سلوك المجتمعات الأوربية المعاصرة التي تدعو الى تقديم المرأة على الرجل فى

---

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالى . ص ٤٥ .
(٢) نفس المرجع . ص ٤٧ .
(٣) نعوم شقير : المرجع السابق ، ص ٢٢٧ .

الحفلات والمناسبات ، وتحتم أن ينهض الرجل واقفاً اذا صافح امـرأة ولا تنهض المرأة اذا صافحت الرجل .

وكما كانت الحماه فى المجتمع البجاوى تلقى احتراما شـديدا من لدن زوج ابنتها ، فقد حظيت أيضا فى مجتمع القبيـلة العربيـة بنفس الاحترام ، وأعظم قسم عند بعض الرجـال ما كان مقرونا « بنسيبته » (حمـاته) ، فان قيل للرجـل « ونسيبتك تقضى لى حاجتى » وجب عليه بذل كل جهده لقضائها (١) .

والنساء السودانيات من هذه القبائل العربية لا يجلسن مع الرجال إلا اذا كانوا من أقاربهن المقربين ، واذا طلبت احداهن الى مجلس رجال تلثمت بثوبها ولا يظهر من وجهها إلا عيناها وتجلس ناظرة الى الأرض متحدثة بصـوت منخفض ، واذا زارها رجـل فى منزلها كلمته من وراء جدار ، وان مرت بمجلس رجال خلعت نعليها وغطت وجهها ، أما الجارية فتخلع نعليها وتكشف رأسها ، واذا حدث ان كان الرجـال جالسين فى صفين على جانبى الطريق فلا يمكنها أن تمر فى الوسط حتى يقوم فريق منهم الى الجانب الآخر أو تعود ، وان كانت راكبة ترجلت (٢) .

وهناك اتهـام للجمليين وبعض سـكان منطقة الجـزيرة باقتنـاء الجوارى للفحشاء والانتفاع بكسبهن من هذا السبيل ، ولكن التفسـير الأقرب للصواب هو أن بعض الأغنيـاء فى تلك المناطق ممن زاد عـدد عبيدهم وجواريهم عن خدمتهم بعثوا بهم فى طلب الرزق من أى عمـل مشروع ، وفرضوا على كل واحد منهم مبلغا محـددا فى اليوم وهـذه الأعمال كانت تتمثل فى الطحن والخبز والطبخ فى الأسواق ، ولكن الكثير من الجوارى قد يغلب عليهن الكسل وحـب الرزيلة فيرتكبن الفحشـا ، ويدفعن لأسيادهن المبالغ المطلوبة مفضلات أقصر الطرق وأسهلها .

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق ص ٢٢٧ .
(٢) نفس المرجع ص ٢٣١ .

ولم تكن الادارة المصرية بالسودان لتقبل شيوع الفاحشة فى البلاد وكانت تضرب بشدة على مرتكبيها من النساء والرجال ، وقد وصل حد العقوبة فى احدى قضايا « الزنا » الى القتل والجلد والنفى لخارج البلاد فى محاولة لاجتثاث جذور تلك المسائل التى تهدد كيان المجتمع ولم تكتف بمعاقبة أطراف الواقعة بل امتدت العقوبة الى المسئولين الذين كان تراخيهم سبيلا الى وقوع مثل هذا (١) .

ولقد تبوأت النساء فى دارفور مركزاً مرموقا — فيما عدا الحروب — وكن يتدخلن فى سائر الأمور ، الأمر الذى حدا بالبعض الى القول « ان عرسا لا يتم إلا بهن أو حسونا كذلك » (٢) . ولقد شارك بعضهن ولا سيما غير العربيات فى حلقات الأذكار . ويفرح أهل دارفور كثيرا بولادة الاناث أكثر من فرحهم لمقدم الذكور نظرا لما تجلبه الانثى من ماشية كثيرة عند زواجها ولذا شاع فيهم قول مشهور « ان الانثى تملأ الزريبة خيرا والذكر يخربها » (٣) .

والمرأة فى جنوب السودان وخاصة عند الشلك مثقلة بالأعمال فهى تساعد الرجل فى بعض أمور الزراعة ، كما تقوم بجلب الماء لمسكنها وذلك بحملة من أماكن بعيدة ، بالاضافة الى القيام برعاية أطفالها واعداد الطعام ، كما تسهم الشلكاوية فى بناء المنزل واصلاحه (٤) .

ولنساء الدينكا ولع شديد بأمور الزينة ، فالموسرة منهن من تتحلى فى جيدها ويديها ووسطها بالكثير من الحلى التى كان أكثرها من معدن

---

(١) محفظة رقم ٥ أوامر للجهادية — ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٤ اصلى ورقم ٢٥٧ مسلسل ، بتاريخ ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٧١ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) التونسى : المصدر السابق . ص ٢٤٥ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٢٥ .

(٤) مصطفى فهمى وآخر : المرجع السابق . ص ٥٥ .

الحديد بالاضافة الى أساور من سن الفيل • وكلما كثرت زينتها دل على عظم مكانها الاجتماعى بين أهلها (١) •

وفى الأجزاء التى ضمت أخيرا للادارة المصرية وخاصة فى هرر كان للمرأة مكانة مرموقة وكلمة نافذة على الرجال لدرجة أن البعض يشبههن بالنساء الأوربيات من حيث الحرية الكبيرة التى تمتعن بها لدرجة أن الواحدة منهن — كما يقال — اذا أمرت زوجها بشىء لا يمكن أن يخالفها • ومع ذلك كله فهن متعاونات مع أزواجهن فى الحياة المعيشية ، فالواحدة منهن تخرج الى السوق لتبيع وتشترى خاصة أوراق البن أو القات الذى يرسله اليها زوجها من البستان ولذلك فقد شاع عندهم أن الرجال زراع والنساء تجار (٢) •

وهكذا يتبين لنا من تتبع مركز المرأة فى السودان أن وضعها الاجتماعى كان محكوما بعادات وتقاليد مجتمعها الصغير الذى كانت تحيا فيه ، فهى عند البجة مشاركة له فى اقامة مسكنه وعند القبائل العربية نراها تتمتع بمركز كبير داخل أسوار بيتها وقد سخروا لها الجوارى لخدمتها ، وهى عند الجنوبيين تعيش حياة الرجل الخشنة فى المزارع بالاضافة الى أعمال البيت التقليدية ثم هى فى هرر تتمتع بحقوق واسعة ، ولكننا أحيانا نرى خروجا عن القاعدة العامة التى كانت تتحرك فى خلالها المرأة السودانية والتى كانت تمنعها من الاختلاط بالغرباء ، ففى عام ١٨٥٢ نلاحظ احدى كبار السيدات فى الخرطوم السلطانة (نصرة) ابنة آخر ملوك سنار تحتفى بالرحالة الأمريكى « تايلور » خلال مقدمة

---

(١) الوقائع المصرية — سياحة شوينفورت فى افريقيا • العدد رقم ٦٦٠ بتاريخ ٩ جمادى الأولى سنة ١٢٩٣ هـ • (الموافق اول يونية ١٨٧٦) •

(٢) جريدة أركان حرب الجيش المصرى : العدد رقم ٥ بتاريخ غرة رجب سنة ١٢٩٤ هـ • ص ٣٩٧ •

الى المدينة وتقيم له حفـــل عشاء ، وتدعو اليه نائب القنصل النمساوى ولفيفا من صحبة وتقدم لهم الهدايا (١) .

عادات وتقاليد أثناء الوفاة :

كان من الطبيعي ، بعد أن تحدثنا عن العادات والتقاليد المرتبطــة بالولادة ومراحــل العمر المختلفة وما ارتبط بها أيضا من عادات وتقاليد مـــرورا بمرحلة الزواج وانتقـــالا منهـــا الى مركز المـــرأة فى المجتمع السودانى ، أن نصل الى مرحلة وفاة الشخص لنطالع عادات وتقاليـــد مرتبطة بها ، فعند البجة يدفن المتوفى فى حفرة ويهال عليه التراب ، وتغطى الحفرة ، أحيانا ، ببعض الحصى الأبيض والأســـود عقب قراءة بعض الآيات والتسبيحات . ويحتفل بذكرى المتوفى ثلاث مرات ، الأولى بعد أسبوع من وفاته والثانية بعد أربعين يوما والثالثة بعد حول كامل وبــه ينتهى الحـــداد . وفى حالة وفاة شخص عظيم يستمر العـــزاء لمـــدة أطول قد تصـــل الى ســـنة كاملة حتى تحضر كافة القبـــائل الموزعة فى الصحارى حيث أنه من المتعسر أن تعلم كافة القبـــائل فى وقت واحـــد ، وغالبا ما يأتى هؤلاء ومعهم الهدايا من الابل والنقـــود لأهل المتوفى .

ومن عادات الأمرار أن أقرب الناس الى الفقيد يحرم على نفسه أن يجلس على فروة اذا ركب بعيره . ويرتبط بالوفاة عادة دق الطبول « النحاس » ، ولا يدق الطبل إلا فى ثلاث مناسبات : الأولى بعـــد وفاة فقيد عظيم ، والثانية للدعوة للحرب ، والثالثة لحفلة عظيمة تهم القبيلة كلهـــا ، ولا يمكن أن يدق النحـــاس لسبب تافـــه ، ذلك لأن له تأثيرا شديدا فى النفوس ، حيث تثور الحماسة فى القلوب وتجرد السيوف ، ولكل قبيلة طريقة أو نغمة خاصة فى دق طبولها (٢) .

---

(1) Taylor, B; A Journey to Centeral Africa. pp. 293 - 96.
وانظر ايضا : احمد احمد سيد : تاريخ مدينة الخرطوم ص ١٦٩ .

(٢) محمد عوض محمد : السودان الشمالى : ص ٤٧ — ٤٨ .

وللمآتم أهل النوبة جلبة عظيمة ، فعند وفاة أحدهم ينادون أهـل بلدته والبلاد المجاورة ويقيمون المآتم بالعـويل والرقص المحـزن حتى يواروه التراب ثم يعودون لتجديد الندب والبكاء مستمرين فى ذلك مـدة أربعين يوما يتقبلون فيها العزاء من القادمين من بلاد بعيدة ، ويقـوم أهل البلدة التى توفى فيها الشخص بتقديم الطعام لأهل المتوفى والمعزين حتى ينتهى المآتم ، ويظل أقارب المتوفى مدة سـنة ممتنعين عن الأفراح والتطيب وارتداء الثياب الفاخرة والحلى (١) .

وأما مآتم القبائل العربية فكانت هى الأخرى فصلا من فصـول الحزن الشديد ، فالنساء يصحن ويضعن التراب على رؤوسهن ويلطخهن وجوههن « بالسجم » والرماد ويدخلن غرفة الميت للبكاء حوله ، وحين يأتى الجيران تخرج النساء بالمتوفى الى فناء المنزل لعمل المناحـة وتقوم النادبات بالضرب على النحاس ، وترقص النساء الحزانى بالسـيوف والعصى .

أما الرجـال فيقومون بالتهليل قائلـين « لا الـه إلا الله محمد رسول الله » مرات معدودة حتى تصـل أعدادها الى سبعين ألف مرة . وبعد غسـل المتوفى وحمله تتبعه النســاء كاشـفات الرءوس ومعهـن قريباته ، واحدة متقلدة سيفه وأخرى ثوبه أو جبته أو عمامته حتى يصلن التربة فيجتمعن حلقة كما حـدث فى فناء المنزل ويجددن البكاء والندب والرقص على أصوات التصفيق بدل النحاس . وعقب الدفن يعود أهـل المآتم الى منزل المتوفى فيجلس الرجال لاستقبال المقربين القـادمين من جهات بعيدة رجالا ونســاء وعند وصولهم يضربون النحـاس وتزغرد النساء زغاريد الحزن فيخـرج أهـل الميت جميعا لاستقبالهم فيصطف الفريقان صفين خـارج البلدة ، الرجال فى مواجهة الرجال والنسـاء فى مواجهة النساء ثم يشرعون فى البكاء حتى يلتقى الصفان فيشتد العويل

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق . ص ١٩٩ .

حتى يقوم أهل الميت مقام المعزين فى تعزيتهم وتهوين المصاب ، وللجعليين عادة تعرف « بالشوقار » ذلك أنه عند التقاء الصفين خارج البلدة يتسابق الفرسان على خيولهم أو ابلهم ويتصارع المشاه بالسيف و « الدرق » وترقص النساء بالسيوف حتى يصيبهم النصب فيذهبون الى منزل المتوفى .

ويشارك أهل البلدة أهل المتوفى فى النوم على الأرض مدة سبعة أيام ، وأما أقارب المتوفى فانهم يشاركون المقربين للمتوفى فى النوم على الأرض مدة أربعين يوما . حتى يتم عمل صدقة تسمى صدقة الأربعين وهى اشارة الى ختام المأتم ثم يعود بعدها أهل الفقيد الى النوم على الأسرة وتغسل النساء ثيابهن لازالة ما علق بها من رماد ويستمر حدادهم لمدة سنة كاملة ، وتعبيرا عن هذا الحداد تقوم زوجة المتوفى واخواته بقص شعورهن ، ويركب الرجال دوابهم بفراء مقلوبة ، وأما رجال الشايقية فيرتدون طرابيشهم بلا أزرار اشارة للحداد (١) .

وبالرغم من شدة تمسك عرب السودان بالدين الاسلامى فاننا نلاحظ اختلاط بعض العادات والتقاليد بهذه التعاليم الدينية ، التى لا تقر مثل هذه الأفعال عند دفن الميت .

وفى جنوب السودان وخاصة عند الشلك نلاحظ عادات غريبة تماما عن تلك التى شهدناها فى السودان الشمالى ، فعند هذه الجماعة يدفن الميت فى مواجهة منزله وهو جالس القرفصاء ، وتشيد على قبره كومة من الطين . وتلطخ الأرملة وجهها وشعرها بالطين وتظل « تولول » وتئن لعدة أيام ، يقوم فى خلالها المقربون منها بالعناية بها ويمدونها بكافة متطلباتها ، فيقودون قطيعها الى المرعى ، ويقومون بزراعة أرضها (٢) .

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق . ص ٢٣٤ — ص ٢٣٧ .
(٢) Gessi; Op. Cit. p. 32.

وعند وفاة والد ملك « أونيورو » فى الجنوب اقيمت بعض الاحتفالات ذات الطابع الغريب والوحشى فى آن واحد ، حيث وضعت جثة هذا المتوفى فى حفرة على طبقة من الأحياء وكانت هذه الطبقة نساءه !. ومن الأمور الغريبة حقا أن النسوة فى هذه البلدة وما حولها كن يستسلمن للدفن أحياء حبا فى أزواجهن ، ربما يفوق ما كانت تفعله قديما أرامل الهنود لأزواجهن حيث كن يلقين بأنفسهن فى المواقد التى كانت تعد لحرق جثث هؤلاء الأزواج (١) .

عادات وتقاليد خاصة بالمعتقدات الدينية :

ولعرب السودان عادات وتقاليد دينية يولونها اهتماما شديدا مثل « التعزيم » وكتابة الأحجبة وقلما تجد واحدا منهم ولا سيما النساء إلا ويحمل حجابا . ومن بين الأمور التى يعالجون بها المرضى كتابة بعض سور القرآن الكريم على لوح ثم يغسلون الكتابة بماء ويشربون الماء للاستشفاء .

واذا حدث نوع من الوباء أو المرض يقومون بنحر الذبائح وتوزيعها على الفقراء والمساكين حتى يرفع الله عنهم هذه الأوبئة والأمراض .

ومن العادات المرتبطة بظهور الهلال قولهم « اللهم أعطنا خيره وأكفنا شره » ثم يوقدون النار أمام منازلهم ويقدم كل واحد منهم التهنئة للاخر . ومن عاداتهم أن أراد شخصان المعاهدة على أمر هام وضعا المصحف الشريف بينهما مفتوحا على سورة « براءة » * وأقسما على صدق الوفاء بالعهد ، كذلك فانهم اذا فقدوا شيئا طافوا الجهات منادين

---

(١) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية ، الجزء الاول . ص ٢٨٥ .

(*) التوبة : السورة رقم ٩ من القرآن الكريم .

« كتاب الله جاكم من رأى الشيء الفلاني يرجعه لصاحبه (١) • ويبدو واضحا ان مثل هذه العادات والتقاليد نابعة من الدين الاسلامي فمن آيات القرآن الكريم يتخذون علاجا ، وهذه الآيات ربما تأخذ شكل الكتابة في أوراق صغيرة على شكل أحجبة ، أو تكتب على ألواح ثم تغسل ، بصرف النظر عما يصاحب هذه العادات من طقوس يحاول بعض العامة اضافتها لمثل تلك العادات • وأي شيء أفضل من كتاب الله خلال معاهداتهم ، خاصة وأنهم كانوا يعتقدون اعتقادا راسخا في آيات الله قولا وعملا ، ايمانا منهم أن هذا الكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن الله سبحانه وتعالى ما فرط في الكتاب من شيء •• ففيه العلاج لمن أراد وفيه شروط المعاهدات وفيه قوانين البيع والشراء • فلا عجب إذن ان وجدنا عادات عرب السودان الدينية انعكاسا واضحا لايمانهم الشديد بالكتاب والسنة ، ولا غرابة كذلك ان وجدنا في آخر المطاف ان مثل هذا الايمان الشديد — مع غيره من العوامل — يفجر ثورة غضب في عام ١٨٨١ •

ولسكان الجنوب من الدنكا والشلك ومن جاورهم عادات غريبة في هذه الناحية فلا يكاد يحدث حادث خارق للعادة أو مخالف للمألوف إلا كان مدعاة لاقامة الشعائر وتقديم القرابين ، والإله الأكبر عند الدنكا هو نهيالك كما سبق أن ذكرنا ، وهو — في نظرهم — الذي يرسل السحاب من السماء وهو المهيمن على كل الأمور العظيمة • كما أن لديهم اعتقادا في قوة أخرى ذات اتصال شديد بالحياة العادية وهذه القوة تدعى (جوك) أو روح الأجداد مجتمعة • وهناك اله آخر يدعى « دنج ديت » Deng - Dit ومعناه المطر العظيم * •

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق • ص ٣٣٣ وايضا ص ٢٣١ •

(*) جرى حوار بين احد الضباط الذين زاروا مناطق الدنكا ، واحد زعمائهم فسأله الضابط : هل تعرفون الله خالق هذا الكون ومدبره ؟ قال : =

ولكل قبيلة دنكاوية هيكل تقدم فيه القرابين فى حفلات الحصاد والمطر وغير ذلك . وغالبا ما يتألف الهيكل من ثلاثة أكواخ متلاصقة أحدها مقفل على الدوام ولا يدخله إلا السدنه وهو خاص (بدنج ديت) ، وفى حالات ربما يسمح للشخص الذى جاء ليقدم قربانا — طمعا فى النسل — أن يدخل لينال البركة ويدعو لتحقيق أمنيته وفى هذه الحالة يدخل وعن يمينه ويساره واحد من السدنة . ومن العادات المتبعة أن يمسح جسم صاحب الطلب بمزيج من الزيت والتراب المقدس ، ويعطى أحيانا حربة أو شيئا من هذا القبيل علامة للرضا ، وربما يقدم صاحب الحاجة بعض التبغ الذى يلقى على كومة الرماد المتراكمة أمام الهيكل بسبب الطبخ المستمر للقرابين ويصبح هذا الركام كوما مقدسا تلقى عليه محتويات المعدة والأحشاء عقب ذبح الماشية (١) .

وهناك طائفة خاصة من الناس توصف — عند الدنكا — بأن لها قدرة الاتصال بالأرواح أو يحل بجسم الواحد منها بعض الأرواح سواء أكانت روح من توفى حديثا (Tiep) أم روح السلف (جوك) ، ويسمى الواحد من هؤلاء باسم (Tiet) ، وتكاد تكون الوظيفة وراثية . ولا ينظر الى بعض هؤلاء الأفراد نظرة تقدير ، ويبدو أن مركزهم الاجتماعى وقوة شخصيتهم كان لهما بعض الأثر والاعتقاد الشديدين فى

=

لا ، فسأله ثانية : بماذا تؤمنون اذن ؟ قال نؤمن بمن نسميه (دنج ديت) اله المطر . فسأله هل تدعونه أو تصلون اليه ؟ قال لا . فسأله أين هو ؟ قال : لا ندرى . فقال له وأين مصيركم بعد الموت ؟ قال نضمحل نحن وسائر المخلوقات وكلنا فى ذلك سواء ثم أشار الى كلب هناك وقال نموت كما يموت هذا الكلب .

(أنظر مقال تحت عنوان : احتلال بحر الغزال لليوزباشى الطبيب أمين المعلوف . مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية موسم عام ١٩٥٣ ، ص ١٩٦) .

(١) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات . ص ١٦٨ — ١٦٩ ، أنظر ايضا : محمد عمر بشير : جنوب السودان . ص ٢٦ .

نفوس بعض الدنكاويين (١) . ويلجأ الناس الى هؤلاء الأشخاص عند الشدائد والملمات ، ويبدو كذلك أن بعض المصادفات قد لعبت دورا هاما فى علو شأنهم ، فقد لاحظ الناس ان كل من يخالفهم تحل به كارثة بعد زمن وجيز ، وهكذا اجتمعت عدة أمور مختلفة لتجعل من هؤلاء الأشخاص رموزا روحية تحظى بشهرة واسعة .

ويعتقد الدنكا فى البركة واللعنة : بركة الوالد لأبنائه أو بركة الكاهن أو أى شخص من ذوى النفوذ المعترف به ، واللعنة قد يوجهها الشخص الى بعض أقاربه أو غيرهم اذا أخطأوا فى حقه ، فان أصابتهم اللعنة بشر التمسوا الصفح من اللاعن عن طريق تقديم قربان ، كذلك فانهم يعتقدون فى شىء يشبه الحسد Kwan اذا تعرض أحدهم لسوء فسرعان ما يرجعه الى حسد صادر من شخص ما (٢) .

وعلى وجه العموم فالفرد الدنكاوى شخص متدين ويقيم وزنا كبيرا للاعتبارات الروحية فى كل لحظة وفى جميع أمور حياته ويلتمس لكل ظاهرة تفسيرا روحيا .

وأما ديانة الشلك فتتألف عناصرها الرئيسية من الايمان بالإله الواحد ، وتمجيد السلف . والإله الواحد يسمى عندهم جوك وهو شبيه بما أطلقه الدنكا على السلف . واذا كان الاسم واحدا عند الشلك والدنكا فان له مدلولا خاصا عند كليهما فهو عند الشلك الإله الذى خلق العالم وبيده كل القوى والخصائص الربانية . والشلك يقدسون جدهم الأكبر « نياكنج » Nyakang الذى يقودنا الى الحديث عما أسماه البعض « عقيدة الملك المقدس » عند الشلك (٣) حيث لم يكن يسمح لملكهم أن

---

(١) محمد عوض محمد : المرجع السابق ص ١٧٢ .
(٢) نفس المرجع ص ١٧٤ .
(٣) سيلجمان : المرجع السابق ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

يخوض المعارك • ولفهم طبيعة هذه العقيدة لابد من الاشـارة الى كيفية تكوين أمة الشلك التى يرجعون أصلها الى « نياكنج » الذى خرج مع أتباعه من وطن آبائه شرقى بحر الغزال ثم أخذ يتجـول قاهرا الأعداء حتى عظمت شوكته فكون أسرة حاكمة وأمة • فنياكنج عند الشلك بطـل الحضارة ، وهو كسـائر العظماء عنـدهم لم يمت بل اختفى فى عاصفة شديدة ومنذ أن اختفى وأهله يقربون له القرابين ، معتقدين أن روحـه مستقرة فى كل ملك من ملوكهم وهذا الاستقرار هو أصل وسبب الحـق الملكى المقدس •واذا بدت على ملك الشلك أعراض الشيخوخة أو العجز قتلوه ، وعقيدتهم فى ذلك أن روح (نياكنج) ينبغى أن تكون فى جسـد غاية فى القوة حتى لا تسـكن الروح المقدسة هـذا الجسـد الهـزيل فيسرى الضعف الى الروح ذاتها فتمرض الماشية ولا تلد ، وكلما ضعفت حيوية الملك ظهر أثرها على فسـاد المحاصيل فى الحقول ومرض الرجال وانتشر بينهم المـوت (١) •

عادات متصلة بالخرافات والسحر :

كانت العادات الخـرافية المنتشرة بين أهالى مديريات السـودان كثيرة جدا ، وهى فى تقديرنا انعكاس للوضع الثقافى الذى كان يعيشـه الشرق بصفة عامة والسودان بصفة خاصة وهى تتشابه كثيراً مع ما كان يسـود المنطقة وغيرها من بلدان العالم أيضا فى ذلك الوقت ، فقـد عرف الجميع الدجالين والمشعوذين والسحرة ، كذلك فقد عرفوا الزار والمنـدل والرمل وضرب الودع والعقدة وتفسير الأحلام •

ويقال ان « الزار » قد دخل السودان من مصر وشـاع استعماله فى سواكن وبربر والخرطوم (٢) • ويحـاول البعض أن يفرق بين نوعـين

---

(١) سيلجمان : المرجع السابق • ص ١٥٨ ، ١٥٩ •
(٢) نعوم شقير : المرجع السابق • ص ٢٣٧ •

من الزار : الأول ويعرف باسم (زار بورى) ، والآخر ويعرف باسم (الطمبورا) * أما الأول فخاص بالنساء ويجرى فى منزل الشيخة أو فى منزل الشخص المريض « الممسوس » ، والآخر خاص بالرجال • ولا يمكن « للطمبورا » أن تنتقل الى منزل المريض ولكن المريض هو الذى يأتى الى المنزل (١) • وحفلات الزار تكون عادة صاخبة وتصاحبها حركات هزيان وعبارات مبهمة •

وربما قد لا نتجاوز الحقيقة أن قلنا ان مثل هذه الحفلات الراقصة التى يحاول فيها المريض الخروج من همومه ومشاكله هى أشبه بما يحدث فى المجتمعات الأوربية الحديثة التى يحرص أكثرهم سواء من الرجال أو السيدات على المشاركة فيها مصحوبة بالموسيقى والرقصات والخمور ، فالفرد — سواء فى حفلة الزار فى تلك المجتمعات المتخلفة أو فى حفلات الرقص « الديسكو » فى المجتمعات الأوربية الحديثة — يريد الخروج من همومه وواقعه • والاختلاف الوحيد ان حفلات الزار تتم وفق طقوس غيبية وعبارات غريبة • وكلاهما فى تقديرنا لون من ألوان العلاج النفسى •

وأكثر المشتغلين بضرب الودع والرمل والمندل وكشف الدفائن وعلم التنجيم من « التكارنة » • وأما العقدة فيشتغل بها فرع من بشارى العطبرة • وأما السحرة السودانيون فيدعون القدرة على مسخ الأجسام الى حيوان أو غير ذلك • وقد وقع واحد من هؤلاء السحرة التعايشية ** وهو يعمل على وقف مفعول أسلحة الزبير فى ساحة الحرب • وكاد الزبير أن يقتله ، وقد اشتهر أمره حيث كانت أسرته تعمل بضرب الرمل

(*) نسبة الى آلة الطمبورا الموسيقية وهى اشبه بالقيثارة •

(١) S. N. R., Vol. XXXI, Part I, 1950, June 1950, Zar and Tumbura by Zenkovsky.
(Paper read before the Philosophical Society of the Sudan) p. 65.

(**) عبد الله التعايشى •

والسحر حتى نالت حظوة كبيرة عند التعايشة ، وكاد عبد الله هـذا أن يلتف حول الزبير حين قال له « رأيت فى الحلم إنك أنت المهدى المنتظـر وانى أحـد أتباعك فأخبرنى ان كنت مهدى الزمان لأتبعك » . ولـكن الزبير كتب له قائلا : « استقم كما أمرتك وإلا أعملت السيف فى رقبتك ... انى لست بالمهدى انما أنا واحـد من جنود الله يحارب به من طغى وتمـرد » . ولم يكف عبد الله عن الشـعوذة حتى ضاق به الرزق فى دارفور فرحل عنها ، حتى ظهر أمر المهدى محمد أحمد فقصـده وتقرب اليـه بشكل درامى حين أخبره أن علامات المهدى وصفاته تنطبق عليـه تماما وارتمى أمامه على الأرض مغشيا عليـه ! ، وأصبحت لعبد اللـه التعايشى شهرة واسعة عقب وفاة المهـدى حيث بايعـه النـاس اماما وحاكما (١) .

وفى عام ١٨٧٨ تم القبض على أحـد أولئك السحرة والمشعوذين بمـديرية التـاكة وعثر فى حـوزته على بعض الكتب والأوراق وعروق الأشجار وبعض قطع النحاس وغير ذلك ، ثم أودع السجن جزاء على ممارسته لمثل هذه الأمـور بين عامة الناس (٢) . وهناك كثير من الخرافات المنتشرة بين عـرب السودان لا يتسـع المقـام لذكرها ، ومنها أنهـم يتشاءمون من الأعور والأعرج وكل ذى عاهة ومن تناول الصـابون بباطن الكف لأنه — فى نظرهم — يورث البغض بل يجب أن يتناولها الفرد بظاهر كفه . كذلك فانهم يتشاءمون من مسح اليـد بثوب آخر ، أو شرب اثنين من فنجـان واحد ، ومن عواء الكلب من صدره فانه دليـل على موت واحد من الأهل ، ومن لبس الرجل اللباس واقفا لأنه دليل على الفقر

---

(١) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان ص ٦٨ — ٧٠ .

(٢) دفتر رقم ٣١ وارد معية عربى — ص ٥١ — مكاتبة رقم ٣٦ بتاريخ ١٣ شعبان سـنة ١٢٩٥ هـ . من مدير عمـوم التاكا الى المعية. دار الوثائق القومية بالقلعـة .

ومن الصفير ليلا لأنه مجلب للآفات والحيات ومن كنس البيت يوم الخميس لأنه يطرد الخير وغير ذلك من الخرافات الكثيرة (١) .

أما دارفور فكانت ملأى بهذه الخرافات لدرجة ان التونسى يقول انه لا يريد أن يحدثنا عن الكثير منها حتى لا يتهم بالكذب . فقد عرف سكان دارفور جماعة من الناس يسمون « بالمراقيين » أى الذين يستخدمون عروق (جذور) الأشجار فى أمور السحر والدجل ، فمن أراد أن تقضى حاجته عند الحكام أخذ أحد الجذور ويسمى (شارة) ودلكه بها بين كفيه ومسح على وجهه ، ويفعل نفس الشىء اذا أراد أن تعشقه احدى الفتيات .

وكانت قبيلة « الفلان » هى المشهورة بتلك الأعمال السحرية (٢) .

أما أهل جنوب السودان فلهم ولع أيضا بمسائل السحر ، فالشلك — على سبيل المثال — يعالجون سحر العين بادخال مسمار محمى فى عين « عنزة » سعيا وراء أبطاله ، فاذا لم تطمس عينا الحاسد فى نفس الوقت الذى تطمس فيه عين « العنزة » ، فهذا يعنى أن السحر لازال قائما ، الأمر الذى يتطلب تقديم الكثير من القرابين لاسترضاء الآلهة (٣) .

وبالرغم من ذلك فالبعض ينفى تماما حدوث مثل هذه المسائل السحرية ، وغيرها من الصفات السيئة التى ارتبطت بهذه الأمور (٤) .

ومن العادات المرتبطة بهؤلاء الجنوبيين وخاصة بلاد النمانم

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق ص ٢٣٩ .
(٢) التونسى : المصدر السابق . ص ٣١١ وما بعدها .
(٣) عبد القادر محمد : الفكر الصوفى فى السودان . ص ٢١ .
(٤) الوقائع المصرية ، العدد رقم ٦٦٤ بتاريخ ١٠ جمادى الثانية سنة ١٢٩٣ هـ . (٢ يولية ١٨٧٦) ص ١ .

(بلاد نمنم) المتصلة ببحر الغزال ، أكل لحوم الكلاب والآدميين ، فالكلاب عندهم أفخر ما يأكلون أو يقدمون ، وهو طعام أمرائهم ولذا فانها كانت قليلة عندهم ، ولا يعنى هذا ندرة الطيور أو الحيوانات الأخرى فعلى العكس فهى كثيرة وخاصة الدجاج منها (١) .

أما مسألة أكل اللحوم الآدمية عند هذه الجماعة فقد ذكر لنا ابراهيم فوزى (٢) انه سأل عن الذين يأكلون هذه اللحوم فعلم انهم ينحصرون فى قبيلتين فقط وليس من عادة القبائل كلها أن تفعل ذلك ، كما أن أكل لحوم البشر عند هاتين القبيلتين غير دائم بل اذا مرض أحدهم وغلب عليهم اليأس من شفائه ، فعندئذ تقوم قبيلته بتسليمه الى القبيلة الأخرى لتأكله ، وأيضا تفعل القبيلة الأخرى نفس الشىء حيث تسلم مريضها اليها ، أى ان المسألة تتم بالتبادل فيما بينهما . وتجدر الاشارة أيضا الى ان هذا اللون من الطعام الآدمى ليس عادة عندهم كما يتوهم البعض بل هى طريقة ساروا عليها لتبيان معزة الفرد لديهم عند الموت ، ويرونها أسمى شأنا من دفن الانسان فى القبر أو حرقه بالنار ، كما انهم — كما يقال — يرون فى ذلك راحة لهم من عناء انشاء مقابر واجراء احتياطات صحية (٣) .

ومن العادات الغريبة فى مديرية خط الاستواء عادة تعرف باسم (تبادل الدم) حيث توثق ذراعا الشخصين اللذين يتبادلان الدم ومن جرح صغير يحدثانه فى القسم الأسفل من الزراع يمتص كل منهما بعضا

---

(١) ابراهيم فوزى : السودان بين يدى غوردون وكتشنر جـ ٢ ص ٣٢ . « قيل ان أحد الأفراد فى تلك البلاد او لم وليمة ودعا اليها رؤساء مملكته فقال له بعض اخوته اتدعو مثل هؤلاء الملوك ولا تذبح لهم كلبا سمينا فارسل من يحضر كلبا ودفع فيه عشر بقرات سمان » أنظر الوقائع المصرية : العدد ١٠٣ بتاريخ ٢٦ رجب سنة ١٢٤٥ هـ ، ص ٤٠١ .

(٢) السودان بين يدى غوردون وكتشنر جـ ٢ ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٣) نفس المصدر . ص ٣٣ .

من دم الآخر ، وهذه العادة فى تقديرهم دليل على الصداقة والمحبة بين الشخصين (١) .

الأزياء :

وهى من الأمور التى تنوعت من مكان الى آخر فى السودان ، فهى عند البجة عبارة عن شقة من « الدبلان » أو الدمور ، ويتميزون بالرشاقة فى لبسها حيث يكثرون من تشميرها ، أما الذين كانوا على الفطرة منهم فيرتدون الفراء حول أصلابهم ويمشون حفاة أو يلبسون نعالا على الأكثر ، وكلهم عراة الرأس ، ويتركون فى أعلاه « كشة » ويدهنونها بالشحم أو زيت الخروع ويمشطونها بمسواك من السن أو الخشب ويكون مغروزا دائما فى الكشة . ويضع البجة فى معظمهم خواتم فى أيديهم وتكون فى العادة من الفضة أو الذهب بفصوص من العقيق أو الفيروز ، أما نساؤهم فيرتدين « الشقة » وحدها أو مع « القرباب » أو يرتدين الفراء فى أصلابهن . ويقمن بجدل شعورهن جدائل دقيقة جدا ، ويتحلين بالأسورة والحجول والخلاخل (٢) .

وأما أزياء النوبيين فكانت غالبا من الدمور الذى يتخذون منه « سراويل » و « شقة » ، ويسيرون حفاة مكشوفى الرأس عدا كبارهم فيلبسون طواقى من الدمور وأحذية من جلد البقر ويحلقون شعور رءوسهم ويرخون لحاهم وترتدى نساؤهم شقة من الدمور ويجدلن شعورهن على هيئة ضفائر دقيقة جدا (٣) .

وأما ملابس القبائل العربية فكانت عبارة عن سراويل ومن فوقها ثوب من الدمور أو الدبلان ، أو يرتدون قميصا طويل الأكمام . وفى

---

(١) عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية ، الجزء الأول .
(٢) نعوم شقير : المرجع السابق . ص ٢٠٠ .
(٣) نفس المرجع .

الأفراح يرتدى كبـارهم القفاطين و « الجبب » ، وهم يحلقون شعور رؤوسهم ويدورون لحاهم ، ويتعممون بعمامة بيضـاء فوق طاقية من الدبلان أو ربما يرتدون الطاقية بلا عمامة ، وكان كبارهم أحيـانا يلفون عمامة على طربوش مغربى ، ويلبسون أحذية من جلد أسود أو أحمر • وعادة ما يخرج الواحد منهم وفى يده عصا وسكين • وهذا الزى غالبـا ما يكون فى المـدن أو الحضر • وأما فى البادية وخاصـة بادية الشرق فيلبسون الثوب بسراويل من تحته أو بدون سراويل ويلبسون نعالا فى أرجلهم أو يسيرون حفـاة عراة الرأس ولا يحلقون شـعور رءوسهم ، وباختصار فهم يشبهون البجة فى هذه الناحية •

وأما بادية الغرب فيلبس البقارة قمصان واسعة الاكمام جدا ومقفلة الصدر بلا سراويل ويتحزمون بسيور من الجلد ، ويمشون عراة الرأس ، ويلبسون نعـالا فى أرجلهم ويجدلون شـعور رءوسهم ضفائر كسـائر النساء ، ولا يتركون كثه كبادية الشرق لكنهم يدهنون شعور رؤوسهم بالشحم والزيت • وعادة ما يخرج الواحد منهـم وفى يده حـربة كبيرة تسمى « كبسـا » أو « أم كريشـه » وأما الابالـة فيلبسون الثـوب بسراويل أو بلا سراويل ، ويلبس مشايخهم القمصان الواسعة ولكنها أقل اتساعا من مثيلتها عند البقارة وأنظف ، كما أنهم يجدلون شعور رؤوسهم ضفيرتين فقط دون كثة • أما مشايخ البادية فيحلقون شـعور رؤوسهم ويلبسون القفاطين والجبب والعمائم ويتختمون بخواتم من الفضة ذات فصوص من العقيق أو الفيروز •

وأما الأطفال ذكورا واناثا فيظلون عرايا حتى نحو سن الخامسـة فتستر البنت نفسها « بالرهط » وهو سير من الجلد يعقد حول خصرها تتدلى منه قدد دقيقة الى ما فوق الركبتين وقد تلبس فوقه شـقة من الدمور ، أو تظل بالرهط حتى الزواج حيث تخلعه وترتدى بدلا منه فوطة أشبه بفوطة الحمام تسمى « القرباب » وفوقها شقة أكبر منهـا قليـلا

تسمى « القرن » وفوقهما « ثوب » من الدمور أو الدبلان أو الشاش • تشتمل به وتستر رأسها ولا يظهر منها إلا عيناها (١) •

وأما الأزياء التى كان يرتديها أهــل هرر وما جاورها من البلدان التى دخلت فى حوزة الادارة المصرية فهى قريبة الشــبه من ملبوســات أهل الســودان حيث أن أغلبهــم يلبس ثوبا من نســيج هرر الخشن يرتدونه كسائر العربان المجاورين ، وأما الأمراء والقضاة فيلبسون ثوبا من القماش الأبيض على شكل قميص ، وكلما كان كبيرا كان أكثر اعتبارا • بالاضافة الى حزام من الجلد يحمل سكينة وربما يعلق به حجــاب • وأما عن الحذاء فالرجــال يلبسون النعــال ، وأما النســاء فمهما بلغت أوضاعهن الاجتماعية فهــن غالبــا حافيات الأقــدام فيما عدا نســاء الأمراء (٢) • ولم يكن أهالى تلك الجهة يلبسون شــيئا على رؤوسهم ، وعند امتداد الادارة المصرية الى هرر طلب الى الأهالى أن يضعوا العمامة على رؤوسهم إذ كان أمراؤهم يأبون عليهم ذلك ، فتغطية الرأس كانت قاصرة عليهم فقط ولم يكونوا ليسمحوا لهؤلاء السكان حتى أن يغطوا رؤوسهم بجزء من الثوب الذى يرتدونه وقاية لهــم من وهج الشمس أو زمهرير البرد • وبالاضافة الى ذلك فقد طلبت منهــم الادارة المصرية أن يرتدوا كافة الملابس التى يريدونها والتى حرموا منها مثل « الجبب » و « القفاطين » (٣) • ولا شك أن مثل هذه الدعوة من لدن رجال الادارة برهان ســاطع على حرصها الشــديد فى نشر المساواة بين كافة الأهالى لا فرق عندها بين أمير أو فرد عــادى •

---

(١) نعوم شقير : المرجع السابق ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ .
(٢) جريدة اركان حرب الجيش المصرى ، العدد رقم ٥ بتاريخ غــرة رجب سنة ١٢٩٤ هـ • ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ .
(٣) الوثائق الافريقية ـــ محفظة رقم ١٠٣ ـــ التقرير السابق .

وأما ملبوسات سكان قبائل العيسى فرجالهم عراة الرأس حفاة الأرجل يلتف الواحد منهم بثوب قماش من عرضين طوله حوالى ثمانية أذرع ، أما نساؤهم فتلبس الواحدة منهن فستانا من القماش المتواضع ولا يشترط أن يكون قذرا أو نظيفا • والجزء الأعلى من أجسامهن — ما عدا الزراع الأيمن — مستور بفوطة من القماش ويغطين رؤوسهن بزراع من قماش شديد السواد (١) •

وأما فيما يتعلق بملابس أهل الجنوب السودانى فالسكان بصفة عامة كانوا عراة الأبدان يسترون عوراتهم بمئزر من ورق الشجر أو جلد الحيوان ولهم ولع شديد بالعقود المصنوعة من الخرز الملون ، بالاضافة الى الأساور والحجول النحاسية والعاج والحديد الذى يتخذون منه زينة لهم • ويقوم بعضهم مثل الشلك بضفر الشعر على أشكال شتى ، ويضعون فيه الخرز والريش ، كما أنهم يقومون بدهان أجسادهم بالشحم والزيت • وتتشح بعض النسوة المتزوجات بجلد مدبوغ من جلود الأغنام ليوارين سوآتهن • أما قبل الزواج فتعيش الفتاة عارية (٢) •

وعقب امتداد الادارة المصرية بدأ الجنوبيون وخاصة الزعماء منهم يأخذون بالزى العربى (٣) •

الدلكة والشلوخ :

ومن العادات المشهورة لدى أهل السودان وخاصة القبائل العربية عادة « الدلكة » وهى عبارة عن عدة مواد مكونة من عجين الذرة ودقيق القرنفل والمحلب وخشب الصندل والظفر ويعرف « المربوع » واذا أضيف

---

(١) جريدة اركان حرب الجيش المصرى ، العدد رقم ٥ بتاريخ غرة رجب سنة ١٢٩٤ هـ • ص ٣٨٩ •

(٢) عمر طوسون : المرجع السابق • ص ٦٣ •

(٣) محمد عمر بشير : جنوب السودان • ص ٣٦ •

اليـه اللبـان سمى بالمخموس ، ويضيف اليـه الخاصة المسـك ويعرف « بمعجون الخاصة » • والدلكة للنوعين من الرجال والنساء حيث يمضون كثيرا من أوقاتهم ممددين على الجلود ، بينما يقـوم العبيد بتدليكهم ، ويقول « جسى » ان هـذه العملية تجعلهـم فى حالة استنزاف شـديد لا يفيقون منه إلا عند شعورهم بالحاجة للطعام (١) •

وأما الشلوخ * فهى من العادات القديمة والأكثر شيوعا بين سكان السودان وهى عبارة عن خطوط على الخـدود ناتجة من أثر « الفصد » بالموسى ، ولا يحوى هذا المفهوم تلك العلاقات الموسومة على الجباه لدى القبائل النيلية فى جنوب السودان أو تلك العـلامات الناتجة عن الكى بالنار أو المواد المحرقة على الوجه كما هو الحال عند النوباويين بكردفان • ويقال ان الجزء الشمالى من السودان وخاصـة بلاد النوبة قـد عرف الشلوخ منذ العهد المروى (٧٥٠ ق • م — ٣٥٠ ق • م) حيث وجدت بعض تماثيل ونقوش لأشخاص « مشلخين » ترجع الى ذلك العصر •

ويميز الدكتور يوسف فضل بين ثلاث وظائف للشلوخ فى السودان : قبلية ودينية وجمالية • فأما الوظيفة القبلية فقد ظهرت بظهـور القبائل فى السودان والتى وجدت شيوع عادة الشـلوخ فعملوا على تطويعهـا أو توظيفها قبليا ، ذلك أن هذه القبائل العربية لما بدأت تستقر وتنصهر بالسكان الآخرين بالسودان نتيجة عمليات الزواج والاختلاط الأمر الذى أدى الى ظهور نتاج جـديد من السكان أشـبه شـكلا وأقرب لونا الى

---

(١) Gessi: Op. Cit. p. 32.

(*) الشلخ فى اللغة هو الأصل والعرق ، والشلخ عند العلمة لحـاء الغصن والشجرة • وهناك مترادفات الشلخ وهى : الفصد ومعناه قطـع العرق ، والوسم وهو اثر الكى ، والوشم وهى العلامات التى ترسم بالابرة وتحشى ببعض المواد ، والالعاط وهى الكى فى عرض العنق ، كما ان اللمطة او العلطة تعنى الخط الأسود او الاصفر الذى تخطه المراة فى خدها للتزين • (انظر : يوسف فضل حسن : الشلوخ ، اصلها ووظيفتها فى سودان وادى النيل الأوسـط • ص ٩ — ١٥) •

الشعوب التى عاشوا بينها فخشوا أن يذوب كيانهم وتنمحى خصائصهم فرأوا الاستفادة من هذه العادة واتخذوها سمة لهم تميزهم عمن حولهم شكلا وموضـــوعا •

وقد شجعهم على المضى فى تنفيذ هذه العـــادة أن بعض أحفادهم من ذوى البشرة المائلة للسواد بدأوا يتعرضون للرق من جانب تجـــار الرقيق وغيرهم دون التميز بين المسلم وسواه (١) •

وتعتبر الجماعة الجعلية العباسية ، وهى أكثر القبائل الســـودانية عروبة ، أو استعرابا وغيرهم من المجموعات المستعربة ، من أكثر سكان السودان تمسكا بعادة الشلوخ دون غيرهم من النوبيين والبجة والبدو • وتصل أهمية هذه العادة الى درجة اجتماعية خطيرة حين كان ينظر عامة الناس ، وخاصة سكان المنطقة الوسطى من حوض النيل الى الشـــخص غير المشلخ (أو الأمرء) نظرة استخفاف لأنه أهمل سمة القبيلة وعـــادة الآباء ، كما أن تركها كان فى نظرهم من عادة العبيد لا الأحرار •

ومن أمثلة الشلوخ القبـــلية التى ســـادت عند الجعليين الشـــلوخ العمـــودية الثلاثة ، وشلخ الســـلم * ذى الدرجة الواحـــدة ، وشلخ « الواســـوق » وهو كحرف T ويسمى أيضا (درب الطير) •

وبمرور الزمن ونتيجة لهجرة الجعليين الى أجزاء السودان وازدياد نفوذهم الاقتصادى والثقافى انتشرت « شلوخهم » فى تلك المناطق كما هو الحال عند الدناقلة الذين استخدموا شلخ السلم وان كان ماكمايكل يرى ان هذا السلم أصبح سمة لرقيق على دينار فى أقصى الغرب (٢) •

أما الشايقية وان كانوا من الجعليين فقد انفردوا بشلخ خاص بهم

---

(١) يوســف فضل : المرجع السابق • ص ٤٥ ، ٤٦ •

(*) H

(٢) Mach Michael; Op. Cit. Vol. I. p. 214.

انظر ايضا : يوسف فضل : المرجـــع السابق . ص ٥٤ .

وهو عبارة عن ثلاثة خطوط افقية متوازية * • وتعد الشايقية من أكثر القبائل حرصا على هذه الشارات التى تميزهم عن غيرهم ، ويرجع هذا الحرص الى عاملين : أولا : لكونهم أقوى قبيلة فى الجزء الشمالى من السودان ، وكانوا كثيرى المنازعات والحروب مع جيرانهم الأمر الذى بات يستدعى أن تكون لهم علامات مميزة أثناء القتال ، وثانيا : أنهم كانوا يعدون الشلوخ نوعا من الجمال •

وكان للعبد لاب شلخ خاص بهم عبارة عن ثلاثة خطوط عمودية متوازية ينتصفها خط أفقى ** ، وتعرف عندهم « بالثلاثة مطارق وعارض » ولنسائهم شلخ خاص عبارة عن ثلاثة خطوط عمودية تستند على خط أفقى ويسمى العارض *** • ويبدو أنه بانتهاء النفوذ السياسى للعبد لاب فى عام ١٨٢١ وازدياد الوعى فى منطقة ملتقى النيلين ، بالاضافة الى انتشار الطرق الصوفية • التى صهرت أكثر القبائل فى بوتقتها قد أدى الى اهمال الشلوخ ذات المدلول القبلى (١) •

وأما الوظيفة الدينية للشلوخ فكانت تتمثل فى أن هذه الشارات أصبحت تمييزا لمريدى بعض الطرق الصوفية ، وخاصة القادرية • وأول من تمثل « الشلوخ » فى مضمونها الدينى هم أتباع الشيخ حسن ود حسونه بن الحاج موسى (١٥٦٠ — ١٦٦٤) فقد كان يزين وجوه أتباعه « شلخ » خاص على هيئة رقم (١٧١) ويعرف « بشلخ الشيخ حسن » أو « الشبور » (٢) •

وتبرز الوظيفة الدينية للشلوخ واضحة لدى مريدى الطريقة السمانية حيث ميزوا أنفسهم بشلخ خاص يسمى (سلم الشيخ الطيب)

(*) ☰

(**) ┣┫

(***) ┻┻

(١) يوسف فضل : المرجع السابق . ص ٦٠ .

(٢) نفس المرجع ص ٦٤ — ٦٥ .

صاحب الطريقة بالسودان ، ولهذا السلم ثلاثة أشكال ، أشهرها السلم ذو الدرجتين * أو ما يسمى (بسلم العقيدة) ، وثانيهما هو السلم ذو الدرجة الواحدة ** الذى كان منتشرا بين الجعليين ، وثالثهما وهو عبارة عن أربع « قصدات » على هيئة مستطيل أو مربع *** .

وهناك ملاحظتان هامتان حول الوظيفة الدينية للشلوخ الأولى : أن هذه الشلوخ تقتصر على الرجال دون النساء ، وتفسير ذلك أن النساء كن أكثر شغفا بالشلوخ ذات المدلول الجمالى ، والملاحظة الثانية أن الشلوخ بعد أن ازدهرت فى المنطقة الوسطى من حوض وادى النيل الأوسط واكتسبت مضمونا قبليا انتقلت الى الاقليم الواقع جنوب ديار الجعليين أو فى أطرافه لتأخذ مضمونا دينيا صوفيا .

أما الوظيفة الثالثة للشلوخ فكانت وظيفة جمالية ، فعلى الرغم من أن هذه الشارات تحدث تشويها لخلقة الخالق ، فقد ساد الناس اعتقاد ، وخاصة بين أوساط العامة ، بأنها تضفى حسنا وسحرا وجمالا على وجه المرأة . ويبدو أن السودانيين قد تأثروا بهذا المفهوم الجمالى من عملية الوشم المنتشرة بين كثير من نساء الشرق الأوسط ، إلا أن سواد بشرة المرأة السودانية لم يكن ليساعدها فى اظهار هذا الوشم الأمر الذى يقلل من قيمته الزخرفية ، فاكتفت باجرائه على الشفتين واللثة ، ولذلك كله استعاضت عن الوشم بالشلوخ زينة لها .

وخلال زيارة صمويل بيكر لعرب الحمران فى منطقة القضارف عام ١٨٦١ لاحظ هذه الشلوخ ، وعدها نوعا من الجمال رغم ما تحدثه من تشويه (١) .

(*) |–|

(**) H

(***) |–| |–| |–|

(1) Baker; Samuel N; The Nile Tributaries of Abyssnia and the Sword Hunters of the Hamran. p. 273.

انظر ايضا : يوسف فضل حسن : المرجع السابق ص ٧٦ .

وقد امتدح بعض الشعراء هذه الشلوخ التى كانت تزين خدود النساء بقولهم :

يرف عليه شباب الفنون ... وتبرق فى وجنتيه الفصد

كما امتدح البعض هذه الشلوخ على وجه الرجال أيضا فقال قائلهم :

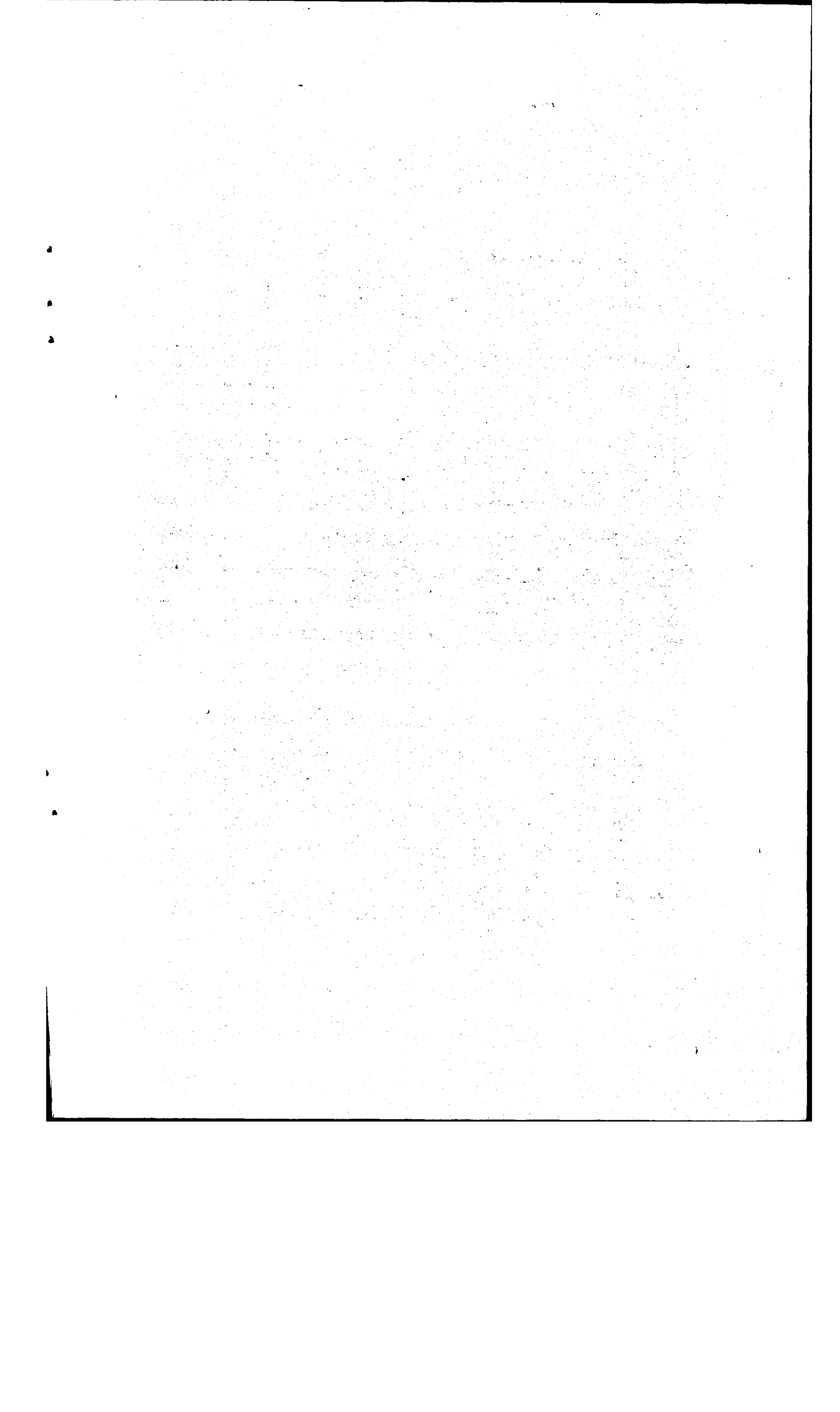
وذو شرط اذا لف العمامة ... تعالى الله ما أبهى قوامه
رضيت بشرطه فى طول عمرى ... لأن الشرط آخره السلامة (١)

تلكم هى أغلب عادات السودانيين فى القرن التاسع عشر منها من استمر ولا زال ، لأن العادة من سمتها طول البقاء وان دخلها شىء من التحوير ، ومنها من اندثر وخاصة ما كان يتصل بالخرافات ، وهذا الاندثار يرجع الى التطورات العلمية الحديثة وازدياد الوعى بين المواطنين، كذلك فقد شهدنا أن المرأة فى هذا المجتمع بصفة عامة قد تمتعت بمركز لا بأس به ، فقد كانت تلعب دورا أساسيا بجوار الرجل فهى بجواره فى الحقل ، وهى تاجرة بالأسواق وهى أيضا تتحمل قسطا كبيرا فى أعمال البيت وانشاء المساكن .

ولا شك أن الادارة المصرية قد حاولت — على استحياء — ان تقضى على بعض العادات السيئة وخاصة ما يتصل بأنواع السحر ، وادخال عادات وتقاليد جديدة كما شهدنا فى هرر حيث دعت الجميع الى ارتداء الملابس وأغطية الرأس التى كان بعضها قاصرا على الأمراء فقط ، كما أن بعض سكان الجنوب وخاصة الزعماء منهم بدأوا يرتدون الملابس ذات الطابع العربى بعد أن كانوا عراة حفاة ، الأمر الذى يعد نقله لا بأس بها فى تطور الحياة الاجتماعية السودانية .

---

(١) يوسف فضل : المرجع السابق ص ٨٠ ، ص ٣٥ .





الفصل السابع

الطرق الصوفية والمجتمع السـوداني

- عوامل انتشار الطرق الصوفية فى السودان .
- أهم الطرق التى دخلت السـودان .
- البناء الدينى والاجتماعى للطرق الصوفية .
- الصوفية والفكر الدينى .
- آثار الصوفية الثقافية والاجتماعية .
- الطرق الصوفية والحـكم .

ان الباحث فى الحركات الثورية التى عمت الشرق فى القرن التاسع عشر ليلاحظ بوضوح مدى ارتباطها بالتيار الدينى ، والاسلامى منـــه على وجه الخصوص .

ويبدو أن هناك تلاحما حميما بين الايديولوجية والرؤوى الدينية ، ولم يكن هذا التلاحم قاصرا على الشرق وحسب ، بل برز بشكل جلى فى أوربا العصور الوسطى التى أدمجت علم اللاهوت بكافة الأشكال المعبرة عن الأيديولوجية كالفلســفة والسياسة والقــانون وجعلت منها جميعـا أقساما تابعة لهذا العلم ــ علم اللاهوت ــ ، ولهذا أضطرت كل حــركة اجتماعية وسياسية أن تتخذ لنفسها شكلا دينيا حتى تحــدث أثرها فى الجماهير المتخمة بالغذاء الدينى وحده ، مضطرة أن تقدم لهذه الجماهير مصالحها الخاصة فى اطار دينى .

وهذا القول ــ ربما ــ يصدق على ما جرى فى السودان عام ١٨٨١ حين برزت الدعوة المهدية فى اطار دينى . لهذا كله لابد أن نتســاءل عن الخلفية الدينية التى نما فى رحمهــا هذا الفكر الدينى ، وهو ســؤال ــ فى تقديرنا ــ جد خطير ويطرح نفسه عند عام ١٨٨١ فى محــاولة للبحث عن أصول أو مقدمات لهذا الانفجار ، تقتضى منا بالضرورة أن نعرض لدراسة الطرق الصوفية قبل عام ١٨٨١ والتى تربى فى كنفهــا قطــاع ضخم من الشعب السودانى فى القــرن التاســع عشر بحيث استطاعت أن تشكل تلك الطرق كثيرا من فكره ، الأمر الذى جعل القيادات التى توجه هذا الفكر ــ فى نهاية المطاف ــ ذات أصول دينية أيضا .

لقد شهدت منطقة حوض وادى النيل فى مصر والسودان فى مستهل القرن التاسع عشر حدثين هامين فى المجــال السياسى والدينى (١) ، الأول كان يتمثل فى حركة البعث أو اليقظة لقوة مصر السياسية تحت زعامــة محمد على وامتدادها بطول وادى النيل والبحر الأحمر . أما الحــدث

---

(١) Trimingham, J.; Islam in Ethiopia. pp. 114-116.

الثانى فقد أخذ شكل يقظة دينية بين جموع السكان فى شرقى السودان ، بدأت على استحياء فى بادىء الأمر ثم أخذت تنمو لتأخذ فى النهاية شكل الثورة المهدية • وهذه اليقظة الدينية السودانية لبست رداء الطرق الصوفية حيث راحت تتعمق فى تعاليم روحية •

ويمكن أن نميز — فى العالم العربى ابان القرن التاسع عشر — بين نوعين من التيارات الدينية كلاهما كان يدعو للاصلاح : الأول بدأ فى مقاومة البدع الدينية التى أدخلت على المجتمع الاسلامى بالسلم تارة وبالصدام المسلح تارات أخرى ، حتى وصل الى أزمة الحكم ، أى أن هذا التيار لم يكن يفرق بين الدين والدولة • أما التيار الثانى فقد أخذ شكلا صوفيا هادئا ، وهو ما يعنينا هنا ، حيث زخر السودان بصور وألوان شتى له تمثلت فى الطرق الصوفية •

ويبدو أن هذا النشاط الدينى بشقيه الظاهر والمستتر كان بمثابة رد فعل لضعف السلطة المركزية فى الخلافة العثمانية ، حيث تفتت وحدة المسلمين وبدأت أوطانهم تخضع للاستعمار الأوربى ، فراح هؤلاء الصوفية يعملون فى الحفاظ على تلك الوحدة التى عزت فى الميدان السياسى (١) •

وحين نرصد أو نتلمس تطور الظواهر الصوفية فى السودان فسوف نعتبر عصر سلطنة الفونج هو بداية التطور الحقيقى للزهد ، وتمذهبه نحو التصوف (٢) •

عوامل انتشار الطرق الصوفية فى السودان :

هناك جملة عوامل أدت الى انتشار الصوفية فى السودان ، سواء فى عصر الفونج أو فى خلال الادارة المصرية للسودان ، ومنها ان هذه

(١) حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية . الجزء الأول . ص ٦٢ .
(٢) عبد القادر محمود : الطوائف الصوفية فى السودان . ص ١٠ .

الطرق كانت تلقى رواجا فى البلدان المجـاورة لـه أو التى كانت على صلة بها كالحجاز والعراق ومصر والمغرب ، فمن هذه البلاد جاء دعـاة الطرق وقاموا بنشر دعوتهم أو أوكلوها الى مواطنين سودانيين • كما أن السودان — فيما يبدو — له ميل الى الاعتزاز بالانتساب الى جمـاعة معينة •• الى قبيلة أو حـزب أو جمعية أو نقابة أو طريقة ، وهـذا الميل يبدو جليا لمن يتتبع تاريخ السودان •

كذلك فقد أظهر بعض المشايخ الكثير من الصفات الطيبة مما جعل الناس البسطاء يلجأون اليهم فى ساعات العسر والضيق لقضاء مصالحهم ، فكانوا يلقون عندهم الانقاذ المادى والروحى • وربما ساعد على انتشار الطرق الصوفية أيضا أن السودان لم يكن — آنذاك — به مؤسسة علمية كبرى كما كان الحـال بمصر إذ وجد الأزهر الشريف الذى التمس الناس فى أروقته العلوم الدينية التى أعطتهم شـيئا من الثقافة بينمـا راح السودانيون وجيرانهـم الأفارقة يلتمسون فى الطـرق الصـوفية بديلا للأزهـر •

ومن العوامل الأخرى التى سـاعدت على انتشـار التصـوف فى السودان ان أحوال البلاد قبيل عهـد الفونج كانت ممهدة لتقبل هـذه الطرق والانضواء فى سلكها ، فقد هاجر كثير من العرب الى السـودان تحت ضغوط سياسية سواء فى الحجاز أو مصر أو افريقية الشمالية حين آلت كلها للحكم الفاطمى ، فأصبح السودان ملاذا وملتقى لهذه الجموع النازحـة • وقد مل هؤلاء العرب التقلبات السياسية ، وكرهوا الحـكم الفاطمى خاصـة ، الى أن جاء بنو أيوب فكانوا أقرب الى قلوبهم من الفاطميين ، ثم لم يلبثوا أن شهدوا نهـاية الأيوبيين على أيدى المماليك البحرية عام ١٢٥٠ م وبعدها بنصف قرن راح بيبرس يبعث حمـلات الى السودان ويعمل السيف والنار فى بلاد النوبة ، وتزداد الحالة سوءا بالانقسامات الداخلية بين مسيحى النوبة وتدهور الأوضاع السياسية الى درجة خطيرة ، بالاضافة الى الغارات والحـروب المستمرة والعصبيات

القبلية التى كانت تمزق البلاد فى كل حين . كل ذلك أورث فى نفوس السودانيين رغبة وشوقا الى حياة هادئة بعيدة عن السياسة والعصبية ، الى أن وجدوا فى عهد الفونج هؤلاء المشايخ المتصوفة الذين يدعون الى الانتظام فى سلك العبادة حتى دخلوا أفواجا وفى حماس شديد (١) .

وللمرحوم عباس العقاد رأى قريب من ذلك حيث يقول : « ويخطر لنا أن شيوع الطرق الصوفية فى السودان قد نجم عن هذا الشقاق بين أشياع الدول الاسلامية المتعاقبة ، فانتشرت فيه الجماعات الصوفية التى تدين بالألفة بين أعضائها وتعرض فى سبيل ذلك عن التشيع لهذه الدولة أو لغيرها » (٢) .

وهكذا بدأ السودانيون يتحلقون حول هذه الطرق الصوفية ، وبمرور الوقت ازداد مريدوها ومؤيدوها ، ووجدوا فيها ضالتهم المنشودة . وقد ذهب البعض للتعبير عن شدة ولاء السودانيين لهذه الطرق الى قوله بأن للسودانيين ولاء أقوى من العاطفة القبلية ، وأكثر حيوية من تبعيته لخديوى مصر ، وهذا الولاء الثالث للاسلام ، والذى انبثقت من تعاليمه الطرق الصوفية (٣) . كما ذهب آخر الى أنه يكاد كل مسلم سودانى ينضوى تحت طريقة صوفية (٤) .

ويعرف البعض الطرق الصوفية بأنها نظام يجمع عددا كبيرا من الناس فى سلك واحد ، ولهذا السلك رئيس يسمى شيخ الطريقة ، وهو

---

(١) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ٦٥ — ٦٦ .

(٢) الأسماء العربية فى السودان ، مجلة الكتاب ، يوليو ١٩٥٢ ، ص ٧٩٣ وما بعدها .

(٣) هولت . ب . م . : المهدية فى السودان . ترجمة جميل عبيد ص ٣٤ .
انظر أيضا : عبد الله حسين : السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية ، الجزء الثانى . ص ١٥٢ .

(٤) Hamilton: The Anglo Egyptian Sudan from within. p. 209.

القائد والمرشــد لاتباعه ، ولا يتبادر الى الذهن أبدا أن هذه الطــرق عبارة عن مذاهب أو فرق دينية مثل فرقة الشيعة أو السنة (١) .

أهم الطرق التى دخلت السودان :

القــادرية :

وكانت من أكبر الطرق انتشارا فى العالم الاسلامى ، وقامت على يد عبد القادر الجيلانى فى القرن الثانى عشر الميلادى ثم دخلت افريقيا الغربية فى القرن الخامس عشر . وفى حوالى عام ١٥٤٥ قــدم شــخص الى الســودان يدعى « تاج الدين البهارى » وأدخل القادرية فى ربوعه . وقد التقى هذا الرجل بأربعة رجــال التفوا حوله وهم : محمد الأمــين ابن عبد الصادق جد الصادقاب ، و « بان النقا الضرير » جد اليعقوباب وكان يكنى بأبى يعقوب ، والشــيخ عجيب المانجلك جــد العبدلاب . و « عبد الله دفع الله العركى » جد العركيين (٢) ، وهؤلاء الأربعة كانت بيدهم السلطتان الزمنية والروحية زمن الفونج (٣) .

ولقد انتشرت هذه الطريقة فى ارتريا ومصوع واعتقد أهل مصوع ان عبد القادر الجيلانى نفســه قد توفى فى شبه الجــزيرة حيث وجــد مسجد يحمل اسمه ، ولعبد القادر الجيلانى مزار عندهم يحمل اســمه حيث يحتفلون به فى الحــادى عشر من ربيع الأول من كل عام * . كذلك فقــد ذاع انتشــارها فى هرر على يــد الشريف أبو بكر بن عبد اللــه العيدروسى المتوفى عــام ١٥٠٣ ، وبين مسلمى الجــالا . وكان للأمــير

---

(١) محمد عوض محمد : السودان الشمالى . ص ١٨ .

(٢) Wailis, OB. Religious Confraternities of the Sudan (S.N.R.) Vol. IV, 1921, No. 4. p. 180.

(٣) عبد المجيد عابدين : المرجــع السابق ص ٦٦ ، انظر ايضــا عبد القادر محمود : الفكر الصوفى فى السودان . ص ٥٢ وايضا : Wailis; Op. Cit. p. 180.

(*) المعروف أن عبد القادر الجيلانى مدفون بالعراق .

عبد الشكور أمير هرر (١٨٧٣ — ١٨٨٤) مسجد أوقف لصاحب الطريقة عبد القادر الجيلانى (١) .

ومع أن هذه الطريقة قد اخذت طريقها على الساحل الصومالى فى وقت مبكر إلا أنها لم تغزو الداخل إلا فى عام ١٨١٩ حيث حصل الشيخ ابراهيم حسن جبرو على أراضى وأسس مركزا بدأ ينمو فى المدينة التى تسمى بارديرا Bardera على جوبا . وتجدر الاشارة الى أن هذه الطريقة حظيت بتأييد قوى بارتريا ومصوع وأسمره ومعظم المدن الكبرى ، كما أنها تمتعت بنفوذ قوى أيضا بين القبائل الساحلية . وكثير من بدو أرتريا يعدون عبد القادر الجيلانى من الأولياء الصالحين ذوى المكانة الروحية الكبيرة (٢) .

ولقد اتسم نشاط القادرية فى الدعوة الاسلامية بالطابع السلمى الذى كان يعتمد كل الاعتماد على الارشاد والقدوة الحسنة ، كما كان يعتمد على مبلغ تأثير المعلم فى تلاميذه وعلى انتشار العلم ، وبهذا السلوك برهن دعاة القادرية فى السودان على انهم أوفياء لمبادىء مؤسس الطريقة ولتقاليدها العامة التى كانت تسيطر على حياة عبد القادر الجيلانى والمتمثلة فى حب الجار والتسامح . وفى ذلك يقول « سير توماس أرنولد » « ولم نجد فى كتبه ولا فى مواعظه ما يدل على سوء نية أو عداوة نحو المسيحية » (٣) .

الطريقة الخلوتية :

يرجع تاريخ هذه الطريقة الى بضعة مئات من السنين عقب ظهور القادرية . ومؤسسها هو شخص يدعى محمد الخلوتى ، والرأس المعروفة

---

(١) Trimingham; Op. Cit. pp. 239 - 240.

(٢) Ibid. pp. 240 - 241.

(٣) أنظر : الدعوة الى الاسلام . بحث فى نشر العقيدة . ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخر ، ص ٢٧٨ .

لهذه الطريقة هو تلميذه عمر الذى توفى فى قيصرية * عام ١٣٩٦ م ٠ ولقد ظلت هذه الطريقة لسنوات طويلة فى آسيا الصغرى وتركيا والحجاز والهند ٠ وفى القرن الثامن عشر دخلت الطريقة فى طور جديد على يد السيد مصطفى كامل الدين البكرى الذى كان استاذا بالأزهر الشريف والمولود بدمشق عام ١٧٣٣ ٠ أما تاريخ دخولها الى السودان فقد كان على يد السيد أحمد الطيب ولد البشير المتوفى عام ١٨٢٣ ٠ وقوبلت هذه الطريقة بترحاب شديد فى السودان وأصبح لها أتباع كثيرون ٠ ولقد كانت أسرة محمد شريف باشا نور الدايم على رأس الطريقة فى ظل الادارة المصرية (١) ٠

الطريقة السمانية :

وأصل هذه الطريقة فرع من الطريقة الخلوتية والكل ينتمى الى القادرية ٠ وتنسب السمانية الى الشيخ محمد بن عبد الكريم السمانى (١١٣٠ هـ — ١١٨٩ هـ) ، ثم استقرت على يد الشيخ أحمد الطيب فى مطلع القرن التاسع عشر ، وكان انتشارها فى بادىء الأمر بين الكواهلة وغيرهم من عرب الجزيرة (٢) ٠ وقد اشتغل الشيخ أحمد الطيب بدراسة الحديث والتفسير والتصوف ، ثم بدأ ينتقل هنا وهناك فى رحاب السودان ملتقيا بأعلام التصوف فى زمانه أمثال الشيخ حمد المجذوب شيخ المجذوبية فى « الدامر » وسافر الى الحجاز ونزل بأرض مصر فى أسيوط ومدن الصعيد ومكث فترة طويلة بالقاهرة حيث صاهره تلميذه قاضى القضاة أحمد السلاوى ٠ ومن أحفاد الشيخ أحمد الطيب الشيخ محمد شريف نور الدايم استاذ المهدى ، والذى أعطاه الطريقة السمانية (٣) ٠

(*) تقع فى تركيا ٠

(١) Wailis, Op. Cit., p. 182.

(٢) عبد القادر محمود : الطوائف الصوفية فى السودان ص ٣٢ ٠

(٣) نفس المرجع ص ٣٢ ٠

ولقد انتشرت الطريقة السمانية بين جموع الجبرتية فى الهضبة الارترية على يد شيخ مغربى يدعى آدم الكتانى * . وكان هذا الشيخ من السودان فقام بنشرها بين قبائل الجالا ، إلا أنه لم يحرز نجاحا كبيرا بين عرب الحبشة (١) .

الطريقة المجذوبية :

وهذه الطريقة مأخوذة من الطريقة الشاذلية التى أسسها الامام أبو الحسن الشاذلى (١١٩٦ — ١٢٥٨ م) المولود بشاذلة بتونس (٢) . وقد انتشرت طريقته فى مراكش فى القرن الخامس عشر على يد أبى عبد الله محمد سليمان الجزولى ، ويقولون ان احدى بناته تزوجت من الشريف حمد أبى دنانة الذى نزح الى السودان وبصحبته ابنه السيد ابن الحسن وأقاما فى المكان المسمى الآن (المحمية) وذلك فى عام ١٤٤٥ م قبل قيام السلطنة الفونجية وراحا يشرحان للناس الطريقة الشاذلية الى أن رسخت دعائمها زمن الفونج على يد الشيخ خوجلى عبد الرحمن المحسى المتوفى عام ١٧٤٣ . ويقال أيضا أن هذا الشيخ كان فى أول الأمر قادريا ثم أصبح شاذليا أى أن طريقته شاذلية ذات

(*) لم يذكر المؤلف تاريخا لدخولها ونرجح انها دخلت فى منتصف القرن ١٩ .

وقد تفرعت عن السمانية طريقة اخرى تسمى الهندية تحت رئاسة الشريف يوسف الهندى . (محمد عوض : المرجع السابق ص ٢٠) .

(٢) عبد الحليم محمود : المدرسة الشاذلية الحديثة وامامها ابو الحسن الشاذلى ص ٢٤٩ . ولكن أحد الباحثين يرجع تأسيس هذه الطريقة الى شخص يدعى أبو مدين الأندلس المولود بسيفيل Seville عام ١١٢٦ م . وكان تلميذا للشيخ عبد القادر الجيلانى . وانتشرت تعاليمه فى شمال افريقيا على يد عبد السلام بن مشيش Mashish وفى الشرق عن طريق أبى الحسن الشاذلى .

انظر : (Wailis; Op. Cit. p. 183.)

والاختلاف يدور هنا فقط حول المؤسس الرئيسى لها ولكن لا خلاف على أن الشاذلى قام بنشر هذه الطريقة .

أثر قادرى (١) . وفى القرن الثامن عشر انتقلت الطريقة من بعـــده الى حمد بن محمد المجذوب (١٦٩٣ — ١٧٧٦ م) الذى أنشأ بعد عـــودته من مكة فرعا للشاذلية فى الدامر وسميت طريقته بالمجذوبية ويطلق على من يسلكونها اسم « المجاذيب » (٢) .

ويبدو أن أسرة المجاذيب فى ذلك الوقت كانت تحظى بمكانة دينية رفيعـــة بين سكان الدامر الأمـــر الذى جعلها تأخـــذ زعامة الطريقـــة وتتوارثهـــا (٢) .

وقد يكون من المفيد ونحن نتتبع تطور هذه الطريقة أن نعـــرض لأوضاع بلدة الدامر ، موطن المجاذيب وطريقتهم ، من الناحية العلميـــة والدينية فى مطلع القرن التاســـع عشر حتى يمكننا فهم هذه الطـــريقة واسلوب انتشارها بين سكان السودان . وفى هذا الوصف يتجلى لنا مدى السلطة الدينية التى كانت تحظى بها الطريقة المجذوبية . فقـــد كانت عشيرة آل المجذوب فى معظمهم من رجال الدين وليس لهم شيخ يتولى زعامتهم ، بل فقيه يسمى « الفقى الكبير » فهو الرئيس الفعلى والقاضى الذى يتولى الفصل فى خصوماتهم ، وأصبح هذا المنصب وقفا عليهم منذ مـــدة طويلة وأشتهروا بين الناس — كما يذكر بوركهارت — « بالسحر والعرافة » ✻ .

---

(١) عبد المجيد عابدين . المرجع السابق ص ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) نفس المرجـــع ص ٦٨ . ويبـــدو ان هنـــاك اختـــلافات كثـــيرة حـــول النســـب المجـــذوبى وقد نشـــأ هذا الاختـــلاف نتيجـــة التشـــابه الشديد بين الاسماء مما ســـبب خلطا كثيرا لـــدى المؤرخين قدامى ومحدثين فى الشرق والغرب . فهم يخلطون بين الفقية حمد بن المجـــذوب وجده الكبير حمد عبد الله . وبين محمد المجذوب بن قمر الدين وبين جدابية محمد المجذوب ابن على ابى دافع .

(عبد القادر محمود : الطوائف الصوفية فى السودان ص ٨٥) .

(2) Wailis; Op. Cit. p. 183.

(✻) لا يسمى رجال الدين من الفقهاء والمتصوفة ذلك سحرا او عرافة بل يعدونه كرامات ظاهرة « منحها الله اياهم » .

انظر : مخطوطة كاتب الشونة : تحقيق الشـــاطر بصيلى ص ١١١ ، ص ١١٢ .

وكانت بالبلدة مدارس كثيرة يؤمها الطلاب من كافة أنحاء السودان من دارفور وسنار وكردفان وغيرها لدراسة الفقه دراسة تؤهلهم ليكونوا فى بلادهم فقهاء كبارا • كذلك فقد زخرت بيوت فقهاء الدامر بالكتب ذات الطابع الدينى ، وهذه الكتب كانت تجلب من القاهرة إذ كان كثير من الفقهاء مجاورا بالازهر أو فى المسجد الحرام بمكة ، وكانوا اذا عادوا من تلك الرحلات العلمية التى تمكث سنوات عدة نقلوا ما حصلوه من علم الى أبناء البلدة (١) • وكان بالبلدة جامع كبير ملحق بـه مكان مكشوف محاط بحجرات للدرس ، وبالاضافة الى ذلك كان لكثير من فقهاء البلدة زوايا صغيرة بجوار بيوتهم ، كما كان كبار الفقهاء محاطين بمظاهر الورع والتقوى ، ويعيش « الفقى » الكبير عيشة العابد المتقشف المنقطع للعبادة والدرس ، وقد أطلق بوركهارت على كل ذلك وصف « الدولة الدينية الصغيرة » التى كانت تصرف شئونها بمنتهى الحكمة والتعقل ، واستطاعت أن تجعل جيرانها يكنون لفقهاء أعظم الاحترام والاجلال (٢) •

فى وسط هذا المناخ الدينى والعلمى نمت المجذوبية ، فكان زعماء المدينة الدينيون وأهلها مؤهلين لتقبل تعاليم الطريقة المجذوبية فهذه الرياح الجديدة ليست غريبة عليهم •

ومعروف أن أسرة المجاذيب من الجعليين لذلك فانه عقب مقتل اسماعيل كامل فى شندى ، ومحاولات أخذ الثأر من الجعليين هرب المجذوب الى سواكن ، ثم سافر الى مكة حيث درس لسنوات عدة على يد السيد أحمد ادريس ، وفى خلال عودته الى السودان فى حوالى عام ١٨٣٠ قام بنشر الطريقة فى سواكن وبين القبائل الشرقية المنتشرة

---

(١) بوركهارت المصدر السابق : ص ٥٠١ ، ص ٢٠٦ •
(٢) نفس المصدر ص ٢٠٧ •

حول سواكن من البجاة وخاصة الهدندوة والبشاريين • وقد عاد المجذوب الى بلدته عام ١٨٣٢ حيث مات ودفن هناك •

وكان من بين خلفائه الشيخ ياسين السواكينى والشيخ على دقنه عم عثمان دقنه الشهير (١) •

ويبدو أن أتباع هذه الطريقة كانوا يتمتعون بصفات طيبة واخلاص واضح لتعاليم طريقتهم ، من ملازمة للاذكار والرواتب عقب الصلوات واتباع للأمر والنهى والاقتداء بشيخ الطريقة والسير على نهجه وامتناعهم عن الأكل مع تارك الصلاة ، كذلك فانهم كانوا يحرصون على صلاة الجماعة ، فاستطاعوا بذلك كله ترسيخ قواعد هذه الطريقة (٢) •

ويشير البعض الى طريقة أخرى ذات صلة بالشاذلية وان كانوا لا يقطعون بصحة هذه الصلة تلك هى المسماة بطريقة (أبو جريدة) حيث يقولون ان عبد الله دفع الله العركى عاد من احدى رحلاته الى مكة ومعه سبعة أشراف استوطنوا السودان واشتهروا بالصلاح وكان لأحدهم ولد يدعى « الشريف أبكر » انقطع للعبادة دون أخذ الطريقة على شيخ وتعلم أمورا فى السحر والغيبيات ، ثم استطاع أن يعلن مع زميل له يدعى (أبو جريد) قيام هذه الطريقة (٣) •

وتتهم هذه الطريقة بالخزعبلات ، وشيوع طقوس سرية غير مألوفة لدى كافة الطرق الصوفية فى السودان (٤) • ولما كانت تعاليم الطريقة الشاذلية — كما ذكرنا — بعيدة عن مثل هذه الطقوس ، فاننا نستبعد

---

(١) Wailis, Op. Cit. p. 184.
(٢) يحى محمد ابراهيم : التعليم الدينى فى السودان ص ٣٤ .
(٣) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٦٧ ، ٦٨ .
(٤) Wailis; Op. Cit. p. 184.

أن تكون طريقــة أبو جريدة ذات صلة بالشاذلية التى كانت البسـاطة سمتها الأساسية (١) •

الطريقة الادريسية (الأحمـدية) :

مؤسس هذه الطريقة هو السـيد أحمـد بن ادريس القاسـمى (١٧٦٠ — ١٨٣٧) ، المولود ببلدة Arkish بمراكش • وقد تلقى تربيته ونشأته بفاس ، وتلقى الطريقة الشاذلية من الشيخ عبد الوهاب التازى • وقد سافر الى القاهرة فى عام ١٧٨٨ واتجه منها الى مكة فى عام ١٧٩٧ حيث تلقى مزيدا من العلم (٢) •

وقد لعب هذا الرجل دورا هاما فى حركة النهضة الاسلامية فى أوائل القرن التاسع عشر ، وبقدر ما كان مصلحا فهو صوفى يهـدف الى وحدة المسلمين • وكانت له ميوله المتعاطفة مع الوهابيين ، ويقال انه حـاول أن يخفف من التطرف الشديد لـدى تعاليم بعض الطرق الصـوفية ، وطـلب بالتركيز على المعرفة الشرعية للقرآن الكريم والشريعة كأسـاس ضرورى لكل من ينشد الدخول فى سلك الصوفية (٣) •

ولم تقتصر مهمـة أحمد بن ادريس على كونه مؤسسا وشـيخا للطريقة الادريسية بل كان معلما لشخصيات بارزة كما سبق القـول • ويتركز مريدو هـذه الطريقة فى السودان ببلدة دنقلة وان كان مركزها الأساسى — حاليا — بدراو بالاضافة الى القاهرة ، كما وأن لها فرعـا بالعسير ينتمى الى هذه الطريقة (٤) •

ولم يقتصر وصول الطريقة الى هذه الأجزاء بل انتقلت الى شرق افريقيا فى عام ١٨٧٠ على يد شيخ صومالى يدعى (على ماى دوروقبا)

---

(١) Wallis; Op. Cit. p. 183.

(٢) Ibid. p. 184.

(٣) Trimingham; Op. Cit. p. 292.

(٤) محمد عوض محمد : المرجع السـابق • ص ٢٠ •

Ali Maye Durogba وقد تلقى هذا الشيخ تعاليم الطريقة الادريسية حين كان يؤدى فريضة الحج وبعد عودته وطد نفسه لنشر تعاليمها فتشكلت من حوله جماعة كبيرة ارتضت الادريسية طريقة لها • وقد حصل هذا الرجل على شهرة عظيمة بين الصوماليين وكثر أتباعه بين القبائل ، ويعزو البعض هذه الشهرة الى الأعمال الاعجازية التى قام بها بالاضافة الى ملاءمة الدعاية التى قام بها مع أفكار الصوماليين فى ذلك الوقت (١) •

الطريقة الرشيدية :

تفرعت هذه الطريقة عن الادريسية وقد أسسها الشيخ ابراهيم الرشيد من بلدة الدبة بدنقلة ، وكان مريدا للسيد أحمد بن ادريس سائرا على تعاليم الادريسية • وتركز اتباع هذه الطريقة فى دنقلة وأم درمان وجزيرة توتى والنيل الأبيض خاصة فى « كوا » • ولهذه الطريقة أتباع فى الصومال وسوريا (٢) •

الطريقة الميرغنية (الختمية) :

أسس هذه الطريقة فى السودان محمد عثمان الميرغنى الكبير (١٧٩٣ — ١٨٥٢) الذى ولد ونشأ بالحجاز ، وتنسب الطريقة الى الجد الأكبر السيد على الميرغنى * • ويقال أن أحمد بن ادريس هو الذى أرسله من مكة لنشر تعاليمه فى مصر والسودان وما جاورهما • ويذكر البعض أن هذه الطريقة قد بنيت على أصول طرق خمس رمز لها بكلمة

---

(١) Trimingham; Op. Cit. p. 242.

(٢) Wailis; Op. Cit. p. 187-188.

(*) يقول البعض ان اسم الميرغنية يشتق احيانا من « أميرغنى » اى الأمير الثرى • (انظر : Wailis; Op. Cit. p. 185.) •

« نقش جم » فالنون للنقشبندية ، والقاف للقادرية والشين للشاذلية ، والجيم للجنيدية وأخيرا الميم للميرغنية (١) •

وقد دعيت هذه الطريقة أيضا بالختمية لأن شيخها ـ كما يقال ـ وصل فى سلوكه الى رتبة الختم وهى مرتبة عند الصوفية لا يصل اليها إلا عارف « ولى » فى كل قرن (٢) ، أو ربما باعتبارها خاتم الطرق (٣) • أو ربما أيضا نسبة الى خاتم الأنبياء (٤) •

ولقد بدأ محمد عثمان الميرغنى رحلته من الحجاز فوصل الى أسيوط مارا ببلاد الصعيد حتى أسوان ومنها الى دنقلة التى استطاع أن يجمع فيها أنصارا عديدين من النوبيين ، الأمر الذى شجعه على مواصلة المسيرة الى كردفان حيث تزوج من « بارا » ومن الأبيض (٥) • ثم امتدت دعوته الى سنار وما حولها حتى اتجه نحو الشمال ومر بشندي والمتمة وعرج نحو الشرق الى قوز رجب وكسلا ، واستطاع من خلال جولاته تلك أن يضم الى طريقته مريدين جددا من قبائل بنى عامر والحلانقة والحباب والبشارية وغيرهم ، وفى كسلا قام بتأسيس قرية (الختمية) التى كانت المقر الرسمى والرئيسى (٦) •

ولقد تولى السيد محمد الحسن نجل محمد عثمان أمور الطريقة بعد وفاة والده عام ١٨٥٢ ، وكان قد أرسله والده فى حياته الى سواكن

---

(١) عبد الله حسين : السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية ، الجزء الثانى • ص ١٥٣ •
انظر ايضا : Wailis; Op. Cit. p. 180.
(٢) نفس المرجع ص ١٥٣ •
(٣) Trimingham; Op. Cit. p. 244.
(٤) عبد القادر محمود : الطوائف الصوفية فى السودان ١٢٩ ، ١٣٠ •
(٥) عبد القادر محمود : الفكر الصوفى فى السودان ص ٢٥ •
أنظر أيضا : Wailis; Op. Cit. p. 186.
(٦) Trimingham; Op. Cit. p. 244.
Wailis; Op. Cit. p. 186.
وكذلك عبد الله حسين : المرجع السابق ص ١٥٥ •

وارتريا لنشر الطريقة هنـاك • وهكذا بعـد تأسيس الختمية فى شرقى السودان بدأ محمد الحسن يواصل العمـل الذى بدأه والده حتى عمت الطريقة مصوع وأرتريا وجنوب غربى الحبشة عند نهاية القرن التاسع عشر (١) • ويعد محمد الحسن كما يقول ترمنجهام هو المسئول الرئيسى عن النفوذ الكبير الذى حصلت عليه الطريقة الختمية بين قبائل السودان فى الشرق والقبائل الأرترية • وقد انتقلت الطريقة الى مصوع عن طريق هاشم الميرغنى الذى وصـل اليها عـام ١٨٦٠ حيث كانت تحت الادارة العثمانية (٢) •

وعقب وفاة محمد الحسن فى عام ١٨٦٩ خلفه فى رئاسة الطـريقة ابنه محمد الميرغنى ، (١٨١٩ — ١٨٨٦) ، الذى حاول الارتقاء بالطريقة بما عرف عنه من الذكاء والنشاط ، كما أنه تمتع بمكانة خاصـة فى تاريخ تلك الفترة ، واستطاع أن يلعب دورا هاما خلال الطور العلنى للثـورة المهـدية فى محاولة منه لاحلال السلام على أرض السودان • وقـد ظل بالختمية حتى بعد سقوط الخرطوم فى يناير ١٨٨٥ (٣) •

وتعتبر الطريقة الختمية من أوسـع الطرق الصوفية انتشـارا فى السـودان وتحظى بمكانة رفيعة ، كما أنهـا تمتاز فى إذكارها وأورادها وسائر مظاهرها بخلوها من البدع والأمور الطارئة على الطرق الصوفية كالطبل والزمر وغير ذلك ، فجميع أذكارها وأورادها ترجع الى الكتاب والسنة بناء على أسانيد صحيحة (٤) • وكما سبق القول فقـد ارتبطت الطريقة الختمية بعـدة طرق إلا أن ارتباطها بالشاذلية كان شـديدا ، وخصوصا من خلال مزج أحزابهم بفقرات ورسائل كاملة من أحـزاب « البر » و « البحـر » للامام الشاذلى (٥) •

---

(١) عبد القادر محمود : الطوائف الصوفية ص ١٢٨ •

(٢) Islam in Ethiopia. pp. 225, 244.

(٣) Hill; A biographical Dictionary of the Sudan p. 279.

انظر ايضا : Wailis; Op. Cit. p. 186.

(٤) عبد الله حسين : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٥٥ — ١٥٦ •

(٥) عبد القادر محمود : المرجع السابق ١٣٣ •

وللسيد محمد عثمان الكبير مؤلفات كثيرة منها تفسير القرآن المسمى « تاج التفاسير » ، بالاضافة الى مؤلفاته فى الحديث وعلم المصطلح والتوحيد والتصوف والصلوات والأوراد والمدائح النبوية وغير ذلك من العلوم الدينيـــة (١) .

الطـــريقة الاسماعيلية :

وهى من الطرق الصوفية التى انبثقت عن الختمية فى أوائل القـــرن التاسع عشر ، إلا أنها تعد ســودانية النشأة بعكس كثير من الطـــرق التى انتشرت فى السودان ، بمعنى أن أفكارها ومؤسسيها الأول كانوا من أهل البلاد ولم يكونوا وافدين من خارجهـــا . ويعد الشيخ اسماعيل ابن عبد الله الملقب باسماعيل الولى هو المؤسس لها فى الأبيض بكردفان . وترجع أصول والده الى دنقلة بشمال الســـودان الذى قدم الى مدينـــة الأبيض ليعمل بالتجارة كسائر الدناقلة الذين اشتهروا بأعمال التجارة فى أنحاء السودان كافة وفى الأبيض خاصة لدرجة أن لهم حيا خاصا عرف بحى الدناقلة . وفى هذا الحى ولد اسماعيل الولى ونشأ وحفظ القرآن الكريم وأظهر نبوغا مبكرا ، كما عمـــل بالتدريس قبل أن يلتقى بشيخه السيد المكى الختم محمد عثمان الميرغنى . وفى عام ١٨١٣ التقى اسماعيل الولى بشيخه محمد عثمان الميرغنى فى مدينة الأبيض وتلقى عنه بعض العلوم الدينية واللغوية ، وســـارع بالانضمام الى الختمية وانخرط فى القيام بواجباتها حتى جاء عام ١٨٢٣ فاستأذن اســـتاذه محمد عثمـــان الميرغنى فى تأسيس طريقة جـــديدة فأذن لـــه على أســـاس أنهـــا فرع للختمية (٢) . وقد انتشرت هـــذه الطريقة فى جميع أرجاء الســـودان ولاسيما فى كردفان وأم درمان ودنقلة بالاضافة الى دارفور (٣) .

---

(١) عبد الله حسين : المرجع السابق ص ١٥٦ .
(٢) عبد القادر محمود : المرجع السابق ص ١٤٢ .
(٣) Wailis; Op. Cit. p. 186.

ويشير البعض الى أن مؤسس هذه الطريقة قد جمع فى مؤلفاته بين علمى الشريعة والحقيقة فى فترة كانت تتسم بالركود العلمى ، فقد نيفت مؤلفات الشيخ اسماعيل على الخمسين كتابا فى المجالين المشار اليهما ، وتمتاز هذه المؤلفات بالأحكام الفنى وبلاغة الأسلوب على خلاف ما يلاحظ فى اشعار المتصوفين فى السودان آنذاك ، ومن أشهرها « مشارق الأنوار » (١) . وبمعنى آخر أن شيخ هذه الطريقة ومريديه لم يقتصروا على مجرد الأمور الشكلية المعروفة عن الطرق الصوفية ولا حتى العلوم المرتبطة بهذه الطرق أو ما يعرف لديهم بالعلم الحقيقى ، بل تعدوا ذلك الى علوم الشرع حيث عكفوا على دراساتها وشرحها للمريدين ، بل والتأليف فيها كما سبق القول .

ومن الطرق المتصلة بالختمية الطريقة النقشبندية التى أسسها عبد الدين بن محمد بهاء الدين البخارى النقشبندى . وهذه الطريقة ليست موجودة فى السودان فى شكلها الأصلى ولكن كواحدة من أسس الطريقة الختمية .

الطريقة التجانية (*) :

وهى من أشهر الطرق فى أفريقيا بصفة عامة ، فقد عرفت هذه الطريقة بأسلوبها المتميز فى نشر الاسلام فى غرب افريقيا والذى ينحو نحو الحزم الشديد الممزوج باستخدام القوة كما كان يغلب عليها النزعة الصوفية العميقة (٢) .

ولقد أسس هذه الطريقة السيد أبو العباس أحمد بن محمد بن المختار بن سالم التجانى (١٧٣٧ – ١٨١٥) المولود بعين ماضى

---

(١) عبد الله حسين : المرجع السابق ص ١٥٢ .

(*) يقال لها : تجانية بتشديد الجيم ودون ياء ، ولا يقال لها التجانية (عبد القادر محمود : المرجع السابق . ص ٥٨) .

(٢) محمد عوض محمد : المرجع السابق . ص ٢٠ ، ٢١ .

بالجزائر ، ومن بين المناطق التى زارها فى السودان مدينة الأبيض حيث أقام فيها خمس سنوات (١) .

وقد كان انتشارها فى السودان فى حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، حيث سارت على نفس أساليب الطريقة القادرية فى الدعوة مع فارق جوهرى وهو أن التجانية لم تكن تتورع عن اللجوء الى السيف (٢) . وربما يكون مرد هذه النزعة القتالية الى الحماسة الشديدة لديهم فى نشر العقيدة بالاضافة الى البيئة المحيطة بهم بكل مشاق الطبيعة وسط قبائل لا تنزع الى النظام ، بالاضافة الى المناخ الوثنى الذى كانت تعيش فيه هذه القبائل ، ويشبه البعض (٣) الطريقة التجانية فى هذه الناحية بالمهدية التى لجأت الى القوة فى تنفيذ مخططاتها الدينية . إلا أننا نرى أن هناك فارقا جوهريا بينهما وهو أن التجانية كان مسرحها فى أغلب الأحيان وثنيا وفى مواجهة الأوربيين بعكس المهدية .

وميدان انتشار هذه الطريقة فى السودان اقليم النيل الأعظم بين أم درمان والدامر ، ويقال ان جميع الفلاتا المقيمين حول سنار تابعين لها ، كما أن لها نفوذا واسعا فى دارفور (٤) .

السنوسية :

أسس هذه الطريقة الفقيه الجزائرى محمد بن على السنوسى بهدف اصلاح شأن الاسلام ونشر العقيدة الاسلامية .

ولقد اختار مؤسس الطريقة مدينة برقة مركزا لدعوته نظرا لاتصال منطقة الجبل الأخضر بالعالم الخارجى عن طريق ثغرى درنه وبنغازى

---

(١) عبد القادر محمود : الطوائف الدينية ص ٥٨ .
(٢) ارنولد : الدعوة الى الاسلام . ص ٢٧٨ .
(٣) عبد القادر محمود : الفكر الصوفى فى السودان ص ٥٤ .
(٤) محمد عوض محمد : المرجع السابق ص ٢٠ ، ٢١ .

بالاضافة الى مرور جميع القوافل القادمة الى طرابلس وفزان وبرنو ووادى أو تلك الآتية منها بهذا الجبل ، ولهذا كله وجدت الدعوة السنوية سبلا عدة للاتصالات وبسط النفوذ . وفى عام ١٨٤٢ أنشأ السنوسى الكبير زاوية البيضاء ، ثم انتقل بعدها الى زاوية الجغبوب نظرا لأن زاوية البيضاء كانت على مقربة من الساحل الأمر الذى يجعلها قريبة من سلطان الحكومة العثمانية فى بنغازى والتى راعها أن الزاوية البيضاء أصبحت بعد فترة وجيزة من انشائها مدينة كبيرة . فلذلك فضل أن يكون المقر الجديد لزاويته فى الجنوب البعيد عن الساحل والذى تكثر فيه القبائل العربية التى قبلت السنوسية وأصبح فى الامكان أن يعتمد عليها فى نشر دعوته داخل الصحراء (١) . وكان من الطبيعى والزوايا السنوسية تنتشر فى الصحراء الكبرى وعلى حدود السودان أن تمتد هذه الطريقة اليه ، بل انها وصلت أيضا الى الصومال (٢) .

طرق أخرى :

وهناك بعض الطرق والطوائف الأخرى التى انتشرت فى السودان ولكنها لم تبلغ من الضخامة والتنظيم كما بلغته الطرق السابقة ، كما أنها لم تلعب دورا يذكر فى المجتمع السودانى بل ظلت تدور فى فلك أصحابها الذين قاموا على تأسيسها ولم تجتذب مريدين كثيرين بحيث يشكلون ثقلا جماهيرا ، لذلك آثرنا الوقوف على أهم تلك الطرق الصوفية الرئيسية التى دخلت السودان أو التى نشأت به فى القرن التاسع عشر .

البنـاء الدينى والاجتماعى للطرق الصوفية :

لا يكفى اطلاقا أن نعرض لنشأة الطرق الصوفية فى السودان ، بل انه من اللازم أن نغوص فى داخل هذا التركيب الدينى الاجتماعى الذى يعد ركنا أساسيا من أركان المجتمع السودانى بجانب البناء القبلى .

---

(١) جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ص ٣١٨ ، ٣١٩ .
(٢) عبد القادر محمود : المرجع السابق ص ٥٥ .

فكثيرا ما يصعب على الباحث فى تاريخ السودان ابان القرن التاسع عشر أن يميز بين الجماعة الصوفية وأهل الحلة أو العشيرة الواحدة فى السودان • فقد لاحظنا على سبيل المثال أن سكان الدامر أهل بلدة واحدة وفى ذات الوقت هم أهل طريقة صوفية واحدة هى الطريقة المجذوبية ومثل هذا يمكن أن يصدق على جماعات كثيرة فى السودان كاليعقوباب والصادقاب ، وهما جماعتان صوفيتان صغيرتان تستقران فى مقر معلوم • وقد يصعب أحيانا التمييز بين القبيلة الصغيرة (العشيرة) وبين الطريقة الصوفية من ناحية مؤسسى كل منهما ، فالرجال الذين حملت أسماءهم بعض القبائل كانوا هم أيضا قادة الرأى وأيضا مؤسسى بعض الطرق ، فالعلاقة بين نظام القبيلة ونظام الطرق قوية وتقف على أرضية مشتركة •

وثمة ملاحظة مشتركة أيضا تتمثل فى أن نظام الطريقة مشابه فى جوهره لنظام القبيلة من حيث أن لكل منهما شيخا هو رئيسها الأعلى ، وهذا الشيخ يكاد يقبع فى الرئاسة طوال حياته ، حتى يرثه واحد من أبنائه ، ويلاحظ كذلك ان الطريقة الصوفية يمكن أن تتفرع الى عدة فروع وقد يندمج بعضها فى البعض الآخر وكذلك الحال بالنسبة للقبيلة • وفى تتبعنا التالى لبناء الطريقة الصوفية ربما تتضح الصورة أكثر •

١ ــ شيخ الطريقة :

يعتبر شيخ الطريقة أحد الأركان الأساسية عند كل طريقة ، فقد لاحظنا ان كل الطرق سواء الرئيسية منها أو المنبثقة قد تحلقت حول شيخ لها راح يجوب الاصقاع داعيا الى طريقته كسبا للمريدين والاتباع • ولم يكن من السهل لأى فرد أن يكون طريقة خاصة لأن ذلك يقتضى شروطا تؤهله لقيادة مسيرة الطريقة • وأولها فى اعتقادنا أن يكون ذا نسب شريف أى أن له صلة ببيت الرسول (عليه الصلاة والسلام) أو حتى على الأقل أن يكون من أهل مكة • ولا نسوق هذا القول جزافا ، ولكن اذا لاحظنا سيرة معظم زعماء الطرق فسوف يتضح ذلك بجلاء ،

حتى أولئك الذين ولدوا خارج مكة والمدينة كانوا حريصين على سلسلة النسب الشريف هذه • وهذا النسب وحده لا يكفى لكى يخلق من الفرد شيخا لطريقة ما ولكن لابد وأن يقترن بعلم وذكاء ، وهذا العلم لا يقتصر على ما يسمى عند المتصوفة بعلم الباطن ، بل أيضا العلوم الشرعية التى تعين المسلم العادى البسيط على العبادة والمعاملات الدنيوية • ويصدق هذا على شيخى الميرغنية والمجذوبية فكلاهما كان عالما متفقها ولكل منهما مؤلفات فى علوم الدين الاسلامى • وكان لابد أيضا أن تقترن هذه الصفات بالورع والتقوى والقدوة الحسنة ، لأن أولئك الرجال من الصوفية فى القرن التاسع عشر كانوا لا يقتصرون على مجرد كسب أتباع مسلمين يرددون أورادا لهذه الطرق بل كانوا أيضا يقومون بنشر الدعوة الاسلامية كما لاحظنا بالنسبة للتجانية والسنوسية • فكان من الطبيعى أن يسبق خلق وسلوك هذا الداعية دعوته الى الاسلام وهذا ما شهدناه بالنسبة للسنوسيين الذين كانوا يشترون العبيد ويعلمونهم فى جغبوب مبادىء الاسلام ثم يتركونهم يعودون الى ديارهم بعد عتقهم حتى اذا ما رجعوا الى أوطانهم كانوا دعاة للاسلام والطريقة معا (١) • وهذه الصفة الأخيرة شهدناها بوضوح لدى شيوخ المجذوبية فى الدامر الذين كانوا مثالا حيا للورع والتقوى والقدوة الطيبة ولذلك استحقوا اشادة الرحالة السويسرى بوركهارت عند زيارته لهذه البلدة فى أوائل القرن التاسع عشر •

والى مقر الشيخ ، الذى كان فى الغالب مقرا للطريقة ، يفد الناس والمريدون حيث يمتلىء بهم ، وهنا لابد من وقفة للاشارة الى أن هذا المكان بالاضافة الى كونه مقرا لشيخ الطريقة فهو أيضا للعبادة والمأوى ففيه يتم قراءة الأوراد والأذكار وقراءة القرآن الكريم ، وفيه يجتمع الكل من شتى القبائل تحت لواء الشيخ •

---

(١) ارنولد : الدعوة الى الاسلام • ص ٢٨٢ •

ولسنا مع القائلين بأن أساس الطرق الصوفية فى الاسلام هو ذلك الاعتقاد بأن المريد الذى يرغب فى الاتصال بالله فى حاجة الى قيادة شخص أو « واسطة » من أولئك المتمرسين فى الطريق الى هذا المكان . وهذه الواسطة فى رأيهم — تكمن فى شيخ الطريقة الذى يمنح البركة ويقوم بدور الوسيط بين المريد وبين الله (١) . وهذه الرؤيه أو هذا التفسير فيه تجاوز وخطأ جسيم لفهم أساس الشريعة الاسلامية ، فليس هناك البته واسطة بين المسلم وربه ، وقد نفت آيات كثيرة من القرآن الكريم اتخاذ أى لون من ألوان الواسطة لتقرب الانسان زلفى الى الله . واذا كان القرآن الكريم وهو الكتاب المنزل من عند الله لم يعتبر الرسول محمد عليه السلام واسطة بين المسلم وربه فهل يعقل أن يقوم شيخ بهذه المهمة ؟ ثم ان رجال الطرق الصوفية أنفسهم لا يمكن أن يكون قد ورد فى أذهانهم مثل هذا التفكير الخاطىء . وقد يكون مرد هذه الأقاويل غير الدقيقة الى مسألة ما يسمى « بالعهد » فى الطرق الصوفية حيث كان لكل طريقة صوفية عبارات معينة يتعهد فيها المريد بالسير على نهج الطريقة وهذه النهج لا يخرج عن تعاليم الاسلام . فكان المتلقى لهذا العهد عادة ما يبدأ حياة جديدة يتوب فيها عن المعاصى التى ارتكبها ويتعهد أن يبدأ صفحة جديدة ، وكثير من أولئك المريدين ما يصبح — بعد أن يصل الى درجة معينة من الحب للشيخ — أداة طيعة فى يد الشيخ لصالح الطريقة . فكل هذه الأفعال وما يرتبط بها ومقارنتها ببعض العقائد السماوية الأخرى جعلت البعض يتصور أن هناك واسطة بين الله وبين الانسان ، فسارعوا الى الحكم بأن هذه الواسطة هو الشيخ .

١ — الخليفة :

وهذه الوظيفة كانت تالية لمنصب شيخ الطريقة وكان الخلفاء يعملون وفق تعليمات الشيخ ، كما أنهم كانوا يحلون محله فى التعليم ،

---

(١) Trimingham; Op. Cit. p. 233.
أنظر ايضا : محمد عمر بشير : جنوب السودان . ص ٢٦ .

وضم مريدين جدد الى الطريقة • ونظرا لما كانت تضفيه هذه السلطة من اجلال لصاحبها فقد اكتسب هؤلاء الخلفاء مكانة رفيعة الى الدرجة التى جعلتهم — فى بعض الأحايين — يحجبون الشيخ الحقيقى للطريقة عن أعين أتباعهم المحليين (١) وحتى يطمئن شيوخ الطرق الصوفية الى استمرار طرقهم فى أداء مهامها بعد مماتهم فقد حرصوا على تعيين أو تسمية من يخلفهم • وقد يتعدد خلفاء الطريقة الواحدة تبعا لتعدد الأماكن التى تنتشر فيها الدعوة لهذه الطريقة • وقد بنيت سلطة كل خليفة محلى على سلسلة من التقاليد الصوفية التى انقسمت فى جملتها الى شقين : الأول ويتمثل فى سلسلة العهد الذى يربط الخليفة بمؤسس الطريقة ، والثانى ويتمثل فى سلسلة « الورد » * الذى يربط المؤسس بالرسول (٢) • هذا ، وقد كان لكل طريقة عهودها الخاصة كما كان لكل واحدة منها أورادها وأحزابها التى تتلوها فى أوقات معينة من اليوم • والفرق بين الورد والحزب أن الورد يقرأ فى وقات منظمة فيقال أوراد النهار وأوراد الليل ، أما الحزب فليس لقراءته وقت معلوم (٣) •

٣ — المريدون :

وهم أتباع الطريقة من الجماهير العريضة المنتشرة فى جميع الأصقاع والذين ارتضوا السير على منهاج الطريقة فى سلوكهم الدينى والدنيوى ، ولابد للمرء الذى يريد أن ينخرط فى سلك طريقة ما ليصبح مريدا لها أن يأخذ العهد بذلك كما سبق القول سواء من الشيخ الأصلى للطريقة أو من خليفته • وكان هؤلاء الأتباع يسمون — أحيانا — بالدراويش بالإضافة الى المريدين • وما أن يأخذ المريد « العهد » حتى يبدأ فى الممارسة الفعلية لطقوس وتعاليم طريقته من أوراد وأحزاب

---

(١) Trimingham; Op. Cit. p. 236.

(*) بكسر الواو وتسكين الراء .

(٢) Ibid. p. 236.

(٣) عبد العزيز أمين عبد المجيد : التربية فى السودان ، الجزء الأول ص ١٤٧ .

وأذكار وآداب . ولابد للمريد من معرفة كل هذه الأمور حتى يتبعها في تعبده واتصالاته بشيخه وزملائه . وعلى غير عادة المتصوفة كان رجال الصوفية في السودان أكثر امعانا في قراءة الأحزاب والأوراد والتوسلات ، وكان المريد حريصا كل الحرص على أدائها كما تلقناها تماما من شيخه (١) . ولم يكن معظم شيوخ ومريدي الطرق الصوفية في السودان يتقيدون بأوراد طريقتهم وأحزابها فقط بل كانوا مداومين على العبادة الشرعية والتنفل وصيام بعض الأيام وذكر اسم اللـه والاعتكاف في الخلوات . وقد كان المظهر الأخير — وهو الاعتكاف في الخلوات — من الأمور التي تميز المريد الصوفي ، وهذه الخلوة كانت تستمر أحيانا شهورا طويلة يخلو فيها المتعبد الى ربه مكتفيا ببعض لقيمات يقمن أوده (٢) . ومن تقاليد الطريقة السمانية صيام الاثنين والخميس ويوم عرفة ويوم عاشوراء والمقدم عليه والتالي له ويوم نصف شعبان والأيام البيض والسود من كل شهر . ومن أورادهم أوراد محاسبة النفس في الشهوات والزلات ، وأقل مراتها في اليوم مرة بعد الظهر أو العصر ومرة أخرى ليلا . (٣) .

وبالاضافة الى تلك الأركان الثلاثة التي بني عليها نظام الطرق ، وأسلوب تلقي العهد وممارسة الأوراد والأحزاب فقد كانت هناك مظاهر ملازمة للمتصوفة كاطلاق شعر الرأس وتمشيطه أو من غير تمشيط ، كما كانت تلازمهم بعض « الشطحات » والانجذاب وعدم الاكتراث بمتاع الدنيا . كما كانت لكل طريقة بعض الأدوات (أو الآلات كما سميت) وكانت في حوزة شيخ الطريقة ، وتتمثل في رايات ذات لون خاص يمثل لون الطريقة وكرسي « ككارة » « أو ككر » خاص بجلوس الشيخ

---

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٢٤٧ .
(٢) انظر طبقات ود ضيف الله ص ٦٦ ، ١٥٢ ، ١٦٨ من طبعة مندیل .
(٣) عبد القادر محمود : الطوائف الصوفية في السودان ص ٥٣ .

بالاضافة الى جبة الشيخ أو طاقيته أو حزامه . وهـذه الأدوات كانت تنتقل الى من يخلفه بعد مماته (١) .

ولقد كان كل فرد من هذا البناء الدينى الاجتماعى يحرص على أداء دوره كما رسم له تماما ويتفانى فيه ، ولا نعتقد أن ثمة مبالغـة ان قلنا ان هذا البناء الصوفى كان يفوق فى أساسه وقوته البناء القبلى فى المجتمع السودانى لأن قاعدة هذا البناء الصوفى كانت متسعة جدا لضم جماهير كثيرة ، فليست لها شروط عرقية اطلاقا سوى أخذ العهد .

وتجدر الاشارة الى أن نظام الطرق الصوفية كما أوردناه كان وليد العهد المصرى فى السودان (٢) ، وكان نتيجة لاحتكاك شيوخ الطرق فى السودان بصوفى مصر ، سواء كان ذلك فى السودان أم فى مصر ، فراح السودانيون ينظمون بناء طرقهم على نهج أمثالهم المصريين (٣) .

الصوفية والفكر الدينى :

لا شك أن رجال الطرق الصوفية كانت لهم أفكارهم الخاصة التى مارسوها ودافعوا عنها والتى أيضا اصطدمت بأفكار بعض الفقهاء ولكن ما هى حقيقة هذا الفكر الصوفى وهل يمكن لأى فرد أن يفهم كنهه ؟

يجيب على هذا التساؤل الدكتور عبد الحليم محمود قائلا : « ان التصوف ليس عملا علميا ولا بحثا نظـريا ... انه لا يتعلم بواسـطة الكتب على الطريقة المدرسـية ، بل ان ما كتبه كبار مشـايخ الصوفية أنفسهم لا يستخدم إلا كحافز مقو للتأمل ، والانسان لا يصـير بمجرد

---

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٢٤٨ .

(٢) Hamilton; The Anglo Egyptian Sudan from within. p. 211.

(٣) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ٢٤٥ .

قراءته متصوفا ، على أن ما كتبه كبار الصوفية لا يفهمه إلا من كان أهلا لفهمه » • ثم يضيف « ولأجل أن يسير الانسان فى طريق التصوف لابد له من استعداد فطرى خاص لا يغنى عنه اجتهاد أو كسب ، ثم الانتساب الى « سلسلة » صحيحة إذ أن البركة التى تحصل من الانتساب الى السلسلة الصحيحة هى الشرط الأساسى الذى لا يصل الانسان بدونه الى أى درجة من درجات التصوف حتى البداية منها ، ثم بعد ذلك يأخذ المتصوف فى الجهاد الأكبر ، فى التأمل الروحى وفى الذكر أى استحضار الله فى كل ما يأتى وما يدع ، وفى تركيز الذهن فى الملأ الأعلى فيصل موفقا من درجة الى درجة حتى يصل الى أعلى الدرجات وهى حالة تسمو على حدود الوجود المؤقت فيصبح ربانيا ، والذى يمر بهذه المراحل — فى نظره — يصير صوفيا حقيقيا (١) •

وفى داخل هذا الاطار الفكرى أثيرت وما تزال تثار قضايا شغلت بها الجماهير سواء فى السودان أو خارجه اينما وجد التصوف وأصبح كثير من الناس يشغلون أنفسهم بها ، ومن بين هذه القضايا « كرامات الصوفية » • وتفيض طبقات ود ضيف الله بذكر الأولياء من رجال الصوفية فى السودان وتعدد مناقبهم الطيبة من ورع وتقوى وأحداث للخوارق كشفاء المرضى والحديث الى الطير وفهم لغات الآخرين من غير الناطقين باللغة العربية (٢) •

ويقسم ود ضيف الله درجات الصوفيين أو الأولياء كما أسماهم الى ثلاث درجات : كبرى ووسطى وصغرى • فالصغرى أنه يطير فى الهواء ويمشى على وجه الماء وينطق بالغيب ، والوسطى أن يعطى درجة الكونية (اذا قال للشىء كن فيكون) وأما الكبرى فدرجة القطبانية (٣) •

---

(١) عبد الحليم محمود : المدرسة الشاذلية الحديثة وامامها أبو الحسن الشاذلى ص ٣٣٨ — ص ٣٤٠ •

(٢) مقدمة كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعر فى السودان ص ١٤١ •

(٣) أنظر كتاب الطبقات ص ٤٧ — ٤٨ •

وهنـــاك ذكر لكثير من الكرامات لا يكاد العقل يصدقها ، ولســـت أدرى كيف تتسق — على سبيل المثال اعلامهم بالغيب — مع قوله تعالى « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله » (١) • وقـد شاع ذكر هذه الكرامات فى الســودان الأمر الذى أدى الى هيمنة الصوفية وازدياد مكانتها الاجتماعية حتى غـدت دولة لهـا مراسيمها وطقوسها وأعلامها وجماهيرها (٢) •

ورغم تلك الهيمنة التى فرضها بعض المتصوفة على عقـول العامة وبعض الخاصة وادعاءاتهم الاتصال بالعرش والأخبار بالغيب انهم كانوا هم أنفسهم يعانون من مشاكل خاصة بهم ، الأمر الذى يعنى أنهم كانوا ضعيفى الخبرة بمشاكل الحياة اليومية التى ابتعدوا عن فهمها انشـغالا بالزهد والكشف عن الأمور الباطنية بينما هم عاجـزين عن فهم ظواهر مشاكلهم الحياتية (٣) •

ولكن مع ذلك فان المتصوفة لم يقفوا عاجزين أمام هذه الأقـوال فحاولوا ايجاد مبررات لتلك الكرامات والنبوءات على أساس أن هنـاك فئة منهم اذا نظرت فى اللوح المحفوظ فانه لا يتغير ولا يتبدل ، وأخرى تنظر فى ألواح المحو والاثبات التى تتغير وتتبدل فان أخبر الولى بكلام ولم يقع فلا ينكر عليـه بأن يقال كـذب بل يفسر بأنه نظر فى ألواح المحـو والاثبات (٤) •

ويبدو أن العامة لم يشغلوا أنفسهم فى قليل أو كثير فى التحقق من صحة هذه الكرامات أو زيفها وسواء أكانت منسوبة لولى وصـل الى درجة القطبية أم لمدع لها لا يتردد فى ايهـام الناس بأن ما لم يقع فى

---

(١) القرآن الكريم ، سورة القصص . الآية رقم ٦٥ .
(٢) يحى محمد ابراهيم : المرجع السابق ص ٣٧ .
(٣) نفس المرجع . ص ٣٩ .
(٤) ود ضيف الله : مقدمة الطبقات . ص ١٣ .

سبيله الى الوقوع • وكان العامة أنفسهم هم مصدر الكرامات ونسبتها للأوليـاء فى كثير من الأحيان (١) • ولقد أصبحت هذه الكرامات حديث العامة والمريدين فقدسوا مثل هـذه الأمور ، فكان ذلك مدعاة لتدعيم الخرافة فى السودان ، تلك الخرافة التى دعمتها أساطير الوثنيات لـدى قبائل الجنوب وفى دارفور وكردفان بغربى السـودان حتى وصلت الى قمتها عند قيام المهدية حيث تردد أن اسم المهدى نفسه كان منقوشاً على بيض الدجاج وورق الأشـجار (٢) • وهكذا سـاهم العامة فى ترسيخ الأفكار التى اثيرت حـول الكرامات ، ويبدو أن قـوة شخصيـة الولى أو الزعيم مع انتشار الجهل تساعد على ثبات هـذه الأقاويل فلم يكن أولياء السودان وحدهم ولا زعيمهم المهـدى قد أثاروا حولهم هـذه الخـرافات * •

وتقترن بالكرامات مسألة أخرى تتمثل فى جماعة (الملامتية) وهم أولئك القوم من المتصوفة الذين لاموا أنفسهم على جميع ما أظهروا من أنواع التقرب وأبانوا للخلق قبائح ما هم فيـه ، وكتموا محاسنهم (٣) • فمنهم من لم يصلى بدأ ، ومنهم من كان يجلس على كراسى المساجد يوم الجمعة ويقرأ سـورا غير السور التى فى القرآن فلا ينكر عليـه أحد • وكان ملامتية السـودان كغيرهم من ملامتية البـلاد الأخـرى يفعلون ما يخالف الشرع ، فأحدهم تزوج نحوا من سبعين امرأة ، وآخـر جمع بين الأختين وغير ذلك (٤) •

---

(١) يحى محمد ابراهيم : المرجع السابق ص ٤٠ .
(٢) عبد القادر محمود : المرجع السابق ص ١٢ .
(*) ردد العامة فى اوائل القرن العشرين فى مصر ان اسم سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ كان مكتوبا على بعض النبـاتات ، وان الحيوانات نطقت باسـمه .
(٣) ود ضيف الله : المصدر السابق . ص ٢٩ وانظر ايضا :
عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٢٣٩ .
(٤) طبقات الشعرانى ، الجزء الثانى ص ٢٦٧ .
عن : عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٢٣٩ .

وهناك رأى حول مسائل الكرامات وما يرتبط بها ، وفحواه أن هذه الأفعال لما كانت لا تدخل تحت النظرة العلمية حتى يمكن الحكم عليها حكما صحيحا ، فعلى ذلك ، فانه لا يمكن أن نصدقها أو نكذبها لأنها تمس أصحابها وتعبر فقط عن ذاتيتهم ووجداناتهم الخاصة ، والاهتمام بها هو الخطأ ، وكان الصوفية القدامى يوصون دائما بعدم الالتفات اليها ، أو الخوض فى حديث عنها خوفا من الفتنة وحتى لا يشعر الولى أنه صنع شيئا ، إذ كل شيء بيد الله (١) .

وحديث الكرامات هذا يقودنا الى معركة حامية الوطيس نشبت بين المتصوفة وبين الفقهاء وأهل العلم ، ظهر فيها الخلاف بينا بين الطرفين . وأصل هذا الخلاف يعود الى أن رجال العلم والفقهاء اعتقدوا أن لتحصيل العلم طرقا واضحة معلومة وهى دراسة القرآن والحديث وما ورد عن الصحابة وأهل السنة وهو ما يطلقون عليه علم الظاهر ، أما أهل التصوف فراحوا يبحثون عن العلم بطريقة الاتصال المباشر بالله وهو طريق الكشف والالهام ، وهو ما يطلقون عليه علم الباطن حيث أباح بعضهم لنفسه من الأعمال ما اعتبر فى حكم الشريعة محرما كما اشرنا الى ذلك .

وكان معظم صوفى السودان من غير العلماء ، وخاصة فى أوائل القرن التاسع عشر ، نظرا لحالة البلاد الثقافية المتخلفة التى لم يتوفر فيها استخدام العقل وفهم حقيقة التعاليم الاسلامية والتمييز بين ما هو أصل الدين وما هو بدعة ، فكان الناس متعطشين الى حديث الغيب لاسيما ان جاء عن طريق الدين خاصة وأن ملوك السودان وأمراءه كانوا فى ذلك الوقت ينشرون الاسلام بين الوثنيين الذين رحبوا بالصوفيين أكثر من العلماء فقد كانت حالة الشطح التى تعترى المتصوفة

---

(١) عبد القادر محمود : المرجع السابق ص ١٢ .

وأخبارهم بالغيب وقيامهم بالكرامات تغنيهم عن اللجوء الى العلماء والفقهاء ، ومن هنا نفهم لماذا كان السودان — فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر — مغريا لكثير من الجهال والأميين بادعاء الصوفية (١) .

وليس معنى ذلك أن هذا القول ينسحب على كل متصوفة السودان ، فقد سبق أن ذكرنا أن بعض مشايخ الطرق كانوا علماء للشريعة مع كونهم زعماء طرق صوفية ، كما كانت لبعضهم مؤلفات فى الفقه ، فللسيد محمد عثمان الميرغنى (تاج التفاسير) بالاضافة الى مؤلفات فى الحديث وعلم المصطلح والتوحيد وغير ذلك (٢) . وهذا القول ينطبق تماما على شيخ الطريقة المجذوبية التى نشأت بالدامر .

وكان النزاع بين العلماء والمتصوفة — سيما فى بداية نشأته — يدور أحيانا حول قضايا عامة مثل تحريم شرب الدخان أو عدم تحريمه وغيرها من القضايا . وتجدر الاشارة الى أن النزاع بين الفئتين فى السودان كان يمر هادئا دون أن يترك وراءه عداوة موروثة ، فاذا انتصر الصوفى فى قضيته ، عمد الآخرون الى خلق حادثة مناسبة لرد اعتبار فقيههم وهكذا حتى ينتصر طرف أو يتراخى الطرفان ، إلا أن الغلبة كانت دائما للمتصوفة الذين يقف من ورائهم جمهور غفير من العامة الأمر الذي كان يجعل صوت الفقهاء ورجال العلم خافتا لا يقوى على الصمود أمام المتصوفة (٣) .

ويبدو أن المعركة بين الفئتين استمرت وقتا طويلا ولم تكن قاصرة على القرن التاسع عشر ، فالبعض لا يزال يرى أن التصوف فكر وافد

---

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .
(٢) عبد الله حسين : المرجع السابق ص ١٥٦ .
(٣) يحى محمد ابراهيم : المرجع السابق ص ٤١ .

وهو وليد الديانات الوثنية وغريب عن الاسلام وعن البيئة التى ظهر فيها (١) . وحاول البعض أن يهدم ما أسماه « ببدعة ذكر الصوفية » بقوله ان ذلك بدعة يهودية حيث جاء فى المذمور التاسع والأربعين بعد المائة « ليبتهج بنو صهيون بملكهم ليسبحوا اسمه برقص بدف وعود ليرنموا ... هللوا يا ، سبحوا لله فى قدسه ، سبحوه برباب وعود ... سبحوه بدف ورقص ... سبحوه بأوتار ومزمار .... سبحوه بصنوج الهتاف ... » (٢) .

وفى الجانب المقابل ورد فى كتاب عمر الفوتى أحد شيوخ التجانية تحليل لنفوس من ينكروا عقول وأذواق الصوفية ، الى أن يصل بقوله ان هؤلاء المنكرين قوم تكشفت نفوسهم فى غرائزهم وأجسادهم ، وعميت بصائرهم وأبصارهم . وفى الوقت نفسه يؤكد على عدم ترك الدنية والانقطاع للخلوة بقوله : ان زهد الخواص الكاملين ليس هو بخلو اليدين من الدنيا ، وانما بخلو القلب ، ثم ينعى على من لا يتكسبون من كد أيديهم وعقولهم فيرميهم بالبعد عن الطريق الصحيح . ويضيف عمر الفوتى بأن الأكابر من الأولياء قد سارعوا الى الكسب من الزراعة والتجارة والحركة ، ثم انهم فى الوقت ذاته « رجال » لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وإيتاء الزكاة » (٣) .

ويبدو أن الخديوى اسماعيل قد دخل المعركة مع الصوفية بأسلوب خفى ، حيث يذكر « هل » Hill ان الخديوى قد شجع أبناء السودان على المجىء الى الأزهر مغدقا عليهم الرواتب والمنح حتى اذا ما عادوا الى السودان استطاعوا أن يقفوا فى وجه هؤلاء المتصوفة وخصوصا الجهلاء منهم ، بل يحلوا محلهم (٤) .

---

(١) عبد الرحمن الوكيل : هذه هى الصوفية ط ٤ . ص ١٢ .
(٢) العهد القديم ، المزامير ص ٦٤١ .
انظر عبد الرحمن الوكيل : المرجع السابق ص ١٧٤ ، ص ١٧٥ .
(٣) عبد القادر محمود : الطوائف الصوفية فى السودان ص ٧٣ .
(٤) Egypt in the Sudan. p. 126.

وهكذا نخلص من هذا النزاع الى أن رجال الصوفية وأن إنغمسوا فى المسائل الغيبية أو ما أسموه بعلم الباطن فان هنـاك مستويات أخرى من الصوفية وخاصة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر بالسودان قد ارتقت بنفسها وأعملت العقـل ، حتى وجدنا منهم وخصوصا مشايخ الطـرق من له مؤلفـات فى علوم الشرع تبرهن على سـعة العقـل ورجحـان الأفق • ومع ذلك كله فقد ظل النزاع بينهما دفينا يخبـو تارة ثم يظهر تارة أخرى •

آثار الصوفية الثقافية والاجتماعية :

لا يمكن للمرء أن ينكر الأثر الثقـافى الدينى الـذى تركته الطرق الصوفية على تفكير الرجل السودانى حيث وجدت عقليته مرتعا خصـبا لنشر أفكارها وتقاليدها • لقـد جاءت الصوفية الى السـودان ولم يكن السودانيون فى ذلك الوقت كسائر سكان المنطقة المجاورة يهتمون بمسألة التفكير العلمى أو المنطق الفلسفى وانمـا كان عهـد تقليد لمـا قرره السابقون ، وفى نفس الوقت كانوا تواقين الى معرفة شىء عن دينهـم فلذلك كانت كلمات الفقهـاء والصوفية ــ وهم الفئة المتنورة ــ تلقى آذانا صاغية ، وكان على الناس أن يتقبلوا تعاليم الصـوفية الثقافية والتى كانت ممزوجة بالخرافات اعتقادا منهم أنهم فئة مخلصة وصالحة لا يأتون منكرا • يصدق هذا القول على السـودان فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وربما استمرت مثل هذه التعاليم الثقافية ذات الخزعبلات تنتشر فى الفترة التالية ولكن على استحياء نظرا لبدء بعض الصوفية بتأليف بعض الكتب الدينية الخالية من تلك الخرافات •

وقد يظـن البعض أن ليس للصوفية أى جانب مضىء فى المجـال الثقافى ، ولكن ينبغى أن نعلم الأسلوب الثقافى الذى تميز به الصوفيون والممزوج بالكرامات والغيب كان ملائمـا للقبـائل الزنجية فى جنـوب السودان وافريقيا حيثما تم نشر الدعـوة الاسلامية فى تلك المناطق • فهذه القبائل المتوحشـة التى عاشـت على الفطرة كانت فى حاجة الى

أسلوب يتلاءم وعاداتهم الاجتماعية حتى يمكنهم فهم الاسلام وتقبله ولم يكونوا فى حاجة الى المنطق أو الى العلماء ذوى الثقافة والفكر الرفيع . ولذلك كان رجال الصوفية هم الملائمين لآداء هذه المهمة ، لأن علماء النفس يرون « ان معتقدات الجماعات البدائية ليست ناتجة عن ادراك خاطىء أو غامض وانما هو أثر من آثار حاجاتهم ورغباتهم وأثر لما يساور خيالهم من قلق » (١) .

ولقد لعب محمد عثمان الميرغنى الكبير دورا بارزا فى نشر تعاليم الاسلام بكردفان حيث يوجد بعض الوثنيين بجبال النوبا ، وحول سنار أيضا (٢) .

وحين أراد أحد الملوك الوثنيين بجنوب السودان أن يدخل فى دين الاسلام مع كثير من الأهالى هناك ، وأرادوا فى بادىء الأمر أن يتعلموا شيئا عن مبادىء الاسلام ، طلب المسئولون بمصر من حكمدار السودان أن يبعث بفقهاء لهم القدرة على « تأليف قلوب الأهالى وتعليمهم بغاية اللطف » (٣) . فالمطلوب اذن لآداء هذه المهمة نوعية خاصة ذات مقدرة على توصيل المعلومات آخذة فى الاعتبار الأفكار السائدة بين هذه الجماعات الزنجية .

وليس من شك فى أن الطريقة السنوسية قد لعبت من خلال زواياها المنتشرة فى الصحراء الكبرى دورا هاما فى نشر الاسلام فى غرب السودان والصحراء الكبرى وافريقيا الاستوائية الغربية . فقد نجح السنوسيون فى ايصال دعوتهم الى كل من واداى والباجرمى

---

(١) Carveth lead; The Origin of Man. p. 86.
انظر عبد العزيز امين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٢٥١ .

(٢) عبد القادر محمود : الطوائف الصوفية فى السودان . ص ١٢٨ .

(٣) دفتر رقم ١٨ عابدين — صادر تليغرافات — صورة التليغراف العربى الشفرة رقم ١٦ ص ٣ بتاريخ ٢١ ربيع الأول سنة ١٢٩١ هـ . من خيرى باشا الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

و « البوركـيوه » و « تبـو » حتى بلغوا النيجر الأوسط . عن طـريق السنوسية ودعاتها وزواياها وأصبحت جهات بحيرة تشاد مركزا للاسلام في أواسط أفريقيا (١) . وكذلك الحال بالنسبة للطريقة التجانية التي أدت دوراً بارزاً في نشر الاسلام في افريقيا وان كان لها اسلوب مغاير عن سائر الطرق الصوفية كما سبق القول .

أما الانتاج الديني والأدبي للمتصوفة فقد كان في مستهل القـرن التاسع عشر باهتا بل يكاد يكون منعدما لقلة المتعلمين منهم ، وبمـرور الوقت بدأنا نستشعر آثارهم العلمية التي بدأها أصحاب الطريقة المجذوبية بشكل واضح في المجال الثقافي . فقد كان دورهم واضحاً وجليا في نشر الثقافة العربية الاسلامية في السودان ، حيث كان يرحـل أبناؤهم من بلدة الدامر الى الأزهر الشريف بمصر والى مكة المكرمة طلبا للمعرفة ، ثم يعودون بعـد أن يمكثوا في رحلاتهم العلمية سنوات طوال لمتابعـة رسالتهم الدينية والثقافية . ويمكن القول انهـم هم الذين خلقوا من الدامـر عاصـمة روحيـة ومصباحا يشـع بنـور الثقـافة العربيـة والاسـلامية (٢) .

وفي الجانب الاجتماعي برز دور الصوفية جليـا ، فمن المعلوم أن هذه الفئة معروفة لدى الرجل البسيط بكراماتها وصفاتها الدينية الأمر الذي جعل الناس يتهافتون عليهم ويتخذونهم ملاذاً في سـاعة الضيق والعسرة . والمتصفح لطبقات ود ضيف الله يقرأ الكثير من هذه الأمثلة التي توضح الانقـاذ الروحي والمادي الذي كان يلقاه هؤلاء الناس على أيدي الصـوفية .

---

(١) جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ص ٢٢٣ .
وانظر : احمد صدقي الدجاني : الحركة السنوسية نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر . ص ١١٣ — ١١٤ .
(٢) عبد القادر محمود : الطوائف الاسلامية ص ٨٥ .

وكان لمشايخ الصوفية فى السودان القدرة على تسكين الخواطر وبث الطمأنينة فى نفوس الناس وقضاء مصالحهم وزجرهم عما يلحق الضرر بالفرد والجماعة • ومن الأمثلة على ذلك ما قام به الشيخ الحسن نجل محمد عثمان الميرغنى فى عام ١٨٦٥ على عهد موسى حمدى باشا حكمدار السودان حين تمرد الجهادية السود فى كسلا تمردا أدى الى سفك الدماء وظل متأججا لعدة شهور • وكان هذا التمرد بسبب سوء ادارة القادة وتأخر دفع مرتبات الجنود • ولما كان الشيخ الحسن بكسلا إذ ذاك تدخل فى الأمر وسلمت له المرتبات المتأخرة ليقوم بتسليمها للجنود • وبالفعل قام بهذه الوساطة وسلمها إياهم ببلدة « سبدرات » وعنفهم على هذا المسلك الذى يتنافى ونظام الجندية فى أسلوب عرض المشاكل ، وطلب منهم أن يعودوا الى كسلا فقبلوا ذلك • ولكن الأمور تفاقمت ثانية بين الطرفين وقتل منهما الكثير فأرسل مدير التاكة الى الحسن يدعوه فحضر الى « حلة الحلانقة » ورفعه على قصبة ودخل به عليهم قائلا : « جاءكم كتاب السيد الحسن ! » ، فما كان من الجنود العصاة إلا أن كفوا عن القتال وهرعوا اليه يقبلون يديه شاكين أمرهم فوعدهم بحل مشاكلهم (١) •

ومن الأمور الهامة التى نجحت فيها الطرق الصوفية فى السودان التقريب بين القبائل والأجناس ولو فى نطاق محدود • فقد جاء الناس من كل جنبات السودان الى زوايا الطرق الصوفية للاتصال بالشيوخ والاستماع اليهم وتلقى الطرق عنهم • وقد لعبت تلك الطرق هذه المهمة منذ عصر الفونج ، فهذا أحد الذين دخلوا على الشيخ عمار الصوفى يصف ما رآه فيقول أنه وجد زاوية الشيخ محاطة بالدواب التى حملت الناس

---

(١) الياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل باشا من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٩ — المجلد الثانى ص ١٠ — ص ١٣ ، وانظر أيضا محفظة رقم ٤٦ وثيقة رقم ٣٦١ — ترجمة مكاتبة من حكمدار السودان فى ٨ رمضان سنة ١٢٨٦ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعة .

من جهات بعيدة ووجد عند مدخل الزاوية « نعال الفونج والعرب متراصة » ، ولما دخل الزاوية وجد الناس حلقات ، فمنهم من يتحدث بتجارة الغرب ومنهم من يتحدث بتجارة الصعيد (١) . ومن تلك الزواية يتبين لنا ان الزاوية كانت تتسع لكل القبائل والأجناس حين يلتقون سويا تحت لواء الطريقة التى تجمع شملهم وتوحد بين أذواقهم ومشاربهم بالرغم من الاختلاف القبلى والعرقى بل والاختلاف فى اللهجات . (٢) كما انها أيضا أصبحت ملتقى للتجار من كافة أنحاء السودان وما جاورها .

وكانت أغلب الطرق الصوفية ذات طابع سلمى للغاية وتعتمد فى دعوتها الاصلاحية على الارشاد والقدوة الحسنة والتأثير فى المريدين . ويتجلى ذلك واضحا فى دعاة القادرية ومن أخذوا تعاليمهم عنهم ، إذ أن المبادىء التى كانت تسيطر على حياة عبد القادر الجيلانى هى حب الجار والتسامح ، ولم يعثر فى كتبه أو فى مواعظه ــ كما ذكرنا ــ ما يدل على سوء نية أو عداوة نحو المسيحيين (٣) .

ولا يمكن أن تنكر على السنوسية الدور العام الذى قامت به وسط الصحراء الكبرى حيث أقدم بفضلهم المسافرون والتجار على اجتياز الصحارى وأمكن عن طريق نظامهم الاخوانى ايجاد ادارة محلية ساعدت على حفظ الأمن وتوطيد العلاقات بين القبائل (٤) . وكانت الزاوية الواحدة لهذه الطريقة عبارة عن ثلاث غرف أحداها لالقاء الدروس ، والثانية أشبه بدار للضيافة ينزل فيها المسافرون للراحة ، والغرفة الثالثة لاقامة الاخوان (٥) .

---

(١) ود ضيف الله : المصدر السابق ص ١٨ .
(٢) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ٦١ .
(٣) ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٢٧٨ .
(٤) جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ٣٢٠ — ٣٢١ .
وانظر أيضا : Prachard; Sanusi of Cyraneica. p. 15.
(٥) جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ص ٣٢٢ .

الطرق الصوفية والحكم :

كانت السياسة التى اتبعتها الادارة المصرية منذ امتدادها الى السودان تجاه رجال الدين بصفة عامة هى سياسة تسامح حيث تركت كل شىء على ما هو ولم تتدخل فى أمورهم ، بل انها أمدتهم بالمعونة التى تعينهم على أداء رسالتهم التعليمية والدينية • وهذه السياسة كانت جلية فى خلال عهود محمد على وخلفائه ، فخلاوى الفقهاء وزوايا الصوفية كانت تؤدى مهامها فى يسر وسهولة ، وزاد هذا الاغداق فى عهد اسماعيل كما سبق أن بينا • وليس معنى ذلك أن العلاقة بين الطرفين : الصوفية والحكومة قد سارت بما يهوى كل طرف ، فقد حدثت ثمة أمور تأرجحت فيها العلاقة بين الولاء المطلق — كما حدث بالنسبة للميرغنية الختمية — وبين التأييد مع الحذر كما كان الحال بالنسبة للاسماعيلية •

ويبدو أن قضية العلاقة بأجهزة الحكم قد شغلت الصوفية فى السودان منذ دولة الفونج ، فهاهو ذا أحدهم ، ويدعى (فرح ولد تكتوك) يرفض أن ينصاع الفقهاء لرجال الحكم حتى لا يقع فى ملذات الدنيا ويقول :

يا واقفا عند أبواب السلاطين
ارفق بنفسك من هم وتحزين
تأتى بنفسك فى ذل ومسكنة
وكسر نفس وتخفيض وتهوين
ان كنت تطلب عزا لا فناء له
فلا تقف عند أبواب السلاطين

ثم يقـــول :

خـل الملوك بدنياهـــم وما جمعـــوا
وقـم بدينـــك من فـرض وسـنون

استغن بالله عن دنيـــا الملوك كمـــا
استغنى الملوك بدنيـــاهم عن الدين (١)

واذا تتبعنا العلاقة بين الادارة المصرية ومتصوفة السودان فسوف نجد أنها بدأت عكس ما كانت ترجو هذه الادارة ، فالطريقة المجذوبية التى نشأت فى الدامر وما حولهـا واجهت متاعب عقب مقتل اسماعيل كامل وقيام محمد بك الدفتر دار بانزال الدمار بهم ، ذلك لأن ملك شندى المدعو نمر — وهو من الجعليين — كان من وراء حادث القتل (٢) .

ومهما يكن الأمر من ناحية استخدام أساليب البطش ضد السكان ، فان الحقيقة التى لا يمكن اغفالها أن المقصـود بهذه العقـوبات لم يكن المتصوفة أو باقى السكان ، بل كان الملك نمر وأعوانه الذين دبروا هـذا الحادث . إلا أن الفزع قد أصـاب الجميع فهرب الملك نمر وكثير من الجعليين الى أطراف الحبشة وتبعه أيضـا كثير من شـيوخ وأنصـار الطريقة المجذوبية . وقد يتسـاءل البعض اذا كان الدفتر دار قد أراد الانتقام من الملك نمـر فقط فلماذا هـرب الصوفية وراءه الى أطراف

---

(١) عبد المجيد عابدين : المرجع السابق ص ٢٠٨ ، ١٠٩ .
(٢) حول ذلك أنظر :

F. O. 78 - 119, Report of Ismael Pasha's death.

(أ) دفتر رقم ١٤ معية تركى . وثيقة رقم ١٩٤ بتاريخ ١٦ محـرم ١٢٣٩ من الجناب العالى الى حضرة قائد عساكر السودان وكردفان . دار الوثائق القومية بالقلعة .
(ب) أنظر ايضا :
والمودع بالمحفظة : رقم ١٧ من محافظ الأرشيف الأوربى (الانجليزى) بدار الوثائق .

السودان ؟ الواقع أن العلاقة بين سكان هذه المنطقة فى شندى والدامر لم تكن علاقة جوار وحسب بل هى علاقة صهر ونسب وصلات قبلية متشابكة وزادها تماسكا أنهم جميعا أصحاب طريقة واحدة فما يصيب الفرد يصيب الجماعة لذلك شهدنا هروب رجال الطريقة المجذوبية أيضا • والدليل على ان رجال الادارة لم يكن فى أذهانهم ايقاع الضرر بالصوفية هو السماح لهم بعد ذلك بالعودة الى ديارهم وممارسة شعائرهم الصوفية فى أمان وسلام بل ومزاولة مهام القضاء المحلى بالدامر •

وقد كان المسئولون فى مصر يوصون خيرا ببعض فقهاء الصوفية ، من ذلك ما حدث بالنسبة للشيخ محمد السنوسى عام ١٨٥٢ الذى درس بالأزهر الشريف ثم طلب العودة الى بلاده كردفان ، فأرسلت الى الحكمدار رسالة طلب فيها منه أن يعتنى به « •• لأنه أحد أتباع الطريقة النقشبندية » العائد لنشر التعليم فى بلاده (١) • كذلك نجد فى عام ١٨٦٢ أمراً يقضى بترتيب معاش لأحد مشايخ هذه الطريقة لقيامه بوظيفة التعليم بمديرية دنقلة وبربر (٢) •

وأما الطريقة الميرغنية الختمية فقد كانت علاقتها طيبة بالحكومة فى السودان على عهد الادارة المصرية كما سبق القول • وقد كان هذا الود المتبادل بين الطرفين مدعاة لقول الكثيرين ان الحكومة فى التاكة كانت

---

(١) دفتر رقم ٨٤ — صادر معية — صورة المكاتبة رقم ٥ ص ٨٣ بتاريخ ٩ ذى القعدة سنة ١٢٦٨ هـ • دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ١٨٩٩ — اوامر عربى — صورة المكاتبة العربية رقم ١٦٠ ص ٥٤ بتاريخ ١٣ شعبان سنة ١٢٧٨ هـ • أمر كريم الى حضرة سلطان دارفور . دار الوثائق القومية بالقلعة .

صورة أخرى من المكاتبة الى مديرية دنقلة وبربر بالدفتر رقم ١٨٩٨ بتاريخ ١٦ شعبان سنة ١٢٧٨ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

تحابى هذه الطريقة وان رجـال هذه الطريقة كان لهم ميل للسلطة (١)
والحقيقة انهم كانوا بعيدين تماما عن المسائل السياسية آنذاك وليس لهم
ميل لهذه السلطة ، ولو كان فى نيتهم ذلك لاستطاعوا ـ ربما ـ تحقيقه قبل
ظهور المهدى بزمن طويل وأنهم كانوا قد أسسوا قاعدة جماهيرية صلبة
من المريدين فى أنحـاء السودان وشرقه على وجه الخصـوص . اذن
ليس هناك مجـال للقول بمحاباة الحكومة لهـذه الطريقة بل الأفضـل
ان نقول انهم كانوا محل احترام لدى الحكومة من خلال مسلكهم الهادىء
ودورهم الدينى والاجتماعى فى المجتمع السودانى . ولسنا فى حاجـة
الى تكرار ما سـبق أن قلناه من ناحية الدور الهـام الذى لعبه الحسن
ابن محمد عثمان الميرغنى فى تسكين الفتنة التى حدثت بين الجنود السود
بكسلا ، فلولا هذا التدخل من جانبه لمـا أمكن السيطرة عليهـا بهـذه
الصورة ، إذ كان رجال هذه الطريقة فى هذه المنطقة التى اتخذوها مقـرا
لطريقتهم محل تبجيل واحترام السكان والأهلين .

وفى اكتوبر عام ١٨٦٥ ورد تقرير مطول من حكمدار السودان جعفر
مظهر باشا عن الطريقة الختمية ويبدو أنه كان أشبه بتقرير سرى شرح
فيه الحكمدار السر الذى دعـاه الى التعرف على هـذه الطريقة قائلا :
« أردت أن أتبين أسـباب الشـهرة التى حصل عليهـا الشـيخ حسن
(المعروف) * الذى أصبح ذا نفـوذ فى مديرية التاكة ، فتحققت من
بعض المشايخ وكبراء الأهالى والتجار المقيمين فى سواكن من الواقفـين
على أحـواله ومن غـير الواقفـين ، فى بعض المناسـبات (الغـير
مقصودة) ** .. ان هذا الشيخ سالك سبيل التوسط بالخير سواء أكان

---

(١) الناصر عبد الله ابو كروق : تاريخ مدينة كسـلا ١٨٨٣ ـ ١٨٩٧
رسالة ماجستير غير منشورة . ص ٤٨ .

(*) يعنى بالمعروف المشهور وهو السيد الحسن نجل الشـيخ محمد
عثمـان .

(**) غير المقصـودة .

ذلك للحكومة أم للأهالى والعربان ، وقد سمعت بالتواتر بمدحــه والثناء عليه من أكثر الناس وأنه فى حد ذاته رجــل صالح ورع فملت بمجــرد السماع اليه وأحببته غيابا ، وانى أومل أن آخــذ منه عهدا بعد أن أقف بنفسى على صلاحه وتقواه وأحصــل على دعائه ... » (١) فمن هــذه العبارات السابقة يمكننا أن نستخلص أن نفوذ الختمية قــد بلغ شــأوا عظيما فى زمن هذا الحكمدار على عهد اسماعيل باشا ، وأن هذا النفوذ قد شمل الجانبين : أجهزة الحــكم والأهالى ، إذ لعبت هــذه الطريقة دور الوسيط بينهما دونما انتظار لكلمة شكر ، الى الدرجة التى جعلت هــذا الحكمدار يعترف بأنه قد أحب شيخهم سماعيا ومال اليه بل وبلغ حبــه له أنه يريد أن ينخرط فى طريقته بعد أن يأخــذ العهد منه ! . وفى ذات التقرير أيضا يحــاول الحكمدار أن يشرح سر التعظيم الشــديد الذى آثره به الناس فى تلك الجهات ، فيروى أن مدير التاكة قد استقبله شيخ الطريقة ذات مرة واقفا ولثم يده ، فأستغل الشيخ هذا الاكبار ، واقتفى موظفو المديرية أثر المدير وأكبروه وعظموه لأنه أصبح من المقربين لــدى المدير والوكيل ، ويضيف الحكمدار ســببا ثانيا لهذا الاكبار وهــو أن الأهالى فى تلك الجهة كان أكثرهم من العربان الموصوفين « بقلة العقل » وفقدان الادراك (٢) .

والحقيقة اننا لا نميل الى هذا التفسير الذى ذهب اليــه الحكمدار خاصة الشق الأول منه ، فهذا الاجلال الذى وصل اليه لا يعقل أن يكون بسبب تقبيل يــده من جانب المدير ، فقــد يكون ذلك صحيحا بالنسبة لموظف فى دواوين الحكومة تربطه مصالح برؤسائه ، أما فى هذه الحــالة فلم يكن هذا الشيخ فى حاجة لمثل ذلك وأكثر السكان من حوله يجلونه .

---

(١) محافظ أبحاث السودان : محفظة رقم ١٧ — دفتر رقم ٢ عريضــة غير رسمية مرفوعة للأعتاب الكريمة من جعفر مظهر باشا بتاريخ ١٧ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) محافظ الأبحاث : محفظة ١٧ . نفس الوثيقة السابقة .

ثم اننا نتساءل هل أجبر المدير على أن يقبل يد الشيخ ؟ كما نتساءل أيضا أليس هذا التفسير من جانب الحكمدار نفسه مناقضا لما ذكره فى مستهل تقريره من أنه أحب هذا الرجل غيابا دون أن يراه ؟ اذن التفسير الصحيح لذلك هو أن اسلوب هذا الشيخ الصوفى وعلاقاته الطيبة مع الناس كانت أسبق فى الدعاية له بين رجال الحكومة وأيضا بين الأهالى •

ويبدو واضحا أن رجال الادارة فى شرقى السودان قد استفادوا تماما من مشايخ هذه الطريقة ، كما استفاد هو أيضا من ذلك • فقد ورد فى هذا التقرير أيضا « ••• ان الشيخ (متفق) * مع (خدم) ** المديرية ، وانه يتخذهم عضدا قويا ، ويستند عليهم •• ويتخذ من ذلك وسيلة لبسط الرجاء وتقديم الشفاعة لحل أمور الناس ، وأماله قلوب العربان والأهالى » (١) •

وقد عاد الحكمدار مرة أخرى فى نفس التقرير ليعترف بأهمية هذا الرجل ودوره كحلقة وصل بين رجال الادارة وبين الأهالى ، ويقول : « •• ويغلب على الظن أن المديرين الذين تعاقبوا كانوا يتناوبون التوصية على هذا الشيخ ويبدو أن السبب فى ذلك راجع الى ظنهم أن الشيخ المذكور (ذا) *** شهرة ونفوذ بين العربان ويعتقدون صلاحه وتقواه وان العربان يستمعون الى كلامه ويطيعونه ويستجيبون نداءه وانهم كانوا يحترمونه ابتغاء لتوسطه بالصلح فيما لو وقعت فتنة أو نزاع بين العربان •• » (٢) •

(*) على وفاق •
(**) رجال الادارة الذين يقومون على خدمة المديرية •
(١) محافظ الابحاث محفظة رقم ١٧ — نفس الوثيقة السابقة •
(***) ذو •
(٢) نفس الوثيقة السابقة •

وسواء أكان ذلك النفوذ والاحترام اللذان حظى بهما رجال الطريقة الميرغنية الختمية فى السودان ناشئا عن مصلحة للعربان حاول هؤلاء المشايخ قضاءها مقابل الانخراط فى طوقتهم ، أو كان ناشئا عن حاجة الحكومة لرجال هذه الطريقة فى الاتصال بالعربان واستخدامهم عند الشدائد ، فان هؤلاء المشايخ قد أدوا هذه المهام بنفس راضية كان نتيجتها ان فرضوا احترامهم من خلال سلوكهم هذا على كل الأطراف ، رجال الادارة وأفراد الشعب السودانى • ويبدو أن الحكومة كانت قد خصصت مبلغا من المال للشيخ حسن الميرغنى بلغ مائتين وخمسين قرشا بالاضافة الى أربعة أرادب من الأذرة • ولما توفى هذا الشيخ ترك وراءه ولدين بالغين وفتاتين بالاضافة الى زوجاته ، فقررت الحكمدارية فى عهد جعفر باشا مظهر أن تستمر هذه المعونة المالية مع زيادتها لهذين الولدين لأنهما كانا يصرفان أوقاتهما فى تعليم الشريعة والطريقة ، وتعليم الطلاب وعظة العامة الأمر الذى يترتب عليه نفقات كثيرة ، كما اقترح الحكمدار أيضا استمرار الأربعة أرادب من الأذرة لهما ولا ختيهما وامهاتهم اكراما لهم (١) •

وفى ديسمبر عام ١٨٧٢ كاد يحدث ما يعكر صفو العلاقة بين مشايخ الطريقة الختمية وبين رجال الادارة فى السودان حيث وردت اشارة فى احدى الوثائق بأن الأوامر صدرت لمدير التاكة « بضبط أولاد شيخ الطريقة » ، ولكن مدير دنقلة وبربر سارع بالكتابة الى المسئولين بمصر لايقاف مثل هذا الأمر قبل حدوثه (٢) • أما السبب فى صدور

---

(١) محفظة رقم ٤٦ وثيقة رقم ٣٦١ — ترجمة مكاتبة من حكمدار السودان بتاريخ ٨ رمضان سنة ١٢٨٦ هـ • الى صاحب السعادة مهردار الحضرة الخديوية • دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) دفتر رقم ١٧ عابدين وارد تلغرافات ، صورة التلغراف العربى الشفرة رقم ٨١٨ ، ورد بتاريخ ١٢ شوال سنة ١٢٨٩ هـ من مدير دنقلة وبربر الى سعادة خيرى باشا • دار الوثائق القومية بالقلعة •

مثل هذا الاجراء الذى لم يتم ، فيرجع الى عملية الحصر التى بدأت لخلفاء الطريقة بمديرية دنقلة وبربر ، تمهيداً لارسالهم الى مدير التاكة للتحقيق معهم حسب الأوامر التى ترد من الارادة العلية » ، فقد جرت عملية تحرى عن هؤلاء الخلفاء ووجد أنهم يقومون بتحصيل بعض الأموال وارسالها لأولاد الميرغنى (١) .

وعقب بحث هذا الموضوع بناءً على افادة من مدير التاكة تبين « ... أن أولاد الشيخ محمد عثمان شيخ طريقة الختمية .. لم يظهر منهم تعرض للحكومة ، وأن الأهالى لهم فيهم حسن اعتقاد ، وانهم ساعدوا الحكومة فى وقعة العساكر الأشقياء بالتاكا » (٢) . وأما الخلفاء الذين تم ضبطهم فقد تبين أيضا أنه لم تحدث منهم أمور مخلة ولا معارضة وتظلموا مما حدث لهم وقالوا « ... انهم أصحاب زوايا وجوامع وعليهم أموال للميرى ونحو ذلك .. » (٣) . وبناءً على ذلك كله صدر النطق بالعفو والافراج واعادتهم الى بلادهم والتأكيد عليهم بألا يحاولوا تكليف الأهالى بأى أعباء سواء أكانت أموالا أو غيرها من الأعباء (٤) .

من ذلك يتضح لنا أن العلاقة كانت تسير بسلام بين الفريقين ولم يحدث ما من شأنه أن يعكر صفو هذه العلاقة ، أما ما جرى من ناحية ضبط بعض الخلفاء فهذا اجراء عادي يخضع له كافة الأهالى فى السودان ، خاصة وقد كانت البلاد سواء فى مصر أو السودان تمر بحالة كساد

---

(١) دفتر رقم ١٧ عابدين : وارد تلغرافات ، نفس التلغراف السابق .

(٢) دفتر رقم ١٥ عابدين — صادر تلغرافات — صورة التلغراف العربى — الشفرة رقم ٤٤٧ ص ٦٦ بتاريخ ٢٠ ربيع ثاني سنة ١٢٩٠ هـ . من خيرى باشا الى مدير دنقلة . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ١٥ عابدين — نفس الوثيقة . ص ٦٦ .

(٤) نفس الدفتر والوثيقة ص ٦٦ .

مالى ، والأهالى لا يطيقون أعباء جديدة تفرض عليهم ، وحتى مجـرد التأكد من حدوث مثل هذه الأمور قد جرى مع خلفاء الطريقة الختمية فى شىء من الحذر نظرا لما أسداه مشايخها من خدمات طبية للحكمدارية .

أما زعمـاء الطريقة الاسماعيلية فقـد جمعـوا بين علمى الشريعة والحقيقة ، ولذلك فقد لقيت أسرة الشيخ اسماعيل الولى مؤسس هذه الطريقة كل احترام من محمد أحمد المهدى ولم يصبها بسوء ، ولكن أحـد علمائهـا ويدعى السيد أحمد الشيخ اسماعيل ، وقـد سافر الى مصر ودرس بالأزهر ثم عاد الى السودان وكان له أثره الكبير فى نشر العلوم بين تلاميذه ، أنكر على المهدى دعوته وحارب مع جيوش الحكومة المصرية حتى قتل مع ابنه خلال احداث المهدية (١) .

وهكذا يبدو من العلاقة بين الحكومة والطرق الصوفية أنها كانت فى مجملها تتسم بالوفاق والتفاهم وأما ما حـدث بالنسبة للطريقة المجذوبية فى مستهل الحكم المصرى فقد كان نتيجة لأحـداث فردية لا عن سياسة عامة تجاه الطرق . كما يتضح أيضا من هـذه العلاقة مدى الاخـلاص الذى كانت تبديه الطريقة الختمية للادارة المصرية ، وهذا الاخلاص لم يكن على حساب الأهالى ، بل استطاع زعماء هذه الطريقة أيضا أن يكونوا جسر اتصال بين الطرفين .

وفى النهاية يمكن أن نخلص الى أن الطرق الصوفية كانت تمثل ركنا أساسيا فى بناء المجتمع السودانى خلال القرن التاسع عشر ، ففى خلواتها انصهر سكان السودان من عرب وزنوج وغيرهم ، وفى صفوف اذكارهـا وقف الجميع فقيرهم بجانب غنيهم يذكرون اسما واحـدا . وإذ كان البعض يعطى اهتماما خاصا لمجتمع القبيلة السودانى حيث التكاتف على

---

(١) عبد الله حسين : المرجع السابق . ج ٢ ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .
انظر ايضا :
Wailis; Op. Cit. p. 186.

أشده فان مجتمع الصوفية فى السودان فى تقديرنا أشد تماسكا منه وأقوى عودا • وفى عبارة موجزة يمكن أن نقول ان الصوفى السودانى قد عبد الله فى صومعته ، وعلم تلاميذه ومريديه فى خلوته ، ونشر الاسلام من حوله ، وكان أيضا رسول سلام بين حكامه وعشيرته •

وبهذا استطاعت جموع الصوفية فى السودان ابان القرن التاسع عشر ان تسيطر على أفئدة الجماهير السودانية ، بل وتحركها أحيانا ، وكان على أية حركة اصلاحية فى ذيالك الوقت ان أرادت لنفسها النجاح أن تركب موجة الصوفية • وعلى هذا يمكننا أن نفسر كثيرا من النجاح الذى لقيه المهدى فى بداية حركته الى انه استطاع أن ينضوى — فى بادىء الأمر — الى احد الطرق الصوفية التى سادت السودان فى القرن التاسع عشر (السمانية) ومن ثم راح يتحدث لغة العصر فى محاولة لكسب الجماهير التى سرعان ما التفت حوله وعضدته • لقد كانت هذه الطرق الصوفية المدرسة الأولى التى تربى فيها زعيم المهدية وشحذ فيها أسلحته ، كما انها أيضا كانت المناخ السائد فى ربوع السودان حيث تنفست جماهير السودان تعاليمها الصوفية ، ومن ثم كان طبيعيا أن تأخذ المهدية فى عام ١٨٨١ مسوحا دينية ، كما كان طبيعيا أيضا أن تلتف معظم الجماهير من حولها ، كما كانت تلتف من قبل حول شيوخ طرائقها •

الفصل الثامن

التعليم والثقافة

- التعليم الأهلى (الدينى) وتطوره .
- التعليم الحكومى (المدنى) وتطوره .
- الارسالية الكاثوليكية ودورها التعليمى .
- الآثار الثقافية .

قبل أن نعرض تفصيلا للتطورات التعليمية والثقافية فى السودان يجدر بنا أن نشير الى جملة أمور ، منها انه لا ينبغى أن نعقد مقارنة بين التطورات التعليمية الحديثة التى جرت فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر وبين الوضع التعليمى والثقافى فى السودان فى ذات الوقت . فبينما كانت مصر قد قطعت شوطا كبيرا ومكثفا — منذ تولى محمد على الحكم — فى مجال التعليم وارسال البعثات العلمية الى أوربا كان السودان لا يزال يعيش على أفكار المتصوفة المزوجة بكثير من الأمور الغيبية كما سبق أن وضحنا حين عرضنا للطرق الصوفية . كما أنه فى ذات الوقت أيضا كانت تلك التطورات التعليمية والثقافية التى حدثت فى مصر تنطلق من أرضية ثابتة وميراث ثقافى بحيث أن محمد على لم يجد صعوبة فى أحداث تطورات سريعة استطاع من خلالها الوصول الى نتائج ملموسة . كذلك فانه ينبغى أن نشير الى أن التطورات التعليمية على عهد الادارة المصرية فى السودان لم تكن فى بادىء الأمر بصورة مكثفة ، كما كان الحال فى الجانب الاقتصادى ، وربما يكون السبب فى ذلك ان محمد على كان ينتظر أولا استقرار الأحوال فى السودان وعودة المياه الى مجاريها وانتظام شئون البلاد المادية قبل الشروع فى شئونها الثقافية ، لأن العلوم — على حد قول بن خلدون — انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة . ولسنا فى حاجة الى اثبات ذلك فقد سبق أن تحدثنا عن جهود محمد على وخلفائه فى الجانب الاقتصادى . كل ذلك قد جعل المسيرة التعليمية والثقافية فى السودان تسير ببطء ، خاصة وان مصر منذ عام ١٨٤١ قد بدأت تعيد ترتيب سياساتها المختلفة وفقا للأوضاع الجديدة ، وكان من الطبيعى أن ينعكس ذلك كله على البرامج والخطط التعليمية سواء فى مصر أو السودان . ولعل فى تتبع المسيرة التعليمية والثقافية فى السودان ما يميط اللثام عن كثير من سياسات وجهود مصر فى هذا الصدد .

ومن خلال دراستنا للتطور التعليمى فى السودان سوف نعرض

لنوعين من التعليم وهما : التعليم الأهلى الدينى ، والتعليم الحكومى أو المدنى •

أولا : التعليم الأهلى (الدينى) :

قد يكون من المفيد أولا أن نشير الى أن سياسة محمد على التعليمية فى السودان كانت ترمى الى تغليب المنفعة على النظريات ، حيث أبقى على التعليم الدينى المنتشر فى أنحاء السودان والذى كان يتمثل فى « الخلاوى » ، فلم يحاول أن يخلق ثنائية فى التعليم ، احتراما لعادات وتقاليد الناس ومه الفوه ، ولم يمل عليهم ما يتعارض ورغباتهم • كما كان يؤثر أن يتعلموا أولا فنون الزراعة والصناعة بدلا من العلوم الثقافية الحديثة (١) • وفى عام ١٨٤١ كانت مصر تمر بمرحلة جديدة أو دور جديد من أدوار التعليم ، فقد استقر السلام وتمت التسوية المصرية العثمانية وبدأ عهد من الاستقرار السياسى ، فلم تعد مصر فى حاجة الى جيش كبير فظهرت الحاجة الماسة الى اعادة النظر فى النظام التعليمى على ضوء حاجات البلاد الجديدة • وهذه المرحلة الجديدة كانت تقوم على أسس ثلاثة : (١) الاقتصاد (٢) مراعاة الحاجات الجديدة (٣) التمكين لمراحل التعليم المختلفة فى أسباب القوة والاتساق (٢) •

وليس معنى ذلك أن محمد على لم يكن يلقى اهتماما لتعليم السودانيين فى ظل الظروف الجديدة ، بل انه كان يمد يد العون لكل مشروع تعليمى يتفق وسياسته المشار اليها • ففى مجال التعليم الدينى راح يساند القائمين عليه ، من ذلك أن قاضى الشرع والعلماء بدنقلة طلبوا منه انشاء جامع تقام فيه الشعائر الدينية ، بالاضافة الى مدرسة

---

(١) عبد العزيز امين : التربية فى السودان • الجزء الثانى • ص ١٣ •

(٢) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على • ص ١٢٤ — ١٣٦ •

لتعليم القــرآن الكريم للأطفــال ، فكتب الى مأمــور دنقلة قائلا : « ... نطلب منكم أن تعملوا على انشـــاء الجامع واقامة المدرســـة الى جانبــه » (١) .

وفى أثناء زيارته للسودان اجتمع بالقضاة والمفتيين والعلماء وأنعم عليهم بالخلع الفاخرة تقديرا لهم وتشجيعا للدور التعليمى الذى يضطلعون به . كذلك فإنه وافق ذات مرة وبناء على اقتراح من الحكمدار بتجديد أحد الجوامع وبنـــاء عشر حجرات لسكنى (الفقرا) * ، وعمل بســور للجامع من الطــوب الأحمر حيث بلغت نفقـــات هـــذا كله ثمانية آلاف قرش (٢) .

ولم يقف الباشا فى سبيل من يريدون المزيد من التعليم الدينى بل أفسح أمامهم المجـــال للذهاب الى مصر والالتحاق بالأزهر الشريف . ومن بين تلك الجهود موافقته على تخصيص رواق للسنارية عام ١٨٤٦ ، حيث حضر الى الأزهر طالب سودانى يدعى « محمد على وداعه » منـــذ عام ١٢٥٣ هـ (١٨٣٧ م) فوجـــد ستة من أبناء سنار قد سبقوه اليـــه ، فتقدم هؤلاء الى الباشا يطلبون ترتيب خبز لهم فوافق على ذلك عـــام ١٢٥٨ هـ (١٨٤٢ م) . ثم تقـــدم محمد على وداعه وزملاؤه السناريون المجاورون طلبا يلتمسون فيه انشاء رواق خاص . ولما كان عدد الأروقة الموجودة بالأزهر عبـــارة عن اثنين وعشرين رواقا ، وكل رواق منهـــا مخصص لجنس من المجاورين ، لم يعد فى الامكان — كما قال وكيـــل ديوان المالية فى رسالة لمحمد على — انشاء رواق جديد خاص بالسناريين ، وان انشـــاء رواق جديد خاص بهم يتوقف على ارادة الجناب العالى ،

---

(٢) عبد العزيز امين : المرجع السابق . ص ١٤ .

(*) المشايخ الذين يقومون بالتعليم الدينى داخل الخلاوى .

(٢) دفتر رقم ١٨٠ ، شورى المعاونة ملكية — ترجمة الوثيقة رقـــم ٢١ بتاريخ ١١ المحرم ١٢٥٥ هـ . انظر ايضـــا عبد العزيز امين عبد المجيد المرجع السابق ص ١٥ .

فكان رد الباشا على الرسالة « ... قد اقتضت ارادتى شراء محل جديد وتخصيصه رواقا للمجاورين » (١) . وهكذا فان محمد على لم يلق بالا الى العقبات المالية التى كانت تقف حيال اقامة هذا الرواق الخاص بالسناريين وتفوق على هذه المشكلة الاقتصادية فى سبيل الأهداف التعليمية لأبناء السودان .

من ذلك يتبين لنا أن محمد على قد حاول — ما وسعه — أن ينشر التعليم الدينى فى داخل البلاد ويرسل أبناء السودان الى الأزهر بمصر لاستكمال علومهم الدينية .

وبالرغم من ذلك كله فلم تسلم سياسة محمد على التعليمية — وخصوصا فى الجانب الدينى — من النقد الشديد . فقد فسر أحد الباحثين اهتمامه بهذا التعليم الى « أنه كان يتناسب — من وجهة نظر محمد على — وحالة البلاد ولا يتعارض مع سياسته ، وأن حدبه ورعايته للتعليم الدينى فى السودان ما كان إلا ليزيد من نفوذ العلماء والفقهاء الذين يساهمون فى استتباب الأمن باعادة الجماعات الهاربة ، وجمع الضرائب ، فترك لهم مراكزهم التقليدية التى يباشرون فيها نشر علوم اللغة والدين خاصة وانهم قد شعروا فى عهده باستقرار مادى ومورد ثابت بعد أن كانت الهبات والهدايا من قبل عرضة للظروف ، الأمر الذى كان حريا بهذه الفئة أن تبارك الحكم وتسبح بحمد الباشا » (٢) .

واذا كنا نتفق مع الباحث فى الشق الأول من هذا التفسير والذى يذهب الى أن هذا اللون من التعليم كان مناسبا للبلاد ، إلا أننا نختلف معه فى بقية ما ذهب اليه . فلست أدرى هل كان الباشا فى حاجة ماسة

---

(١) دفتر رقم ٤١١ ، معية سنية — ترجمة المكاتبة رقم ٣٤٨ بتاريخ ١٦ صفر سنة ١٢٦٣ هـ . ارادة الى مدير المالية . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) يحى محمد ابراهيم : التعليم الدينى فى السودان والصراع بينه وبين التعليم الحديث . ص ١٨٩ .

الى مباركة حكمه وتوطيد أركانه فى السودان وقد توطد بالفعل ؟ ثم ان هؤلاء الفقهاء لم يكونوا منوطين بجمع الضرائب حتى يخطب الباشا ودهم اللهم إلا اذا كان صاحب الرأى لا يفرق بين المشايخ الذين يقومون بمهام ادارية والمشايخ الذين يقومون بأمور التعليم الدينى والذين يطلق عليهم دائما (فقـرا) • والحقيقة أن هذه التفسيرات نابعة من نظرة اقليمية ضيقة لم تكن أبدا تدور فى مخيلة محمد على فى القرن التاسع عشر ، فلم يكن يفرق بين رعاياه فى مصر والسودان •

ولم يتدخل محمد على ـ رغم اغداقه الأموال على المساجد والمشايخ القائمين على التعليم الدينى ـ ولم يفرض علوما دون أخـرى أو برامج دراسية معينة وانما اكتفى بما يمكن تسميته بالاشراف الفنى والادارى من تحريات عن عدد التلاميذ وأعمارهم وأهلية القائمين بأمر التدريس ، وكان الحكمداريون هـم الذين يقومون باجـراء مثل هـذه التحريات الضرورية عن عـدد الطلاب وعمليات البنـاء والأدوات اللازمة لهـذه المدارس • أما كفاءة الفقهاء وسلوكهم فقد ترك أمرها لشهادة العلمـاء والقضـاة •

وحتى هذا الاشراف غير الجوهرى فى هذه المدارس كان سـبيلا الى توجيه اللوم لسياسة محمد على التعليمية من جانب القائلين بوجود تعارض بين النظـام القديم الذى كان يتيح زيادة أعداد الطـلاب وبين النظـام الجديد الذى ينظـم عملية زيادة الطـلاب واسـتبعاد غـير اللائقين (١) •

ولست أدرى ما هو التعارض فى هذا الأمر • لقـد روعت صاحب الرأى السالف مسألة استبعاد بعض كبار السن من التلاميذ فراح يصدر حكمه دون أن يوضح لنا الحيثيات حول ما اذا كان استبعاد هؤلاء الكبار

---

(١) يحيى محمد ابراهيم : المرجع السابق • ص ١٩١ ، ١٩٢ •

لمجرد أنهم كبار السن أم لأسباب أخرى . وهل كان فى وجـودهم بين صغار السن والناشئة حافزا لباقى التلاميـذ على التقدم فى الدراسة ؟ ثم أخيرا هل كانت قدرات هؤلاء الكبار على التحصيل ضعيفة ومن ثم رأت الادارة المسئولة استبعادهم والحاقهم بأعمـال يدوية كما تشـير الدراسات التربوية الحديثة ؟ . كان لابد اذن من طرح مثل هذه التساؤلات قبل أن نحكم بوجود هذا التعارض خاصة وأن الباحث قد أشـار الى أن محمد على لم يتدخل بشكل جوهرى فى التعليم الدينى .

وفى عهد عباس الأول نلحظ استمراراً لسياسة محمد على تجاه التعليم الدينى على الرغم مما قيل عن عدائه فى تشجيع التعليم بصفة عامة . فليست لدينا أدلة تشير الى أن التعليم الدينى فى السودان — على عهده — قد وهن ، بل ظل يلقى دعما وتشجيعا من لدن رجال ادارته فى السودان . وكان الحكمداريون فى معظمهم من الأتراك المعروفين بحرصهم على شعائر الدين فشجعوا ما وجدوه قائما من الخلوات ومساجد العلم والعبادة (١) .

وبالرغم من قصر المدة التى قضاها عباس فى الحكم والتى بلغت ست سنوات (نوفمبر ١٨٤٨ — يولية ١٨٥٤) فقد وجـدت بعض الأعمـال التعليمية فى هذا المجال وتتمثل فى احتفائه وتقديره لرجال العلم ، من ذلك أن أحد السودانيين كان يتلقى العلم بالأزهر الشريف ، ولمـا أنجز مهمته العلمية وهم بالعودة الى بلاده كتب عباس الى حكمدار السودان أن يحسن ملاقاته ويعامله بما يليق برجـال العلم ، كما تم التنبيه على سائر الحكام الذين يلقاهم فى طريقه الى بلاده بضرورة المعاملة الطيبة له . كذلك فان عباس باشا قد أوصى بأحـد علماء الأزهـر خيرا حين طلب أن يؤذن له بالسفر الى السودان لينشر العلم بين أهله ، كمـا وافق

---

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق . ص ٢٣٠ .

أيضا أن يبنى مسجدا ويقوم بالخطبة فيه (١) .

وبالرغم ما قيل عن حرصه على الانفاق فانه لم يضن على مساجد العلم بالاصلاح ، فقد رفعت اليه عريضة تفيد بوجود مسجد قديم للصلاة وتلاوة القرآن ودراسة العلم بناحية الخندق وأنه فى حاجة الى ترميم وتخصيص راتب شهرى أو سنوى ، فما كان منه إلا أن وافق على ذلك وطلب الى حكمدار السودان أن يقوم باللازم (٢) .

ومن الجوانب الأخرى المتعلقة بهذا النوع من التعليم الاهتمام بشراء المراجع المتخصصة فى علوم الفقه واللغة ليفيد منها الدارسون بمساجد العلم ، كما نقرأ أيضا أن الحكام قد عقدوا اتفاقا مع المطبعة فى مصر لطبع الكتب الدينية تباعا ثم ارسالها الى السودان وتوزيعها على علمائه (٣) .

ومن أهم تلك الكتب التى أرسلت أو طلب ارسالها « حاشية الطحاوى على الدر المختار » ، و « حاشية الصاوى على الجلالين » ، و « شرح الخطيب الشربينى » وكتاب « شرح الدردير على أقرب المسالك » . والكتاب الأخير طلب من مصر بناء على أمر من الجناب العالى حتى يقرأ فى المسجد الشريف الذى انشىء فى قرية الخندق بدنقلة (٤) .

من ذلك يتبين لنا أن عباس الأول قد سار على منوال سلفه محمد على فى مجال التعليم الدينى قدر طاقته ، ولم يطالعنا ما يشير الى أنه

---

(١) عبد العزيز امين عبد المجيد . المرجع السابق . ص ٢٤ ، أنظر ايضا : دفتر رقم ٨٤ صادر معية فى ٦ ذى القعدة سنة ١٢٦٨ هـ . مكاتبة عربية رقم ٥٠ ، وأيضا دفتر رقم ١٠٦ صادر معية بتاريخ ٢٧ شوال سنة ١٢٦٩ هـ .

(٢) عبد العزيز امين عبد المجيد . المرجع السابق . ص ٢٤ .

(٣) دفتر رقم ٩٨ — وارد معية عربى — وثيقة رقم ٨٠ بتاريخ ٧ ربيع الأول سنة ١٢٦٨ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) دفتر رقم ٦٥٥ ، صادر ديوان الكتخدا — وثيقة رقم ١١٩٤ بتاريخ آخر جمادى الآخرة سنة ١٢٧٥ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

حارب هذا النوع من التعليم أو امتنع عن تقديم المعونة الى من طلبها ، ومن ثم فلا مجـال هنـا للقدح فى أعمال هـذا الرجل وترديد أفكار معينة تناقلها الكثيرون من الكتاب والمؤرخين وأصبحت بمضى الزمن وكأنها كلمات مقدسة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . فالحكم على أعماله تعليمية كانت أو غيرها ينبغى أن تكون فى نطاق الظروف التى كان يحياها والتى كانت تمر بها البلاد اقتصادية كانت أم سياسية ، مع الأخذ فى الاعتبار حقيقة هامة وهى ان مدة حكمه كانت قصيرة جدا اذا ما قورنت بمدة حكم محمد على بحيث تتاح له فرصة القيام بنهضة كبرى .

ومن عهد عباس الى عهد سعيد ننتقل فى رصد التطورات والجهـود التى تمت فى مجـال التعـليم الدينى أو الأهلى حيث نشـهد استمرارا لسياسة السلف فى الاغداق على المدارس الأهلية المرتبطة بالمسـاجد . ففى مكاتبة من مدير كردفان نقرأ بأن أحـد المشايخ ويدعى الشـيخ اسماعيل الولى له أولاد وتلاميذ « .. سالكين فى سبيل الرشاد بتعليم الصبيان القرآن العظيم ومواظبين على تحصيل العلوم والتدريس ومجدين فى اقامة شـعائر الدين » ، وليس لهـم ايراد يعيشـون منه سـوى أطيانهم وسواقيهم التى كانت معفاة من الضرائب ، ولكن طبقا للنظام الجديد أصبحت هذه الأراضى والسواقى خاضعة للضرائب ، وبما أن هذا الشيخ وتلاميذه من أولى العلم ، فقد التمس مدير كردفان اعفاءه منها ، فما كان من سعيد إلا أن وافق على طلبه بالاضافة الى اعفـاء أبنـائه أيضا من هذه الضرائب « طالما كانوا يقومون بمهمة التدريس واقامـة الشـعائر » (١) .

وفى دنقلة تقدم أحد الأهالى بالتماس يرجو فيه مساعدته بترتيب شىء من الاعـانة على نفقـات الخلوة المفتوحة لقراءة القـرآن الكريم وتدريس العلوم ، فأرسل سعيد الى مدير دنقلة وبربر موافقته على منح

---

(١) دفتر رقم ١٨٨٦ اوامر عربى — صورة المكاتبة العربية رقـم ٨ بتاريخ ١٣ شوال سنة ١٢٧٣ هـ . دار الوثائق بالقلعة .

هذا الفقيه المصاريف الضرورية بالاضافة الى منحه عدة أفدنة — « بدون مال » — حتى ينفق منها على هذا المشروع التعليمى (١) .

وفى دنقلة الجديدة تقدم خدام « الجامع الشريف » بشكوى من ضآلة المرتب المقرر لهم ، فأمر سعيد بزيادته وبناء عشرة « دكاكين » على نفقة الحكومة وتأجيرهما مع تحرير وقفية من لدن ولى النعم (٢) .

ويبدو أن رجال الطرق الصوفية كانوا أيضا يلقون رعاية نظرا لما كانوا يقومون به من تعليم للأطفال كما كان الحال بالنسبة للشيخ محمد على قرانى المقيم بمديرية دنقلة وبربر ، حيث تم ترتيب معاش له للقيام بهذه المهمة (٣) .

ويبدو أن تكريم العلماء والقائمين على تحفيظ القرآن الكريم كان سنة بدأها محمد على وسار عليها خلفه ، ولكننا نرى سعيد باشا يعمل على تنظيم هذه المسألة ، فقد أبصر بعضا من ورثة العلماء يتسلمون مرتبات حتى وإن كانوا لا يقومون بمهمة التدريس ، بالاضافة إلى وجود الكثيرين من أدعياء العلم أو المتظاهرين بالاشتغال به طمعا فى الثراء . فعلى سبيل المثال نلاحظ كثرة أولئك الأدعياء حين تقرر اعفاء العلماء من ضرائب الأطيان ، وراحوا يظهرون الود للحكام للحصول على مثل هذه الاعفاءات (٤) ، فما كان من سعيد إلا أن نظم قواعد الانفاق على

---

(١) سجل رقم ١٨٨٩ — جزء أول — الأوامر العالية الصادرة للدواوين والمجالس — معية عربى — وثيقة بتاريخ ٢٤ محرم سنة ١١٧٤ هـ ص ١٣ دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ١٩٦١ : صادر قرارات المجلس الخصوصى . صورة الوثيقة رقم ١٥ ص ١٢ بتاريخ ٣ رجب سنة ١٢٧٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ١٨٨٩ — أوامر عربى — صورة المكاتبة العربية رقم ١٦٠ ص ٢٤ بتاريخ ١٣ شعبان سنة ١٢٧٨ هـ . أمر كريم الى حضرة سلطان دارفور . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) دفتر رقم ١٨٩٣ — صادر الأوامر — صورة الأمر الكريم رقم ٤ ص ٢٣٠ بتاريخ ٢٤ شعبان سنة ١٢٧٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

هذه المساجد والعلماء ، وقرر ألا تصرف المرتبات إلا لمن كان يقوم فعلا — من الورثة — بالتدريس (١) .

وقد استمرت نفس الأساليب السابقة فى التدريس بالنسبة لهـذه المدارس الأهلية . فقد وصف بتريك فى عام ١٨٦٠ احدى هذه المدارس التى كانت تقوم بتحفيظ القرآن الكريم ببلدة « الحصاحيصا » على النيل الأزرق حيث كان التلاميذ يذهبون مبكرين الى هذه الخلوة منذ الرابعة وحتى السادسة ، ومن السابعة حتى التاسعة فى المساء حتى لا يتعارض ذلك مع حياتهم المعيشية . وكان « الفقـير » يقرأ الآية من القرآن غيبا وبعد ذلك يحاكيه التلاميذ بأصوات مرتفعة جدا ، ويستمر فى هذه المحاكاة الى أن يحفظها التلاميذ فينتقل الى آية أخـرى . ولكل تلميذ لوح يكتب فيه الآيات ، وكان القليل منهم من يستطيع حفظ جميع القرآن أو الكتابة ، وحتى اذا حفظه فانه غالبا ما ينساه فى زمن أقل من الوقت الذى أنفقه فى حفظه ، فيما عدا آيات قليلة كانت تظل عالقة بذهنه (٢) .

وقد أولى حكمدار السودان موسى حمدى — فى عهد سعيد — بعضا من العناية التعليمية لقبيلتى الدنكا والشلك حين لاحظ أن دولة النمسـا قد أنشأت لها كنيسة فى جهة النيل الأبيض لادخـال هاتين القبيلتين فى ملتها ، ثم ألغتها عندما لم تستطع اقناعهما بذلك . وقد أوصى حكمدار السـودان بأن يرسـل لهاتين القبيلتين معلمون من فقهـاء السـودان يتميزون بحسن السلوك والأخلاق وترتيب « ماهيات » لهم حتى يقوموا بتعليمهم قواعد الدين الاسلامى مع انشاء « مدرسة عربية » (٣) .

وفى عهد الخديوى اسماعيل بدأنا نستشعر روحـا جديدة تدب فى

---

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد . المرجع السابق ص ٤٢ .

(٢) Egypt, The Sudan & Centeral Africa. p. 217.

(٣) محفظة رقم ٥٠٨ — وثيقة رقم ٢٩ بتاريخ ٢٠ رمضان سنة ١٢٧٩ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعـة .

أوصال المديريات السودانية مصحوبة بنشاطات متنوعة فى كافة جوانب الحياة ، ومنها الجانب التعليمى . ففى مجال التعليم الأهلى الدينى تطالعنا الكثير من الوثائق التى تؤكد مدى اهتمامه بهذا النوع من التعليم بشكل فاق سابقيه ولاحقيه . ففى أوائل عام ١٨٦٣ وردت رسالة الى المعية السنية تفيد بأن مسجدين بكردفان يقع أولهما بالأبيض وهو « الجامع العتيق » والثانى بحلة « أبو صفية » ، وأنهما فى حاجة الى الاصلاح نتيجة الخلل الذى أصابهما سواء من سقوط الأمطار أو تقادم الزمن ، بالاضافة الى أن المسجد الأخير سبق أن أوقفت له سبع « حلال » معفاة من الخراج بقصد الانفاق عليه ولكنه الغى ، فما كان من الخديوى إلا أن وافق دون تردد على تخصيص مرتبات دائمة للخدم والمؤذنين مع توفير مبالغ أخرى ينفق منها على الفرش وزيوت الاضاءة (١) .

وفى يونية عام ١٨٦٣ وردت مكاتبة من الخرطوم تفيد بأن أحد المساجد ويسمى مسجد الأرباب ، بمدينة الخرطوم ، كان يقوم بمهمة تعليمية بالاضافة الى اقامة الشعائر الدينية ، وليست له أوقاف وفى حاجة الى الاصلاح والمؤونة ، فوافق اسماعيل على هذا المطلب قائلا : « حيث أن من أمانينا تعمير مثل هذه المساجد الشريفة فإننا نأمر ببناء هذا المسجد وتعميره بحسب المقايسة الموضوعة وخصم المبالغ التى ستصرف فى هذا السبيل من الديوان بصفة احسان من لدنا ... » (٢) .

كما بعث أحد القائمين على التعليم الدينى فى بربر برسالة يقول فيها انه بنى زاوية للصلاة وتعليم الأطفال القرآن الكريم والعلم ويطلب ربط شىء على ذلك حتى يتمكن من أداء مهمته التعليمية والدينية على أحسن وجه ، وبالاستفسار عن هذا المطلب ومدى صحته تبين أن لهذا

---

(١) عبد العزيز امين عبد المجيد : المرجع السابق . جـ ٢ . ص ٥٣ .

(٢) دفتر رقم ١٦٩٤ وارد العرضحالات دواوين ومديريات . صورة المكاتبة العربية رقم ٥ ص ٩٣ بتاريخ ٦ محرم ١١٨٠ هـ ، دفتر رقم ٥٢٩ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢ بتاريخ ١٣ ربيع الأول سنة ١٢٨٠ هـ . ، انظر ايضا : عبد المجيد عابدين — المرجع السابق . ص ٥٤ .

الشيخ زاوية صغيرة للصلاة وبجوارها « راكوبة » * لتعليم الأطفال وبها ٢٢ طفلا ، وأن الخلوات (الخلاوى) الكبيرة كان يربط للقائمين عليها مبلغ ٢٥٠ قرشا فى الشهر وأربعة أرادب من الذرة ، واقترح المدير أن يعطى ٧٥ قرشا وأردبا واحدا من الذرة شهريا (١) .
إلا أن الخديوى اسماعيل رأى غير ذلك وأصدر أمره قائلا : « بما أن أملنا الوحيد هو قيام الشعب بتحصيل العلوم وتعليمها ، وصلاح حالهم ودخولهم الى سبيل المدنية بتعلم القراءة والكتابة ، وحيث أن مثل هذه الزوايا والأعمال الخيرية مما يستوجب سرورنا ، نأمر بتوسيع زاوية الشيخ .. وتجديد بنائها لتكون مثل الزوايا الأخرى التى بالسودان على نفقة الحكومة .. ونأمر أيضا بصرف ٢٥٠ قرشا الى ما شاء الله وكذلك بصرف أربعة أرادب شهريا بصفة احسان للزاوية المذكورة لفقراء الأهالى الذين سيقصدونها لتعليم القرآن والعلوم الشريفة اسوة بالمساجد الكبيرة ، كما نطلب منكم أن تبلغوا الشيخ المذكور سرورنا وممنونيتنا وتطلبوا منه أن يعنى عناية كبيرة بتعليم القرآن وتدريس العلوم للأهالى ... » (٢) .

ويعلق الدكتور عبد العزيز أمين عبد المجيد على ذلك بقوله : هل كان اسماعيل بعمله هذا مستعمرا ؟ وهل نظر الى السودان وسكانه نظرة المستعمر الى مستعمرته ؟ وهل كان مقترا فى العلم على سكان السودان كما كان الحال فى المستعمرات ؟ وهلا كان كافيا أن يوافق على ما اقترحه

(*) الراكوبة هى السقيفة التى تبنى من القصف ليجلس عليها التلاميذ امام حجرة من حجرات الخلوة . (عبد العزيز امين عبد المجيد : التربية فى السودان جـ ا ص ١،١٤) .

(١) دفتر رقم ١٧٠١ وارد معية عرضحالات دواوين واقاليم . وثيقة رقم ٧ ص ١٠٢ بتاريخ ١٨ رجب سنة ١٢٨٠ هـ .

(٢) دفتر رقم ٥٢٩ معية تركى . ترجمة المكاتبة رقم ٢ ص ١١٧ بتاريخ ٢٧ رمضان سنة ١٢٨٠ هـ . انظر ايضا عبد العزيز امين عبد المجيد . المرجع السابق . ص ٥٤ ، ص ٥٥ .

مدير بربر من معونة شهرية قليلة ؟ (١) • ولعل فى هذا الصنيع ما يجعل أولئك النفر — من الباحثين الذين دأبوا على النيل من الحكم المصرى فى السودان ومقارنته بالاستعمار الأوربى للقارة الافريقية — أن يعيدوا النظر فى مثل هذه الأقوال والعبارات التى فيها الكثير من التعميمات •

واذا كانت الأمثلة السابقة توضح أن أصحاب الخلاوى والقائمين على عمارة المساجد هم الذين كانوا يطلبون المساعدات فتجاب طلباتهم ، فان آخرين كانت تعف نفوسهم من طلبها ، ولكن القائمين على شئون الادارة فى السودان كانوا لا يتركونهم ، فمن هؤلاء ثلاثة فى عهد الحكمدار موسى باشا حمدى كان لكل واحد منهم مسجد يقوم بالتدريس فيه وليست لهم وظائف أخرى سوى هذه المهمة التعليمية فاقترح الحكمدار على الخديوى أن يربط لكل واحد منهم ماهية وشيئا من الذرة كما هو الحال لأصحاب المساجد الأخرى (٢) •

ويبدو أن الدين الاسلامى الذى اشترك فيه كل من الموظفين المصريين والسكان السودانيين كان من العوامل التى قوت التعاطف بينهم ووحدت من تفكيرهم ونظرتهم الى الحياة الدنيا والآخرة • فالمسلم الحاكم أو المحكوم كلاهما يعتقد أن المسجد بيت الله وأن ما يقدم له من مساعدة انما هى لوجه الله • فعلى سبيل المثال نجد الشيخ يوسف خضر النائب الشرعى بجهة المسلمية التابعة لمديرية الخرطوم يرجو ترميم المسجد الكائن بهذه القرية والذى بناه أحد التجار منذ مدة وكان يتولى الانفاق عليه حتى توفاه الله ولم تكن له أوقاف وانه آيل للسقوط وبه طلاب علم ، فلما بعث الحكمدار الى الخديوى بذلك وافق على ترميم هذا

---

(١) التربية فى السودان . جـ ٢ . ص ٥٥ .

(٢) سجل رقم ١٤٧ جـ ١ وارد الأقاليم بالمعاونة السنية . مكاتبة رقم ١٣، مرور س ١٥٣ بتاريخ ٢٨ ذى الحجة سنة ١٢٨٠ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

المسجد على نفقة الحكومة (١) .

ويبدو أنه قد أنتشر سخاء الخديوى اسماعيل فى الانفاق على مساجد العلم فى السودان فكثرت الالتماسات على طلب المعونة لدرجة ان بعض طالبيها كانوا يتقدمون باعتبارهم مدرسين فقط دون ذكر للمسجد أو المعهد الذى يقومون بالتدريس فيه ، ومع ذلك فلم يكن يردهم خائبين ، ومن بين هؤلاء الشيخ الأمين محمد الذى كان يقوم بهذه المهمة فى الخرطوم (٢) .

هكذا سار التعليم على هذا المنوال .. مساجد تبنى يقوم عليها فقهاء بتحفيظ القرآن الكريم وتعليم القراءة والكتابة دونما التوغل والاستزادة من العلوم الأخرى المتعلقة بالقرآن والحديث ، الأمر الذى كان مدعاة لتوجية النقد الشديد لهذا الاسلوب التعليمى التقليدى .

ويبدو أن جعفر مظهر باشا أراد أن ينتقل بهذا التعليم الأهلى خطوة الى الأمام فاصطحب معه اثنين من أبناء مديرية كسلا الى الأزهر ، بعد أن حفظا القرآن الكريم حفظا جيدا واستطاعا الاحاطة ببعض الأمور الفقهية ، وسلمهما الى شيخ الجامع الأزهر وأوصاه بهما خيرا ، وخصص لهما مرتبا شهريا . وكان يرمى من وراء ذلك عدم الاقتصار على حفظ القرآن وحسب بل فهمه ومعرفة الفقه والنحو وتشجيع السودانيين على المجىء الى مصر لاستكمال علومهم الأمر الذى سوف يؤدى الى كثرة العلماء والفقهاء بالسودان والاستغناء عن أمثالهم ممن كانوا يأتون من مصر (٣) .

---

(١) عبد العزيز امين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٥٧ — ٥٨ ، انظر ايضا : دفتر رقم ١٧٠١ معية عربى ، صورة المكاتبة رقم ١٥ ص ١٨٧، بتاريخ ٢٣ صفر سنة ١٢٨١ هـ .

(٢) دفتر رقم ٥٦٥ معية تركى وارد عرض حالات . صورة ترجمة الوثيقة رقم ٣ ص ١٧ بتاريخ ١٨ ذى القعدة سنة ١٢٨٢ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ٥٧٦ — معية سنية (تركى) ص ١٥ مكاتبة رقم ٤ بتاريخ ٥ شعبان سنة ١٢٨٤ هـ . من المعية الى حكمدار السودان . دار الوثائق القومية بالقلعة .

وقد بلغت غضبة جعفر مظهر — على التعليم الدينى المتخلف الذى كان يسود السودان آنذاك — قمتها حين بعث بخطاب الى الخديوى يشرح له فيه مساوىء هذا التعليم الذى لم يثمر عن طلاب يصلحون لوظائف « القضاء والنيابة والامامة » • ويمضى الحكمدار شارحا مثالب هذا التعليم بقوله « •• وقد كان المتبع فى العهد القديم صرف مرتبات ومؤونة » الى بعض الجهلة من الفقهاء فى سبيل التقدم العلمى وكانت تصرف اليهم شهريا ، ونظرا لأن أكثر أصحاب المرتبات جهلاء فانهم استحقوا تلك المرتبات بالشهادات الكاذبة واغتالوا المرتبات المنصرفة اليهم والى طلبتهم بدون وجه حق ، فأصبحوا بدون طلبة لأنهم لم يصرفوا شيئا من تلك المبالغ فى تعليم هؤلاء الطلبة • ولو وجد لدى البعض منهم طلاب فانهم لا يزيدون عن بضعة أطفال تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة والسادسة الى العاشرة وهؤلاء يتركون المكتب قبل أن يكملوا جزء (عـم) * ويذهبون للعمل كرعاة أو حمالة أو مزارعين ، لذلك التمس اعطائى تصريحا لأقوم بالتفتيش على أعمالهم والبحث فى مؤهلاتهم العلمية وقطع مرتبات من لا علم له ، ونقلها الى من يفوقونهم علما •• » ثم يضيف « •• ويجب انتخاب مدرسين بعد الامتحان لكل من بربر ودنقلة والخرطوم وسنار والتاكة وكردفان وفاشودة وربط مرتب لهم علاوة على المرتب القديم • • وتحديد عدد الطلبة لكل معلم واعفاء الطلبة من دفع الضرائب والأموال والمطلوبات الأميرية الأخرى اذا ما تركوا الاشتغال بالتجارة والزراعة ، وتعيين أحد العلماء المبرزين فى الخرطوم بعد امتحانه ليكون ناظرا وملاحظا على الجميع بعنوان ** « شيخ العلماء » واعطائه مرتبا قدره ٥٠٠ قرش شهريا وثلاثة أرادب من الأذرة ، وتعيين أحد الفقهاء المتقدمين ليكون قارئا وحافظا بعنوان « شيخ الفقهاء » بمرتب قدره ٣٠٠ قرش شهريا وأردبين

---

* الجزء الأول من القرآن الكريم .
** تحت اسم .

من الـذرة .. » (١) .

من ذلك يتبين لنا ان هذا المشروع الاصلاحى الذى عرضه حكمدار السودان لاصلاح التعليم الأهلى فى السودان كان يرمى الى جعله حكوميا وأن يختار له الصفوة الصالحة من المعلمين عقب اجتيازهم لامتحـان ، وتحديد مرتبات ومؤونات ثابتة لكل منهم مـع تحـديد عـدد الطلاب وتعيين مشرف عام (ملاحظ أو ناظر) على جميع المدرسين يحمـل لقب « شيخ العلماء » . ويبدو أن نواة هذا المشروع كانت فى بربر ودنقـلة والخرطوم وسـنار والتاكة وكردفان وفاشودة الا أن اسماعيل باشـا لاحـظ أن لقب « شـيخ » لا يتناسب والوظيفة التى سيشغلها رئيس المعلمين وملاحظهم فاقترح تسميته « رئيس الأساتذة » . وبالرغـم من هذه الأمور وافق الخديوى على بدء المشروع (٢) .

وقد شرع الحكمدار فى تنفيذ مشروعه التعليمى ، الا أن ثمة عقبات مادية قد صادفته من بنائين ومهندسين معماريين لبناء الجوامع والمكاتب . وللأسف الشديد لا نجد بعد ذلك ذكرا لهـذا المشروع وان كان البعض يؤكد أن هذا المشروع قد نفذ بدليل أن الحكمدار قد قام بالتفتيش على المسـاجد والخـلاوى وقـرر قطـع الاعـانات عـن أولئـك الـذين لا يستحقونها (٣) .

وفى تقديرنا أن توقف هذا المشروع يعود فى المقام الأول الى الظروف المالية السيئة التى بدأت مصر تعيشها فى تلك الفترة والتى وقفت حائلا

---

(١) محفظة رقم ٤٦ معيـة تركى — ترجمـة الوثيقة التركية رقم ٤٠ بتاريخ ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢٨٦ هـ . من حـكمدار السودان الى مهر دار الحضرة الخديوية انظر : جورج جندى وجاك تاجر : المصـدر السابق . ص ٢٥٩ — ٣٦٠ .

(٢) دفتر رقم ٥٨٣ معية سنية . ترجمة المكاتبة رقم ٣ ص ٤ بتاريخ ٢٩ جمادى الثانية سنة ١٢٨٦ هـ . والوقائع المصرية : العـدد رقم ٣٤٢ بتاريخ ٢٥ شوال سنة ١٢٨٦ هـ . وايضا : عبد العزيز عبد المجيد : المرجع السابق ص ٦٤ .

(٣) عبد العزيز امين عبد المجيد : المرجع السـابق . ص ٦٥ .

دون توفير الأموال اللازمة له ، بدليل ان الخديوى — أمام شـدة ضغط الالتماسات التى كانت تقدم له من قبـل المشايخ لمنح الاعانات — لم يعد فى استطاعته أن يوافق عليهـا مالية كانت أم حبوبا ، بل كان يوافق فقط أن يحـل محلهـا نوع آخـر من الاعانات يتمثل فى رفع الضرائب عن الأراضى التى يقوم المشايخ بزراعتها .

ويتساءل أحـد الباحثين (١) عن السبب فى تغـير سياسة الحكومة واتجاهها — فى عهد جعفر مظهر — الى « توظيف التعليم » ، فيجيب بأن الدولة فى هذه الفترة كانت قد « تهيأت لها كل عوامل الاستقرار ودانت لها القبائل الجماعات وامتد نفوذها الى دارفور وأعالى النيـل ومصوع وأرتيريا وأصبحت من ثم فى حاجة ملحة الى من يشغل الوظائف الدينية للدولة بعد هذا التوسع » .

والحقيقة ان مقدمة القضية التى طرحهـا الباحث خاطئة ومن ثم فالنتائج التى ترتبت عليها أيضا جاءت أكثر خطأ . فلست أدرى ماذا يعنى « بتوظيف التعليم » ؟ فان كان يعنى — كما يتبين من سـياق حديثه — ارسال جعفر مظهر بعض الفقهاء الى مصر للتزود من علوم الأزهر حتى يشغلوا الوظائف الدينية عقب التوسـع فلا نعتقد ان جعفر مظهر كان يرمى الى هذا الهدف فقط — ان صح هذا القول تاريخيا — وهو غـير صحيح كما جـاء فى استنتاجه ، فلم تكن دارفور قـد ضمت للادارة المصرية * حتى يبعث البهاء فقهاء ولا الجنوب السودانى بات فى حاجة ملحة الى فقهاء مسلمين على طراز رفيع من التعمق فى فهم الدين . ولكن التفسير الأقرب للصواب نحو اهتمامه برجال الدين وارسالهم الى الأزهر ان هذا الرجل لم يكن مقتنعا تماما بالأسلوب التعليمى الذى كانت تقوم

---

(١) يحيى محمد ابراهيم : المرجع السابق . ص ٢١٣ .

* تولى جعفر مظهر باشا الحكم من ٥ مارس سنة ١٨٦٦ الى ٢٠ يولية ١٨٧١ ، بينما ضمت دارفور للادارة المصرية بالسـودان فى أواخر عـام ١٨٧٤ .

به الخلاوى والذى لم يتقدم خطوة للأمام ، فأراد أن يخلق صفوة متعلمة ومتفقهة لا مجرد حفظة للقرآن الكريم وحسب ، وهذا التفسير يتسق — من ناحية أخرى — والسياسة التى نهجها جعفر مظهر والتى قدمها فى مشروعه التعليمى سالف الذكر .

ومع ذلك كله فليس هناك ما يمنع أن تتولى هذه الصفوة أمور القضاء والادارة والزعامة فى السودان ، فقد كان من بينهم مشايخ قبائل وزعماء « حلل » (١) .

وفى عهد ممتاز باشا الذى خلف جعفر مظهر سارت سياسته التعليمية على نهج سلفه تارة ثم بدأت تحمل بصماته تارة أخرى ، فقد سار على نهج سلفه فى حرمان من لم تثبت أهليته من الفقهاء فى الحصول على المرتبات والمربوطات ، وعاملهم بشدة ، ولم يقبل « التدلل » الذى كانوا يعاملون به من قبل . وأما بصماته التعليمية فقد ارتبطت بسياساته الزراعية المعروفة عنه وخصوصا فى شرقى السودان ، حيث قرر أن يعطى كل شيخ أو فقيه مقدارا من الأرض تقدر بنحو ساقية أو أكثر (٢) ، على أن يقوم بتعميرها بدلا من تركها بورا وتعفى من الضرائب ومن ثم يمكن أن تكون الفائدة مزدوجة حيث يمكنهم العيش منها من ناحية ، ومن ناحية أخرى تزداد مساحة الأراضى الزراعية ويكثر انتاجها ، لأن منحهم النقود قد صرفهم عن العمل فى الأرض كما كان الحال من قبل (٣) .

ولما خلفه اسماعيل أيوب باشا سار أيضا على طريق سلفه لكنه نظر الى بعض الحالات الخاصة التى لا تستطيع العمل فى الأرض كرئيس

---

(١) Hill; Egypt in the Sudan. p. 126.

(٢) تقدر الساقية كما سبق ان ذكرنا بثمانية افدنة فى اراضى الجزائر وعشرة فى الاراضى النابتة .

(٣) دفتر رقم ١٩٤٦ اوامر عربى ، صورة الأمر الكريم رقم ٩ ص ٦٨ امر كريم الى مدير عموم قبلى السودان فى ٦ ذى الحجة سنة ١٢٨٨ هـ . انظر ايضا عبد العزيز امين عبد المجيد : المرجع السابق . ص ٦٧ .

العلماء و « مميز » الطائفة العلمية والفقهية ، ومميز الوظائف القرائية والحفاظ وغيرهما فقرر استمرار مرتباتهم من النقود والأذرة ، وأما بقية الفقهاء من أرباب المرتبات فلكونهم مزارعين فيمكنهم كسب معيشتهم ، ولذلك حذف مرتباتهم ، أما اذا أرادوا زراعة ساقية من الأراضى فيعاملون كما يرى المدير .

ويبدو أن سيل طلبات الاعانة المالية من جانب الفقهاء قد كثر ارسالها الى الخديوى اسماعيل فكان يحيلها بدوره الى الحكمدارين لفحصها ، فكان يتبين فى كثير منها ان هؤلاء الفقهاء قد جبلوا على الكسل انتظارا لهذه المرتبات بدلا من العمل بالزراعة (١) .

وينتقد البعض (٢) سياسة الخديوى اسماعيل نحو التعليم الدينى وخاصة اسلوبه فى تقديم الاعانات لها والتى لم تكن تخضع لنظام محدد وثابت بل كانت مركزة فى يده دونما خطة ، وانه لو حدث هذا التنظيم لها لما استغل الفقهاء هذا التشجيع القائم على الثقة ، ولو كانت هناك مصلحة أو ديوان للتعليم — كالذى كان بمصر — أو لو عمل نظام التعليم بالسودان كما كان الحال بمصر لتشجيع التعليم الأهلى والكتاتيب لربما كانت النتيجة أفضل مما حدث . ولو أتيح لمشروع جعفر باشا مظهر أن يرى النور لوجد مبرر قوى لحرمان الكسالى والمهملين والأدعياء من شيوخ الخلوات وأصبح هناك دليل واضح على فشلهم فى أداء رسالتهم التعليمية فحل غيرهم محلهم ، ولربما شجعهم تنظيم التعليم الأهلى على أن يحسنوا من أنفسهم مادة وأسلوبا . وباختصار شديد فقد انتفت السياسة الواضحة والخطة الحكيمة لادارة البلاد تعليميا وتثقيفيا . ومرد ذلك ، كما سبق القول — ان ظروف مصر الاقتصادية

---

(١) دفتر رقم ١٨٧٦ — وارد عرض حالات ، ص ٦٧ ، وثيقة رقم ١٥ بتاريخ ١١ صفر سنة ١٢٩١ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .
(٢) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ، ص ٧٠ .

والمالية منها على وجه الخصوص لم تكن مشجعة لوضع مثل هذه السياسات والخطط التعليمية المستقبلية التى تحتاج الى جهود وموارد مالية فى المقام الأول .

وفى عهد الخديوى توفيق لم تشر الوثائق كثيرا الى التعليم الدينى الأهلى ، وربما يعود ذلك الى بدء اضمحلال الادارة المصرية فى السودان نتيجة الأحداث التى بدأت تعمل فى المجتمع السودانى وفى مقدمتها الثورة المهدية ، أو ربما ان المدارس السابقة استمرت تؤدى رسالتها ولم تعد فى حاجة كثيرة الى الانفاق عليها بعد أن أغدق اسماعيل عليها الكثير ، كما أن السكان أنفسهم أصبحوا يعدون هذا النوع من التعليم جزءا من رسالتهم الدينية التى يتقربون بها الى الله وليسوا فى حاجة الى الاعلان عنها .

ثانيا : التعليم المدنى (الحكومى) :

لم يكن التعليم الحكومى أو المدنى قد بدأ منذ عهد محمد على فى السودان ، بل صرف الرجل همه الى التعليم الأهلى ، كما سبق ان ذكرنا ، والذى كان مناسبا للتركيب القبلى فى السودان آنذاك ، كما انه كان فى حاجة الى استقرار البلاد أولا حتى يمكن انشاء مدارس حديثة على غرار ما تم بمصر . وليس معنى ذلك أنه أهمل هذا الجانب ، بل استعاض عنه باسلوب آخر يتمثل فى ارسال أبناء السودان الى مصر لتلقى التعليم فى مدارسها وخاصة الفنية منها كالزراعية والصناعية . فقد كان السودان فى تلك الآونة فى حاجة ماسة وسريعة لخلق وايجاد فنيين يقومون على أمور الزراعة والصناعة ، ولم تكن برامج الباشا لتسمح بالانتظار طويلا ليتسنى انشاء المدارس فى السودان .لقد حث الباشا منذ زيارته للسودان الأهالى على ارسال أبنائهم لمصر لتلقى أصول هذه العلوم ، وراح يغرى وجهاء السودان ان يستجيبوا لهذا النداء قائلا : « .... فان كنتم توفدون أبناءكم فانى الحقهم بالمدارس الكثيرة

التى وفقنى الله سبحانه وتعالى فى انشائها لتعليم أبناء الأمـة وتثقيفهم وأدفع لهم نفقات مأكلهم وملبسهم ، وبذلك ينعم أبناؤكم بنصيب وافـر من العلم والأدب فى هـذه المدارس ثم اعيدهم بعد سنوات قليلة الى أوطانهم معززين مكرمين .. » (١) .

وبالفعل فقد كان محمد على صادقا فى قوله ، فعقب عـودته جاءه ستة من أبناء السودان فأمر بتعليمهم الزراعة وارسالهم الى المدرسـة التجهيزية والعناية بهم وتمييزهم عن غيرهم من تلاميذ المدرسة الأخرين ، وتخصيص خـادم لهـم للقيـام بخدمتهم حتى يتفرغوا تمـاما لتلقى الدراسـة والعلم ، كما انه طلب قبل كل شىء أن يتم تعليمهم القـراءة والكتابة تمهيدا لتعليمهم فن الزراعة (٢) . وكان الباشا يتابع بنفسـه مدى تقدم هؤلاء التلاميذ ، وقـد وافق فى عام ١٨٤٣ أن يبقوا لمـدة سنتين اضافيتين حتى يمكنهم اجادة فن الزراعة علما وعملا (٣) .

وهكذا كانت فترة محمد على المتبقية ، تهدف الى ارسال السودانيين الى معاهد التعليم بمصر الى جوار اقرانهم المصريين وان كان محمد على قد كثف عنايته تجاههم ربما لأنهم كانوا فى حاجة الى مزيد من التعليم حتى يمكنهم أن يكونوا نواة طيبة فى السودان تستطيع البلاد ان تعتمد عليها فى المستقبل .

انشـاء مدرسـة الخرطوم :

وفى عهد عباس الأول يمكن أن نميز — لأول مرة — بين نوعين من

---

(١) رحلة ساكن الجنان — السودان — محافظ عابدين .

(٢) دفتر رقم ٣٠٦ صادر ديوان المعاونة جهادية ، وثيقة رقم ٩١٢ بتاريخ ٩ جمادى الآخر سنة ١٢٥٥ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة ، انظر ايضا : حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية — الجـزء الأول ص ٣٥٠ .

(٣) دفتر رقم ٣١١ — صادر شـورى المعاونة — وثيقة رقـم ٦٨٥ بتاريخ ٩ صفر سنة ١٢٥٩ هـ . كتاب الى ديوان المدارس . دار الوثائق القومية بالقلعة .

التعليم فى السودان ، الأول وهو التعليم الأهلى أو الدينى والثانى ما عرف بالتعليم الحكومى أو المدنى .

ويكاد المؤرخون يجمعون على أن عصر عباس الأول بصفة عامة كان عهد ركود وضعف ، ولم يحظ التعليم — كغيره — من الميادين الأخرى باهتمامه ، بل اقتصر اهتمام الرجل فقط فى الابقاء على بعض المدارس لتخريج العدد الكافى لادارة المرافق المحدودة ، كما كان شديد الحرص فى الصرف على معاهد التعليم وان كان ينفق ببذخ على قصوره ومرافقه من ناحية أخرى (١) .

وفى تقديرنا أن عباس الأول قد جاء فى زمن كانت تشهد فيه مصر تحولا سياسيا ضخما ، كانت تنتقل فيه من مرحلة توسع ضخمة جلبت عليها الكثير من المشاكل الدولية الى مرحلة كمون تلتقط فيها الأنفاس وتعيد النظر فى سياستها المختلفة . ولسوء حظ الرجل — من ناحية أخرى — انه جاء بعد عصر محمد على الملىء بالانجازات الضخمة فى الداخل أو الخارج فبدأ وكأنه كما محدوداً مهما فعل من أعمال فى مصر أو خارجها سواء فى السودان أو غيرها .

ومن أهم الانجازات التعليمية التى تقترن باسم عباس الأول فى السودان مدرسة الخرطوم التى أصبحت النواة الأولى للتعليم الحكومى فى هذه البلاد .

وتجدر الاشارة الى انه منذ عهد الحكمدار خالد باشا (ديسمبر ١٨٤٥ — اكتوبر ١٨٤٩) بدأ السودان يعود الى نظام اللامركزية فى الادارة حين ظن رجال الإدارة ان فى استمراره استقرارا للبلاد . ولما كان نجاح هذا النظام مرتبطا بما يمكن أن يوفره المسئولون فى مصر من الجند والموظفين فقد عمل عباس على المزيد من اشراك العنصر

---

(١) أحمد عزت عبد الكريم : عصر عباس وسعيد . ص ١٣ .

الوطنى فى سلك الادارة • وأخيرا لجأ الى افتتاح مدرسة بالخرطوم حتى يمكنها أن تمد الادارة المدنية فى السودان بالكتبة بعد ثلاث أو أربع سنوات ، وكذلك القوة العسكرية بكتبتها (بلوك أمناء) ، وبعد مضى أربع سنوات أخرى — حين يتخرج تلاميذ القسم التجهيزى — يمكنها امداد الادارات المختلفة بمجموعات طيبة من الموظفين (١) •

ولست مع الرأى القائل بأن هذه المدرسة كانت أساسا لأبناء الترك والمصريين وبعض أبناء العمد والمشايخ (٢) • صحيح ان هذه الفئات قد انضوت فى صفوف هذه المدرسة ، ولكن ما الضير فى ذلك طالما يتسع المجال للجميع ، كذلك فاننا لا نتفق مع الرأى القائل بأن الباشا كان يفرق بين رعاياه (٣) ، بل العكس كان صحيحا ، ودليلنا على ذلك هو نص رسالة عباس نفسه الى مدير ديوان المدارس حيث يقول : « •• ان الأقاليم السودانية لديار وسيعة ، ولما تنشأ بها مع عظيم مساحتها مدرسة من أجل أبناء سكانها الأصليين من مشايخ وأهلين ولأولاد أحفاد الأتراك الذين استوطنوا تلك الديار من سنين ليتعلموا صفتى القراءة والكتابة وليدرسوا العلوم •• » (٤) •

هذا هو نص القرار وكلماته واضحة لا تحتاج الى تأويل ، وواضح أيضا أنه قدم أبناء السكان الأصليين أى السودانيين على سائر الأجناس الأخرى • كذلك فانه لم يقصر دخولها على أبناء المشايخ والعمد بل كانت لأبناء المشايخ والأهالى كافة • وبمعنى آخر فقد كانت المدرسة لجميع سكان السودان آنذاك من الذين كانوا يعيشون على أرضه ويتبعون ادارة الحكمدارية •

---

(١) احمد احمد سيد : رفاعة رافع الطهطاوى فى السودان • ص ٧٣ •
(٢) يحيى محمد ابراهيم : المرجع السابق • ص ١٩٧ •
(٣) نفس المرجع • ص ١٩٧ •
(٤) محفظة رقم أوامر لديوان المدارس — ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٧ مسلسل و ٤ أصلى بتاريخ ١٧ رجب سنة ١٢٦٦ هـ • من الخديو عباس حلمى باشا الى مدير ديوان المدارس • دار الوثائق القومية بالقلعة •

وقد ارتبط تاريخ هذه المدرسة برفاعة الطهطاوى ، ويحلو للبعض ترديد المقولة الشهيرة أن عباس الأول انما أسس مدرسة الخرطوم ليتخلص من رفاعة ، وأن هذا الوالى الذى أغلق المدارس بمصر ما كان ليفكر فى فتح مدرسة بالسودان . وقد يكون لهذا الرأى وجاهته فيما يتعلق بمصر وظروفها التى بدأ يحكم فيها هذا الوالى ، ولكن ليس بالضرورة أن ينسحب ذلك بشكل تلقائى على السودان الذى لم تنشأ به مدارس حكومية من قبل بعكس ما كان فى مصر حيث تنوعت المدارس المدنية والعسكرية وأصبحت فى عهده زائدة على الضرورة . نقول قد يكون هذا الرأى وجيها بالنسبة لمصر ، أما بالنسبة للسودان فالأمر جد مختلف . والخطورة هنا ان نعتقد ان مسألة اغلاق المدارس هى سياسة عامة لدى هذا الرجل سواء فى مصر أو السودان . واستكمالا لهذه الفكرة أيضا نقول ان ارسال رفاعة الى السودان لم يكن نفيا أو تخلصا منه ، ولو كان هذا هدف عباس ما أعوزته الحيل كى يتخلص منه ، وكان بمقدوره أن يفعل هذا دون اللجوء الى اختلاق فكرة انشاء مدرسة . وللأسف الشديد فان الكثيرين يقفون طويلا عند مثل هذه المسائل الجانبية حتى يطمسوا بعض الأعمال الجليلة التى يمكن أن تخلد لصانعيها .

وقد بعثت المعية السنية الى ديوان المدارس فى ٦ رجب عام ١٢٦٦ هـ . (١٨ مايو ١٨٥٠) رأيا أبداه المجلس الخصوصى لتأسيس « .. مدرسة بالأقاليم السودانية انقاذا لأولاد أهلها من جحيم الجهل فيمتازوا باكتساب العلوم والمعارف على أن يقبل ويقيد بها مائتان وخمسون غلاما ، واستحسن أن يولى رفاعة بك ناظرا على هذه المدرسة ، فيرسل اليها ، ويصطفى مدرسوها من هنا باختيار البك المشار اليه .. » (٢) .

---

(١) Hill; Op. Cit., p. 88.

(٢) محفظة التعليم — دفتر رقم ٢١٣٣ مدارس تركى — ترجمة المكاتبة التركية رقم ١٦٧ ص ٢١ بتاريخ ٦ من رجب سنة ١٢٦٦ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

هذا هو رأى المجلس الخصوصى الذى طلب من مدير المدارس — صاحب الاختصاص الفنى — أن يعمل الترتيب اللازم ويرسل بيانا للمجلس حتى يبحثه قبيل اصدار القرار النهائى . وبالفعل فقد تم ذلك حين بعث مدير المدارس الى المعية السنية يقول « .. وقد تشاورنا فى الأمر بالديوان واجتبينا المعلمين من بين أكفاء الرجال ووضعنا بيانا عن سائر الخدم وعن الملابس والفرش والجرايات والمرتبات الشهرية فرفعناه الى أعتاب جناب الخديو ، فوافقت عليه ارادته السامية .. » (١) .

وهكذا أبدى ديوان المدارس رأيه الفنى وبعث بالبيانات اللازمة الى المعية السنية فرفع الى الوالى فوافق عليه ، ولم يبق إلا قرار المجلس الخصوصى الذى صدر فى ١٥ رجب سنة ١٢٦٦ هـ (٢٧ مايو ١٨٥٠ م) (٢) . ويتضمن هذا القرار أن يكون تلاميذ هذه المدرسة من « .. أولاد المشايخ والأهلين القاطنين بدنقلة والخرطوم وسنار والتاكة وملحقاتها » كما استقر الرأى على أن يكون مقر هذه المدرسة الخرطوم و « تابعة لنظام المدارس المصرية وعلى نسق المبتديان والتجهيزية » ، وأن يقيد بها مائتان وخمسون طفلا ، ويعين رفاعة ناظرا عليها نظرا لالمامه بأصول المدارس . كما طلب من رفاعة ان يستصحب معه الأحد عشر معلما والطبيب الذين خصصوا لهذه المهمة ويسرع بهم الى الخرطوم لتأسيس المدرسة ، وأن يبذل جهده فى ذلك ويعتنى بأمور المعلمين والتلاميذ . (٣) كذلك فقد طلب من حكمدار السودان أن يخصص

---

(١) دفتر رقم ٢١٢٤ ديوان المدارس (تركى) — ترجمة المكاتبة رقم ٧٢ ص ١٩٥ بتاريخ ١٣ رجب ١٢٦٦ هـ ، انظر ايضا : عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٢٦ .

(٢) دفتر رقم ١٩٥٨ — قرارات المجلس الخصوصى — ترجمة المكاتبة التركية رقم ٤ ص ١١٩ — فصل المدارس بتاريخ ١٧ رجب ١٢٦٦ هـ ، انظر ايضا : محفظة رقم ٤ — اوامر لديوان المدارس — ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٧ مسلسل ، ٤ أصلى تتاريخ ١٧ رجب ١٢٦٦ هـ . من الخديوى عباس حلمى باشا الى مدير ديوان المدارس . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) نفس الوثيقة السابقة .

مكانا مناسبا للمدرسة وأن يختار الأفراد المعاونين من أهل البلاد مثل الكاتب و « الوزان » و « وكيل العهدة » و « الغسال » والسقاء والطاه والخدم الآخرين على أن تخصص خمسة قروش شهريا لكل طالب (١) • وقد صدر أمر الى ترسانة بولاق — بناء على ما جاء بخطاب ديوان المدارس — بتخصيص « ذهبية » لنقل رفاعة والمدرسين البالغ عددهم أحد عشر بالاضافة الى الطبيب (٢) •

ووصل رفاعة الى الخرطوم وانقضى عامان ولم تفتح المدرسة لا لأسباب مالية أو فنية أو أية أسباب أخرى إلا لأن رفاعة نفسه كان حانقا على مجيئه الى السودان ، وبدلا من سعيه الى افتتاح المدرسة راح يشكو بمرارة لكل من يقابله بأن مجيئه الى السودان كان عقابا له وتخلصا منه • وقد لقيه فى الخرطوم الرحالة الأمريكى بايرد تيلور Bayard Taylor فى عام ١٨٥١ وظل يشكو له قرابة ساعة مما حدث له من عباس باشا من متاعب وكيف انه عزل الرجال الذين قربهم محمد على اليه (٣) •

ويكتب رفاعة نفسه حول هذا الموضوع فيقول انه سافر « •• الى السودان بسعى بعض الأمراء بضمير مستتر بوسيلة نظارة مدرسة بالخرطوم

---

(١) نفس الوثيقة السابقة •

(٢) دفتر رقم ٢٥٧ ديوان الكتخدا — وثيقة رقم ١٧٧٢ بتاريخ ٢١ رجب سنة ١٢٦٦ هـ الى ترسانة بولاق • دار الوثائق بالقلعة •

اما اسماء المدرسين فهى كالتالى : (١) القائمقام محمد بيومى افندى (٢) الصاغقول احمد طائل (٣) الملازم اول على محمد افندى (٤) الملازم ثان على عثمان افندى (٥) الملازم ثان ابراهيم محمد افندى (٦) الملازم ثان محمد مرسى افندى (٧) الملازم ثان امين افندى • ويرجح المرحوم الدكتور عزت عبد الكريم انهم من تلامذة رفاعة بك فى مدرسة الالسن (عصر عباس الأول وسعيد ص ١١٧) (٨) الشيخ رجب (٩) الشيخ مكاوى (١٠) الشيخ اسماعيل فرغلى (١١) الشيخ احمد الواعظ (١٢) سليمان السيوطى افندى — طبيب (نفس المرجع • ص ١١٧) •

(٣) عبد العزيز امين : المرجع السابق • ص ٢٩ •

فلبث نحــو الأربع سنين بلا طائل وتوفى نصف من بمعيتى من الخوجات المصريين» (١) •

وهكذا ظل رفاعة يشكو ولا يعمل وينقضى نحــو عامين ولما تصــل منه أخبــار الى مصر حــول افتتاح المدرســة حتى كتب اليــه ديوان المدارس يستفسر الأمــر ويذكره بأنه اختير لهــذه المهمة لما هو معروف عنه من الهمة والخبرة فى أمور المعارف والعلوم والتربية ، وطلب منــه أن يكتب مفصلا عن عدد التلاميذ بالمدرسة وعن العلوم التى تلقوها خلال هذه المــدة (٢) •

ولقد كان بمقدور رفاعة ـــ بما عرف عنه من نشاط وخبرة فى هذا المجال التربوى ـــ أن يفتتح هذه المدرسة فى فترة وجيزة دون الانتظار لحولين كاملين ، والتهاون الشديد لدرجة أنه أهمل المهمات التى اعطيت له من أجــل المدرســة حتى وزعت على الآلايات الجهادية بمعرفة بعض المسئولين فى الحكمدارية • ومما يؤكد قولنا فى أنــه كان بمقدوره افتتاح هذه المدرسة ، ان الحكمدار سليم باشا صائب (ابريل ١٨٥٣ ـــ مارس ١٨٥٤) الذى وصل السودان فى شهر شعبان ١٢٦٩ هـ • استطاع أن

---

(١) مناهج الالباب المصرية فى مباهج الاداب العصرية . ص ٢٦٥ .
وقد نظم رفاعة فى السودان قصيدة يشكو فيها حاله قائلا :

وما السودان قط مقام مثلى ولا سلماى فيه ولا سعادى
بها ريح السموم يشم منه زفير لظى فلا يطفيــه وادى

ثم يقول فى موضع آخر :

وقد فارقت اطفالا صــغارا بطهطا دون عودى واعتيادى
افكر فيهــم سرا وجهــــرا ولا سمرى يطيب ولا رقادى

ويقول أيضا :

ثلاث سنين بالخرطوم مــرت بدون مدارس طبق المــراد
وكيف مدارس الخرطوم ترجى هناك ودونها خــرق القتــاد

(مناهج الألباب . ص ٢٦٥ ـــ ٢٦٨) .

(٢) دفتر رقم ٢٠٩ ـــ مدارس عربى ـــ مكاتبة رقم ١٦٦٥ . ص ٢٤٩٥ بتاريخ غاية جمادى الثانية سنة ١٢٦٨ هـ . الى ناظر مدرسة الخرطوم .

يفتتحها فى شوال من نفس العام ، علما بأن شهر رمضان كان شهر أجازة وراحة للموظفين (١) .

ويبدو أن افتتاح هذه المدرسة كان غير مشجع ، حيث كان تلاميذها واحدا وثلاثين فقط ، وعلى الرغم من الجهود التى بذلها الحكمدار لم يزداد عددهم إلا سبعة آخرين بعد شهر ونصف من الافتتاح .

وقد كانت هذه المدرسة على غرار مدرسة المبتديان والتجهيزية كما سبق القول ، ولكنها لم تستمر حتى يتكون بها قسم تجهيزى ، فلم تتجاوز المرحلة الابتدائية . وقد ألحق بهذه المدرسة خلوة من خمسة فصول لتعليم القرآن الكريم ، تضم الأطفال بين سن الخامسة والعاشرة (٢) .

وكانت المدرسة داخلية لأن تلاميذها كانوا من جهات متعددة خارج الخرطوم ، كما كانت مزودة بكل مستلزمات القسم الداخلى من غذاء وفرش وغير ذلك . ومعروف أن الغرض من المدرسة الابتدائية (المبتديان) هو اعداد التلاميذ للمدرسة التجهيزية ، وعلى هذا فقد كانت مدرسة الخرطوم الابتدائية هى المرحلة السابقة للمدرسة التجهيزية . وكان يقبل فى هذه المدرسة التلاميذ من سن السابعة الى الثانية عشرة على أن يكون التلميذ سليم البدن خاليا من الأمراض . ومدة الدراسة بها ثلاث سنوات وتزداد الى أربع لمن يحدث له عذرأو مرض . وكان التلميذ يبدأ بالفرقة الثالثة فاذا نجح ينقل الى السنة الثانية ثم الأولى (٣) .

أما مواد الدراسة فى هذه المدرسة فكانت الكتابة والقراءة ومبادىء

---

(١) دفتر رقم ١١٧ — وارد معية — صورة المكاتبة العربية رقم ٣٥ ص ٥٩٤ . بتاريخ ٧ شوال سنة ١٢٦٩ هـ . من سليم باشا صائب حكمدار السودان الى المعية السنية — دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) احمد احمد سيد : المرجع السابق ص ١٠٥ — ١٠٧ .

(٣) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٣٤ — ٣٥ .

النحو والصرف العربى والحساب والفرائض الدينية (١) • وكان التلاميذ يجلسون على حصر على الأرض ، والمدرس يستمع اليهم وهم يقرأون ، أو يلقى عليهم درسا فى الحساب • وقد أبدى الرحالة الانجليزى (جيمس هاملتون) اعجابه من التقدم الذى أبداه تلاميذ هذه المدرسة فى وقت وجيز (٢) •

ولم تستمر مدرسة الخرطوم أكثر من عام دراسى واحد من شوال سنة (١٢٦٩ هـ • الى شعبان سنة ١٢٧٠ هـ) حيث أصدر محمد سعيد أمرا باغلاقها فى ٢٧ شوال سنة ١٢٧٠ هـ (٢٣ يولية ١٨٥٤ م) (٣) •

وكما كان يحدث فى مدارس مصر حدث نفس الشىء فى مدرسة الخرطوم حين عقد امتحان لتلاميذها وقد حضر هذا الحفل حكمدار السودان وبعض الأعيان والعلماء ومشايخ البلاد وعمدها وتم ارسال جدول الامتحان الى مصر (٤) •

وقد عاد رفاعة الى مصر بعد أن أقفلت المدرسة التى لم تؤت أكلها طيبة • وبالرغم من ذلك فانها قد تركت بعض الأثر فى السودان حيث تعلم فقهاء الخرطوم من المشايخ الذين رافقوا رفاعة للتدريس تجويد القرآن وعلم القراءات بالاضافة الى التلاميذ الذين أمضوا العام الدراسى بها (٥) •

ولا شك أن وجود أمثال رفاعة وبيومى وغيرهما فى الخرطوم — كما ذكر الدكتور مكى شبيكة — كان له بعض الأثر فى الطبقة المتعلمة فى السودان فى ذلك الوقت ، فقد ذكر رفاعة وصحبه بالخير (٦) •

---

(١) احمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عهد محمد على ص ٦٨١ .

(٢) Hill; Op. Cit., p. 88.

(٣) محفظة رقم ٤ — معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ١٥٠ ص ٢٥ بتاريخ ١٩ محرم سنة ١٢٣١ هـ. دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٣٥ — ٣٦ .

(٥) رفاعة الطهطاوى : المصدر السابق . ص ٢٨ .

(٦) السودان فى قرن . ط ٢ ، ص ٥٧ .

أما عهد سعيد كما قلنا فقد استهل بالغاء مدرسة الخرطوم • وقد ركز البعض هنا حول مسألة كراهية سعيد للتعليم وعدم عنايته بالسودان عموما ، وفسر هذا الالغاء من جانب سعيد بسبب الشكوى المستمرة من لدن رفاعة وبقائه فى السودان بالاضافة الى أن المدرسة بعد أربع سنوات من انشائها لم تثبت ضرورة من وجودها (١) •

ويبدو أن سعيد باشا لم يكن موفقا فى سياسته التعليمية بوجه عام ، فلم يوجه عنايته للنهضة العلمية فى مصر واستمر الجمود الذى أصابها فى عهد عباس (٢) • وقد حاول البعض أمثال مسيو (مريو) وهو من المعجبين بسعيد باشا الدفاع عنه فى هذا الجانب بأن عباس الأول كان قد أهمل المدارس فأصابها الاضمحلال وازدادت حالتها سوءا حين بدأ سعيد يتولى الحكم فرأى من الحكمة اغلاقها نهائيا بدلا من البدء فى تنظيمها الذى كان عبثا لا يجدى • ولا يوافق الرافعى على هذا الدفاع الذى لا يقبله المنطق — من وجهة نظره — فليس من المعقول — عنده — أن يعالج القصور فى ذلك باغلاق هذه المدارس ، بل ينبغى أن يكون بتنظيمها واصلاحها ، فاذا كانت عزيمة محمد على قد أوجدت المدارس من العدم فالأسهل من ذلك اصلاح الخلل الذى أصابها (٣) •

ويذهب المرحوم الدكتور أحمد عزت عبد الكريم فى تفسير سياسة محمد سعيد التعليمية الى انه تولى حكم مصر بعد ست سنوات من وفاة محمد على •• شهدت خلالها مصر توقف الحركة الاصلاحية الواسعة النطاق التى وجهت مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كما شهدت انكماش القوة العسكرية والنظام الصناعى الكبير ، وانحلال السياسة الاقتصادية • فكأن الأمور كلها قد ساءت ومن بينها الجانب التعليمى أيضا (٤) •

---

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق • ص ٣٨ •
(٢) عبد الرحمن الرافعى • عصر اسماعيل • الجزء الأول ص ٤٢ •
(٣) نفس المرجع • ص ٤٢ •
(٤) عصر عباس الأول ومحمد سعيد ١٨٤٨ — ١٨٦٣ • ص ١٦٩ •

وهكذا تولى سعيد الحكم ولما توجد فى مصر المدارس التى أنشأها محمد على سوى النزر اليسير ، فلم يعمل على اعادة احياء ما اندثر ، بل انه ألغى ديوان المدارس وكثيرا من المدارس (١) • وعلى هـذا فليس من الغريب والحالة هكذا بمصر أن يشهد السودان فى عصر سعيد نكوصا فى التعليم الحكومى •

وليس معنى ذلك أن السودان كان غائبا عن ذهن سعيد ولكن يبدو أن آثار التجربة السابقة لمدرسة الخرطوم كانت ماثلة أمامه • فالسودان قد نال عنايته القصوى فى جوانب أخرى كما مر بنا (*) • وكل ما نستطيع قوله أن محمد سعيد لم يكن موفقا فى الجانب التعليمى فى السودان ، والحكومى منه على وجه الخصوص (**) •

وفى عهد الخديوى اسماعيل بدأنا نشهد عودة الى التعليم الحكومى المدنى فى السودان ، وقد كان ذلك على عهد الحكمدار موسى حمدى الذى تقدم اقتراحا فى نهاية عهد سعيد بادخال كل من يرغب من أبناء العمد والأعيان والأهالى فى دواوين المديريات وفى ديوان الحكمدارية لتعليمهم فن الكتابة من حسابات وتحريرات وغيرها حتى يمكن الاستفادة منهم بدلا من طلب كتبة من مصر نظرا الى أن الأخيرين يتكلفون مصاريف كثيرة بالاضافة الى اختلاف المناخ الذى يؤثر على صحتهم • وقد بدأت مناقشة هذا الاقتراح فى عهد اسماعيل الذى أقره وأدخل عليه تعديلا جوهريا حيث قال : « •• بما أنه من أقصى الآمال انتشار حالة التمدن والرفاهية وحسن التوطن والعمارية • ومن لزوم ذلك

---

(١) الرافعى : المرجع السابق • ص ١٤ •

(*) انظر فيما سبق فصل (الضرائب وشئون المال) •

(**) جرت محاولة فى نهاية عهد سعيد من جانب الحكمدار موسى حمدى لادخال ابناء العمد والاعيان والاهالى فى دواوين المديريات والحكمدارية لتعليمهم فن الكتابة والحساب ولما كان هذا الحكمدار قد حاول تنفيذها بشكل جدى فى عصر اسماعيل فقد آثرنا أن نتحدث عنها فى عهد اسماعيل •

استحصال * الرعايا على اكتساب العلوم ليمتازوا بها ويكونوا دائما مجبولين على حب الوطن أو متشوقين لنوال ثروة الامتياز والتقدم فى المعارف والفنون فلذلك قد سنح لخاطرنا لزوم تجديد وتنظيم مكتب على طرف المدير بالخرطوم بحيث يترتب به خوجات تركى وعربى ممن تثبت مهارتهم فى ذلك ليعلموا قدر خمسمائة نفر تلامذة من أهالى تلك الجهات .. » (١) . ثم استدرك فى حاشية الخطاب أن يتم عمل مكتبين بدلا من مكتب واحد اذا كان ذلك موافقا لأحوال السودان (٢) .

وهكذا وسع الخديوى اسماعيل الدائرة التعليمية فبدلا من الموافقة على انتظام الصبيان من أبناء العمد والأعيان والأهالى فى دواوين الحكومة لمجرد التدريب على فن الكتابة اقترح انشاء مدرسة لتكون مؤسسة صالحة للتعليم بل زاد على ذلك واقترح ان تنشأ مدرسة ثانية ان كان ذلك مناسبا للبلاد . ويبدو أن هذا السخاء « الاسماعيلى » قد صادف هوى فى نفس الحكمدار فطلب ان تنشأ خمس مدارس لتعم الفائدة جميع مديريات السودان . وشرح الحكمدار مطلبه قائلا : « .. بما أن من المعلوم أن بلاد السودان عبارة عن ديار متسعة وأن المديريات بعيدة بعضها عن بعض ، وأن قصر « خمسماية التلميذ » ** السالفة ذكرهم على مدرسة أو مدرستين يوجب تمتع أهل المديرية التى بها تلك المدرسة بحب ثمرات التمدن وحرمان أهل غيرها من تلك الثمرات النافعة . وبما أن افتتاح المدارس من جملة مراحم ولى النعم واحساناته السنية ، فلو أسست خمس مدارس صغيرة فى مديريات الخرطوم وبربر ودنقلة وكردفان والتاكة بدلا من مدرستين عظيمتين وتعلم فى كل منها

(*) حصول .

(١) دفتر رقم ١٩٠٤ اوامر كرام عربى صادر الى الاقاليم . صورة الأمر العربى رقم ٢ بتاريخ ٦ شعبان سنة ١٢٧٩ هـ ، انظر تقويم النيل وعصر اسماعيل ــ الجزء الثالث ــ المجلد الثانى ــ . ص ٤٥٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٤٥٢ .

(**) الخمسمائة تلميذ .

مائة تلميذ كى تشمل ثمرات التمدن وانتشار العلوم أهالى عمـوم بلاد السودان ومستوطنيها ويمتازوا بتحصيل العلوم النافعة .. » (١) .

وهكذا أراد الحكمدار أن يعطى كل مديرية سـودانية نصيبها من التعليم المدنى فينشىء فى كل واحدة منها مدرسة ، وربما يكون فى هذا التوزيع على كافة المديريات السودانية رد على أولئك الذين يرددون أن التعليم فى تلك الفترة كان يقتصر على أبنـاء الترك وحسب دون أبنـاء السودان . وقد كان الحكمدار حصيفا عندما وافق على ألا يزيد عـدد تلاميذ المدارس الخمس عن خمسمائة تلميذ كما طلب الخديو . وربمـا أراد من هذا التقييد عدم التوسع فجأة فى عددهم ، بل عليـه أن يتروى قليلا حتى يضمن السـماح بالمدارس الخمس ثم يترك زيادة العـدد للظروف وربما أيضا كان قد استفاد من تجـربة مدرسة الخرطوم زمن عباس الأول — حين عزف التلاميذ عن الالتحاق بها بشكل كبير — فلم يسرف فى التفـاؤل (٢) .

ولقد وافق الخديوى على طلب الحكمدار قائلا : « ... وحيث أن ازدياد وانتشار آثار المدنية والعمران فى ربوع السودان وتعميم ثمرات العلم والمعارف بواسطة انشاء وفتح المدارس الخمس على الوجه المذكور أمر فى محله وموافق لآمالنا ورغبتنا .. فبناء عليه يجب أن تبادروا بلجراء موجبه وبالسعى والاهتمـام بخصوص تعليم وتقـدم أهالى الجهـات المذكـورة .. » (٣) .

وقد تم افتتاح تلك المدارس فى يونية عام ١٨٦٣ ، وأصبحت تحت

---

(١) محفظة رقم ٢٩ معية تركى — ترجمة الوثيقة رقـم ٥٠٨ بتاريخ ٢٠ رمضان سنة ١٢٧٩ هـ . من موسى حمدى حكدار السودان الى حضرة باشمعاون الخديو . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) عبد العزيز أمين عبد المجيد : المرجع السابق . ص ٧٣ .

(٣) أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا — المجلد الثالث — الجزء الثالث ص ٤٧٦ — ٤٧٧ . أنظر ايضا دفتر رقم ٥١٦ معية تركى — ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٢ ص ٦٢ بتاريخ ١٠ ذى القعدة سنة ١٢٧٩ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

الاشراف الفنى لديوان المدارس ، وتتبع نفس الخطط الدراسية المعمول بها فى المدارس المصرية من حيث البرامج وخطط التدريس والاجازات (١) .

أما المواد الدراسية المقررة فى تلك المدارس فكانت اللغة العربية والقرآن الكريم واللغة التركية والحساب والنحو والصرف والخط الثلث والرقعة والمنطق (٢) .

وبمرور سبع سنوات على افتتاح المدارس ونظرا لأن تلاميذها ومعلميها أظهروا كفاءة فقد طلب حكمدار السودان جعفر مظهر رفع مرتبات القائمين على التدريس بها فوافق الخديوى على ذلك تشجيعا لهم على بذل المزيد من الجهد (٣) .

ويبدو أن تعلم اللغة التركية فى دنقلة ببلاد النوبة لم يلق نجاحا كبيرا حيث كانت برامج المدارس الخمس تحوى مادة اللغة التركية ، فلم يبذل معلمو هذه اللغة هناك عناية كافية فى تعليمها ، فقد ذكر مدير عموم دنقلة وبربر فى خطاب الى المعية السنية ان القائم على تدريسها بدنقلة لا يؤدى مهمته كما ينبغى وانه مشغول بصيد الأسماك ، وكذلك الحال بالنسبة لمدرس هذه اللغة بمدرسة بربر ، ويقترح المدير ــ لذلك ــ الاستغناء عنهما والاكتفاء بتدريس اللغة العربية والقرآن ومبادىء النحو

(١) شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل ، الجزء الثانى ص ١٤٢ ، ١٤٣ انظر ايضا : ابراهيم عبده : مصر وافريقية فى العصر الحديث . ص ٣٢ .

(٢) سجل رقم ١٣٩ وارد معاونة ــ صورة الوثيقة رقم ٦ بتاريخ ٥ ربيع الثانى سنة ١٢٨٠ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة . انظر ايضا : عبد العزيز عبد المجيد : المرجع السابق . ص ٢٧٤ ، انظر ايضا : ابراهيم الحاردلو : الرباط الثقافى بين مصر والسودان . ص ١٥ .

(٣) دفتر رقم ١٨٣٩ ــ معية عربى ــ صورة المكاتبة العربية ص ٤٤ بتاريخ ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٨٧ هـ . وايضا : دفتر رقم ١٩٣٣ اوامر عربى ــ صورة الأمر الكريم رقم ٢ ص ٦ بتاريخ ١٨ ربيع الآخر سنة ١٢٨٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

والحساب (١) • واذا كان الفشل فى تعلم اللغة التركية فى دنقلة يعود أساسا الى تقاعس القائمين على تدريسها ، فانه ينبغى أن نشير أيضا الى حقيقة هامة وهى ان اللغة الأساسية لسكان منطقة دنقلة وسائر بلاد النوبة كانت اللغة النوبية وليست العربية فهم يتعلمون العربية كلغة أجنبية تماما ، بينما الوضع غير ذلك بالنسبة لتلاميذ مدرسة الخرطوم وغيرها فكأن أهل دنقلة يدرسون لغتين أجنبيتين معا ، وبذلك يمكن تفسير ما ذكره مدير دنقلة وبربر حين تفقد مدرسة دنقلة ووجد بين تلاميذها من تقدمت بهم السن وأصبحت أعمارهم « •• تتراوح بين العشرين والثلاثين ومع ذلك لا يفهمون شيئا فى النحو والصرف والتركى ، وفقط يفهمون شيئا قليلا فى العربى •• » (٢) •

ولم يقتصر عهد الخديوى اسماعيل فى السودان على تلك المدارس الخمس التى انشئت دفعة واحدة بل أضيفت اليها مدارس أخرى ، ففى سنار انشئت مدرسة ، وفى مصوع انشئت أيضا مدرسة ، حيث نقرأ فى احدى الوثائق بتاريخ ٢ صفر عام ١٢٨٤ هـ (٥ يونية عام ١٨٦٧) يطلب فيها رياض باشا من أحد مهندسى الجيزة أن يرسل الرسوم الخاصة بهذه المدرسة لدراستها (٣) • كذلك فقد انشئت مدرسة فى سواكن ، وطلب الخديوى أن يتم انشاء هاتين المدرستين فى تلك الجهات من نفس المواد المتوفرة بهما من مواد البناء فيما عدا الأشياء الضرورية التى يمكن جلبها من مصر • وكلف « منسنجربك » بفتح هاتين المدرستين (٤)

---

(١) دفتر رقم ١٨٥٣ معية عربى ص ١٠ ، وثيقة رقم ٢ بتاريخ ٢١ ذى القعدة سنة ١٢٨٨ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٢) دفتر رقم ١٨٥٩ من دفتر قيد الافادات الواردة من الأقاليم والمحافظات جواب رقم ٤ بتاريخ ٢٧ رمضان سنة ١٢٨٨ هـ (موضوع التعليم) دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) دفتر رقم ٤ عابدين صادر تليغرافات صورة التليغراف العربى رقم ٤٧٣ ص ٢٥ بتاريخ الاربعاء ٢ صفر ١٢٨٤ هـ • من رياض باشا الى على افندى رضا المهندس بالجيزة . دار الوثائق القومية بالقلعة .

فى عام ١٨٧٣ (١) ، كذلك فقد افتتحت واحـدة فى جنوب السـودان ، حيث تشير الوثائق الى اسـم « زايد عبد الله » الذى كان ناظراً لمدرسة « مديرية البحر الأبيض » (٢) .

ومن بين المدارس التى انشئت فى السودان — طبقا لظروف خاصـة مر بهـا التطور الاجتماعى فى البلاد — مدرسة الرقيق المحرر ، فقد نصت معاهدة ٤ أغسطس عام ١٨٧٧ — الخاصـة بالغاء تجارة الرقيق فى تلك الجهات — على انشائها وان يلحق بهـا من يحرر من الأطفـال الأرقاء . وعلى هذا قام محافظ شرقى السودان وسواحل البحـر الأحمر بتأسيس هذه المدرسة واختيار سواكن مقرا لها (٣) .

وفى عام ١٨٧٧ تم افتتاح مدرسة بهرر ، وقد جاء فى تقرير جريدة أركان حرب الجيش المصرى فى نفس العام ان أكثر معارف أهل هرر هى علوم الشريعة الاسلامية خاصة مذهب الامام الشافعى ، وان أطفالهم لا يحسنون التكلم باللغة العربية وان كانـوا يقرأون ويكتبون بهـا . ولما رأى رئيس المأمورية (رؤوف باشـا) تأخر المعـارف هناك شرع فى انشـاء مدرسة صغيرة لتدريس النحـو والحساب والخط وترتيـل القرآن الكريم (٤) .

ويشير أحد الباحثين إلى أن غوردون أصدر أمرا بالغـاء المدارس الأميرية فى السودان بدعوى انها كانت تمثل عبئا ماليا لا طاقة لمصر به ،

---

(١) دفتر رقم ١٥٤٩ اوامر شفاهية . صورة المكاتبة العربية رقم ٤٢ ص ١٣ بتاريخ ٢٩ شعبان سنة ١٢٩٠ هـ .

(٢) محافظ الابحاث — البحر الاحمر — وثيقـة بتاريخ ١٢ اغسطس ١٨٧٣ ، انظر ايضا : ابراهيم عبده : المرجع السـابق . ص ٣٣ ، وايضـا الرافعى : عصر اسماعيل . الجزء الاول ص ١٦٣ .

(٣) انظر نص الاتفاقية بالوقائع المصرية بالعـدد رقم ٧٣١ بتـاريخ ٤ شوال سنة ١٢٩٤ هـ وبمحفظة اللوائح . بدار الوثائق القومية بالقلعة .

(٤) جريدة اركان حرب ، العدد رقم ٦ بتاريخ غرة شعبان ١٢٩٤ هـ . انظر ايضا شوقى الجمل : سياسـة مصر فى البحر الأحمر . ص ٢١٨ .

وانه حـاول اغلاق مدارس الأهالى ومدارس الكاثوليك ، إلا انه لـم ينجح فى مسعاه ، فطلب بعدم سفر الطلاب الناجحين فى المدارس الى مصر بحجة ان الادارة لم تعد بحاجة اليهم (١) .

وبالرغم من أننا نأخذ الكثير على سياسة غوردون فى السودان ، إلا أنه لم تثبت صحة هذا الزعم ، كمـا اننا لم نطالع ــ حتى الآن ــ وثائق تثبت أنه أغلق هذه المدارس بدليل انها استمرت تؤدى رسـالتها حتى قيام الثورة المهـدية .

وفى عهـد جعفر مظهر باشا جـرت محاولة لادخـال علمى الطب والصيدلة لأول مرة فى السودان والخـروج من دائرة تخريج موظفين للادارة الى لون آخر من ألوان العلم وحتى يرتفع بالخدمة الطبية للشعب السودانى . وكان هذا المشروع يقضى بجمع عشرين تلميذا من تلاميذ مدارس السودان ليتعلموا الطب والصيدلة تحت إشراف طبيب مستشفى الخرطـوم (٢) .

التعليم الفنى فى عهد اسماعيل :

لقـد أعطى المسئولون فى السودان على عهـد الخديوك اسماعيل اهتماما كبيرا لهذا النوع من التعليم ، وذلك لسد حاجات البلاد الضرورية من الفنيين بدلا من ارسـالهم من مصر فى ظروف صعبة . ويبـدو أن السياسة التى كانت مفهومة ضمنا أنه كلما أبدت مجموعة من تلاميـذ مدارس السودان تقدما ملحوظا فى التعليم وظهرت صلاحيتهم لأى عمل ارسلوا الى مدارس مصر ثم يتم « فرزهم » وتوجيههم الى الأعمـال

---

(١) انتونى سوريال : جهود مصر الثقافية فى السودان . ص ١٣٥ .

(٢) دفتر رقـم ١٨٣٩ معية عرتى ــ صـورة المكاتبة العربية رقم ٤٤ بتاريخ ربيع الأول عام ١٢٨٧ هـ . انظر ايضا : محفظة رقم ٤٧ معية تركى ــ ترجمة المكاتبة التركية رقم ٦٥٨ بتاريخ ١٩ شعبان سنة ١٢٨٧ هـ ، وهذه الوثيقة مودعة بالمحفظة التى تحمل اسم (موضوع التعليم) وهى من حكمدار السودان الى مهردار خديوى . دار الوثائق بالقلعة .

التى حذقوها ، فمنهم من يعين فى وظائف التليغراف أو هندسة البواخر وغيرهما (١) . ونتيجة لما حدث من توسع كبير فى المواصلات السلكية دعت الحاجة الى وجود جهاز فنى يقوم بالأعمال التى تجعل هذه الشبكة تؤدى مهمتها على أكمل وجه . فكان لابد من تعلم فن التليغراف فى مدارس خاصة بذلك . وكانت الشروط التى تؤهل الفرد للالتحاق بهذه المدرسة تقضى بأن يكون من خريجى المدارس الأميرية فى السودان ومتقدما فى القراءة والكتابة (٢) .

وكانت مدة الدراسة بهذه المدرسة ثلاثة شهور ، ومن يجتاز الامتحان فيها يعين على درجات ثلاث : « تليغرافجى أول » و « تليغرافجى ثان » و « تليغرافجى ثالث » ، كما كان يتم توزيع هؤلاء الخريجين الفنيين فى كافة المحطات المنتشرة فى السودان (٣) . ومن الأماكن التى انشئت فيها مثل هذه المدارس الخرطوم وكسلا (٤) . وكان يشرف على تعليم هؤلاء التلاميذ وكيل تليغراف كل جهة تحت اشراف مهندس (٥) .

كذلك فقد عمدت الادارة فى السودان الى ادخال تعلم الحرف مثل حرفة « الحياكة » بمديرية التاكة ، ففى هذه المديرية تم انشاء « ورشة ترزية » لعمل الملابس اللازمة للجنود وتلاميذ المدارس . ويبدو أن الأعداد التى كانت تقوم بتشغيل هذه الورشة لم تكن كافية

---

(١) المحفظة السابقة . نفس الوثيقة .

(٢) دفتر رقم ١٨٣٩ معية عربى — صورة المكاتبة العربية ص ٤٤ بتاريخ ١٤ ربيع الاول سنة ١٢٨٧ هـ . انظر ايضا : دفتر رقم ١٩٣٣ ، اوامر عربى — صورة الأمر الكريم رقم ٢ صا ٦ بتاريخ ١٨ ربيع الآخر سنة ١٢٨٧ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

(٣) محفظة ٤٧ معية تركى — نفس المكاتبة السابقة .

(٤) شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل جـ ١ . ص ٤٣ .

(٥) دفتر رقم ١٨٧١ ، معية عربى — صورة المكاتبة الصادرة من المعية السنية الى حكمدار السودان . ص ٩ بتاريخ ٣ ربيع الاول . سنة ١٢٩١ هـ .

لسد حاجة الاستهلاك مما دعا الأمر الى طلب « دواليب » (ماكينات خياطة) أخرى كى يتم تدريب بعض أبناء السودان عليها • واقتصرت مدة تدريب هؤلاء على شهر حيث كانت المدة كافية لالمامهم بهذه الحرفة • وكان يمنح كل تلميذ فى نهاية هذه المدة « دولابان » بلوازمها (١) •

ولقد امتد التعليم الفنى من شمال السودان الى جنوبه حين أرسل الخديوى اسماعيل فى عام ١٢٨١ هـ (١٨٦٤ م) لائحة الى حكمدار السودان يشرح له فيها خطته الاصلاحية ومنها ادخال تعليم الحرف والصناعات فى تلك المناطق طالبا منه أن يخصص مكافأة لكل من يرغب من أبناء تلك الجهات فى تعلم هذه الحرف والصناعات ، وقد أعدت الحكومة كافة المعلمين المخصصين لهذا الأمر ، كما تم توفير الأموال اللازمة (٢) •

وفى مجال التعليم الزراعى أيضا كان للحكمدار ممتاز باشا اهتمام شديد ، فقد بعث بعدد من الشبان السودانيين الى مصر لتعلم الصناعات الميكانيكية حتى يتمكنوا بعد عودتهم من ادارة ماكينات حلج وكبس الأقطان التى لم تكن لها أيدى لتشغيلها (٣) •

وفى هذا المجال أيضا تجدر الاشارة الى ذلك المشروع الذى نشر بالوقائع المصرية عام ١٨٦٨ (٤) • وهذا المشروع أو الاقتراح كان يتلخص

---

(١) دفتر رقم ١٧٢٢ وارد جهادية — صورة المكاتبة العربية رقم ٣٣ ص ٦٤ بتاريخ ٧ جمادى الثانية سنة ١٢٩١ هـ دار الوثائق القومية بالقلعة •

(٢) انظر فيما سبق فصل الثروة المعدنية والصناعة •

(٣) مكى شبيكة : السودان عبر القرون • ص ١٣٨ — ١٤٣ •

(٤) نشر هذا المقال فيجارى بك Figari الذى كان أستاذا للنباتات ومشرفا على حديقة النباتات بمدرسة الطب البشرى فى عهد محمد على • وعقب انشاء مدرسة الزراعة فى عهد اسماعيل اصبح احد اساتذتها • (انظر الوقائع المصرية ، العدد ٢١٣ بتاريخ ١١ ربيع الأول سنة ١٢٨٥ هـ « ٤ يوليو ١٨٦٨ ») ، انظر ايضا : عبد العزيز امين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٧٩ •

فى انشاء حقول نموذجية فى « اطفو » * وقنا وجرجا وأسيوط والمنيا وقليوب وفى وسط البحيرة • ويقترح أن يعمل فى هذه الحقول أفراد سودانيون بحيث يمكنهم التأقلم على مناخ مصر شيئا فشيئا بالانتقال من بساتين ادفو الى قنا فجرجا وهكذا حتى الشمال • وبعد مضى حوالى عشرين عاما يتأقلم أبناؤهم على مناخ البلاد حتى يصلوا نحو القاهرة وقد تعلموا أصول الزراعة ، كما يقترح صاحب المشروع أيضا أن يتعلم العاملون فيه القراءة والكتابة داخل البستان على أن يتم وضع قوانين زراعية حربية يسيرون وفقها • ويرمى صاحب المشروع من وراء ذلك كله الى انصهار الشعبين السودانى والمصرى ، واعتياد السودانيين على مناخ مصر ثم هو أيضا يرمى من ورائه الى أن يتعلم السودانيون عن قرب — من مزارعى مصر — أحدث الوسائل الزراعية التى كانت سائدة آنذاك بمصر ، فاذا ما عادوا الى بلادهم أمكنهم تطبيق ما تعلموه فتزداد محاصيل السودان ويحدث الرخاء (١) •

ويبدو أن هذا المشروع لم يخرج عن حيز الأمانى الحلوة التى كانت تراود أحد المشتغلين بهذه العلوم فى ذلك الوقت ، ولكنها على وجه العموم انعكاس حقيقى لما كان يدور فى أذهان المسئولين آنذاك فى محاولة لايجاد شكل من أشكال التكامل فى القرن التاسع عشر !

الارسالية الكاثوليكية ودورها التعليمى :

ما أن ضم محمد على السودان حتى انفتح الطريق الى قلب القارة الافريقية ، واقترن ذلك باستتباب الأمن الأمر الذى شجع الأفراد والجماعات ذات الأهداف المتنوعة الى الولوج نحو هذه الاصقاع ، كل يحاول تحقيق الأغراض التى قدم من أجلها • ومن بين هؤلاء كان المبشرون وعلى رأسهم الارسالية الكاثوليكية • ولسنا — فى هذا المقام —

(*) ربما كان المقصود بها مدينة ادفو الحالية .

(١) الوقائع المصرية نفس العدد السابق • وانظر ايضا عبد العزيز عبد المجيد : المرجع السابق ص ٧٩ وما بعدها .

بحاجة الى الاسهاب فى الدور التبشيرى لهذه الارسالية ، ولكن تجدر الاشارة الى أن تاريخها فى السودان يرجع الى عام ١٨٤٣ حين وصـل الأب لويجى منتـورى (Fr. Luigi Montori) الى الخرطوم قادما من الحبشة كى يؤسس فرعا لهذه الارسالية ويلحق بها مدرسة صغيرة . وبالفعل فقد افتتحت المدرسة وكانت مدرسة داخلية ، انتظم فى صفوفها أطفـال زنوج من المقيمين حـول النيل الأبيض والمشترين من سـوق الرقيق بالاضافة الى عدد قليل من البيض والملونين . ويبدو أن هـذه المدرسة كانت مرتبطة بوجود الأب منتورى والهدف الذى جاء من أجله ، إذ انتهى أمرها بمجرد عـودته الى الحبشة عـام ١٨٤٥ . وبعـودة الارسالية الكاثوليكية الى الخرطوم عـام ١٨٤٨ كان من بين برامجهـا لافتتاح مدرسة داخلية تؤازرهم فى نشر المسيحية . وفى سـنة ١٨٥٠ حوت المدرسة عشرين تلميذا بينهم أربعة عشر طفلا من أبناء الزنوج ثم ازداد عددهم الى أربعين طفلا . وكانت تقوم بتعليمهم القراءة والكتابة والحساب واللغـات العربية والفرنسية والايطالية والموسيقى والأشغال اليـدوية .

وفى سنة ١٨٥٥ افتتح بالمدرسة قسم خارجى لأبناء الأهالى . وفى عام ١٨٥٩ أضيف اليها فرع لتدريس المواد التجارية لامـداد حـكومة الخرطوم بالموظفين . ثم بدأت المدرسة بعد ذلك تولى اهتماما بالتعليم المهنى حيث افتتحت أقساما للتجارة والحدادة والحياكة وصناعة الأحذية تحت اشراف خبراء ايطاليين . وقد كان مدير دار الصناعة بالخرطوم — وهو ايطالى الجنسية — يقوم بتدريس الميكانيكا للتلاميذ الذين أظهروا كفاءة ، كما كان هؤلاء التلاميذ ينضوون فى سلك العمـل بهـذه الدار عقب تخرجهم (١) .

ومنذ عام ١٨٥٩ بدأت هذه المدرسة الارسالية فى التوسع فى قبول

(١) أحمد أحمد سيد أحمد : رفاعة فى السودان . ص ١٨٣ .

التلاميذ (بنين — بنـات) ولاسيما فى القسم الخارجى ، حتى وصلت أعداد البنين فى عام ١٨٧٨ الى ثلاثمائة تلميذ والبنات الى مائتين (١) .

ويبدو ان الادارة المصرية فى السودان لم تكن تقف ضد نشـاط الارسالية وخاصة التعليمى منه ، كما كانت حريصة على رعايتهم وحمايتهم كسائر مواطنى السودان ، ففى أوائل محرم عـام ١٢٩٠ هـ (١٨٧٠ م) طلب المسئولون ببربر تخصيص (وابور) « لنقل رئيس عموم الكنائس الكاثوليكية وبعض المعلمين وأربا بالصنائع وبعض الراهبـات » (٢) .

وربما يعود هذا التأييد الى تعاظم النفوذ الأجنبى فى ذلك الوقت .

وقد ظلت مدرسة الارسالية بالخرطوم تقوم بمهمتها التعليمية حتى قيام الثورة المهدية فتوقف نشاطها مع توقف سائر نشاطاتها الأخـرى ورحلت الى القاهرة .

الآثار الثقافيـة :

على ذلكم المنوال مضت السياسة التعليمية فى السودان ، فى شماله وجنوبه ، فى شرقه وغربه ، سـواء بالنسـبة للتعليم الأهلى المتمثل فى الخلاوى العـديدة التى كانت منتشرة فى ارجـاء البلاد ، أو بالنسـبة للمدارس الحكومية أو ما عرف بالتعليم المدنى الذى بدأ بمدرسة واحدة على عهد عباس الأول ثم اتسع ليشمل عدة مدارس على عهد اسماعيل وزعت بشكل منتظم فى مديريات السودان .

وقد يرى البعض ان الدور التعليمى والثقـافى للادارة المصرية فى السودان حتى عام ١٨٨١ كان متواضعا جداً اذا قورن بما حـدث فى مصر فى تلك الفترة أو حتى الفترة التى سبقتها ، ربما يكون ذلك صحيحا

---

(١) احمد احمد سيد : المرجع السابق ص ١٨٤ .

(٢) دفتر رقم ١٨ عابدين وارد تلغرافات — صورة التلغراف العـربى رقم ٨٣٢ بتاريخ ٤ المحرم سنة ١٢٩٠ هـ . انظر ايضـا : عبد العزيز امين عبد المجيد : المرجع السابق ص ٢٠٩ .

ولكننا اذا لاحظنا الظروف الاقتصادية والسياسية التى مرت بها مصر فى أعقاب عام ١٨٤١ ، والظروف الطبيعية فى السودان خلال القرن التاسع عشر ، بالاضافة الى تلك الشعوب العديدة — ذات السمات المتنوعة والميراث الثقافى المتواضع — التى حوتها هذه الرقعة الفسيحة أدركنا مدى ثقل المهمة الثقافية والتعليمية التى كانت تقع على كاهل الادارة المصرية حينذاك . حقيقة انها بالقياس الى منجزات القرن العشرين تعد عملا متواضعا إلا أنها بمقياس القرن التاسع عشر فى المشرق العربى وافريقيا هى انجاز ضخم .

ومن العلامات البارزة فى الحياة الثقافية السودانية على عهد الخديوى اسماعيل نذكر شخصية الحكمدار جعفر مظهر الذى قاد الحركة الثقافية والتعليمية فى ذلك الوقت ، فقد وصفه الرحالة الفرنسى (F. La Forgue) بأنه « رجل كتاب ومسجد » ؛ حيث عرف الرجل بالتدين الشديد ، بالاضافة الى حرصه الشديد على حضور الصالونات العلمية التى كانت تعقد بدار الحاكم العام والتى كان يؤمها كبار رجال العلم والفكر والدين (١) . وقد زار الرحالة شوينفرت (George. Schweinfurth) جعفر مظهر فوجد عنده الكثير من الأطالس والكتب العلمية الأمر الذى يشير الى حبه للعلم والمعرفة (٢) .

كذلك فقد اتجهت الحكومة آنذاك الى ترجمة بعض الكتب ، فقد طلب هذا الحكمدار ترجمة كتاب الرحالة « سبيك » وكتاب « ملطبرون » فى علم الجغرافيا والسياحة وقد وافق الخديوى على ذلك (٣) .

---

(١) شوقى الجمل : المرجع السابق . ص ١١٣ .
(٢) Sabry, M; L'Empire Egyptien Sous Ismail. p. 438.
نقلا عن : Schweinfurth, G; A Coeur de L'Afrique (1868 - 1871).
(٣) سجل رقم ٥٥٧ ، ترجمة الارادة الصادرة الى ديوان المدارس رقم ٥٩ نمرة ٥ بتاريخ ١٩ ربيع الأول سنة ١٢٨٣ هـ . دار الوثائق القومية بالقلعة .

وقد لقى الجنوب السودانى اهتماما لا بأس به فى محاولة لادخال الثقافة العربية بين أبنائه . وقد بدأت هذه المهمة الثقافية بارسال أفراد يقومون بالترجمة بين هؤلاء السكان من ناحية وبين الضباط والجنود من ناحية أخرى ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعداه الى شرح مهمة الدور الحضارى الذى كانت تقوم به مصر فى هذه الجهات . وقد بدأ البرنامج الثقافى بتعليم السكان اللغة العربية فى محاولة لايجاد أرضية مشتركة للتفاعل والاندماج ، كما تم ارسال المعلمين وكافة المتطلبات التى اقتضتها هذه المهمة (١) . ويبدو ان سكان تلك الجهات قد استجابو للنداء الثقافى الذى أعلنته مصر فى جنوب السودان فتردد صداه الى أوغندا ، الأمر الذى دعا غوردون باشا فى مايو عام ١٨٧٤ أن يطلب من مصر ارسال شيخ فقيه يكون فى معيته من أجل تعليم الاوغنديين وملكهم (٢) .

هذا فيما يتعلق بالآثار القريبة والمباشرة التى نتجت عن الجهود الثقافية التى قام بها رجال الادارة فى السودان .ولكن اذا نظرنا على البعد وخاصة فيما يتعلق بالآثار الثقافية التى خلفتها المدارس التى أنشأتها الادارة المصرية فلا شك أن تلك المدارس كما يذكر أحد الكتاب السودانيين قد كونت ــ مع غيرها من المدارس التى انشئت حتى سقوط الخرطوم وانتصار المهدى على غوردون ــ نواة طيبة من القراء الذين أصبحوا فى شوق للاطلاع على الصحف والمجلات والكتب التى أخذت ترد الى الخرطوم من القاهرة منذ أوائل القرن العشرين (٣) . ويرجع نفس الكاتب بأن هذه المدارس وان لم تكن قد أخرجت قادة حملوا لواء الحركة الأدبية والثقافية ، فلم تعرف فى السودان نهضة أدبية قبل

---

(١) امين سامى : المصدر السابق . ص ٥٦٥ ، انظر ايضا : حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ــ الجزء الاول ص ٣٥٣ .
(٢) عمر طوسون : المرجع السابق . الجزء الاول ص ١٢٨ ، وانظر ايضا : جميل عبيد : المديرية الاستوائية . ص ٣٨٥ .
(٣) ابراهيم الحاردلو : الرباط الثقافى بين مصر والسودان . ص ١٧ .

ثلاثينيات هذا القرن ولكن الأمر الذى لا شـك فيـه أن خريجى تلك المدارس كانوا هم القاعدة العريضـة التى تلقفت الكتب والمجلات التى أصدرتها مصر ، كما أن هذه القاعدة أيضا كانت هى الطبقة الواعية ذات الصلة بالجماهير العريضة فى أنحاء السـودان ، وهى ذات الطبقة التى نشرت الوعى بين أفراد الشعب ممن كانوا لا يقرأون ولا يكتبون (١) .

ولقد كان ادخـال المطبعة من مصر الى السـودان واقامة مصنع للورق لأول مرة فى السودان بمثابة شرايين ثقافية تدفق من خلالها الفكر والثقافة الى عقول السودانيين . كما كان لاسقاط الحواجز السياسية بين السلطنات والمشيخات السودانية رد فعـل ثقافى خطير ، فكما توحـدت البلاد سياسيا توحدت ثقافيا وأمكن للثقافة العربية والدماء العربية ان يتدفقا فى سهولة ويسر (٢) .

واذا ما رحنا نفتش عن الشعر السـودانى كينبوع ثقافى فلا نكاد ــ للأسف الشديد ــ نلمح له انفعالا شديدا أو صـدى لما حـدث من تطورات اقتصـادية واجتماعية باعتبـاره مرآة ثقافية تعكس وجدانات الشعوب . وقد يكون مرجع هذا القصور الى أن الخط الواضح للشعراء السودانيين فى ذلك الوقت كان هـو الخط الدينى ، فالدين هو المنـاخ الحقيقى الذى كانـوا يتنفسون من خـلاله دونما أى جانب آخـر من الحيـاة . ومن أمثلة ذلك الخط الدينى تلك القصيدة التى مدح فيهـا (الشيخ الأمين الضرير) الرسول عليه الصلاة والسلام والتى جعل فيها سور القرآن الكريم محورا لجميع أبياتها والتى استهلها بقوله :

يارب صـلِّ على من كان فاتحـة   بكر الوجـود به عمراننا اتصـلا

---

(١) ابراهيم الحاردلو : المرجع السابق . ص ١٧ .
(٢) حسن أحمد محمود : المرجع السابق . ص ٣٦٠ .

وختمها بقـوله :

إخلاصه فلق الاشراق إذ وضحت للناس أخلاق هذا الخاتم الرسلا (١)

وكانت قصائد الشعراء في ذلك العصر ، ونعنى بها قصائد المديح النبوية ، تبدأ عادة بالغزل أو التشوق الى أماكن بعينها مثل نجد ، وقد يأتى ذكر النبى فى خاتمة قصيدة المدح ، وهـذه السمة تبدو جلية فى شعر أحمد الأزهرى وابراهيم عبد الرافع . كذلك فان التأثير القرآنى كان يطغى على هذه القصائد . وقد مدح هؤلاء الشعراء الحكام ذاكرين مآثرهم ، فالشـيخ أحمد محمد جـداوى مدح الحكمدار رؤوف باشـا فى قصيدة تقع فى ستة وخمسين بيتاً بدأت بقوله :

وافى زمـان الانس والتبشـير والعز والاقبـال والتيسـير
وبـدت بـكل مسـرة أيامنـا وصفت لياليـنا من التكدير
والروض أينع زهـره إذ نسمت ريح الصـبا فيـه بنشر عبـير

ثم يمدح الحكمدار رؤوف فالخديوى توفيق فينتهى بالصلاة على النبى وآله ولا ينسى أن يذكر اسمه :

ثم الصـلاة على النبى وآلـه السـائرين بسـيرة المـبرور
ما قاله الأسـوانى أحمد ناظمـا وافى زمان الانس والتبشـير

وكذلك فعل محمد حسين بركاره حين افتتحت مدرسة بربر فى عهد الخديوى اسماعيل (٢) .

وقد اختلطت النعرة الدينية بالتيار الصوفى الذى ساد البلاد فى تلك الآونة فى شعر الشيخ أحمد الأزهرى الذى مدح أباه (اسماعيل الولى)

---

(١) عبده بدوى : الشعر فى السودان . ص ٢٨ .
(٢) نفس المرجع . ص ٢٩ ، ٣٠ .

واعتبره فى مصاف الأولياء ، ورد على أولئك المنكرين لهذه الصفات التى تميز بها والده حيث يقول :

ولا تعتبر أقـــوال غمـــر ومنكر   على أولياء الله من غـــير طائـــل
ألم تـــوان اللـــه ميز خلقـــه   بتأخير مفضول وتقـــديم فاضل ؟

وعلى وجه العموم فالمديح فى هـــذه الفترة كان يغلب عليـــه الفتور والتقريرية ونظم بعض الأحداث ، والشاعر كان يحرص فقط على شـــكل القصيدة ، أما المضمون فكان رداءً فضفاضا — كعادة الشعر القديم — يمكن أن ترتديه أكثر من شخصية (١) •

لقد كان طبيعيا ان يفرز المناخ الثقافى فى السودان هذا الشعر الذى ظل يدور فى الاطار الدينى ، ومن الصعب أن تطالب الشاعر السودانى فى القرن التاسع عشر وهو محكوم بهذا الاطار ان يتخير موضـــوعات أخرى لقصائده •

وهكذا كانت المسيرة التعليمية فى السودان فى هـــذه الفترة ، التى غلب عليها التعليم الدينى والثقافة الاسلامية • وقـــد احتضنت الادارة المصرية هذا اللون من التعليم فأغدقت عليه الكثير من الأموال والأراضى كما حاولت ادخال التعليم المدنى لأول مـــرة فى البـــلاد واستطاعت من خلاله أن تســـد حاجة البـــلاد من الكتبة والفنيين الأمـــر الذى يعـــد تطورا نسبيا — فى تقديرنا — بمقياس القـــرن التاسع عشر • وللأسف الشديد فان تلك الجهـــود التعليمية والثقافية لم تؤت أكلهـــا ، وظلت — على حد تعبير البعض (٢) — « نباتا هشـــا » أطاحت به رياح المهدية عـــام ١٨٨١ •

---

(١) عبده بدوى : المرجع السابق . ص ٣٠ .
(٢) Hill; op. cit. p. 127.

الخاتمـــة

تلكم هى تطورات السـودان الاقتصادية والاجتماعية خلال أربعين حولا من الزمان • وهى أشبه بملحمة نضال طويلة بين الأرض والانسان تارة ، وبين الانسان ونفسه تارة أخـرى • ولم تجر فصولها — كعادة الملحمات — فى مكان واحـد بل تنوعت فى بقاع شتى من أرض السودان ، فى الشرق على شطآن البحر الأحمر ، وفى الغرب عند مرتفعاته وسهوله وفى الجنوب وسط أدغاله وحيواناته ، وفى الشمال على أنغام سـواقيه • وهذه الملحمة صيغت كلماتها فى مصر على هيئة قوانين ونظم وارشادات راح ينفذها أبطالها فى السـودان بكل ما أوتوا من دربه وحنكة •

ولعلنا فى حاجة الى أن نتساءل — بعد أن شهدنا هذه الملحمة — عن النتائج أو الآثار التى أسفرت عنهـا • ففى مجـال الأرض والانتـاج الزراعى تبين أن أراضى السـودان الشاسعة والمترامية الأطراف ، لـم تكن بحاجة الى اصلاح وتمهيد بقدر ما كانت تحتاج الى جهود الانسـان فقط ، لتسخيرها لصالحه ، وقد وضحت هذه الرؤى أمام محمد على حين زار السـودان عـام ١٨٣٨ وخطب القـوم مبصرا وناصحا ، داعيـا السودانيين الى الاقتراب من الأرض ، واعدا اياهم بادخال أساليب العصر وأدواته الحـديثة •

ثم راح الخلفاء من بعده يتابعون الخطى ، فهاهو ذا اسماعيل باشا يحيل شرقى السودان الى بساتين خضراء لزراعة القطن ، ويقيم من أجله أحدث مشروعات الرى من خلال شخصية ممتاز باشا الذى استطاع أن ينتصر على الأرض ويستخرج من باطنها تلك الكنوز •وقد صحب هـذه العملية ظاهرة جديدة فى شرقى السودان ونعنى بها توطين أعداد كبـيرة من بدو تلك المناطق ممن ينتمون الى المجموعة البيجاوية فعرفوا الزراعة والاستقرار بعـد أن كانـوا يضربون فى فلوات السـودان هائمين على غير هـدى •

هذا فيما يتعلق بالأرض المنبتة ، أما الأخرى فلم تترك ، حيث مضى المنقبون والباحثون يغوصون فى باطنها باحثين عن كنوزها ومعادنها مسلحين فى ذلك بأحدث ما كان يمتلك العصر من أدوات ، فتلك كانت سمة محمد على فى كل مناحى الحياة • ولكنهم هذه المرة لم يستطيعوا أن يصلوا الى نتائج ايجابية ، لذا فقد كان النتاج الطبيعى تأخرا فى الصناعة السودانية واستمرار تلك الألوان البدائية والتقليدية لبعض الحرف الصناعية ، ساعد على تأخرها أفكار ومعتقدات بالية حطت من قدر العمل اليدوى الصناعى •

وفى الميدان التجارى شهدنا منذ عام ١٨٤١ نشاطا مكثفا ، على الصعيد الداخلى ، شهدنا تبادلا تجاريا بين أسواق الأقاليم السودانية ، وقد كان هذا شيئا طبيعيا بعد أن تمت الوحدة الادارية والسياسية ، وأصبح من المألوف أن نجد فى سوق الأبيض بكردفان « الدنقلاوى » من شمالى السودان ، وكذلك الحال بالنسبة لجنوبه ، كما كان من المألوف أيضا أن نشهد التجار « الحدارية » وهم يجوبون شرقى وأوسط السودان • وفوق ذلك كله راح الجميع يبعثون بمتاجرهم الى مصر حيث عدت سوقا داخلية بالنسبة لهم • وعلى الصعيد الخارجى شهدنا محاولات للتبادل التجارى مع الحبشة وشمال وغرب أفريقيا ، وأخرى لا بأس بها مع بلاد شبه الجزيرة العربية وجنوب شرق آسيا • وبين هذه أو تلك شهدنا هجمة أجنبية قوامها تجار مغامرون كرسوا جهدهم فى تجارة العاج ثم انتقلوا الى الرقيق حتى اذا أوصدت دونهم الأبواب راحوا يبتاعون الأراضى فى شرقى السودان ، لتأتى دولهم من بعدهم بجيوشها وذلك ما تم بالفعل فى تلك الجهات •

وما كانت تلك التجارة على المستويين الداخلى والخارجى أن تزدهر لولا شبكة المواصلات المتنوعة التى حاولت الادارة المصرية جاهدة أن تقيمها ، بالاضافة الى محاولاتها المضنية لحفظ دروب التجارة من كافة الأخطار المحدقة بها بشرية كانت أم طبيعية •

وتزداد ضراوة تلك الملحمة حين نصل الى واحد من أهم فصولها حيث ينفرج الستار على صوت جدل وحوار ملتهبين ، انها « المسألة الضرائبية » فمنهم من ذهب الى أن الحكم المصرى كان صارما فى هذا الجانب من خلال نظمه الدقيقة والتى طبقت بشكل صارم دونما مراعاة لأحوال الأهلين ، بينما ذهب آخرون الى أن هذه الضرائب لم تكن « بدعة » ابتدعتها الادارة المصرية فى السودان ولكنها كانت موجودة من قبل ، زمن السلطنة السنارية وان كانت أقرب الى « الأعباء » منها الى « الضرائب » . ويعترف الفريق الثانى بأن ثمة أخطاء جرت ابان تناول الضريبة زمن الادارة المصرية لكنها لم تكن متعمدة .

ومع جموع السكان السودانيين وبينهم تمضى الملحمة ، وهذه الجموع كانت متنوعة تنوعا شديدا بحيث يتراءى للناظرين أنهم (أفريقيا مصغرة) ، منهم البجاة والنوبيون ، ومنهم النوباويون والزنوج وأخيرا منهم القبائل العربية ... وكانت كل جماعة منها تنتمى الى أصول عرقية تختلف عن الأخرى وان اختلطت الأنساب تدريجيا وعلى استحياء بمرور الزمن . فقد حدث امتزاج عرقى وخصوصا فى الجزء الأوسط من البلاد ، الأمر الذى أدى الى تنوع شديد فى الملامح والألوان بين السودانيين العرب الذين لم يعودوا فى هذا الوطن الجديد من ذوى البشرة البيضاء ، فقد يصادفك رجل عربى من بين قبيلة البقارة ذو لون أسمر أبنوسى يعتز بأصوله التى تعود به الى القحطانيين .

ووسط هذه الجموع نلمح نمطا اجتماعيا فريدا ظل يعيش حياته وفق أعرف ونظم اجتماعية خاصة به تمثل فى مجتمع القبيلة السودانى ، فقد ظل مجتمع السودان — فى جملته — رغم تلك التطورات الاقتصادية مجتمعا قبليا حتى وان حدث فى بعض الأحيان لون من الاستقرار ، فلم يمنع ذلك كله من الانضواء تحت مظلة قبيلة من القبائل .

وبقدر ما تنوعت هذه الجموع تنوعت عاداتها وتقاليدها ولا شك

أنها كانت وليدة الظروف التى عاشتها كل جماعة منها استطاعت بها ومن خلالها أن تكيف حياتها الاجتماعية ، فبعضها كانت ذات سمات خطيرة تهدد المجتمع و « سلامه الاجتماعى » ، حاولت الادارة المصرية التدخل فيها • أما كثيرها فكان طبيا الأمر الذى شكل اضافة جديدة وقوية للنظم والقوانين الادارية سهلت من أمر القائمين على أزمة الحكم •

ولما كان المجتمع السودانى فى جملته شديد التمسك بعقيدته الاسلامية فقد انعكس ذلك على أمرين : الأول ويتمثل فى جموع المتصوفة التى انتشرت فى ربوع السودان وتخطت ، بل قل ـ ان شئت ـ كسرت الحاجز القبلى السميك ذا الأساس العرقى الذى كان يصعب اختراقه ، فانتظمت هذه الجموع تحت لواء الطرق المتعددة ، فجلس البجاوى والنوبى والعربى والزنجى وغيرهم جنبا الى جنب طارحين كل الأطر القبلية قانعين بكلمة « المريدين » •• الجميع يدعو الى عبادة الله فى سكينة وسلام ابتغاء الدار الآخرة ، مع محاولات من بعضها التدخل ـ أحيانا ـ لحسم نزاع شجر بين طرفين ، وربما كانت الحكومة أحد هذين الطرفين • ومن هنا كانت محاولات البعض أن يرمى بعض هذه الطرق بتهمة الارتماء فى أحضان الحكومة ـ فى ذلك الوقت ـ ناسين أو متجاهلين ان هذه المهمة التى يقومون بها هى من صميم فكرهم وأهدافهم الاجتماعية •

أما الأمر الثانى فقد كان مظهره التعليم والثقافة حيث شهدنا ميلا كبيرا من لدن السودان تجاه التعليم الدينى ـ رغم محاولات ادخال التعليم النظامى فى عهد عباس الأول والخديوى اسماعيل ـ وانتشارا واسعا « لخلاويه » التى راحت تغرى أفراد المجتمع بالثقافة الدينية •

ويبدو أن الطرفين : الحكومة والشعب السودانى قد ارتضيا ذلك ـ حيث كان هذا اللون التعليمى موائما للتركيب الاجتماعى القبلى والمناخ الدينى السائد فى البلاد ـ ومن ثم راح المسئولون يغدقون الأموال

ويوقفون الأراضى لهذا الغرض ، الأمر الذى أدى الى نشـــاط الفقهاء ــ فى أحايين كثيرة ــ فى أداء مهمتهم .

ومع تعاقب السنين تفاعلت هذه التطورات الاقتصادية والاجتماعية ، فبدأت الأوضاع الاقتصادية تتأرجح نتيجة عوامل كثيرة ، ثم بدأ التيار الدينى ينمو نموا سريعا ولاح فى الأفق نذير خطير راح يزلزل كل شىء .. انه طوفان المهدية عام ١٨٨١ .

ميزانية السودان عام ١٨٨١

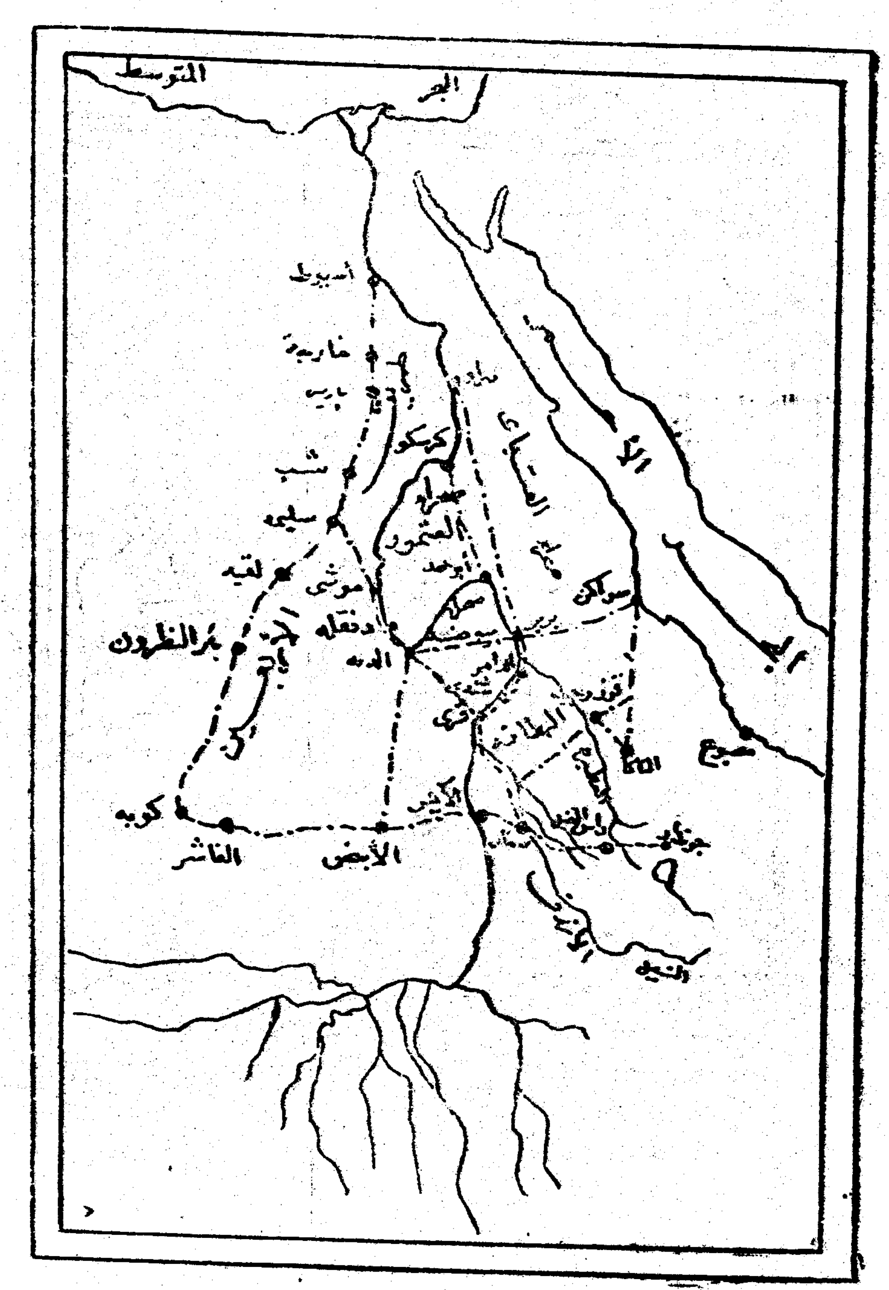
الجهة	زيادة في المصروفات	زيادة في الإيراد	المصروفات	فائض الإيراد
حكدارية ومالية السودان	١٢ ٤١ ٢١٤٢٥	٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٩٤٣ ٢٢٨٧٧	٣٢ ٤٧ ١١٥٣
عسكري ومجلس استئناف				
مديرية الخرطوم	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٣ ١٦٣١ ١٤٣	٤١٦ ٥٥١٩٣ —	٢٦ ٦٢ ١٩٥٠٠١
ترسانة الخرطوم	٩١١٢ ١٢٩٩٦	٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٢١١٥ ١٥٧٠٦	٢٢ ٣٠ ٠٢٧٠٩
مطبعة السودان	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٠٠ ٣٥٥ ٦٨٨	٨٠٠٠ ١٢٦٥	٠٠ ٣٠ ٨١٤٩
مصلحة التلغراف	٣٣ ٦٩ ٢٢ ٦	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٣٥٢٣ ١٠٠٨٢	٣٠ ٦٥ ٣٨٦٥
مصقار وها زوطى	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٣٦ ٢٦٩ ١٢٩٦	١٠٠٦ ٢٦٨٠٨	٢ ٩٠ ٣٩٧٧٤
مديرية نقلة	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٣٥ ٣٧ ٤٤٨١٤	١٩ ١٣٠٣٨٨	١٤ ٦٦ ٥٥١١٨
مديرية بوسر	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٤ ٥٥ ٣٦٣٢٢	٢٦ ٩٨ ١٤٤١٠	٢٣ ٥٣ ٤٠٦٨٣
التاكا وسنهيت	٢٣ ١٥ ١١٦٢٨	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٣٧ ٩٩ ١٥١٤٣٣	١٤ ٨١ ٥١٨٠٥
مديرية كردفان	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٣٩ ٥٧ ٢٨١٠٠	١ ٨٢ ٤٦٣٠	٠٠ ٤٠ ٧٤٤٠٥
مصلحة السكة الحديد	٢٤ ٩٩١ ٦٠٠٨	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	١٨ ٥٩ ٢٦٤٦	٣٤ ٦٠ ٧٥٦٣
مديرية فاشودة	٣٣ ٨١٠ ١٠٦٣	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٧ ٩٠ ١٨٤٥٤	١٤ ٤٩ ٧٨٦٦
مديرية الفاشر	١٨ ٨٤ ١٧٥٨٠	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	١٦ ٤٣ ٣٣٩٧٥	٣٨ ٥٧ ١٦٣٤٤
ادارة داره } دارفور	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٣٩ ٣ ٥١٣٩	١٧ ٥٩ ١٩٧٨٧	١٦ ٥٣ ١٠٣٣٩
ادارة كلكل	٦١٦ ٧٨٥٤	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٣ ٩٧ ١٨٦٧٩	٢٧ ٨٠ ١٠٨٦٥
بحر الغزال	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٨ ٣٤ ٨١١٨	٣١ ٢٥ ١٤٣٠١	٠٠ ٠٠ ٢١٥٠٠
جهات خط الاستواء	٥٦١ ١٩٤٦٢٣	٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠	٠٠ ٠٠ ٤٤٤٠٠	٠٠ ٠٠ ٢٢٢٥٠
الـــــمجموع	١٩٤٦٢٣٥٦١١	١٤ ٨٥ ١٤٢٠٩٥	١٢ ٩ ٥١١٦٨١	٣٥ ٢٨ ٤٥٩١٥٦

وعلى هذا يكون اجمالي الميزانية كالتالـــي :-

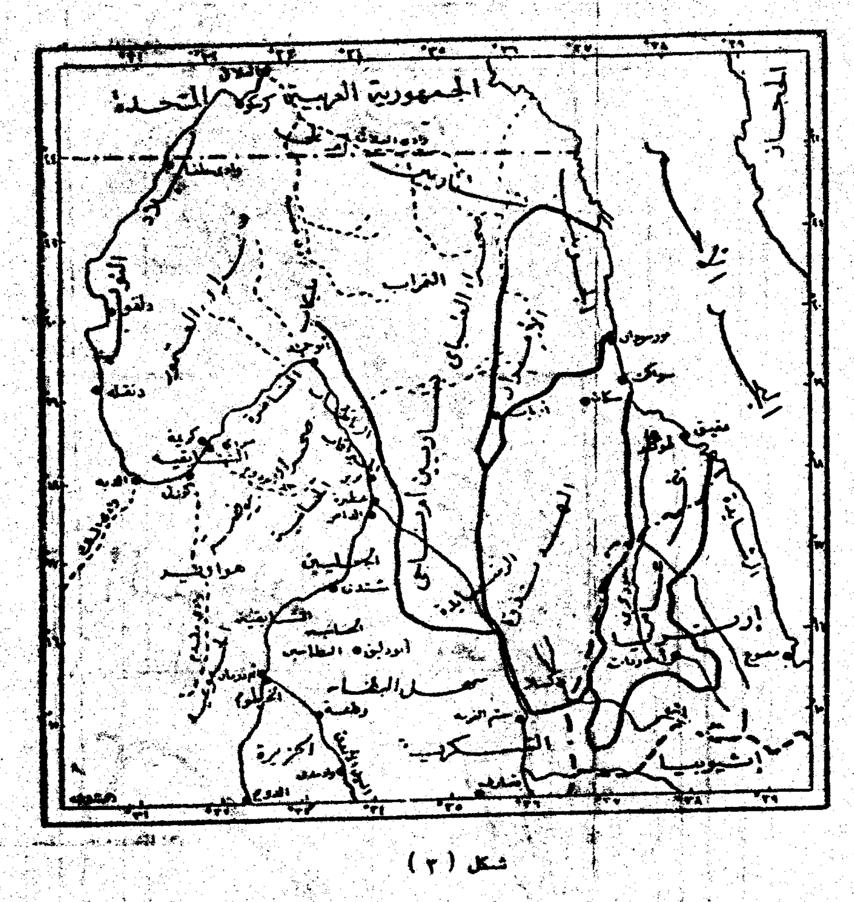
	جنيه	قرش	بارة
مصروفات	٥١١٦٨١	٠٩	١٢
ايرادات	٤٥٩١٥٦	٣٨	٣٥
المجموع	٠٠٥٢٥١٧	٧٠	٧٢


خريطة
السودان
مصر
النوبه
اريتريا
دارفور
كردفان
النوبا
الحبشة
كينيا
اوغنده
الكنغو البلجيكي

شكل رقم (١)



شكل رقم (٢) طرق القوافل التجارية فى القرن التاسع عشر



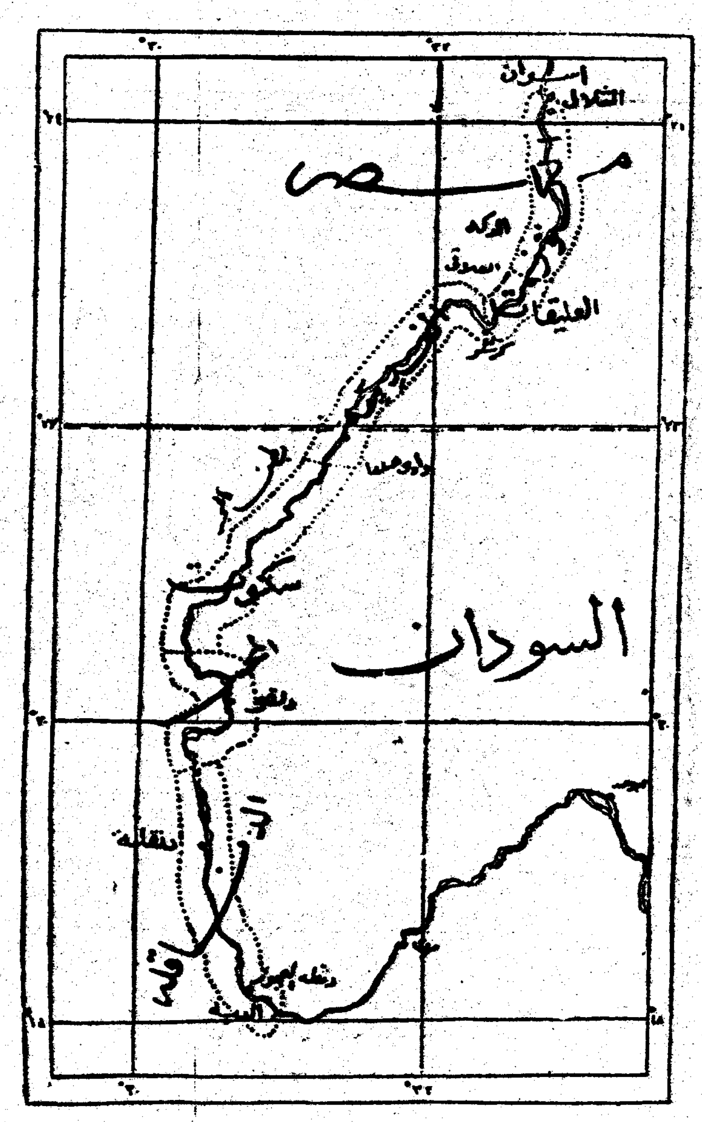
شكل (٢)

١٠٠ ميل

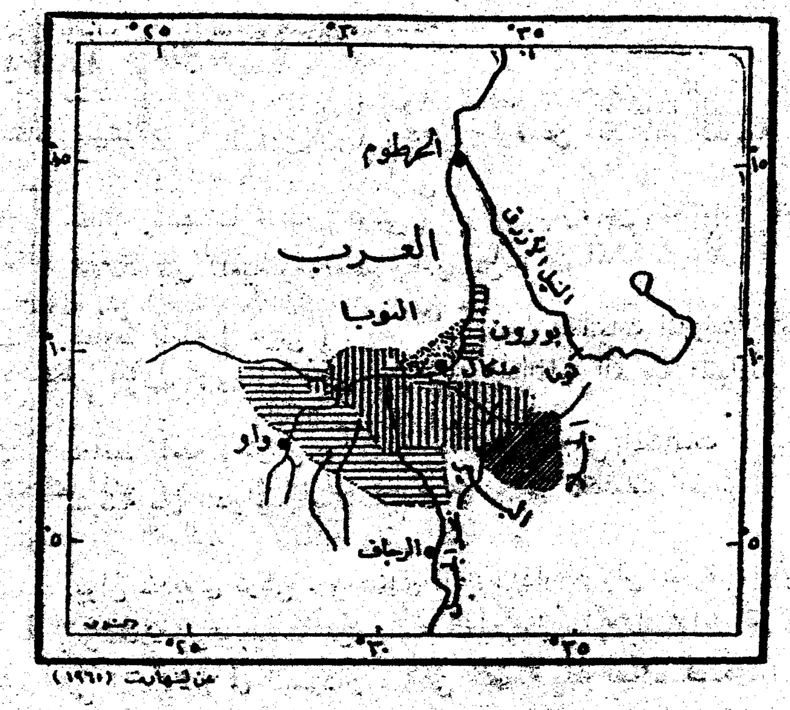
الحدود السياسية ـ.ـ.ـ.ـ حدود توزيع القبائل ـــــــ

مقياس الرسم

الاقسام الرئيسية للبجة
(فى السودان الشمالى الشرقى)



شكل (٤) توزيع المجموعات النوبية



شكل (٥) الدنكا وجيرانهم

أولا : وثائق غير منشـورة

وثائق دار الوثائق القومية بالقلعة :

- دفاتر وسجلات المعية (عربى) : وهى عبارة عن المكاتبات العربية المتبادلة بين المعية والأقاليم والدواوين .
- دفاتر وسجلات المعية (تركى) : وهى عبارة عن المكاتبات التركية المتبادلة بين المعية والأقاليم والدواوين .
- محافظ المعية (عربى) : وهى عبارة عن المكاتبات العربية المتبادلة بين كل من الدواوين والأقاليم وبين المعية .
- محافظ المعية (تركى) : وهى عبارة عن بعض المكاتبات العربيـة التركية بين الدواوين والأقاليم وبين المعية .
- ديوان خديوى تركى : ومحتوى دفاتر هذا الديوان عبارة عن أوامر ومراسلات وتوجيهات من جانب محمد على أو المسئولين فى مصر الى المسئولين فى السودان ، وهى متعلقة بجوانب متعددة ، سواء كانت اقتصادية أو ادارية أو غيرهما .
- سجلات مديريات السـودان : وتضم هـذه السجلات المراسلات المتعلقة بكل مديرية ، فقد كان لكل مديرية سجلاتها الخاصة ، ويمكن للباحث أن يتتبع تطور أوضاع كل مديرية من خلال هذه الدفاتر .
- سجلات حكمدارية السـودان : وهى تضم الأوامر والمراسـلات والتوجيهات التى كان يصـدرها الحكمداريون الى المديرين وحكام الأقسام والأخطـاط والمتعلقة بكافة الشئون الاقتصادية والادارية وكافة القضايا التى تهـم المديريات ، بالاضـافة الى ردود هؤلاء الحكام متضمنة اسـلوب ادارتهم لجهـات بلادهم والعقبات التى كانت تصادفهم .

— سجلات مجلس الأحكام (عربى) : وتحوى سجلات هـذا المجلس جميع الأوراق المتعلقة بالشئون القضائية التى تعرض على الجمعية الحقانية وعلى مجلس الأحكام .

— سجلات ودفاتر حسـابات مديريات السـودان : وهى عبـارة عن الميزانيات المتعلقة بمديريات السودان والتى تشمل كافة الايرادات وأوجه الصرف المتنـوعة . والملفت للنظر حقـا فى هذه السجلات — على وجـه الخصوص — الدقة المتناهية فى الحسابات من حيث تسجيل كل شـاردة وواردة وعـدم وجود أى « كشط » أو أخطاء بالدفاتر ، بالاضافة الى تنسيقها ووضوح خطها وتجليدها بأسلوب يحفظها لسنوات طويلة .

— ديوان المدارس : ويضم هذا الديوان كافة الوثائق المتعلقة بأمـور التعليم . وتوجد محفظة خاصـة بالدار تحمل عنـوان (التعليم) وهى تحوى وثائق متنوعة عن التعليم فى مصر والسودان من حيث نظمه ولوائحه ، كما تشمل أيضا الجهود التى بذلت لادخال التعليم بكافة أشكاله فى السودان .

— الملفات الخاصة : وهى تتعلق إما بشخص بذاته أو جهة خاصـة ، وأهم ما أطلعت عليه : (أ) ملف أحمـد باشـا أبو ودان حكمدار السـودان .

(ب) ملف متفرقات .

— محافظ تحت عنوان السودان (مجلس الوزراء) : وعددها حـوالى ٢٩ محفظة تتعلق بموضوعات مختلفة عن السـودان فى النـواحى الاقتصادية والاجتماعية والادارية وغـيرها فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وهـذه المحافظ لا تحمل أرقاما بل لـكل محفظة عنوان خاص بها جاءت على النحو التالى :

١ ـ السودان : موضوعات .

٢ ـ السودان : موضوعات .

٣ ـ السودان : سكة حديد .

٤ ـ السودان : تحاويل السودان .

٥ ـ السودان : ديوان السودان .

وتحتوى هذه المحفظة على تقرير هام عن مالية وميزانية السودان .

٦ ـ السودان : اعتمادات ميزانية .

٧ ـ السودان : شئون موظفين .

٨ ـ السودان : شئون موظفين .

٩ ـ السودان : شئون عسكرية ـ الثورة المهدية .

١٠ ـ السودان : تليغرافات .

١١ ـ السودان : رقيق .

١٢ ـ السودان : رقيق .

١٣ ـ السودان : موضوعات هزر . ويوجد بهذه المحفظة تقرير حكمدار السودان محمد رؤوف عن أحوال السودان عام ١٨٨١ .

١٤ ـ السودان : اعانات قبائل وعربان .

١٥ ـ السودان : قوانين ، وتضم خمس محافظ .

١٦ ـ السودان : مشروعات الرى .

١٧ ـ السودان : سواكن .

١٨ ـ السودان : توزيع .

١٩ ــ السودان : الأوقاف ــ محافظ للتوزيع .

٢٠ ــ السودان : موضوعات عوايد .

٢١ ــ السودان : توزيــع .

٢٢ ــ السودان : شئون عسكرية .

٢٣ ــ السودان : استعدادات عسكرية ــ تعيينات .

٢٤ ــ السودان : تليغرافات باللغتين الانجليزية والايطالية .

ــ محافظ أبحاث السودان : وتقــع فى ٤٤ محفظة ، تبــدأ من عــام ١٢٣٥ هـ وتنتهى فى عام ١٣٠٠ هـ . وكل محفظة مقسمة الى عــدة دفاتر حسب الشهور الهجرية . وهذا المحافظ تحتوى على معلومات متعددة الجوانب وذات أهمية تاريخية قيمة . فقد جمعت من عــدة دواوين وســجلات مختلفة كالجهــادية والمعية الســنية ومديريات السودان وغيرها . وتتميز هذه المحافظ بترتيبهــا الأمر الذى يمكن الباحث الاطلاع عليها دونما عنــاء . ويمكن للباحث أن يجد بهــا معلــومات عن الأوضــاع الاقتصــادية والاجتمــاعية والسياسية والعسكرية .

ــ محافظ عابدين (بدون أرقام) : وهى عبارة عن ١٤ محفظة غــير مفهرسة وتحت الترتيب . وتحتوى على وثائق باللغة الانجليزية ، بالاضــافة الى وثائق متنوعة حــول الرقيق والجوانب الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك . وأهم ما اطلعت عليه : مذكرة بشأن تجارة السودان عام ١٨٣٨ ، ومجموعة ٤٥ ، السودان (تجارة) .

ــ محفظة اللوائح : وهى عبارة عن عدة كتيبات وملفات تحوى اللوائح الرسمية مثل : « سياسة نامه » الصادرة فى عهد محمد على وقانون « نامة همايونى » وغيرهما . وقد اطلعت فى هذه المحفظة على نصوص

معاهدة الرقيق المبرمة بين مصر وبريطانيا فى ٤ أغسطس عام ١٨٧٧ ، بالاضافة الى نص اللائحة التنفيذية للقرار الخاص بالغاء الرقيق فى السودان والحبشة ومصر ، تنفيذا للمعاهدة سالفة الذكر .

— محفظتان عن (موضوع التجارة) : وبهما موضوعات متفرقة عن التجارة والجمارك والأوامر التى تصدر الى المسئولين حول التجارة الداخلية والخارجية . وقد جاءت المحفظة الأولى تحت عنوان : موضوع التجارة ، وتغطى فترة تسعة عشر عاما (من عام ١٢٤٢ ه الى عام ١٢٦١ م) ، وأكثرها مستخرج من محفظة رقم ٦ (محفوظات ديوان التجارة والمبيعات) .

وجاءت المحفظة الثانية تحت عنوان موضوع التجارة (محفظة رقم ٢) . وهى عبارة عن عدة بطاقات وملفات مستخرجة من محافظ متنوعة . ويتحدث بعضها عن تجارة مصر الخارجية فى القرن التاسع عشر ، وخاصة فى عهد محمد على .

— محافظ بحر برا : وهى عبارة عن المكاتبات الواردة من خارج مصر والسودان ، كما يشير اسمها ، وتضم معلومات قيمة ، خصوصا المحفظة رقم ١٩ والملفات ١ ، ١١ ، ١٢ .

— محافظ الوثائق الافريقية : يبلغ عددها حوالى ١٢ محفظة تدور موضوعاتها حول علاقات كل من مصر والسودان بجيرانها من الدول الافريقية مثل الحبشة وجهات الصومال ودارفور (قبل ضمها) وغيرها . وهذه العلاقات تشمل الأمور الاقتصادية والسياسية ، كما ان احدى محافظها تضم نسخة من معاهدة الرقيق المبرمة بين مصر وبريطانيا فى ٤ أغسطس عام ١٨٧٧ .

ـ الوثائق الأجنبية غير المنشورة :

أولا : الأرشيف الأوربى :

يوجد هـذا الأرشيف بدار الوثائق القومية بالقلعة ويضـم وثائق الخارجية الانجليزية والخارجية الفرنسية والخارجية النمساوية • وهى عبارة عن تقارير قناصل هذه الدول فى مصر والسـودان • وتكاد هـذه الوثائق تغطى أحداث القـرن التاسع عشر فى مصر والسودان بدءاً من عهد محمد على • وقد عالجت هذه التقارير عـدة موضوعات وان كان موضوع التجارة فى مصر والسودان قد شغل جزءاً كبيراً منها •

١ ـ وثائق الخارجية الانجليزية :

— F. O. 78 - 119, Report of Ismael Pasha's Death.

— F. O. 78 - 502, Cairo, September 30, 1842, to L. T. Col. Barnette.

— F. O. 78 - 589, Aden 18 th. March, 1844 Copts Battains Pol. Agent at Aden to J. P. Willough by Eoq Chief Secretary to Gov. t Bomby.

— F. O. 78 - 582, No. 4, Alexandria. 24 th. May, 1844 JL. S L Oddart the Earl of Abearden.

— F. O. 78 - 582, No. 25, Cairo, November 16 th. 1844. C. J. Barnette to Earl of Aberden.

— F. O. 78 - 708, Cairo. 2 nd. July, 1847. Thomas Mirialacchi to Alfred Slosine.

— F. O. 78 - 758, No. 14, Alexandria, 15 th. July, 1847. A Murray to Lord Cowley.

— F. O. 78 - 708, No. 69, Cairo, December 25 th. 1847è Ch. A Murray to Viscount Palmerston.

— F. O. 78 - 708, No. 99, 10 August 1847. Ch. A. Murray to Viscount Palmerston.

— F. O. 78 - 756, No. 2, February 4 th. 1848. to M. Murray.

— F. O. 87 - 735, Memorandum for Ibrahim sent in September, 1848.

— F. O. 78 - 804, No. 6, Cairo, March 12, 1849. Ch. A. Murray to Sir Stratford Canning.

— F. O. 78 - 840, No. 2, Cairo, January 5, 1850, Ch. A. Murray to viscount.

— F. O. 78 - 841, No. 4, Alexandria, March 12, 1850, Ch. A. Murray.

— F. O. 78 - 841, No. 20. Inclose in M C. A. Murray's May 1850.

— F. O. 78 - 1200, No. 52, Alexandria, November 4 th. 1850. Fredrick to A. Brucets the Earl of Clorendon.

— F. O. 78 - 2632, Cairo, May 12, 1877. G. vivian to the Earl Derby.

— F. O. 78 - 1404. December 10 th., 1857. John Pethrick to L. Muller.

٢ — وثائق الخارجية الفرنسية :

وهي عبـارة عن التقـارير التي كان يبعث بهـا قنصـل فرنسـا بالاسكندرية ، والتي كان يتلقاها من نائبـه في السـودان . وكان أكثرها يدور حول الأوضاع التجارية بمصر والسودان . وقد اطلعت على عـدة وثائق منها واعتمدت على بعض منها ، خصوصا تلك المودعة بالمحفظة رقم ٥٩ من محافظ الأرشيف الأوربي وأهمها :

— تقرير مرسل من :

M. Tastu, Agent et Consul Général de France à Alexandrie. à M. Drouyn De Lhuys, Ministre des Affaires Etranges. Alexandrie Le 24 Juillet, 1864.

— تقرير مرسل من :

M. C. Thibaut, Vice - Consul de France à Khartoum. à M. Tastu, Agent et consul général de France à Alexandrie. Khartoum, Le 18 Octobre., 1864.

ـ تقرير مرسل من :

M. Munzinger Grant du vice-consulate de France à Mussaoua à M. Outrey, Agent et consul général de France à Alexandrie.

Annex. No. 1 à La lettre de M. Outrey, du 19 November, 1865.

ثانيا : الأرشيف الأمريكي :

ويحتوى على عدة محافظ عبارة عن تقارير من القنصل العام للولايات المتحدة بالاسكندرية الى الخارجية الأمريكية . وقد اعتمدت منها على ما يلى :

— Despatch No. 93, Agency and Consular general of the U.S.A., Alexandria, Egypt, June 17, 1867. To Hon-William. H. Seward, Secretary of State.

(بالمحفظة رقم ٤ ، ملف رقم ٤)

— Desp. No. 36, Agency and consuate genera of the U.S.A. in Egypt. Cairo, July, 31, 1876.

(بالمحفظة رقم ١٢)

— Desp. No. 235, Agency and consulate general of U.S. in Egypt, Cairo. June, 1878. Hon. W. m. Evarts, Secy. of State.

(بالمحفظة رقم ١٤)

— Desp. No. 378, Cairo, November, 26, 1878.

(بالمحفظة رقم ١١)

وثائق دار المحفوظات العمومية بالقلعة :

استفدت منها ببعض دفاتر الحسابات الخاصة بمديريات السودان فى عصر محمد على ، وكانت مودعة « بمخزن السودان » . والبحث عن

هذه الأوراق من خلال الدفاتر يمثل صعوبة بالغة — الآن — وذلك لعدم ترتيبها داخل هذا المخزن • فهى أشبه بتل متراكم لا دليل له ولا مرشد • وقد تم — أخيرا — نقل أكثر محتويات هذا المخزن الى دار الوثائق القومية بالقلعة • وربما تكشف هذه الأوراق — بعد ترتيبها — عن اضافات جديدة حول بعض الجوانب التاريخية للسودان ومصر •

ثانيا : وثائق منشورة :

— تقرير « جون بورنج » J. Bowring الذى بعثت به حكومة انجلترا الى مصر عام ١٨٣٧ ، فوضع تقريرا عن حالة مصر فى ذلك الحين من النواحى الاقتصادية والادارية والعسكرية ، بالاضافة الى حديثه عن الرق وأسلوب تجارته • وهذا التقرير ترجمه الدكتور محمد فؤاد شكرى ونشره بكتاب : بناء دولة مصر محمد على (السياسة الداخلية) •

— تقرير آرثر هولرويد A. Holroyd السائح الانجليزى الذى زار السودان فى عهد محمد على ، واتصل بمعظم قناصل الدول الأجنبية ، وهذا التقرير منشور ضمن تقرير جون بورنج ، ومن أهم الموضوعات التى طرقها موضوع الرق فى السودان •

— رحلة ساكن الجنان محمد على الى السودان — ترجمة جرنال الرحلة الذى صدر فى ٦ صفر عام ١٢٥٥ هـ (٢١ ابريل عام ١٨٣٩ م) ملحقا بالعدد رقم ٦١٨ من جريدة الوقائع • وقد نشر باللغة التركية ، وقام بترجمته ونشره الدكتور محمد فؤاد شكرى بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، العدد الثامن من المجلد الثانى عام ١٩٤٦ •

— رحلة محمد على الى السودان (اكتوبر عام ١٨٣٨ — ١٥ مارس ١٨٣٩) كتبها أنجلو ساماركو باللغة الايطالية ثم عربها طه فوزى عام

١٩٤٢ ، ونشرت فى مجلة الرابطة العربية • وتوجد نسخة مصورة عبارة عن كتيب صغير بالمحفظة رقم ٣ من محافظ السودان بدار الوثائق القومية بالقلعـــة •

ـ الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض (النيل الأبيض) ، الصادر بأمر ساكن الجنـــان محمد على والى مصر بقيادة ربان الفرقاطة البكباشى سليم قبودان ـ ملخص المجموعة الرسمية للجمعية الجغرافية بفرنسا فى عددها الصادر فى يوليو عام ١٨٤٢ ، (تعريب محمد مسعود ، القاهرة ١٩٢٢) •

ـ رئاسة مجلس الوزراء ، مجموعة من الوثائق عن الســودان ، وهى عبارة عن وثائق متنوعة تشمل عدة مجـــالات ادارية واقتصـــادية وسياسية ••• الخ • وقد نشرت بالقاهرة عام ١٩٤٧ •

ـ مجمـوعة متنـــوعة من الوثائق تتعلق بفترة حــكم الخـــديوى اسماعيل • نشرها جورج جندى وجاك تاجر تحت عنوان : اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٧ •

ـ مجموعة متنوعة من الوثائق الخاصة بفترة حــكم الخــديوى اسماعيل • وتختص بسياسة مصر فى الجهات الشرقية للسودان وساحل البحر الأحمر ، تحت عنوان : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) • أعدها الدكتور شوقى الجمل • من مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٥٩ •

ثالثا : الدوريـــات :

أولا : الدوريات العربيـــة :

(أ) الوقائع المصرية :

(ب) جريدة أركان حرب الجيش المصرى :

(جـ) مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية :

(د) مجلة الجمعية الجغرافية :

(هـ) حولية كلية الآداب ، جامعة القاهرة .

ثانيا : الدوريات الأجنبية :

— **Sudan Notes and Records (S.N.R).**

رابعا : كتب ودراسات باللغة العربية :

— ابراهيم الحاردلو : الرباط الثقافي بين مصر والسودان . دار جامعة الخرطوم للنشر ، الخرطوم ١٩٧٧ .

— ابراهيم طرخان (دكتور) : امبراطورية البرنو الاسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥ .

— ابراهيم فوزي : السودان بين يدى غردون وكتشنر ، الجزء الاول ، القاهرة ١٣٣٩ هـ .

— أحمد أحمد الحته (دكتور) تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٨ .

— أحمد أحمد الحته (دكتور) : الاجانب فى مصر والسودان (١٨٤٩ — ١٨٦٢) مستخرج من مجلة الاقتصاد والتجارة . العدد الثانى ، (يوليه — ديسمبر ١٩٥٨) . القاهرة ١٩٥٨ .

— أحمد أحمد سيد أحمد (دكتور) رفاعة رافع الطهطاوى فى السودان ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٧٣ .

— أحمد بن الحاج أبو على : مخطوطة كاتب الشونة فى تاريخ السلطنة السنارية والادارة المصرية . تحقيق الشاطر بصيلى عبد الجليل ، القاهرة ١٩٦١ .

— أحمد بن الحاج أبو على : تاريخ ملوك السودان . تحقيق الدكتور مكى شبيكه ، الخرطوم ١٩٤٧ .

— أحمد صدقى الدجانى (دكتور) : الحركة السنوسية ، نشأتها ونموها فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٦٧ .

— أحمد عزت عبد الكريم (دكتور) : تاريخ التعليم فى عصر محمد على . النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٣٨ .

— أحمد عزت عبد الكريم (دكتور) : تاريخ التعليم فى مصر من نهاية حكم محمد على الى أوائل حكم توفيق (١٨٤٨ — ١٨٨٢) ، الجزء الأول عصر عباس الأول وسعيد (٨٤٨ — ١٨٦٣) .

— أحمد عزت عبد الكريم (دكتور) : تاريخ التعليم فى مصر من نهاية حكم محمد على الى أوائل حكم توفيق ، الجزء الثانى ، عصر اسماعيل والسنوات المتصلة من حكم توفيق (١٨٦٣ — ١٨٨٢) .

ــ ارنولد ، سير توماس الدعوة الى الاسلام . بحث فى تاريخ نشر العقيدة ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن وآخر ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٤٧ .

ــ اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار . الجزء الثانى . مطبعة بولاق . القاهرة ١٣١٦ هـ .

ــ الياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل باشا من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٩ . مطبعة دار الكتب المصرية . المجلد الثانى . القاهرة ١٩٢٣ / ١٣٤١ هـ .

ــ امين المعلوف : احتلال بحر الغزال ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . القاهرة عام ١٩٥٣ .

ــ امين سامى : تقويم النيل وعصر محمد على باشا . الجزء الثانى . الطبعة الأولى . مطبعة دار الكتب المصرية . القاهرة ١٩٢٨ .

ــ امين سامى : تقويم النيل وعصر عباس حلمى باشا ومحمد سعيد . المجلد الأول من الجزء الثالث مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م .

ــ امين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل ، المجلد الثانى من الجزء الثالث . القاهرة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ .

ــ امين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل . المجلد الثالث القاهرة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م .

ــ بنولا ، فردريك : كتاب مصر والجغرافيا وهو خلاصة تاريخية عن الأعمال الجغرافية التى انجزتها العائلة المحمدية العلوية بالديار المصرية . ترجمة احمد زكى . القاهرة ١٩٣٧ .

ــ بوركهارت ، جون لويس : رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان ترجمة فؤاد اندراوس . من مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٥٩ .

— التونسى ، محمد بن عمر : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان (نشر خليل عساكر ، مصطفى محمد مسعد المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة ١٩٦٥ .

— التيجانى عامر : جنوب السودان ، بحر الغزال بين العصابات والحكومات (١٨٥٠ — ١٩٢٠) . سلسلة دراسات قومية . العدد العاشر . الأهرام القاهرة ١٩٨٠ .

— جمال زكريا قاسم (دكتور) : الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية . معهد البحوث والدراسات العصومية . القاهرة ١٩٧٥ .

— الجمعة المصرية للدراسات التاريخية : الأرض والفلاح . القاهرة ، ١٩٧٤ .

— جميل عبيد (دكتور) : المديرية الاستوائية . وزارة الثقافة . دار الكاتب العربى للطباعة والنشر . القاهرة ١٩٦٨ .

— حسن أحمد ابراهيم (دكتور) : محمد على فى السودان . (دراسة لأسباب الفتح التركى المصرى) جامعة الخرطوم ، الخرطوم ، بدون تاريخ .

— حسن أحمد محمود (دكتور) : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، الجزء الأول مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ١٩٥٨ .

— حسين كامل ابو الليف : مرحلة من مراحل التطور السياسى والاجتماعى فى السودان . المجلد الخامس من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٥٦ .

— حسين خلاف (دكتور) : التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٢ .

— رفاعة الطهطاوى : مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب المصرية . الطبعة الثانية ، مطبعة شركة الرغائب . القاهرة ١٩١٢ .

ـ زاهر رياض (دكتور) : السودان المعاصر منذ الفتح المصرى حتى الاستقلال ١٨٢١ ــ ١٩٥٣ . مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٦ .

ـ سعد الدين الزبير : الزبير باشا ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٢ .

ـ السيد ابراهيم البدوى (دكتور) : النوباويون . دراسة تاريخية انثروبولوجية مجلة الجمعية الجغرافية . العدد ٦ ، القاهرة عام ١٩٧٣ .

ـ سلاطين باشا : السيف والنار فى السودان . تعريب جريدة البلاغ . مطبعة البلاغ . القاهرة ١٩٣٠ .

ـ سليجمان ، س ، ج : السلالات البشرية فى افريقيا . ترجمة يوسف خليل ، مراجعة الدكتور محمد محمود الصياد مكتبة العالم العربى بالفجالة القاهرة ١٩٥٩ .

ـ السيد يوسف نصر (دكتور) : جهود مصر الكشفية فى افريقيا فى القرن التاسع عشر . الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٩ .

ـ الشاطر بصيلى عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادى النيل من القرن العاشر الى القرن التاسع عشر الميلادى . الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٥ .

ـ الشاطر بصيلى : تاريخ المواصلات فى سودان وادى النيل القسم الأول حتى عام ١٩٠٦ عطبرة ١٩٥٠ .

ـ شوقى الجمل (دكتور) : تاريخ سودان وادى النيل ، حضارته وعلاقته بمصر منذ أقدم العصور الى الوقت الحاضر الجزء الأول ، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٦٩ .

ـ شوقى الجمل (دكتور) : تاريخ سودان وادى النيل ، حضارته وعلاقته بمصر منذ أقدم العصور الى الوقت الحاضر . الجزء الثانى ، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٦١ .

ـ شوقى الجمل (دكتور) : سياسة مصر فى البحر الأحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٧٤ .

— شوقى الجمل (دكتور) : سياسة مصر واستراتيجيتها فى البحر الأحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . دراسة بكتاب البحر الأحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ، القاهرة ١٩٨٠ .

— صلاح الدين الشامى (دكتور) : المواصلات والتطور الاقتصادى فى السودان مؤسسة المطبوعات الحديثة ، القاهرة ١٩٥٩ .

— صلاح الدين الشامى (دكتور) : الموانى السودانية . دراسة فى الجغرافيا التاريخية القاهرة ١٩٦١ .

— عبده بدوى (دكتور) : الشعر فى السودان . عالم المعرفة — الكويت ١٩٨١ .

— عبد الحليم محمود (دكتور) : المدرسة الشاذلية الحديثة وامامها ابو الحسن الشاذلى . القاهرة ١٣٨٧ هـ .

— عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على — الطبعة الثانية — مكتبة النهضة المصرية — القاهرة ١٩٥١ .

— عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل . الجزء الأول . الطبعة الثانية — مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٨ .

— عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ، الجزء الثانى . الطبعة الثانية — مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٨ .

— عبد الرحمن الوكيل : هذه هى الصوفية . الطبعة الرابعة . القاهرة ١٩٧٧ .

هذه هى الصوفية . الطبعة الرابعة . القاهرة ١٩٧٧ .

— عبد العزيز امين عبد المجيد (دكتور) : التربية فى السودان (ثلاثة اجزاء) القاهرة ١٩٤٩ .

— عبد العزيز سليمان نوار (دكتور) : تاريخ العرب الحديث — الجزء الأول — العراق ، القاهرة ١٩٧٩ .

— عبد القادر محمود (دكتور) : الفكر الصوفى فى السودان . مصادره وتياراته والوانه . دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٦٩ .

— عبد القادر محمود (دكتور) : الطوائف الصوفية فى السـودان . الطبعة الأولى . الخرطوم ١٩٧١ .

— عبد الله حسين : السـودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية (جزءان) ، القاهرة ١٩٣٥ .

— عبد المجيد عابدين (دكتور) : تاريخ الثقافة العربية فى السودان منـذ نشـأتها الى العصر الحـديث . الدين . الاجتمـاع . الأدب . دار الثقـافة ، بـيروت ١٩٦٧ .

— عبد المجيد عابدين (دكتور) : قبائل من السودان الأوسط والسودان الغـربى الدار السـودانية للكتب ، الخـرطوم ١٩٧٢ .

— على ابراهيم عبده (دكتور) : مصر وافريقيا فى العصر الحديث — الطبعة الأولى — دار القلم — القاهرة ١٩٦٢ .

— على الجريتلى (دكتور) : تاريخ الصـناعة فى مصر فى النصـف الأولى من القرن التاسع عشر — دار المعارف — القاهرة ١٩٥١ .

— على مبـارك : الخطط التوفيقية الجـديدة ، ج ١٧ ، دار الكتب القومية — القاهرة ، ١٩٦٩ .

— عمر طوسون ، الأمير : تاريخ مديرية خط الاسـتواء المصرية من فتحها الى ضياعها من سنة ١٨٦٩ الى ١٨٩٨ . الجزء الثانى . الاسكندرية ١٩٣٧ .

— كلوت بك : لمحة عامة الى مصر . الجزء الأول ، مطبعة أبى الهول — القاهرة (بدون تاريخ) .

— محمد ابراهيم أبو سليم (دكتور) : الفور والأرض . وثائق تمليك . معهد الدراسات الافريقية والآسيوية ، الخرطوم ١٩٧٥ .

— محمد أحمد الجابرى : فى شأن الله أو تاريخ السودان كما يرويه أهله . دار الفكر العربى . القاهرة ١٩٤٨ .

— محمد صبرى (دكتور) : مصرف أفريقيا الشرقية . هرر . زيلع . بربره . مطبعة مصر ومكتبتها . القاهرة ١٩٣٦ .

— محمد صبرى (دكتور) : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر . مطبعة مصر ومكتبتها . القاهرة ١٩٤٩ .

— محمد ضيف الله (ود ضيف الله) : مقدمة كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان . نشر وتحقيق ابراهيم صديق الخرطوم ١٩٢٩ .

— محمد عمر بشير : جنوب السودان . دراسة لأسباب النزاع ترجمة أسعد حليم . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧١ .

— محمد عوض محمد (دكتور) : السودان الشمالى سكانه وقبائله . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥١ .

— محمد عوض محمد (دكتور) : الشعوب والسلالات الافريقية . سلسلة دراسات أفريقية . الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٥ .

— محمد عوض محمد (دكتور) : السودان ووادى النيل . دراسات فى تكوين وادى النيل ومكان السودان وسكانه من حوض هذا النهر . القاهرة ١٩٥١ .

— محمد فؤاد شكرى (دكتور) : الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ — ١٨٨٥ دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٤٧ .

— محمد فؤاد شكرى (دكتور) وآخرون : بناء دولة . مصر محمد على (السياسة الداخلية) دار الفكر العربى . القاهرة ١٩٤٨ .

— محمد فؤاد شكرى (دكتور) : مصر والسودان تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ١٨٢٠ — ١٨٩٩ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٧ .

— محمد فؤاد شكرى (دكتور) : رحلة محمد على الى السودان . مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة العدد ٨ ، ١٩٤٦ .

— محمد محمود الصياد (دكتور) : الناس فى افريقية . الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٦٥ .

— محمد محمود الصياد (دكتور) وآخر : السودان . دراسة فى الوضع الطبيعى والكيان البشرى والبناء الاقتصادى . مكتبة الانجلو المصرية . القاهرة ١٩٦٦ .

— مصطفى فهمى وآخران : فى جنوب السودان . دراسات اجتماعية ونفسية تربوية دار مصر للطباعة . القاهرة (بدون تاريخ) .

— مصطفى مسعد (دكتور) وآخران : سلطنة دارفور : تاريخها وبعض مظاهر حضارتها . مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . المجلد ١١ عام ١٩٦٣ .

— مكى شبيكة (دكتور) : السودان فى قرن ١٨١٨ — ١٩١٩ . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة — ١٩٤٧ .

— مكى شبيكه (دكتور) : السودان عبر القرون . دار الثقافة . بيروت ١٩٦٤ .

— مورهيد ، آلان : النيل الأبيض . ترجمة محمد بدر الدين خليل . دار المعارف القاهرة ١٩٦٥ .

— مورهيد ، آلان : النيل الأزرق . ترجمة نظمى لوقا . دار المعارف القاهرة ١٩٦٦ .

— نسيم مقار (دكتور) : جهود مصر فى الكشف الجغرافى البيكباشى سليم قبطان والكشف عن منابع النيل . الطبعة الأولى القاهرة ١٩٦٠ .

— نسيم مقار (دكتور) : الرحالة جون بتريك . مطبعة لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٩٦١ .

— نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته مطبعة المعارف القاهرة (بدون تاريخ) .

— نكولز ، و : الشايقية (ترجمة عبد المجيد عابدين) معهد البحوث والدراسات الافريقية . القاهرة (بدون تاريخ) .

— هولت ، ب . م . : المهدية فى السودان . ترجمة جميل عبيد
دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٧٨ .

— يوسف فضل (دكتور) : مقدمة فى تاريخ الممالك الاسلامية فى
السودان الشرقى (١٤٥٠ — ١٨٢١) معهد
البحوث والدراسات العربية . القاهرة ١٩٧١ .

— يوسف فضل (دكتور) : الشلوخ ، اصلها ووظيفتها فى سودان
وادى النيل الأوسط . دار جامعة الخرطوم
للنشر ، الخرطوم ١٩٧٦ .

— يونان لبيب رزق (دكتور) : تفكك الامبراطورية المصرية فى افريقيا
(دراسة بكتاب : العلاقات العربية الافريقية .
دراسة تاريخية للاثار السلبية للاستعمار ،
معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة
١٩٧٧ .

— يونان لبيب رزق (دكتور) وآخرون : مشكلة جنوب السودان .
مركز بحوث الشرق الأوسط جامعة عين شمس
القاهرة ١٩٨١ .

خامسا : كتب ودراسات بلغات أوربية حديثة :

— Abbate : De l' afrique central ou Voyage De S. A. Mohammed Said - Pasha dans ses provinces Du Soudan. (Paris, 1858).

— Arkill, A. J. : Fung Origins, S. N. R. Vol. XV, 1932.

— Baker, Sir Samuel : The Nile Tributaries of Abyssinia (London, 1857).

— Bell : Shiabun Gold. S. N. R. Vo.. 20, 1937.

— Bloss, J. F. : The History of Suakin S. N. R. Vo.. XX, Part II, 19370.

— Budge E. A. Wallas : The Egyptian Sudan, Its History and Monuments. Vol. I (London, 1951).

— Cailliauld, F. : Voyage a Méroé, au Fleuve Blanc, au della de Fazogl dans Le Midi du Royaume de Sennar, à Syouah et dans cinq autres Oasis 1819 - 1822, Tome II, III (Paris, 1826).

— Clark, W. T.; : Manners, customs and beliefs of the Northern Bega. Vol. XXI. part I, 1938.

— Combes, Edward : Voyage en egypte et Nubie dans les deserts et Beyouda, Des Bicharys et Sur les cotés et la Mere Rouge. (Paris, 1846).

— Crabités, Pierre : Gordon. The Sudan and Slavery. (London, 1933).

— Crawford, O. G. S. : The Fung Kingdom. (London, 1951).

— Deherain, Henri : Le Soudan Egyptien Sous Mehemet Ali. (Paris, 1898).

— Douin, G. : Histoire du Soudan Egyptien 1820 - 1822. Tome. I. (Le Caire, 1944).

— Douin, G. : Histoire Du Regne Du Khedive Ismail. L'Empire Africane, 3 E partie (1874-1876) Fasciale A. Tome III. Le Caire. Imprimerie De L' institute Francaise Orientale, 1941.

— Driault, Edward : La Formation De l' Empire De Mohamed 'Aly, De l' arabie au Soudan Correspondence De Consuls De France en Egypt. L'imprimé par l' imprimerie De l' institute Francaise D' archeolgie Orientale Du Caire Pour la Société Royal De Geographie D' Egypt. MCCCXXVII, S. R. G. E., 1927.

— English, G. B. : A Narrative of the Expedition to Dongola and Sennar under the Command of his Excellence Ismail Pasha, (London, 1822).

— Gessi, Romolo : Seven years in the Soudan. (London, 1892).

— Hamilton, J. A. dec. : The Anglo Egyptian Sudan from within (London, 1935).

— Hill, Richard : A biographical Dictionary of the Anglo Egyptian Sudan. (Oxford, 1951).

— Hill, Richard : Egypt in the Sudan. 1820 - 1881 (Oxford University Press, 1959).

— Holt, P. M. : A Modern History of the Sudan from the Fung Sultnate to the present Day. (London, 1957).

— Hoskins : Travels in Ethiopia above the second cataract of the Nile. (London, 1835).

— Mac Michael. O.S.O. : A History of the Arabs in the Sudan. Vol. I (Cambridge, 1922).

— Mekki Abbas : The Sudan Question. (London, 1952).

— Numerous Authors : Agriculture in the Sudan. (Oxford University Press, 1948).

— Packler Muskau : Egypt under Mehemet Ali, Vol. II. (London, 1845).

— Pallme, I. : Travels in Kordofan. (London, 1844).

— Petherick, J. : Egypt, the Soudan and Central Africa, with exploration from Khartoum on the White Nile to the regions of the Equator. (London. 1861).

— Poncet, M. D. : A Voyage to Ethiopia (1698 - 1700) (London, 1709).

— Reid : Some notes on the tribes of the White Nile Province. S.N.R. Vol. XIII, 1937.

— Sabry, M. : L' Empire Egyptien Sous Ismail. (Paris, 1933).

— Santandrea, S. : Little Known Tribes of the Bahr El Ghazal. S.N.R. Vol. XXIX, 1948. Part II.

— Shukry. M. F. : Khedive Ismail and the Slavery in the Sudan (Cairo, 1938).

— Smith, Hempston : The New Africa. (London, 1961).

— Taylor, B. : A Journey to the Central Africa (New York, 1884).

— Terence Walz : Trade between Egypt and Bilad As - Soudan. 1700 - 1820. Institute Francaise D' Archeolgie Orientale Du Caire, 1978.

— Trimingham, J. S. : Islam in Ethiopia. (Oxford University Press, 1952).

— Walkely, C. F. J. : The Story of the Khartoum. S.N.R. Vol. XVIII, 1935.

— Wailis, O. B. E.; : Religious Confraternities of the Sudan (S.N.R.), 1921.

— Werne, F. : Expedition to discover the sources of the white Nile in the years 1840 - 1841. Vol. II. (London, 1849).

— Werne, F. : African Wanderings or an Expedition from Sennar to Taka, Basa, Bani Amer, with particular glance at the races of Belad Sudan. tr. by J. R. Johnston. (London, 1852).

— Zenkovsky : Zar and Tumbura. S.N.R., Vol. XXXI, Part I., 1950, (Paper read before the Philosophical Society of the Sudan).

الرسائل العلمية :

- احمد احمد سيد احمد : تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصرى ١٨٢٠ — ١٨٨٥ — رسالة دكتوراه (غير منشورة) جامعة القاهرة ، ١٩٦٣ .

- ابو كروق ، الناصر عبد الله : تاريخ مدينة كسلا ١٨٨٣ — ١٨٩٧ . رسالة ماجستير (غير منشورة) كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٦ .

- أنتونى سوريال : جهود مصر الثقافية فى السودان ١٨٢٠ — ١٨٧٩ . رسالة ماجستير (غير منشورة) معهد البحوث والدراسات الافريقية . جامعة القاهرة .

- حمدنا الله مصطفى حسن : الجيش المصرى ودوره فى الادارة المصرية بالسودان ١٨٢٠ — ١٨٤٨ ، رسالة ماجستير (غير منشورة) كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٨٠ .

- عبد العليم خلاف : جهود مصر الكشفية فى افريقيا فى عهد الخديوى اسماعيل . ١٨٦٣ — ١٨٧٩ رسالة ماجستير (غير منشورة) كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٨١ .

- مصطفى بسيونى ابو شعيشع : تاريخ الزراعة فى السودان منذ عام ١٨٢١ حتى يناير ١٨٦٣ م . رسالة دكتوراه (غير منشورة) معهد البحوث والدراسات الافريقية . جامعة القاهرة .

- محمد الأمين سعيد : سياسة محمد على فى السودان ١٨٢٠ — ١٨٤٩ رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعة القاهرة ١٩٥٧ .

- نسيم مقار : احوال السودان الاقتصادية قبيل الفتح المصرى الأول ١٨٢٠ — ١٨٢١ رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعة القاهرة ١٩٥٧ .

— نسيم مقار : احوال السودان الاقتصادية فى الفترة من عام ١٨٢١ — ١٨٤٨ ، رسالة دكتوراه (غير منشورة) ، جامعة عين شمس ، ١٩٥٨ / ١٩٥٩ .

— يحى محمد ابراهيم : التعليم الدينى فى السودان . رسالة ماجستير (غير منشورة) كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٧٨ .

رقم الايداع ٤٨١٢ لسنة ١٩٨٥

